الكِفايـة

في التَّفسيرِ بالمأثورِ والدِّراية

تأليف الفقير إلى رحمة ربه
عبدالله خضر حمد
باحث عراقي

الجزء الرابع

سورة البقرة، الآية[١٢١-١٦٦]

منشور إلكترونياً
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

حقوق النسخ والطبع والنشر مسموح بها لكل مسلم

ملاحظة:

إلى الذين يرغبون بطبع التفسير من دور النشر والجهات الخيرية، يرجى مراسلة المؤلف -لطفا وتكرما- على البريد الالكتروني الآتي، وذلك لإرسال التفسير بأحدث نسخة إن شاء الله، وفقنا الله تعالى وإيَّاكم لما يرضيه برحمته، آمين.

abdulla.khdhir@gmail.com

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

القرآن

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)} [البقرة : ١٢١]

التفسير:

الذين أعطيناهم الكتاب من اليهود والنصارى، يقرؤونه القراءة الصحيحة، ويتبعونه حق الاتباع، ويؤمنون بما جاء فيه من الإيمان برسل الله، ومنهم خاتمهم نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يحرفون ولا يبدِّلون ما جاء فيه. هؤلاء هم الذين يؤمنون بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزل عليه، وأما الذين بدَّلوا بعض الكتاب وكتموا بعضه، فهؤلاء كفار بنبي الله محمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزل عليه، ومن يكفر به فأولئك هم أشد الناس خسرانًا عند الله.

اختلف في سبب نزول الآية على أقوال[١]:

أحدها: قال ابن عباس في رواية عطاء والكلبي: "نزلت في أصحاب السفينة الذين أقبلوا مع جعفر ابن أبي طالب من أرض الحبشة كانوا أربعين رجلا من الحبشة وأهل الشام"[٢].

الثاني: وقال الضحاك[٣] وابن زيد[٤]: "نزلت فيمن آمن من اليهود"[٥].

الثالث: وقال قتادة[٦] وعكرمة[٧]: "نزلت في أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم -"[٨].

قوله تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}[البقرة:١٢١]، "أي أعطيناهم الكتاب "[٩].

قال صاحب الكشاف: " هم المؤمنون من أهل الكتاب"[١٠].

قال أبو السعود:" هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه"[١١].

قال الطبري:أي" الذين آتيناهم الكتاب ، يا محمد من أهل التوراة الذين آمنوا بك وبما جئتهم به من الحق من عندي"[١٢].

واختلف في الذين عناهم الله تعالى بقوله {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}[البقرة:١٢١]، على قولين[١٣]:

أحدهما : أنهم المؤمنون برسول الله-صلى الله عليه وسلم-، والكتاب هو القرآن ، وهذا قول قتادة[١٤].

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي: ٤٠، والعجاب: ٣٧٣/١-٣٧٤.

(٢) أسباب النزول للواحدي:٤٠.

(٣)انظر: أسباب النزول للواحدي:٤٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري(١٨٧٩):ص٥٦٤/٢.

(٥) أسباب النزول للواحدي:٤٠.

(٦) انظر: تفسير الطبري(١٨٧٨):ص٥٦٤/٢، وابن أبي حاتم(١١٦١):ص٢١٨/١.

(٧)أسباب النزول للواحدي:٤٠.

(٨) أسباب النزول للواحدي:٤٠.

(٩) تفسير ابن عثيمين:٣٥/٢.

(١٠) تفسير الكشاف: ١٨٣/١. [بتصرف بسيط].

(١١) تفسير أبي السعود: ١٥٣/١.

(١٢) تفسير الطبري: ٥٧٠/٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٥٦٤/٢-٥٦٥، وتفسير ابن كثير: ٤٠٣/١.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٨٧٨):ص٥٦٤/٢.

والثاني : أنهم علماء اليهود ، والكتاب هو التوراة ، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد[١]
والقول الثاني أولى بالصواب، واختاره الإمام الطبري، وذلك، "لأن الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين ، وتبديل من بدل منهم كتاب الله ، وتأولهم إياه على غير تأويله ، وادعائهم على الله الأباطيل. ولم يجر لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الآية التي قبلها ذكر"[٢].
قوله تعالى: {يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ }[البقرة:١٢١]، "أي: يقرءونه قراءة حقة كما أنزل"[٣].
قال عبدالله ابن مسعود: "والذي نفسي بيده ، إن حق تلاوته : أن يحل حلاله ويحرم حرامه ، ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله"[٤].
وقال ابن عباس: "يتبعونه حق اتباعه ، ثم قرأ:{ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا } [الشمس : ٢]"، يقول : اتَّبَعَها"[٥].
قال ابن عطية: أي:" يتبعونه حق اتباعه بامتثال الأمر والنهي"[٦].
قال الزمخشري: أي" لا يحرفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم"[٧].
قال الطبري:أي: " يتبعون كتابي الذي أنزلته على رسولي موسى صلوات الله عليه ، فيؤمنون به ويقرون بما فيه من نعتك وصفتك ، وأنك رسولي...ولا يحرفونه عن مواضعه ولا يبدلونه ولا يغيرونه - كما أنزلته عليهم - بتأويل ولا غيره"[٨].
قال أبو السعود: وذلك:" بمراعاة لفظه عن التحريف وبالتدبر في معانيه، والعمل بما فيه"[٩].
قال الآلوسي:" أي يقرؤونه حق قراءته وهي قراءة تأخذ بمجامع القلب فيراعى فيها ضبط اللفظ والتأمل في المعنى وحق الأمر والنهي"[١٠].
وفي تفسير قوله تعالى: {يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ }[البقرة:١٢١]، أقوال:
أحدها : يقرؤونه حق قراءة[١١].
والثاني : يتبعونه حق اتباعه ، فيحللون حلاله ، ويحرمون حرامه، وهذا قول ابن عباس[١٢]، وعكرمة[١٣]، والسدي[١٤]، وعبدالله بن مسعود[١٥]، وعطاء[١٦]، وأبي رزين[١]، ومجاهد[٢]، وقيس بن سعد[٣]، والحسن[٤]، وإبراهيم النخعي[٥]، وهو قول الجمهور.

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٨٧٩):ص٥٦٥/٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٥٦٤/٢-٥٦٥.
(٣) صفوة التفاسير: ٨١/١.
(٤) أخرجه الطبري:(١٨٨٦):ص ٥٦٦/٢.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٥٩):ص٢١٨/١، وانظر: تفسير ابن كثير: ٤٠٣/١.
(٦) المحرر الوجيز:٢٠٤/١.
(٧) تفسير الكشاف: ١٨٣/١.
(٨) تفسير الطبري: ٥٧٠/٢.
(٩) تفسير أبي السعود:١٥٣/١.
(١٠) روح المعاني:٣٧٠/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري:٥٦٩/٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٨٨٠)، و(١٨٨٣):ص٥٦٦/٢، وابن ابي حاتم(١١٥٧)، و(١١٥٩):ص٢١٨/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٨٨١):ص٥٦٦/٢.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٨٨٤):ص٥٦٦/٢.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٨٨٥)، و(١٨٨٦)، و(١٨٨٧):ص٥٦٦/٢-٥٦٧.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(١٨٨٩)، و(١٩٠٠):ص٥٦٧/٢، ٥٦٨.

الثالث: أن المراد: "إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة ، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار". قاله عمر بن الخطاب(٦).
الرابع: أن المعنى: "يعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، يَكِلُونَ ما أشكل عليهم إلى عالمه. قاله حسن البصري(٧).
والصواب أن المعنى: يتبعونه حق اتباعه، لإجماع الحجة من أهل العلم على أن ذلك تفسيره. والله أعلم.
والتلاوة يراد بها ثلاث أمور(٨):
أحدها: التلاوة اللفظية ، بأن يقيم الإنسان حروف الكتاب الذي أنزل.
والثاني: التلاوة المعنوية ، بأن يقيم معناه ، أي معنى الكتاب الذي أنزل ، وذلك بأن يفسره بما أراد الله لا بهوى نفسه.
والثالث: التلاوة الحكمية العملية ، بأن يؤمن بأخباره ، ويقوم بأوامره ، ويجتنب نواهيه.
قوله تعالى: {أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}[البقرة:١٢١]، "أي فأولئك هم المؤمنون حقاً دون المعاندين المحرفين لكلام الله"(٩).
قال ابن كثير:"أي : من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد"(١٠).
قال أبو السعود: أي أولئك يؤمنون "بكتابهم دون المحرفين، فإنهم بمعزل من الإيمان به فإنه لا يجامع الكفر ببعض منه"(١١).
وقوله تعالى:{أُولَئِكَ}، فيه "إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب وتلاوته كما هو حقه، وما فيه من معنى البعد، للإيذان ببعد منزلتهم في الفضل"(١٢).
قوله تعالى:{وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ }[البقرة:١٢١]، "أي ومن كفر بالقرآن"(١٣).
قال أبو السعود:أي " بالتحريف والكفر بما يصدقه"(١٤).
قال الطبري:" والذي يكفر بالكتاب: بأن يجحد ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتصديقه ، ويبدله فيحرف تأويله"(١٥).

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٨٩٠)، و(١٨٩١):ص٥٦٧/٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٨٩٢)، و(١٨٩٤)، و(١٨٩٥)، و(١٨٩٦)، و(١٨٩٧)، و(١٨٩٨)، و(١٨٩٩):ص٥٦٧/٢-٥٦٨.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٨٩٣):ص٥٦٨/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٩٠١):ص٥٦٩/٢، وابن أبي حاتم(١١٥٨):ص٢١٨/١.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢١٨/١.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم (١١٦٠):ص٢١٨/١.
(٧) تفسير ابن كثير: ٤٠٣/١.
(٨) انظر: تفسير ابن عثيمين:٣٥/٢.
(٩) صفوة التفاسير: ٨١/١.
(١٠) تفسير ابن كثير: ٤٠٤/١.
(١١) تفسير أبي السعود:١٥٣/١.
(١٢) تفسير أبي السعود:١٥٣/١.
(١٣) صفوة التفاسير:٨١/١.
(١٤) تفسير أبي السعود:١٥٣/١.
(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٥٧٢/٢.

قال الآلوسي:" أي: بالكتاب، بسبب التحريف والكفر بما يصدقه"[١].

قوله تعالى:{فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[البقرة:١٢١]، "أي فألئك هم الخاسرون لا غيرهم"[٢].

قال الزمخشري:"حيث اشتروا الضلالة بالهدى"[٣].

قال أبو السعود:" حيث اشتروا الكفر بالإيمان"[٤].

قال الصابوني: أي: "فقد خسر دنياه وآخرته"[٥].

قال الطبري:أي " أولئك هم الذين خسروا علمهم وعملهم ، فبخسوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله ، واستبدلوا بها سخط الله وغضبه[٦].

قال الآلوسي: هم الخاسرون" من جهة أنهم اشتروا الكفر بالإيمان، وقيل: بتجارتهم التي كانوا يعملونها بأخذ الرشا على التحريف"[٧].

قال ابن عطية:" والخسران نقصان الحظ"[٨].

قال ابن عثيمين: وأصل (الخسران) النقص؛ ولهذا يقال: ربح؛ ويقال في مقابله: خسر؛ فهؤلاء هم الذي حصل عليهم النقص لا غيرهم؛ لأنهم مهما أوتوا من الدنيا فإنها زائلة، وفانية، فلا تنفعهم[٩].

وفي الصحيح: "والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي ، إلا دخل النار"[١٠].

الفوائد:

١- الثناء على من آتاه الله الكتاب فتلاه حق تلاوته .

٢- أن من لم يقم حروف الكتاب ، فإنه لم يؤمن به حق الإيمان ، لأنه لم يتله حق تلاوته .

٣- أن التلاوة تنقسم إلى قسمين :

تلاوة تامة : وهي أن يكون الإنسان تالياً للفظه، ولمعناه عاملاً بأحكامه مصدقاً بأخباره؛ فمن استكبر أو جحد فإنه لم يتله حق تلاوته.

وتلاوة ناقصة : وهي ما دون ذلك .

٤- أن من لم يقم بالعمل الصالح الذي دل عليه الكتاب ؛ فإنه لم يتله حق تلاوته ، فيكون ناقص الإيمان .

٥- الثناء على التالين لكتاب الله حق تلاوته ، لقوله تعالى : (أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ).

٦- أن الكافر بالكتاب الذي أنزله الله على رسله ، خاسر في الدنيا والآخرة، فالكافر بالقرآن مهما أصاب من الدنيا فهو خاسر؛ لقوله تعالى: { ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون }؛ يكون خاسراً،

---

(١) روح المعاني:٣٧١/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين: ١٥/٢.
(٣) تفسير الكشاف: ١٨٣/١.
(٤) تفسير أبي السعود:١٥٣/١.
(٥) صفوة التفاسير:٨١/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٥٧٢/٢.
(٧) روح المعاني:٣٧١/١.
(٨) المحرر الوجيز:٢٠٥/١.
(٩) تفسير ابن عثيمين: ١٥/٢.
(١٠)صحيح مسلم برقم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولو نال من الدنيا من أموال، وبنين، ومراكب فخمة، وقصور مشيدة؛ لأن هذه كلها سوف تذهب، وتزول؛ أو هو يزول عنها، ولا تنفعه؛ واذكر قصة قارون، واتل قول الله تعالى: {قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين} [الزمر: ١٥] ؛ فإذاً يصدق عليهم أنهم هم الخاسرون، كما في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله} [المنافقون: ٩] ؛ ولما كان الذي يتلهى بذلك عن ذكر الله يظن أنه يربح قال تعالى: { ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون } [المنافقون: ٩] يعني: ولو ربحوا في دنياهم.

٧- قال ابن القيم في الفوائد : "إذا أردت الانتفاع بالقرآن ، فأجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به سبحانه منه إليه ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله"(١).

٨- ومن فوائد الآية: علوّ مرتبة من يتلون الكتاب حق تلاوته؛ للإشارة إليهم بلفظ البعيد: { أولئك يؤمنون به}.

القرآن

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢)} [البقرة : ١٢٢]

التفسير:

يا ذرية يعقوب اذكروا نعمي الكثيرة عليكم، وأني فَضَّلتكم على عالَمي زمانكم بكثرة أنبيائكم، وما أُنزل عليهم من الكتب.

قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}[البقرة:١٢٢]، "أي يا أولاد إسرائيل"(٢).

قال البغوي: " يا أولاد يعقوب"(٣).

والأصل في {بني}، أن تكون للذكور، لكن إذا كانت لقبيلة، أو لأمة شملت الذكور، والإناث، كقوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ} [الأعراف : ٢٦]" (٤).

وقوله{إِسْرَائِيلَ}، يقصد به: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام إذ كان يدعى (إسرائيل) (٥).

وذكر أهل التفسير في اشتقاق كلمة(إِسْرَائِيلَ)، وجوها(٦):

أحدها: أنه مركب من (إسرا) وهو العبد في اللغة العبرانية، و (إيل) اسم من أسماء الله تعالى، فكأنه عبد الله.

والثاني: أن معنى (إسرا) صفوة، و(إيل) الله تعالى، ومعناه صفوة الله.

وفيه وجوه أخرى ذكرها أبو حيان في البحر، وقال بعدها: "وهذه أقاويل ضعاف"(٧).

---

(١) الفوائد لابن القيم:١.
(٢) تفسير ابن عثيمين:١٤٢/١.
(٣) تفسير البغوي: ٨٦/١.
(٤) تفسير ابن عثيمين:١٤٢/١.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ٥٥٣/١. وتنفسير القرطبي: ٣٣٠/١، والمحرر الوجيز:١٨٥/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٥٥٣/١. وتنفسير القرطبي: ٣٣٠/١، والمحرر الوجيز:١٨٥/١، وتفسير الثعلبي:١/ ١٨٥، والتعريف والأعلام للسهيلي: ٢٠.
(٧) البحر المحيط: ١٤٤/١.

قال الواحدي: "والأصح عند أهل اللغة: أنه أعجمي لا اشتقاق له"(١).
أخرج الطبري عن ابن عباس، " أن إسرائيل كقولك : عبد الله"(٢).
وأخرج أيضا بسنده "عن عبد الله بن الحارث ، قال : (إيل)، الله بالعبرانية"(٣).
واختلفت القراءة في قوله تعالى{إِسْرائِيلَ}[البقرة:١٢٢]، على وجوه(٤):
أحدها: {إسراييل}، بقلب الهمزة ياء. روي عن نافع والحسن والزهري وابن أبي إسحاق.
والثاني: {إسرائل}، بحذف الياء.
والثالث: { إسرال}، بحذف الهمزة والياء.
وقال ابن عباس: "حضرت عصابة من اليهود نبي الله- صلى الله عليه وسلم، فقال لهم: هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟ فقالوا: اللهم نعم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: أشهد عليهم"(٥).
واختلف في المخاطب في قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}[البقرة:١٢٢]، على وجهين(٦):
أحدهما: أن المخاطب من بني إسرائيل بهذا الخطاب هم المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم، لأن الكافر لا نعمة لله عليه.قاله مكي(٧).
وعلى هذا القول، يستقيم الضمير في {عَلَيْكُمْ}، ويجيء كل ما توالى من الأوامر على جهة الاستدامة.
والثاني: أن الخطاب لجميع بني إسرائيل في مدة النبي عليه السلام، مؤمنهم وكافرهم، والضمير في {عَلَيْكُمْ}، يراد به على آبائكم كما تقول العرب ألم نهزمكم يوم كذا لوقعة كانت بين الآباء والأجداد. وهو قول ابن عباس(٨)، وجمهور العلماء(٩)، ومنه قول الفرزدق(١٠):
وَبَيْتَانِ: بَيْتُ اللهِ نَحْنُ وُلاَتُهُ وَبَيْتٌ بأعْلَى إيلِيَاءَ مُشَرَّفُ
يريد أن آباءه في القديم كانوا يلونهما، لا أنه كان يليه.
وقال آخر(١١):
إذا افْتَخَرَتْ يَوْمًا تَمِيمٌ بِقَوْسِهَا فَخَارًا عَلَى مَا أَطَّدَتْ مِنْ مَنَاقِبِ
فَأَنْتُم بِذِي قَارٍ أَمَالَتْ سُيُوفُكُم عُرُوشَ الذِينَ اسْتَرْهَنُوا قَوْسَ حَاجِبِ
أراد آباؤكم فعلوا ذلك، لأن المخاطبين بهذا البيت كانوا بعد ذي قار بدهر طويل(١٢).
قوله تعالى: {اذكروا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}[البقرة:١٢٢]، أي: "اذكروا ما أنعمت به عليكم وعلى آبائكم"(١).

---

(١) التفسير البسيط: ٤٦٢/٢.
(٢) تفسير الطبري(٧٩٨):ص٥٥٢/١.
(٣) تفسير الطبري(٧٩٩):ص٥٥٢/١.
(٤) المحرر الوجيز: ١٣٣/١، وتفسير البيضاوي: ٧٥/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٣٣):ص٩٤/١.
(٦) أنظر: المحرر الوجيز: ١٣٣/١.
(٧) نقلا عن: المحرر الوجيز: ١٣٣/١.
(٨) تفسير الطبري(٨٠٠):ص٥٥٥/١.
(٩) نقل قول الجمهور ابن عطية، أنظر: المحرر الوجيز: ١٣٣/١.
(١٠)البيت في "ديوان الفرزدق" ٢/ ٣٢، "معجم البلدان" ١/ ٢٩٣، وإيلياء: بيت المقدس.
(١١)البيتان لأبي تمام، وقوله: "ذي قار" يوم من أيام العرب، كان لهم على الفرس، وحاجب: هو ابن زرارة بن عدس، كان أرهن سيفه لكسرى، انظر: "ديوان أبي تمام مع شرحه" ١/ ١٠٩، "معجم البلدن" ٤/ ٢٩٤.
(١٢) أنظر: التفسير البسيط: ٤٢٦/٢-٤٢٧.

قال البيضاوي:" أي بالتفكر فيها والقيام بشكرها"[٢].
قال ابن عثيمين:" أي اذكروها بقلوبكم، واذكروها بألسنتكم، واذكروها بجوارحكم؛ وذلك؛ لأن الشكر يكون في الأمور الثلاثة: في القلب، واللسان، والجوارح"[٣].
وقال السعدي: "وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعترافا، وباللسان ثناء، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه"[٤].
قال البغوي:"أي: احفظوا نعمي التي أنعمتها على أجدادكم وأسلافكم، والذكر : يكون بالقلب ويكون باللسان وقيل : أراد به الشكر ، وذكر بلفظ الذكر لأن في الشكر ذكرا وفي الكفران نسيانا ، قال الحسن : "ذكر النعمة شكرها"[٥]"[٦].
وقال ابن عطية:" والذكر في كلام العرب على أنحاء، وهذا منها ذكر القلب الذي هو ضد النسيان"[٧].
وقوله تعالى:{نِعْمَتِيَ} أي :"نعمي ، لفظها واحد ومعناها جمع، كقوله تعالى {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل : ١٨]" [٨].
وتحركت (الياء) من {نِعْمَتِيَ}، لأنها لقيت الألف واللام، ويجوز تسكينها، وإذا سكنت حذفت للالتقاء[٩].
قال الفراء: "وأما نصب الياء من {نِعْمَتِيَ}، فإن كل ياء كانت من المتكلم ففيها لغتان: الإرسالُ والسكون، والفتح، فإذا لَقيتها ألفٌ ولام، اختارت العربُ اللغة التي حركت فيها الياء وكرهوا الأخرى لأن اللام ساكنة فتسقط الياء عندها لسكونها، فاستقبحوا أن يقولوا: (نعمتي التي)، فتكون كأنها مخفوضة على غير إضافة، فأخذوا بأوثق الوجهين وأبينهما"[١٠].
قال ابن عطية:"وفتحها أحسن، لزيادة حرف في كتاب الله تعالى"[١١].
وذكر أهل التفسر في (النعمة) التي أنعمها عليهم، قولين[١٢] :
أحدهما : عموم نِعَمِهِ الّتي أنعم بها على خلْقِهِ، كما قال تعالى:{وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا}[النحل : ١٨]. قاله ابن زيد[١٣].
والثاني : أنه أراد نِعَمَهُ عَلَى آبائهم ، إذ نجَّاهم من آل فرعون ، وجعل منهم الأنبياء ، وأنزل عليهم الكتب ، وفجَّر لهم الحَجَرَ ، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى ، والنعم على الآباء ، نعم على

---

(١) صفوة التفاسير: ٤٦/١.
(٢) تفسير البيضاوي: ٧٥/١,
(٣) تفسير ابن عثيمين: ١٤٣/١.
(٤) تفسير السعدي: ٥٠.
(٥) رواه ابن مبارك في الزهد(١٤٣٤):ص٥٠٣، ومن طريقه ابن أبي دنيا في(الشكر): (٣٣)، ومن طريقه البيهقي في الشعبي(٤٤٢١):ص١٠٢/٤، و(٤١٠٧):ص٣٦٥/٨، واللفظ فيها: "أكثروا ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر". وانظر: البغوي: في تفسيره: ٨٦/١، وأبو حيان: ٥٥/٤.
(٦) أنظر: تفسير البغوي: ٨٦/١.(بتصرف بسيط).
(٧) المحرر الوجيز: ١٣٣/١.
(٨) تفسير البغوي: ٨٦/١.
(٩) أنظر: المحرر الوجيز: ١٣٣/١.
(١٠) معاني القرآن: ٢٩/١.
(١١) المحرر الوجيز: ١٣٣/١.
(١٢) أنظر: النكت والعيون: ١١١/١.
(١٣) أنظر: تفسير الطبري(٨٠٤):ص٥٥٦/١.

الأبناء ، لأنهم يَشْرُفون بشرف آبائهم . وهو قول الحسن البصري[١]، وروي عن ابن عباس[٢] وأبي العالية[٣]، ومجاهد[٤]، نحو ذلك.

قوله تعالى:{ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ}[البقرة:١٢٢]،" أي وأعطيتكم الفضل والزيادة على غيركم من الشعوب"[٥].

قال الزمخشري:أي" على الجم الغفير من الناس"[٦].

قال الثعلبي:" يعني عالمي زمانكم"[٧].

قال قتادة:" فضلهم على عالم ذلك الزمان"[٨]. وروي عن مجاهد[٩]، وابن زيد[١٠] مثل ذلك.

قال أبو العالية:" بما أعطوا من الملك والرسل والكتب ، على عالم من كان في ذلك الزمان ، فإن لكل زمان عالما"[١١].

وقد تقدم تفسير هذه الآية في صدر السورة آية [٤٧] .

قال ابن كثير : "وكررت هنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعتَه واسمَه وأمره وأمته ، فحذرهم من كتمام هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم ، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم ، من النعم الدنيوية والدينية ، ولا يحسدوا بني عَمِّهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم. ولا يحملهم ذلك الحسدُ على مخالفته وتكذيبه ، والحيدة عن موافقته ، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين[١٢].

وقال الخازن : "كررها في أول السورة وهنا للتوكيد وتذكير النعم"[١٣].

وقال ابن عاشور: " أعيد نداء بني إسرائيل نداء التنبيه والإنذار والتذكير على طريقة التكرير في الغرض الذي سيق الكلام الماضي لأجله ، فإنه ابتدأ نداءهم أولاً بمثل هاته الموعظة في ابتداء التذكير بأحوالهم الكثيرة خيرها وشرها"[١٤].

قال الإمام الطبري: " وهذه الآية عظة من الله تعالى ذكره لليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتذكير منه لهم ما سلف من أياديه إليهم في صنعه بأوائلهم ، استعطافا منه لهم على دينه وتصديق رسوله محمد صلى الله عليه وسل"[١٥].

الفوائد:

---

(١) أنظر: النكت والعيون: ١١١/١.
(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٣٤):ص٩٥/١، وتفسير الطبري(٨٠٢):ص٥٥٥/١.
(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٣٥):ص٩٥/١، وتفسير الطبري(٨٠٣):ص٥٥٥/١-٥٥٦.
(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٣٦):ص٩٥/١، وتفسير الطبري(٨٠٣):ص٥٥٦/١.
(٥) تفسير المراغي: ١٠٤/١.
(٦) الكشاف: ١٣٥/١.
(٧) تفسير الثعلبي: ١٩٠/١.
(٨) أخرجه الطبري(٨٦٨):ص٢٤/٢.
(٩) أخرجه الطبري(٨٧٠):ص٢٤/٢.
(١٠) أخرجه الطبري(٨٧٢):ص٢٤/٢.
(١١) أخرجه الطبري(٨٦٩):ص٢٤/٢.
(١٢) تفسير ابن كثير: ٤٠٤/١-٤٠٥.
(١٣) تفسير الخازن: ٩٠/١.
(١٤) تفسير ابن عاشور: ٦٩٧/١-٦٩٨.
(١٥) تفسير الطبري: ٥٧٣/٢.

١- من فوائد الآية: أنه يجب على بني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم، فيقوموا بشكرها؛ ومن شكرها أن يتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم
٢- ومنها: إظهار أن هذه النعمة لم تأت بكسبهم، ولا بكدِّهم، ولا بإرث عن آبائهم؛ وإنما هي بنعمة الله عليهم؛ لقوله تعالى: {أنعمت عليكم}.
٣- ومنها: أن بني إسرائيل أفضل العالم في زمانهم؛ لقوله تعالى: { وأني فضلتكم على العالمين }؛ لأنهم في ذلك الوقت هم أهل الإيمان، وكانوا عباد الله الصالحين؛ أما حين ضربت عليهم الذلة، واللعنة، والصَّغار فإنهم ليسوا أفضل العالمين؛ بل منهم القردة، والخنازير؛ وهم أذل عباد الله لقوله تعالى: {ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله} [آل عمران: ١١٢] ، وقوله تعالى: {لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون} [الحشر: ١٤] .
٤- ومن فوائد الآية: أن الله تعالى إذا فضل أحداً بعلم، أو مال، أو جاه فإن ذلك من النعم العظيمة؛ لقوله تعالى: { وأني فضلتكم على العالمين }: خصها بالذكر لأهميتها.
٥- ومنها: تفاضل الناس، وأن الناس درجات؛ وهذا أمر معلوم . حتى الرسل يفضل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض} [البقرة: ٢٥٣] ، وقال تعالى: {ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض} [الإسراء: ٥٥] .

القرآن

{وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣)} [البقرة : ١٢٣]

التفسير:

وخافوا أهوال يوم الحساب إذ لا تغني نفس عن نفس شيئًا، ولا يقبل الله منها فدية تنجيها من العذاب، ولا تنفعها وساطة، ولا أحد ينصرها.

سبب النزول:

قال الزجاج: " كانت اليهود تزعم أن آباءَها الأنبياء تشفع لها عند الله فأيئَسُهم اللَّه من ذلك"(١).

قوله تعالى:{وَاتَّقُوا يَوْمًا}[البقرة:١٢٣]، أي: "اتخذوا وقاية من هذا اليوم بالاستعداد له بطاعة الله"(٢)، وهو يوم القيامة.

قال الثعلبي: " أي واحذروا يوما واخشوا يوما"(٣).

قال البغوي: أي:" واخشوا عقاب يوم"(٤).

قال الصابوني:" أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي"(٥).

قوله تعالى:{لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا}[البقرة:١٢٣]، "أي لا تغني نفس عن نفس شيئاً"(٦).

---

(١) معاني القرآن: ١٢٨/١، وانظر: العجاب: ٢٥٥/١-٢٥٦.
(٢) تفسير ابن عثيمين:١٧٢/١.
(٣) تفسير الثعلبي: ١٩٠/١.
(٤) تفسير البغوي: ٩٠/١.
(٥) صفوة التفاسير: ٤٨/١.
(٦) تفسير ابن عثيمين:٣٨/٢.

قال الصابوني: أي:" لا تقضي فيه نفسٌ عن أخرى شيئاً من الحقوق"[١].
قال أبو العالية:"يعني: لا تغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئا"[٢].
قال الطبري: أي"لا تقضي نفس عن نفس حقا لزمها لله جل ثناؤه ولا لغيره"[٣].
قال الثعلبي:" أي لا تقضي ولا تكفي ولا تغني"[٤].
قال ابن أبي زمنين:" أي : لا تغني"[٥].
قال الواحدي:" أي لا يقابل مكروهها بشيء يدرؤه عنها.و{ لا تجزي }،معناه: لا تقضي ولا يغني، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لأبي بردة بن نِيَار :"ولا تجزي عن أحد بعدك"[٦]، معناه: ولا تقضي"[٧].
قال القرطبي:"فمعنى لا تجزي: لا تقضي ولا تغني ولا تكفي إن لم يكن عليها شي فإن كان فإنها تجزي وتقضي وتغني بغير اختيارها من حسناتها ما عليها من الحقوق"[٨].
قال ابن عثيمين:" فليس تفضيل آبائكم على العالمين بمغنٍ عنكم شيئاً؛ لا تقولوا: لنا آباء مفضلون على العالمين، وسَنَسْلَم بهم من النار، أو من عذاب هذا اليوم"[٩].
و{ نفس}: نكرة في سياق النفي، فيكون عاماً؛ فلا تجزي، ولا تغني نفس عن نفس أبداً، حتى الرسول صلى الله عليه وسلم لا يغني شيئاً عن أبيه، ولا أمه[١٠]؛ وقد نادى صلى الله عليه وسلم

---

(١) صفوة التفاسير: ٤٨/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٩٩):ص١٠٤/١.
(٣) تفسير الطبري: ٣٢/٢.
(٤) تفسير الثعلبي: ١٩٠/١.
(٥) تفسير ابن أبي زمنين:١٧٥/١.
(٦)قطعة من حديث في قصة أبي بردة بن نِيَار، حينما ذبح قبل صلاة العيد، فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم أن يضحي بالجذعة المعزى. أخرجه البخاري في عدة مواضع، فأورده (٩٥٥) كتاب (العيدين) باب (الأكل يوم النحر). و (٩٦٥) باب (الخطبة بعد العيد)، و (٩٦٨) باب: (التبكير إلى العيد)، و (٩٨٣) باب (كلام الإمام والناس في خطبة العيد). و (٥٥٤٥) كتاب (الأضاحي) باب (سنة الأضحية)، و (٥٥٥٦) باب (قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بردة ضح بالجذع من المعز)، و (٥٥٦٠) باب (الذبح بعد الصلاة). و (٥٥٦٣) باب (من ذبح قبل صلاة وأعاد). أخرجه مسلم من عدة طرق (١٩٦١) كتاب الأضاحي، وأخرجه أبو داود (٢٨٠٠) كتاب: (الأضاحي) باب (ما يجوز من السن في الضحايا)، وأحمد في "مسنده" ٤/ ٢٨٢، ٢٩٨، ٣٠٣ كلهم عن البراء.
(٧) التفسير البسيط: ٤٦٧/٢-٤٦٨. وذكره أبو عبيد عن الأصمعي. "غريب الحديث" ١/ ٤٣، وانظر: "تهذيب اللغة" (جزى) ١/ ٦٠١.
(٨) تفسير القرطبي: ٣٧٨/١.
(٩) تفسير ابن عثيمين:٣٨/٢.
(١٠) قلت إن الكلام في والدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرع عن الكلام في حكم أهل الفترة ، والفترة معناها كما قال ابن كثير : "هي ما بين كل نبيين كانقطاع الرسالة بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم".[تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٥ ، وانظر : جمع الجوامع للسبكي ١ / ٦٣ وروح المعاني للآلوسي ٦ / ١٠٣].
وقد قسّمهم أهل العلم إلى قسمين: القسم الأول: من بلغته الدعوة ، والقسم الثاني: من لم تبلغه الدعوة وبقي على حين غفلة، ويشمل القسم الأول نوعين:
أولا: من بلغته الدعوة ووحّد ولم يشرك كقس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل. (انظر : البداية والنهاية ٢ / ٢٣٠ وفتح الباري ٧ / ١٤٧].

ثانيا: من بلغته الدعوة ولكنه غيّر وأشرك كعمرو بن لحي الذي غيّر دين إبراهيم ، والذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : " رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجرّ قصبه في النار ".[رواه البخاري (٣٥٢١) ومسلم (٢٨٥٦)].

وقد جاء النص عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن والديه في النار ، روى مسلم (٢٠٣) أن رجلاً قال : "يا رسول الله أين أبي ؟ قال : في النار ، فلما قضى دعاه فقال : إن أبي وأباك في النار".

وفي شأن أمه قال عليه الصلاة والسلام : "استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي ".[رواه مسلم (٩٧٦)].

يقول النووي رحمه الله – شارحاً الحديث الأول: " فيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار ، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة ، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم" .[شرح صحيح مسلم ٣ / ٧٩].

هذا وقد قال بعض أهل العلم منهم القرطبي، والحافظ جلال الدين السيوطي، القاضى أبو بكر ابن العربى أحد أئمة المالكية، والشيخ محمد بخيت، والدكتور محمد فؤاد شاكر، وآخرون، بأنهما ناجيان من النار.[أنظر: التذكرة للقرطبى ١٣-١٥، والدر المنثور للسيوطي: ٢٩٤/٢، ومسالك الحنفا ، ضمن الحاوى ، ١٣١/٢ ،وفتاوى الأزهر فى فتوى الشيخ محمد بخيت فى شأن أهل الفترة التى بتاريخ ربيع الأول ١٣٣٨ هجرية - ٢٥ نوفمبر ١٩١٩ م، ودراسات فى علوم القرآن والسنة لفضيلة الدكتور ص ١١٥- ١١٩].

وقد ذكر الإمام السيوطي في رسالته السادسة (السبل الجلية فى الآباء العلية) بقوله : "إنى لم أدع أن المسألة إجماعية، بل هى مسألة ذات خلاف، غير أنى اخترت أقوال القائلين بالنجاة، لأنها أنسب بهذا المقام"[السبل الجلية، ضمن مجموعة رسائل الإمام الحافظ جلال الدين السيوطى، فى تحقيق نجاة أبوى المصطفى صلى الله عليه وسلم وأنهم من أهل الجنة فى الآخرة، تحقيق: حسين مخلوف: ص ١٩٠].

واحتجوا من وجوه:

أحدها: أن المراد بالأب، عمه أبو طالب والعرب تطلق الأب على العم، وجاء بذلك الاستعمال كتاب الله العزيز في موضعين:

أحدهما: قطعي المتن قطعي الدلالة ، وهو قوله تعالى في البقرة:{ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ }[البقرة:١٣٣].

وإسماعيل عمه قطعاً ؛ فهو يعقوب بن سحاق بن إبراهيم.

والموضع الثاني: قطعي المتن لكنه ظني الدلالة ، وهو قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ }إلى أن قال { :وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً } [الأنعام:٨٤-٨٦].

فهو نص قرآني على أن إبراهيم يطلق عليه أبٌ للوط ، وهو عمه على ما وردت به الأخبار ، إلا أن هذا النص ظني الدلالة لأنه يحتمل أن يكون الضمير من قوله تعالى:{وَمِن ذُرِّيَّتِهِ } يرجع إلى نوح ، لأنه قال في الآية من قبل ذلك:{وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ} ، ولكنه احتمال مرجوح ؛ لأن الكلام عن إبراهيم.

وعلى هذا القول: فإنه يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم، لما سأله الأعرابي بقوله: أين أبي ؟ وقال له: إن أباك في النار وولّى والحزن باد عليه ، فقالصلى الله عليه وسلم:" ردوه علي " فلما رجع قال له: " إن أبي وأباك في النار".

يحتمل أنه يعني بأبيه: أبا طالب ؛ لأن العرب تسمي العم أبا لا سيما إذا انضمّ إلى العمومية التربية , والعطف والدفاع عنه.

وبذلك: إن التحقيق في أبوي رسول الله صلى الله عليه وسلم- أنهما من أهل الفترة ؛ لأن تعريف أهل الفترة أنهم القوم الذين لم يدركوا النذارة قبلهم , ولم تدركهم الرسالة التي من بعدهم .[من كتاب مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الجنكي الشنقيطي:ص٤٠].

والثاني: احتجوا بأقوال أنكرها عامة أهل العلم ، وحكموا بأن الأحاديث الواردة في ذلك موضوعة أو ضعيفة جداً .[انظر : الحاوي للفتاوى ٢ / ٢٠٢].

قلت: إن المسألة خلافية، وذلك لورود نصوص ظاهرها فيه شي من التعارض، كما أن هذه المسألة ليست من مسائل الاعتقاد ولا العمل، فلم ينشغل بها السلف، لكونها من فضول العلم، أريد أن أشير بأنه لا دليل ينص على أن كلمة (أبي)، تشير إلى والد الرسول(عبدالله) تحديدا، وذلك للاحتمالات المشار إليها، فالمسألة ظنية الدلالة،

عشيرته الأقربين؛ فجعل ينادي كل واحد باسمه، ويقول: "يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً؛ يا فاطمة بنت رسول الله، لا أغني عنك شيئاً.."(١)، مع أن العادة أن الإنسان يدافع عن حريمه، وعن نسائه؛ لكن في يوم القيامة ليست هناك مدافعة؛ بل قال الله تعالى: {فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} [المؤمنون: ١٠١] : تزول الأنساب"(١).
وكثير من الآيات القرآنية تؤكد المعنى السابق أي: في يوم القيامة لا يغني أحد عن أحد، كما قال : { وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الأنعام : ١٦٤] ، وقال : { لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } [عبس : ٣٧] ، وقال { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا } [لقمان : ٣٣] ، فهذه أبلغ المقامات : أن كلا من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئا(٢).

وقد ذكر أهل التفسير في تعالى:{لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئَاً}[البقرة:١٢٣]، وجوها(٣):

أحدها : معناه :لا تُغنِي ، كما يقال : البقرة تَجْزِي عن سبعةٍ أي تُغنِي ، وهو قول السدي(٤)، وسعيد بن جبير(٥) وأبي مالك(٦)، وقال به جماعة من أهل التفسير(٧).

والثاني : معناه لا تقضي، ومنه قولهم: جزى الله فلاناً عني خيراً ، أثابه عني وقضاه عني، وهو قول المفضل(٨)، وجماعة من أهل التفسير(٩).

ويسند هذا القول أن أصل الجزاء في كلام العرب: القضاء والتعويض(١).

كما أن دعوى الإجماع في هذه المسألة دعوى عريضة ولا يخفى ما فيها، وكلام السيوطي ليس بالقوي، من التكلف. وأختم كلامي بقول الإمام الصنعاني-رحمه الله-:"

"إن مسألة إيمان أبوي المصطفى -صلى الله عليه وآله وسلم- من مسائل الفضول، لا يخوض فيها من هو بمهمات دينه مشغول".[جموع رسائل الصنعاني:رقم ٧].

والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري ص٢٢١، كتاب الوصايا، باب ١١: هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟ حديث رقم ٢٧٥٣؛ وأخرجه مسلم ص٧١٦، كتاب الإيمان، باب ٨٩: في قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين...)، حديث رقم ٥٠٤ [٣٥١] ٢٠٦.

(١) تفسير ابن عثيمين: ١٧٢/١.

(٢) تفسير الطبري: ٥٧٣/٢.

(٣) أنظر:النكت والعيون: ١١٦/١-١١٧.

(٤) أنظر: تفسير الطبري(٨٧٤):ص٢٧/٢.

(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٠٤/١.

(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٩٩):ص١٠٤/١.

(٧) منهم: ابن جرير في جامع البيان: ٢٧/٢، وابن عطية في المحرر الوجيز: ٢٠٨/١، والسمرقندي في بحر العلوم: ١١٦/١، ومكي بن أبي طالب في المشكل: ٩١، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ١١٤/١، والغرناطي في التسهيل: ٨٣/١، والعجيلي في الفتوحات الإلهية: ٥٠/١، والسعدي في تيسير الكريم الرحمن: ٣٤.

(٨) نقلا عن: النكت والعيون: ١١٦/١-١١٧.

(٩) منهم: ابن قتيبة في غريب القرآن: ٤١، وابن الجوزي في زاد المسير: ٧٦/١، والزمخشري في الكشاف: ٢٧٨/١ والبغوي في معالم التنزيل: ٩٠/١، والبيضاوي في أنوار التنزيل: ٥٥/١، والنسفي في تفسيره: ٤٧/١، والخازن في لباب التأويل: ٤٣/١، والكوكباني في تيسير المنان تفسير القرآن: ٩٣٩/٢، والشوكاني في فتح القدير: ١٢١/١، والقاسمي في محاسن التأويل: ١٢٠/٢، وابن عاشور في التحرير والتنوير: ٤٨٤/١.

والثالث: وقال بعضهم: {لاَ تَجْزِي} أي: لا تكفي(٢).
والرابع: وقيل: لا تُكافِئ(٣).
والأقرب من حيث اللغة هو القول الثاني، والمعنى في كل متقارب، والمراد: أنه لا يتحمل أحد عن أحد شيئاً. والله أعلم.

وفي قوله تعالى:{ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا}[البقرة: ١٢٣]، وجوه من القراءة:
أحدها: { لَا تَجْزِي}، قرأ بها الجمهور.
والثاني:{لا تُجزئ}، مضمومة (التّاء) مهموزة (الياء). قرأ بها أبو السماك العدوي، من (أجزأ، يجزي) إذا كفي(٤)، ومن ذلك قول الشاعر(٥):
وأجزأت أمر العالمين ولم يكن ليجزي إلّا كامل وابن كامل

قال الزمخشري: "ومن قرأ (لا تجزئ) من أجزأ عنه إذا أغنى عنه، فلا يكون في قراءته إلا بمعنى شيئا من الإجزاء"(٦).
والثالث: وقرأ أبو السرار الغنوي : "لا تجزى نسمة عن نسمة شيئا"(٧).

قوله تعالى:{ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ}[البقرة:١٢٣]، "أي لا يقبل منها فداء"(٨).
قال ابن أبي زمنين:" أي : فداء"(٩).
قال الزمخشري:" أى فدية، لأنها معادلة للمفدى، ومنه الحديث:"لا يقبل منه صرف ولا عدل"(١٠)،أى: توبة ولا فدية"(١١).
قال المراغي:" أي لا يؤخذ من نفس فدية تنجو بها من النار ، إذ هى لا تجد ذلك لتفتدى به"(١٢).

واختلف في قوله تعالى{ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ }[البقرة:١٢٣] على أوجه(١٣):

---

(١) أنظر: تفسير الطبري: ٢٧/٢، وتهذيب اللغة للأزهري: ١٤٢/١-١٤٣، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٤٥٦/١، والصحاح للجوهري: ٢٣٠٢/٦، ولسان العرب لابن منظور: ٦٢٠/١، وتاج العروس للزبيدي: ٢٨٤/١٩، والمفردات للراغب: ٩٣.
(٢)انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٠٨/١، معالم التنزيل للبغوي: ٩٠/١، وغريب القرآن لابن الملقن: ٥٣، وغيرها.
(٣)انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٠٨/١، معالم التنزيل للبغوي: ٩٠/١، وغريب القرآن لابن الملقن: ٥٣، وغيرها.
(٤) أنظر: تفسير الثعلبي: ١٩٠/١.
(٥) لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد الثعلبي في تفسيره: ١٩٠/١، والسمين الحلبي في الدر المصون: ٣٣٧/١.
(٦) الكشاف: ١٣٥/١.
(٧) الكشاف: ١٣٥/١.
(٨) صفوة التفاسير: ٤٨/١.
(٩) تفسير ابن أبي زمنين:١٧٥/١.
(١٠) متفق عليه، أنظر: صحيح البخاري(١٧٧١):ص٦٦٢/٢، وسنن الترمذي(٢١٢٧):ص٣٨٢/٤، والنسائي(٤٦٨٩):ص٤٠/٨، وأبو داود(٤٥٣٩):ص١٨٣/٤، وابن ماجة(٢٦٣٥):٨٨٠/٢، ومسند الإمام احمد(٩٦٢):ص١١٩/١.
(١١) الكشاف: ١٣٦/١.
(١٢) تفسير المراغي:٢٠٧/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٤/٢-٣٥. وتفسير ابن كثير: ٢٥٦/١-٢٥٧.

أحدها: أن (العدل): الفدية، " وسميت عدلاً لأن المفدي يعدل بها : أي يساويها"[١]، كما قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ } [آل عمران : ٩١] وقال : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [المائدة : ٣٦] وقال تعالى : { وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا } [الأنعام : ٧٠]، وقال : { فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } الآية [الحديد : ١٥]. وهذا قول أبي العالية[٢]، والسدي[٣]، وقتادة[٤]، وابن زيد[٥].
والثاني:أنه: البدل، والبدل: الفدية، قاله ابن عباس[٦].أي "رجل مكان رجل"[٧].
والثالث: وروي عن ابن عباس : "أو حسنة مع الشرك"[٨].
والرابع: وروي عن علي، رضي الله عنه، في حديث طويل، قال : والصرف والعدل : التطوع والفريضة. وهذا قول غريب[٩].

والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية، لما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما سئل ما العدل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "العدل الفدية"[١٠].

قوله تعالى:{وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ}[البقرة:١٢٣]، "أي لا يقبل من نفس عن نفس شفاعة"[١١].

قال الصابوني:" أي لا تفيدها شفاعة أحد، لأنها كفرت بالله"[١٢].

قال المراغي:أي: " ولا يشفع فيما وجب عليها من حقّ شافع، وقد كانوا يعتقدون بالمكفّرات تؤخذ فدية عما فرطوا فيه ، وبشفاعة أنبيائهم لهم ، فأخبرهم اللّه أنه لا يقوم مقام الاهتداء به شىء آخر"[١٣].

قال ابن أبي زمنين:" أي : إن الشفاعة لا تكون إلا للمؤمنين"[١٤].

قال ابن عطية:" وليس المعنى أنه يشفع فيهم أحد فيرد، وإنما نفى أن تكون ثم شفاعة على حد ما هي في الدنيا، وأما الشفاعة التي هي في تعجيل الحساب فليست بنافعة لهؤلاء الكفرة في خاصتهم، وأما الأخيرة التي هي بإذن من الله تعالى في أهل المعاصي من المؤمنين فهي بعد أن أخذ العقاب حقه، وليس لهؤلاء المتوعدين من الكفار منها شيء"[١٥].

---

(١) البحر المحيط: ١٦١/١.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٨٨١):ص٣٤/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٨٨٢):ص٣٤/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٨٨٣):ص٣٤/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٨٨٥):ص٣٤/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٨٨٤):ص٣٤/٢.
(٧) البحر المحيط: ١٦١/١.
(٨) نقلا عن: البحر المحيط: ١٦١/١.
(٩) ينظر: تفسير ابن كثير ١ : ٢٥٦ ، والسيوطي ١ : ٦٨.
(١٠)ضعيف، ولم أجده عن غير الطبري ، نقله عنه ابن كثير ١ : ٢٥٧ ، والسيوطي ١ : ٦٨.
(١١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٠٣/١.
(١٢) صفوة التفسير:٨١/١.
(١٣) تفسير المراغي:٢٠٧/١.
(١٤) تفسير ابن أبي زمنين:١٧٥/١.
(١٥) المحرر الوجيز: ٢٠٥/١.

و"الشفاعة" هي التوسط للغير بجلب منفعة، أو دفع مضرة؛ فشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة(٢)، من جلب المنفعة؛ وشفاعته فيمن استحق النار ألا يدخلها(٣)، وفيمن دخلها أن يخرج منها(٤)، من دفع المضرة؛ فيومَ القيامة لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل من نفس عن نفس شفاعة أبداً(١).

قوله تعالى:{وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}[البقرة:١٢٣]، " أي: لا يدفع عنهم أحد عذاب الله ولا يجيرهم من سطوة عقابه"(٢).

قال البغوي:ولا هم" يمنعون من عذاب الله"(٣).

قال الطبري:" يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر"(٤).

قال المراغي:" أي إنه لا يأتيهم ناصر ينصرهم فيمنع عذاب اللّه عنهم إذا نزل بهم، وهذا ترهيب لمن سلفت عظتهم في الآية قبلها"(٥).

وقد ذكروا في قوله تعالى:{ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}[البقرة:١٢٣]، وجهين(٦):

أحدهما: وليس لهم من الله يومئذ نصير ينتصر لهم من الله إذا عاقبهم.

والثاني: ولا هم ينصرون بالطلب فيهم والشفاعة والفدية.

والراجح هو القول الأول، وهو الأقرب الى سياق الآية، إذ "أن الله جل ثناؤه إنما أعلم المخاطبين بهذه الآية أن يوم القيامة يوم لا فدية - لمن استحق من خلقه عقوبته - ، ولا شفاعة فيه ، ولا ناصر له، وذلك أن ذلك قد كان لهم في الدنيا ، فأخبر أن ذلك يوم القيامة معدوم لا سبيل لهم إليه"(٧).

الفوائد:

١- من فوائد الآية: إثبات يوم القيامة، وأن هذا اليوم شديد يجب اتقاؤه والحذر منه، إذ أن ذلك اليوم لا تغني نفس عن نفس شيئاً؛ حتى الوالد لا يجزي عن ولده شيئاً؛ ولا المولود يجزي عن

---

(٢) راجع مسلماً ص٧١٥، كتاب الإيمان، باب ٨٥: في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا أول الناس يشفع في الجنة..."، حديث رقم ٤٨٣ [٣٣٠] ١٩٦؛ وباب ٨٤: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم ٤٨٢ [٣٢٩] ١٩٥؛ وفيه: يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة...

(٣) قال شيخنا محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في شرح العقيدة الواسطية: فهذه قد تستفاد من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بالمغفرة والرحمة على جنائزهم، فإنه من لازم ذلك أن لا يدخل النار كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: "اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين..." (١٧٧/٢ – ١٧٨)، وذكر الحافظ ابن حجر أن دليل هذا قوله صلى الله عليه وسلم في حديث حذيفة عند مسلم: "ونبيكم على الصراط يقول: رب سلم، رب سلم" (فتح الباري ٤٢٨/١١)؛ مسلم ص٧١٥، كتاب الإيمان، باب ٨٤: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم ٤٨٢ [٣٢٩] ١٩٥.

(٤) راجع البخاري ص٦٢٥ – ٦٢٦، كتاب التوحيد، باب ٣٦: كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، حديث رقم ٧٥١٠؛ ومسلماً ص٧١٤، كتاب الإيمان، باب ٨٤: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم ٤٧٩ [٣٢٦] ١٩٣.

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٠٣/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٨١/١.

(٣) تفسير البغوي: ٩٠/١.

(٤) تفسير الطبري: ٣٦/٢.

(٥) تفسير المراغي:٢٠٧/١.

(٦)أنظر: تفسير الطبري: ٣٦/٢.

(٧) تفسير الطبري: ٣٦/٢.

والده شيئاً، كما قال تعالى: { يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً }.

٣- ومنها: أن من استحق العذاب ذلك اليوم لا يُقبل منه عدل؛ قال تعالى: { إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم }.

٤- ومنها: ثبوت أصل الشفاعة في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: { لا تنفعها شفاعة }؛ وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع في أهل الموقف أن يُقضى بينهم[١] ، وأنه -صلى الله عليه وسلم- يشفع في أهل الكبائر أن لا يدخلوا النار[٢] ؛ وفيمن دخل النار أن يخرج منها[٣]؛ فعلى هذا يكون العموم في قوله تعالى: { ولا تنفعها شفاعة} مخصوصاً بما ثبتت به السنة من الشفاعة.

---

(١) انظر: البخاري ص٣٩٣ – ٣٩٤، كتاب التفسير، باب ٥: (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً)، حديث رقم ٤٧١٢؛ ومسلماً ص٧١٤ – ٧١٥، كتاب الإيمان، باب ٨٤: أنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم ٤٨٠ [٣٢٧] ١٩٤.

(٢) سنن الترمذي - حديث (٢٣٥٩) :
(حَدَّثَنَا ..... عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي .....) ..
سنن أبي داود - حديث (٤١١٤) :
(حَدَّثَنَا ..... عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي) ..
مسند أحمد - حديث (١٢٧٤٥) :
(..... عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي) ..
سنن ابن ماجة - حديث (٤٣٠٠) :
(..... عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي)

(٣) فقد أخرج البخاري ومسلم في حديث الشفاعة لمن دخل النار أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول في آخر مرحلة من مراحل الشفاعة :يارب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله ، فيقول الله :وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله .فإنما يعني به المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلم من أهل لا إله إلا الله، ولذلك قال في الحديث قبل الفقرة التي ذكر السائل :فأقول يا رب أمتي أمتي .وأمته المراد بها أمة الإجابة، وأما من لم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ولم يتبعه فإنه لا يشفع فيه النبي صلى الله عليه وسلم ولا تنفعه شفاعة أحد كائناً من كان، وإليك نص الحديث المذكور كما في صحيح البخاري، وقال الإمام البخاري :حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد حدثنا معبد بن هلال العنزي قال: اجتمعنا ناس من أهل البصرة فذهبنا إلى أنس بن مالك وذهبنا معنا بثابت البناني إليه يسأله لنا عن حديث الشفاعة فإذا هو في قصره، فوافقناه يصلي الضحى فاستأذنا فأذن لنا وهو قاعد على فراشه فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، فقال: يا أبا حمزة هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة، فقال: حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال: إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض فيأتون آدم فيقولون اشفع لنا إلى ربك فيقول لست لها ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله، فيأتون موسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فيأتونني فأقول أنا لها، فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجداً، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل يُسمع لك وسل تعط واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال :انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل ثم أعود فأحمد بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع فأقول يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل. فلما خرجنا من عند أنس قلت لبعض أصحابنا: لو مررنا بالحسن وهو متوار في منزل أبي خليفة فحدثناه بما حدثنا أنس بن مالك فأتيناه

٥- ومنها: أن الكافرين لا تنفعهم الشفاعة؛ لقوله تعالى في آية أخرى: {فما تنفعهم شفاعة الشافعين} [المدثر: ٤٨] .
٦- ومنها: أنه لا أحد يُنصر يوم القيامة إذا كان من العصاة؛ ولهذا قال الله تعالى: {ما لكم لا تناصرون * بل هم اليوم مستسلمون} [الصافات: ٢٥، ٢٦] ؛ فلا أحد ينصر أحداً يوم القيامة، لا الآلهة، ولا الأسياد، ولا الأشراف، ولا غيرهم.

القرآن

{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)} [البقرة : ١٢٤]

التفسير:

واذكر-أيها النبي- حين اختبر الله إبراهيم بما شرع له من تكاليف، فأدَّاها وقام بها خير قيام. قال الله له: إني جاعلك قدوة للناس. قال إبراهيم: ربِّ اجعل بعض نسلي أئمة فضلا منك، فأجابه الله سبحانه أنه لا تحصل للظالمين الإمامةُ في الدين.

قوله تعالى:{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ}[البقرة:١٢٤]، "أي: واذكر يا محمد حين اختبر الله عبده إبراهيم، بجملة من التكاليف الشرعية"(١).

قال ابن كثير:" أي : واذكر - يا محمد - لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملَّة إبراهيم وليسوا عليها ، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين ، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم ، أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي"(٢).

قال أبو السعود:" أي: واذكر لهم وقت ابتلائه عليه السلام، ليتذكروا بما وقع فيه من الأمور الداعية إلى التوحيد الوازعة عن الشرك، فيقبلوا الحق ويتركوا ماهم فيه من الباطل"(٣).

قال الزمخشري:" اختبره بأوامر ونواه، واختبار اللّه عبده مجاز عن تمكينه عن اختيار أحد الأمرين : ما يريد اللّه ، وما يشتهيه العبد ، كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك"(٤).

قال ابن عثيمين:" وهنا أضاف الربوبية إلى إبراهيم: وهي من الربوبية الخاصة؛ فالربوبية بإزاء العبودية؛ فكما أن العبودية نوعان ــ خاصة، وعامة ــ فالربوبية أيضاً نوعان: خاصة، وعامة؛ وقد اجتمعا في قول السحرة: {آمنا برب العالمين} [الأعراف: ١٢١] : هذه عامة؛ {رب موسى وهارون} [الشعراء: ٤٨] : هذه خاصة؛ ولا شك أن ربوبية الله سبحانه

فسلمنا عليه فأذن لنا فقلنا له: يا أبا سعيد جئناك من عند أخيك أنس بن مالك فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة فقال: هيه فحدثناه بالحديث فانتهى إلى هذا الموضع فقال: هيه فقلنا لم يزد لنا على هذا فقال: لقد حدثني وهو جميع منذ عشرين سنة فلا أدري أنسي أم كره أن تتكلوا، قلنا: يا أبا سعيد فحدثنا فضحك وقال: خلق الإنسان عجولاً، ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم حدثني كما حدثكم به، وقال: ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطى واشفع تشفع فأقول يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله.(واه البخاري ٧٥١٠، ومسلم ١٩٣).

(١) صفوة التفاسير:٨٣/١.[بتصرف بسيط].

(٢) تفسير ابن كثير: ٤٠٥/١.

(٣) تفسير أبي السعود:١٥٤/١.

(٤) الكشاف: ١٨٣/١.

وتعالى للرسل ـــ ولا سيما أولو العزم منهم؛ وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام ـــ أخص الربوبيات"[١].

ويحتمل الخطاب في قوله تعالى:{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ}[البقرة:١٢٤]، وجهين[٢]:

أحدهما: أن قوله{ وَإِذِ}، منصوب على المفعولية بمضمر مقدم، خوطب به النبي صلّى الله عليه وسلّم بطريق التلوين، أي واذكر لهم وقت ابتلائه عليه السلام.

والثاني: أنه منصوب بمضمر معطوف على {اذْكُرُوا}، خوطب به بنو إسرائيل ليتأملوا فيما يحكى، عمن ينتمون إلى ملته من إبراهيم وبنيه عليهم السلام، من الأفعال والأقوال، فيقتدوا بهم ويسيروا سيرتهم. أي واذكروا إذ ابتلى أباكم إبراهيم، فأتم ما ابتلاه به. فما لكم أنتم لا تقتدون به فتفعلوا عند الابتلاء فعله، في إيفاء العهد والثبات على الوعد، لأجازيكم على ذلك جزاء المحسنين؟.

وقوله تعالى:{ وَإِذِ ابْتَلَى}، معناه: "وإذا اختبر، يقال منه : ابتليت فلانا أبتليه ابتلاء، ومنه قول الله عز وجل : {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى}[سورة النساء : ٦] ، يعني به : اختبروهم"[٣].

قال الطبري: " وكان اختبار الله تعالى ذكره إبراهيم ، اختبارا بفرائض فرضها عليه ، وأمر أمره به. وذلك هو " الكلمات " التي أوحاهن إليه ، وكلفه العمل بهن ، امتحانا منه له واختبارا"[٤].

ثم اختلف أهل التفسير في صفة (الكلمات) التي ابتلى الله بها إبراهيم نبيه وخليله صلوات الله عليه على أقوال[٥]:

أحدها: أنها شرائع الإسلام ، وهي ثلاثون سهما[٦].

قال ابن عباس : لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه إلا إبراهيم ، ابتلاه الله بكلمات ، فأتمهن. قال : فكتب الله له البراءة فقال :{وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}[سورة النجم : ٣٧]. قال : عشر منها في(الأحزاب)[٧]، وعشر منها في (براءة)[٨]، وعشر منها في (المؤمنون)[٩]، و(سأل سائل)[١]، وقال : إن هذا الإسلام ثلاثون سهما"[٢].

---

(١) تفسير ابن عثيمين:٢/٤٠-٤١.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ١٥٤/١. ونقله بتمامه القاسمي في محاسن التأويل: ٣٨٩/١.

(٣) تفسير الطبري: ٧/٣.

(٤) تفسير الطبري: ٧/٣.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٧/٣، وتفسير ابن كثير: ٤٠٥/١-٤٠٦.

(٦)السهم في الأصل واحد السهام التي يضرب بها في الميسر ، وهي القداح . ثم سمى ما يفوز به الفالج سهما ، ثم كثر حتى سمى كل نصيب سهما . وقوله هنا يدل على أنهم استعملوه في كل جزء من شيء يتجزأ وهو جملة واحدة . فقوله : " سهما " هنا ، أي خصلة وشعبة . وسيأتي شاهدها في الأخبار الآتية .(تفسير الطبري: ٧/٣).

(٧) وهي في قوله تعالى:{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ ، وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فروجَهُم وَالْحافِظَاتِ ، وَالذّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً }[الأحزاب : ٣٥].

(٨) وهي في قوله تعالى:{ التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون ، الساجدون}[التوبة : ١١٢].

(٩) وهي في قوله تعالى:{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِم خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُم عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِم أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُم فَإِنَّهُم غَيرُ مَلُومِينَ ، فَمن ابتغى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِم وَعَهْدِهِم رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ، أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } " [المؤمنون : ١ - ١١].

الثاني: إنها خصال من سُنَن الإسلام ، خمس في الرأس.
قال ابن عباس: "ابتلاه الله بالطهارة : خمس في الرأس ، وخمس في الجسد، في الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس، وفي الجسد : تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء"(٣).
وروي عن قتادة(٤)، وأبي الخلد(٥)، نحو ذلك.
الثالث: إنها عشر خصال ، ست في الإنسان وأربع في المشاعر ، فالتي في الإنسان : حلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وتقليم الأظفار ، وقص الشارب ، والغسل يوم الجمعة. وأربعة في المشاعر : الطواف ، والسعي بين الصفا والمروة ، ورمي الجمار ، والإفاضة". وهذا قول ابن عباس في رواية حنش عنه(٦).
الرابع: أنها قوله:{إني جاعلك للناس إماما}، في مناسك الحج. قاله أبو صالح(٧)، وروي عن مجاهد(٨)، وعكرمة(٩)، والربيع(١٠) وابن عباس(١١) نحو ذلك.
الخامس:أنها مناسك الحج خاصة. وهذا قول ابن عباس في رواية قتادة عنه(١٢).
السادس: أنها أمور ، منهن الختان. قاله الشعبي(١٣).
السابع:أنها الخلال الست : الكوكب ، والقمر ، والشمس ، والنار ، والهجرة ، والختان ، التي ابتلي بهن فصبر عليهن. وهذا قول الحسن(١٤)،

---

(١) من قوله تعالى:{ إلا المُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ } [المعارج : ٢٣]، إلى {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِم يُحَافِظُون} [المعارج : ٣٤].
(٢) أخرجه الطبري(١٩٠٧):ص٧/٣. كذلك رواه أبو جعفر بهذا الإسناد ، في التاريخ ١ : ١٤٤. وذكره ابن كثير ١ : ٣٠٢ ، ونسبه أيضًا لابن أبي حاتم ، والحاكم . وذكره السيوطي ١ : ١١١ - ١١٢ ، وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وابن مردويه ، وابن عساكر . وهذا الإسناد صحيح .
(٣) أخرجه الطبري(١٩١٠):ص٩/٢، وهذا الإسناد صحيح، وهو في تفسير عبد الرزاق (مخطوطة دار الكتب المصورة) ، بهذا الإسناد، وكذلك رواه أبو جعفر في التاريخ ١ : ١٤٤ ، من تفسير عبد الرزاق . بهذا الإسناد، وكذلك رواه الحاكم ٢ : ٢٦٦ ، من طريق ابن طاوس عن أبيه ، به . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه " ، ووافقه الذهبي، وذكره ابن كثير ١ : ٣٠١ . وكذلك ذكره السيوطي ١ : ١١١ وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه .(تفسير الطبري: ٩/٣).
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٩١٢):ص٩/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٩١٣):ص٩/٢-١٠.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٩١٤):ص١٠/٢.
(٧)انظر: تفسير الطبري(١٩١٥)، و(١٩١٦):ص١٠/٢-١١.
(٨)انظر: تفسير الطبري(١٩١٧)، و(١٩١٨)، و(١٩٢٠)، و(١٩٢١):ص١١/٢.
(٩)انظر: تفسير الطبري(١٩١٩)، و(١٩٢٠):ص١١/٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٩٢٢):ص١١/٢-١٢.
(١١)انظر: تفسير الطبري(١٩٢٣):ص١٢/٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٩٢٣):ص ١٢/٣.
هذا الإسناد ضعيف من ناحيتين . أما سلم - بفتح السين وسكون اللام - ابن قتيبة أبو قتيبة : فإنه ثقة ، خرج له البخاري في صحيحه . وأما الضعف ، فلأن " عمر بن نبهان الغبري " بضم الغين المعجمة وفتح الباء الموحدة : ضعيف جدا ، ذمه الإمام أحمد ، وقال ابن معين : ليس بشيء . وهو مترجم في التهذيب ، وابن أبي حاتم ١٣٨/١/٣ . والوجه الآخر من الضعف : أنه منقطع ، لأن قتادة لم يدرك ابن عباس .
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٩٣٠)، و(١٩٣١)، و(١٩٣٢):ص ١٣/٣-١٤.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٩٣٣)، و(١٩٣٤)، و(١٩٣٥)، و(١٩٣٦):ص١٤/٢.

عن أبي رجاء ، قال : قلت للحسن : " وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن " . قال : ابتلاه بالكوكب ، فرضي عنه ؛ وابتلاه بالقمر ، فرضي عنه ؛ وابتلاه بالشمس ، فرضي عنه ؛ وابتلاه بالنار ، فرضي عنه ؛ وابتلاه بالهجرة ، وابتلاه بالختان"(١).

الثامن: أنها:قوله: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ }[البقرة : ١٢٧ - ١٢٩]. قاله السدي(٢).

والصواب: أن هذه الكلمات التي هي محل الابتلاء والاختبار، أطلقها الله سبحانه وتعالى؛ فهي كلمات كونية؛ وشرعية؛ أو جامعة بينهما؛ واختلف المفسرون في هذه الكلمات؛ وأصح الأقوال فيها أن كل ما أمره به شرعاً، أو قضاه عليه قدراً، فهو كلمات؛ فمن ذلك أنه ابتُلي بالأمر بذبح ابنه، فامتثل؛ لكن الله سبحانه وتعالى رفع ذلك عنه حين استسلم لربه؛ وهذا من الكلمات الشرعية؛ وهذا امتحان من أعظم الامتحانات؛ ومن ذلك أن الله امتحنه بأن أوقدت له النار، وأُلقي فيها؛ وهذا من الكلمات الكونية؛ وصبر، واحتسب؛ فأنجاه الله منها، وقال تعالى: {يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم} [الأنبياء: ٦٩] ؛ وكل ما قدره الله عليه مما يحتاج إلى صبر، ومصابرة، أو أمره به فهو داخل في قوله تعالى: { بكلمات }.

وَاخْتلفُوا فِي قَوْله تعالى:{إِبْرَاهِيم}[البقرة:١٢٤]، على ثلاثة أوجه من القراءات(٣):

أحدها: { إبرهم }، بِغَيْر يَاء وَطلب الْألف، قَرَأَ بها ابْن عَامر، فِي جَمِيع سورة البقرة.

والثاني: {إِبْرَاهِيمُ}، بالياء، قرأ بها الْقُرَّاء جَمِيعًا.

الثالث: {إبرهام}، بالألف بعد الهاء، قاله الْأَخْفَش الدِّمَشْقِي عَن ابْن ذَكْوَان عَن ابْن عَامر.

وذكروا في قوله تعالى:{ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ}[البقرة:١٢٤]، قراءتين(٤):

إحداهما:{ إبراهيمُ ربَّه}، برفع إبراهيم ونصب ربه. قرأ بها أبو حنيفة، وهي قراءة ابن عباس رضى اللّه عنه، والمعنى : أنه دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إليهنّ أم لا؟

والثانية: { إِبْراهِيمَ رَبُّهُ}. وهي القراءة المشهورة. و{إبراهيم} فيه مقدّم في المعنى.

قوله تعالى:{فَأَتَمَّهُنَّ}[البقرة:١٢٤]، أي: "فأتم إبراهيم الكلمات"(٥).

قال الصابوني:أي:" فقام بهن خير قيام"(٦).

قال الزمخشري: أي:"فقام بهنّ حق القيام وأدّاهنّ أحسن التأدية من غير تفريط وتوان"(٧).

قال المراغي: أي:" فأدّاها خير الأداء ، وأتي بها على وجه الكمال"(٨).

قال الطبري:"وإتمامه إياهن، إكماله إياهن ، بالقيام لله بما أوجب عليه فيهن ، وهو الوفاء الذي الله جل ثناؤه : {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}[سورة النجم : ٣٧] ، يعني وفى بما عهد إليه ، بـ{الكلمات}، بما أمره به من فرائضه ومحنته فيها"(٩).

---

(١)أخرجه الطبري(١٩٣٣):ص١٤/٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٩٣٧):ص١٤/٢-١٥.
(٣) انظر: السبعة: ١٦٩-١٧٠.
(٤) انظر: الكشاف: ١٨٣/١.
(٥) تفسير الطبري: ١٧/٣.
(٦) صفوة التفاسير:٨٣/١.
(٧) الكشاف: ١٨٤/١، ونقله بتمامه النسفي في تفسيره:٨٥/١.
(٨) تفسير المراغي:٢٠٩/١.
(٩) تفسير الطبري: ١٧/٣-١٨.

وذكروا في قوله تعالى:{فَأَتَمَّهُنَّ}[البقرة:١٢٤]، وجوها:
أحدها: أن معناه: عمل بهن. قاله أبو العالية[١].
الثاني: وفى بهن. قاله الربيع[٢].
الثالث: أداهن. قاله قتادة[٣].
قوله تعالى:(قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاس إِمَامًا}[البقرة:١٢٤]، يعني: إني مصيرك للناس إماما، يؤتم به ويقتدى به"[٤].
قال أبو العالية:" فجعله الله إماما يؤتم ويقتدى به"[٥]. وروي عن الحسن وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك[٦].
قال الكلبي:"يعني: يهتدي بهديك وسنتك ، فأعجب ذلك إبراهيم !"[٧].
قال الماوردي: "أي: مقصوداً متبوعاً، ومنه إمام المصلين، وهو المتبوع في الصلاة"[٨].
قال المراغي:" أي قال إنى جاعلك للناس رسولا يؤتمّ بك ، ويقتدى بهداك إلى يوم القيامة"[٩].
قال ابن عثيمين:" وهي الإمامة عامة فيمن أتى بعده، فإن النبي ابراهيم-عليه السلام- صار إماماً حتى لخاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين} [النحل: ١٢٣] ؛ و(الإمام) مَن يُقتدى به سواء في الخير، أو في الشر؛ لكن لا ريب أن المراد هنا إمامة الخير، فإذا قال قائل: أرُونا دليلاً على أن الإمامة في الشر تسمى إمامة؟ قلنا: قوله تعالى: {وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون} [القصص: ٤١] ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء"[١] ؛ وهذا لأنه إمام"[١٠].
قوله تعالى:{قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}[البقرة:١٢٤]، "أي: واجعل من ذريتي إماماً يقتدى به"[١١].
قال ابن عطية:" أي ومن ذريتي يا رب فاجعل"[١٢].
قال الثعلبي:أي:" ومن أولادي أيضا. فاجعل أئمة يقتدى بهم"[١].

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٧٣):ص٢٢٢/١.
(٢) انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٩/١.
(٣) انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٩/١.
(٤) تفسير الطبري: ١٨/٣.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٧٤):ص٢٢٢/١.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٢/١.

(٧) تفسير ابن أبي زمنين:١٧٥/١.
(٨) النكت والعيون:١٨٥/١.
(٩) تفسير المراغي: ٢٠٩/١.

(١) أخرجه مسلم ص٨٣٨، كتاب الزكاة، باب ٢٠: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة...، حديث رقم ٢٣٥١ [٦٩] ١٠١٧.
(١٠) تفسير ابن عثيمين: ٤٢/٢
(١١) تفسير النسفي:٨٥/١.
(١٢) المحرر الوجيز:٢٠٦/١.

قال ابن ابي زمنين: "أي : ومن كان من ذريتي فليكن إماماً لغير ذريتي"[٢].
قال البغوي:" أي ومن أولادي أيضا فاجعل منهم أئمة يقتدى بهم في الخير"[٣].
قال المراغي:" وقد جرى إبراهيم على سنة الفطرة ، فتمنى لذريته الخير في أجسامهم وعقولهم وأخلاقهم ، ولا غرو فالإنسان يرجو أن يكون ابنه أحسن منه في جميع ذلك"[٤].
قال أبو العالية:" فقال إبراهيم: يا رب ومن ذريتي يقول: اجعل من ذريتي، من يؤتم به ويقتدى به"[٥].
ويحتمل {من} في قوله تعالى:{وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}[البقرة:١٢٤]، وجهين[٦]:
أحدها: أنها لبيان الجنس؛ وبناءً على ذلك تصلح {ذريتي} لجميع الذرية؛ يعني: واجعل ذريتي كلهم أئمة.
الثاني: أنها للتبعيض؛ وعليه فيكون المقصود: اجعل بعض الذرية إماماً.
قال ابن عثيمين: "والكلام يحتمل هذا، وهذا؛ ولكن سواء قلنا؛ إنها لبيان الجنس؛ أو للتبعيض؛ فالله تعالى أعطاه ذلك مقيداً بقوله تعالى{لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}"[٧].
ويحتمل الكلام في قوله تعالى {وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}[البقرة:١٢٤]، وجهين[٨]:
أحدهما: أنه دعاء، وإبراهيم طمع في الإمامة لذريته، فسأل الله تعالى ذلك لهم، أي: من ذريتي يا رب فاجعل.
الثاني: أنه استفهام، قال ذلك استخباراً عن حالهم، أي ومن ذريتي يا رب ماذا يكون ؟ فأخبره الله تعالى أن فيهم عاصيا وظالما لا يستحق الإمامة.
وفي أصل (الذرية) قولان[٩]:
أحدهما: الأولاد الصغار، مشتق من الذر لكثرته.
والثاني:أنها من الذرر، وهو الخلق، فخفف الهمز وأدخل التشديد عوضا عن الهمز كالبرية.
وقرئ {ذريتي}، بكسر الذال، وهي لغة،وهي قراءة زيد بن ثابت، و{ذرية} بفتحها وهي قراءة أبي جعفر، و{ذرية}، بضمها وهي قراءة العامة[١٠].
قوله تعالى:{قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[البقرة:١٢٤]، يعني: "لا يصيب تعهدي لك بهذا الظالمين"[١١].
قال ابن ابي زمنين:" أي : أن أجعلهم أئمة يقتدى بهم"[١٢].
قال أبو العالية:"يقول: ليس كل ذريتك يا إبراهيم على حق"[١٣].

---

(١) تفسير الثعلبي:٢٦٩/١.
(٢) تفسير ابن أبي زمنين:١٧٦/١.
(٣) تفسير البغوي:١٤٦/١.
(٤) تفسير المراغي:٢٠٩/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٧٧):ص٢٢٢/١.
(٦) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٤٢/٢.
(٧)تفسير ابن عثيمين: ٤٢/٢.
(٨) انظر: النكت والعيون: ١٨٥/١، وتفسير القرطبي: ١٠٧/٢.
(٩) انظر: تفسير الثعلبي:٢٥٩/١.
(١٠) انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٩/١، وتفسير البيضاوي: ١٠٤/١.
(١١) تفسير ابن كثير:٤١٠/١.
(١٢) تفسير ابن أبي زمنين:١٧٦/١.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٧٧):ص٢٢٢/١.

قال ابن عباس: يخبره أي أنه كان في ذريته ظالم لا ينال عهده ولا ينبغي له أن يوليه شيئا من أمره، وإن كانوا من ذرية خليله ومحسن ستنفذ فيه دعوته ويبلغ فيه ما أراب من مسألته"[١].

قال عطاء:" فأبى أن يجعل ظالما إماما"[٢].وروي عن مقاتل نحو ذلك[٣].

قال مجاهد:" قال: أما من كان منهم صالحا فسأجعله إماما يقتدى به. وأما من كان منهم ظالما فلا، ولا نعمة عين"[٤].

قال ابن كثير:" أي: أجعل من ذريتك إماماً؛ ولكن الظالم من ذريتك لا يدخل في ذلك"[٥].

قال المراغي:" أي قال أجبتك إلى ما طلبت ، وسأجعل من ذريتك أئمة للناس ، ولكن عهدى بالإمامة لا يناله الظالمون ، إذ هم لا يصلحون أن يكونوا قدوة للناس"[٦].

قال الزجاج:" فأعلم اللّه إبراهيم أن في ذريته الظالم"[٧].

قال البيضاوي:" إجابة إلى ملتمسه، وتنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلمة، وأنهم لا ينالون الإمامة لأنها أمانة من الله تعالى وعهد، والظالم لا يصلح لها، وإنما ينالها البررة الأتقياء منهم. وفيه دليل على عصمة الأنبياء من الكبائر قبل البعثة، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة"[٨].

والوصية تسمى: العهد[٩].

وفي قوله تعالى: {قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[البقرة:١٢٤]، وجوه[١٠]:

احدها: المراد: إنه سيكون في ذريتك ظالمون. وهذا قول مجاهد[١١].

الثاني: المعنى: لا أجعل إمامًا ظالمًا يقتَدَى به. وهذا قول مجاهد في رواية ابن أبي نَجيح عنه[١٢].

الثالث: أن المراد: لا يكون إمام مشرك. قاله سعيد بن جبير[١٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٧٥):ص٢٢٢/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٧٨):ص٢٢٣/١.

(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٢٢٣/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٧٩):ص٢٢٣/١.

(٥) تفسير ابن كثير:٤١٠/١. قال ابن كثير:" فلما جعل الله إبراهيم إمامًا ، سأل الله أن تكون الأئمةُ من بعده من ذريته ، فأجيب إلى ذلك وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون ، وأنه لا ينالهم عهد الله ، ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم ، والدليل على أنه أجيب إلى طَلِبَتِهِ قول الله تعالى في سورة العنكبوت : { وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ } [العنكبوت : ٢٧] فكل نبي أرسله الله وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه".

(٦) تفسير المراغي:٢١٠/١.

(٧) معاني القرآن:٢٠٥/١.

(٨) تفسير البيضاوي: ١٠٤/١.

(٩) انظر: تهذيب اللغة للأزهري: ١٣٥/١، لسان العرب لابن منظور: ٣١٣٨/٤، الصحاح للجوهري: ٥١٥/٢، تاج العروس للزبيدي: ١٤٤/٥.

(١٠) انظر: تفسير ابن كثير: ٤١٠/١.

(١١) انظر: تفسير الطبري(١٩٦٢):ص٢٤/٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٩٥١):ص٢٤/٢.

(١٣) انظر: تفسير ابن كثير: ٤١٠/١.

والصواب في تفسير قوله تعالى{قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} أن يقال: لا يصيب تعهدي لك بهذا، الظالمين؛ و{ عهدي } فاعل؛ و{ الظالمين } مفعول به؛ أي أجعل من ذريتك إماماً؛ ولكن الظالم من ذريتك لا يدخل في ذلك. والله تعالى أعلم.
واختلفوا في تفسير (العهد) في قوله تعالى: {قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة:١٢٤]، على أقوال:
أحدها : أنه النبوة، وهو قول السدي[١].
والثاني : أنه الإمامة، وهو قول مجاهد[٢]، وعكرمة[٣].
والثالث : أنه الإيمان، وهو قول قتادة[٤]، وإبراهيم[٥].
والرابع : أنه الرحمة، وهو قول عطاء[٦].
والخامس : أنه دين الله، وهو قول أبي العالية[٧]، والربيع[٨]، والضحاك[٩].
والسادس : أنه الجزاء والثواب[١٠].
والسابع : أنه لا عهد عليك لظالم أنه تطيعه في ظلمة، وهو قول ابن عباس[١١].
والثامن: أنه طاعته. قاله الضحاك[١٢]، ومقاتل بن حيان[١٣].
وأظهر هذه الأقوال قول من قال بأن العهد: الإمامة؛ لأنها المصدر بها في الآية، ولكنها إمامة خاصة وهي الإمامة في الدين لا في الدنيا كما يدل عليه السياق، والواقع بل الأظهر: أنها أخص من ذلك وهي النبوة فإن الأنبياء بعد إبراهيم-عليه السلام-كانوا من ذريته[١٤]. والله أعلم.
وفي المراد بقوله:{ الظَّالِمِينَ}[البقرة:١٢٤]، وجوه:
أحدها: أنهم المشركون. قاله سعيد بن جبير[١٥]، والسدي[١٦].
والثاني: أنهم أعداء الله. قاله الضحاك[١٧].
والثالث: أنهم العصاة. كما في ظاهر التنزيل. وهذا قول ابن عباس[١٨]، وروي عن مجاهد[١٩]، وعطاء[١]، ومقاتل بن حيان[٢]، نحو ذلك.

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٩٤٥):ص٢٠/٢، وابن أبي حاتم(١١٨٢):ص٢٢٣/١.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٩٤٦)، و(١٩٤٧)، و(١٩٤٩)، و(١٩٥٠)، و(١٩٥١)، و(١٩٥٣):ص٢٠/٢-٢٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٩٤٨):ص٢١/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٩٥٧)، و(١٩٥٨):ص٢٢/٢-٢٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٩٥٩):ص٢٣/٢.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٨١):ص٢٢٣/١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٨٠):ص٢٢٣/١.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٩٦١):ص٢٣/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٩٦٠):ص٢٣/٢.
(١٠) انظر: النكت والعيون: ١٨٥/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٩٥٤)، و(١٩٥٥)، و(١٩٥٦):ص٢١/٢-٢٢.
(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٨٣):ص٢٢٣/١.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٢٣/١.
(١٤)انظر: البحر المحيط : ٣٧٧/١، مفاتيح الغيب: ٤٥/٤، محاسن التأويل: ٢٤٥/٢.
(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٨٤):ص٢٢٤/١.
(١٦) انظر: زاد المسير:١٤١/١.
(١٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٨٥):ص٢٢٤/١.
(١٨) انظر: تفسير الطبري(١٩٥٤)، و(١٩٥٥)، و(١٩٥٦):ص٢١/٢-٢٢.
(١٩) انظر: تفسير الطبري(١٩٤٦)، و(١٩٤٧)، و(١٩٤٩)، و(١٩٥٠)، و(١٩٥١)، و(١٩٥٣):ص٢٠/٢-

وفي قوله تعالى:{لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[البقرة:١٢٤، ثلاثة قراءات[٣]:
إحداها: {عهدي الظالمون}، وهي قراءة ابن مسعود وطلحة ابن مصرف.
الثانية:{عهدي الظالمين}، مرتجلة الياء، وهي قراءة أبي رجاء والأعمش وحمزة.
والثالثة:{عهدي الظالمين}، بفتح الياء وهي قراءة العامة.
قال الزجاج:" والقراءَة الجيّدة هي على نصب {الظالمين}؛ لأن المصحف. هكذا فيه، وتلك القراءَة جيدة (بالغة) إلا أني لا أقرأ بها، ولا ينبغي أن يُقْرأ بها لأنها خلاف المصحف"[٤].
الفوائد:
١- من فوائد الآية: أن الله قد يبتلي بعض العباد بتكليفات خاصة؛ لقوله تعالى: { وإذ ابتلى إبراهيم ربه) وكما أنه يبتلي بعض العباد بتكليفات خاصة شرعية، فإنه قد يبتليهم بأحكام كونية، مثل: مرض، مصائب في المال، أو في الأهل؛ وما أشبه ذلك.
٢- ومنها: فضيلة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-؛ لقوله تعالى: { ربه } حيث أضاف ربوبيته إلى إبراهيم - وهي ربوبية خاصة -؛ ولقوله تعالى: { فأتمهن }؛ ولقوله تعالى: { إني جاعلك للناس إماماً }.
٣- ومنها: أن من أتم ما كلفه الله به كان من الأئمة؛ لقوله تعالى: { إني جاعلك للناس إماماً }؛ فإنه لما أتمَّهن جوزي على ذلك بأن جُعل للناس إماماً.
٤- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يدعو لذريته بالإمامة، والصلاح؛ لقوله تعالى: { قال ومن ذريتي }؛ وإبراهيم طلب أن يكون من ذريته أئمة، وطلب أن يكون من ذريته من يقيم الصلاة: {رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي} [إبراهيم: ٤٠] .
٥- ومنها: أن الظالم لا يستحق أن يكون إماماً؛ والمراد: الظلم الأكبر - الذي هو الكفر -؛ لقوله تعالى: { لا ينال عهدي الظالمين }.
٦- ومنها: أن الظلم ينزل بأهله إلى أسفل سافلين؛ لا يجعلهم في قمة؛ بل ينزلهم إما في الدنيا؛ وإما في الآخرة.
٧- ومنها: استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك ، وهو الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم ألا ينازعوا الأمر أهله ، على ما تقدم من القول فيه، فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليسوا له بأهل، لقوله تعالى : {لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} ولهذا خرج ابن الزبير والحسين بن علي رضي الله عنهم، وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم على الحجاج ، وأخرج أهل المدينة بني أمية وقاموا عليهم ، فكانت الحرة التي أوقعها بهم مسلم بن عقبة والذي عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه ، لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف ، وإراقة الدماء ، وانطلاق أيدي السفهاء ، وشن الغارات على المسلمين ، والفساد في الأرض. والأول مذهب طائفة من المعتزلة ، وهو مذهب الخوارج ، فاعلمه[٥].
٨- ومن فوائد الآية: أن كل من كان ظالما لم يكن نبيا ولا خليفة ولا حاكما ولا مفتيا ، ولا إمام صلاة ، ولا يقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة ، ولا تقبل شهادته في الأحكام ، غير أنه لا

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٨١):ص٢٢٣/١، و(١١٨٦):ص٢٢٤/١.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٢٣/١، ٢٢٤.
(٣) انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٩/١، وتفسير الطبري:٢٤/٢، والمحرر الوجيز: ٢٠٧/١.
(٤) معاني القرآن: ٢٠٥/١.
(٥) تفسير القرطبي: ١٠٨/٢-١٠٩.

يعزل بفسقه حتى يعزله أهل الحل والعقد. وما تقدم من أحكامه موافقا للصواب ماض غير منقوض. وقد نص مالك على هذا في الخوارج والبغاة أن أحكامهم لا تنقض إذا أصابوا بها وجها من الاجتهاد ، ولم يخرقوا الإجماع ، أو يخالفوا النصوص. وإنما قلنا ذلك لإجماع الصحابة ، وذلك أن الخوارج قد خرجوا في أيامهم ولم ينقل أن الأئمة تتبعوا أحكامهم ، ولا نقضوا شيئا منها ، ولا أعادوا أخذ الزكاة ولا إقامة الحدود التي أخذوا وأقاموا ، فدل على أنهم إذا أصابوا وجه الاجتهاد لم يتعرض لأحكامهم... قال ابن خويز منداد : وأما أخذ الأرزاق من الأئمة الظلمة فلذلك ثلاثة أحوال : إن كان جميع ما في أيديهم مأخوذا على موجب الشريعة فجائز أخذه ، وقد أخذت الصحابة والتابعون من يد الحجاج وغيره. وإن كان مختلطا حلالا وظلما كما في أيدي الأمراء اليوم فالورع تركه ، ويجوز للمحتاج أخذه ، وهو كلص في يده مال مسروق ، ومال جيد حلال وقد وكله فيه رجل فجاء اللص يتصدق به على إنسان فيجوز أن تؤخذ منه الصدقة ، وإن كان قد يجوز أن يكون اللص يتصدق ببعض ما سرق ، إذا لم يكن شيء معروف بنهب ، وكذلك لو باع أو اشترى كان العقد صحيحا لازما - وإن كان الورع التنزه عنه - وذلك أن الأموال لا تحرم بأعيانها وإنما تحرم لجهاتها. وإن كان ما في أيديهم ظلما صراحا فلا يجوز أن يؤخذ من أيديهم. ولو كان ما في أيديهم من المال مغصوبا غير أنه لا يعرف له صاحب ولا مطالب ، فهو كما لو وجد في أيدي اللصوص وقطاع الطريق ، ويجعل في بيت المال وينتظر طالبه بقدر الاجتهاد ، فإذا لم يعرف صرفه الإمام في مصالح المسلمين [١].

القرآن

{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)} [البقرة : ١٢٥]

التفسير:

واذكر -أيها النبي- حين جعلنا الكعبة مرجعًا للناس، يأتونه، ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه، ومجمعًا لهم في الحج والعمرة والطواف والصلاة، وأمنًا لهم، لا يُغِير عليهم عدو فيه. وقلنا: اتخِذوا من مقام إبراهيم مكانًا للصلاة فيه، وهو الحجر الذي وقف عليه إبراهيم عند بنائه الكعبة. وأوحينا إلى إبراهيم وابنه إسماعيل: أن طهِّرا بيتي من كل رجس ودنس؛ للمتعبدين فيه بالطواف حول الكعبة، أو الاعتكاف في المسجد، والصلاة فيه.

وفي سبب نزول الآية، تعددت الروايات على وجوه:

أحدها: قال عمر بن الخطاب : "قلت : يا رسول الله ، لو اتخذت المقام مصلى! فأنزل الله : " واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى "[٢].

والثاني: وأخرج ابن أبي حاتم بسنده الصحيح عن جعفر بن محمد عن أبيه، سمع جابرا يحدث عن حجة النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: "لما طاف النبي- صلى الله عليه وسلم قال له عمر:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠٩/٢-١١٠. والكلام لابن خويز منداد.

(٢)رواه أحمد في المسند : ١٥٧ ، ١٦٠ ، ٢٥٠ ، عن هشيم ، وعن ابن أبي عدي ، وعن يحيى - ثلاثتهم ، عن حميد ، عن أنس . ورواه البخاري أيضًا ، عن مسدد ، عن يحيى . كما ذكره ابن كثير ١ : ٣٠٩ - ٣١٠ ، من رواية البخاري وأحمد ، ثم ذكر أنه رواه أيضًا الترمذي، والنسائي ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : " حسن صحيح " .

هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: نعم قال: أفلا تتخذه مصلى. فأنزل الله تعالى:{وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}"(١).

وأخرج الفاكهي عن عمر قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف فقال: "هذا مقام أبينا إبراهيم"، فقال عمر: أفلا تتخذه مصلى؟ فنزلت {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}"(٢).

الثالث: وحكى الثعلبي عن ابن كيسان قال: "ذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالمقام ومعه عمر فقال: يا رسول الله أليس هذا مقام إبراهيم؟ قال: بلى قال: أفلا نتخذه مصلى؟ قال: لم أؤمر بذلك، فلم تغب الشمس من يومهم حتى نزلت"(٣).

قوله تعالى:{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ}[البقرة:١٢٥]، "أي: اذكر يا محمد للناس إذ صيّرنا الكعبة مرجعا يثوب الناس إليه، ويرجعون إليه من كل أقطار الدنيا"(٤).

قال الطبري: أي" وإذ جعلنا البيت مرجعا للناس ومعاذا، يأتونه كل عام ويرجعون إليه ، فلا يقضون منه وطرا"(٥).

قال الصابوني: "أي واذكر حين جعلنا الكعبة المعظمة مرجعاً للناس يقبلون عليه من كل جانب"(٦).

قال المراغي:" أي واذكروا حين أن جعلنا البيت الحرام مرجعا للناس يثوبون إليه للعبادة ، ويقصدونه لأداء المناسك فيه ، وجعلناه أمنا لاحترام الناس له وتعظيمهم إياه بعدم سفك دم فيه ، حتى كان يرى الرجل قاتل أبيه في الحرم فلا يتعرّض له بسوء ونحو الآية قوله في سورة العنكبوت : {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ}[العنكبوت:٦٧]"(٧).

قال البيضاوي: أي:" مرجعاً يثوب إليه أعيان الزوار أو أمثالهم، أو موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره"(٨).

قال السعدي:" أي: مرجعا يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه، ولا يقضون منه وطرا"(٩).

و{البيت}: اسم غالب للكعبة كالنجم للثريا(١٠).

وفي {البيت} في الآية قولان:

أحدهما: أنه الكعبة، وإلى ذلك ذهب زيد بن أسلم(١١). واختاره القرطبي(١) ، وابن الجوزي(٢)، والواحدي(٣)، والبغوي(٤)، وابن عطية(٥)، وعزاه أبو حيان لجمهور المفسرين(٦)، ويشهد له قوله قوله تعالى: {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ} [المائدة: ٩٧].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم(١١٩٦):ص٢٢٦/١.

(٢) العجاب في بيان الأسباب: ٣٧٦/١-٣٧٧. سنده ضعيف.

(٣) العجاب في بيان الأسباب: ٣٧٨/١، وانظر: اللباب: ٢٩.

(٤) انظر: تفسير ابن عثيمين:٤٤/٢.[بتصرف بسيط].

(٥) تفسير الطبري: ٢٥/٢.

(٦) صفوة التفاسير:٨٣/١.

(٧) تفسير المراغي:٢١١/١.

(٨) تفسير البيضاوي: ١٠٥/١.

(٩) تفسير السعدي:٦٥.

(١٠) انظر: تفسير الكشاف: ٣٠٩/١، وتفسير البيضاوي: ٨١/١، والمحرر الوجيز: ٢٠٧/١، وتفسير أبي السعود: ١٥٦/١، وتفسير فتح القدير: ٢٠٤/١، وروح المعاني: ٣٧٨/١.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٨٩):ص٢٢٤/١.

الثاني: أنه الحرم كله؛ لأنه تعالى وصفه بكونه (آمِنًا) وهذه صفة جميع الحرم لا صفة الكعبة فقط. قاله الرازي(٧).

والقولان محتملان، والثاني أولى لما ذكره الرازي وأبو حيان، والله أعلم.

وفي تفسير قوله تعالى :{مَثَابَةً لِلنَّاسِ}[البقرة:١٢٥]، ثلاثة أوجه:

أحدها : مجمعاً، لاجتماع الناس عليه في الحج والعمرة . وهذا قول سعيد بن جبير(٨)، وروي عن عكرمة وعطاء الخراساني وقتادة(٩)، نحو ذلك(١٠).

والثاني: معاذاً للناس. قاله ابن عباس(١١).

ووجهه أن الناس يثوبون إلى البيت عائذين به وملتجئين إليه لكونه كما قال الله: {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [آل عمران: ٩٧]، وقوله-سبحانه-: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [العنكبوت: ٦٧] أو أنهم يثوبون إليه عائذين بالله-عز وجل-من ذنوبهم وملتجئين إليه من معاصيهم، لأنه لا ملجأ منه-سبحانه-إلا إليه.

والثالث: مرجعاً، من قولهم قد ثابت العلة إذا رجعت، ومنه قيل : ثاب إليه عقله، إذا رجع إليه بعد عزوبه عنه. وهذا قول ابن عباس(١٢)، وروي عن أبي العالية(١٣)، وسعيد بن جبير في إحدى روايته(١٤)، وعطاء(١٥) ومجاهد(١٦)، والحسن(١٧)، وعطية(١٨)، والربيع بن أنس(١٩)، والسدي(٢٠)، وابن زيد(٢١)، والضحاك(٢٢)، وعبدة بن أبي لبابة(٢٣)، نحو ذلك(٢٤).

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١١٠/٢.
(٢) انظر: زاد المسير: ١٤١/١.
(٣) انظر: الوسيط: ٢٠٣/١.
(٤) انظر: تفسير البغوي: ١٤٦/١
(٥) انظر: المحرر الوجيز: ٣٥١/١.
(٦) انظر: البحر المحيط: ٣٧٩/١.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب: ٥٠/٤، والبحر المحيط لأبي حيان: ٣٧٩/١.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٩٢):ص٢٢٥/١.
(٩)انظر: تفسير الطبري(١٩٧٥):ص٢٨/٢.
(١٠) تنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٢٥/١.
(١١) انظر: البحر المحيط: ٣٨٠/١.
(١٢) اتظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٩١):ص٢٢٥/١، وتفسير الطبري(١٩٦٧):ص٢٧/٢.
(١٣) تنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٢٥/١.
(١٤)انظر: تفسير الطبري(١٩٧٢):ص٢٨/٢.
(١٥)انظر: تفسير الطبري(١٩٦٩):ص٢٧/٢.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(١٩٦٣)، و(١٩٦٤)، و(١٩٦٥):ص٢٦/٢-٢٧.
(١٧) تنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٢٥/١.
(١٨)انظر: تفسير الطبري(١٩٧٠):ص٢٧/٢-٢٨.
(١٩)انظر: تفسير الطبري(١٩٧٧):ص٢٩/٢.
(٢٠) انظر: تفسير الطبري(١٩٦٦):ص٢٧/٢.
(٢١)انظر: تفسير الطبري(١٩٧٨):ص٢٩/٢.
(٢٢) تنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٢٥/١.
(٢٣)انظر: تفسير الطبري(١٩٦٨):ص٢٧/٢.
(٢٤) تنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٢٥/١.

ومن ذلك قول ورقة بن نوفل في صفة الحرم[١]:

مثابا لأفناء القبائل كلها ... تخب إليه اليعملات الطلائح

وأكثر المفسرين قد فسروا لفظ {مَثَابَةً} بما وضع له لغة، فقالوا معناه: مرجعا[٢].

والقول الثاني أولى بأن يحمل عليه كلام ابن عباس، لأن في الآية بعد {وَأَمْنًا}، ولو حملت على الوجه الأول لكانت {وَأَمْنًا} للتأكيد، والتأسيس خير منه، وأيضاً فإن العطف يقتضي المغايرة.

وكل هذه الأقوال على أن مثابة: من ثاب يثوب إذا رجع وهو الأظهر، وفسرها عطاء على أنها من الثواب: الذي هو الجزاء، والمعنى: على أن البيت موضع ثواب يثاب فيه الناس بحجهم واعتمارهم فيه[٣].

وفي رجوعهم إليه وجهان[٤]:

أحدهما : أنهم يرجعون إليه المرة بعد المرة . وهذا قول الجمهور[٥].

والثاني : أنهم في كل واحد من نُسُكَيَ الحج والعمرة يرجعون إليه من حل إلى حرم ؛ لأن الجمع في كل واحد من النسكين بين الحل والحرم شرط مستحق .

وقد اختلف أهل اللغة في(المثابة) في السبب الذي من أجله أنثت على قولين[٦]:

---

(١)من أبيات طويلة لورقة بن نوفل في البداية والنهاية لابن كثير ٢ : ٢٩٧ ، والبيت في تفسير أبي حيان ١ : ٣٨٠ ، بهذه الرواية ، وقبل البيت في ذكر أبينا إبراهيم عليه السلام :

فمتبع دين الذي أسس البنا   وكان له فضل على الناس راجح

وأسس بنيانا بمكة ثابتا   تلألأ فيه بالظلام المصابح

مثابا لأفناء . . . .

بنصب " مثابا " بيد أن الشافعي روى هذا البيت في الأم ٢ : ١٢٠ لورقة بن نوفل ، وعجزه . تخب إليه اليعملات الذوامل

وكذلك جاء في القرطبي ٢ : ١١٠:

مثابا لأفناء القبائل كلها   تخب إليها اليعملات الذوامل

وعدها أبو حيان رواية في البيت ، وبهذه الرواية ذكره صاحب اللسان في (ثوب) منسوبا لأبي طالب ، وفي (ذمل) غير منسوب . والظاهر أن الشافعي رحمه الله أخطأ في رواية البيت . وأخطأ صاحب اللسان في نسبته ، اشتبه عليه بشعر أبي طالب في قصيدته المشهورة .

وأفناء القبائل : أخلاطهم ونزاعهم من هاهنا وهاهنا . وخبت الدابة تخب خببا : وهو ضرب سريع من العدو . واليعملات جمع يعملة وهي الناقة السريعة المطبوعة على العمل ، اشتق اسمها من العمل ، والعمل الإسراع والعجلة . والطلائح جمع طليح . ناقة طليح أسفار : جهدها السير وهزلها ، فهي ضامرة هزلا . يعني الإبل أنضاها أصحابها في إسراعهم إلى حج البيت . وأما " الذوامل " في الرواية الأخرى ، فهو جمع ذاملة . ناقة ذمول وذاملة : وهي التي تسير سيرا لينا سريعا .

(٢)انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٣٦٨/١-٣٦٩، جامع البيان للطبري: ٢٦/٣-٢٧، تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢١٠/١-٢١١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١١٠/٢، مجاز القرآن لأبي عبيدة: ٥٤/١، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٦٣، فتح القدير للشوكاني: ٢٠٤/١، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٨١١/١، الكشاف للزمخشري: ٣٠٩/١، محاسن التأويل للقاسمي: ٢٤٧/٢، وغيرها.

(٣)انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٣٥١/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١١٠/٢، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٨٠/١، الدر المصون للسمين: ٣٦٤/١، روح المعاني للألوسي: ٣٧٨/١.

(٤) انظر: النكت والعيون:١٨٦/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري:٢٦/٢-٢٩.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٢٤/٢-٢٥.

أحدهما: أن (الهاء) ألحقت في (المثابة)، لما كثر من يثوب إليه، كما يقال:(سيارة)، لمن يكثر ذلك، (ونسابة). وهو قول بعض نحويي البصرة.
والثاني: أن (المثاب) و(المثابة) بمعنى واحد، نظيرة (المقام) و(المقامة)، و(المقام)، ذكر - على قوله - لأنه يريد به الموضع الذي يقام فيه ، وأنثت (المقامة)، لأنه أريد بها البقعة، وأنكر هؤلاء أن تكون (المثابة) كـ(السيارة)، و(النسابة)، وقالوا : إنما أدخلت الهاء في (السيارة) و(النسابة)، تشبيها لها بـ(الداعية). وهذا قول بعض نحويي الكوفة.
وقرأ الأعمش : {مثابات} على الجمع، لأنه مثابة لكل من الناس لا يختص به واحد منهم {سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ}، فيحتمل أن يكون من الثواب، أي يثابون هناك[١].
قوله تعالى:{وَأَمْنًا}[البقرة:١٢٥]، "أي وجعلناه أمناً للناس"[٢].
قال ابن عثيمين: "أي مكان أمن يأمن الناس فيه على دمائهم، وأموالهم، حتى أشجار الحرم، وحشيشه آمن من القطع"[٣].
قال الحافظ ابن حجر[٤]: " أي: موضع آمن[٥]، وهو كقوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا} [العنكبوت: ٦٧] والمراد ترك القتال فيه[٦].
قال ابن عطية:" معناه: أن الناس يغيرون ويقتتلون حول مكة وهي آمنة من ذلك، يلقى الرجل بها قاتل أبيه فلا يهيجه، لأن الله تعالى جعل لها في النفوس حرمة وجعلها أمنا للناس والطير والوحوش"[٧].
قال الطبري: "وإنما سماه الله (أمنا)، لأنه كان في الجاهلية معاذا لمن استعاذ به ، وكان الرجل منهم لو لقي به قاتل أبيه أو أخيه ، لم يهجه ولم يعرض له حتى يخرج منه ، وكان كما قال الله جل ثناؤه :{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ}[العنكبوت : ٦٧]"[٨].
وقد روي عن ابن زيد في قوله : "{وأمنا} قال ، من أم إليه فهو آمن ، كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له"[٩].

---

(١) تفسير القرطبي: ١١٠/٢، وتفسير البيضاوي: ١٠٥/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين:٤٤/٢.
(٣) تفسير ابن عثيمين:٤٤/٢.
(٤) الفتح:٥١٤/٣.
(٥) انظر: الكشاف للزمخشري: ٣٠٩/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٥١/٤، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٨١/١.
(٦) أي: ترك الجاهليين القتال فيه، وذلك أن الناس كانوا يغيرون ويقتتلون حول الحرم والناس فيه آمنون، حتى إن الرجل يلقى به قاتل أبيه فلا يهيجه ولا يعرض له حتى يخرج منه؛ لأن الله جعل له في النفوس حرمة قال-عز وجل-ممتناً عليهم: {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [قريش: ٤] وقد استدل بهذه الآية قوم على أن الحدود لا تقام في الحرم، وهذا محل نظر فإن الانتصاف من الجناة والضرب على أيدي الظلمة وحراسة البلاد وتأمين السبل من العابثين غاية الأمن، وإنما الآية في مقام الامتنان على أهل الجاهلية، أما في الإسلام فقد أغنى الله عباده بما شرعه لهم من أحكام. انظر: جامع البيان للطبري: ٢٩/٣-٣٠، النكت والعيون للماوردي: ١٨٦/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١١١/٢، المحرر الوجيز لابن عطية: ٣٥٢/١، التحرير والتنوير لابن عاشور: ٧٠٩/١، أحكام القرآن لابن العربي: ٣٨/١.
(٧) المحرر الوجيز: ٢٠٧/١.
(٨) انظر: تفسير الطبري: ٢٩/٢.
(٩) أخرجه الطبري(١٩٧٩):ص٢٩/٢.

وعن الربيع:" قوله :{وأمنا}، يقول : أمنا من العدو أن يحمل فيه السلاح ، وقد كان في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يُسبَوْن"[١].

وعن السدي : أما {أمنا}، فمن دخله كان آمنا"[٢].

وقال مجاهد: "تحريمه ، لا يخاف فيه من دخله"[٣]. وروي عن ابن عباس نحو ذلك[٤].

قوله تعالى: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}[البقرة:١٢٥]، "أي وقلنا لهم اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى"[٥].

واختلف في تفسير قوله تعالى:{مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ }[البقرة:١٢٥]، على أقوال[٦]:

أحدها: أن {مقام إبراهيم}، هو الحج كله. وهو قول ابن عباس[٧]، ومجاهد[٨]، وعطاء[٩]، والشعبي[١٠].

الثاني: أنه عرفة والمزدلفة والجمار. وهو قول عطاء بن أبي رياح[١١]، وروي عن ابن عباس[١٢]، مجاهد[١٣]، والشعبي[١٤]، نحو ذلك.

الثالث: أنه الحرم كله[١٥]. وهو قول مجاهد[١٦]، والنخعي[١٧]، وكذا رواه الكلبي عن أبي صالح[١٨] عن ابن عباس[١٩].

---

(١) أخرجه الطبري(١٩٨٢):ص٢٩/٢.
(٢) أخرجه الطبري(١٩٨٠):ص٢٩/٢.
(٣) أخرجه الطبري(١٩٨١):ص٢٩/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٣):ص٣٠/٢.
(٥) تفسير المراغي:٢١١/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٣/٢-٣٧، وتفسير ابن أبي حاتم: ٣٧١/١ وزاد المسير لابن الجوزي: ١٤١/١، النكت والعيون للماوردي: ١٨٧/١، وتفسير ابن كثير: ١/ ٤١٣-٤١٨.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٠):ص٣٣/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٩٩١):ص٣٣/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٢):ص٣٣/٢.
(١٠)انظر: العيون للماوردي: ١٨٧/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٣):ص٣٣/٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٥):ص٣٣/٢.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٤):ص٣٣/٢.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٦):ص٣٣/٢.
(١٥) الكشف والبيان للثعلبي: ١٤٨/١ ب، البسيط للواحدي: ٨٦/١أ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١١٣/٢، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٨١/١.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٨):ص٣٤/٢.
(١٧) هو: أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي، ثقة فقيه، ورع عابد، كان يرسل ويدلس، توفي عام: ٩٦هـ. انظر: تهذيب الكمال للمزي: ٢٣٣/٢، المراسيل لابن أبي حاتم: ٨، جامع التحصيل للعلائي: ١٦٨، تهذيب التهذيب لابن حجر: ١٧٧/١.
(١٨) هو: أبو صالح باذان، ويقال: باذام مولئ أم هانئ، تابعي صاحب تفسير، متكلم فيه: وثقه العجلي، وقال ابن معين: لا بأس به، وأبى رد حديثه يحمى القطان، وروى عنه شعبة وروايته عنه تعديل كما يقول ابن تيمية. وترك حديثه ابن مهدي والجوزجاني وأبو حاتم والنسائي، واتهمه الأزدي بالكذب، وقال الحافظ: ضعيف يدلس. انظر: الضعفاء للنسائي: ٢٣، الضعفاء للبخاري: ٢٣، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: ٤٣٧/١، مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٣٥٠/٢٤، تهذيب الكمال للمزي: ٦/٤، تهذيب التهذيب لابن حجر: ٤١٦/١.
(١٩) لم أهتدِ إلى من ذكر قول ابن عباس هذا من طريق الكلبي عن أبي صالح. وقد عزاه لابن عباس القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١١٣/٢، وابن الجوزي في زاد المسير: ٢٤١/١، والكوكباني في تفسير المنان:

الرابع: إن المراد بالمقام إنما هو (الحَجَرُ) الذي كان إبراهيم عليه السلام، يقوم عليه لبناء الكعبة، وهذا قول ابن عباس[١]، وسعيد بن جبير[٢].

ثم هؤلاء ذكروا وجهين[٣]:

أحدهما: هو الحجر الذي قام عليه حين رفع بناء البيت[٤]، وهو قول ابن عباس في رواية سعيد ابن جبير عنه[٥]، وروي عن جابر وقتادة وسعيد بن جبير. نحو ذلك[٦].

إذ لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل ، عليه السلام ، به ليقومَ فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار ، كلّما كَمَّل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى ، يطوف حول الكعبة ، وهو واقف عليه ، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها هكذا ، حتى تم جدارات الكعبة ، بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ، ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب في جاهليتها ؛ ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية[٧]:

ومَوطئُ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيًا غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضا[٨].

وثانيهما: وقيل: بل هو الذي وضعته زوج إسماعيل لإبراهيم حيث غسلت رأسه وهو راكب.وهو قول السدي[١]، وحكاه الرازي في تفسيره عن الحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس[٢].

١٢٩٢/٢، وأورده السيوطي في الدر المنثور: ٢٢٣/١ عن ابن عباس، وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم، لكن الذي عند ابن أبي حاتم في التفسير: ٣٧١/١ رقم: ١٢٠٧ عن مجاهد عن ابن عباس، وهو الذي أورده ابن كثير في التفسير: ٢١١/١، والعيني في عمدة القاري: ٢١٢/٩.

(١) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٩):ص٣٥/٢.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم(١١٩٩):ص:٢٢٦/١.

(٣) انظر: تفسير الرازي: ٤٥/٤-٤٦.

(٤) هو قول ابن عباس في رواية سعيد ابن جبير عنه في البخاري-فتح-: ٤٥٦/٦-٤٥٨ رقم: ٣٣٦٤، وقول جابر وقتادة وسعيد بن جبير. انظر: زاد المسير لابن الجوزي: ١٤٢/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٥٣/٤، تفسير ابن أبي حاتم: ٣٧٣/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٨١/١، جامع البيان للطبري: ٣٤/٣-٣٥.

(٥) انظر: البخاري-فتح-: ٤٥٦/٦-٤٥٨ رقم: ٣٣٦٤.

(٦)انظر: زاد المسير لابن الجوزي: ١٤٢/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٥٣/٤، تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٦/١-٢٢٧، والبحر المحيط لأبي حيان: ٣٨١/١، وتفسير للطبري: ٣٤/٣-٣٥.

(٧)البيت في السيرة النبوية لابن هشام (٢٧٣/١). وانظر: تفسير ابن كثير: ٤١٧/١.

(٨) انظر: تفسير ابن كثير: ٤١٧/١-٤١٨).

قال الشيخ ابن عثيمين: " اختلف المؤرخون: هل كان الحجر الذي كان يرفع عليه إبراهيم (ص) بناءَ الكعبة لاصقاً بالكعبة، أو كان منفصلاً عنها في مكانه الآن؛ فأكثر المؤرخين على أنه كان ملصقاً بالكعبة، وأن الذي أخره إلى هذا الموضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وبناءً على ذلك يكون للخليفة حق النظر في إزاحته عن مكانه إذا رأى في ذلك المصلحة؛ أما إذا قلنا: إن هذا مكانه على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فالظاهر أنه لا يجوز أن يغير؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أقره؛ وإذا أقره النبي صلى الله عليه وسلم فليس لنا أن نؤخره عنه؛ وقد كتب أحد طلبة العلم رسالة في هذا الموضوع، وقرَّظها الشيخ عبد العزيز بن باز، ورأى أنه يجوز إزاحته عن مكانه من أجل المصلحة والتوسعة بناءً على المشهور عند المؤرخين أنه كان لاصقاً بالكعبة، ثم أُخِّر؛ وهذا لا شك أنه لو أُخِّر عن مكانه فيه دفع مفسدة وهي مفسدة هؤلاء الذين يتجمعون عنده في المواسم؛ وفيه نوع مفسدة وهي أنه يبعد عن الطائفين في غير أيام المواسم؛ فهذه المصالح متعارضة هنا: هل الأولى بقاؤه في مكانه؟ أو الأولى تأخيره عن مكانه؟ فإذا كانت المصالح متكافئة فالأولى أن يبقى ما كان على ما كان، وحذراً من التشويش واختلاف الآراء في هذه المسألة؛ ومسألة تضييق المصلين على الطائفين هذا يمكن زواله بالتوعية إذا أفادت؛ أو بالمنع بالقهر إذا لم تفد؛ وفي ظني أنها قلت في السنوات الأخيرة بعض الشيء؛ لأن الناس صار عندهم وعي".(انظر: تفسيره: ٢٢/٢).

وقال ابن جبير ناقداً هذا القول :"ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه"[٣].
خامسا: وقال آخرون : بل {مقام إبراهيم}، هو مقامه الذي هو في المسجد الحرام. قاله قتادة[٤]، والربيع[٥]، والسدي[٦].
والراجح: أن المقام هو (الحجر)[٧] لما يعضده هذا القول من الأخبار، إذ ثبت بالأخبار أنه قام على هذا الحجر عند المغتسل ولم يثبت قيامه على غيره فحمل هذا اللفظ وعليه أكثر أهل العلم. وقد ثبت دليله عند مسلم[٨][٩] من حديث جابر[١٠]، وعند البخاري أيضاً[١١].
واختلف في معنى قوله تعالى: {مُصَلًّى} [البقرة : ١٢٥]، على قولين[١٢]:
أحدهما: مَدْعَى يَدْعِي فيه ، وهو قول مجاهد[١٣].
وهؤلاء وَجَّهوا (المصلًّى) إلى أنه (مُفَعَّل) ، من قول القائل : (صليت) بمعنى دعوت، وقائلوا هذا القول، هم الذين قالوا : إن مقام إبراهيم هو الحج كله.
ومعنى الآية على هذا القول: واتخذوا عرفة والمزدلفة والمشعر والجمار ، وسائر أماكن الحج التي كان إبراهيم يقوم بها مَدَاعِيَ تدعوني عندها ، وتأتمون بإبراهيم خليلي عليه السلام فيها ، فإني قد جعلته لمن بعده - من أوليائي وأهل طاعتي - إماما يقتدون به وبآثاره ، فاقتدوا به.
والثاني : أنه مصلى يصلي عنده ، وهو قول قتادة[١٤]، والسدي[١]، والحسن البصري[٢].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٢):ص٣٥/٢-٣٦، وتفسير القرطبي: ١١٣/٢، وقال ابن الجوزي في زاد المسير: ١٤٢/١: ذكره السدي عن ابن مسعود وابن عباس.
(٢) تفسير ابن كثير: ٤١٤/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(١١٩٩):ص٢٢٦/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٠):ص٣٥/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠١):ص٣٥/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٢):ص٣٥/٢.
(٧) وقد اختار ذلك أيضاً وصوبه: الطبري في جامع البيان: ٣٨/٣، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١١٢/٢، والماوردي في النكت والعيون: ١٨٧/١، وابن الجوزي في زاد المسير: ١٤١/١، وابن العربي في أحكام القرآن: ٤٠/١، والشوكاني في فتح القدير: ٢٠٥/١، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٢١٣/١، وقد حكى اتفاق المحققين عليه الرازي في مفاتيح الغيب: ٥٣/٤، وأبو حيان في البحر المحيط: ٣٨١/١.
(٨) هو: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، إمام حافظ، ثقة حجة، عالم بالفقه، صاحب الصحيح، توفي عام: ٢٦١هـ. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ١٩٤/٥، سير أعلام النبلاء: ٥٥٧/١٢، تذكرة الحفاظ: ٥٨٨/٢، وكلاهما للذهبي، تقريب التهذيب لابن حجر: ٩٣٨.
(٩) أخرجه مسلم في صحيحه: ٨٨٦/١-٨٨٧ رقم: ١٢١٨ وفيه: (حتى إذا أتينا البيت معه، استلم الركن فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبرا هيم-عليه السلام-فقرأ {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} فجعل المقام بينه وبين البيت).
(١٠) هو: أبو عبد الله جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري السَّلَمي-بفتحتين-صحابي ابن صحابي، أحد المكثرين من الرواية، شهد العقبة وتسعة عشر غزوة، ولم يشهد بدراً واحداً، منعه أبوه، توفي عام: ٧٨هـ، وقيل غير ذلك. انظر: أسد الغابة لابن الأثير: ٣٠٧/١، الاستيعاب لابن عبد البر: ٢١٩/١، تهذيب الكمال للمزي: ٤٤٣/٤، الإصابة لابن حجر: ٤٣٤/١.
(١١) انظر: البخاري في جامعه-فتح-: ٦٠١/١ رقم: ٤٠٢ من حديث أنس عن عمر قال: (وافقت ربي في ثلاث: فقلت يا رسول الله: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت (وَاتَّخذُوا من مَّقَام إبرَاهيمَ مُصَلًّى)... الحديث).
(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٧/٢-٣٨
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٤):ص٣٧/٢.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٥):ص٣٧/٢.

والقول الثاني هو الراجح، لما يسنده من الخبر عن عمر بن الخطاب وجابر بن عبد الله ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]. والله تعالى أعلم.
قال الشيخ السعدي: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}، يحتمل أن يكون المراد بذلك، المقام المعروف الذي قد جعل الآن، مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا، ركعتا الطواف، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم، وعليه جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون المقام مفردا مضافا، فيعم جميع مقامات إبراهيم في الحج، وهي المشاعر كلها: من الطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، ومزدلفة ورمي الجمار والنحر، وغير ذلك من أفعال الحج، فيكون معنى قوله: {مُصَلًّى} أي: معبدا، أي: اقتدوا به في شعائر الحج، ولعل هذا المعنى أولى، لدخول المعنى الأول فيه، واحتمال اللفظ له"[4].
واختلفت القرأة في قراءة {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} على وجهين [5]:
أحدهما:{ وَاتَّخِذُوا}، بكسر (الخاء)، على وجه الأمر باتخاذه مصلى، قرأ بها ابن كثير وعاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي.
وفي توجيه قراءة الجمهور أربعة أقوال:
أحدها: أنه معطوف على ما تضمنه قوله: {مَثَابَةً} كأنه قال: ثوبوا واتخذوا[6].
الثاني: أنه معمول لمحذوف أي: وقلنا اتخذوا[7].
الثالث: أن يكون الواو للاستئناف[8].
الرابع: أن قوله {وَاتَّخِذُوا} معطوفة على {اذكُرُوا} [لبقرة: ١٢٢]، إذا قيل بأن الخطاب هنا لبني إسرائيل، أي: اذكروا نعمتي واتخذوا، ولم يرتض هذا الوجه الطبري[9]، واستبعده أبو حيان[10].

والثاني: { وَاتَّخَذُوا} بفتح (الخاء) على وجه الخبر. وهي قراءة نافع وابن عامر. ثم اختلف في الذي عطف عليه بقوله : (واتخذوا) إذ قرئ كذلك ، على وجه الخبر، وذكروا فيه ثلاثة أوجه:

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٦):ص٣٧/٢.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٥٤/٤، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٨١/١. ولفظه:" أي: قبلة". وتعبير الحسن أولى من تعبير قتادة والسدي، لأن الصلاة أمامه أو بحذائه يطلق عليها صلاة عنده وليس هذا مراداً-رحمة الله على الجميع-.

(٣) أي الاستدلال على مشروعية الصلاة ركعتين خلف المقام، انظر البخاري-فتح-: ٥٩٥/١.
(٤) تفسير السعدي: ٦٥/١.
(٥) انظر:السبعة في القراءات: ١٧٠، و تفسير الطبري: ٣٠/٢-٣١.وتفسير القرطبي: ١١١/٢.
(٦) انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ٣٨١/١، والدر المصون للسمين: ٢٦٤/١، واستبعده أبو حيان في البحر.
(٧) هو قول الزمخشري في الكشاف: ٣١٠/١، وأبي حيان في البحر المحيط: ٣٨١/١، وانظر: الدر المصون للسمين: ٣٦٤/١.
(٨) هو قول أبي البقاء العكبري في إملاء ما من به الرحمن: ٦٢/١. وهناك قول رابع: وهو أن (وَاتَّخِذُوا) معطوفة على {اذكُرُوا} [لبقرة: ١٢٢]، إذا قيل بأن الخطاب هنا لبني إسرائيل، أي: اذكروا نعمتي واتخذوا، ولم يرتض هذا الوجه ابن جرير في جامع البيان: ٢١/٣-٢٢، واستبعده أبو حيان في البحر المحيط: ٣٨١/١، وانظر الدر المصون للسمين: ٣٦٤/١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١١١/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري: ٢١/٣-٢٢.
(١٠) انظر: البحر المحيط: ٣٨١/١.

الأول: أنه معطوف على تقدير (إذ)، كأنه قال: وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ، [وإذ] اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. قاله بعض نحويي البصرة[١].
والثاني: أنه معطوف على قوله :(جعلنا)، فكان معنى الكلام على قوله : وإذ جعلنا البيت مثابة للناس ، واتخذوه مصلى. وهو قول بعض نحويي الكوفة[٢].
فعلى الأول الكلام جملة واحدة ، وعلى الثاني جملتان.
والثالث: وقيل: على محذوف تقديره: فثابوا، أي: رجعوا واتخذوا[٣]
والراجح في القراءة: (واتخذوا) بكسر (الخاء)، على تأويل الأمر باتخاذ مقام إبراهيم مصلى ، للخبر الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن أنس بن مالك قال ، قال عمر بن الخطاب : قلت : يا رسول الله ، لو اتخذت المقام مصلى! فأنزل الله : " واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى "[٤].

قال الحافظ ابن حجر: "والجمهور[٥] على كسر الخاء من قوله: (وَاتَّخِذُوا) بصيغة الأمر"[٦].

قوله تعالى:{وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ}[البقرة:١٢٥]، "أي: ووصينا إبراهيم وإسماعيل"[٧].

قال البيضاوي: أي:" أمرناهما"[٨].

قال المراغي:" أي ووصينا إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من كل رجس معنوى كالشرك بالله وعبادة الأصنام ، أو رجس حسى كاللغو والرفث والتنازع فيه ، حين أداء العبادات كالطواف به والسعى بين الصفا والمروة والعكوف فيه والركوع والسجود"[٩].

قال أهل العلم: "وفي الآية إيماء إلى أن إبراهيم كان مأمورا هو ومن بعده بهذه العبادات ، ولكن لا دليل على معرفة الطريق التي كانوا يؤدونها بها ، وسماه الله بيته لأنه جعله معبدا للعبادة الصحيحة ، وأمر المصلين بأن يتوجهوا في عبادتهم إليه"[١٠].

---

(١) هو قول الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ٢٠٧/١، والمهدوي في شرح الهداية: ١٨٢/١، ومكي في الكشف عن وجوه القراءات السبع: ٢٦٣/١.
(٢) هو قول الفراء في معاني القرآن: ٧٧/١، والنحاس في إعراب القرآن: ٢٥٩/١، والزمخشري في الكشاف: ٣١٠/١، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١١١/٢.
(٣) هو قول أبي البقاء العكبري في إملاء ما من به الرحمن: ٦٢/١.
(٤)رواه أحمد في المسند : ١٥٧ ، ١٦٠ ، ٢٥٠ ، عن هشيم ، وعن ابن أبي عدي ، وعن يحيى - ثلاثتهم ، عن حميد ، عن أنس . ورواه البخاري أيضًا ، عن مسدد ، عن يحيى . كما ذكره ابن كثير ١ : ٣٠٩ - ٣١٠ ، من رواية البخاري وأحمد ، ثم ذكر أنه رواه أيضًا الترمذي، والنسائي ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : " حسن صحيح " .
(٥) أي: جمهور القراء، انظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري: ٢١٤/٢، السبعة لابن مجاهد: ١٧٠، الغاية في القراءات العشر لابن مهران: ١٠٦، الإقناع في القراءات السبع لابن الباذش: ٦٠٢/٢، الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي: ٢٦٣/١-٢٦٤، الدر المصون للسمين: ٣٦٤/١، شرح الهداية للمهدوي: ١٨١/١.
(٦) الفتح:١٨/٨.
(٧) تفسير المراغي:٢١٢/١.
(٨) تفسير البيضاوي: ١٠٥/١.
(٩) تفسير المراغي:٢١١/١.
(١٠) تفسير المراغي:٢١١/١.

وفي قوله تعالى:{وَعَهِدْنَآ إِلَى إِبْرَاهِمَ وَإِسْمَاعِيلَ}[البقرة:١٢٥]، تأويلان[١]:
أحدهما : أي أَمَرْنَا. وهذا قول عطاء[٢]، وابن زيد[٣].
والثاني : أي: أوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل[٤].

و{إِسْمَاعِيل}: هو ابن إبراهيم؛ وهو أبو العرب؛ وهو الذبيح على القول الصحيح؛ يعني: هو الذي أمر الله إبراهيم أن يذبحه؛ وهو الذي قال لأبيه: {يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين} [الصافات: ١٠٢] ؛ وقول من قال: (إنه إسحاق) بعيد؛ وقد قال بعض أهل العلم: إن هذا منقول عن بني إسرائيل: لأن بني إسرائيل يودون أن الذبيح إسحاق؛ لأنه أبوهم دون إسماعيل؛ لأنه أبو العرب عمهم؛ ولكن من تأمل آيات «الصافات» تبين له ضعف هذا القول.

قوله تعالى:{ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ}[البقرة:١٢٥]، "أي أمرناهما بأن يصونا البيت من الأرجاس والأوثان"[٥].

قال صاحب الكشاف: أي "طهراه من الأوثان والأنجاس وطواف الجنب والحائض والخبائث كلها ، أو أخلصاه لهؤلاء لا يغشه غيرهم"[٦].
قال أبو السعود:" أي أمرناهما أمراً مؤكداً"[٧].

قال البيضاوي:" يريد طهراه من الأوثان والأنجاس وما لا يليق به، أو أخلصاه"[٨].
قال القاسمي:" أي عن كل رجس حسيّ ومعنويّ: فلا يفعل بحضرته شيء لا يليق في الشرع. أو ابنياه على طهر من الشرك بي. كما قال تعالى:{وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}[الحج: ٢٦] ، أو أخلصاه للطائفين وما بعده لئلا يغشاه غيرهم. فاللام صلة «طهرا» على هذا. وعلى ما قبله، لام العلة. أي طهراه لأجلهم"[٩].
قال ابن عطية:" وأضاف الله (البيت) إلى نفسه تشريفا للبيت، وهي إضافة مخلوق إلى خالق ومملوك إلى مالك"[١٠].

واختلف في تفسير قوله تعالى:{أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ}[البقرة:١٢٥]، على أوجه[١١]:
أحدها : من الأصنام . قاله ابن عباس[١٢]، ومجاهد[١٣]، وابن زيد[١٤]، وروي عن عبيد بن عمير[١]، وسعيد بن جبير[٢]، نحو ذلك.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣٨/٢، والنكت والعيون: ١٨٧/١-١٨٨.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٧):ص٣٨/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٨):ص٣٨/٢.
(٤) انظر: النكت والعيون: ١٨٧/١-١٨٨.
(٥) صفوة التفاسير: ٨٣/١.
(٦) تفسير الكشاف: ١٨٥/١.
(٧) انظر: تفسير أبي السعود: ١٥٧/١.
(٨) تفسير البيضاوي: ١٠٥/١.
(٩) محاسن التأويل: ٣٤٩/١.
(١٠) المحرر الوجيز: ٢٠٨/١.
(١١) انظر: النكت والعيون: ١٨٨/١.
(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٠٥):ص٢٢٧/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٤):ص٤٠/٢.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٠):ص٣٩/٢-٤٠.

والثاني : من الشرك. قاله مجاهد[3]، روي عن سعيد بن جبير[4]، وأبي العالية[5]، وقتادة[6]، وعطاء[7] نحوه.
والثالث : من الأنجاس. روي عن سعيد بن جبير نحوه[8].
والرابع: وقيل: "من الفرث والدم"[9].
قال ابن عطية: "وهذا ضعيف لا تعضده الأخبار"[10].

والراجح أن تطهير البيت يقصد به : تطهيره من الأرجاس الحسية والمعنوية، أي: إعداده وتخصيصه للمؤمنين باللّه ، فلا يقربه مشرك ، ولا يطوف به ، ولا يعكف فيه إلا مؤمن خالص الإيمان، و(أنْ) تفسيرية؛ لأنّ (عهدنا) فيه معنى القول دون حروفه؛ أي أنّ العهد هو قوله تعالى: (طَهِّرَا بَيْتِيَ)؛ و(طَهِّرَا) فعل أمر؛ و(بيتي) المراد به الكعبة؛ وأضافها الله سبحانه وتعالى إلى نفسه إضافة تشريف. والله أعلم.

قال الرازي: ويقصد بتطهير البيت: "التطهير من كل أمر لا يليق بالبيت، فإذا كان موضع البيت وحواليه مصلى وجب تطهيره من الأنجاس والأقذار، وإذا كان موضع العبادة والإخلاص لله تعالى: وجب تطهيره من الشرك وعبادة غير الله، وكل ذلك داخل تحت الكلام"[11].

وإن قيل : فلم يكن على عهد إبراهيم ، قبل بناء البيت بيت يطهر، قيل : عن هذا جوابان[12]:
أحدهما : معناه وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن ابنيا بيتي مُطَهَّراً ، وهذا قول السدي[13].
والثاني : معناه أن طهرا مكان البيت[14].

قوله تعالى: {لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود}[البقرة:١٢٥]، أي:" ليكون معقلاً للطائفين حوله والمعتكفين الملازمين له والمصلين فيه"[15].

وقوله تعالى:{لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود}[البقرة:١٢٥]، اختلف في هذه الاوصاف الثلاثة على قولين[16]:

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٢٠١١):ص٤٠/٢.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٠٦):ص٢٢٧/١، وزاد "والريب، وقول الزور والرجس".
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٣):ص٤٠/٢.
(٤)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٠٧):ص٢٢٨/١.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٨/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٥):ص٤٠/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٨/١.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٠٦):ص٢٢٧/١.
(٩) المحرر الوجيز: ٢٠٨/١.
(١٠) المحرر الوجيز: ٢٠٨/١.
(١١) تفسير الرازي: ٤٨/٤-٤٩.
(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٣١/٢، والنكت والعيون:١٨٨/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٩):ص٣٩/٢.
(١٤) انظر: النكت والعيون:١٨٨/١.
(١٥) صفوة التفاسير:٨٣/١.
(١٦) انظر: مفاتيح الغيب: ٤٧/٤.

القول الأول:أن تلك الأوصاف الثلاثة على فرق ثلاثة، لأن من حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه، فيجب أن يكون الطائفون غير العاكفين والعاكفون غير الركع السجود لتصح فائدة العطف، وعلى هذا القول يمكن تعريف الأوصاف الثلاثة كالآتي:

أ- (لِلطَّائِفِينَ): فالمراد بـ(الطَّائِفِينَ) : كل من يقصد البيت حاجا أو معتمرا فيطوف به فاللام هذه للتعليل أي لأجلهم.

وقد اختلف أهل التفسير في معنى {الطَّائِفِينَ}[البقرة:١٢٥]، في هذا الموضع على وجهين[١]:

الأول: أنهم الغرباء الذين يأتون البيت الحرام من غَرْبَةٍ، أي من أتاه من مكان بعيد. قاله سعيد بن جبير[٢].

الثاني:أنهم الذين يطوفون به ، غرباء كانوا أو من أهله. وهذا قول عطاء[٣]، ومقاتل[٤].

والقول الثاني أولى، لأن (الطائف): هو الذي يطوف بالشيء دون غيره، والطارئ من غَرْبَةٍ لا يستحق اسم (طائف بالبيت)، إن لم يطف به.

ب-{الْعَاكِفِينَ}: كل من يقيم هناك ويجاور. فالعاكف على الشيء " ، هو المقيم عليه ، كما قال نابغة بني ذبيان[٥]:

عكوفا لدى أبياتهم يثمدونهم ... رمى الله في تلك الأكف الكوانع

قال الطبري: "وإنما قيل للمعتكف (معتكف)، من أجل مقامه في الموضع الذي حبس فيه نفسه لله تعالى"[٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢/٤٠-٤١. ذكر الطبري أخبارا لكل من القولين: عن سعيد بن جبير في قوله : " للطائفين " قال ، من أتاه من غربة. و عن عطاء : " للطائفين " قال ، إذا كان طائفا بالبيت فهو من " الطائفين".

(٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢١١):ص١/٢٢٨.

(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٩):ص١/٢٢٨.

(٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١/٢٢٨.

(٥)ديوانه : ٦٣ من أبيات قالها لزرعة بن عامر العامري . حين بعثت بنو عامر إلى حصن بن حذيفة وابنه عيينة بن حصن : أن اقطعوا حلف ما بينكم وبين بني أسد ، وألحقوهم ببني كنانة ، ونحالفكم ونحن بنو أبيكم . وكان عيينة هم بذلك ، فقالت بنو ذبيان : أخرجوا من فيكم من الحلفاء ، ونخرج من فينا! فأبوا ، فقال النابغة : ليهن بني ذبيان أن بلادهم ... خلت لهم من كل مولى وتابع سوى أسد ، يحمونها كل شارق ... بألفي كمي ، ذي سلاح ، ودارع ثم مدح بني أسد ، وذم بني عبس ، وتنقص بني سهم ومالك من غطفان وعبد بن سعد بن ذبيان ، وهجاهم بهذا البيت الذي استشهد به الطبري ، ورواية الديوان " قعودا " ، و " يثمدونها " ، والضمير للأبيات .

وقوله : " يثمدونهم " أصله من قولهم : " ثمد الماء يثمده ثمدا " ، نبث عنه التراب ليخرج . وماء مثمود : كثر عليه الناس حتى فني ونفد إلا أقله . وأخذوا منه : " رجل مثمود " ، إذا ألح الناس عليه في السؤال ، فأعطى حتى نفد ما عنده . يقول : يظل بنو سعد ومالك لدى أبيات عبد بن سعد يستنزفون أموالهم . يصفهم بالخسة وسقوط الهمة . ومن روى : " يثمدونها " وأعاد الضمير إلى " أبياتهم " ، فهو مثله ، في أنهم يلازمون بيوتهم ويسترزقونها ، يهزأ بهم .

والكوانع جمع كانع : وهو الخاضع الذي تدانى وتصاغر وتقارب بعضه من بعض ، كأنه يتقبض من ذلته . يصفهم بالخسة والطمع والسؤال الذليل . وقوله : " رمى الله " يعني أصابها بما يستأصلها ، ورواية الديوان : " في تلك الأنوف " ، فمعناه : رمى فيها بالجدع ، وهو دعاء عليهم ، واشمئزاز من حقارتهم .(تفسير الطبري: ٢/٤١).

(٦) تفسير الطبري: ٢/٤٢.

قال صاحب الكشاف: (وَالْعَاكِفِينَ) أي " المجاورين الذين عكفوا عنده، أى أقاموا لا يبرحون، أو المعتكفين، ويجوز أن يريد بالعاكفين الواقفين يعنى القائمين في الصلاة.. لأنّ القيام والركوع والسجود هيآت المصلى"[١].

وعلى هذا اختلف فيمن عنى الله بقوله {وَالْعَاكِفِينَ}[البقرة:١٢٥]، على أقوال[٢]:

أحدها: أنه عنى به الجالس في البيت الحرام بغير طواف ولا صلاة. قاله ابن عباس[٣]، وعطاء[٤].

والثاني: أنهم المعتكفون المجاورون. قاله مجاهد[٥]، وعكرمة[٦].

والثالث:أنهم أهل البلد الحرام. قاله قتادة[٧]، و سعيد بن جبير[٨]، وروي عن الربيع[٩]، نحو ذلك.

الرابع: أنهم المصلون. قاله ابن عباس[١٠].

والراجح: أن (العاكف) في هذا الموضع ، المقيم في البيت مجاورا فيه بغير طواف ولا صلاة، لأن صفة " العكوف " ما وصفنا : من الإقامة بالمكان. والمقيم بالمكان قد يكون مقيما به وهو جالس ومصل وطائف وقائم ، وعلى غير ذلك من الأحوال. فلما كان تعالى ذكره قد ذكر - في قوله :{أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود} - المصلين والطائفين ، علم بذلك أن الحال التي عنى الله تعالى ذكره من " العاكف " ، غير حال المصلي والطائف ، وأن التي عنى من أحواله ، هو العكوف بالبيت ، على سبيل الجوار فيه ، وإن لم يكن مصليا فيه ولا راكعا ولا ساجدا[١١]".

ج-{الرُّكَّعِ السُّجُود}: كل من يصلي هناك، واختلف المفسرون في معناه على قولين[١٢]:

أحدهما: أن المراد بـ{الركع السجود}، المصلين. قاله ابن عباس[١٣]، وعطاء[١٤]، وقتادة[١٥]، ومقاتل[١٦].

قلت: عبر عن الصلاة بالركوع والسجود؛ لأنهما ركنان فيها؛ فإذا أطلق جزء العبادة عليها كان ذلك دليلاً على أن هذا الجزء ركن فيها لا تصح بدونه؛ و(الرُّكَّع) جمع راكع؛ و(السُّجُودِ) جمع ساجد.

---

(١) تفسير الكشاف: ١٨٥/١.
(٢) تفسير الطبري: ٤٢/٢-٤٣.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢١٢):ص٢٢٨/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٩):ص٤٢/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٠):ص٤٢/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٠):ص٤٣/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢١٣):ص٢٢٨/١.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٢):ص٤٢/٢-٤٣.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٨/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٣):ص٤٣/٢.
(١١) تفسير الطبري: ٤٣/٢.
(١٢) تفسير الطبري: ٤٤/٢.
(١٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢١٦):ص٢٢٩/١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٤):ص٤٤/٢.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٥):ص٤٤/٢.
(١٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٢٩/١.

قال ابن عطية:" وخص الركوع والسجود بالذكر لأنهما أقرب أحوال المصلي إلى الله تعالى"[١].
القول الثاني: وقيل: أنه إذا كان طائفا فهو من الطائفين، وإذا كان جالسا فهو من العاكفين، وإذا كان مصليا فهو من الركع السجود، وهو قول عطاء[٢].

والصواب هو القول الأول، لأن من حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه. والله تعالى أعلم.

وهنا بدأ بـ(الطائفين)؛ لأن عبادتهم خاصة بهذا المسجد؛ ثم بـ(العاكفين }؛ لأن عبادتهم خاصة بالمساجد؛ لكنها أعم من الطائفين؛ وثلّث بـ(الرُّكَّعِ السُّجُود)؛ لأن ذلك يصح بكل مكان بالأرض؛ لقوله، عليه الصلاة والسلام:"جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً"[٢]؛ فإذاً يكون الله سبحانه وتعالى بدأ بالأخص فالأخص[٣].

الفوائد

١-من فوائد الآية: فضيلة البيت الحرام من وجهين: أنه مثابة؛ وأمن، فقوله تعالى : {وَأَمْناً} استدل به أبو حنيفة وجماعة من فقهاء الأمصار على ترك إقامة الحد في الحرم على المحصن والسارق إذا لجأ إليه ، وعضدوا ذلك بقوله تعالى : {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً} [آل عمران : ٩٧] كأنه قال : آمنوا من دخل البيت. والصحيح إقامة الحدود في الحرم ، وأن ذلك من المنسوخ ، لأن الاتفاق حاصل أنه لا يقتل في البيت ، ويقتل خارج البيت. وإنما الخلاف هل يقتل في الحرم أم لا ؟ والحرم لا يقع عليه اسم البيت حقيقة. وقد أجمعوا أنه لو قتل في الحرم قتل به ، ولو أتى حدا أقيد منه فيه ، ولو حارب فيه حورب وقتل مكانه. وقال أبو حنيفة : من لجأ إلى الحرم لا يقتل فيه ولا يتابع ، ولا يزال يضيق عليه حتى يموت أو يخرج. فنحن نقتله بالسيف ، وهو يقتله بالجوع والصد ، فأي قتل أشد من هذا. وفي قوله : "وأمنا" تأكيد للأمر باستقبال الكعبة ، أي ليس في بيت المقدس هذه الفضيلة ، ولا يحج إليه الناس ، ومن استعاذ بالحرم أمن من أن يغار عليه[٤].

٢- ومنها: ظهور رحمة الله؛ فإنه لما جعل هذا البيت مثابة، والناس لابد أن يرجعوا إليه رحمهم بأن جعله أمناً؛ وإنما أحلها الله لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ساعة من نهار للضرورة؛ وهي ساعة الفتح؛ ثم قال -صلى الله عليه وسلم-: "وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس» ؛ ثم أورد -صلى الله عليه وسلم- سؤالاً قال فيه: "فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم"[١] ؛ والحكم لله العلي الكبير: أذِن للرسول في تلك الساعة؛ ولكنه لم يأذن لأحد بعده كما لم يأذن لأحد قبله؛ ولهذا نُهي عن حمل السلاح في الحرم حتى يبقى كل إنسان آمناً؛ ولما طعن ابن عمر رضي الله عنهما وهو على راحلته في منى طعنه أحد الخوارج بسنان الرمح في أخمص قدمه حتى لزقت قدمه بالركاب جاءه الحجاج يعوده، فقال الحجاج: لو نعلم من أصابك؟! فقال ابن عمر: أنت أصبتني! قال: وكيف؟ قال: "حملت السلاح في يوم لم

---

(١) المحرر الوجيز:٢٠٨/١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٤٧/٤، وانظر: تفسير الطبري(٢٠٢٥):ص٤٤/٢، ولفظه هناك:" إذا كان يصلي فهو من {الركع السجود}".

(٢) سبق تخريجه ٣٤٤/١.

(٣) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٩/٢.

(٤) تفسير القرطبي: ١١١/٢.

(١) أخرجه البخاري ص١٢، كتاب العلم، باب ٣٧: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، حديث رقم ١٠٤، وأخرجه مسلم ص٩٠٣ - ٩٠٤، كتاب الحج، باب ٨٢: تحريم مكة وتحريم صيدها...، حديث رقم ٣٣٠٤ [٤٤٦] ١٣٥٤.

يكن يحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم ولم يكن السلاح يدخل الحرم"[٢] ؛ وبهذا تعرف عظم جرم أولئك الذين يوقعون المخاوف بين المسلمين في مواسم الحج، وأنهم والعياذ بالله من أعظم الناس جرماً؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل هذا البلد آمناً في كل وقت؛ فكيف في وقت أداء مناسك الحج التي ما أُمِّن والله أعلم إلا لأجلها.
٣-ومن فوائد الآية: أنه ينبغي أن يكون كل مكان مثابة للناس أمناً؛ ولهذا كره أهل العلم أن يحمل السلاح في المساجد؛ قالوا: لأن المساجد محل أمن؛ لكن إذا كان المراد من حمل السلاح حفظ الأمن كان مأموراً به.
٤- ومنها: وجوب اتخاذ المصلى من مقام إبراهيم؛ لقوله تعالى: { واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًّى }؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب؛ فإن قلنا بأن المراد بالمقام جميع مناسك الحج فلا إشكال؛ لأن فيه ما لا يتم الحج إلا به كالوقوف بعرفة، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة؛ ومنه ما يصح الحج بدونه مع وجوبه كالمبيت بمزدلفة، ورمي الجمرات؛ ومنه ما يصح الحج بدونه وليس بواجب، كصلاة الركعتين بعد الطواف على المشهور؛ وإذا قلنا: المراد به الركعتان بعد الطواف صار فيه إشكال: فإن جمهور العلماء على أنهما سنة؛ وذهب الإمام مالك إلى أنهما واجبتان؛ والذي ينبغي للإنسان: أن لا يدعهما؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم فسر الآية بهما، حيث تقدم إلى مقام إبراهيم بعد الطواف، فقرأ: { واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى }.
٥ -ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يثيب العامل بأكثر من عمله؛ فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لما أتم الكلمات جعله الله تعالى إماماً للناس، وأمر الناس أن يتخذوا من مقامه مصلًّى؛ وهذا بعض من إمامته.
٦- ومنها: وجوب تطهير البيت من الأرجاس الحسية، والمعنوية؛ لقوله تعالى: { وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا }؛ والعهد هو الوصية بالأمر الهام؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا} [التوبة: ٢٨] ؛ ولهذا لا يجوز للمشركين وغيرهم من أهل الكفر أن يدخلوا أميال الحرم؛ لأنهم إذا دخلوها قربوا من المسجد الحرام والله تعالى يقول: {فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا} [التوبة: ٢٨] .
٧- ومن فوائد الآية: اشتراط طهارة مكان الطواف؛ لقوله تعالى: { للطائفين }.
٨ - ومنها: اشتراط طهارة لباس الطائفين من باب أولى، وأنه لا يجوز أن يطوف بثوب نجس؛ لأن ملابسة الإنسان للثياب ألصق من ملابسته للمكان.
٩- ومنها: أن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة؛ لقوله تعالى: { وطهرا بيتي للطائفين }؛ ولهذا قال العلماء: يشترط لصحة الطواف أن يكون في المسجد الحرام، وأنه لو طاف خارج المسجد ما أجزأه؛ فلو أراد الإنسان مثلاً أن يطوف حول المسجد الحرام من خارج فإنه لا يجزئ؛ لأنه يكون حينئذ طائفاً بالمسجد لا بالكعبة؛ أما الذين يطوفون في نفس المسجد سواء فوق أو تحت، فهؤلاء يجزئهم الطواف؛ وعلى هذا يجب الحذر من الطواف في المسعى، أو فوقه؛ لأن المسعى ليس من المسجد؛ إذ لو كان من المسجد لكانت المرأة إذا حاضت بعد الطواف لا تسعى؛ لأنه يلزم من سعيها أن تمكث في المسجد.

(٢) أخرجه البخاري ص٧٦، كتاب العيدين، باب ٩: ما يكره من حمل السلاح في العيد والحرم، حديث رقم ٩٦٦.

١٠- ومن فوائد الآية: فضيلة هذه العبادات الأربع: الطواف، والاعتكاف، والركوع، والسجود؛ وأن الركوع والسجود أفضل هيئة في الصلاة؛ فالركوع أفضل هيئة من القيام؛ والسجود أفضل منه؛ والقيام أفضل من الركوع، والسجود بما يُقرأ فيه؛ ولهذا نُهي المصلي أن يقرأ القرآن راكعاً، أو ساجداً؛ فإنَّ ذِكْر القيام كلام الله؛ وهو أفضل من كل شيء؛ وذكر الركوع والسجود هو التسبيح؛ وهو أقل حرمة من القرآن؛ ولذلك حل الذكر للجنب دون قراءة القرآن، ويجوز مس الورقات التي فيها الذكر بغير وضوء دون مس المصحف؛ فالله سبحانه وتعالى حكيم: جعل لكل ركن من أركان الصلاة ميزة يختص بها؛ فالقيام اختصه بفضل ذكره؛ والركوع والسجود بفضل هيئتهما.

١١- ومن الفوائد: جواز الصلاة في البيت فرضا كانت أو نفلا[1] إذ لم تفرق الآية بين شيئين منها، وهو خلاف قول مالك[2] في امتناعه من جواز فعل الصلاة المفروضة في البيت، فإن قيل: لا نسلم دلالة الآية على ذلك، لأنه تعالى لم يقل: والركع السجود في البيت، وكما لا تدل الآية على جواز فعل الطواف في جوف البيت، وإنما دلت على فعله خارج البيت، كذلك دلالته مقصورة على جواز فعل الصلاة إلى البيت متوجها إليه، قلنا: ظاهر الآية يتناول الركوع والسجود إلى البيت، سواء كان ذلك في البيت أو خارجا عنه، وإنما أوجبنا وقوع الطواف خارج البيت لأن الطواف بالبيت هو أن يطوف بالبيت، ولا يسمى طائفا بالبيت من طاف في جوفه، والله تعالى إنما أمر بالطواف به لا بالطواف فيه، لقوله تعالى: {وليطوفوا بالبيت العتيق} [الحج: ٢٩] وأيضا المراد لو كان التوجه إليه للصلاة، لما كان للأمر بتطهير البيت للركع السجود وجه، إذا كان حاضر والبيت والغائبون عنه سواء في الأمر بالتوجه إليه، واحتج مالك بقوله تعالى: {فول وجهك شطر المسجد الحرام} ومن كان داخل المسجد الحرام لم يكن متوجها إلى المسجد بل إلى جزء من أجزائه. والجواب: أن المتوجه الواحد يستحيل أن يكون متوجها إلى كل المسجد، بل لا بد وأن يكون متوجها إلى جزء من أجزائه ومن كان داخل البيت فهو كذلك فوجب أن يكون داخلا تحت الآية[3].

---

(١) لأن ظاهر الآية يتناول الركوع والسجود إلى البيت سواء أكان ذلك في البيت أم خارجاً عنه. وهذا القول قول الحنفية والشافعية. انظر: فتح القدير لابن الهمام: ١١٠/٢، بدائع الصنائع للكاساني: ١١٥/١، المبسوط للسرخسي: ٧٩/٢، الأم للشافعي: ١٩٧/١، المهذب للشيرازي: ٦٧/١، روضة الطالبين للنووي: ٢١٤/١، مغني المحتاج للشربيني: ١٤٤/١-١٤٥.

(٢) وتبعه المالكية، وهو مذهب الحنابلة قالوا: لأن الله-عز وجل-يقول: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [البقرة: ١٤٤]، والمصلي في الكعبة لا يكون مستقبلاً للبيت كله؛ لأن بعض البيت يكون خلفه وعن يمينه وعن شماله فلا تصح. انظر: مواهب الجليل شرح مختصر خليل للحطاب: ٥١٠/١-٥١١، التاج والإكليل لمختصر خليل للمواق-بحاشية مواهب الجليل-: ٥١٠/١، بلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك للصاوي: ٢٢٦/١، المغني لابن قدامة: ٤٧٥/٢-٤٧٦، كشاف القناع للبهوتي: ٣٥٤/١، الإنصاف للمرداوي: ٤٩٦/١. والأظهر جواز صلاة النفل والفرض داخل الكعبة لظاهر الآية، ولثبوت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ركعتين داخل الكعبة في فتح مكة، كما في حديث ابن عمر عن بلال-رضي الله عنهم-الذي أورده البخاري في صحيحه-فتح-: ٥٤١/٣ رقم: ١٥٩٨، ولأن الأصل تساوي الفرض والنفل في جميع الأحكام ولا فرق بينهما إلا بدليل. ولأن معنى (شَطْرَ الْمَسْجِدْ) في الآية جهته وهذا يشمل استقبال جميع الكعبة أو جزء منها كما فسرت ذلك السنة بصلاته صلى الله عليه وسلم في الكعبة. وانظر في المسألة: الشرح الممتع على زاد المستقنع لابن عثيمين: ٢٤٩/٢-٢٥٢، بداية المجتهد لابن رشد: ٢١٠/١-٢١١، الفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي: ٦٠٢/١-٦٠٤، أحكام القرآن لإلكيا الهراس: ٤٠/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١١٥/٢-١١٦، مفاتيح الغيب للرازي: ٥٧/٤-٥٨.

(٣) انظر: تفسير الرازي: ٤٩/٤.

القرآن

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)} [البقرة : ١٢٦]

التفسير:

واذكر -أيها النبي- حين قال إبراهيم داعيًا: ربِّ اجعل "مكة" بلدًا آمنًا من الخوف، وارزق أهله من أنواع الثمرات، وخُصَّ بهذا الرزق مَن آمن منهم بالله واليوم الآخر. قال الله: ومن كفر منهم فأرزقه في الدنيا وأُمتعه متاعًا قليلا ثم أُلجئه مرغمًا إلى عذاب النار. وبئس المرجع والمقام هذا المصير.

قوله تعالى:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا}[البقرة:١٢٦]، أي"واذكروا إذ قال إبراهيم"[١]: ربي "اجعل مكة بلدا آمنا"[٢].

قال الحسن:" هذا دعاء، دعا به إبراهيم فاستجاب له دعاءه فجعله بلدا آمنا"[٣].

قال الزمخشري:" أى: اجعل هذا البلد أو هذا المكان ذا أمن"[٤].

قال أبو السعود:" أي: اجعل هذا الواديَ من البلادِ الآمنة وكان ذلك أولَ ما قَدِمَ عليه السلام مكة"[٥].

قال الآلوسي:" أي: اجعل هذا المكان القفر بلدا آمنا، وكان النداء بلفظ (الرب) مضافا لما في ذلك من التلطف بالسؤال والنداء بالوصف الدال على قبول السائل، وإجابة ضراعته"[٦].

قال الطبري: أي: "واذكروا إذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد بلدا آمنا من الجبابرة وغيرهم ، أن يسلطوا عليه ، ومن عقوبة الله أن تناله ، كما تنال سائر البلدان ، من خسف ، وائتفاك ، وغرق ، وغير ذلك من سخط الله ومثلاته التي تصيب سائر البلاد"[٧].

قال ابن عطية:" دعا إبراهيم عليه السلام لذريته وغيرهم بمكة بالأمن ورغد العيش، {واجْعَلْ}: لفظه الأمر وهو في حق الله تعالى رغبة ودعاء، {وآمِناً}: معناه من الجبابرة والمسلطين والعدو المستأصل والمثلاث التي تحل بالبلاد، وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفرا لا ماء فيه ولا نبات، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيره، ونبتت فيها أنواع الثمرات"[٨].

قال المراغي:" وهذا دعاء منه أن يكون البيت آمنا في نفسه من الجبابرة وغيرهم أن يسلّطوا عليه ، ومن عقوبة اللّه أن تناله كما تنال سائر البلدان من خسف وزلزال وغرق ونحو ذلك مما ينبئ عن سخط اللّه ومثلاته التي تصيب سائر البلاد، وقد استجاب اللّه دعاءه فلم يقصده أحد

---

(١) معاني القرآن للزجاج: ٢٠٧/١.

(٢) تفسير المراغي:٢١٣/١، و ١٦٠/١٣.[بتصرف بسيط].

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢١٨):ص٢٢٩/١.

(٤) الكشاف: ١٨٦/١.

(٥) تفسير أبي السعود: ١٥٨/١.

(٦) روح المعاني:٣٧٩/١.[بتصرف بسيط].

(٧) تفسير الطبري: ٤٤/٢-٤٥.

(٨) المحرر الوجيز:٢٠٩/١.

بسوء إلا قصم ظهره ، ومن تعدى عليه لم يطل زمن تعديه ، بل يكون تعديا عارضا ثم يزول"[١].

قال الواحدي:" والعرب تقول: آمَنُ من حمام مكة، يضربون المثلَ بها في الأمن"[٢].

قال أبو حيان:قوله:" { هَذَا الْبَلَدَ} ، باعتبار ما يؤول إليه سماه بلداً. ووصف بلد بآمن ، إما على معنى النسب ، أي ذا أمن ، كقولهم : {عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ} ، أي ذات رضا ، أو على الاتساع لما كان يقع فيه الأمن جعله آمناً كقولهم : نهارك صائم وليلك قائم"[٣].

قال الليث: "كل موضع من الأرض عامرٍ أو غامر مسكونٍ أو خالٍ: بلدٌ، والطائفة منه: بلدة"[٤]، لأنها لا تثار ولا تهاج[٥].

وقال أهل اللغة: أصلُ «البلد»: هو الأثر. من ذلك قولهم لكِرْكِرَةِ[٦]البعير: بلدة. لأنه إذا برك أثرت، قال ذو الرمة[٧]:

أُنِيخَتْ فألْقَتْ بلدةً فوقَ بلدةٍ ... قليلٍ بها الأصواتُ إلا بُغَامُها

ويقال للأثر: بلد، وجمعه أبلادٌ، قال القُطامي[٨]:

ليست تجرح فُرّارًا ظهورهم ... وبالنُحورِ كُلومٌ ذاتُ أبلادِ

وقال ابنُ الرِّقاع [٩]:

عرَفَ الديارَ توهُّمًا فاعتادَها ... مِنْ بعدِ ما شَمِلَ البِلَى أبلادَها

وإنما سُمِّيت البلادُ لأنها مواضعُ مواطن الناس وتأثيرهم. والبلد: المقبرة، ويقال: هو نفس القبر، قال الشاعر [١٠]:

كلُّ امرئ تاركٌ أحبَّتَه ... ومُسْلِمٌ وجهَه إلى البلَد

ومن هذا يقال: رجلٌ بليدٌ، إذا أثَّرَ فيه الجهلُ، ثم يقالُ منه: تبلَّدَ الرجلُ، وهو نقيضُ التجلُّد، قال[١١]:

ألا لا تَلُمْهُ اليومَ أن يتبلَّدا ... فقد غُلِبَ المحزونُ أن يتجلَّدا

وبلد أيضا: إذا ضَعُفَ في العملِ وغيره، حتى قيل في الجري، قال الشاعر[١٢]:

---

(١) تفسير المراغي: ٢١٣/١.
(٢) التفسير البسيط: ٣١٣/٣.

(٣) البحر المحيط: ٣٣٢/١.
(٤) تهذيب اللغة:٣٨٣/١، وانظر: التفسير البسيط: ٣٠٨/٣.
(٥) انظر: مجمع الأمثال" للميداني ١/ ٨٧، "جمهرة الأمثال" للعسكري ١/ ١٩٩، "المستقصى" للزمخشري ١/ ٧.
(٦)الكِركِرة: بالكسر: رحى زور البعير، أو صدر كل ذي خف. "القاموس" ٤٦٩.
(٧) انظر: ديوانه: ١٠٠٤، وتهذيب اللغة: ١/ ٣٨٣، "لسان العرب" ١/ ٣٤١، "المعجم المفصل" ٧/ ١٣٥.
(٨) انظر: ديوانه: ١٢، واللسان: مادة: بلد. ويروى: وفي النجوم، كما في "عمدة الحفاظ"١/ ٢٥٨، وكذا في "المشوف المعلم" ١/ ١١٧، و"البصائر" ٢/ ٢٧٣، وينظر: "مفردات ألفاظ القرآن" للراغب ص ١٤٣.
(٩)البيت في "ديوانه" ص ٣٣، "لسان العرب" ١/ ٣٤١ مادة: بلد.
(١٠)البيت بلا نسبة في "المخصص" ٦/ ١٣٣، وانظر: "المعجم المفصل" ٢/ ٤٢٩، ونسبه الواحدي لخفاف بن عمير السلمي، انظر: التفسير البسيط: ٣٠٩/٣.
(١١)البيت للأحوص الأنصاري في "ديوانه" ص ٩٨، وانظر: "المعجم المفصل" ٢/ ٢٠١.
(١٢)البيت بلا نسبة في "تهذيب اللغة" ١/ ٣٨٣، "لسان العرب" ١/ ٣٤٢ و ٥/ ٢٩٠٤، "المعجم المفصل" ٢/ ٢٠١.

جَرَى طَلَقًا حتى إذا قيلَ سابقٌ ... تداركَه أعراقُ سوءٍ فَبَلَّدَا(١)

نستنتج مما بق بأن(البلد): "اسم لكل مكان مسكون سواء كان ذلك مدينة كبيرة، أو مدينة صغيرة؛ كله يسمى بلداً؛ وقد سمى الله سبحانه وتعالى مكة بلداً، كما في قوله تعالى: {وهذا البلد الأمين} [التين: ٣] ؛ وسماها الله تعالى قرية، كما في قوله تعالى: {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم} [محمد: ١٣]"(٢).

وقد اختلفوا في الأمن المسؤول في هذه الآية على وجوه(٣):

أحدها: أنه سأله الأمن من القحط، لأنه أسكن أهله بواد غير ذي زرع ولا ضرع.

وضعّفه أبو حيان فقال:" فهي أكثر بلاد الله قحطاً وجدباً"(٤).

الثاني: أنه سأله الأمن من الخسف والمسخ.

الثالث: وقال بعض المفسرين: أي آمناً مَن فيه؛ لأن البلد نفسه لا يوصف بالأمن، والخوف، فـ(البلد) (٥) أرض، وبناء؛ وإنما الذي يكون آمناً: أهلُه؛ أما هو فيكون أمْناً.

قلت: وهذا ضعيف، والذي ينبغي هو أن يبقى على ظاهره، وأن يكون البلد نفسه آمناً؛ وإذا أمِنَ البلد أمِنَ مَن فيه وهو أبلغ ؛ لأنه مثلاً لو جاء أحد، وهدم البناء ما كان البناء آمناً، وصار البناء عرضة لأن يتسلط عليه من يُتلفه؛ فكون البلد آمناً أبلغ من أن نفسره بـ(آمناً أهله)؛ لأنه يشمل البلد، ومن فيه؛ ولهذا قال تعالى: { وارزق أهله }؛ لأن البلد لا يرزق(٦).

الرابع: أنه سأله الأمن من القتل، وهو قول أبو بكر الرازي، واحتج عليه بأنه عليه السلام سأله الأمن أولا، ثم سأله الرزق ثانيا، ولو كان الأمن المطلوب هو الأمن من القحط لكان سؤال الرزق بعده تكرارا فقال في هذه الآية: {رب اجعل هاذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات} وقال في آية أخرى: {رب اجعل هاذا البلد امنا} ثم قال في آخر القصة: {ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع} إلى قوله: {وارزقهم من الثمرات} [إبراهيم: ٣٧].

وقد أخرج الطبري عن قتادة قال : "ذكر لنا أن الحرم حُرِّم بحياله إلى العرش، وذكر لنا أن البيت هبط مع آدم حين هبط. قال الله له : أهبط معك بيتي يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، فطاف حوله آدم ومن كان بعده من المؤمنين ، حتى إذا كان زمان الطوفان - حين أغرق الله قوم نوح - رفعه وطهره ، ولم تصبه عقوبة أهل الأرض. فتتبع منه إبراهيم أثرا ، فبناه على أساس قديم كان قبله"(٧).

الخامس: وقيل: أنه سأله الأمن من الجبابرة.

وضعّفه أبو حيان فقال:" فالواقع يرده ، إذ قد دخل فيه الجبابرة وقتلوا، كعمرو بن لحي الجرهمي ، والحجاج بن يوسف ، والقرامطة ، وغيرهم"(٨).

---

(١) انظر: التفسير البسيط: ٣/٣٠٩-٣١٠.

(٢) تفسير ابن عثيمين:٥١/٢.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ٤٨/٤.

(٤) البحر المحيط:٣٣٢/١.

(٥) قال الرازي: قوله تعالى(بَلَدًا آمِنًا) يحتمل وجهين:
أحدهما: مأمون فيه كقوله تعالى: {فى عيشة راضية} (القارعة: ٧) أي مرضية.
والثاني: أن يكون المراد أهل البلد كقوله: {واسئل القرية} (يوسف: ٨٢) أي أهلها وهو مجاز لأن الأمن والخوف لا يلحقان البلد.(انظر: تفسيره: ٤٨/٤).

(٦) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢٣/٢.

(٧) تفسير الطبري(٢٠٢٦):ص ٤٥/٢.

(٨) البحر المحيط: ٣٣٢/١.

واختلف العلماء في مكة هل صارت حرما آمنا بسؤال إبراهيم أم كانت قبله كذلك، على ثلاثة أقوال(١) :

أحدها: أنه لم يزل الحرم آمنا من عقوبة الله وعقوبة جبابرة خلقه، منذ خلقت السموات والأرض.

أخرج الطبري عن شريح الخزاعي أنه قال:" لما افتتحت مكة قتلت خزاعة رجلا من هذيل ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا فقال : " يا أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ، أو يعضد بها شجرا. ألا وإنها لا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا هذه الساعة ، غضبا علي أهلها. ألا فهي قد رجعت على حالها بالأمس. ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فمن قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل بها! فقولوا : إن الله قد أحلها لرسوله ولم يُحِلّها لك "(٢).

الثاني: أن مكة كانت حلالا قبل دعوة إبراهيم عليه السلام كسائر البلاد، وأن بدعوته صارت حرما آمنا كما صارت المدينة بتحريم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمنا بعد أن كانت حلالا.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه ، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها ، عضاهها وصيدها ، ولا تقطع عضاهها"(٣).

قال ابن عطية:" ولا تعارض بين الحديثين(٤)، لأن الأول إخبار بسابق علم الله فيها وقضائه، وكون الحرمة مدة آدم وأوقات عمارة القطر بإيمان، والثاني إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها وإظهاره ذلك بعد الدثور، وكل مقال من هذين الإخبارين حسن في مقامه"(٥).

الثالث: وقيل: أنها كانت حراما قبل الدعوة بوجه غير الوجه الذي صارت به حراما بعد الدعوة، فالأول: يمنع الله تعالى من الاصطلام وبما جعل في النفوس من التعظيم، والثاني: بالأمر على ألسنة الرسل(٦).

والراجح: أن الله جعل مكة حرما آمنا حين خلقها وأنشأها، "كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، " أنه حرمها يوم خلق السموات والأرض "(٧)، بغير تحريم منه لها على لسان أحد من أنبيائه ورسله ، ولكن بمنعه من أرادها بسوء ، وبدفعه عنها من الآفات والعقوبات ، وعن ساكنيها ، ما أحل بغيرها وغير ساكنيها من النقمات. فلم يزل ذلك أمرها حتى بوأها الله إبراهيم

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢/٤٥-٥١، وتفسير القرطبي: ٢/١١٧-١١٨.وتفسير الرازي: ٤/٥١.

(٢) تفسير الطبري(٢٠٢٧):ص٢/٤٤، وهذا مختصر من حديث صحيح مطول : فرواه أحمد في المسند : ١٦٤٤٨ (ج ٤ ص ٣٢ حلبي) ، عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد ، عن أبيه ، عن محمد بن إسحاق ، بهذا الإسناد . ورواية ابن إسحاق ثابتة أيضًا - مطولة - في سيرة ابن هشام ٤ : ٥٧ - ٥٨ (حلبي) ، و ٨٢٣ - ٨٢٤ أوربة ، ٢ : ٢٧٧ - ٢٧٨ (من الروض الأنف) . ورواه أيضًا ، بنحوه ، أحمد : ١٦٤٤٤ (ج ٤ ص ٣١) ، والبخاري ١ : ١٧٦ - ١٧٧ ، و ٤ : ٣٥ - ٣٩ (فتح) ، ومسلم ١ : ٣٨٣ - ٣٨٤ كلهم من طريق الليث بن سعد ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبي شريح . وقوله في الحديث : " أو يعضد بها شجرا " ، أي يقطعه ، يقال " عضد الشجر " ، من باب " ضرب " قطعه . وقوله : " غضبا على أهلها " : هذا هو الصحيح الثابت في رواية ابن إسحاق ، في المسند ، وسيرة ابن هشام ، وفي المطبوعة : " عصى على أهلها " . وهو تصحيف .(تفسير الطبري: ٢/٤٥-٤٦).

(٣) أخرجه الطبري(٢٠٢٩):ص٢/٤٨، وإسناده صحيح. ونقله ابن كثير ١ : ٣١٦.

(٤) الحديثان اللذان ذكرا في الوجهين الأول والثاني.

(٥) المحرر الوجيز: ١/٢٠٩.

(٦) انظر: تفسير الرازي: ٤/٥١.

(٧) تفسير الطبري(٢٠٢٧):ص٢/٤٤، ورواه أحمد في المسند : ١٦٤٤٨ (ج ٤ ص ٣٢ حلبي).

خليله ، وأسكن بها أهله هاجر وولده إسماعيل. فسأل حينئذ إبراهيم ربه إيجاب فرض تحريمها على عباده على لسانه ، ليكون ذلك سنة لمن بعده من خلقه ، يستنون به فيها ، إذ كان تعالى ذكره قد اتخذه خليلا وأخبره أنه جاعله ، للناس إماما يقتدى به ، فأجابه ربه إلى ما سأله، وألزم عباده حينئذ فرض تحريمه على لسانه "[١].

قوله تعالى:{وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}[البقرة:١٢٦]، " أي وارزق يا رب المؤمنين من أهله وسكانه من أنواع الثمرات"[٢].

قال ابن عباس:" يعني:من وحد الله وآمن باليوم الآخر"[٣].

وعن ابن عباس أيضا:" كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين، فأنزل الله ومن كفر- أيضا- أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أخلق خلقا لا أرزقهم!"[٤].

وقال عكرمة:" قال إبراهيم: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله؟ قال الله: نعم"[٥].

قال السعدي:"أي" اعط أهله من أنواع الثمرات، ثم قيد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين، تأدبا مع الله، إذ كان دعاؤه الأول، فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيدا بغير الظالم"[٦].

قال أبو السعود:" بأن تجعلَ بقربٍ منه قرًى يحصُل فيها ذلك أو يجبى إليه من الأقطارِ الشاسعةِ وقد حصل كلاهما حتى إنه يجتمعُ فيه الفواكهُ الربيعيةُ والصيفيةُ والخريفيةُ في يومٍ واحد"[٧].

قال أبو حيان:" دعا لمؤمنهم بالأمن والخصب ، لأن الكافر لا يدعى له بذلك. ألا ترى أن قريشاً لما طغت ، دعا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين ، كسني يوسف"[٨]"[٩].

قال الزهري:" إن الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها في الطائف لدعوة إبراهيم خليل الله"[١٠]. وروي عن محمد بن مسلم الطائفي[١١] مثل ذلك.

و(الإيمان) في اللغة: التصديق؛ وفي الشرع: التصديق المستلزم للقبول، والإذعان؛ والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته؛ و(اليوم الآخر) هو يوم القيامة؛ وسمي آخراً؛ لأنه لا يوم بعده؛ وسبق بيان ذلك[١٢].

وقد "ذكر متعلق الإيمان ، وهو الله تعالى واليوم الآخر ، لأن في الإيمان بالله إيماناً بالصانع الواجب الوجود ، وبما يليق به تعالى من الصفات ، وفي الإيمان باليوم الآخر إيمان

---

(١) تفسير الطبري: ٥٠/٢-٥١.
(٢) صفوة التفاسير:٨٣/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٣):ص٢٣٠/١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢١٩):ص٢٢٩/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٠):ص٢٣٠/١.
(٦) انظر: تفسير السعدي: ٦٦/١.
(٧) تفسير أبي السعود: ١٥٨/١.
(٨) مسند الإمام أحمد(١٠٣٧٥):ص٥٢١/٢. ولفظه:" اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِينَ يُوسُفَ".
(٩) البحر المحيط: ٣٣٢/١.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢١):ص٢٣٠/١.
(١١) انظر:تفسير ابن ابي حاتم(١٢٢٢):ص٢٣٠/١.
(١٢) انظر: تفسير ابن عثيمين:٥٢/٢.

بالثواب والعقاب المرتبين على الطاعة والمعصية اللذين هما مناط التكليف المستدعي مخبراً صادقاً به ، وهم الأنبياء. فتضمن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالأنبياء ، وبما جاؤا به. فلما كان الإيمان بالله واليوم الآخر يتضمن الإيمان بجميع ما يجب أن يؤمن به ، اقتصر على ذلك ، لأن غيره في ضمنه"(١).

ويحتمل { مِنَ }: في قوله تعالى: { مِنَ الثَّمَرَاتِ }[البقرة:١٢٦]، وجهين(٢):

أحدهما: أنها للتبعيض، لأنهم لم يرزقوا إلا بعض الثمرات.

والثاني: أنها لبيان الجنس.

قوله تعالى:{قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا}[البقرة:١٢٦]، أي قال الله تعالى: وأرزق" كفارهم أيضا، وأمتعهم بهذا الرزق أمدا قليلا، وهو مدة وجودهم في الدنيا"(٣).

قال الزمخشري:" أى ومن كفر، فأنا أمتعه"(٤).

قال الثعلبي: أي:" فسأرزقه إلى منتهى أجله، لأنه تعالى وعد الرزق للخلق كافة كافرهم ومؤمنهم وقيد بالقلة لأن متاع الدنيا قليل"(٥).

قال عكرمة:" قال الله: ومن كفر أيضا فإني أرزقه من الدنيا، حين استرزق إبراهيم لمن آمن"(٦).

قال الصابوني:" أي قال الله وأرزق من كفر أيضاً كما أرزق المؤمن، أأخلق خلقاً ثم لا أرزقهم؟ أما الكافر فأمتعه في الدنيا متاعاً قليلاً وذلك مدة حياته فيها"(٧).

قال أبو حيان: وهذا:" إخبار من الله تعالى بما يكون مآل الكافر إليه من التمتيع القليل والصيرورة إلى النار ، وليس هنا قياس الرزق على الإمامة ، ولا تعريف الفرق بينهما ، كما زعم"(٨).

و(المتاع):" هو كل ما انتفع به، وفسر هنا التمتيع والإمتاع بالإبقاء ، أو بتيسير المنافع ، ومنه: { مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[آل عمران:١٤] ، أي منفعتها التي لا تدوم، أو بالتزويد ، ومنه : {فَمَتِّعُوهُنَّ}[الأحزاب:٤٩]؛ أي: زوّدوهنّ نفقة. و(المتعة) : ما يتبلغ به من الزاد ، والجمع :(متع)، ومنه : {مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ} [المائدة : ٩٦]"(٩).

واختلف أهل التفسير في قائل هذا القول{ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا}[البقرة:١٢٦]،على وجهين(١٠):

أحدهما: أن هذا القول من الله عز وجل لإبراهيم. قاله أبي بن كعب(١١) وابن إسحاق(١٢) وعكرمة(١).

---

(١) البحر المحيط: ٣٣٢/١.
(٢) انظر: البحر المحيط: ٣٣٢/١.
(٣) تفسير المراغي: ٢١٣/١.
(٤) الكشاف: ١٨٦/١.
(٥) تفسير الثعلبي:٢٧٣/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٥):ص٢٣٠/١.
(٧) صفوة التفاسير:٨٣/١.
(٨) البحر المحيط: ٣٣٤/١.
(٩) البحر المحيط: ٣٣٤/١.
(١٠) انظر: تفسير القرطبي: ١١٧/٢-١١٨. وتفسير الطبري: ٥٣/٢-٥٤.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٣):ص٥٣/٢، وابن أبي حاتم(١٢٢٤):ص٢٣٠/١.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٤):ص٥٣/٢.

والثاني: أنه قول إبراهيم-عليه السلام- على وجه المسألة منه ربه أن يرزق الكافر أيضا من الثمرات بالبلد الحرام ، مثل الذي يرزق به المؤمن ويمتعه بذلك قليلا.وهذا قول ابن عباس[٢]، ومجاهد[٣].

والصواب: ما قاله أبي بن كعب، لقيام الحجة بالنقل المستفيض دراية بتصويب ذلك. وهو اختيار الإمام الطبري[٤] كذلك[٥].

واختلف في نوع المتاع في قوله تعالى:{فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا}[البقرة:١٢٦]، على أقوال[٦]:

أحدها: أنه بالرزق. قاله مجاهد[٧].

الثاني:أن المراد: فأمتعه بالبقاء في الدنيا.

الثالث: وقيل: فأمتعه قليلا في كفره ما أقام بمكة ، حتى أبعث محمدا صلى الله عليه وسلم فيقتله ، إن أقام على كفره، أو يجليه عنها.

والصواب هو القول الأول، فيكون تفسير قوله تعالى}فأمتعه قليلا} أي: فأجعل ما أرزقه من ذلك في حياته متاعا يتمتع به إلى وقت مماته.

وأما القولان الأخيران وإن كان وجها يحتمله الكلام ، فإن دليل ظاهر الكلام على خلافه. والله تعالى أعلم.

واختلفت القراءة في قوله تعالى:{ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا}[البقرة:١٢٦]، على وجهين[٨]:

أحدهما: {فأمتعه} خفيفة من (أمتعت)، قرأ بها ابن عامر وحده.

ووجه قراءته، أنّ (أمتع) لغة، ومنه قول الراعي النميري[٩]:

خليلين من شعبين شتّى تجاورا   قديماً وكانا بالتفرّق أمتعا

والثاني:{فأمتعه} مشددة التاء من (متعت)، وهي قراءة الباقون.

قال أبو علي: "التشديد أولى لأن التنزيل عليه، قال تعالى:{فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ} [هود: ٦٥]، فتمتّع مطاوع متّع، وعامّة ما في التنزيل على التثقيل، قال جلّ اسمه: {يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً} [هود: ٣]، {كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا} [القصص: ٦١]. وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ [يونس: ٩٨]، فكما أن هذه الألفاظ على متّع دون أمتع، فكذلك الأولى بالمختلف فيه أن يكون على متّع دون أمتع"[١٠].

قوله تعالى:{ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ}[البقرة:١٢٦]، أي: "ثم أدفعه إلى عذاب النار وأسوقه إليها"[١١].

قال ابن أبي نجيح:" ثم مصير الكافر إلى النار"[١٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٢٥):ص١/٢٣٠.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٥):ص٢/٥٣، وابن أبي حاتم(١٢٢٤):ص١/٢٣٠.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٦):ص٢/٥٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري:٢/٥٤.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٢/٥٤.
(٦) تفسير الطبري:٢/٥٥. وتفسير الرازي: ٤/٥٢.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٢٦):ص١/٢٣١، وتفسير الطبري(٢٠٣٦):ص٢/٥٤.
(٨) السبعة في القراءات:١٧٠، والعجاب: ٢/٢٢٢-٢٢٣.
(٩)ديوانه ١٦٦، واللسان والصحاح والتاج مادة (متع).
(١٠) العجاب: ٢/٢٢١.
(١١) تفسير الطبري:٢/٥٥-٥٦.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٧):ص١/٢٣١.

قال البيضاوي:" أي أَلزُّهُ إليه لزَّ المضطر، لكفره وتضييعه ما متعه به من النعم"[١].
قال الواحدي:" أي: ألجئه في الآخرة إلى عذاب النار"[٢].
قال الطبري: "ومعنى (الاضطرار)، الإكراه، يقال : اضطررت فلانا إلى هذا الأمر، إذا ألجأته إليه وحملته عليه، فذلك معنى قوله: (ثم أضطره إلى عذاب النار)، أدفعه إليها وأسوقه ، سحبا وجرا على وجهه"[٣].
قال الرازي: " الإضطرار: هو أن يصير الفاعل بالتخويف والتهديد إلى أن يفعل ذلك الفعل اختيارا، كقوله تعالى: {فمن اضطر غير باغ ولا عاد} (البقرة: ١٧٣) (الأنعام: ١٤٥) (النحل: ١١٥) فوصفه بأنه مضطر إلى تناول الميتة، وإن كان ذلك الأكل فعله فيكون المعنى: أن الله تعالى يلجئه إلى أن يختار النار والإستقرار فيها بأن أعلمه بأنه لو رام التخلص لمنع منه، لأن من هذا حاله يجعل ملجأ إلى الوقوع في النار، ثم بين تعالى أن ذلك بئس المصير، لأن نعم المصير ما ينال فيه النعيم والسرور، وبئس المصير ضده"[٤].
واختلفت القراءة في قوله تعالى:{ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ}[البقرة:١٢٦]، على وجوه[٥]:
احدها: {ثم نضطره}. بالنون، وهي قراءة أبيّ بن كعب.
الثاني: {فاضطره}، بكسر الهمزة. قرأ بها يحيى بن وثاب.
الثالث: {ثم اضطره}، على لفظ الأمر. والمراد الدعاء من إبراهيم دعا ربه بذلك. وهي قراءة ابن عباس.
الرابع: {ثم أضطره}، بإدغام الضاد في الطاء خبراً. قرأ بها ابن محيصن.
الخامس: {ثم اضطره}، بضم الطاء ، خبراً. قرأ بها يزيد بن أبي حبيب.
قوله تعالى:{وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[البقرة:١٢٦]، أي: "وساء المصيرُ عذابُ النار"[٦].
قال الصابوني:" أي وبئس المال والمرجع للكافر أن يكون مأواه نار جهنم"[٧].
قال أبو السعود:" أي بئس المصيرُ النارُ أو عذابُها"[٨].
قال الطبري:"و(المصير)، فإنه (مَفعِل) من قول القائل :(صرت مصيرا صالحا)، وهو الموضع الذي يصير إليه الكافر بالله من عذاب النار[٩].
الفوائد:

١- من فوائد الآية: التنويه بفضل إبراهيم؛ لأن قوله تعالى: { وإذ قال } سبق أنها على تقدير: واذكر إذ قال؛ ولولا أن هذا أمر يستحق التنويه، والإعلام ما أمر به.
٢- ومنها: أنه لا غنى للإنسان عن دعاء الله مهما كانت مرتبته؛ فلا أحد يستغني عن الدعاء أبداً؛ لقوله تعالى: { رب اجعل... } إلخ.

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٠٥/١، ونقله أبو السعود بتمامه:١٥٩/١.
(٢) التفسير البسيط:٣١٥/٣.
(٣) تفسير الطبري:٥٥/٢-٥٦.
(٤) تفسير الرازي: ٥٢/٤.
(٥) انظر: الكشاف: ١٨٦/١، والبحر المحيط: ٣٣٣/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٥٦/٢.
(٧) صفوة التفاسير:٨٣/١.
(٨) تفسير أبي السعود: ١٥٩/١.
(٩) انظر: تفسير الطبري:٥٦/٢.

٣- ومنها: أن للدعاء أثراً في حصول المقصود سواء كان دفع مكروه، أو جلب محبوب؛ لأنه لولا أن للدعاء أثراً لكان الدعاء عبثاً؛ وقول من يقول: «لا حاجة للدعاء: إن كان الله كتب هذا فهو حاصل، دعوت أو لم أدعُ؛ وإن كان الله لم يكتبه فلن يحصل، دعوت أو لم أدعُ»، فإن جوابنا عن هذا أن نقول: إن الله قد كتبه بناءً على دعائك؛ فإذا لم تدع لم يحصل، كما أنه لو قال: «لن آكل الطعام؛ فإن أراد الله لي الحياة فسوف أحيا - ولو لم آكل؛ وإن كان يريد أن أموت فسوف أموت - ولو ملأت بطني إلى حلقومي»؛ نقول: لكن الأكل سبب للحياة؛ فإنكار أن يكون الدعاء سبباً إنكار أمور بديهيات؛ لأننا نعلم علم اليقين فيما أُخبرنا به، وفيما شاهدناه، وفيما جرى علينا أن الله سبحانه وتعالى يقدِّر الأشياء بالدعاء؛ فالله تعالى قص علينا في القرآن قصصاً كثيرة فيها إجابة للدعاء؛ كذلك يجري للإنسان نفسه أشياء يدعو الله بها فيشاهدها رأي العين أنها جاءت نتيجة لدعائه؛ فإذاً الشرع، والواقع كلاهما يبطل دعوى من أنكر تأثير الدعاء.

٤- ومن فوائد الآية: رأفة إبراهيم -عليه السلام- بمن يؤم هذا البيت؛ لأن جعل البيت آمناً يتضمن الإرفاق بمن أمّه من الناس.

٥- ومنها: رأفة إبراهيم -عليه السلام- أيضاً، حيث سأل الله أن يرزق أهله من الثمرات؛ لقوله تعالى: { وارزق أهله من الثمرات }.

٦- ومنها: أدب إبراهيم -عليه السلام-، حيث لم يعمم في هذا الدعاء؛ فقال: { وارزق أهله من الثمرات من آمن } خوفاً من أن يقول الله له: «من آمن فأرزقه»، كما قال تعالى حين سأله إبراهيم أن يجعل من ذريته أئمة: {لا ينال عهدي الظالمين} [البقرة: ١٢٤] ؛ فتأدب في طلب الرزق: أن يكون للمؤمنين فقط من أهل هذا البلد؛ لكن المسألة صارت على عكس الأولى: الأولى خصص الله دعاءه؛ وهذا بالعكس: عمم.

٧- ومنها: أن رزق الله شامل للمؤمن، والكافر؛ لقوله تعالى: { ومن كفر }؛ فالرزق عام شامل للمؤمن، والكافر؛ بل للإنسان، والحيوان، كما قال تعالى: {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها} [هود: ٦] ؛ وأنت ترى بعض الخشاش في الأرض ما حوله شيء، ولكن ييسر الله له الرزق يُجلب إليه من حيث لا يشعر، ولا يحتسب؛ ويُذكر في هذه الأمور قصص غريبة، ويشاهَد بعض الحيوانات الصغيرة الصماء العمياء يَجلب الله لها رزقاً كلما احتاجت إلى ذلك، فتأكله؛ والله على كل شيء قدير.

٨- ومن فوائد الآية: أنه يجب علينا أن نتخذ من هذا الوقت القصير عملاً كثيراً ينفعنا في الآخرة؛ لقوله تعالى: { فأمتعه قليلاً }؛ والعمل اليسير - ولله الحمد - يثمر ثمرات كثيرة في الآخرة يضاعف بعشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

٩- ومنها: إثبات عذاب النار.

١٠- ومنها: إثبات كلام الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { قال }؛ وأنه بحرف، وصوت مسموع؛ والدليل على أنه بحرف أن قوله تعالى: { ومن كفر } مثلاً مكوَّن من حروف؛ والدليل على أنه بصوت مسموع: المحاورة مع إبراهيم؛ فلولا أن إبراهيم يسمع صوتاً لم تكن محاورة.

١١- ومنها: إثبات سمع الله؛ لأنه يسمع إبراهيم وهو يكلمه سبحانه وتعالى.

١٢ - ومنها: إثبات اليوم الآخر.

١٣- ومنها: الثناء على النار بهذا الذم، وأنها بئس المصير؛ فكل إنسان يسمع هذا من كلام الله عزّ وجلّ سوف ينفر من هذه النار، ولا يعمل عمل أهلها.

القرآن

{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)} [البقرة : ١٢٧]

التفسير:

واذكر -أيها النبي- حين رفع إبراهيم وإسماعيل أسس الكعبة، وهما يدعوان الله في خشوع: ربنا تقبل منَّا صالح أعمالنا ودعاءنا، إنك أنت السميع لأقوال عبادك، العليم بأحوالهم.

قوله تعالى:{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ}[البقرة:١٢٧]، "أي: واذكر إبراهيم وإسماعيل، في حالة رفعهما القواعد من البيت الأساس"(١).

وقوله تعالى:{إِبْرَاهِيمُ}[البقرة:١٢٧]، فيه قراءتان:

إحداهما: بكسر الهاء بعدها ياء.

والثانية: بفتح الهاء بعدها ألف:(إبراهام).

و(القواعد): "جمع قاعدة، وهي السارية والأساس"(٢).

ومعنى (القعود) في أصل اللغة: الثبات على أيِّ حالةٍ كانت، الدليل عليه قوله تعالى: {تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [آل عمران: ١٢١]، يريد: مثابت ومراكز، ولا يريد مَجَالس. وقولهم: قَعَدَتِ المرأةُ عن المحيض، معناه: ثبتت على حالة الطُّهْر، ولا يراد به الجُلوس، ويقولون: قَعَدَتِ الفَسِيلة، إذا ثَبَتَتْ في الأرض، وصار لها جذع، ومن هذا: قواعد البيت، فَقَعَدَ في أصل اللغة بمعنى: ثبت، ثم نقل إلى هذا الفعل المخصوص والمتعارف الذي لا تعرف العامة غيره(٣).

قال ابن المظفر: "القواعد: أصول الأساس، الواحد: قاعدة"(٤).

قال الزجاج: "وكل قاعدةٍ فهي أصلٌ للذي فوقها "(٥)، قال الكُمَيْت(٦):

في ذِروةٍ من يفاعٍ اوّلهم... زانت عواليَها قواعدُها

ومنه يقال للخشبات أسافل الهودج: القواعد، لأنها كالأساس للهودج(٧).

وقواعد البيت: يعنى: "أصولَ البيت التي كانت قبل ذلك". قاله ابن عباس(٨).

وقد اختلف في (القواعد) التي رفعها إبراهيم وإسماعيل من البيت، أهما أحدثا ذلك ، أم هي قواعد كانت له قبلهما، وذكروا فيه أقوال(٩):

أحدها: أنها قواعد بيت كان بناه آدم أبو البشر بأمر الله إياه بذلك ، ثم درس مكانه وتعفَّى أثرُه بعده ، حتى بوأه الله إبراهيم عليه والسلام ، فبناه. وهذا قول ابن عباس(١٠)، وعطاء(١١).

---

(١) انظر: تفسير السعدي: ٦٦/١.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤٢٧/١ وانظر: تفسير الطبري: ٥٧/٣.

(٣) انظر: التفسير البسيط: ٣١٦/٣، و تهذيب اللغة" ٣/ ٣٠٠٤، "لسان العرب" ٦/ ٣٦٨٩ (قعد).

(٤)"تهذيب اللغة" ٣/ ٣٠٠٤، "تفسير الثعلبي:٢٧٥/١، والبحر المحيط: ١/ ٣٨٧.

(٥)معاني القرآن" ١/ ٢٠٨، قال في "البحر المحيط" ١: ٣٧٣: القواعد: قال الكسائي والفراء: هي الجدر، وقال أبو عبيدة: الأساس، وبالأساس فسرها ابن عطية أولًا والزمخشري وقال: هي صفة غالبة، ومعناها: الثابتة.

(٦)لبيت للكميت في "مجاز القرآن" ١/ ٥٥، "تفسير الثعلبي" ١/ ١١٨٣، "البحر المحيط" ١/ ٣٧٣ ولم ينسبه، واليَفَاع: المشرف من الأرض والجبل.

(٧) انظر: التفسير البسيط: ٣١٦/٣.

(٨)ذكره الثعلبي في تفسيره٢٧٤/١، وأخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٨):ص ١/ ٢٣١ بلفظ: أساس البيت، وأخرجه الطبري في "تفسيره(٢٠٣٨):ص٥٨/٣، بلفظ: القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٥٧/٣-٦٤.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٨):ص٥٨/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٧):ص٥٧/٣-٥٨.

والثاني:أنها قواعد بيت كان الله أهبطه لآدم من السماء إلى الأرض ، يطوف به كما كان يطوف بعرشه في السماء ، ثم رفعه إلى السماء أيام الطوفان ، فرفع إبراهيم قواعد ذلك البيت. وهذا قول عبدالله بن عمر[١]، وقتادة[٢]، وأبي قلابة[٣]، وأبان[٤].

والثالث:أنها كان موضع البيت ربوة حمراء كهيئة القبة. وذلك أن الله لما أراد خلق الأرض علا الماء زبدة حمراء أو بيضاء، وذلك في موضع البيت الحرام. ثم دحا الأرض من تحتها ، فلم يزل ذلك كذلك حتى بوأه الله إبراهيم ، فبناه على أساسه. وقالوا : أساسه على أركان أربعة في الأرض السابعة. وهذا قول ابن عباس[٥]، مجاهد[٦]، وعمرو بن دينار[٧]، وعطاء ب أبي رباح[٨]، وكعب[٩].

وقد قال الحافظ ابن حجر: "وظاهره أنه كان مؤسَّساً قبل إبراهيم، ويحتمل أن يكون المراد بالرفع نقلها من مكانها إلى مكان البيت"[١٠].

وقد جعل الفخر الرازي[١١]، قوله تعالى: (وَإِذْ يَرفَعُ إبرَاهيمُ القَوَاعدَ منَ {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ} [البقرة: ١٢٧] صريحاً في أن تلك القواعد كانت موجودة متهدمة إلا أن إبراهيم رفعها وعمرها.

وقد تعقبه ابن كثير إذ قال: "وفي الاستدلال مما ذكره من الآية نظر، إذ لا يلزم وجود القواعد قبل، والله أعلم"[١٢].

قلت: الآية محتملة، وغالب ما ذكره الإخباريون والمفسرون مأخوذ "عن كتب أهل الكتاب وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردها وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين"[١٣].

وقال ابن عطية -بعد ذكره بعض الأقوال في ابتداء بناء البيت: "ولا يرجح شيء من ذلك إلا بسند يقطع العذر"[١٤].

وعند التأمل والنظر: نجد أن هذه الآية وقول الله-عز وجل-في الحج: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ} [الحج: ٢٦]، تحتملان القولين، ونجد أن الطبري قد روى عن ابن عباس بسند

---

(١)انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٩):ص٥٨/٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٢):ص٥٩/٣-٦٠.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٠):ص٥٩/٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٣):ص٦٠/٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٦):ص٦١/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٤):ص٦٠/٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٥):ص٦٠/٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٧):ص٦١/٣.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٠):ص٦٣/٣.
(١٠) الفتح: ٥١٥/٣.
(١١)مفاتيح الغيب: ٦٢/٤.
(١٢) تفسير ابن كثير: ٢١٦/١.
(١٣)تفسير ابن كثير: ٢١٦/١، وانظر كلام الإمام الطبري في جامع البيان: ٦٤/٣ القريب من ذلك، وكذلك البداية والنهاية لابن كثير: ١٦٣/١.
(١٤)المحرر الوجيز: ٣٥٨/١.

صححه ابن حجر[1]، قال: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ} [البقرة: ١٢٧] قال: "القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك"[2].

فإن كان ابن عباس لم يأخذه عن أهل الكتاب فهو حجة في بناء البيت قبل إبراهيم، وإن كان أخذه منهم فالقضية تبقى محتملة إلى أن يثبت نص صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن هذا أمر غيبي مبنى العلم به على النص الصحيح عن المعصوم ولا مدخل للاجتهاد فيه[3]. والله أعلم.

قال الشيخ ابن عثيمين: " وأخّر ذكر إسماعيل؛ لأن الأصل: إبراهيم؛ وإسماعيل مُعِين؛ هذا الظاهر"[4].

قوله تعالى:{رَبَّنَا تَقَبَّل مِنَّا}[البقرة:١٢٧]، أي " قائلين: ربنا تقبل منا"[5].

قال السدي:" يبنيان وهما يدعوان"[6].

قال ابن عباس:" هما يرفعان القواعد من البيت ويقولان : {ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم}، قال ، وإسماعيل يحمل الحجارة على رقبته ، والشيخ يبني"[7].

قال الحسن:" وكان إسماعيل يقول وهما يبنيانه، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم فتقبل منهما"[8].

قال الثعلبي:" أي تقبل منّا بناءنا البيت"[9].

قال الماوردي:" المعنى : يقولان ربنا تقبل منا ، كما قال تعالى:{وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيكُم} أي يقولون سلام عليكم"[10].

قال الصابوني: "أي يبنيان ويدعوان بهذه الدعوات الكريمة قائلين يا ربنا أقبل منا عملنا هذا واجعله خالصاً لوجهك الكريم"[11].

قال الزجاج:" المعنى: يقولان {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا}، ومثله في كتاب اللَّه:{وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ}[الأنعام:٩٣]، ومثله: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ}[الرعد: ٢٣-٢٤]، أي يقولون سلام عليكم"[12].

قال ابن عثيمين:" يعني كل واحد يقول بلسانه: ربنا تقبل منا ، و(القبول) أخذ الشيء، والرضا به؛ ومنه ما يذكره الفقهاء في قولهم: ينعقد البيع بالإيجاب، والقبول؛ فتقبُّلُ الله سبحانه وتعالى

---

(١)انظر: الفتح: ٢٠/٨

(٢)تفسير الطبري(٢٠٣٨):ص ٥٨/٣.

(٣) انظر في المسألة: زاد المسير لابن الجوزي: ١٤٤/١-١٤٥، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٢٠/٢-١٢٣، الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٢٩/١ و٦٠/١-٦٢.

(٤) تفسير ابن عثيمين: ٢٥/٢.

(٥) تفسير الطبري: ٦٥/٣.

(٦) أخرجه الطبري(٢٠٥١):ص٦٤/٣.

(٧) أخرجه الطبري(٢٠٥٢):ص٦٥/٣.

(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٣٩):ص٢٣٣/١.

(٩) تفسير الثعلبي:٢٧٥/١.

(١٠) النكت والعيون:١٩٠/١.

(١١) صفوة التفاسير:٨٣/١.

(١٢) معاني القرآن: ٢٠٨/١.

للعمل أن يتلقاه بالرضا، فيرضى عن فاعله؛ وإذا رضي الله تعالى عن فاعله فلا بد أن يثيبه الثواب الذي وعده إياه"(١).
واختلف في قوله تعالى:{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا}[البقرة:١٢٧] على قولين (٢):
أحدهما:أن المعنى: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان: ربنا تقبل منا، وقد أظهره ابن مسعود في قراءته(٣).
والثاني:وقيل: بل قائل ذلك كان إسماعيل.
ثم اختلف أهل التفسير في الذي رفع القواعد، بعد إجماعهم على أن إبراهيم كان ممن رفعها، وفيه أقوال(٤):
أحدها: أنه رفعها إبراهيم وإسماعيل جميعا. قاله السدي(٥) وعبيد بن عمير الليثي(٦).
الثاني: أن إبراهيم رفع قواعد البيت، وكان إسماعيل يناوله الحجارة. قاله ابن عباس(٧).
الثالث: أن الذي رفع قواعد البيت إبراهيم وحده ، وإسماعيل يومئذ طفل صغير. قاله علي-كرّم الله وجهه-(٨).
قال ابن عطية:" ولا يصح هذا عن علي رضي الله عنه، لأن الآية والآثار ترده"(٩).
والصواب في قوله أن يكون المضمر من القول لإبراهيم وإسماعيل، أي: وأن قواعد البيت رفعها إبراهيم وإسماعيل جميعا، إذ كان إبراهيم تفرد ببنائها، وكان إسماعيل يناوله ، فهما أيضا رفعاها ، لأن رفعها كان بهما : من أحدهما البناء ، ومن الآخر نقل الحجارة إليها ومعونة وضع الأحجار مواضعها. ولا تمتنع العرب من نسبة البناء إلى من كان بسببه البناء ومعونته(١٠).
قوله تعالى:{إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[البقرة:١٢٧]، أي" نسألك أن تقبل، لأنك أنت السميع العليم"(١١).
قال الآلوسي:" تعليل لاستدعاء التقبل، والمراد السميع لدعائنا، والعليم بنياتنا"(١٢).
قال أبو السعود: أي {السميع}:" لجميع المسموعاتِ التي من جُملتها دعاؤُنا، {العليم}، بكل المعلومات التي من زمرتها نياتُنا في جميع أعمالِنا، العليم} بكل المعلومات التي من زمرتها نياتوالجملة تعليلٌ لاستدعاء التقبّل لا من حيثُ أن كونه تعالى سمعيا لدعائهما عليماً بنياتهما مصححٌ للتقبل في الجملة بل من حيثُ إنَّ علمَه تعالى بصحة نياتهما وإخلاصِهما في أعمالهما

---

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢٥/٢.
(٢) تفسير الطبري: ٣/٦٥-٧٠
(٣) أي: أن ابن مسعود أظهر الفعل في قراءته فقرأ: يقولان ربنا تقبل منا، وهي قراءة أبي أيضاً. انظر: المحتسب لابن جني: ١٠٨/١، الكشاف للزمخشري: ٣١١/١، المحرر الوجيز لابن عطية: ٣٥٩/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٢٦/٢، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٨٨/١، الدر المصون للسمين الحلبي: ٣٦٩/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٣/٦٥-٧١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٣):ص٣/٦٥-٦٦.
(٦)انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٤):ص٦٦/٣.
(٧)انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٥):ص٦٧/٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٧)، و(٢٠٥٨)، و(٢٠٥٩)، و(٢٠٦٠):ص٣/٦٨-٧٠.
(٩) المحرر الوجيز: ٢١٠/١.

(١٠) تفسير الطبري: ٧٢/٣.
(١١) تفسير الطبري: ٧٣/٣.
(١٢) روح المعاني: ٣٨٣/١.

مستدعٍ له بموجَب الوعدِ تفضُّلاً وتأكيدُ الجملة لغرض كمالِ قوةِ يقينِهما بمضمونها وقصرُ نعتي السمع والعلم عليه تعالى لإظهار اختصاص دعائهما به تعالى وانقطاع رجائهما عما سواه بالكلية"[١].

قال الطبري: هذه الجملة تعليل لطلب القبول... فإنك "أنت السميع دعاءنا ومسألتنا إياك قبول ما سألناك قبوله منا ، من طاعتك في بناء بيتك الذي أمرتنا ببنائه - العليم بما في ضمائر نفوسنا من الإذعان لك في الطاعة، والمصير إلى ما فيه لك الرضا والمحبة ، وما نبدي ونخفي من أعمالنا"[٢].

وفي قراءة أبي وعبدالله بن مسعود : {وإذ يرفع وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا وإسماعيل ويقولان ربنا تقبل منا}[٣].

قال الماوردي: "وتفسير (إسماعيل) : إسمع يا الله ، لأن إيل بالسريانية هو الله ، لأن إبراهيم لما دعا ربه قال : اسمع يا إيل ، فلما أجابه ورزقه بما دعا من الولد، سمّى بما دعا "[٤].

قال ابن عطية:" وهذا ضعيف"[٥].

قال ابن إسحاق: {السميع}، أي: سميع بما يقولون"[٦].

وعن سعيد بن جبير في قول الله: {السميع العليم}يعني عالم بها"[٧].

الفوائد:

١ - فضل عمارة الكعبة؛ لأن الله تعالى أمر نبيه أن يذكر هذه الحادثة؛ لقوله تعالى: { وإذ يرفع... } إلخ.

٢- ومنها: فضل إبراهيم، وإسماعيل، عليهما الصلاة والسلام، حيث قاما برفع هذه القواعد.

٣- ومنها: أن من إحكام البناء أن يؤسس على قواعد؛ لقوله تعالى: { وإذ يرفع إبراهيم القواعد }؛ وإذا بني على غير قاعدة فإنه ينهار.

٤- ومنها: جواز المعاونة في أفعال الخير.

٥- ومنها: أهمية القبول، وأن المدار في الحقيقة عليه؛ وليس على العمل؛ فكم من إنسان عمل أعمالاً كثيرة وليس له من عمله إلا التعب، فلم تنفعه؛ وكم من إنسان عمل أعمالاً قليلة قبلت فنفعه الله بها؛ ولهذا جاء في الحديث: «رب صائم حظه من صيامه الجوع، والظمأ؛ ورب قائم حظه من قيامه السهر»[١] .

٦- ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما { السميع }، و{ العليم }؛ وكل اسم من أسماء الله يدل على صفة من صفاته؛ بل على صفتين أحياناً، أو أكثر - ما يلزم من إثبات الصفة التي يدل عليها الاسم -؛ مثال ذلك: «الخالق» دل على صفة الخلق؛ وصفة الخلق تستلزم ثبوت صفة

---

(١) تفسير أبي السعود: ١/١٦٠-١٦١.
(٢) تفسير الطبري: ٣/٧٣.
(٣) انظر: النكت والعيون: ١/١٩٠، تفسير القرطبي: ٢/١٢٦.
(٤) النكت والعيون: ١/١٩٠، ونقله القرطبي: في تفسيره: ٢/١٢٦.
(٥) المحرر الوجيز: ١/٢١١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤١):ص١/٢٣٤.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١/٢٣٤.
(١) أخرجه أحمد ٢/٣٧٣، حديث رقم ٨٨٤٣ واللفظ له، وأخرجه ابن ماجة ص٢٥٧٨، كتاب الصيام، باب ٢١: ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، حديث رقم ١٦٩٠؛ قال الألباني في صحيح ابن ماجة، حسن صحيح ١/٢٨٢، حديث رقم ١٣٧١.

العلم، والقدرة؛ وقد يدل الاسم على الأثر إذا كان ذلك الاسم متعدياً؛ مثاله: { السميع } يدل على صفة السمع، ويدل على أن الله يسمع كل صوت يحدث.

٧- ومن فوائد الآية: إثبات السمع لله عزّ وجلّ؛ وينقسم السمع إلى قسمين: سمع بمعنى سماع الأصوات؛ وسمع بمعنى الإجابة؛ فمثال الأول قوله تبارك وتعالى: {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى} [الزخرف: ٨٠] ، وقوله تعالى: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها} [المجادلة: ١] ؛ ومثال الثاني قوله تعالى: {إن ربي لسميع الدعاء} [إبراهيم: ٣٩] أي مستجيب الدعاء؛ وكذلك قول المصلي: «سمع الله لمن حمده» - يعني استجاب لمن حمده -؛ والسمع الذي هو بمعنى سماع الأصوات من صفاته الذاتية؛ والسمع بمعنى الاستجابة من صفاته الفعلية؛ لأن الاستجابة تتعلق بمشيئته: إن شاء استجاب لمن حمده؛ وإن شاء لم يستجب؛ وأما سماع الأصوات فإنه ملازم لذاته - لم يزل، ولا يزال سميعاً -؛ إذ إن خلاف السمع الصمم؛ والصمم نقص؛ والله سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص؛ وكلا المعنيين يناسب الدعاء: فهو سبحانه وتعالى يسمع صوت الداعي، ويستجيب دعاءه.

والسمع - أعني سماع الأصوات - تارة يفيد تهديداً؛ وتارة يفيد إقراراً، وإحاطة؛ وتارة يفيد تأييداً. يفيد تهديداً ، كما في قوله تعالى: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا...} [آل عمران: ١٨١] الآية، وقوله تعالى: {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى} [الزخرف: ٨٠] ويفيد إقراراً، وإحاطة ، كما في قوله تعالى: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها} [المجادلة: ١] ؛ ويفيد تأييداً ، كما في قوله تعالى لموسى وهارون: {إنني معكما أسمع وأرى} [طه: ٤٦] .

٨- ومن فوائد الآية: إثبات العلم لله - تبارك وتعالى - جملة، وتفصيلاً؛ موجوداً، أو معدوماً؛ ممكناً، أو واجباً، أو مستحيلاً؛ مثال علمه بالجملة: قوله تعالى: {لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً} [الطلاق: ١٢] ، وقوله تعالى: {الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً} [طه: ٩٨] ، ومثال علمه بالتفصيل: قوله تعالى: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين} [الأنعام: ٥٩] ؛ ومثال علمه بالموجود: ما أخبر الله به عن علمه بما كان، مثل قول الله تعالى: {علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم} [البقرة: ١٨٧] ؛ ومثال علمه بالمعدوم الذي قد وجِد: ما علمه الله من أحوال الماضين؛ ومثال علمه بالمعدوم الذي لم يوجد بعد: ما علمه الله عزّ وجلّ من أحوال القيامة، ومآل الخلق؛ ومثال علمه بالممكن: ما علمه الله عزّ وجلّ من الحوادث الواقعة من الإنسان؛ ومثال علمه بالواجب: ما علمه الله عزّ وجلّ من كمال صفاته؛ ومثال علمه بالمستحيل: قوله تعالى: {ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض} [المؤمنون: ٩١] ، وقوله تعالى: { لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا } [الأنبياء: ٢٢].

واعلم أن من أنكر علم الله فهو كافر سواء أنكره فيما يتعلق بفعله، أو فيما يتعلق بخلقه؛ فلو قال: إن الله تعالى لا يعلم ما يفعله العبد فهو كافر، كما لو قال: إن الله لا يعلم ما يفعله بنفسه؛ ولهذا كفَّر أهل السنة والجماعة غلاة القدرية الذين قالوا: إن الله سبحانه وتعالى لا يعلم أفعال العباد؛ فالذي ينكر علم الله بأفعال العباد لا شك أنه كافر؛ لأن الله تعالى يقول: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد

[ق: ١٦] ، ويقول سبحانه وتعالى: {أم يحسبون أنا لا نعلم سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} [الزخرف: ٨٠] ؛ فالذي يقول: إن الله لا يعلم أفعال العباد فإنه كافر بهذه الآيات؛ ولهذا

قال الشافعي في القدرية: «ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خُصِموا؛ وإن أنكروه كفروا»؛ وإيمانك بهذا يوجب لك مراقبته، والخوف منه، وامتثال أمره، واجتناب نهيه؛ لأنك متى علمت أنه عالم بك فإنك تخشاه؛ تستحيي منه عند المخالفة؛ وترغب فيما عنده عند الموافقة.
٩- ومن فوائد الآية: التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته المناسبة لما يدعو به؛ لقوله تعالى: { إنك أنت السميع العليم }.
١٠- ومنها: أن الدعاء يكون باسم» الرب» ؛ لأن إجابة الدعاء من شأن الربوبية؛ لأنها خَلق، وإيجاد.

القرآن

{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)} [البقرة : ١٢٨]

التفسير:

ربنا واجعلنا ثابتَيْن على الإسلام، منقادَيْن لأحكامك، واجعل من ذريتنا أمة منقادة لك، بالإيمان، وبصِّرْنا بمعالم عبادتنا لك، وتجاوز عن ذنوبنا. إنك أنت كثير التوبة والرحمة لعبادك.
قوله تعالى:{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ}[البقرة:١٢٨]، "أي: ربنا واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك "[١].
قال الواحدي: أي اجعلنا: " مطيعين مستسلمين منقادين لحكمك"[٢].
قال الثعلبي: أي: اجعلنا" موحّدين مطيعين مخلصين لكَ"[٣].
قال النسفي:أي:" زدنا إخلاصاً وإذعاناً لك"[٤].
قال سلام بن أبي مطيع:" كانا مسلمين ولكنهما سألاه الثبات"[٥].
وعن عكرمة:" قال إبراهيم: تجعلنا مسلمين لك؟ قال الله: نعم"[٦].
وعن عبد الكريم: "{واجعلنا مسلمين لك}، قال: مخلصين لك"[٧].
قال ابن الأنباري: يقال: فلان مسلم، وفيه قولان[٨]:
أحدهما: أنه المستسلم لأمر الله.
والثاني: هو المخلص لله العبادة، من قولهم: سَلَّمَ لفلان الشيءَ، أي: خَلَّصَه له، وسَلِمَ له الشيءُ، أي: خَلَصَ، ومنه قوله تعالى: {وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ} [الزمر: ٢٩]، معناه: خالصًا لرجل.
وأنشد على أنَّ المسلم بمعنى المستسلم لأمر الله قولَ الشاعر[٩]:
فقلنا أَسْلِمُوا إنّا أخوكم فقد بَرِئَتْ مِنَ الإِحَنِ الصُّدُورُ
أراد: استسلموا[١].

---

(١) تفسير الطبري: ٣/٧٣-٧٤.
(٢) التفسير البسيط: ٣/٣١٧.
(٣) تفسير الثعلبي:١/٢٧٥.
(٤) تفسير النسفي: ١/٨٧.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٣):ص١/٢٣٤.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٤):ص١/٢٣٤.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٥):ص١/٢٣٤.
(٨) انظر: "تهذيب اللغة" ٢/ ١٧٤٥، وعنه في "لسان العرب" ٤/ ٢٠٨٠، والتفسير البسيط: ٣/٣١٧.
(٩)البيت لعباس بن مرداس، في "ديوانه" ص ٥٢، "لسان العرب" ١/ ٤١ "المعجم المفصل" ٣/ ٣٢٦.

وقد أتى بالواو عطفاً على قوله تعالى: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا}، يعني: ربنا واجعلنا مع قبولك، مسلمين لك، لا نشرك في الطاعة أحدا سواك، ولا في العبادة غيرك، والإسلام هو الخضوع لله بالطاعة.

قال الشيخ ابن عثيمين: " إن قال قائل: كيف يستقيم أن يسأل إبراهيم، وإسماعيل ربهما أن يجعلهما مسلمين له مع أنهما كانا كذلك؟

فالجواب: أن المراد بذلك تثبيتهما على الإسلام؛ لأن الإنسان من حيث هو إنسان لا يأمن العاقبة؛ أو يقال: إن المراد تقوية إسلامهما بالإخلاص لله عزّ وجلّ، والانقياد لطاعته؛ أو يقال: إنهما قالا ذلك توطئة لما بعدها في قولهما: { ومن ذريتنا أمة مسلمة لك }؛ والأول أقوى الاحتمالات"[٢].

وتجدر الإشارة بأن الإسلام في هذا الموضع : الإيمان والأعمال جميعا ، ومنه قوله تعالى : {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران : ١٩] ففي هذا دليل لمن قال : إن الإيمان والإسلام شيء واحد ، وعضدوا هذا بقوله تعالى في الآية الأخرى : {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الذاريات : ٣٥ - ٣٦]. وقرأ ابن عباس وعوف الأعرابي "مسلمين" على الجمع[٣].

وقرأ عون بن أبي جميلة: {مُسْلِمِينَ}، بكسر الميم على الجمع[٤].

قوله تعالى:{ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}[البقرة:١٢٨]، أي:" واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك"[٥].

قال الصابوني: "أي واجعل من ذريتنا من يسلم وجهه لك ويخضع لعظمتك"[٦].

قال أبو السعود:" واجعل بعضَ ذريتنا وإنما خصاهم بالدعاء لأنهم أحقُّ بالشفقة ولأنهم إذا صلحوا صلح الأتباع وإنما خَصّا به بعضَهم لمّا علما أن منهم ظلمةً وأن الحكمة الإلهية لا تقتضي اتفاقَ لكل على الإخلاص والإقبالَ الكلي على الله عزَّ وجلَّ فإن ذلك مما يُخلُّ بأمر المعاش ولذلك قيل لو لا الحمقى لخَرِبَتِ الدنيا"[٧].

قال الطبري: "فأتى بـ(من) التي للتبعيض؛ إذ "أنهما خصا بذلك بعض الذرية، لأن الله تعالى ذكره قد كان أعلم إبراهيم خليله صلى الله عليه وسلم قبل مسألته هذه ، أن من ذريته من لا ينال عهده لظلمه وفجوره. فخصا بالدعوة بعض ذريتهما"[٨].

قال القرطبي: " يقال : إنه لم يدع نبي إلا لنفسه ولأمته إلا إبراهيم، فإنه دعا مع دعائه لنفسه ولأمته ولهذه الأمة"[٩].

---

(١) انظر: التفسير البسيط: ٣١٧/٣.
(٢) تفسير ابن عثيمين: ٢٨/٢.
(٣) انظر: تفسير القرطبي: ١٢٦/٢.
(٤) انظر: تفسير الثعلبي:٢٧٥/١.
(٥) تفسير الطبري: ٧٤/٣.
(٦) صفوة التفاسير:٨٣/١.
(٧) تفسير أبي السعود: ١٦١/١.
(٨) تفسير الطبري: ٧٤/٣.
(٩) تفسير القرطبي: ١٢٦/٢.

قال ابن عطية:" والإسلام في هذا الموضع الإيمان والأعمال جميعا... و{مِنْ} في قوله {وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا}، للتبعيض، وخص من الذرية بعضا لأن الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين"[١].

وقد اختلف في قوله تعالى{وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا}[البقرة:١٢٨]، على قولين[٢]:

أحدهما: أنه يعم العرب وغيرهم. وهذا قول الجمهور.

قال ابن عثيمين:"والمراد بـ{ذريتنا} من تفرعوا منهما؛ فذرية الإنسان من تفرعوا منه"[٣].

والثاني: وقد قيل : إنهما عنيا بذلك العرب.قاله السدي[٤].

قال ابن عطية : "وهذا ضعيف ، لأن دعوته ظهرت في العرب وفيمن آمن من غيرهم"[٥].

وكذلك ضعفه الطبري، قائلا: بأن "هذا قول يدل ظاهر الكتاب على خلافه، لأن ظاهره يدل على أنهما دعوا الله أن يجعل من ذريتهما أهل طاعته وولايته ، والمستجيبين لأمره. وقد كان في ولد إبراهيم العرب وغير العرب ، والمستجيب لأمر الله والخاضع له بالطاعة ، من الفريقين. فلا وجه لقول من قال : عنى إبراهيم بدعائه ذلك فريقا من ولده بأعيانهم دون غيرهم"[٦].

وردّ عليه الحافظ ابن كثير فقال: "وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي ؛ فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم، والسياق إنما هو في العرب ؛ ولهذا قال بعده : { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ } الآية ، والمراد بذلك محمَّد صلى الله عليه وسلم ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى : { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ } [الجمعة : ٢] ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود ، لقوله تعالى : { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا } [الأعراف : ١٥٨] ، وغير ذلك من الأدلة القاطعة"[٧].

والراجح هو القول الأول، أي يعم العرب وغيرهم، لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل والله تعالى أعلم.

---

(١) المحرر الوجيز:٢١١/١.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٤٢/١. وتفسير الطبري: ٧٤/٣. وتفسير القرطبي: ١٢٦/٢-١٢٧.

(٣) تفسير ابن عثيمين:٦٢/٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٢):ص٧٤/٣.

(٥) المحرر الوجيز: ٢١١/١، ونقله القرطبي في تفسيره: ١٢٧/٢.

(٦) تفسير الطبري: ٧٤/٣.

(٧) تفسير ابن كثير: ٤٤٢/١. واعتراض ابن كثير هذا لا يقوم ، واحتجاجه بالسياق هنا لا ينهض، فالدعاء دعاء إبراهيم وإسماعيل معا ، ولكل منهما ذرية يشملها الدعاء . والسياق هنا سياق الآيات المتتابعة لا سياق آية واحدة، ففي الآيات التي تلي هذه الآية ذكر ملة إبراهيم ، وبيانها : {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)} [البقرة : ١٣١ - ١٣٣]. وهي آيات متتابعة ، فالتخصيص فيها غير جائز ، مع وضوح الدلالة على أن ذرية إبراهيم من غير إسماعيل ، كانوا على ملة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، وهم له مسلمون.(تفسير الطبري: ٧٤/٣).

و(الأمة) في هذا الموضع ، فإنه يعني بها "الجماعة من الناس، من قول الله : {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}[سورة الأعراف : ١٥٩]"(١).

وهذه الأمة هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا يصدق على أحد أنه من ذرية إبراهيم، وإسماعيل إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن اليهود، والنصارى ليسوا من بني إسماعيل؛ بل من بني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

و{الأمَّةُ}، في اللغة تكون على وجوه(٢):

أحدها: الدين والملة: ومنه قوله تعالى : {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ} [الزخرف : ٢٢] أي على دين وملة ، ومنه قوله تعالى : {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [الأنبياء : ٩٢](٣).

الثاني: الحين والزمان والقرن، ومنه قوله تعالى {وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} [يوسف : ٤٥]، أي بعد حين وزمان(٤)،وذلك لجماعة الشهور والأعوام.

قال الزجاج:" الأمة: القرن من الناس، يقال: قد مضت أمم، أي: قرون"(٥).

الثالث: ويقال : هذه أمة زيد ، أي أم زيد(٦)، إذ منه سميت الأمّ؛ لأنها المحتويةُ على الولد، ومنها يخرج، ومن ذلك قوله: {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} [آل عمران: ٧] أيْ: مجمع الحلال والحرام. والإمام مأخوذ من هذا؛ لأن عليه تجتمع الجماعة (٧).

وكل شيء انضمت إليه أشياء فهو أمّ لها ، وأمُّ القوم: رئيسُهم الذي يجتمع إليه أمْرُهم(٨)، قال الشنفرى (٩):

وأمَّ عيال قد شَهدتُ تَقُوتُهم ... إذا أحْتَرتْهُمْ أحْتَرَتْ وأقَلَّتِ

الرابع: و(الأمة) أيضا : القامة، يقال : فلان حسن الأمة ، أي حسن القامة(١٠)، قال الشاعر(١١):

وإن معاوية الأكرميـ ... ـن حسان الوجوه طوال الأمم

فقوله(طوال الأمم)، أي: طوال القامات(١٢).

الخامس: وقيل : (الأمة): الشجة التي تبلغ أم الدماغ ، يقال : رجل مأموم وأميم(١٣).

السادس: والأمة: الرجَل الذي لا نظير له، ومنه قوله عزَّ وجلَّ {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا}[النحل:١٢٠]، قال أبو عبيدة معنى {كَانَ أُمَّةً}، كان إمَاما(١).

---

(١) تفسير الطبري: ٧٤/٣.
(٢)انظر: معاني القرآن: ٢٨٣/١-٢٨٤، والمفردات للراغب الأصفهاني: ٣٣، وتفسير القرطبي: ١٢٧/٢، والتفسير البسيط: ٣١٨/٣-٣١٩.
(٣)انظر: تفسير القرطبي: ١٢٧/٢.
(٤)انظر: المفردات للراغب الأصفهاني: ٣٣، وتفسير القرطبي: ١٢٧/٢.
(٥) معاني القرآن: ٢٨٣/١.
(٦)انظر: تفسير القرطبي: ١٢٧/٢.
(٧) انظر: "لسان العرب" ١/ ١٣٣ - ١٣٤ (أمم).
(٨) انظر: لسان العرب: ١/ ١٣٣ (أمم)، والتفسير البسيط: ٣١٩/٣.
(٩) انظر: "ديوانه" ص ٣٥، "تهذيب اللغة" ١/ ٢٠٣ وروايته: إذا حَتَرَتْهم أتْفَهَتْ وأقلَّتِ، "لسان العرب" ٢/ ٧٦٩ (مادة: حتر)، ١/ ١٣٧ (مادة: أمم)، "المعجم المفصل" ١/ ٥٥٢.
(١٠)انظر: معاني القرآن للزجاج: ٢٨٢/١، وتفسير القرطبي: ١٢٧/٢.
(١١) البيت للأعشى، انظر: ديوانه: رقم القصيدة ٤. وروايته (عظام القباب) بدل (حسان الوجوه). وفي اللسان (امم) (بيض الوجوه).
(١٢)انظر: معاني القرآن للزجاج: ٢٨٢/١.
(١٣) تفسير القرطبي: ١٢٧/٢.

وقال صلى الله عليه وسلم في زيد بن عمرو بن نفيل : "يُبعث أمة وحده"[٢]، لأنه لم يشرك في دينه غيره[٣].

السابع: والأمة في اللغة: النَعْمَةُ والخير، قال عدي بن زيد[٤]:

ثم بعد الفلاح والرشد والأ ... مَّةِ وارثهُمُ هناك القبور.

أي بعد النعمة والخير، وذكر أبو عمرو الشيباني أن العرب تقول للشيخ، إذا كان باقي القوة فلان بأمَّةٍ، ومعناه راجع إلى الخير والنعمة، لأن بقاءَ قوته من أعظم النعمة[٥].

الثامن: والأمة: القصد، يقال أمَمْتُ الشيءَ إذا قصدْتُه[٦].

وتلتقي جميع الأقوال السابقة في القول الأخير، لأن"أصل هذا كله من القصد، فمعنى الأمة في الدين: أن مقصدهم مقصد واحد، ومعنى الأمة في الرجل: المنفرد الذي لا نظير له، أن قصده منفرد من قصد سائر الناس، ويروى أن زيد بن عدي بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده[٧]، وإنما ذلك لأنه أسلم في الجاهلية قبل مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - فمات موحداً فهذا أمة في وقته لانفراده... ومعنى الأمة القامة: سائر مقصد الجسد، فليس يخرج شيء من هذا الباب عن معنى أممت أي قصدت، ويقال إمامنا هذا حَسنُ الأمة أي يقوم بإمامتهِ بنَا في صلاته ويحسن ذلك"[٨].

قال الأزهري: والأمة فيما فسّروا يقع على الكفار والمؤمنين"[٩].

وقال الليث:"كلُّ قوم نُسبوا إلى نبيٍّ فأضيفوا إليه فهم أمته، وقيل: أمة محمد - صلى الله عليه وسلم -: كل من أرسل إليه ممن آمن به أو كفر، قال: وكل جيل من الناس هم أمة على حدة"[١٠].

قال ابن الأنباري: "والأمة أيضًا أتباع الأنبياء، من قولهم: نحن أمة محمد - صلى الله عليه وسلم -"[١١].

قوله تعالى: {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا}[البقرة:١٢٨]، " أي: وعلمنا شرائع عبادتنا ومناسك حجنا"[١٢].

قال ابن عثيمين:" أي بيِّنها لنا حتى نراها، و «المناسك» جمع منسك؛ وهو هنا مكان العبادة"[١٣].

---

(١) معاني القرآن للزجاج: ٢٨٣/١.

(٢)رواه أحمد:(١٦٤٨)، عن ابن إسحاق: وحُدِّثت أن ابنه سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وعمر بن الخطاب وهو ابن عمّه قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنستغفرُ لزيد بن عمرو؟ قال: "نعم فإنه يُبعثُ أمةً وحدهُ".

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ١٢٧/٢.

(٤)انظر: الشعر والشعراء" ص١٣٠، "تهذيب اللغة" (فلح) ٣/ ٢٨٢٦، "اللسان" (فلح) ٦/ ٣٤٥٨. ويروى (الملك) بدل (الرشد) و (الإمه) بكسر الهمزة: غضارة العيش والنعمة.

(٥) انظر: معاني القرآن للزجاج: ٢٨٣/١.

(٦) انظر: معاني القرآن للزجاج: ٢٨٣/١.

(٧) انظر: تفسير القرطبي: ١٢٧/٢.

(٨) معاني القرآن للزجاج: ٢٨٣/١-٢٨٤.

(٩)"تهذيب اللغة" ١/ ٢٠٤، وانظر: التفسير البسيط: ٣٢٠/٣.

(١٠)تهذيب اللغة" ١/ ٢٠٥، وانظر: التفسير البسيط: ٣٢٠/٣.

(١١) التفسير البسيط: ٣٢٠/٣.

(١٢) صفوة التفاسير:٨٣/١.

(١٣) تفسير ابن عثيمين:٦٣/٢.

قال الزجاج: أي:" عرِّفنا متعبداتنا، وكل متعبَّد فهو مَنْسَك ومَنْسِكٍ، ومن هذا قيل للعابد: ناسك، وقيل للذبيحة المتقرب بها إلى الله تعالى النسيكة، كأنَّ الأصل في النسك إنما هو من الذبيحة للَّهِ جلَّ وعزَّ"[١].

وقال الواحدي:" و(نسك) في اللغة على معنيين:أحدهما: ذَبَح، والآخر: عَبَدَ، فلا يُدرى أيهما الأصل"[٢].

وقال القرطبي: " إن أصل (النسك) في اللغة الغسل ، يقال منه : نسك ثوبه إذا غسله، وهو في الشرع اسم للعبادة ، يقال : رجل ناسك إذا كان عابدا"[٣].

قال أبو السعود:" والنُسُك في الأصل غايةُ العبادة وشاعَ في الحج لما فيه من الكُلفة والبعد عن العادة"[٤].

و(المناسك) جمع (منسك)، "وهو الموضع الذي ينسك لله فيه ، ويتقرب إليه فيه بما يرضيه من عمل صالح : إما بذبح ذبيحة له ، وإما بصلاة أو طواف أو سعي ، وغير ذلك من الأعمال الصالحة. ولذلك قيل لمشاعر الحج(مناسكه)، لأنها أمارات وعلامات يعتادها الناس ، ويترددون إليها... وأصل (المنسك) في كلام العرب : الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه ، يقال : " لفلان منسك " ، وذلك إذا كان له موضع يعتاده لخير أو شر، ولذلك سميت المناسك (مناسك)، لأنها تعتاد ، ويتردد إليها بالحج والعمرة ، وبالأعمال التي يتقرب بها إلى الله."[٥].

واختلفت القراءة في قوله تعالى: {وَأَرنَا مَنَاسِكَنَا}[البقرة:١٢٨]، على وجهين[٦]:

أحدهما: {وأرنا مناسكنا} بمعنى رؤية العين، أي أظهرها لأعيننا حتى نراها. وذلك قراءة عامة أهل الحجاز والكوفة، وكان بعض من يوجه تأويل ذلك إلى هذا التأويل ، يسكن الراء من (أرنا)، غير أنه يشمها كسرة.

ومن ثم اختلفوا هؤلاء في تفسير قوله :{ مَنَاسِكَنَا} على قولين:

القول الأول: أنها مناسك الحج ومعالمه. قاله قتادة[٧]، والسدي[٨].

القول الثاني: أن (المناسك): المذابح. قاله عطاء[٩]، ومجاهد[١٠]، وعبيد بن عمير[١١].

فكان تأويل هذه الآية ، على قول من قال ذلك : وأرنا كيف ننسك لك يا ربنا نسائكنا ، فنذبحها لك.

قال القرطبي: " ومن كسر، فإنه نقل حركة الهمزة المحذوفة إلى الراء"[١٢].

قال الزجاج" "والأجود الكسر، لأن الأصل في هذا (أرْئِنَا)فالكسرة إنما هي كسرة همزة ألقيت، وطُرحت حركتها على الراء فالكسرة دليل الهمزة، فحذفها قبيح"[١].

---

(١) معاني القرآن: ٢٠٩/١.وانظر: تهذيب اللغة: ٣٥٦٢/٤:(نسو).
(٢) التفسير البسيط: ٣٢٢/٣، وام
(٣) تفسير القرطبي: ١٢٨/٢.
(٤) تفسير أبي السعود: ١٦١/١.
(٥) تفسير الطبري: ٨٠/٣.
(٦) تفسير الطبري: ٧٥/٣-٧٩. وتفسير القر\طبي: ١٢٧/٢-١٢٨.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٣)، و(٢٠٦٤):ص٧٦/٣.
(٨)انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٥):ص٧٦/٣-٧٧.
(٩)انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٦)، و(٢٠٦٧):ص٧٧/٣.
(١٠)انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٨)، و(٢٠٦٩):ص٧٨/٣.
(١١)انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٠):ص٧٨/٣.
(١٢) تفسير القرطبي: ١٢٨/٢.

الثاني: {وأرنا مناسكنا} بتسكين (الراء) [٢]، وزعموا أن معنى ذلك : وعلمنا ، ودلنا عليها - لا أن معناه : أرناها بالأبصار. وزعموا أن ذلك نظير قول الشاعر [٣]:

أريني جوادا مات هزلا لعلني ... أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا

يعني بقوله:(أريني)، دليني عليه وعرفيني مكانه ، ولم يعن به رؤية العين.

واختاره أبو عبيد، وأصله: أرئنا، بالهمز، فمن قرأ بالسكون قال : ذهبت الهمزة وذهبت حركتها وبقيت الراء ساكنة على حالها ، واستدل بقول الشاعر [٤]:

أرنا إداوة عبدالله نملؤها ... من ماء زمزم إن القوم قد ظمئوا

قال عطاء : {أرنا مناسكنا}، أخرجها لنا ، علمناها" [٥].

وروي عن علي بن أبي طالب : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت ، قال : " فعلت أي رب ، فأرنا مناسكنا " - أبرزها لنا ، علمناها - فبعث الله جبريل ، فحج به" [٦].

قلت: إن القول واحد، إذ لا فرق بين الرؤيتين: رؤية العين ورؤية القلب. والله تعالى أعلم [٧].

قوله تعالى: {وَتُبْ عَلَيْنَا}[البقرة:١٢٨]، "أي ووفقنا للتوبة فنتوب" [٨].

قال ابن عثيمين:"والتوبة من العبد: هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة؛ ومن الله عزّ وجلّ: هي توفيق العبد للتوبة، ثم قبولها منه" [٩].

قال البيضاوي:" استتابة لذريتهما، أو عما فرط منهما سهواً. ولعلهما قالا هضما لأنفسهما وإرشاداً لذريتهما" [١٠].

قال النسفي:أي وتب علينا" ما فرط منا من التقصير أو استتاباً لذريتهما" [١١].

قال أبو السعود:" استتابة لذريتهما وحكايتُها عنهما لترغيب الكفرةِ في التوبة والإيمان أو توبةٌ لهما عما فرط منهما سهوا ولعلمهما قالاه هضماً لأنفسهما وإرشاداً لذريتهما" [١٢].

قال المراغي:" أي ووفقنا للتوبة ، لنتوب ويرجع إليك من كل عمل يشغلنا عنك ، وهذا نظير قوله تعالى : (ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا).

---

(١) معاني القرآن:٢٠٩/١.

(٢) وهي قراءة عمر بن عبدالعزيز وقتادة وابن كثير وابن محيصن والسدي وروح عن يعقوب ورويس والسوسي.(انظر: تفسير القرطبي: ١٢٧/٢).

(٣)البيت لحاتم الطائي، في "ديوانه" ص ٤٠، ولحطائط بن يعفر، "مجاز القرآن" ١/ ٥٥، "الحجة" ٢/ ٢٢٥، "شرح أبيات المغني" ١/ ٢١٩، وفي "خزانة الأدب" ١/ ٤٠٦، ولدريد في "لسان العرب" ١/ ١٥٨، ولمعن بن أوس في "ديوانه" ص ٣٩. قال: العيني ١/ ٣٢٩: أقول قائله هو حاتم بن عدي الطائي، كذا قالت جماعة من النحاة. ينظر: "المعجم المفصل" ٢/ ٢٠٢، وتحقيق أحمد شاكر لكتاب "الشعر والشعراء" ١/ ٢٤٨.

(٤) لم أعثر على قائله، وقيل في الأصل أدرنا. وبه ينكسر الوزن. والبيت كر في مجموعة من التفاسير: البحر الميط: ٥٦١/١، وروح المعاني: ٣٨٦/١

(٥) أخرجه الطبري (٢٠٦٨): ٧٩/٣.

(٦) أخرجه الطبري (٢٠٦٩): ٧٩/٣.

(٧) وفي في قراءة ابن مسعود :(وأرهم مناسكهم)، يعني بذلك وأر ذريتنا المسلمة مناسكهم.(انظر: تفسير الطبري: ٨١/٣).

(٨) تفسير ابن عثيمين:٦٣/٢.

(٩) تفسير ابن عثيمين:٦٣/٢.

(١٠) تفسير البيضاوي: ١٠٦/١.

(١١) تفسير النسفي:٨٧/١.

(١٢) تفسير أبي السعود: ١٦١/١.

وهذا منهما إرشاد لذريتهم ، وتعليم منهما لهم بأن البيت وما يتبعه من المناسك والمواقف أمكنة للتخلص من الذنوب وطلب الرحمة من الله"(١).

قال الطبري: والتوبة:" أصلها الأوبة من مكروه إلى محبوب. فتوبة العبد إلى ربه ، أوبته مما يكرهه الله منه ، بالندم عليه ، والإقلاع عنه ، والعزم على ترك العود فيه. وتوبة الرب على عبده : عوده عليه بالعفو له عن جرمه ، والصفح له عن عقوبة ذنبه ، مغفرة له منه ، وتفضلا عليه"(٢).

وقد اختلف في معنى قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : {وَتُبْ عَلَيْنَا} [البقرة:١٢٨]، وهم أنبياء معصومون، وفيه وجوه(٣):

أحدها: قالت طائفة : طلبا التثبيت والدوام ، لا أنهما كان لهما ذنب، وهذا حسن.

الثاني: "إنهما لما عرفا المناسك وبنيا البيت وأطاعا أرادا أن يسنا للناس أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصل من الذنوب وطلب التوبة"(٤).

قال ابن عطية: "وهو الأحسن عندي"(٥).

واعترض عليه أبو حيان فقال:"وفيه خروج قوله : {وتب علينا} عن ظاهره إلى تأويل بعيد، أي إن الدعاء بقوله :{وتب علينا}، ليس معناه أنهما طلبا التوبة ، بل نبها بذلك الطلب على أن غيرهما يطلب في تلك المواضع التوبة ، فيكونان لم يقصدا الطلب حقيقة ، إنما ذكرا ذلك لتشريع غيرهما لطلب ذلك ، وهذا بعيد جداً"(٦).

الثالث: وقيل : المعنى وتبّ على الظلمة منّا.

قال أبو حيان:" قالوا التوبة من حيث الشريعة تختلف باختلاف التائبين ، فتوبة سائر المسلمين الندم بالقلب ، والرجوع عن الذنب ، والعزم على عدم العود ، ورد المظالم إذا أمكن، ونية الرد إذا لم يمكن ، وتوبة الخواص الرجوع عن المكروهات من خواطر السوء ، والفتور في الأعمال ، والإتيان بالعبادة على غير وجه الكمال ، وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات ، والترقي في المقامات ، فإن كان إبراهيم وإسماعيل دعوا لأنفسهما بالتوبة ، وكان الضمير في قوله : {وَتُبْ عَلَيْنَآ} خاصاً بهما ، فيحتمل أن تكون التوبة هنا من هذا القسم الأخير. قالوا : ويحتمل أن يريد التثبيت على تلك الحالة مثل : {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ}، وإن كان الضمير شاملاً لهما وللذرية ، كان الدعاء بالتوبة منصرفاً لمن هو من أهل التوبة. وإن كان الضمير قبله محذوفاً مقدراً ، فالتقدير على عصاتنا ، ويكون دعا بالتوبة للعصاة. ولا تدل هذه الآية على جواز وقوع الذنب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لما ذكرناه من الاحتمال ، خلافاً لمن زعم ذلك وقال : التوبة مشروطة بتقدم الذنب ، إذ لولا ذلك لاستحال طلب التوبة. والذي يقوي أن المراد الذرية العصاة قوله تعالى : {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الاصْنَامَ} ، إلى قوله : {وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} ، أي فأنت قادر على أن تتوب عليه وتغفر له"(٧).

---

(١) تفسير المراغي: ٢١٦/١.
(٢) تفسير الطبري: ٨١/٣.
(٣) انظر: تفسير القرطبي: ١٣٠/٢.
(٤) المحرر الوجيز: ٢١١/١، وتفسير القرطبي: ١٣٠/٢.
(٥) المحرر الوجيز: ٢١١/١.
(٦) البحر المحيط: ٣٣٩/١.
(٧) البحر المحيط: ٣٣٩/١.

وقال الزمخشري : "{وتب علينا}، ما فرط منا من الصغائر، أو استتاباً لذريتهما"[١].

قال أبو حيان: "فقوله: "ما فرط منا من الصغائر"[٢]، هو على مذهب المعتزلة ، إذ يقولون بتجويزها على الأنبياء"[٣].

قال ابن عطية:" وأجمعت الأمة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ ومن الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة، واختلف في غير ذلك من الصغائر، والذي أقول به أنهم معصومون من الجميع، وأن قول النبي صلى الله عليه وسلم «إني لأتوب إلى الله في اليوم وأستغفره سبعين مرة»[٤]، إنما هو رجوعه من حالة إلى أرفع منها لتزيد علومه واطلاعه على أمر الله، فهو يتوب من المنزلة الأولى إلى الأخرى، والتوبة هنا لغوية"[٥].

قوله تعالى: {إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة:١٢٨]، أي:" فإنك عظيم المغفرة واسع الرحمة"[٦].

قال ابن عباس: "أي: الراجع بأوليائه وأهل طاعته إلى أفضل دينه"[٧].

قال الطبري: أي:" إنك أنت العائد على عبادك بالفضل، والمتفضل عليهم بالعفو والغفران - الرحيم بهم، المستنقذ من تشاء منهم برحمتك من هلكته ، المنجي من تريد نجاته منهم برأفتك من سخطك"[٨].

قال المراغي:" أي إنك أنت وحدك كثير التوبة على عبادك بتوفيقهم لحسن العمل وقبول ذلك منهم ، الرّحيم بالتائبين المنجّى لهم من عذابك وسخطك"[٩].

قال ابن عثيمين:" هذا من باب التوسل بأسماء الله عزّ وجلّ المناسبة للمطلوب؛ و(التواب) صيغة مبالغة لكثرة من يتوب الله عليهم، وكثرة توبته على العبد نفسه؛ و(الرحيم) أي الموصوف بالرحمة التي يرحم بها من يشاء من عباده"[١٠].

قال أبو السعود:" وهو تعليلٌ للدعاء ومزيدُ استدعاء للإجابة قيل إذا أراد العبدُ أن يُستجاب له فليدع الله عز وجل بما يناسبه من أسمائه وصفاتِه"[١١].

قال الآلوسي: "وتقديم التوبة للمجاورة، وتأخير الرحمة لعمومها ولكونها أنسب بالفواصل"[١٢].

وقرأ عبد الله {وتب عليهم}، بضمير جمع الغيبة[١٣].

الفوائد:

---

(١) الكشاف: ١٨٨/١.
(٢) الكشاف: ١٨٨/١.
(٣) البحر المحيط: ٣٣٩/١.
(٤) المعجم الأوسط(٢٨٩٨):ص٤١٨/٣.
(٥) المحرر الوجيز: ٢١٢/١.
(٦) صفوة التفاسير:٨٣/١.
(٧) انظر: التفسير البسيط: ٢٣٢/٣.
(٨) تفسير الطبري: ٨٢/٣.
(٩) تفسير المراغي: ٢١٧/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢٧/٢.
(١١) تفسير أبي السعود: ١٦١/١.
(١٢) روح المعاني: ٣٨٤/١.
(١٣) انظر: روح المعاني: ٣٨٤/١.

١-من فوائد الآية: شدة افتقار الإنسان إلى ربه، حيث كرر كلمة: { ربنا }؛ وأنه بحاجة إلى ربوبية الله الخاصة التي تقتضي عناية خاصة.
٢- ومنها: أن الإنسان مفتقر إلى تثبيت الله؛ وإلا هلك؛ لقوله تعالى: { واجعلنا مسلمين }؛ فإنهما مسلمان بلا شك: فهما نبيَّان؛ ولكن لا يدوم هذا الإسلام إلا بتوفيق الله؛ قال الله سبحانه وتعالى للرسول (ص): {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلًا * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات} [الإسراء: ٧٤، ٧٥] .
٣- ومنها: أهمية الإخلاص؛ لقوله تعالى: { مسلمين لك }: { لك } تدل على إخلاص الإسلام لله عزّ وجلّ، كما قال تعالى في آية أخرى: {بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه} [البقرة: ١١٢] .
٤- ومنها: أن الإسلام يشمل كل استسلام لله سبحانه وتعالى، ظاهراً وباطناً.
٥- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يشمل ذريته في الدعاء؛ لأن الذرية الصالحة من آثار الإنسان الصالحة؛ لقوله تعالى: { ومن ذريتنا أمة مسلمة لك }؛ وقال إبراهيم (ص) في آية أخرى: { واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام }؛ فالذرية صلاحها لها شأن كبير بالنسبة للإنسان.
٦- ومنها: أن الأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله تعالى: { وأرنا مناسكنا } يعني: أعلمنا بها.
٧- ومنها: أن الأصل في العبادات أنها توقيفية - يعني: الإنسان لا يتعبد لله بشيء إلا بما شرع - ؛ لقوله تعالى: { وأرنا مناسكنا }.
٨- ومنها: تحريم التعبد لله بما لم يشرعه؛ لأنهما دعَوَا الله عزّ وجلّ أن يريهما مناسكهما؛ فلولا أن العبادة تتوقف على ذلك لتَعبدا بدون هذا السؤال.
٩- ومنها: افتقار كل إنسان إلى توبة الله؛ لقوله تعالى: { وتب علينا }؛ إذ لا يخلو الإنسان من تقصير.
١٠- ومنها: إثبات { التواب }، و{ الرحيم } اسمين من أسماء الله سبحانه وتعالى، وما تضمناه من صفة.
١١- ومنها: مشروعية التوسل إلى الله عزّ وجلّ بأسمائه، وصفاته؛ لأن قوله تعالى: { إنك أنت التواب الرحيم } تعليل للطلب السابق؛ فهو وسيلة يتوصل بها الداعي إلى حصول مطلوبه.
١٢- ومنها: أن التوسل بأسماء الله يكون باسم مطابق لما دعا به؛ لقوله تعالى: { وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم }، ولقوله تعالى: { ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها }.

القرآن

{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)} [البقرة : ١٢٩]

التفسير:

ربنا وابعث في هذه الأمة رسولا من ذرية إسماعيل يتلو عليهم آياتك ويعلمهم القرآن والسنة، ويطهرهم من الشرك وسوء الأخلاق. إنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها.

قوله تعالى:{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ}[البقرة:١٢٩]، أي:ربنا: و"أرسل فيهم رسولاً مرسَلاً من عندك"[١].

---

(١) تفسير ابن عثيمين:٦٢/٢.

قال الصابوني:" أي: ابعث في الأمة المسلمة رسولاً من أنفسهم وهذا من جملة دعواتهما المباركة فاستجاب الله الدعاء ببعثة السراج المنير محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[١].

قال أبو السعود:" أي: من أنفسهم فإن البعث فيهم لا يستلزم البعثَ منهم ولم يُبعث من ذريتهما غير النبيِّ صلَّى الله عليهِ وسلم فهو الذي أُجيب به دعوتُهما عليهما السَّلامُ"[٢].

قال المراغي:" أي: ربنا وأرسل في الأمة المسلمة لك رسولا من أنفسهم ليكون أشفق عليهم ، ويكونوا أعزّ به ، وأقرب لإجابة دعوته ، إذ أنهم يكونون قد خبروه وعرفوا منشأه ودرسوا فاضل أخلاقه من صدق وأمانه وعفة ونحو ذلك مما هو شرط في صحة نبوّة النبي، وقد أجاب اللّه دعوته ، وأرسل خاتم النبيين محمدا صلى اللّه عليه وسلم رسولا منهم ، ومن ثمّ روى الإمام أحمد قوله صلى اللّه عليه وسلم : « أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى »[٣]"[٤].

قال الحافظ ابن كثير: " وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَرَ الله السابق في تعيين محمد - صلوات الله وسلامه عليه - رسولا في الأميين إليهم ، إلى سائر الأعجمين ، من الإنس والجن"[٥].

قال البيضاوي:" ولم يبعث من ذريتهما غير محمد صلّى الله عليه وسلّم، فهو المجاب به دعوتهما"[٦].

قال ابن عطية:" ومعنى {مِنْهُمْ}: أن يعرفوه ويتحققوا فضله ويشفق عليهم ويحرص"[٧].

وفي قراءة أبيّ: {وابعث في آخرهم رسولا منهم}[٨].

قوله تعالى:{يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ}[البقرة:١٢٩]، أي: "يقرأ عليهم كتابك الذي توحيه إليه"[٩].

قال الصابوني:" أي يقرأ آيات القرآن"[١٠].

قال البيضاوي:أي:" يقرأ عليهم ويبلغهم ما توحي إليه من دلائل التوحيد والنبوة"[١١].

قال أبو السعود:" يقرأ عليهم ويبلغهم ما يوحى إليه من البينات"[١٢].

قال ابن عثيمين:أي" يقرأ عليهم آياتك، ويبينها لهم، كما قال الله - تبارك وتعالى -: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل : ٤٤]" [١٣].

وفي قوله تعالى:{ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ}[البقرة:١٢٩]، وجهان من التفسير[١٤]:

---

(١) صفوة التفاسير:٨٣/١.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٦٢/١.

(٣)المسند (٢٦٢/٥). وقد ذكر الطبري رواية أخرى: عن خالد بن معدان الكلاعي : "أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك. قال : نعم ، أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، صلى الله عليه وسلم".[تفسير الطبري(٢٠٧٠):ص٨٢/٣].

(٤) تفسير المراغي: ٢١٧/١.

(٥) تفسير ابن كثير: ٤٤٣/١.

(٦) تفسير البيضاوي: ١٠٦/١.

(٧) المحرر الوجيز: ٢١٢/١.

(٨) انظر: تفسير القرطبي: ١٣٠/٢.

(٩) تفسير الطبري: ٨٦/٣.

(١٠) صفوة التفاسير:٨٣/١.

(١١) تفسير البيضاوي: ١٠٦/١.

(١٢) تفسير أبي السعود: ١٦٢/١.

(١٣) تفسير ابن عثيمين:٦٢/٢.

(١٤) انظر: تفسير الرازي: ٦١/٤.

الأول: أنها الفرقان الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لأن الذي كان يتلوه عليهم ليس إلا ذلك، فوجب حمله عليه.
الثاني: يجوز أن تكون الآيات هي الأعلام الدالة على وجود الصانع وصفاته سبحانه وتعالى، ومعنى تلاوته إياها عليهم: أنه كان يذكرهم بها ويدعوهم إليها ويحملهم على الإيمان بها.
قوله تعالى:{وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}[البقرة:١٢٩]، أي و"يعلمهم القرآن العظيم والسنة المطهرة"[١].
قال البيضاوي: "{الكِتابَ}: القرآن، {وَالحِكْمَةَ}: ما تكمل به نفوسهم من المعارف والأحكام"[٢].
قال أبو السعود:" أي القرآن، {والحكمة} وما يُكمل به نفوسَهم من أحكام الشريعة والمعارف الحقة"[٣].
أخرج الطبري عن ابن زيد :"{ويعلمهم الكتاب}، القرآن"[٤].
قال ابن عطية:" ونسب التعليم إلى النبي صلى الله عليه وسلم من حيث هو يعطي الأمور التي ينظر فيها ويعلم طرق النظر بما يلقيه الله إليه ويوحيه"[٥].
واختلفوا في معنى:{الْحِكْمَةَ} في هذه الآية على أقوال[٦]:
أحدها: أنها السنّة. قاله قتادة[٧]، والحسن[٨]، ومقاتل بن حيان[٩]، وأبو مالك[١٠]، والشافعي[١١]، ويحيى بن كثير[١٢]، وغيرهم.
والدليل عليه أنه تعالى ذكر تلاوة الكتاب أولا وتعليمه ثانيا ثم عطف عليه الحكمة فوجب أن يكون المراد من الحكمة شيئا خارجا عن الكتاب، وليس ذلك إلا سنة الرسول عليه السلام[١٣].
الثاني: أن«الحكمة»: هي المعرفة بالدين والفقه فيه. أي: ويعلمهم كتابك الذي تنزله عليهم، وفصل قضائك وأحكامك التي تعلمه إياها. قاله مالك[١٤]، وابن زيد[١٥].
الثالث: أن الحكمة هي الفصل بين الحق والباطل، وهو مصدر بمعنى الحكم، كالقعدة والجلسة[١٦] .
قال الطبري: والحكمة مأخوذ من "«الحكم» الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل"[١].

---

(١) صفوة التفاسير:٨٣/١.
(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٦/١.
(٣) تفسير أبي السعود: ١٦٢/١.
(٤) تفسير الطبري(٢٠٧٧):ص٨٦/٣.
(٥) المحرر الوجيز: ٢١٢/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٨٦/٣-٨٧. وتفسير ابن كثير: ٤٤٤/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٨):ص٨٧/٣.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٩٩٣):ص١٢٤٠/٤.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٩٩٣):ص١٢٤٠/٤.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٩٩٣):ص١٢٤٠/٤.
(١١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٤٤/١.
(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٩٩٣):ص١٢٤٠/٤.
(١٣) تفسير الرازي: ٦٢/٤.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٩):ص٨٧/٣.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٨٠):ص٨٧/٣، وتفسير ابن أبي حاتم(٦٩٩٥):ص١٢٤٠/٤.
(١٦) انظر: تفسير الطبري:٨٧/٣.

والمعنى: يعلمهم كتابك الذي تنزله عليهم، وفصل أقضيتك وأحكامك التي تعلمه إياها، ومثال هذا: الخبر والخبرة، والعذر والعذرة، والغل والغلة، والذل والذلة.

الرابع: وقيل:{ويعلمهم الكتاب}، أراد به الآيات المحكمة، {والحكمة} أراد بها الآيات المتشابهات.

الخامس: وقيل: {ويعلمهم الكتاب}، أي: يعلمهم ما فيه من الأحكام، {والحكمة} أراد بها أنه يعلمهم حكمة تلك الشرائع وما فيها من وجوه المصالح والمنافع.

قلتُ: ولا منافاة بين الأقوال السابقة، فإذا كانت الحكمة هي الفهم في الدين، فالعلم بأحكامه لايدرك علمها إلا ببيان سنة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، والكل صفات الكتاب كأنه تعالى وصفه بأنه آيات، وبأنه كتاب، وبأنه حكمة. والله تعالى أعلم.

قال الرازي: قوله تعالى{وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ}، "المراد أنه يأمرهم بتلاوة الكتاب ويعلمهم معاني الكتاب وحقائقه، وذلك لأن التلاوة مطلوبة لوجوه: منها بقاء لفظها على ألسنة أهل التواتر فيبقى مصونا عن التحريف والتصحيف، ومنها أن يكون لفظه ونظمه معجزا لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ومنها أن يكون في تلاوته نوع عبادة وطاعة، ومنها أن تكون قراءته في الصلوات وسائر العبادات نوع عبادة، فهذا حكم التلاوة إلا أن الحكمة العظمى والمقصود الأشرف تعليم ما فيه من الدلائل والأحكام، فإن الله تعالى وصف القرآن بكونه هدى ونورا لما فيه من المعاني والحكم والأسرار، فلما ذكر الله تعالى أولا أمر التلاوة ذكر بعده تعليم حقائقه وأسراره فقال: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ}"(٢).

وأما{الحكمة}: فهي: "الإصابة في القول والعمل، ولا يسمى حكيما إلا من اجتمع له الأمران وقيل: أصلها من: أحكمت الشيء، أي: رددته، فكأن «الحكمة» هي التي ترد عن الجهل والخطأ، وذلك إنما يكون بما ذكرنا من الإصابة في القول والفعل، ووضع كل شيء موضعه. قال القفال: وعبر بعض الفلاسفة عن الحكمة بأنها التشبه بالإله بقدر الطاقة البشرية(٣)".

قوله تعالى:{وَيُزَكِّيهِمْ}[البقرة:١٢٩]، أي: و"يطهرهم من رجس الشرك"(٤).

قال البيضاوي:" عن الشرك والمعاصي"(٥).

قال أبو السعود:"أي يطهرها عن دنس الشرك وفنون المعاصي"(٦).

قال ابن عثيمين:" أي ينمي أخلاقهم، ويطهرها من الرذائل"(٧).

قال السعدي:" بالتربية على الأعمال الصالحة والتبري من الأعمال الردية، التي لا تزكي النفوس معها"(٨).

قال ابن عطية:أي :" يطهرهم وينميهم بالخير، ومعنى الزكاة لا يخرج عن التطهير أو التنمية"(٩).

---

(١) تفسير الطبري: ٨٧/٣.
(٢) تفسير الرازي: ٦١/٤-٦٢.
(٣) تفسير الرازي: ٦٢/٤.
(٤) صفوة التفاسير:٨٤/١.
(٥) تفسير البيضاوي: ١/!٠٦.
(٦) تفسير أبي السعود: ١٦٢/١.
(٧) تفسير ابن عثيمين:٦٦/٢.
(٨) تفسير السعدي:٦٦.
(٩) المحرر الوجيز: ٢١٢/١.

قال المراغي: أي ويطهر نفوسهم من الشرك وضروب المعاصي التي تدسّيها وتفسد الأخلاق وتقوّض نظم المجتمع ، ويعوّدها الأعمال الحسنة التي تطبع فيها ملكات الخير التي ترضى المولى جلّ وعلا"[١].

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى:{وَيُزَكِّيهِمْ}[البقرة:١٢٩] وجهان[٢]:

أحدهما: أن المعنى: يطهرهم من الشرك ويخلصهم منه. قاله ابن جريج[٣]، وروي عن الحسن[٤] نحو ذلك.

قال الطبري:" "ويطهرهم من الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وينميهم ويكثرهم بطاعة الله"[٥].

الثاني:أن التزكية هي الطاعة لله والإخلاص. قاله ابن عباس[٦].

وذكر الفخر الرازي في معنى هذه التزكية وجهين[٧]:

أحدهما: ما يفعله سوى التلاوة وتعليم الكتاب والحكمة، حتى يكون ذلك كالسبب لطهارتهم، وتلك الأمور ما كان يفعله عليه السلام من الوعد والإيعاد، والوعظ والتذكير، وتكرير ذلك عليهم، ومن التشبث بأمور الدنيا إلى أن يؤمنوا ويصلحوا، فقد كان عليه السلام يفعل من هذا الجنس أشياء كثيرة ليقوي بها دواعيهم إلى الإيمان والعمل الصالح، ولذلك مدحه تعالى بأنه على خلق عظيم، وأنه أوتي مكارم الأخلاق.

الثاني: يزكيهم، يشهد لهم بأنهم أزكياء يوم القيامة إذا شهد على كل نفس بما كسبت، كتزكية المزكي الشهود.

قال الرازي: "والأول أجود لأنه أدخل في مشاكلة مراده بالدعاء، لأن مراده أن يتكامل لهذه الذرية الفوز بالجنة، وذلك لا يتم إلا بتعليم الكتاب والحكمة، ثم بالترغيب الشديد في العمل والترهيب عن الاخلال بالعمل وهو التزكية، هذا هو الكلام الملخص في هذه الآية"[٨].

قوله تعالى:{إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[البقرة:١٢٩]، "أي إنك أنت القوى الذي لا يغلب ولا ينال بضيم من توكل عليك ، الحكيم في أفعالك في عبادك ، فلا تفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة"[٩].

قال ابن كثير:أي : "العزيز الذي لا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله ، فيضع الأشياء في محالها؛ وحكمته وعدله"[١٠].

قال البيضاوي: "{ الْعَزِيزُ}: لا يقهر ولا يغلب على ما يريد، {الْحَكِيمُ} المحكم له"[١١].

---

(١) تفسير المراغي: ٢١٧/١.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٠/٤. وتفسير الطبري: ٨٨/٣.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٨٢):ص٨٨/٣.
(٤)انظر: مفاتيح الغيب: ٦٠/٤.
(٥) تفسير الطبري: ٨٨/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٨١):ص٨٨/٣، وابن أبي حاتم(١٢٦٥):ص٢٣٧/١.
(٧) انظر: تفسير الرازي: ٥٩/٤-٦٠.
(٨) مفاتيح الغيب: ٦٠/٤.
(٩) تفسير المراغي: ٢١٧/١.
(١٠) تفسير ابن كثير: ٤٤٥/١.
(١١) تفسير البيضاوي: ١٠٦/١.

قال الطبري: {العزيز} القوي الذي لا يعجزه شيء أراده ، فافعل بنا وبذريتنا ما سألناه وطلبناه منك ؛ و{الحكيم} الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل ، فأعطنا ما ينفعنا وينفع ذريتنا ، ولا ينقصك ولا ينقص خزائنك(١).

قال الصابوني:" {العزيز}: الذي لا يُقهر ولا يُغلب، {الحكيم}: الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة"(٢).

قال ابن عطية:" {الْعَزِيزُ}: الذي يغلب ويتم مراده ولا يرد، و{الْحَكِيمُ}: المصيب مواقع الفعل المحكم لها"(٣).

قال السعدي:"{ لَعَزِيزُ} أي: القاهر لكل شيء، الذي لا يمتنع على قوته شيء. {الْحَكِيمُ} الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتك وحكمتك، ابعث فيهم هذا الرسول"(٤).

قال أبو السعود: "والجملة تعليلٌ للدعاء وإجابة المسئول فإن وصفَ الحكمةِ مقتضٍ لإفاضة ما تقتضيه الحِكمةُ من الأمور التي من جملتها بعثُ الرسول ووصفُ العزة مستدعٍ لامتناع وجود المانِع بالمرة"(٥).

قال المراغي:" وقد ختم إبراهيم دعواته بالثناء على ربه ، وذكر له من الأوصاف ما يشاكل مطالبه ، فوصفه بأنه العزيز الذي لا يردّ له أمر ، وأنه الحكيم الذي لا معقب لحكمه ، فمن الهيّن عليه أن يجيبه إلى ما طلب ، مما هو متنافر مع طباع العرب ، بعيد من معايشهم وأحوالهم ، فهم بعيدون عن ورود مناهل العلم ، وفيهم خشونة في الطباع ، وغلظ في الأكباد ، ليس لديهم استعداد لحضارة ولا مدنية ، وقد أجاب اللّه دعاءه وكوّن منهم أمة كانت خير الأمم ، سادت العالم وملكت المشارق والمغارب ردحا من الزمان ، وكان فيها رجال حفظ لهم التاريخ صادق بلائهم ، وعظيم سياستهم للشعوب التي انضوت تحت لوائهم ، بما لم تجارهم فيه أرقى الأمم مدنية في عصرنا ، عصر الرقى والحضارة"(٦).

الفوائد:

١- من فوائد الآية: ضرورة الناس إلى بعث الرسل؛ ولذلك دعـا إبراهيمُ وإسماعيلُ الله سبحانه وتعالى أن يبعث فيهم الرسول.

٢- ومنها: أن كون الرسول منهم أقرب إلى قبول دعوته؛ لقوله تعالى: { رسولاً منهم }؛ لأنهم يعرفونه، كما قال تعالى: {ما ضل صاحبكم وما غوى} [النجم: ٥٣] ؛ فتأمل قوله تعالى: {ما ضل صاحبكم} [النجم: ٥٣] ، حيث أضافه إليهم؛ يعني: صاحبكم - الذي تعرفونه، وتعرفون رجاحة عقله، وتعرفون أمانته - ما ضل، وما غوى.

٣- ومنها: أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل الله سبحانه وتعالى فيه من الخير أنه يتلو الآيات، ويعلم الكتاب، ويعلم الحكمة؛ لقوله تعالى: { يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة}.

---

(١) تفسير الطبري: ٨٨/٣. وذكر الطبري خبرا آخر: حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنا حجاج قال ، قال ابن جريج قوله : " ويزكيهم " قال ، يطهرهم من الشرك ، ويخلصهم منه.

(٢) صفوة التفاسير:٨٤/١.

(٣) المحرر الوجيز: ٢١٢/١.

(٤) تفسير السعدي:٦٦.

(٥) تفسير أبي السعود: ١٦٢/١.

(٦) تفسير المراغي: ٢١٧/١-٢١٨.

٤- ومنها: أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم تتضمن ذكر آيات الله الكونية، والشرعية، وتتضمن تعليم الكتاب تلاوةً، ومعنًى، وتتضمن أيضاً الحكمة - وهي معرفة أسرار الشريعة، وتتضمن تزكية الخلق؛ لقوله تعالى: { يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم }.
٥- ومنها: أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم يزكي الأخلاق، ويطهرها من كل رذيلة، كما قال صلى الله عليه وسلم «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(١) ؛ وهكذا كانت شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم: تنمية للأخلاق الفاضلة، وتطهيراً من كل رذيلة؛ فهو يأمر بالبر، ويأمر بالمعروف، ويأمر بالإحسان، ويأمر بالصلة، ويأمر بالصدق، ويأمر بكل خير؛ كل ما فيه خير للإنسان في دينه ودنياه فإن الإسلام يأمر به - وهذه تزكية -؛ وينهى عن ضد ذلك؛ ينهى عن الإثم، والقطيعة، والعدوان، والعقوق، والكذب، والغش، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق - وهذه أيضاً تزكية -.
وحال الناس قبل الإسلام بالنسبة للعبادة لا تَسأل! شرك، وكفر؛ وبالنسبة للأحوال الاجتماعية لا تَسأل أيضاً عن حالهم! القوي يأكل الضعيف؛ والغني يأكل الفقير؛ ويأكلون الربا أضعافاً مضاعفة؛ يُغير بعضهم على بعض؛ يتعايرون بالأنساب؛ يدعون بدعوى الجاهلية... إلخ.
جاء الإسلام، وهدم كل هذا؛ ومن تدبر التاريخ قبل بعثه (ص) وبعده، علم الفرق العظيم بين حال الناس قبل البعثة، وحالهم بعدها؛ وظهر له معنى قوله تعالى: { ويزكيهم }.
٦- ومنها: أن هذه الشريعة كاملة؛ لتضمن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم لهذه المعاني الجليلة مما يدل على كمال شريعته.
٧- ومنها: إثبات العزة، والحكمة لله؛ لقوله تعالى: { إنك أنت العزيز الحكيم }.
٨- ومنها: إثبات هذين الاسمين لله: { العزيز }، و{ الحكيم }.
٩- ومنها: مناسبة العزة، والحكمة لبعث الرسول؛ وهي ظاهرة جداً؛ لأن ما يجيء به الرسول كله حكمة، وفيه العزة: قال الله تعالى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} [المنافقون: ٨٠] ؛ للمؤمنين عرباً كانوا، أو عجماً؛ من كان مؤمناً بالله عزّ وجلّ قائماً بأمر الله فإن له العزة؛ ومن لم يكن كذلك فاته من العزة بقدر ما أخل به من الإيمان، والعمل الصالح؛ ولهذا يجب أن تكون رابطة الإيمان أقوى الروابط بين المؤمنين؛ لأنه لا يمكن أن تكون هناك عزة واجتماع على الخير برابطة أقوى من هذه الرابطة.

القرآن

{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)} [البقرة : ١٣٠]

التفسير:

ولا أحد يُعرض عن دين إبراهيم -وهو الإسلام- إلا سفيه جاهل، ولقد اخترنا إبراهيم في الدنيا نبيًّا ورسولا وإنه في الآخرة لمن الصالحين الذين لهم أعلى الدرجات.

سبب النزول:

قال الثعلبي: "إن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجر إلى الإسلام فقال لهما: قد علمتما إنّ الله عزّ وجلّ قال في التوراة: إنّي باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن

---

(١) أخرجه أحمد ج٣٨١/٢، حديث رقم ٨٩٣٩، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٦١٣/٢، وقال حديث صحيح على شرط مسلم؛ وأقره الذهبي، وقال ابن عبد البر: وهذا حديث مدني صحيح (التمهيد ٣٣٤/٢٤).

به فقد اهتدى ورشد ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبى مهاجرا أن يسلم، فأنزل الله تعالى. وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ أي يترك دينه وشريعته"(١).

والخبر في تفسير مقاتل بن سليمان(٢)، وذكره الزمخشري(٣)، والسيوطي(٤)، وابن حجر في العجاب(٥).

قوله تعالى:{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ}[البقرة:١٣٠]، يعني: "وأي الناس يزهد في ملة إبراهيم، ويتركها رغبة عنها إلى غيرها؟"(٦).

قال ابن كثير:" أي : عن طريقته ومنهجه. فيخالفها ويرغب عنها"(٧).

قال البيضاوي:" استبعاد وإنكار لأن يكون أحد يرغب عن ملته الواضحة الغراء، أي لا يرغب أحد من ملته"(٨).

قال الزجاج:" المعنى: ما يرغب عن ملة إبراهيم"(٩).

قال الصابوني:" أي لا يرغب عن دين إبراهيم وملته الواضحة الغراء"(١٠).

قال الطبري: "وإنما عنى الله بذلك اليهود والنصارى ، لاختيارهم ما اختاروا من اليهودية والنصرانية على الإسلام. لأن " ملة إبراهيم " هي الحنيفية المسلمة ، كما قال تعالى ذكره : {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا}[سورة آل عمران : ٦٧]"(١١).

قال قتادة:"رغب عن ملته اليهود والنصارى، واتخذوا اليهودية والنصرانية ، بدعة ليست من الله ، وتركوا ملة إبراهيم - يعني الإسلام - حنيفا ؛ كذلك بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بملة إبراهيم"(١٢). وروي عن أبي العالية(١٣) نحوه.

قال الثعلبي:" رغب في الشيء، إذا أردته، ورغبت عنه إذا تركته، وأصل الرّغبة: رفع الهمّة عن الشيء وإليه يقال: رغب فلان في فلان وإليه إذا همّت نفسه إليه"(١٤).

و(المِلَّةُ) : "وهي السُّنَّة والمذهب"(١٥).

قوله تعالى:{إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ}[البقرة:١٣٠]،أي:" إلا من استخفّ نفسه وامتهنها"(١٦).

قال ابن زيد: إلا من أخطأ حظّه"(١٧).

---

(١) تفسير الثعلبي:٢٧٨/١.
(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣٩/١-١٤٠.
(٣) انظر: الكشاف: ٣١٢/١.
(٤) انظر: اللباب: ٣٧٨/١.
(٥) انظر: العجاب: ٣٧٨/١-٣٧٩.
(٦)تفسير الطبري: ٨٩/٣.
(٧) تفسير ابن كثير:٤٤٥/١.
(٨) تفسير البيضاوي: ١٠٦/١.
(٩) معاني القرآن: ٢٠٩/١.
(١٠) صفوة التفاسير:٨٥/١.
(١١)تفسير الطبري: ٨٩/٣.
(١٢) أخرجه الطبري (٢٠٨٣):ص ٨٩/٣.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٧٠):ص٢٣٨/١.
(١٤) تفسير الثعلبي:٢٧٨/١.
(١٥) معاني القرآن للزجاج:٢٠٩/١.
(١٦) صفوة التفاسير:٨٥/١.
(١٧) أخرجه الطبري(٢٠٨٥):ص٩٠/٣.

قال مقاتل بن سليمان:" يعني: إِلَّا من خسر نفسه من أَهْل الكتاب"[١].
وأخرج الكلبي عن ابن عباس:" في قوله: {إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} قال: خسر نفسه"[٢].
قال الطبري: أي:" إلا سفيه جاهل بموضع حظ نفسه فيما ينفعها ، ويضرها في معادها"[٣].
قال ابن كثير:" أي : ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال"[٤].
قال ابن كيسان: إلا من جهل نفسه"[٥].
قال أبو عبيدة:" أي أوبق نفسه وأهلكها"[٦].
قال ابن أبي زمنين: " أي : عجز رأيه عن النظر لنفسه ، فضلّ"[٧].
قال ابن عبّاس: "حيّر نفسه"[٨].
قال الكلبي: ظلّ من [جهة] نفسه"[٩].
قال أبو روق: عجّز رأيه عن نفسه"[١٠].
قال يمان: حمق رأيه"[١١].
وقال ابن بحر : "جهلها ولم يعرف ما فيها من الدلائل"[١٢].
قال البيضاوي: أي:" إلا من استمهنها وأذلها واستخف بها"[١٣].
قال الزجاج: أي:" إلا من جهل نفسه، أي لم يفكر فى نفسه، كقوله عزَّ وجلَّ: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}، فوضع جهل"[١٤].
قال السعدي:" أي: جهلها وامتهنها، ورضي لها بالدون، وباعها بصفقة المغبون، كما أنه لا أرشد وأكمل، ممن رغب في ملة إبراهيم"[١٥].
قال ابن عثيمين:"أي أوقعها في سفه؛ و(السفه) ضد الرشد؛ وقيل: معناه: جهل نفسه أي جهل ما يجب لها، فضيعها؛ ولنا أن نقول: إن التعبير بما يحتمل الوجهين فيه نكتة عظيمة؛ وهي أن يكون التعبير صالحاً للأمرين؛ فكأنه ناب عن جملتين؛ فهو في الحقيقة جاهل إن لم يتعمد المخالفة؛ وسفيه إن تعمد المخالفة"[١٦].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:١٤٠/١.
(٢) التفسير البسيط: ٣٣٥/٣، وانظر: "البحر المحيط" ١/ ٣٩٤.
(٣) تفسير الطبري:٩٠/٣.
(٤) تفسير ابن كثير: ٤٤٥/١.
(٥) تفسير الثعلبي: ٢٧٩/١.
(٦) تفسير الثعلبي: ٢٧٩/١.
(٧) تفسير ابن أبي زمنين: ١٧٩/١.
(٨) تفسير الثعلبي:٢٧٩/١.
(٩) تفسير الثعلبي:٢٧٩/١. وفي لفظ اخر له عند أبي حيان:" قتل نفسه". البحر المحيط: ٣٤٢/١.
(١٠) تفسير الثعلبي:٢٧٩/١.
(١١) تفسير الثعلبي:٢٧٩/١.
(١٢) البحر المحيط: ٣٤٢/١.
(١٣) تفسير البيضاوي: ١/!٠٦.
(١٤) معاني القرآن: ٢١١/١.
(١٥) تفسير السعدي: ٦٦.
(١٦) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٠/٢.

قال الواحدي:" لأن من عبد حجرًا أو قمرًا أو شمسا أو صنمًا فقد جهل نفسه؛ لأنه لم يعلم خالقها، ولم يعلم ما يحق لله عليه، والعرب تضع سَفِهَ في موضع جَهِل، ومنه الحديث: "الكِبْرُ أن تسفَهَ الحقَّ وتغمِصَ الناسَ "[١]، أي: تجهل الحق، ويؤيد هذا القولَ ما روي في الحديث: "مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه"[٢]، قيل في معناه: إنما يقع الناس في البدع والضلالات لجهلهم أنفسهم، وظنّهم أنهم يملكون الضرّ والنفع دون الله"[٣].

وفي قوله تعالى:{إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ}[البقرة:١٣٠]، ثلاثة تأويلات[٤]:

أحدها: أن ذلك سفّه نفسه، أي فَعَلَ بها من السفه ما صار به سفيهاً ، وهذا قول الأخفش[٥].

والثاني : أنها بمعنى سفه في نفسه ، فحذف حرف الجر كما حذف من قوله تعالى:{وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ}[البقرة:٢٣٥]، أي عَلَى عقدة النكاح ، وهذا قول الزجَّاج[٦].

والثالث : أنها بمعنى أهلك نفسه وأوْبَقَهَا ، وهذا قول أبي عبيدة[٧].

قال الثعلبي:" وأصل السفه والسفاهة: الخفّة والجهل وضعف الرأي يقال سفه يسفه وسفه يسفه"[٨].

وقرىء: {إلا من سفه نفسه}، بتشديد الفاء[٩].

قوله تعالى:{وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا}[البقرة:١٣٠]، أي: ولقد:" اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة"[١٠].

قال ابن عباس:" يريد: أنه ليس في الأرض خلق إلا وهو يذكره بخير، وينتحل دينه"[١١].

---

(١)رواه الطبراني في "الكبير" ٢/ ٦٩، عن ثابت بن قيس، قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" ٥/ ١٣٣، في طريق عبد الله بن عمرو: رواه الطبراني في "الكبير" و"الأوسط" وفيه عبد الحميد بن سليمان، وهو ضعيف، وقال: رواه أحمد والبزار ورجال أحمد ثقات. اهـ. ورواه أحمد ٤/ ١٣٤ عن أبي ريحانة بلفظ: "إنما الكبر من سفه الحق وغمض الناس" ورواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه ولفظه: "الكبر بطر الحق وغمط الناس".

(٢)ذكره الثعلبي في "تفسيره"، وعنه البغوي ١/ ٢٧٩، وذكره الواحدي في "الوسيط" ١/ ٢١٤ قال النووي: ليس بثابت، ينظر: "المقاصد الحسنة" ص ٤٩٠ (١١٤٩)، وقال ابن تيمية: موضوع، ينظر: "المصنوع في معرفة الموضوع" ص ١٨٩ (٣٤٩)، وقال السمعاني: إنه لا يعرف مرفوعًا، ينظر: "المقاصد" ص٤٩٠، "الموضوعات" ص ٣٥١. وقال العجلوني في "كشف الخفاء" ٢/ ٢٦٢: وقال أبو المظفر ابن السمعاني في "القواطع": إنه لا يُعرف مرفوعًا وإنما يُحْكى عن يحيى بن معاذ الرازي، يعني من قوله. وقال ابن الفرس بعد أن نقل عن النووي أنه ليس بثابت، قال: لكن كُتبُ الصوفية مشحونة به، يسوقونه مساق الحديث، كالشيخ محيي بن عربي، وغيره. قال: وللحافظ السيوطي فيه تأليف سماه "القول الأشبه في الحديث: من عرف نفسه فقد عرف ربه" والكتاب ضمن الكتب الموجودة في "الحاوي للفتاوى" للسيوطي، وذكره أبو نعيم في "الحلية" ١٠/ ٢٠٨، عن سهل التستري.

(٣) التفسير البسيط: ٣/٣٢٣-٣٣٣.

(٤) انظر: النكت والعيون: ١٩٣/١.

(٥) انظر: معاني القرآن: ١/١٥٧-١٥٨.

(٦) انظر: معاني القرآن: ٢١٠/١.

(٧) انظر: معاني القرآن: ٢١٠/١.

(٨) تفسير الثعلبي:٢٧٩/١.

(٩) انظر: تفسير الرازي: ٦٥/٤.

(١٠) صفوة التفاسير:٨٥/١.

(١١) التفسير البسيط: ٣٣٥/٣.

قال الواحدي: " وقيل: {وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا} بالنبوة، وقيل: بالخُلة"[١].
قال أبو مالك:" قوله: اصطفى، يعني اختار"[٢].
قال ابن أبي زمنين:" أي : اخترناه"[٣].
قال مقاتل بن سليمان:" يعني اخترناه بالنبوة والرسالة"[٤].
قال الزجاج:" معناه اخترناه ولفظه مشتق من الصفوة"[٥].
قال السعدي:" أي: اخترناه ووفقناه للأعمال، التي صار بها من المصطفين الأخيار"[٦].
قال الطبري: أي: " اخترناه واجتبيناه للخلة، ونصيره في الدنيا لمن بعده إماما.. وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن أن من خالف إبراهيم فيما سن لمن بعده ، فهو لله مخالف ، وإعلام منه خلقه أن من خالف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو لإبراهيم مخالف. وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر أنه اصطفاه لخلته ، وجعله للناس إماما ، وأخبر أن دينه كان الحنيفية المسلمة. ففي ذلك أوضح البيان من الله تعالى ذكره عن أن من خالفه فهو لله عدو لمخالفته الإمام الذي نصبه الله لعباده"[٧].
قال أبو حيان:" أي جعلناه صافياً من الأدناس ، واصطفاؤه بالرسالة والخلة والكلمات التي وفى ووصى بها ، وبناء البيت ، والإمامة ، واتخاذ مقامه مصلى ، وتطهير البيت ، والنجاة من نار نمروذ ، والنظر في النجوم ، وأذانه بالحج ، وإراءته مناسكه ، إلى غير ذلك مما ذكر الله في كتابه ، من خصائصه ووجوه اصطفائه"[٨].
قال المراغي:" ولا شكّ أن ملة هذا شأنها، وبها كانت له المكانة عند ربه ، لا يرغب عنها إلا سفيه يعرض عن التأمل في ملكوت السموات والأرض ، ورؤية الآثار الكونية والنفسية الدالة على وحدانية اللّه تعالى وعظيم قدرته، كما أن في الآية بشارة لإبراهيم بصلاح حاله في الآخرة وعده له بذلك[٩].
قلت: والاصطفاء مفهوم قرآني تكرر في العديد من الآيات القرآنية، من جملتها هذه الآية الكريمة، وكقوله تعالى:
- {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} [آل عمران : ٣٣].
- {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل : ٥٩].
- {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [الحج : ٧٥].
- {وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ} [ص : ٤٧]
- {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف : ١٤٤].

---

(١) التفسير البسيط: ٣٣٥/٣.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٧١):ص٢٣٨/١.
(٣) تفسير ابن أبي زمنين: ١٧٩/١.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:١٤٠/١.
(٥) معاني القرآن: ٢١١/١.
(٦) تفسير السعدي:٦٦-٦٧.
(٧) تفسير الطبري: ٩١/٣.
(٨) البحر المحيط: ٣٤٣/١.
(٩) انظر: تفسير المراغي: ٢١٨/١.

- {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران : ٤٢].
- {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة : ٢٤٧].

نلحظ بأن القرآن الكريم حينما يتحدث عن الاصطفاء يقصد معنيين وهما:
أولا: الخلوص والصفاء[١].
ثانيا: الاختيار والتفضيل والتقديم[٢].

فالله تبارك وتعالى هو الحكيم الخبير، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، فلا يختار للنبوة إلا أصلح الناس لها، وأليقهم بها، والنبوة اصطفاء لا اكتساب، ولا يمكن للعبد بالاجتهاد في الطاعة والترقي في مقامات العبودية أن ينال مرتبة النبوة، بل هي اجتباء واصطفاء واختيار من الله تعالى، وليس معنى ذلك أن الأنبياء لم يكن فيهم مزية عن غيرهم، أو أنهم لم يكونوا أهلًا للنبوة، فإنهم أفضل الخلق! وإنما معناه أنهم لم ينالوا هذه المرتبة باجتهادهم، وإنما نالوها بفضل الله عليهم، واجتبائه لهم فجمع الله للأنبياء الفضل من أطرافه، ميزهم على خلقه من قبل النبوة، ثم زادهم فضلًا عليهم بالنبوة، فلا يبلغ أحد منزلتهم.

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}[البقرة:١٣٠]، أي:" وإن إبراهيم في الدار الآخرة لمن الصالحين"[٣].

قال ابن أبي زمنين:" وهم أهل الجنة"[٤].
قال السعدي: أي" الذين لهم أعلى الدرجات"[٥].
قال الصابوني: أي: "من المقربين الذين لهم الدرجات العلى"[٦].
قال المراغي: أي: و"جعلناه في الآخرة من المشهود لهم بالخير والصلاح وإرشاد الناس للعمل بهذه الملة"[٧].
قال الطبري: " و(الصالح) من بني آدم : "هو المؤدي حقوق الله عليه"[٨].
قال الزجاج:" فَالصالحُ في الآخرة الفائز"[٩].

---

(١)فالاصطفاء: من جذر يدل على الخلوص من كل شوب ويجمع الراغب بين الاصطفاء والاختيار بقوله: "والاصطفاء تناول صفو الشيء، كما أن الإختيار تناول خيره". (انظر: معجم مقاييس اللغة: (صفو): ٢٩٢/٣، والمفردات:(صفو)، والفروق في اللغة: ٢٧٩.).
(٢)الصحاح للجوهري: ٦٥٢/٢ مادة (خير)، ولسان العرب ٢٥٧/٤ مادة (خير)، ومعجم مقاييس اللغة ٢٣٢/١ ؛ مادة (خير).
(٣) تفسير الطبري: ٩١/٣.
(٤) تفسير ابن أبي زمنين: ١٧٩/١.
(٥) تفسير السعدي: ٦٦.
(٦) صفوة التفاسير:٨٥/١.
(٧) انظر: تفسير المراغي: ٢١٨/١.
(٨) تفسير الطبري: ٩١/٣.
(٩) معاني القرآن: ٢١١/١.

قال البيضاوي:" حجة وبيان لذلك، فإن من كان صفوة العباد في الدنيا مشهوداً له بالاستقامة والصلاح يوم القيامة، كان حقيقاً بالاتباع له لا يرغب عنه إلا سفيه، أو متسفه أذل نفسه بالجهل والإعراض عن النظر"(١).

قال أبو حيان:أي" وفي الآخرة من المشهود له بالاستقامة في الخير ، ومن كان بهذه الصفة فيجب على كل أحد أن لا يعدل عن ملته"(٢).

قال ابن عبّاس: "يعني مع آبائه الأنبياء في الجنّة"(٣)، قال الثعلبي: "بيانه قوله: خطابه عن يوسف {تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}[يوسف:١٠١]"(٤).

وأخرج ابن أبي حاتم "عن ابن عباس: {وإنه في الآخرة لمن الصالحين}، قال: عمله يجزى به في الآخرة"(٥).

وقال الحسن: "أي: من الذين يستوجبون على الله الكرامة وحسنَ الثواب، فلما كان خلوصُ الثواب في الآخرة دون الدنيا وصفه بما ينبئ عن ذلك"(٦).

وقال الحسين بن الفضل: "في الآية تقديم وتأخير تقديرها لقد اصطفيناه في الدنيا والآخرة بأنّه لمن الصالحين نظيرها في سورة النحل(٧)"(٨).

قال أبو حيان:" وهذا الذي ذهب إليه خطأ ينزه كتاب الله عنه"(٩).

قلت: إن الصالح هو من صلحت المعاملة بينه وبين الله وبين الناس على قدر الإمكان، فتعلم ما أمر الله بتعلمه وعمل به، ودعا إليه وصبر على طريق الحق، والله يتولى أمره، وقد قال الله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)}[يونس : ٦٢-٦٤].

ولا تحيا الأمم ولا ترقى الشعوب إلا بعظمائها، وعظماء أمّة الإسلام هم أهل الصلاح والإصلاح، الذين يحتسبون وجه الله سبحانه فيما ينالهم من العنت والمشقة حين تأدية واجبهم وتحقيق رسالتهم، والذين يتركون في الناس الذكر الحسن في حياتهم وبعد مماتهم، هم البركة الحقيقيّة والذخيرة التي لا تنضب، يعرف ذلك من لمس أثرهم، وحرص على القرب منهم، وشتّان بين الجليس الصالح، وجليس السوء، فإذا كانت حاجة الأمم إليهم وتعلّقها بهم لا تُقدّر بثمن، فكيف الحال إذا كان تناقصُ أعدادِهم واختفاءُ آثارهم هو علمٌ من أعلام الساعة وأشراطها؟ ذلك هو ما أخبر به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صحابته تصريحاً وتلميحاً في غيرما مناسبة ، وكان من جملة إخباراته النبويّة ما جاء في حديث مرداس الأسلمي رضي الله

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٠٧/١.
(٢) البحر المحيط: ٣٤٣/١.
(٣) تفسير الثعلبي:٢٧٩/١.
(٤) تفسير الثعلبي:٢٧٩/١.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم(١٢٧٣):ص٢٣٨/١.

(٦) التفسير البسيط: ٣٣٦/٣، والبحر المحيط: ٣٩٥/١.
(٧) يقصد قوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [النحل: ١٢٢].
(٨) تفسير الثعلبي:٢٧٩/١.
(٩) البحر المحيط: ٣٤٣/١.

عنه مرفوعاً: "يذهب الصالحون الأول فالأول، وتبقى حُفالة، كحفالة الشعير والتمر، لا يباليهم الله بالة"(١)، وفي رواية: "لا يعبأ الله بهم الله بهم شيئا"(٢).

ومعنى "حُفالة": ما يسقط من قشر الشعير عند الغربلة، ومن التمر بعد الأكل، وقد جاء في رواية أخرى بلفظ "حثالة"، وهي بذات المعنى، وأما معنى "لا يباليهم الله بالة": لا يرفع لهم قدر ولا يقيم لهم وزنا(٣).

فهذا الحديث يشير صراحةً إلى أن موت الصالحين وتناقص أعدادهم هو من أشراط الساعة، وأن ذهابهم يكون شيئاً فشيئاً وليس مرّةً واحدة، كما أن في الحديث السابق ترغيبٌ في الاقتداء بالصالحين، والتحذير من مخالفة طريقهم، خشية أن يكون من خالفهم ممن لا يباليه الله ولا يعبأ به، كما ذكر ذلك شرّاح الحديث.

وقريبٌ من الحديث السابق ما جاء في سنن ابن ماجة، ومسند الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لتنتقوُنَّ كما يُنتقى التمر من أغفاله، فليذهبن خياركم، وليبقين شراركم، فموتوا ان استطعتم"(٤)، ومعنى (من أغفاله): أي مما لاخير فيه.

وعنه رضي الله عنه، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "إنكم في زمانٍ من ترك منكم عُشر ما أمر به هلك، ثم يأتي زمانٌ من عمل منهم بعشُر ما أمر به نجا"(٥).

---

(١) رواه البخاري(٦٤٣٤).

(٢) رواه البخاري موقوفا على مرداس الأسلمي رضي الله عنه راوي الحديث(٤١٥٦).

(٣)يقول ابن حجر: "والحثالة ما سقط من قشر الشعير، والأرز، والتمر، والرديء من كل شيء"، قال: "ووجدت لهذا الحديث شاهداً من رواية الفزارية امرأة عمر بلفظ "تذهبون الخَيِّر فالخَيِّر حتى لا يبقى منكم إلا حثالة كحثالة التمر ينزو بعضهم على بعض نزو المعز". [فتح الباري: ٢٥٢/١١].
ومعنى "لا يباليهم الله بالة"، أي لا يعبأ بهم، ولا يرفع لهم قدراً، ولا يقيم لهم وزناً". [فتح الباري: ٢٥٢/١١].
وفي رواية: "يأتي زمان يغربل الناس فيه غربلة، يبقى منهم حثالة قد مَرِجت عهودهم وأماناتهم، واختلفوا فكانوا هكذا" وشبك بين أصابعه. قالوا: يا رسول الله، فما المخرج ؟ قال: "تأخذون ما تعرفون، وتدعون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم"، إذا كان لديك صحبة طيبة أخوان في الله خاصين، "وتدعون أمر عامتكم" [رواه أبو داود: ٤٣٤٤، وصححه الألباني صحيح الجامع: ٤٥٨٥]، لأن الأكثرية ليسوا على الحق، الحديث رواه أحمد، وقال عنه أحمد شاكر: "إسناده صحيح". [مسند أحمد: ٧٠٤٩].
يغربلون غربلة يذهب الأخيار، ويبقى الأشرار الأراذل، كما ينقى الدقيق بالغربال، حتى لا يبقى إلا الشيء السيئ من هذه الحثالة، ومرجت عهودهم، وأماناتهم اختلطت وفسدت، ولا عندهم عهد ولا أمانة، ينقضون العهود، ويخونون الأمانات، واختلط بعضهم ببعض، فهم في أمر مريج، لا يعرفون المعروف ولا ينكرون المنكر، وكذلك لا تعرف الأمين من الخائن، والبر من الفاجر، اختلطت الأمور لا يعرف الصالح من الطالح، وهذا ولا شك أنه وقع منه جزء كبير الآن، فالآن إذا أردت أن تميز إذا جاء رجل يخطب ابنتك أو أختك لا تعرف هذا صالح أو طالح، الناس الآن صار فيهم خلط كبير.
فتمييز الجيد لا يكاد يعرف، فالنفاق منتشر، وأشياء مخفية وأشياء لا تعرف وهكذا، ونصحهم بالإقبال على أمر خاصتهم لأن الإنسان يعرف الناس المقربين منه الذي يعرف حالهم، وأنهم على الخير يلتزم بهم.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٨) ، والبخاري في "التاريخ الكبير" ٩/ ٢٥ ، والحاكم ٤/ ٤٨٠ و٤٨١، وقال الحاكم : " هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه " وأقره الذهبي.

(٥)روى الترمذي (٢٢٦٧) ، والطبراني في "المعجم الصغير" (١١٥٦) ، وأبو نعيم في "الحلية" (٣١٦/٧) . وقال أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ :" هَذَا حَدِيثٌ منكر، رواه نعيم بْن حَمَّاد، وليس بثقة". "العلل المتناهية" (٢/ ٣٦٩).

إن الحديث السابق يُسفِر عن ذات الحقيقة، وهو أن صلاح المجتمعات آخذٌ بالتناقص مع مرور الوقت،كما يشير إلى النسبية والتفاوت في مستوى الصلاح بين الأجيال الأولى في الإسلام والأجيال اللاحقة على وجه العموم، وقد فُسّر الحديث بأن العُشر المأمور به إنما المقصود به: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففي الرعيل الأوّل وفي فجر الإسلام كان الدين عزيزاً، وفي أنصاره كثرةً، فلا عُذر في التهاون في هذه الشعيرة العظيمة، ولكن حين يضعف الإسلام، وتكثر الظلمة، ويعم الفسق، ويكثر الدجالون، وتقل أنصار الدين، ويتوارى الحق فيعذر المسلمون فيما تركوه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لعدم القدرة، والله سبحانه وتعالى لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

ولنا كذلك حذيفة بن اليمان عند ابن ماجة، وفيه: "يَدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة، ولا نسك ولا صدقة، ويبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله، فنحن نقولها"[١]، وحديث أنس رضي الله عنه: "لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله"[٢].

---

(١) رواه ابن ماجة(٤٠٤٩)، والحاكم(٤٧٣/٤). قال الحاكم صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.قال البوصيري في الزوائد:(ق٢٤٧/١): اسناده صحيح ورجاله ثقات. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: برقم(٨٧). (يدرس) من درس الرسم دروسا: إذا عفا وهلك.(وشي الثوب): نقشه.

(٢) صحيح مسلم:(١٤٨). عض الرويات جاء فيها : (لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه (وهي رواية أحمد في "المسند" (٢٦٨/٣) ، وابن حبان في صحيحه (٢٦٢/١٥) والحاكم (٥٤٠/٤) بل هي إحدى روايات مسلم كما نقله القاضي عياض من رواية ابن أبي جعفر . انظر النووي في "شرح مسلم" (١٧٨/٢). فهذه الرواية تفسر الرواية الأولى ، فيكون المعنى : لا تقوم الساعة على الموحدين الذين يقولون : لا إله إلا الله.

قلت: ومن أشراط الساعة ذهاب الصالحين وإرتفاع الأسافل، فقد وجاء في حديث حذيفة رضي الله عنه: قال صلى الله عليه وسلم: "ويقال للرجل: ما أعقله! وما أظرفه! وما أجلده! وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان".(أخرجه البخاري في الرقاق، باب: رفع الأمانة (٦٤٩٧) واللفظ له، ومسلم في الإيمان (١٤٣) مختصرا).

قال الشيخ يوسف الوابل: "وهذا هو الواقع بين المسلمين في هذا العصر، يقولون للرجل: ما أعقله! ما أحسن خلقه! ويصفونه بأبلغ الأوصاف الحسنة، وهو من أفسق الناس، وأقلهم ديناً وأمانة، وقد يكون عدواً للمسلمين، ويعمل على هدم الإسلام. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم".(أشراط الساعة (ص١٨٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنها ستأتي على الناس سنون خداعة، يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن ويخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة" قيل: وما الرويبضة؟ قال: "السفيه يتكلّم في أمر العامة".(أخرجه أحمد (٢٩١/٢) واللفظ له، وابن ماجه في الفتن، باب: شدة الزمان (٤٠٣٦)، قال البوصيري: "هذا إسناد فيه مقال؛ إسحاق بن بكر بن أبي الفرات قال الذهبي في الكاشف: مجهول، وقال السليماني: منكر الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات"، والحديث صححه الحاكم (٥١٢/٤)، والألباني في الصحيحة (١٨٨٧).

وفي حديث جبريل الطويل قوله: "ولكن سأحدثك عن أشراطها... وإذا كانت العراة الحفاة رؤوس الناس فذاك من أشراطها".(أخرجه البخاري في الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩) واللفظ له).

قال ابن رجب رحمه الله: "فإنه إذا صار الحفاة العراة رعاء الشاء وهم أهل الجهل والجفاء رؤساء الناس وأصحاب الثروة والأموال فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا؛ فإنه إذا كان رؤوس الناس من كان فقيراً عائلاً فصار ملكاً على الناس سواءً كان ملكه عاماً أو خاصاً في بعض الأشياء فإنه لا يكاد يعطي الناس حقوقهم، بل يستأثر عليهم بما استولى عليهم من المال، وإذا كان مع هذا جاهلاً جافياً فسد بذلك الدين؛ لأنه لا يكون له

على أننا نؤكّد أن هذه الأحاديث تتحدّث عن جانبٍ إخباريّ يتعلّق بفترةٍ زمنيّة طويلة تشمل أجيالاً متتالية، فليس المقصود نفي الخيريّة عن أمتنا أو أن تكون هذه الأحاديث سبباً في تسرّب اليأس من النفوس أو مدعاةً للتخاذل، فكما بيّنت السنة الخلل الحاصل فقد بيّنت أسبابه، وبتجنّب الأسباب يكون الصلاح، والعبدُ إنما هو مكلّفٌ بخاصّة نفسه أن يُصلحها وليس مسؤولاً عن فساد غيره ما دام قد أدّى ما عليه، قال تعالى: {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية : ٢٢]. والله تعالى أعلم.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: أن الرشد في اتباع ملة إبراهيم؛ لقوله تعالى: { إلا من سفه نفسه }.

٢- ومنها: أن مخالفة هذه الملة سفه؛ مهما كان الإنسان حكيماً في قوله فإنه يعتبر سفيهاً إذا لم يلتزم بشريعة الله.

٣- ومنها: فضيلة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، حيث اصطفاه الله، واختاره على العالمين؛ لقوله تعالى: { ولقد اصطفيناه في الدنيا }.

٤- ومنها: إثبات الآخرة؛ لقوله تعالى: { وإنه في الآخرة }.

٥- ومنها: أن الصلاح وصف للأنبياء، ومن دونهم؛ فيوصف النبي بأنه صالح، ويوصف متبع الرسول بأنه صالح؛ ولهذا كانت الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يحيون الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج بقولهم: «مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح»[(١)] ؛ فوصفوه بالصلاح.

٦- ومنها: أن المخالفين للرسل سفهاء؛ لقوله تعالى: { ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، وقوله في المنافقين: {ألا إنهم هم السفهاء} [البقرة: ١٣] ، وقوله تعالى: {سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها} [البقرة: ١٤٢] ؛ فإنهم - وإن كانوا أذكياء، وعندهم علم بالصناعة، والسياسة - هم في الحقيقة سفهاء؛ لأن العاقل هو الذي يتبع ما جاءت به الرسل فقط.

القرآن

{إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)} [البقرة : ١٣١]

التفسير:

وسبب هذا الاختيار مسارعته للإسلام دون تردد، حين قال له ربه: أخلص نفسك لله منقادًا له. فاستجاب إبراهيم وقال: أسلمت لرب العالمين إخلاصًا وتوحيدًا ومحبة وإنابة.

قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ}[البقرة:١٣١]، أي:" إذ قال له ربه : أخلص لي العبادة ، واخضع لي بالطاعة"[(١)].

قال مقاتل: " يقول: أخلص"[(٢)].

قال الزجاج:" معناه: اصطفاه إذ قال له ربه أسلم: أي في

همة في إصلاح دين الناس ولا تعليمهم، بل همته في جباية المال وإكثاره، ولا يبالي بما أفسد من دين الناس، ولا بمن أضاع من أهل حاجاتهم".(جامع العلوم والحكم (٤١/١).

(١) أخرجه أحمد ج٣٨١/٢، حديث رقم ٨٩٣٩، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٦١٣/٢، وقال حديث صحيح على شرط مسلم؛ وأقره الذهبي، وقال ابن عبد البر: وهذا حديث مدني صحيح (التمهيد ٣٣٤/٢٤).

(١) تفسير الطبري:٩٢/٣.

(٢) تفسير مقاتل بن حيان: ١٤٠/١.

ذلك الوقت"[١].

قال الثعلبي:" أي استقم على الإسلام أو اثبت عليه لأنّه كان مسلما كقوله تعالى فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}[محمد:١٩]، أي أثبت على علمك"[٢].

قال ابن كثير:" أي : أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد"[٣].

قال الصابوني:" أي استسلم لأمر ربك وأخلصْ نفسك له"[٤].

قال المراغي: أي: أخلص لي العبادة.. أي اصطفاه إذ دعاه إلى الإسلام بما أراه من الآيات ونصب له من الأدلة على وحدانيته"[٥].

قال ابن عثيمين:أي:" اذكر إذ قال له ربه؛ فيكون أمراً للرسول صلى الله عليه وسلم أن ينوه بهذه الحال التي كان إبراهيم صلى الله عليه وسلم عليها"[٦].

قال الراغب: "أي أخلص سرك فإنه موضع الاطلاع ، وإلى ذلك أشار النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله : " أخلص يكفك القليل من العمل "[٧]، وبقوله : " الأعمال بالنيات "[٨]، وقوله تعالى : {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}[البيّنة:٥]"[٩].

قال ابن عطية:" وكان هذا القول من الله حين ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس. والإسلام هنا على أتم وجوهه"[١٠].

قال أبو حيان:" هذا من الالتفات ، إذ لو جرى على الكلام السابق ، لكان : إذ قلنا له أسلم"[١١].

في الآية الكريمة موضع (إذْ) نصب وفي عامله وجهان[١٢]:

الوجه الأول: أنه نصب باصطفيناه، أي اصطفيناه في الوقت الذي قال له ربه أسلم، وكان هذا القول من الله تعالى حين ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس، فكأنه تعالى ذكر الاصطفاء ثم عقبه بذكر سبب الاصطفاء، فكأنه لما أسلم نفسه لعبادة الله تعالى وخضع لها وانقاد علم تعالى من حاله أنه لا يتغير على الأوقات وأنه مستمر على هذه الطريقة، وهو مع ذلك مطهر من كل الذنوب، فعند ذلك اختاره للرسالة واختصه بها لأنه تعالى لا يختار للرسالة إلا من هذا حاله في البدء والعاقبة، فإسلامه لله تعالى وحسن إجابته منطوق به، فإن قيل قوله: {ولقد اصطفيناه} إخبار عن

---

(١) معاني القرآن: ٢١١/١.

(٢) تفسير الثعلبي:٢٧٩/١.

(٣) تفسير ابن كثير:٤٤٦/١.

(٤) صفوة التفاسير:٨٥/١.

(٥) تفسير المراغي: ٢١٩/١-٢٢٠.

(٦) تفسير ابن عثيمين:٧٢/٢.

(٧) أخرجه البيهقي في الشعب(٦٣٥٨)، :ص١٧٤/٩-١٧٥، وكنز العمال(٥٢٥٤) حديث ضعيف.

(٨) أخرجه البخاري(١)، (٥٤)، (٢٥٢٩)، (٣٨٩٨)، (٥٠٧٠)، (٦٦٨٩)، ومسلم(١٩٠٧)، وأبو داود(٢٢٠١)، والترمي(١٦٤٧)، والنسائي(٧٥)، (٣٤٣٧)، (٣٧٩٤)، وابن ماجة(٤٢٢٧)، وابن مبارك في الزهد والرقائق(٦٢/١)، والطيالسي(٣٧)، والحميدي في مسنده(٢٨)، وأحمد في المسند(١٦٨،٣٠٠٠)، والبزاز كما في البحر الزخار(٢٥٧).

(٩) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣١٨/١.

(١٠) المحرر الوجيز: ٢١٣/١.

(١١) البحر المحيط: ٣٤٣/١.

(١٢)انظر: مفاتيح الغيب: ٦٢/٤، وتفسير القرطبي: ١٣٤/٢.

النفس وقوله: {إذ قال له ربه أسلم} إخبار عن المغايبة فكيف يعقل أن يكون هذا النظم واحدا؟ قلنا: هذا من باب الالتفات الذي ذكرناه مرارا.

الوجه الثاني: أنه نصب باضمار أذكر كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت ليعلم أنه المصطفي الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله.

وقد اختلف في معنى (الإسلام) في قوله تعالى{إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ}[البقرة:١٣١]، على أقوال [١]:

أحدها: أنه بمعنى: الإستقامة والثبات، والمعنى: استقِمْ على الإسلامِ وَاثبُتْ عليهِ؛ لأنه كان مُسْلِماً كقولهِ تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ}[محمد : ١٩] أي اثبتْ على عِلْمِكَ[٢].

الثاني: أن (الاسلام) هنا الإخلاص.

قال ابن كثير: "أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعًا وقدرًا"[٣].

وقال السمرقندي: معنى قوله (أسلم) يعني أخلص دينك لله فقال إبراهيم {أسلمت لرب العالمين}، يعني أخلصت ديني لرب العالمين"[٤].

قال الكلبيُّ : "مَعْنَاهُ : أخْلِصْ دينك للهِ بالتوحيد"[٥]. وروي مثله عن ابن كيسان[٦].

الثالث: أن المراد بـ(الإسلامِ): تسليمُ الأمور إلى الله تعالى والانقيادُ له من غيرِ امتناعٍ وعِصْيَانٍ.

وقال عطاءُ : "سَلِّمْ نَفْسَكَ إِلَى اللهِ وَفَوِّضْ أَمْرَكَ إِلَيْهِ"[٧].

قال السمرقندي: "ويقال معناه فوض أمرك إلى الله فقال فوضت أمري إلى الله[٨].

الرابع: وقيل معناه: "اخْضَعْ واخشَعْ"[٩].

الخامس: وقيل : معناه: اعمل بالجوارح، لأن الإيمان هو صفة القلب، والإسلام هو صفة الجوارح، فلما كان مؤمناً بقلبه كلفه بعد عمل الجوارح. قاله الرازي[١٠].

قلت: إن كلمة (الاسلام) تشمل جميع الأقوال السابقة، أي إسلام الباطن والظاهر. والله تعالى أعلم.

واختلفوا متى قيل له (أسلم) على قولين [١١]:

أحدهما: أنه قيل له ذلك قبل النبوّة، وقبل البلوغ، وذلك عند استدلاله بالكوكب والقمر والشمس، واطلاعه على أمارات الحدوث فيها، وإحاطته بافتقارها إلى مدبر يخالفها في الجسمية، وأمارات الحدوث، فلما عرف ربه، قال تعالى له (أسلم). وهذا قول الأكثرين.

---

(١)انظر: تفسير الطبراني: ٨٧/١، و تفسير المراغي: ٢٢٠/١، وتفسير ابن كثير: ٤٤٦/١.
(٢) تفسير المراغي: ٢٢٠/١.
(٣) تفسير ابن كثير: ٤٤٦/١.
(٤) تفسير بحر العلوم: ١٢١/١.
(٥) تفسير الطبراني: ٨٧/١، وانظر: تفسير الثعلبي:٢٧٩/١.
(٦) انظر: تفسير الثعلبي:٢٧٩/١.
(٧) تفسير الطبراني: ٨٧/١، وتفسير الثعلبي:٢٧٩/١.
(٨) تفسير بحر العلوم: ١٢١/١.
(٩) تفسير الطبراني: ٨٧/١، وانظر:تفسير الثعلبي:٢٧٩/١.
(١٠) مفاتيح الغيب: ٦٢/٤.
(١١) انظر: تفسير بحر المحيط: ٥٦٦/١-٥٦٧.

الثاني: وقيل: كان بعد النبوّة، فتؤول الأمر بالإسلام على أنه أمر بالثبات والديمومة، إذ هو متحل به وقت الأمر، ويكون الإسلام هنا على بابه، والمعنى : على شريعة الإسلام.

قوله تعالى:{قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[البقرة:١٣١]، "أي قال [إبراهيم]: أخلصت دينى لله الذي فطر الخلق جميعا"(١).

قال مقاتل:" يعني أخلصت لرب العالمين"(٢).

قال الطبري:أي" قال إبراهيم مجيبا لربه : خضعت بالطاعة ، وأخلصت العبادة ، لمالك جميع الخلائق ومدبرها دون غيره"(٣).

قال المراغي: "ونحو هذا قوله : {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام : ٧٩]، وقد نشأ إبراهيم في قوم عبدة أصنام وكواكب، فأنار اللّه بصيرته، وألهمه الحق والصواب، فأدرك أن للعالم ربّا واحدا يدبره ويتصرف في شئونه وإليه مصيره، وحاجّ قومه في ذلك وبهرهم بحجته فقال : {أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ}[الأنعام:٨٠] إلى آخر الآيات التي جاءت في سورة الأنعام"(٤).

الفوائد

١- من فوائد الآية: فضيلة إبراهيم (عليه السلام)، حيث لم يتوانَ، ولم يستكبر؛ فبادَر بقوله: {أسلمت لرب العالمين} حين قال له ربه عزّ وجلّ: {أسلم} ولم يستكبر؛ بل أقر؛ لأنه مربوب لرب العالمين.

٢- ومنها: إثبات ربوبية الله سبحانه وتعالى العامة لكل أحد؛ لقوله تعالى: {لرب العالمين}.

٣- ومنها: الإشارة إلى أن الخلق من آيات الله؛ لأنهم سُمّوا «عالمين»، حيث إنهم عَلَم على خالقهم.

٤- ومنها: المناسبة بين قوله تعالى: (أسلمت)، و(رب)؛ كأن هذا علة لقوله تعالى: (أسلمت)؛ فإن الرب هو الذي يستحق أن يُسْلَم له؛ الرب: الخالق؛ ولهذا أنكر الله سبحانه وتعالى عبادة الأصنام، وبيّن علة ذلك بأنهم لا يخلقون؛ قال تعالى: {والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون} [النحل: ٢٠، ٢١] ؛ فتبين بهذا مناسبة ذكر الإسلام مقروناً بالربوبية.

٥- ومن الفوائد الفرق بين الإسلام والإيمان:

فالإسلام في اللغة: الانقياد والخضوع. والإيمان في اللغة: التصديق والإقرار.

وأما في الشرع: فلكل منهما إطلاقان: بأن يذكر أحدهما غير مقترن بالآخر، أو يطلق مقترناً بالآخر.

ففي حال عدم اقترانهما: فالإسلام: الدين كله، أصوله وفروعه من الاعتقادات والأقوال والأفعال، والإيمان: قول واعتقاد وعمل.

فكلا التعريفين يفيد الدين كله، فيدخل أحدهما في الآخر.

قال ابن رجب:"فلولا أن الإسلام المطلق يدخل فيه الإيمان والتصديق بالأصول الخمسة، لم يصر من قال: أنا مسلم مؤمنا بمجرد هذا القول، وقد أخبر الله تعالى عن ملكة سبأ أنها دخلت في الإسلام بهذه الكلمة: {قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ

---

(١) تفسير المراغي: ٢٢٠/١.

(٢) تفسير مقاتل بن حيان: ١٤٠/١.

(٣) تفسير الطبري: ٩٢/٣.

(٤) تفسير المراغي: ٢٢٠/١.

الْعَالَمِينَ} [النمل : ٤٤]، وأخبر عن يوسف -عليه السلام- أنه دعا بالموت على الإسلام. وهذا كله يدل على أن الإسلام المطلق يدخل فيه ما يدخل في الإيمان من التصديق. وفي سنن ابن ماجه عن عدي بن حاتم؛ قال: قال لي رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: يا عدي، أسلم تسلم، قلت: وما الإسلام؟ قال: (تشهد أن لا إله إلا الله وتشهد أني رسول الله، وتؤمن بالأقدار كلها خيرها وشرها، وحلوها ومرها). فهذا نص في أن الإيمان بالقدر من الإسلام. ثم إن الشهادتين من خصال الإسلام بغير نزاع، وليس المراد الإتيان بلفظهما دون التصديق بهما، فعلم أن التصديق بهما داخل في الإسلام، وقد فسر الإسلام المذكور في قوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران : ١٩]، بالتوحيد والتصديق طائفة من السلف، منهم محمد بن جعفر بن الزبير"[١].

وقال الشنقيطي رحمه الله: "فإن الإيمان يطلق تارة على جميع ما يطلق عليه الإسلام من الاعتقاد والعمل، كما ثبت في الصحيح في حديث وفد عبد القيس، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة جدا...فالإيمان الشرعي التام والإسلام الشرعي التام معناهما واحد"[٢].

وأما حال اقترانهما: فإن أهل السنة والحديث مختلفون في ذلك على قولين:

١. القول الأول: إنهما شيء واحد، وممن قال به: محمد بن نصر المروزي، وابن عبد البر، وقد روي هذا القول عن سفيان الثوري[٣] ونسب للبخاري[٤]، وابن حبان البستي[٥]، وأبو طالب المكي[٦]، وابن مندة[٧]، وذهب إليه ابن حزم[٨]،والبيهقي[٩]، ونسبه المروزي للجمهور الأعظم من أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث[١٠]، ونسبه ابن عبد البر[١١] إلى عامة أهل الفقه والنظر والمتبعين للسلف والأثر[١٢].
٢. والقول الثاني: التفريق بينهما: وقال به جماعة من الصحابة والتابعين، منهم: ابن عباس والحسن وابن سيرين[١٣]، ونقل عن كثير من السلف[١] منهم: قتادة، وداود بن أبي هند، وأبو جعفر

---

(١) جامع العلوم والحكم ص (١١٣).
(٢) أضواء البيان (٢٩٧/٧).
(٣) من رواية أيوب بن سويد الرملي عنه، وأيوب فيه ضعف، كذا قال ابن رجب في شرحه لكتاب الإيمان من الصحيح.
(٤) وهذه النسبة تحتاج إلى مزيد تأمل وممن نسب له ذلك ابن رجب وابن حجر في شرحيهما للصحيح.
(٥) فإنه ذكر في تبويبات صحيحه كما في الإحسان (٣٧٥/١) : (ذكر الخبر الدال على أن الإيمان والإسلام اسمان بمعنى واحد)، ورد على من يرى التفريق بقوله: (ذكر خبرٍ أوهم عالماً من الناس أن الإسلام والإيمان بينهما فُرقان) كما في الإحسان (٣٨٠/١).
(٦) فقد ذكر ما يؤيد هذا –نوعا ما- وإن كان كلامه له محمل، في: الفصل الخامس والثلاثون: (ذكر اتصال الإيمان بالإسلام في المعنى والحكم وافتراقهما في التفصيل والاسم). انظر: قوت القلوب (٢١٦/٢).
(٧) حيث عقد باباً لبيان أخبار من فرق بين الإيمان والإسلام، ثم عقد باباً في كتابه الإيمان (٣٢١/١): (ذكر الأخبار الدالة والبيان الواضح من الكتاب أن الإيمان والإسلام اسمان لمعنى واحد.. الخ).
(٨) انظر: الدرة فيما يجب اعتقاده ص ٣٥٩، الفصل (٢٦٩/٣).
(٩) انظر: الاعتقاد للبيهقي ص ٢٣٠.
(١٠) انظر: تعظيم قدر الصلاة (٥٢٩/٢).
(١١) انظر: التمهيد (٢٥٠/٩).
(١٢) قال ابن رجب: فحكاية ابن نصر وابن عبد البر عن الأكثرية التسوية بينهما غير جيد بل قد قيل إن السلف لم يرو عنهم غير التفريق" انظر: فتح الباري (١٣٠/١) وجامع العلوم (١٠٧/١).
(١٣) انظر: الإيمان لابن منده (٣١١/١).

الباقر، والزهري، والنخعي، وحماد بن زيد، وابن مهدي، وشريك، وابن أبي ذئب، وأحمد بن حنبل، وأبو خيثمة، ويحيى بن معين، وأبو بكر بن السمعاني، وغيرهم، من الأئمة على اختلاف بينهم في صفة التفريق بينهما(٢).

وقد نصر هذا القول الخلال وابن بطة والخطابي واللالكائي وأبو يعلى والبغوي وأبو القاسم التيمي(٣). قال شيخ الإسلام: "التحقيق ابتداء هو ما بينه النبي –صلى الله عليه وسلم- لما سئل عن الإسلام والإيمان ففسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان: بالإيمان بالأصول الخمسة فليس لنا إذا جمعنا بين الإسلام والإيمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبي –صلى الله عليه وسلم-"(٤). وقال ابن رجب :"والتحقيق في الفرق بينهما: أن الإيمان هو تصديق القلب، وإقراره، ومعرفته، والإسلام: هو استسلام العبد لله، وخضوعه، وانقياده له، وذلك يكون بالعمل، وهو الدين، كما سمى الله في كتابه الإسلام دينا"(٥).

وأما أقوال المخالفين في التفريق بين الإسلام والإيمان، فقد أجمل شيخ الإسلام أقوال المخالفين في هذه المسألة بقوله: "والمقصود هنا: أن هنا قولين متطرفين:

- قول من يقول: الإسلام مجرد الكلمة والأعمال الظاهرة ليست داخلة في مسمى الإسلام.
- وقول من يقول: مسمى الإسلام والإيمان واحد.

وكلاهما قول ضعيف مخالف لحديث جبريل وسائر أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا لما نصر محمد بن نصر المروزي القول الثاني: لم يكن معه حجة على صحته؛ ولكن احتج بما يبطل به القول الأول"(٦).

فالأول: قول المرجئة:

قال شيخ الإسلام: "فالمعروف من كلام المرجئة الفرق بين لفظ الدين والإيمان، والفرق بين الإسلام والإيمان، ويقولون: الإسلام بعضه إيمان، وبعضه أعمال، والأعمال منها فرض ونفل"(٧). وقال تعليقاً على قول معقل بن عبد الله العبسي عن المرجئة: (وقالوا: إن الصلاة والزكاة ليستا من الدين): "قلت: قوله عن المرجئة: إنهم يقولون إن الصلاة والزكاة ليستا من الدين، قد يكون قول بعضهم، فإنهم كلهم يقولون ليستا من الإيمان، وأما من الدين، فقد حكي عن بعضهم أنه يقول: ليستا من الدين، ولا نفرق بين الإيمان والدين، ومنهم من يقول: بل هما من الدين، ويفرق بين اسم الإيمان واسم الدين، وهذا هو المعروف من أقوالهم التي يقولونها عن أنفسهم، ولم أر أنا في كتاب أحد منهم أنه قال: الأعمال ليست من الدين، بل يقولون: ليست من الإيمان"(٨).

---

(١) وقد ذكر شيخ الإسلام أنه لا يعرف عن أحد من السلف ولا من المتقدمين خلافه، ثم قال: "ولهذا كان عامة أهل السنة على هذا الذي قاله هؤلاء" مجموع الفتاوى (٣٥٩/٧).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم ص (١٠٧).

(٣) انظر: السنة للخلال (٤٧٩/١-٤٨٢)، الإبانه الصغرى ص ١٩٩، معالم السنن (٣١٥/٤)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٨٩٢/٢)، الإيمان لأبي يعلى ص ٣٢١، شرح السنة للبغوي (١٠/١)، الحجة في بيان المحجة (٤٠٦/١).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٥٩/٧).

(٥) جامع العلوم والحكم ص (١٠٨).

(٦) مجموع الفتاوى (٣٧٥/٧).

(٧) مجموع الفتاوى (٣٨٠/٧).

(٨) مجموع الفتاوى (٢٠٧/٧).

والمقصود أن مبنى قول المرجئة في التغاير بين الإسلام والإيمان مبناه على أن الإسلام هو الدين، والإيمان والأعمال من الدين، وليست هي الدين؛ فإن الإيمان لا يتجزئ، فلما كان التجزؤ في الأعمال ظاهر دل على أنها ليست منه، وإنما هي من الدين وثمرة للإيمان.

والثاني: قول الخوارج والمعتزلة والرافضة(١):

ومبنى قولهم في الترادف هو التزامهم بعدم تجزئ الإسلام والإيمان فإذا زال بعضه زال كله؛ ولذلك كفروا بالكبيرة.

وخشية التباس قول المرجئة بقول السلف في هذه المسألة فإنه قد يُظن أن قولهم واحد؛ بسبب الاتفاق في ظاهر القول دون مضمونه قال شيخ الإسلام: "قد يظن من لا يعرف حقيقة الأمر أن هذا هو قول السلف الذي دل عليه الكتاب والسنة: من أن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً، وبينهما من التباين أعظم مما بين قول السلف وقول المعتزلة في الإيمان والإسلام؛ فإن قول المعتزلة في الإيمان والإسلام أقرب من قول الجهمية بكثير، ولكن قولهم في تخليد أهل القبلة أبعد عن قول السلف من قول الجهمية.

فالمتأخرون الذين نصروا قول جهم في مسألة الإيمان يظهرون قول السلف في هذا وفي الاستثناء وفي انتفاء الإيمان الذي في القلب حيث نفاه القرآن ونحو ذلك. وذلك كله موافق للسلف في مجرد اللفظ وإلا فقولهم في غاية المباينة لقول السلف؛ ليس في الأقوال أبعد عن السلف منه(٢).

وقول المعتزلة والخوارج والكرامية(٣) في اسم الإيمان والإسلام أقرب إلى قول السلف من قول الجهمية... فهم أقرب في الاسم وأبعد في الحكم؛ والجهمية وإن كانوا في قولهم: بأن الفساق لا يخلدون أقرب في الحكم إلى السلف فقولهم في مسمى الإسلام والإيمان وحقيقتهما أبعد من كل قول عن الكتاب والسنة، وفيه من مناقضة العقل والشرع واللغة ما لا يوجد مثله لغيرهم"(٤).

وعلى هذا صار الخلاف في مسألة التفاضل بين الإيمان والإسلام؟ قال شيخ الإسلام: "ولهذا صار الناس في الإيمان والإسلام على ثلاثة أقوال:

- فالمرجئة يقولون: الإسلام أفضل، فإنه يدخل فيه الإيمان.
- وآخرون يقولون: الإيمان والإسلام سواء، وهم المعتزلة والخوارج، وطائفة من أهل الحديث والسنة، وحكاه محمد بن نصر عن جمهورهم، وليس كذلك.
- والقول الثالث: أن الإيمان أكمل وأفضل، وهذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنة في غير

---

(١) ذكره عنهم المروزي كما في تعظيم قدر الصلاة ص ٣٦١، وانظر: مجموع الفتاوى (٢٤٢/٧).

(٢) وهذا التقرير من شيخ الإسلام يفيد فائدتين:
الأولى: أن صحة القول ليست متوقفة على الموافقة في الظاهر لقول أهل السنة، وإنما العبرة في حقيقة القول. فمشابهة الوعيدية أهل السنة في صورة تعريفهم للإيمان لا عبرة بها، وهكذا قول من يوافق أهل السنة في تعريف الإيمان ويرى تحقق إيمان من انتفت عنه الأعمال بالكلية، فهذه موافقة في الظاهر لا في حقيقة القول، فلا عبرة بها أيضاً.
الثانية: أن الإمام المروزي ومن تبعه إنما الخلاف معهم في العبارات والتوجيهات للنصوص الواردة في ذلك، والاتفاق حاصل في حقيقة المعنى والحكم المترتب عليه، ولذلك كان الخلاف يسيراً.

(٣) معلوم أن الكرامية من المرجئة، وقول المرجئة بالتفريق بين الإسلام والإيمان أوجه بالنسبة لأصلهم في الإيمان، وموقف الكرامية في هذه المسألة يحتاج إلى مزيد تأمل، والله أعلم.

(٤) مجموع الفتاوى (١٥٨/٧-١٥٩).

موضع، وهو المأثور عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان"(١).

وبهذا يتضح صحة قول أهل السنة والجماعة في هذه المسألة وغيرها من المسائل، وكل ذلك مبناه على النصوص الشرعية وعلى عدم التقدم بين يدي الله ورسوله، فكان الحق بفضل الله حليفهم، وتحري الصواب بغيتهم. والله ولي التوفيق.

القرآن

{وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)} [البقرة : ١٣٢]

التفسير:

وحثَّ إبراهيمُ ويعقوبُ أبناءهما على الثبات على الإسلام قائلَيْن: يا أبناءنا إن الله اختار لكم هذا الدين- وهو دين الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم- فلا تفارقوه أيام حياتكم، ولا يأتكم الموت إلا وأنتم عليه.

قوله تعالى:{وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ}[البقرة:١٣٢]، "أي وصّى الخليل أبناءه باتباع ملته وكذلك يعقوب أوصى بملة إبراهيم"(٢).

قال ابن عباس:" وصاهم بالإسلام. وصية الله دين الله"(٣).

وعن ابن عباس أيضا:" وصى يعقوب بنيه بمثل ذلك- يعني بالإسلام وصية الله دين الله"(٤). وروي عن الحسن وقتادة نحو ذلك.

قال مقاتل:" يعني بالإخلاص إبراهيم بنيه الأربعة إسماعيل وإسحاق ومدين ومداين ثم وصى بها يعقوب بنيه يوسف وإخوته اثني عشر ذكرا بنيه ويعقوب"(٥).

قال الطبري: "أي: ووصى بهذه الكلمة-وهو قوله: أسلمت لرب العالمين وهي(الإسلام)- الذي أمر به نبيه صلى الله عليه وسلم، وهو إخلاص العبادة والتوحيد لله، وخضوع القلب والجوارح له، فعهد ابراهيم بنيه(٦) بذلك وأمرهم به"(٧).

قال الثعلبي: أي:" ووصى بها أيضا، ويعقوب: بنيه الأثني عشر وهم: روفيل أكبر ولده، وشمعون ولاوي وهودا وفريالون وسجر ودان ومفتالي وجاد واشرب ويوسف وابن يافين"(٨).

---

(١) مجموع الفتاوى (٤١٤/٧).

(٢) صفوة التفاسير:٨٥/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٧٥):ص٢٣٩/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٧٦):ص٢٣٩/١.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤٠/١.

(٦)بنيه : بنو إبراهيم ، إسماعيل وأمه هاجر القبطية ، وإسحاق وأمه سارة ، ومدين : ومديان ، ونقشان ، وزمزان ، ونشق ، ونقش سورج ، ذكرهم الشريف النسابة أبو البركات محمد بن علي بن معمر الحسيني الجواني وغيره ، وأم هؤلاء الستة قطورا بنت يقطن الكنعانية . هؤلاء الثمانية ولده لصلبه ، والعقب الباقي فيهم اثنان إسماعيل وإسحاق لا غير .(تفسير البحر المحيط: ٥٧٠/١).

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٩٣/٣-٩٤.

(٨) تفسير الثعلبي:٢٨٠/١. وأخرج الطبري عن محمد بن إسحاق قال:" نكح يَعقوب بن إسحاق - وهو إسرائيل - ابنة خاله " ليا " ابنة " ليان بن توبيل بن إلياس " ، فولدت له " روبيل بن يعقوب " ، وكان أكبر ولده ، و " شمعون بن يعقوب " ، و " لاوي بن يعقوب " و " يهوذا بن يعقوب " و " ريالون بن يعقوب " ، و " يشجر بن يعقوب " ، و " دينة بنت يعقوب " ، ثم توفيت " ليا بنت ليان " . فخلف يعقوب على أختها " راحيل بنت ليان بن توبيل بن إلياس " فولدت له " يوسف بن يعقوب " و " بنيامين " - وهو بالعربية أسد - وولد له من سُرِّيتين

قال أبو السعود: قوله تعالى{ووصى بهَا إبراهيم بَنِيهِ}: شروعٌ في بيان تكميلِه عليه السلام لغيره إثرَ بيانِ كماله في نفسه وفيه توكيدٌ لوجوب الرغبة في مِلته عليه السلام والتوصيةُ التقدمُ إلى الغير بما فيه خيرٌ وصلاح للمسلمين من فعلٍ أو قولٍ"[١].

قال الراغب:" الوصية : التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ واشتقاقه من وصاه أي وصله ، ومضاده قصاه أي فصله"[٢].

واختلف في عود الضمير المتصل(الهاء) في قوله تعالى:{وَوَصَّى بِهَا}[البقرة:١٣٢]، على أقوال[٣]:

أحدهما:أنه عائد إلى(الملة) في قوله تعالى {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [البقرة : ١٣٠]، وقوله (وَصَّى بِهَا)، أي: وصى بهذه الملة وهي الإسلام لله.

الثاني: وقيل أنه يعود إلى (الكلمة) وهي قوله:{أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم؛ "ونحوه رجوع الضمير في قوله تعالى : {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} [الزخرف : ٢٨]، إلى قوله: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} [الزخرف : ٢٦-٢٧]، وقوله: {كَلِمَةً بَاقِيَةً} دليل على أن التأنيث على تأويل الكلمة"[٤].

قال الراغب:" وكلاهما غير منفك من الآخر ، إذ كانت هذه الكلمة من جملة الملة ، والملة مقتضية لهذه الكلمة ، فبين تعالى أن إبراهيم وصى بنيه ، ووضع يعقوب بنيه أيضا بها كما أوصى إبراهيم"[٥].

الثالث: وقيل : أنه يعود على كلمة الإخلاص وهي : لا إلاه إلا الله، وإن لم يجر لها ذكر، فهي مشار إليها من حيث المعنى، إذ هي أعظم عمد الإسلام. وهذا قول الكلبي ومقاتل[٦].

الرابع: وقيل: يعود على الوصية الدال عليها ووصى.

الخامس: وقيل : يعود على الطاعة. قاله المفضل[٧].وذلك كقوله تعالى:{حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ}[ص:٣٢]، ووومنه قول طرفة[٨]:

على مثلها الحواء إذا قال صاحبي ألا ليتني أفديك عنها وافتدي

أي من الفلاة[٩].

له : اسم إحداهما " زلفة " ، واسم الأخرى " بلهية " ، أربعة نفر : " دان بن يعقوب " ، و " نَفثالي بن يعقوب " و " جَاد بن يعقوب " ، و " إشرب بن يعقوب " فكان بنو يعقوب اثني عشرَ رجلا نشر الله منهم اثنَى عشر سبطًا ، لا يُحصى عددَهم ولا يعلم أنسابَهم إلا الله ، يقول الله تعالى :{ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا } [سورة الأعراف : ١٦٠]".[تفسير الطبري(٢١٠٧):ص١١٢/٣-١١٣].

(١) تفسير أبي السعود: ١٦٣/١.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣١٩/١.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٤٦/١، وتفسير القرطبي/ ١٣٥/٢. وتفسير البحر المحيط: ٥٧٠/١، وتفسير الراغب الأصفهاني: ٣١٩/١.

(٤)مفاتيح الغيب: ٦٧/٤.

(٥) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣١٩/١.

(٦) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨٠/١.

(٧) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨٠/١.

(٨) شرح المعلقات السبع:٥٦.

(٩) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨٠/١.

قلت: والقول الثاني أقرب إلى الصواب، للأسباب الآتية:
أولا: لأنه أقرب مذكور، أي (قولوا أسلمنا)، وأن ذلك غير مصرح به ورد الإضمار إلى المصرح بذكره إذا أمكن أولى من رده إلى المدلول والمفهوم، فـ"العود على الملة بأنه يكون المفسر مصرحاً به، وإذا عاد على الكلمة كان غير مصرح به، وعوده على المصرح أولى من عوده على المفهوم . وبأن عوده على الملة أجمع من عوده على الكلمة، إذ الكلمة بعض الملة . ومعلوم أنه لا يوصي إلا بما كان أجمع للفلاح والفوز في الآخرة "(١).
ثانيا: أن (الملة) أجمع من تلك الكلمة، ومعلوم أنه ما وصى ولده إلا بما يجمع فيهم الفلاح والفوز بالآخرة، والشهادة وحدها لا تقتضي ذلك(٢). والله أعلم.
وقوله{وَصَّى}[البقرة:١٣٢](٣) فيه قراءتان(٤):
إحداهما: بهمزة مفتوحة مع تخفيف الصاد:{أوصَى}، بمعنى عهد. وهي في مصحف عثمان، وهي قراءة نافع وابن عامر، وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام.
والثانية: بحذف الهمزة مع تشديد الصاد: {وصَّى}، فيه معنى التكثير، أي: أنه عهد إليهم عهدا بعد عهد، وأوصى وصية بعد وصية. وهي في مصحف عبدالله.
والمعنى في القراءتين واحد، إلا أن في {وصّى} دليل مبالغة وتكثير.
قال الشيخ ابن عثيمين: وقراءة: {أوصى} لا تنطبق عليها الشروط الثلاثة في القراءة، والمجموعة في البيتين، وهما(٥):
كُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوِ ... وَكَانَ لِلرَّسْمِ احْتِمَالاً يَحْوِي
وَصَحَّ إِسْنَادًا هُوَ الْقُرآنُ ... فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الأَرْكَانُ
عليه فإن (أوصى) لم تتفق في الرسم؛ إذاً الشروط أو الأركان التي ذكرت بناءً على الأغلب.
وأما {إِبْرَاهِيمُ} ففيه قراءتان(٦):
إحداهما: بكسر الهاء بعدها ياء: (إِبْرَاهِيمُ). وهي قراءة القراء في كل مصر، غير ابن عامر.
والثانية: بفتح الهاء بعدها ألف:(إبراهام). قاله الأخفش الدمشقي عن ابن ذكوان عن ابن عامر.
قال أبو علي: "مما يثبت قراءة ابن عامر قول أمية(٧):
مع إبراهم التقي وموسى ... وابن يعقوب عصمة في الهزال
فهذا كأنه إبراهام، إلا أنه حذف الألف، كما يقصر الممدود في الشعر. وأنشدوا (٨):

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٥٧٠/١.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٧/٤.
(٣) قال ثعلب : أملى عليّ خلف بن هشام البزار ، قال : اختلف مصحف أهل المدينة وأهل العراق في اثنى عشر حرفاً . كتب أهل المدينة : وأوصى ، وسارعوا ، يقول ، الذين آمنوا من يرتدد ، الذين اتخذوا ، مسجداً خيراً منهما ، فتوكل ، وأن يظهر ، بما كسبت أيديكم ، ما تشتهيه الأنفس ، فإن الله الغني ، ولا يخاف عقباها . وكتب أهل العراق : ووصى ، سارعوا ، ويقول ، من يرتد ، والذين اتخذوا ، خيراً منها ، وتوكل ، أن يظهر ، فيما كسبت أيديكم ، ما تشتهي ، فإن الله هو ، فلا يخاف.(تفسير البحر المحيط: ٥٧٠/١).
(٤) انظر: السبعة في القراءات: ١٧١، وتفسير الطبري: ٩٥/٣-٩٦.
(٥) متن طيبة النشر في القراءات العشر، ابن الجزري(ت٨٣٣هـ): ٣٢.
(٦) انظر: السبعة: ١٦٩.
(٧) البيت من شواهد أبو علي الفارسي في الحجة: ٢٢٦/٢، ولم يرد في ديوانه. وهو فيما يبدو من قصيدته المذكورة برقم ٦٢ ص ٤٣٩.
(٨)قاله زيد بن عمرو بن نفيل وتتمته:
مستقبل القبلة وهو قائم   أنفي لك اللهم عان راغم

عذت بما عاذ به إبراهم

وقيل: إنهم كتبوا ما في البقرة بغير ياء، فهذا يدل على أنه إبراهام، وحذفت الألف من الخط، كما حذفت من دراهم، ونحو ذلك، فيشبه أنه قرأ إبراهام وما ثبت فيه مما يدلك على ذلك. وقد روي أنه سمع ابن الزبير يقرأ:{صحف إبراهام} [الأعلى: ١٩] بألف"[١].

وقوله{يعقوب}[٢] كذلك فيه قراءتان[٣]:

احداهما: برفع (يعقوب) رفعا على(إبراهيم)، أي: ويعقوب وصّى بهذا أيضا بنيه، وهي قراءة القراء العشرة.

روي عن قتادة قوله : " {ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب}، يقول: ووصى بها يعقوب بنيه بعد إبراهيم"[٤]. وروي عن ابن عباس مثله[٥].

قال أبو حيان: "فأما قراءة الرفع فتحتمل وجهين:

أحدهما : أن يكون معطوفاً على إبراهيم، ويكون داخلاً في حكم توصية بنيه، أي ووصى يعقوب بنيه.

[والثاني]: ويحتمل أن يكون مرفوعاً على الابتداء، وخبره محذوف تقديره : قال يا بني إن الله اصطفى"[٦].

ثم قال:" والأول أظهر"[٧].

مهما تجشمني فإني جاشم انظر السيرة النبوية ١/ ٢٣٠. ونسبه في اللسان (برهم) لعبد المطلب.

(١) الحجة للقراء السبعة: ٢/٢٢٦-٢٢٧.

(٢) جاء في تفسير البحر المحيط: " يعقوب : اسم أعجمي ممنوع الصرف للعلمية والعجمة الشخصية ، ويعقوب عربي ، وهو ذكر القبج ، وهو مصروف ، ولو سمي بهذا لكان مصروفاً . ومن زعم أن يعقوب النبي إنما سمي يعقوب لأنه هو وأخوه العيص توأمان ، فخرج العيص أولاً ثم خرج هو يعقبه ، أو سمي بذلك لكثرة عقبه ، فقوله فاسد ، إذ لو كان كذلك لكان له اشتقاق عربي ، فكان يكون مصروفاً . الحضور : الشهود ، تقول منه : حضر بفتح العين ، وفي المضارع : يحضر بضمهما ، ويقال : حضر بكسر العين ، وقياس المضارع أن يفتح فيه فيقال : يحضر ، لكن العرب استغنت فيه بمضارع فعل المفتوح العين فقالت : حضر يحضر بالضم ، وهي ألفاظ شذت فيها العرب ، فجاء مضارع فعل المكسور العين على يفعل بضمها ، قالوا : نعم ينعم ، وفض يفضل ، وحضر يحضر ، ومت تموت ، ودمت تدوم ، وكل هذه جاء فيها فعل بفتح العين ، فلذلك استغنى بمضارعه عن مضارع فعل ، كما استغنت فيه بيفعل بكسر العين عن يفعل بفتحها . قالوا : ضللت بكسر العين ، تضل بالكسر ، لأنه يجوز فيه ضللت بفتح العين. وإسحاق : اسم أعجمي لا ينصرف للعلمية والعجمة الشخصية ، وإسحاق : مصدر إسحاق ، ولو سميت به لكان مصروفاً ، وقالوا في الجمع : أساحقة وأساحيق ، وفي جمع يعقوب : يعاقبه ويعاقيب ، وفي جمع إسرائيل : أسار له . وجوز الكوفيون في إبراهيم وإسماعيل : براهمة وسماعلة ، والهاء بدل من الياء كما في زنادقة زناديق . وقال أبو العباس : هذا الجمع خطأ ، لأن الهمزة ليست زائدة ، والجمع : أباره وأسامع ، ويجوز : أباريه وأساميع ، والوجه أن يجمع هذه جمع السلامة فيقال : إبراهيمون ، وإسماعيلون ، وإسحاقون ، ويعقوبون . وحكى الكوفيون أيضاً : براهم ، وسماعل ، وأساحق ، ويعاقب ، بغير ياء ولا هاء . وقال الخليل وسيبويه : براهيم ، وسماعيل . وردّ أبو العباس على من أسقط الهمزة ، لأن هذا ليس موضع زيادتها . وأجاز ثعلب : براه ، كما يقال في التصغير : بريه . وقال أبو جعفر الصفار : أما إسرائيل ، فلا نعلم أحداً يجيز حذف الهمزة من أوله ، وإنما يقال : أساريل. وحكى الكوفيون : أسارلة وأسارل . انتهى.(تفسير البحر المحيط: ١/٥٦٨-٥٦٩).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٢/١٣٥. وتفسير ابن كثير/ ١/٤٤٦.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره(٢٠٨٦):ص ٣/٩٤.

(٥) انظر: الطبري في تفسيره(٢٠٨٧):ص ٣/٩٤..

(٦) تفسير البحر المحيط: ١/٥٧٠.

(٧) تفسير البحر المحيط: ١/٥٧٠.

والثانية:- وروي عن علي بن أبي طالب أنها قرئت قراءة شاذة بنصب باء (يعقوب). وقرأه: "إسماعيل بن عبد الله المكي، والضرير، وعمرو بن فائد الأسواري : بالنصب"(١).

والقراءة بالرفع هو الأشهر وعليه الجمهور، ومعناه: أنه وصى كوصية إبراهيم.

وأما القراءة بالنصب عطفًا على (بنيه)، كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضرًا ذلك، وقد ادعى القشيري، فيما حكاه القرطبي عنه أن يعقوب إنما ولد بعد وفاة إبراهيم، ويحتاج مثل هذا إلى دليل صحيح؛ والظاهر، والله أعلم، أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة ؛ لأن البشارة وقعت بهما في قوله : {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} [هود : ٧١] وقد قرئ بنصب يعقوب هاهنا على نزع الخافض، فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة، وأيضًا فقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت : {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [الآية : ٢٧] وقال في الآية الأخرى : {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً} [الأنبياء : ٧٢] وهذا يقتضي أنه وجد في حياته، وأيضًا فإنه باني بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت : يا رسول الله، أي مسجد وضع أول ؟ قال : "المسجد الحرام"، قلت : ثم أي ؟ قال : "بيت المقدس". قلت : كم بينهما ؟ قال : "أربعون سنة" الحديث(٢). فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتقد أنه باني بيت المقدس - وإنما كان جدّده بعد خرابه وزخرفه - وبين إبراهيم أربعين سنة، وهذا مما أنكر على ابن حبان، فإن المدة بينهما تزيد على ألوف سنين، والله أعلم، وأيضًا فإن ذكر وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريبًا، وهذا يدل على أنه هاهنا من جملة الموصين(٣).

وقال بعضهم: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ}، خبر منقض، وقوله : {ويعقوب} خبر مبتدأ، فإنه قال : {ووصى بها إبراهيم بنيه}، بأن يقولوا : أسلمنا لرب العالمين - ووصى يعقوب بنيه : أن : {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [البقرة : ١٣٢]، وهذا القول فيه نظر، لأن الذي أوصى به يعقوب بنيه، نظير الذي أوصى به إبراهيم بنيه وهو الحث على طاعة الله، والخضوع له، والإسلام(٤).

قوله تعالى:{يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدين}[البقرة:١٣٢]، أي: "إن الله اختار لكم هذا الدين الذي عهد إليكم فيه، واجتباه لكم"(٥).

قال مقاتل:" يعني اختار لكم الدين يعني دين الإسلام"(٦).

قال الرازي: أي استخلصه بأن أقام عليه الدلائل الظاهرة الجلية ودعاكم إليه ومنعكم عن غيره(٧).

قال الثعلبي:أي" اختار لكم الإسلام"(٨).

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٥٧٠/١.
(٢)صحيح البخاري برقم (٣٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٥٢٠).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير/ ٤٤٦/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٩٣/٣.
(٥) تفسير الطبري: ٩٦/٣.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤٠/١.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٨/٤.
(٨) تفسير الثعلبي:٢٨١/١.

قال البيضاوي:أي:" دين الإسلام الذي هو صفوة الأديان لقوله تعالى: {فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}"[1].

قال أبو السعود:أي:" دينَ الإسلامِ الذي هو صفوةُ الأديان ولا دينَ غيرُه عنده تعالى"[2].

قال الصابوني:" أي اختار لكم دين الإسلام ديناً وهذا حكاية لما قال إبراهيم ويعقوب لأبنائهما"[3].

والألف واللام في {الدين} للعهد، لأنهم كانوا قد عرفوه، وهو دين الإسلام.

وقوله{اصْطَفَى}[البقرة:١٣٢]، أي: "اختار"[4]، قال الراجز[5]:

يا ابن ملوك ورثوا الأملاكا ... خلافة الله التي أعطاكا
لك اصطفاها ولها اصطفاكا

قال الثعلبي:" {يا بَنِيَّ}، معناه: أن يا بنيّ، وكذلك في قراءة أبي وابن مسعود"[6].

وعلى قراءة: {أن يا بَنِيَّ}، يتعين أن تكون {أن} هنا تفسيرية بمعنى (أي)، ولا يجوز أن تكون مصدرية، لأنه لا يمكن انسباك مصدر منها ومما بعدها، ومن لم يثبت معنى التفسير، لأن جعلها هنا زائدة، وهم الكوفيون[7].

وقوله تعالى{الدِّينَ}[البقرة:١٣٢]، "أي العبادة، والعمل؛ ويطلق على الجزاء؛ ففي قوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة : ٤]، المراد بـ(الدين) الجزاء؛ وفي قوله تعالى: {وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣] ؛ (الدين) : العبادة؛ فالدين يطلق على هذا، وعلى هذا - على العمل، وعلى الجزاء عليه -؛ ومنه قولهم: كما تدين تدان، يعني كما تعمل تُجازى"[8].

قوله تعالى:{فَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[البقرة:١٣٢]، أي: فلا يأتيكم الموت إلا وأنتم على الإسلام"[9].

قال مقاتل:" يعني مخلصون بالتوحيد"[10].

قال الثعلبي:اي إلا وأنتم:"مؤمنون"[11].

قال السعدي:"لأن من عاش على شيء، مات عليه، ومن مات على شيء، بعث عليه"[12].

قال الصابوني:" أي اثبتوا على الإسلام حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به"[13].

وقال الفضيل بن عياش:" أي: محسنون بربّكم الظن"[1].

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٠٧/١.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٦٤/١.
(٣) صفوة التفاسير:٨٥/١.
(٤) تفسير القرطبي: ١٣٦/٢.
(٥) لم أتعرف على قائله، وقد ذكره القرطبي في تفسيره: ١٣٦/٢.
(٦) تفسير الثعلبي:٢٨١/١.
(٧) انظر: تفسير البحر المحيط: ٥٧١/١.
(٨) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣١/٢.
(٩) انظر: تفسير السعدي: ٦٦/١.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:١٤٠/١.
(١١)تفسير الثعلبي:٢٨١/١.
(١٢) انظر: تفسير السعدي: ٦٦/١.
(١٣) صفوة التفاسير:٨٥/١.

قال الطبري: أي : "فلا تفارقوا هذا الدين - وهو الإسلام - أيام حياتكم. وذلك أن أحدا لا يدري متى تأتيه منيتُه، فلذلك قالا لهم : " فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون "، لأنكم لا تدرون متى تأتيكم مناياكم من ليل أو نهار، فلا تفارقوا الإسلام، فتأتيكم مناياكم وأنتم على غير الدين الذي اصطفاه لكم ربكم فتموتوا وربُّكم ساخط عليكم، فتهلكوا"(٢).

أخرج ابن أبي حاتم عن طاوس: "{فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون}، على الإسلام وعلى ذمة الإسلام"(٣).

قال البيضاوي: "المقصود هو النهي عن أن يكونوا على خلاف تلك الحال إذا ماتوا، والأمر بالثبات على الإسلام كقولك: لا تصلِّ إلا وأنت خاشع، وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لا خير فيه، وأن من حقه أن لا يحل بهم، ونظيره في الأمر مت وأنت شهيد"(٤).

قال أبو السعود:" المقصودُ الأمرُ بالثبات على الإسلام إلى حين الموتِ أي فاثبُتوا عليه ولا تفارقوه أبداً"(٥).

وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وُفّق له ويسر عليه، ومن نوى صالحًا ثبت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء، في الحديث [الصحيح] "إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا بَاعٌ أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه

---

(١) تفسير الثعلبي:٢٨١/١.

(٢) تفسير الطبري: ٩٦/٣-٩٧. وقال أبو حيان: "(فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) : هذا استثناء من الأحوال ، أي إلا على هذه الحالة ، والمعنى : الثبوت على الإسلام ، والنهي في الحقيقة إنما هو عن كونهم على خلاف الإسلام . إلا أن ذلك نهى عن الموت ، ونظير ذلك في الأمر : مت وأنت شهيد ، لا يكون أمراً بالموت ، بل أمر بالشهادة ، فكأنه قال : لتستشهد في سبيل الله ، وذكر الموت على سبيل التوطئة للشهادة . وقد تضمن هذا الكلام إيجازاً بليغاً ووعظاً وتذكيراً ، وذلك أن الإنسان يتيقن بالموت ولا يدري متى يفاجئه . فإذا أمر بالتباس بحالة لا يأتيه الموت إلا عليها ، كان متذكراً للموت دائماً ، إذ هو مأمور بتلك الحالة دائماً ، . وهذا على الحقيقة نهي عن تعاطي الأشياء التي تكون سبباً للموافاة على غير الإسلام ، ونظير ذلك قولهم : لا أرينك هنا ، لا ينهي نفسه عن الرؤية ، ولكن المعنى على النهي عن حضوره في هذا المكان ، فيكون يراه ، فكأنه قال : اذهب عن هذا المكان . ألا ترى أن المخاطب ليس له أن يحجب إدراك الآمر عنه إلا بالذهاب عن ذلك المكان ، فأتى بالمقصود بلفظ يدل على الغضب والكراهة ، لأن الإنسان لا ينهى إلا عن شيء يكره وقوعه .

وقد اشتملت هذه الجملة على لطائف ، منها : الوصية ، ولا تكون إلا عند خوف الموت . ففي ذلك ما كان عليه إبراهيم من الاهتمام بأمر الدين ، حتى وصى به من كان ملتبساً به ، إذ كان بنوه على دين الإسلام . ومنها اختصاصه ببنيه ، ولا يختصهم إلا بما فيه سلامة عاقبتهم . ومنها أنه عمم بنيه ، ولم يخص أحداً منهم ، كما جاء في حديث النعمان بن بشير ، حين نحله أبوه شيئاً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتحب أن يكونوا لك في البر سواء ؟ " ورد نحله إياه وقال : لا أشهد على جور .(صحيح البخاري(٢٤٤٦). ومنها إطلاق الوصية ، ولم يقيدها بزمان ولا مكان . ثم ختمها بأبلغ الزجر أن يموتوا غير مسلمين . ثم التوطئة لهذا النهي والزجر بأن الله تعالى هو الذي اختار لكم دين الإسلام ، فلا تخرجوا عما اختاره الله لكم".(تفسير البحر المحيط: ٥٧١/١).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم(١٢٧٧):ص٢٣٩/١.

(٤) تفسير البيضاوي: ١٠٧/١، ونقله بتمامه أبو السعود في تفسيره: ١٦٤/١.

(٥) تفسير أبي السعود: ١٦٤/١.

الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها"[1] ؛ لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث : "فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس. وقد قال الله تعالى : {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل : ٥ - ١٠][2].

وقوله تعالى:{إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}، جملة حالية يراد بها استمرارهم على الإسلام إلى الممات، وكان الصالحون من سلف الأمة يخشون سوء الخاتمة، ولا يفترون عن ذكر الموت مع ما هم عليه من الإيمان والطاعة، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإكثار من ذكر الموت، قال: "أكثروا ذكر هاذم اللذات"[3]، وكل هذا من أجل أن يبقى المرء متمسكاً بما وجب عليه ومبتعداً عما نهي عنه حتى يموت وهو كذلك. اللهم تجاوز عن زلاتنا، واغفر خطيئاتنا، وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين.

الفوائد:

١- أن هذه الحكاية اشتملت على دقائق مرغبة في قبول الدين[4]:

أ- أنه تعالى لم يقل وأمر إبراهيم بنيه بل قال: وصاهم ولفظ الوصية أوكد من الأمر، لأن الوصية عند الخوف من الموت، وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتم، فإذا عرف أنه عليه السلام في ذلك الوقت كان مهتما بهذا الأمر متشددا فيه، كان القول إلى قبوله أقرب.

ب- أنه عليه السلام خصص بنيه بذلك، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم، فلما خصهم بذلك في آخر عمره، علمنا أن اهتمامه بذلك كان أشد من اهتمامه بغيره.

ت- أنه عمم بهذه الزجر عن أن يموتوا غير مسلمين، وذلك يدل أيضا على شدة الاهتمام بهذا الأمر.

ث- أنه عليه السلام ما مزج بهذه الوصية وصية أخرى، وهذا يدل أيضا على شدة الاهتمال بهذا الأمر، ولما كان إبراهيم عليه السلام هو الرجل المشهود له بالفضل وحسن الطريقة وكمال السيرة، ثم عرف أنه كان في نهاية الاهتمام بهذا الأمر، عرف حينئذ أن هذا الأمر أولى الأمور

---

(١)رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣)، عن أبي عبدالرحمن عبدالله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا - نطفة - ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلماتٍ: بكَتْبِ رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيدٌ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها".

إن هذا حديث عظيم جامع لأحوال الإنسان من مبدأ خلقه ومجيئه إلى هذه الحياة الدنيا إلى آخر أحواله من الخلود في دار السعادة أو الشقاء، بما كان منه في الحياة الدنيا من كسب وعمل وفق ما سبق في علم الله وقدره وقضائه.(الوافي في شرح الأربعين (٢٤). وقال ابن الملقن - رحمه الله -: لو أمعن الأئمة النظر في هذا الحديث كله من أوله إلى آخره، لوجدوه متضمنًا لعلوم الشريعة كلها ظاهرها وباطنها(الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (١٠/ ٥٩ ح ٣٩٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٤٦/١-٤٤٧.

(٣)رواه البيهقي في الشعب (٨٢٦)، وحسنه الألباني، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٣٤).

(٤) انظر: تفسير الراي: ٦٧/٤.

بالاهتمام، وأجراها بالرعاية، فهذا هو السبب في أنه خص أهله وأبناءه بهذه الوصية، وإلا فمعلوم من حال إبراهيم عليه السلام أنه كان يدعو الكل أبدا إلى الإسلام والدين.
٢- ومن فوائد الآية: أهمية هذه الوصية؛ لأنه اعتنى بها إبراهيم، ويعقوب؛ فإبراهيم أبو العرب والإسرائيليين؛ ويعقوب أبو الإسرائيليين؛ فهذان الرسولان الكريمان اعتنيا بها، حيث جعلاها مما يوصى به.
٣- ومنها: أنه ينبغي العناية بهذه الوصية اقتداءً بإبراهيم، ويعقوب.
٤- ومنها: أن الله سبحانه وتعالى اختار لعباده من الدين ما هو أقوم بمصالحهم؛ لقوله تعالى: {اصطفى لكم الدين}؛ فلولا أنه أقوم ما يقوم بمصالح العباد ما اختاره الله سبحانه وتعالى لعباده.
٥- ومنها: أنه ينبغي التلطف في الخطاب؛ لقوله تعالى: {يا بنيّ}؛ فإن نداءهم بالبنوة يقتضي قبول ما يلقى إليهم.
٦- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يتعاهد نفسه دائماً حتى لا يأتيه الموت وهو غافل؛ لقوله تعالى: {فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون}.
٧-ومنها: أن الأعمال بالخواتيم؛ لقوله تعالى: {فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون}.

القرآن
{أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)} [البقرة : ١٣٣]
التفسير:
أكنتم أيها اليهود حاضرين حين جاء الموتُ يعقوبَ، إذ جمع أبناءه وسألهم ما تعبدون من بعد موتي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا، ونحن له منقادون خاضعون.
في سبب نزول الآية وجوه:
أحدها: قال الواحدي:" نزلت في اليهود حين قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - ألست تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية"[(١)]. وذكره الثعلبي[(٢)] في تفسيره.
الثاني: قال الطبري: "وهذه آيات نزلت، تكذيبا من الله تعالى لليهود والنصارى في دعواهم في إبراهيم وولده يعقوب : أنهم كانوا على ملتهم، فقال لهم في هذه الآية : "{أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ}، فتعلموا ما قال لولده وقال له ولده ؟ ثم أعلمهم ما قال لهم وما قالوا له[(٣)].
الثالث: وقال الكلبي: "لمّا دخل يعقوب مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيّران، فجمع ولده وخاف عليهم ذلك"[(٤)] " فقال: ما تعبدون من بعدي؟ ""[(٥)].
الرابع: وقال ابن ظفر: "قيل: إن سبب نزولها أن اليهود اعتذروا عن امتناعهم من الإسلام بأن يعقوب أوصى الأسباط عندما حضره الموت بأن لا يبتغوا بملة اليهود بدلا فنزلت {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءِ}"[(٦)].

(١) أسباب النول: ٤١.
(٢) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨١/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٩٨/٣.
(٤) تفسير الثعلبي:٢٨١/١.
(٥) زاده ابن حجر في العجاب: ٣٨٠/١.
(٦)الفتح السماوي للمناوي:١/ ١٨٣-١٨٤": "قال السيوطي: لم أقف عليه".

قال الحافظ ابن حجر: " فإن الآية تضمنت أن يعقوب خاطب أولاده عند موته محرضاً لهم على الثبات على الإسلام، وقال له أولاده: إنهم يعبدون إلهه وإله آبائه إبراهيم وإسماعيل[1] وإسحاق[2]"[3].

قوله تعالى:{أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ}[البقرة:١٣٣]، أي: أكنتم - يا معشر اليهود والنصارى، حضورَ يعقوبَ وشهودَه إذ حضره الموت"[4].

قال أبو العالية:" {أم كنتم شهداء}، يعني أهل الكتاب"[5].

قال الزجاج:أي:" بل أكنتم شهداءَ إذ حضر يعقوب الموت"[6].

قال الطبري:" أي إنكم لم تحضروا ذلك، فلا تدعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل، وتَنحلوهم اليهودية والنصرانية، فإني ابتعثت خليلي إبراهيم - وولده إسحاق وإسماعيل وذريتهم - بالحنيفية المسلمة، وبذلك وصَّوْا بنيهم، وبه عهدوا إلى أولادهم من بعدهم. فلو حضرتموهم فسمعتم منهم، علمتم أنهم على غير ما نحلتموهم من الأديان والملل من بعدهم[7].

قال الزمخشري:" أى ما كنتم حاضرين يعقوب عليه السلام إذ حضره الموت، أى حين احتضر"[8].

قال الصابوني:" أي بل أكنتم شهداء حين احتضر يعقوب وأشرف على الموت وأوصى بنيه باتباع ملة إبراهيم"[9].

قال البيضاوي:" أي ما كنتم حاضرين إذ حضر يعقوب الموت وقال لبنيه ما قال فلم تدعون اليهودية عليه"[10].

فإذا لم يكن له سند، فلا يعتمد، وانظر: العجاب في بيان الأسباب: ٣٨٠/١.

(١) إسماعيل عم ليعقوب لا والد له، وسمي أباً من باب تغليب الأكثر على الأقل أو لأن العرب تطلق على العم أباً كما نص على ذلك غير واحد. انظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢٦٥/١، لسان العرب لابن منظور: ١٦/١، تاج العروس للزبيدي: ١٣٢/١٩، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٣٨/٢، الدر المصون للسمين: ٣٨٠/١، لباب التأويل للخازن: ٨٤/١، روح المعاني للألوسي: ٣٩١/١. ويؤيد الثاني ما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ٥١٨/٧ (باب: ما ذكر في العباس) رقم: ٢ بسند صحيح مرسل إلى مجاهد: (احفظوني في العباس فإنه بقية آبائي)، وهو عند الطبراني في الكبير: ٨٠/١١ رقم: ١١١٠٧ عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ: (استوصوا بعمي العباس خيراً فإنه بقية آبائي)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٢٦٩/٩: (وفيه عبد الله بن خراش وهو ضعيف، ووثقه ابن حبان، وقال: ربما أخطأ، وبقية رجاله وثقوا)، وهو عند الطبراني أيضاً في الأوسط: ٢٥٤/١ من حديث الحسن بن علي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٢٦٩/٩: (وفيه جماعة لم أعرفهم)، وعند الخطيب البغدادي في تاريخه: ٦٨/١٠ من حديث المطلب بن ربيعة، وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع: ٣٢ رقم: ٢١٤ و: ٢١٥ من حديث الحسن والمطلب.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري: ٩٨/٣-٩٩، المحرر الوجيز لابن عطية: ٣٦٥/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٣٧/٢-١٣٨، تفسير ابن كثير لابن كثير: ٢٣٢/١، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٤٨/١.

(٣)الفتح: ٤٧٧/٦.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٩٧/٣-٩٨. وقوله {شهداء} جمع شاهد أي حاضر.(انظر: تفسير القرطبي: ١٣٧/٢).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٧٨):ص٢٣٩/١.

(٦) معاني القرآن: ٢١٢/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٩٧/٣-٩٨.

(٨) الكشاف: ١٩٢/١.

(٩) صفوة التفاسير:٨٥/١.

(١٠) تفسير البيضاوي: ١٠٧/١.

قال ابن عطية:" هذا الخطاب لليهود والنصارى الذين انتحلوا الأنبياء صلوات الله عليهم ونسبوهم إلى اليهودية والنصرانية، فرد الله تعالى عليهم وكذبهم، وأعلمهم أنهم كانوا على الحنيفية والإسلام، وقال لهم على جهة التقريع والتوبيخ: أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى فتدعون عن علم؟، أي لم تشهدوا بل أنتم تفترون"(١).

قال الحسن:" يقول: لم يشهد اليهود ولا النصارى ولا أحد من الناس يعقوب، إذ أخذ على بنيه الميثاق، إذ حضره الموت أن لا يعبدوا إلا إياه فأقروا بذلك، وشهد عليهم أن قد أقروا بعبادتهم، وأنهم مسلمون"(٢).

وقوله: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ}[البقرة:١٣٣]، أي: أكنتم، ولكنه استفهم بـ(أم)، إذ كان استفهاما مستأنفا على كلام قد سبقه، كما قيل : {الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)} [السجدة : ١ - ٣]، وكذلك تفعل العرب في كل استفهام ابتدأته بعد كلام قد سبقه، تستفهم فيه بـ(أم)(٣).

قال القفال قوله: "{إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ} أن (إذ) الأولى وقت الشهداء، والثانية وقت الحضور"(٤).

وقوله تعالى:{إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ} أي مقدماته وأسبابه، وإلا فلو حضر الموت لما أمكن أن يقول شيئا"(٥).

قال ابن عطية:" وقدم (يعقوب)، على جهة تقديم الأهم"(٦).

واختلف العلماء في الخطاب الموجه في قوله تعالى{أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ}[البقرة:١٣٣]، على وجهين(٧):

أحدهما:أن الخطاب للمؤمنين، والمعني: "ما شاهدتم ذلك وإنما علمتموه بالوحي"(٨).

الثاني: وقيل الخطاب لليهود، "لأنهم كانوا يقولون : ما مات نبيٌّ إلا على اليهودية ، إلا أنهم لو شهدوه وسمعوا ما قاله لبنيه وما قالوه ، لظهر لهم حرصه على ملة الإسلام ، ولما ادعوا عليه اليهودية. فالآية منافية لقولهم ، فكيف يقال لهم : أم كنتم شهداء؟ ولكن الوجه أن تكون أم متصلة على أن يقدر قبلها محذوف ، كأنه قيل : أتدّعون على الأنبياء اليهودية؟ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، يعنى أن أوائلكم من بنى إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنيه على التوحيد وملة الإسلام ، وقد علمتم ذلك ، فما لكم تدّعون على الأنبياء ما هم منه برآء؟"(٩).

قال صاحب الكشاف: " وقرئ (حضِر) بكسر الضاد وهي لغة"(١٠).

---

(١) المحرر الوجيز: ٢١٣/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٧٩):ص٢٤٠/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٩٧/٣.
(٤) مفاتيح الغيب: ٦٩/٤.
(٥) تفسير القرطبي: ١٣٧/٢.
(٦) المحرر الوجيز:٢١٤/١.
(٧) انظر:تفسير البيضاوي: ١٠٧/١، وتفسير الكشاف: ١٩٢/١-١٩٣.
(٨) تفسير البيضاوي: ١٠٧/١.
(٩) تفسير الكشاف: ١٩٣/١.
(١٠)تفسير الكشاف: ١٩٣/١، وانظر: تفسير البيضاوي: ١٠٧/١.

قوله تعالى:{إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي}[البقرة:١٣٣]،[١] أي: إذ قال يعقوب لبنيه: أي شيء تعبدون من بعد وفاتي؟"[٢][٣].

قال البيضاوي:" أي: أي شيء تعبدونه، أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما"[٤].

قال ابن عثيمين:" بدؤوا به؛ لأنهم يخاطبونه"[٥].

وقد عبر عن المعبود بـ(بما) ولم يقل (مَن)، وذلك لوجهين:

الأول: لأن "(ما) عام في كل شيء والمعنى أي شيء تعبدون"[٦]، فأراد أن يختبرهم، ولو قال (من) لكان مقصوده أن ينظر من لهم الاهتداء منهم، وإنما أراد تجربتهم فقال (ما)، وأيضا فالمعبودات المتعارفة من دون الله جمادات كالأوثان والنار والشمس والحجارة، فاستفهم عما يعبدون من هذه[٧].

---

(١) قال الرازي: " هذه الآية تمسك بها فريقان من أهل الجهل:

الأول: المقلدة قالوا: إن أبناء يعقوب اكتفوا بالتقليد، وهو عليه السلام ما أنكره عليهم فدل على أن التقليد كاف.

الثاني: التعليمية: قالوا: لا طريق إلى معرفة الله إلا بتعليم الرسول والإمام والدليل عليه هذه الآية، فإنهم لم يقولوا: نعبد الإله الذي دل عليه العقل، بل قالوا: نعبد الإله الذي أنت تعبده وآباءك يعبدونه وهذا يدل على أن طريق المعرفة هو التعلم.

والجواب: كما أنه ليس في الآية دلالة على أنهم عرفوا الإله بالدليل العقلي، فليس فيها أيضا دلالة على أنهم ما أقروا بالإله إلا على طريقة التقليد والتعليم، ثم إن القول بالتقليد والتعليم لما بطل بالدليل علمنا أن إيمان القوم ما كان على هذه الطريقة بل كان حاصلا على سبيل الاستدلال، أقصى ما في الباب أن يقال: فلم لم يذكروا طريقة الاستدلال.

والجواب عنه من وجوه، أولها: أن ذلك أخصر في القول من شرح صفات الله تعالى بتوحيده وعلمه وقدرته وعدله.

وثانيها: أنه أقرب إلى سكون نفس يعقوب عليه السلام فكأنهم قالوا: لسنا نجري إلا على مثل طريقتك فلا خلاف منا عليك فيما نعبده ونخلص العبادة له.

وثالثها: لعل هذا إشارة إلى ذكر الدليل على وجود الصانع على ما ذكره الله تعالى في أول هذه السورة في قوله: {قدير يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم} (البقرة: ٢١) وههنا مرادهم بقولهم: {نعبد إلاهك وإلاه آبائك} أي: نعبد الإله الذي دل عليه وجودك ووجود آبائك وعلى هذا الطريق يكون ذلك إشارة إلى الاستدلال لا إلى التقليد.(مفاتيح الغيب: ٤/٧٠).

(٢) تفسير الطبري:٩٨/٣.

(٣) قيل: أن يعقوب عليه السلام لما دخل مصر رأى أهلها يعبدون النيران والأوثان فخاف على بنيه بعد وفاته، فقال لهم هذا القول تحريضا لهم على التمسك بعبادة الله تعالى. وحكى القاضي عن ابن عباس: أن يعقوب عليه السلام جمعهم إليه عند الوفاة، وهم كانوا يعبدون الأوثان والنيران، فقال: يا بني ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إهلك وإله آبائك ثم قال القاضي: هذا بعيد لوجهين:

الأول: أنهم بادروا إلى الاعتراف بالتوحيد مبادرة من تقدم منه العلم واليقين.

الثاني: أنه تعالى ذكر في الكتاب حال الأسباط من أولاد يعقوب وأنهم كانوا قوما صالحين وذلك لا يليق بحالهم. (مفاتيح الغيب: ٤/٧٠).

(٤) تفسير البيضاوي: ١٠٧/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين:٧٧/٢.

(٦) مفاتيح الغيب: ٦٩/٤.

(٧) تفسير القرطبي: ١٣٧/٢.

الثاني: ومن وجه آخر فإن قوله: (مَا تَعْبُدُونَ) كقولك عند طلب الحد والرسم: ما الإنسان[١]، قال صاحب الكشاف: " ويجوز أن يقال : (ما تَعْبُدُونَ) سؤال عن صفة المعبود. كما تقول : ما زيد؟ تريد : أفقيه أم طبيب أم غير ذلك من الصفات"[٢].
ومعنى {مِنْ بَعْدِي}، أي من بعد موتي[٣].
قال ابن عطية: "وحكي أن يعقوب حين خير كما تخير الأنبياء اختار الموت وقال : أمهلوني حتى أوصي بني وأهلي، فجمعهم وقال لهم هذا، فاهتدوا وقالوا : {نَعْبُدُ إِلَهَكَ} الآية، فأروه ثبوتهم على الدين ومعرفتهم بالله تعالى"[٤].
قوله تعالى:{قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ} [البقرة:١٣٣]، أي:قالوا: "نعبد معبودك الذي تعبده، ومعبود آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق"[٥].
قال أبو حيان:أي" الإله الذي دل عليه وجود آبائك ، وهذا إشارة إلى الاستدلال"[٦].
قال ابن عباس:" {نعبد}، يعني نوحّد"[٧].
قال أبو العالية: "فسمى عمه أباه"[٨].
قال موسى بن عبيدة: "سمعت محمد بن كعب يقول: الخال والد، والعم والد: {قال ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك}، إلى آخر الآية"[٩].
و(الإله): هو"الذي يستحق أن يكون معبودا، قال ابن منظور:(أله) الإلَهُ الله عز وجل وكل ما اتخذ من دونه معبوداً إلَهٌ عند متخذه والجمع آلِهَةٌ والآلِهَةُ الأصنام سموا بذلك لاعتقادهم أن العبادة تَحُقُّ لها وأسماؤُهم تَتْبَعُ اعتقاداتهم لا ما عليه الشيء في نفسه"[١٠].
وقال أبو منصور الأزهري:" قال الليث بلغنا أن اسم الله الأكبر هو الله لا إله إلا هو وحده...والتأله التعبد"[١١].
وقال الزنجاني:" أله بالفتح إلاهة أي عبد عبادة، وقولنا الله أصل هذا الاسم "إله" على فعال بمعنى مفعول لأنه مألوه أي معبود فلما أدخل عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرته في الكلام"، والتأله التعبد"[١٢].
وقال أبو الحسين بن فارس:" أله الهمزة واللام والهاء أصل واحد وهو التعبد فالإله "الله" تعالى وسمي بذلك لأنه معبود ويقال تأله الرجل إذا تعبد قال رؤبة[١٣] :

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٩/٤.
(٢) تفسير الكشاف: ١٩٣/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري:٩٨/٣.
(٤) المحرر الوجيز: ٢١٤/١، ونقله القرطبي في تفسيره: ١٣٧/٢.
(٥) تفسير الطبري: ٩٨/٣.
(٦) البحر المحيط: ٣٥٠/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٨٠):ص٢٤٠/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٨٢):ص٢٤٠/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٨٣):ص٢٤٠/١.
(١٠) اللسان: ٤٦٧/١٣.
(١١)تهذيب اللغة: ٤٢١/٦-٤٢٤.
(١٢)تهذيب الصحاح: (٨٩٧/٣)، مادة (أله).
(١٣) ديوانه: ١٦٥. لله در الغانيات: أي النساء اللاتي استغنت بجمالها عن التجمل أو استغنت بزوجها عن النظر إلى غيره، المدة: مدهه كمدحه، أي المادحات لله در الغانيات المادحات، سبحن: أي قلن سبحان الله واسترجعن: أي قلن إنا لله وإنا إليه راجعون، من تألهي: أي بسبب عبادتي لله.

للهِ دَرُّ الغانِيات المُدَّهِ ... سَبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ مِن تَألُّهي"(١)

يعني : من تعبدي وطلبي اللهَ بعملي.

وقوله:{إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ}، في موضع خفض على البدل، ولم تنصرف لأنها أعجمية.

قال الكسائي : وإن شئت صرفت "إسحاق" وجعلته من السحق، وصرفت "يعقوب" وجعلته من الطير. وسمى الله كل واحد من العم والجد أبا(٢)، وبدأ بذكر الجد ثم إسماعيل العم لأنه أكبر من إسحاق(٣).

قال الشيخ ابن عثيمين: "{وَإِلَهَ آبَائِكَ} جمع أب؛ ثم بينوا الآباء بقولهم: {إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ}؛ (إِبْرَاهِيمَ) بالنسبة إلى يعقوب جدّ؛ و(إِسْمَاعِيلَ) بالنسبة إليه عم؛ و(إِسْحَاق) بالنسبة إليه أب مباشر؛ أما إطلاق الأبوة على إبراهيم، وعلى إسحاق فالأمر فيه ظاهر؛ لأن إسحاق أبوه، وإبراهيم جده؛ والجد أب؛ بل قال الله عزّ وجلّ لهذه الأمة: {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} [الحج: ٧٨] ؛ وهي بينها وبين إبراهيم عالَم؛ لكن الإشكال في عدِّهم إسماعيل من آبائه مع أنه عمهم؛ فيقال كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه: "أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه"(١) ؛ و(الصنو) الغصنان أصلهما واحد؛ فذُكر مع الآباء؛ لأن العم صنو الأب؛ وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "الخالة بمنزلة الأم"(٢) ؛ كذلك نقول: العم بمنزلة الأب"(٤).

وقيل: "إن هذا من باب التغليب، وأن الأب لا يطلق حقيقة على العم إلا مقروناً بالأب الحقيقي؛ وعلى هذا فلا يكون فيها إشكال إطلاقاً؛ لأن التغليب سائغ في اللغة العربية، فيقال:(القمران)؛ والمراد بهما الشمس، والقمر؛ ويقال: (العُمَران)؛ وهما أبو بكر، وعمر"(٥).

قوله تعالى:{إِلَهًا وَاحِدًا}[البقرة:١٣٣]، أي: "نُوَحِّدُه بالألوهية، ونخلص له في العبادة، ولا نشرك به شيئا"(٦).

ويحتمل انتصاب قوله{إِلَهًا}[البقرة:١٣٣]، من وجهين(٧):

أحدهما: أنه بدل من {إِلَهَكَ}، بدل النكرة من المعرفة، وكرره لفائدة الصفة بالوحدانية.

قال الزجاج:" وتكون الفائدة من هذا البدل ذكر التوحيد، فيكون المعنى نعبد إلهاً واحداً"(٨).

والثاني: وقيل : {إلها} حال، "كأنهم قالوا نعبد: إلهك في حال وحدانيته"(١).

---

(١)معجم مقاييس اللغة :١٢٧/١.

(٢)قال النحاس : والعرب تسمي العم أبًا ، نقله القرطبي ؛ وقد استدل بهذه الآية من جعل الجد أبًا وحجب به الإخوة ، كما هو قول الصديق - حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير ، ثم قال البخاري : ولم يختلف عليه ، وإليه ذهبت عائشة أم المؤمنين ، وبه يقول الحسن البصري وطاوس وعطاء ، وهو مذهب أبي حنيفة وغير واحد من علماء السلف والخلف ؛ وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه أنه يقاسم الإخوة ؛ وحكى مالك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف ، واختاره صاحبا أبي حنيفة القاضي : أبو يوسف ، ومحمد بن الحسن ، ولتقريرها موضع آخر.(تفسير ابن كثير: ٤٤٧/١).

(٣) تفسير القرطبي: ١٣٨/٢.

(١) أخرجه مسلم ص٨٣٢، كتاب الزكاة، باب ٣: في تقديم الزكاة ومنعها، حديث رقم ٢٢٧٧ [١١] ٩٨٣.

(٢) أخرجه البخاري ص٢١٤، كتاب الصلح، باب ٦: كيف يكتب: هذا ما صالح فلان بن فلان...، حديث رقم ٢٦٩٩.

(٤) تفسير ابن عثيمين: ٣٣/٢.

(٥) تفسير ابن عثيمين: ٣٣/٢.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٤٧/١ وتفسير الطبري: ٩٩/٣.

(٧) انظر: معاني القرآن للزجاج: ٢١٢/١، وتفسير القرطبي: ١٣٨/٢.

(٨) معاني القرآن للزجاج: ٢١٢/١.

قال ابن عطية : وهو قول حسن، لأن الغرض إثبات حال الوحدانية[٢].
واختلفت القراءة في قوله تعالى:{وَإِلَهَ آبائِكَ}[البقرة:١٣٣]، على وجوه:
أحدها: {وَإِلَهَ آبائِكَ}.على الجمع، وهي قراءة الجمهور، وقالوا: عم الرّجل صنو أبيه.
الثاني: وقرأ أبي: {إلهك وإله إبراهيم وإسماعيل}[٣].
الثالث: {وإله أبيك}: قرأ بها الحسن ويحيى بن يعمر والجحدري وأبو رجاء العطاردي، وفيه وجهان[٤]:
أحدهما : أن يكون أفرد وأراد إبراهيم وحده، وكره أن يجعل إسماعيل أبا لأنه عم. قال النحاس : وهذا لا يجب، لأن العرب تسمي العم أبا.
والثاني : على مذهب سيبويه أن يكون (أبيك) جمع سلامة، حكى سيبويه أب وأبون وأبين، كما قال الشاعر[٥]:
فقلنا أسلموا إن أخوكم ... فقد برئت من الإحن الصدور
وقال آخر[٦]:
فلما تبين أصواتنا ... بكين وفديننا بالأبينا
والراجح من القراءة {وإله آبائك}، وعليها إجماع القراء. والله تعالى أعلم.
قوله تعالى:{وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[البقرة:١٣٣]، "أي ونحن له وحده مطيعون خاضعون"[٧].
قال ابن عثيمين:" أي منقادون لأمر هذا الإله الواحد سبحانه وتعالى، وشرعه"[٨].
قال ابن عطية:" أي كذلك كنا نحن ونكون"[٩].
قال الزمخشري:" أى ومن حالنا، أنا له مسلمون مخلصون التوحيد أو مذعنون"[١٠].
واختلف في تفسير قوله تعالى: {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[البقرة:١٣٣]، على وجوه: [١١]:
أحدها: أن المعنى: ونحن له مطيعون خاضعون، كما قال تعالى : {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ وسلم} [آل عمران: ٨٣]، والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوّعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى : {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

---

(١) معاني القرآن للزجاج: ٢١٢/١.
(٢) المحرر الوجيز: ٢١٤/١.
(٣) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨١/١.
(٤) انظر: تفسير القرطبي: ١٣٨/٢، وتفسير الثعلبي:٢٨١/١.
(٥) البيت للعباس بن مرداس، انظر: سيرة ابن هشام ٤: ٩٥، واللسان (أخو)، ومجاز القرآن ١. ٩٧ من قصيدة له في يوم حنين، وفي هزيمة هوزان يذكر قارب بن الأسود وفراره من بني أبيه. و؟؟ احنة: وهي الحقد.
(٦) البيت لزياد بن واصل، وهو من شواهد سيبويه: ١٠١/٢. وشرح المفصل: ٣/ ٣٧، والخزانة: ٤/ ٤٧٤. ويروى: فلما تبين أشباحنا، وهو من أبيات لزياد بن واصل من شعراء الجاهلية، افتخر فيها بآبائه وأمهات آبائه من بني عامر، وهو في هذا الجزء من القصيدة يصف عودتهم من إحدى المعارك ظافرين وأن نساء القبيلة حين رأينهم رحبن بهم وقلن لهم نفديكم بآبائنا،
(٧) صفوة التفاسير:٨٥/١.
(٨) تفسير ابن عثيمين:٧٩/٢.
(٩) المحرر الوجيز: ٢١٤/١.
(١٠) الكشاف: ١٩٤/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري: ٩٩/٣، و تفسير ابن كثير: ٤٤٧/١.

رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء : ٢٥]. والآيات في هذا كثيرة والأحاديث، فمنها قوله صلى الله عليه وسلم : "نحن مَعْشَرَ الأنبياء أولاد عَلات ديننا واحد"[(١)][(٢)].

الثاني: ويحتمل قوله : {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}، أن تكون بمعنى الحال[(٣)]، كأنهم قالوا : نعبد إلهك مسلمين له بطاعتنا وعبادتنا إياه.

الثالث: وقيل يحتمل أن يكون خبرا مستأنفا، فيكون بمعنى: نعبد إلهك بعدك، ونحن له الآن وفي كل حال مسلمون. وهذا اختيار ابن عطية[(٤)].

والأولى أن يفسر بمعنى: "نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، مسلمين لعبادته"[(٥)]. والله تعالى أعلم.

الفوائد:

١- أن التوحيد وصية الأنبياء؛ لقوله تعالى: {ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك}.

٢- ومنها: أن الموت حق حتى على الأنبياء؛ قال الله تعالى: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} [آل عمران: ١٤٤] .

٣- ومنها: جواز الوصية عند حضور الأجل؛ لقوله تعالى: {إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك}؛ وهذا كالوصية لهم؛ ولكنه يشترط أن يكون الموصي يعي ما يقول؛ فإن كان لا يعي ما يقول فإنه لا تصح وصيته.

٤- ومنها: رجحان القول الصحيح بأن الجدّ أب في الميراث؛ لقوله تعالى: {آبائك إبراهيم}.

٥- ومنها: أنه يجوز إطلاق اسم الأب على العم تغليباً؛ لقوله تعالى: {وإسماعيل}.

٦- ومنها: أن أبناء يعقوب كانوا على التوحيد، حيث قالوا: {نعبد إلهك وإله آبائك}؛ وهذا لا شك توحيد منهم.

٧- ومنها: أن النفوس مجبولة على اتباع الآباء؛ لكن إن كان على حق فهو حق؛ وإن كان على باطل فهو باطل؛ لقولهم: {وإله آبائك}؛ ولهذا الذين حضروا وفاة أبي طالب قالوا له: أترغب عن ملة عبد المطلب.

٨- ومنها: أهمية التوحيد، والعناية به؛ لقوله تعالى: {ما تعبدون من بعدي}.

٩- ومنها: أن العبادة والألوهية معناهما واحد؛ لكن العبادة باعتبار العابد؛ والألوهية باعتبار المعبود؛ ولهذا كان أهل العلم يسمون التوحيد توحيد العبادة؛ وبعضهم يقول: توحيد الألوهية.

١٠- ومنها: إخلاص الإسلام لله، حيث قال تعالى: {ونحن له مسلمون}؛ وجه الإخلاص: تقديم المعمول في {له}؛ لأنه متعلق بـ{مسلمون}؛ فهو معمول له؛ وقد عُلم أن تقديم المعمول يفيد الحصر.

١١- ومنها: إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: {إلهاً واحداً}.

١٢- ومنها: "أن شفقة الأنبياء عليهم السلام على أولادهم كانت في باب الدين وهمتهم مصروفة إليه دون غيره"[(٦)].

---

(١)صحيح البخاري برقم (٣٤٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأولاد العلات : هم الأخوة من الأب وأمهاتهم شتى.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٤٧/١.

(٣) انظر: المحرر الوجيز: ٢١٤/١.

(٤) انظر: المحرر الوجيز: ٢١٤/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٩٩/٣.

(٦) مفاتيح الغيب: ٦٩/٤.

القرآن
{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)} [البقرة : ١٣٤]

التفسير:

تلك أُمَّة من أسلافكم قد مضَتْ، لهم أعمالهم، ولكم أعمَالكم، ولا تُسْألون عن أعمالهم، وهم لا يُسْألون عن أعمالكم، وكلٌّ سيجازى بما فعله، لا يؤاخذ أحد بذنب أحد، ولا ينفعُ أحدًا إلا إيمانُه وتقواه.

قوله تعالى:{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ}[البقرة:١٣٤]، " أي تلك جماعة وجيل قد سلف ومضى"[١].

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قوله: "{تلك}، يعني" هذه"[٢].

قال أبو العالية[٣]، والربيع[٤]، وقتادة[٥]: "{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} يعني : إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط"[٦].

قال البيضاوي:" يعني إبراهيم ويعقوب وبينهما"[٧].

قال ابن عثيمين:" المشار إليه إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ومن سبق؛ وكان اليهود يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم في هؤلاء؛ فبين الله تعالى أن هذه أمة قد مضت"[٨].

قال ابن كثير:" ولهذا جاء ، في الأثر : "من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه"[٩][١٠].

قال الطبري: " وإنما قيل للذي قد مات فذهب : (قد خلا)، لتخليه من الدنيا وانفراده، عما كان من الأنس بأهله وقرنائه في دنياه، وأصله من قولهم : (خلا الرجل)، إذا صار بالمكان الذي لا أنيس له فيه ، وانفرد من الناس. فاستعمل ذلك في الذي يموت ، على ذلك الوجه"[١١].

قال البيضاوي:" و(الأمة) في الأصل: المقصود، وسمي بها الجماعة، لأن الفرق تؤمها"[١٢].

و(الأمة) هنا بمعنى طائفة؛ وتطلق في القرآن على عدة معانٍ[١٣]:

---

(١) صفوة التفاسير: ٨٦/١.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم(١٢٨٦):ص٢٤٠/١.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٨٧):ص٢٤١/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢١٤١):ص ١٢٨/٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢١٤٠):ص١٢٨/٣.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٨٧):ص٢٤١/١.
(٧) تفسير البيضاوي: ١٠٨/١.
(٨) تفسير ابن عثيمين:٨٠/٢.
(٩)رواه مسلم(٢٦٩٩) من حديث أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رفعه به ، في حديث أوله : "من نفَّس عن مؤمن كربة ، لكن بلفظ : من بطأ ، بدون ألف ، وكذا هو بهذا اللفظ عند العسكري من حديث أبي عوانة وعبد اللَّه بن سيف ، فرقهما ، كلاهما عن الأعمش ، ورواه القضاعي من حديث زائدة به بلفظ الترجمة ، وعن محمد بن النضر الحارثي قال : من فاته حسب نفسه يعني الدين لم ينفعه حسب أبيه".
(١٠)تفسير ابن كثير: ٤٤٨/١.
(١١) تفسير الطبري: ١٠٠/٣.
(١٢) تفسير البيضاوي: ١٠٨/١.
(١٣) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٤/٢.

المعنى الأول: "الطائفة والقرن من الناس"[1]، كما هنا.
المعنى الثاني: الحقبة من الزمن، مثل قوله تعالى: {وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة} [يوسف: ٤٥] يعني: بعد حقبة من الزمن.
المعنى الثالث: الإمام، مثل قوله تعالى: {إن إبراهيم كان أمة} [النحل: ١٢٠].
والمعنى الرابع: الطريق، والملة، مثل قوله تعالى: {إنا وجدنا آباءنا على أمة} [الزخرف: ٢٢] .
قوله تعالى:{لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ}[البقرة:١٣٤]،" أي لها ثواب ما كسبت ولكم ثواب ما كسبتم"[2].
قال سعيد:" يعني ما عملت من خير أو شر"[3].
قال الثعلبي: أي:" من الدين والعمل"[4].
قال ابن كثير:"أي : إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرًا يعود نفعهُ عليكم ، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم"[5].
قال البيضاوي:أي" لكل أجر عمله، والمعنى أن انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم، كما
قال عليه الصلاة والسلام: «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم»[6]"[7].
قال النسفي:" أي إن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أو متأخراً ، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم وذلك لافتخارهم بآبائهم"[8].
قوله تعالى: {وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[البقرة:١٣٤]، أي "لا تُسألون عن أعمال من سبقكم"[9].
قال النسفي: أي:" ولا تؤاخذون بسيئاتهم"[10].
قال ابن عثيمين:" لأن لهم ما كسبوا، ولكم ما كسبتم"[11].
قال القرطبي: "أي لا يؤاخذ أحد بذنب أحد، مثل قوله تعالى : {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام : ١٦٤] أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى"[12].
قال الثعلبي:" وإنّما تسألون عمّا تعملون أنتم"[13].

---

(١) تفسير الطبري: ١٠٠/٣.
(٢) صفوة التفاسير:٨٦/١.
(٣) اخرجه ابن أبي حاتم(١٢٨٨):ص٢٤١/١.
(٤) تفسير الثعلبي:٢٨٢/١.
(٥) تفسير ابن كثير: ٤٤٧/١-٤٤٨.
(٦)الحديث:" غريب جدا، قال ابن حجر في الكافي(ص:١٢):"لم أجده". وأخرج الطبراني حديثا بمعناه في معجمه الكببير:(٣٥٤):ص١٦١/١٨، وبمعناه أيضا ماذكره الحكيم الترمذي في نواد الأصول(٢٦٥)، وانظر: نصوص أخرى بنحوها ذكرها السيوطي في الدر المنثور:٩٦/٥.
(٧) تفسير البيضاوي: ١٠٨/١.
(٨) تفسير النسفي:٨٩/١.
(٩) تفسير ابن عثيمين:٨١/٢.
(١٠) تفسير النسفي:٨٩/١.
(١١) تفسير ابن عثيمين:٨١/٢.
(١٢) تفسير القرطبي: ١٣٩/٢.
(١٣) تفسير الثعلبي:٢٨٢/١.

قال البيضاوي:" أي لا تؤاخذون بسيئاتهم، كما لا تثابون بحسناتهم[١].

قال الصابوني:" أي لا تسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا بل كل نفسٍ تتحمل وحدها تبعة ما اكتسبت من سوء"[٢].

قال القاسمي:" أي فعليكم بترك الكلام في تلك الأمة. فلها ما كسبت. وانظروا فيما دعاكم إليه خاتم النبيين محمد صلّى الله عليه وسلّم فإن ذلك أنفع لكم وأعود عليكم. ولا تسألون إلا عن عملكم"[٣].

قال ابن عاشور: " والخطاب موجه إلى اليهود أي لا ينفعكم صلاح آبائكم إذا كنتم غير متبعين طريقتهم ، فقوله : {لَهَا مَا كَسَبَتْ} تمهيد لقوله : {وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ} إذ هو المقصود من الكلام ، والمراد بما كسبت وبما كسبتم ثواب الأعمال بدليل التعبير فيه بلها ولكم ، ولك أن تجعل الكلام من نوع الاحتباك والتقرير لها ما كسبت وعليكم ما كسبتم أي إثمه، ومن هذه الآية ونظائرها انتزع الأشعري التعبير عن فعل العبد بالكسب"[٤].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: بطلان التقليد، لأن قوله: {لها ما كسبت} يدل على أن كسب كل أحد يختص به ولا ينتفع به غيره، ولو كان التقليد جائزا لكان كسب المتبوع نافعا للتابع، فكأنه قال: إني ما ذكرت حكاية أحوالهم طلبا منكم أن تقلدوهم، ولكن لتنبهوا على ما يلزمكم فتستدلوا وتعلموا أن ما كانوا عليه من الملة هو الحق.

٢- الآية دالة على ترغيبهم في الإيمان، واتباع محمد عليه الصلاة والسلام، وتحذيرهم من مخالفته.

٣- الآية دالة على أن الأبناء لا يثابون على طاعة الآباء بخلاف قول اليهود من أن صلاح آبائهم ينفعهم، وتحقيقه ما روي عنه عليه السلام أنه قال: "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ ، لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا"[٥].

وقال الله تعالى: {فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: {ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به} [النساء: ١٢٣] وكذلك قوله تعالى: {ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى} (الأنعام: ١٦٤) وقال: {فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم} (النور: ٥٤)[٦].

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٠٨/١.
(٢) صفوة التفاسير: ٨٦/١.
(٣) محاسن التأويل: ٤١٢/١.
(٤) تفسير ابن عاشور: ٧٣٥/١.
(٥)رواه البخاري (٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٦).
(٦)يقول الشيخ ابن باز رحمه الله ": المعيار الحقيقي هو اتباع ما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة قولا وعملا واعتقادا ، أما الأنساب فإنها لا تنفع ولا تجدي ، كما قال صلى الله عليه وسلم: (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه) – رواه مسلم - وقال : (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا)، وهكذا قال لعمه العباس وعمته صفية وابنته فاطمة ، ولو كان النسب ينفع أحدا لنفع هؤلاء " انتهى. مجموع فتاوى ابن باز (٩٨/٣).
وقد يسأل السائل: هل أن صلاح الآباء يثاب عليه الأبناء؟ فنقول: بأن العمل الصالح قد يثاب عليه المؤمن أيضا في أبنائه وذريته، قال ابن رجب :وقد يحفظ الله العبد بصلاحه في ولده وولد ولده، كما قيل في قوله تعالى:

٤- الآية تدل على بطلان قول من يقول: الأبناء يعذبون بكفر آبائهم، وكان اليهود يقولون: إنهم يعذبون في النار لكفر آبائهم باتخاذ العجل، وهو قوله تعالى: {وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة} [البقرة: ٨٠]، وهي أيام عبادة العجل فبين الله تعالى بطلان ذلك.

{وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [الكهف: ٨٢]: إنهما حفظا بصلاح أبيهما، وقال محمد بن المنكدر: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وقريته التي هو فيها، والدويرات التي حولها، فما يزالون في حفظ من الله وستره، وقال ابن المسيب لابنه: يا بني لأزيدن في صلاتي من أجلك، رجاء أن أحفظ فيك، وتلا هذه الآية: {وكان أبوهما صالحا} [الكهف: ٨٢]، وقال عمر بن عبد العزيز: ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه.

ومتى كان العبد مشتغلاً بطاعة الله فإن الله عز وجل يحفظه في تلك الحال، كما في مسند الإمام أحمد :٦٧/٥|)

قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٧٧): ورجاله رجال الصحيح): عن حميد بن هلال عن رجل قال: "أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو يريني بيتًا فقال: إِنَّ امْرَأَةً كَانَتْ فِيهِ فَخَرَجَتْ فِي سَرِيَّةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَرَكَتْ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ عَنْزًا وَصِيصِيَتَهَا [الصِّيصِيَّة: هي الصِّنارة التي يغزل بها وينسج]، كَانَتْ تَنْسِجُ بِهَا قَالَ: فَفَقَدَتْ عَنْزًا، مِنْ غَنَمِهَا وَصِيصِيَتَهَا فَقَالَتْ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ قَدْ ضَمِنْتَ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِكَ أَنْ تَحْفَظَ عَلَيْهِ، وَإِنِّي قَدْ فَقَدْتُ عَنْزًا مِنْ غَنَمِي وَصِيصِيَتِي، وَإِنِّي أَنْشُدُكَ عَنْزِي وَصِيصِيَتِي. قَالَ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ شِدَّةَ مُنَاشَدَتِهَا رَبَّهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَصْبَحَتْ عَنْزُهَا وَمِثْلُهَا وَصِيصِيَتُهَا وَمِثْلُهَا، وَهَاتِيكَ [فَأْتِهَا]. قَالَ: قُلْتُ: بَلْ أُصَدِّقُكَ."

وكتبت عائشة إلى معاوية: "إن اتقيت الله كفاك الناس، وإن اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئًا". [أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: (٧/ ٢٤٤) برقم (٣٥٧١٧)، والبيهقي في "الزهد الكبير": (٨٨٥)].

(مجموع رسائل ابن رجب: ١٠٠/٣-١٠٣).

وقال ابن القيم في حشيته على ابي داود (٥٥/٦): وفيه بقاء عار الآباء في الأعقاب لقوله بنت عدو الله فدل على أن لهذا الوصف تأثيرا في المنع وإلا لم يذكره مع كونها مسلمة وعليه بقاء أثر صلاح الآباء في الأعقاب لقوله تعالى وكان أبوهما صالحا.

وقال شيخ الاسلام في (اسباب رفع العقوبة: ص ٤٧): "سابعها : قال الله - تعالى - فى قصة الغلامين اليتمين : (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) فانتفعا بصلاح أبيهما ، وليس من سعيهما .

وقد تطرق أهل التفسير إلى هذا الموضوع من خلال تفسيرهم لقوله تعالى {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} [الكهف : ٨٢] وفيما يأتي ملخص آرائهم:

قال ابن كثير: "وقوله: (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت السنة به، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاح، وتقدم أنه كان الأب السابع. [فالله أعلم].(تفسير ابن كثير: ١٨٥/٦).

وقال البغوي رحمه الله: (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) قيل: كان اسمه "كاسح" وكان من الأتقياء. قال ابن عباس: حفظا بصلاح أبويهما، وقيل: كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء، قال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده [وولد ولده]، وعترته وعشيرته وأهل دويرات حوله فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم. قال سعيد بن المسيب: إني لأصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي.(تفسير البغوي: ١٩٦/٥).

وقال الطبري رحمه الله: وقوله:(وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا) يقول: فأراد ربك أن يدركا ويبلغا قوتهما وشدّتهما، ويستخرجا حينئذ كنزهما المكنوز تحت الجدار الذي أقمته رحمة من ربك بهما، يقول: فعلت فعل هذا بالجدار، رحمة من ربك لليتيمين. وكان ابن عباس يقول في ذلك ما حدثني موسى بن عبد الرحمن، قال: ثنا أبو أسامة، عن مسعر، عن عبد الملك بن ميسره، عن سعيد بن جبير، قال: قال ابن عباس، في قوله(وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) قال: حفظا بصلاح أبيهما، وما ذكر منهما صلاح.(تفسير الطبري: ٩٠/١٨).

وقال الرازي: في تفسير قوله تعالى(وكان أبوهما صالحا): " يدل على أن صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الأبناء وعن جعفر بن محمد كان بين الغلامين وبين الأب الصالح سبعة آباء وعن الحسن بن علي أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما : بم حفظ الله مال الغلامين ؟ قال : بصلاح أبيهما ، قال : فأبي وجدي خير منه ؟ قال : قد أنبأنا الله أنكم قوم خصمون" . (مفاتيح الغيب: ١٦٢/٢١).

٥- الآية دالة على أن العبد مكتسب وقد اختلف أهل السنة والمعتزلة في تفسير الكسب، أما أهل السنة فقد اتفقوا على أنه ليس معنى كون العبد مكتسبا دخول شيء من الأعراض بقدرته من العدم إلى الوجود(١).

---

(١)بعد اتفاقهم على هذا الأصل ذكروا لهذا الكسب ثلاث تفسيرات:

أحدها: وهو قول الأشعري رضي الله عنه أن القدرة صفة متعلقة بالمقدور من غير تأثير القدرة في المقدور، بل القدرة والمقدور حصلا بخلق الله تعالى، كما أن العلم والمعلوم حصلا بخلق الله تعالى، لكن الشيء الذي حصل بخلق الله تعالى وهو متعلق القدرة الحادثة هو الكسب.

وثانيها: أن ذات الفعل توجد بقدرة الله تعالى، ثم يحصل لذلك الفعل وصف كونه طاعة أو معصية وهذه الصفة حاصلة بالقدرة الحادثة. وهو قول أبي بكر الباقلاني.

وثالثها: أن القدرة الحادثة والقدرة القديمة، إذا تعلقتا بمقدور واحد وقع المقدور بهما، وكأنه فعل العبد وقع بإعانة الله، فهذا هو الكسب وهذا يعزى إلى أبي إسحاق الأسفراييني لأنه يروى عنه أنه قال الكسب والفعل الواقع بالمعين.

أما القائلون بأن القدرة الحادثة مؤثرة، فهم فريقان:

الأول: الذين يقولون بأن القدرة مع الداعي توجب الفعل، فالله تعالى هو الخالق للكل بمعنى أنه سبحانه وتعالى هو الذي وضع الأسباب المؤدية إلى دخول هذه الأفعال في الوجود والعبد هو المكتسب بمعنى أن المؤثر في وقوع فعله هو القدرة، والداعية القائمتان به، وهذا مذهب إمام الحرمين رحمه الله تعالى اختاره في الكتاب الذي سماه بالنظامية ويقرب قول أبي الحسين البصري منه وإن كان لا يصرح به.

الفريق الثاني من المعتزلة: وهم الذين يقولون: القدرة مع الداعي لا توجب الفعل، بل العبد قادر على الفعل والترك متمكن منهما، إن شاء فعل وإن شاء ترك، وهذا الفعل والكسب، قالت المعتزلة للأشعري: إذا كان مقدور العبد واقعا بخلق الله تعالى، فإذا خلقه فيه: استحال من العبد أن لا يتصف في ذلك الوقت بذلك الفعل، وإذا لم يخلقه فيه: استحال منه في ذلك الوقت أن يتصف به. وإذا كان كذلك لم يكن ألبتة متمكنا من الفعل والترك، ولا معنى للقادر إلا ذلك، فالعبد ألبتة غير قادر، وأيضا فهذا الذي هو مكتسب العبد إما أن يكون واقعا بقدرة الله، أو لم يقع ألبتة بقدرة الله، أو وقع بالقدرتين معا، فإن وقع بقدرة الله تعالى لم يكن العبد فيه مؤثرا فكيف يكون مكتسبا له؟ وإن وقع بقدرة العبد فهذا هو المطلوب.

وإن وقع بالقدرتين معا فهذا محال، لأن قدرة الله تعالى مستقلة بالإيقاع، فعند تعلق قدرة الله تعالى به، فكيف يبقى لقدرة العبد فيه أثر، وأما قول الباقلاني فضعيف، لأن المحرم من الجلوس في الدار المغصوبة ليس إلا شغل تلك الأحياز، فهذا الشغل إن حصل بفعل الله تعالى فنفس المنهي عنه قد خلقه الله تعالى فيه، وهذا هو عين تكليف ما لا يطاق، وإن حصل بقدرة العبد فهو المطلوب، وأما قول الأسفراييني فضعيف لما بينا أن قدرة الله تعالى مستقلة بالتأثير، فلا يبقى لقدرة العبد معها أثر ألبتة، قال أهل السنة: كون العبد مستقلا بالإيجاد والخلق محال لوجوه:

أولها: أن العبد لو كان موجدا لأفعاله، لكان عالما بتفاصيل فعله، وهو غير عالم بتلك التفاصيل، فهو غير موجد لها.

وثانيها: لو كان العبد موجدا لفعل نفسه؛ لما وقع إلا ما أراده العبد، وليس كذلك، لأن الكافر يقصد تحصيل العلم فلا يحصل إلا الجهل.

وثانيها: لو كان العبد موجدا لفعل نفسه لكان كونه موجدا لذلك الفعل زائدا على ذات ذلك الفعل، وذات القدرة لأنه يمكننا أن نعقل ذات الفعل وذات القدرة مع الذهول عن كون العبد موجدا له، والمعقول غير المغفول عنه، ثم تلك الموجدية حادثة، فإن كان حدوثها بالعبد لزم افتقارها إلى موجدية أخرى، ولزم التسلسل وهو محال، وإن كان الله تعالى والأثر واجب الحصول عند حصول الموجدية فيلزم استناد الفعل إلى الله تعالى، ولا يلزمنا ذلك في موجدية الله تعالى لأنه قديم، فكانت موجديته قديمة، فلا يلزم افتقار تلك الموجودية إلى موجودية أخرى.(مفاتيح الغيب: ٤/٧٢-٧٣).

٦-ومن فوائد الآية: أن الاعتماد على أعمال الآباء لا يجدي شيئاً؛ لقوله تعالى: { تلك أمة قد خلت... } الآية؛ يعني هم مضوا، وأسلموا لله؛ وأنتم أيها اليهود الموجودون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عليكم أن تنظروا ماذا كسبتم لأنفسكم.

٧- ومنها: الإشارة إلى أنه ينبغي لنا أن نسكت عما جرى بين الصحابة؛ لأنا نقول كما قال الله لهؤلاء: { تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم } فنحن معنيون الآن بأنفسنا؛ ويُذكر عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - أنه سئل عما جرى بين الصحابة، فقال لهم: «هذه دماء طهر الله سيوفنا منها؛ فنحن نطهر ألسنتنا منها» ؛ هذه كلمة عظيمة؛ فعلى هذا النزاع فيما جرى بين معاوية، وعلي بن أبي طالب، وعائشة، وما أشبه ذلك لا محل له؛ لكن الذي يجب أن نعتني به حاضر الأمة؛ هذا الذي يجب أن يبين فيه الحق، ويبطل فيه الباطل؛ ونقول: {ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم} [الحشر: ١٠] .

٨- ومن فوائد الآية: أن الإنسان وعمله؛ لقوله تعالى: { لها ما كسبت ولكم ما كسبتم }؛ فلا أحد يعطى من عمل أحد، ولا يؤخذ منه؛ قال تعالى: {كل نفس بما كسبت رهينة} [المدثر: ٣٨].

٩- ومنها: أن الآخِر لا يُسأل عن عمل الأول؛ ولكن الأول قد يُسأل عن عمل الآخر، كما قال تعالى: {وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار} [القصص: ٤١] ؛ فقد يكون الأول صاحب بدعة، ويُتَّبَع على بدعته؛ فيكون دالاً على ضلالة؛ فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ لكن الآخر لا يسأل عن عمل الأول؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»[١] ؛ وفي لفظ: «فتؤذوا الأحياء»[٢].

٩- ومن فوائد الآية: إثبات عدل الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يؤاخذ أحداً بما لم يعمله؛ لقوله تعالى: { ولا تسألون عما كانوا يعملون }.

١٠- ومنها: إثبات السؤال، وأن الإنسان سيُسأل؛ لقوله تعالى: { ولا تسألون عما كانوا يعملون }؛ منطوق الآية: نفي السؤال عن عمل الغير؛ ومفهومها: ثبوت السؤال عن عمل العامل، وأنه مسؤول عن العمل.

القرآن

{وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)} [البقرة : ١٣٥]

التفسير:

وقالت اليهود لأمَّة محمد صلى الله عليه وسلم: ادخلوا في دين اليهودية تجدوا الهداية، وقالت النصارى لهم مثل ذلك. قل لهم -أيها الرسول-: بل الهداية أن نتبع- جميعًا- ملة إبراهيم، الذي مال عن كل دين باطل إلى دين الحق، وما كان من المشركين بالله تعالى.

في سبب نزول الآية وجهان:

أحدهما: أخرج الطبري عن ابن عباس قال : "قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الهدى إلا ما نحن عليه! فاتبعنا يا محمد تهتد! وقالت النصارى مثل ذلك.

---

(٢) أخرجه البخاري ص٢١٤، كتاب الصلح، باب ٦: كيف يكتب: هذا ما صالح فلان بن فلان...، حديث رقم ٢٦٩٩.

(١) أخرجه البخاري ص١٠٩، كتاب الجنائز، باب ٩٧: ما ينهى من سب الأموات، حديث رقم ١٣٩٣.

فأنزل الله عز وجل فيهم : " وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين "(1).

وذكره الثعلبي(2)، والواحدي مطولا(3).

الثاني: قال مقاتل بن سليمان:" أن رءوس اليهود كعب ابن الأشرف، وكعب بن أسيد، وأبا ياسر بن أخطب، ومالك بن الضيف، وعازارا، وإشماويل، وخميشا، ونصارى نجران السيد والعاقب، ومن معهما قالوا للمؤمنين: كونوا على ديننا فإنه ليس دين إلا ديننا فكذبهم الله- تعالى- فقال: قل بل الدين ملة إبراهيم يعني الإسلام"(4).

قال الإمام الطبري : "احتج الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أبلغ حجة وأوجزها وأكملها ، وعلمها محمدا نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، قل - للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك : " كونوا هودا أو نصارى تهتدوا " - : بل تعالوا نتبع ملة إبراهيم التي يجمع جميعنا على الشهادة لها بأنها دين الله الذي ارتضاه واجتباه وأمر به - فإن دينه كان الحنيفية المسلمة - وندع سائر الملل التي نختلف فيها ، فينكرها بعضنا ، ويقر بها بعضنا. فإن ذلك - على اختلافه - لا سبيل لنا على الاجتماع عليه ، كما لنا السبيل إلى الاجتماع على ملة إبراهيم"(5).

قوله تعالى:{وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا}[البقرة:135]، أي: " وقالت اليهود لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المؤمنين : كونوا هودا تهتدوا ؛ وقالت النصارى لهم : كونوا نصارى تهتدوا"(6).

قال ابن أبي زمنين:" قالت اليهود : كونوا يهوداً تهتدوا، وقالت النصارى : كونوا نصارى تهتدوا"(7).

قال ابن عطية:هذا" نظير قولهم:{لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى}[البقرة: 111]"(8).

وقوله {تَهْتَدُوا}،أي: "تصيبوا طريق الحق"(9).

قوله تعالى:{قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}[البقرة:135]، أي:" قل يا محمد، بل نتبع ملة إبراهيم مستقيما"(10).

قال الثعلبي:" أي: بل نتبع ملّة إِبْراهِيمَ"(11).

قال البيضاوي:" أي: بل نكون ملة إبراهيم"(12).

قال الزجاج:أي:" بل نتبع ملة إبراهيم في حال حنيفَتِه"(1).

---

(1) تفسير الطبري(2090): 3/101-102، وانظر: أسباب النزول للواحدي: 41.
(2) انظر: تفسير الثعلبي:1/282.
(3) انظر: أسباب النول: 41.
(4) تفسير مقاتل بن سليمان: 1/141، وانظر: العجاب: 1/381.
(5) تفسير الطبري: 3/102.
(6) تفسير الطبري: 3/101.
(7) تفسير ابن أبي زمنين:1/180-181.
(8) المحرر الوجيز: 1/214.
(9) تفسير الطبري: 3/101.
(10) تفسير الطبري: 3/104.
(11) تفسير الثعلبي:1/282.
(12) تفسير البيضاوي: 1/108.

قال ابن أبي زمنين: " أي : قل يا محمد، بل نكون على ملة إبراهيم"(٢).
قال أبو السعود:" أي لا نكون كما تقولون بل نكون أهلَ ملتِه عليه السلام "(٣).
قال الصابوني:"أي قل لهم يا محمد بل نتّبع ملة الحنيفية السمحة وهي ملة إبراهيم حال كونه مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم"(٤).
وفي انتصاب قوله:{ملة}[البقرة:١٣٥]، أربعة أقوال(٥):
الأول: لأنه عطف في المعنى على قوله: {كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى}، وتقديره قالوا: اتبعوا اليهودية قل بل اتبعوا ملة إبراهيم.
الثاني: على حذف فعل مضمر، تقديره: بل نتبع ملة إبراهيم.
الثالث: أن يكون أريد: بل نكون أصحاب ملة إبراهيم، أو أهل ملة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، كقوله: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا} [يوسف : ٨٢] أي أهلها، ومن ذلك قول الشاعر(٦):

حسبت بغام راحلتي عناقا!... وما هي ، ويب غيرك ، بالعناق

يعني : صوت عناق.
فتكون الـ{ملة}، حينئذ منصوبة، عطفا في الإعراب على {اليهود والنصارى}.
الرابع: وقد يجوز النصب على الإغراء(٧)، والتقدير: بل اتبعوا ملة إبراهيم.
وقرأ الأعرج: {ملةُ إبراهيم}، بالرفع أي ملته ملتنا، أو ديننا ملة إبراهيم، وبالجملة فأنت بالخيار في أن تجعله مبتدأ أو خبرا(٨).
وقوله تعالى:{حَنِيفًا}[البقرة:١٣٥]، لأهل اللغة فيه قولان (٩):
الأول: أن الحنيف هو المستقيم.
قال الطبري: "(الحنيف)، فإنه المستقيم من كل شيء"(١٠).

---

(١) معاني القرآن: ٢١٣/١.
(٢) تفسير ابن أبي زمنين: ١٨١/١.
(٣) تفسير أبي السعود: ١٦٦/١.
(٤) صفوة التفاسير:٨٧/١.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب: ٧٤/٤-٧٥، وتفسير الطبري: ١٠٢/٣-١٠٣.
(٦) البيت لذي الخرق الطهوي، انظر: نوادر أبي زيد : ١١٦ ، ومعاني القرآن للفراء ١ : ٦١ - ٦٢ ، واللسان (ويب) (عنق) (عقا) (بغم) وغيرها . وهو من أبيات يقولها لذئب تبعه في طريقه ، وهي أبيات ساخرة جياد :

ألم تعجب لذئب بات يسري ... ليؤذن صاحبا له باللحاق
حسبت بغام راحلتي عناقا! ... وما هي ، ويب غيرك ، بالعناق
ولو أني دعوتك من قريب ... لعاقك عن دعاء الذئب عاق
ولكني رميتك من بعيد ... فلم أفعل ، وقد أوهت بساقي
عليك الشاء ، شاء بني تميم ، ... فعافقه ، فإنك ذو عفاق

وقوله (عناق) في البيت : هي أنثى المعز ، وقوله : " ويب " أي ويل . والبغام : صوت الظبية أو الناقة ، واستعاره هنا للمعز . وقوله في البيت الثالث " عاق " ، أي عائق ، فقلب ، والعفاق : السرعة في الذهاب بالشيء . عافقه : عالجه وخادعه ثم ذهب به خطفة واحدة .
وانظر الاختلاف في اسمه ، ومن سمي باسمه في المؤتلف والمختلف : ١١٩ ، والخزانة ١ : ٢٠ ، ٢١ .
(٧)انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة : ٥٧.
(٨) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨٢/١، ومفاتيح الغيب: ٧١/٤.
(٩)انظر: مفاتيح الغيب: ٧١/٤.
(١٠) تفسير الطبري: ١٠٤/٣.

ومنه قيل للأعرج: أحنف، تفاؤلا بالسلامة، كما قالوا للديغ: سليم، والمهلكة: مفازة، قالوا: فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه في شيء فهو حنيف[1].

الثاني: أن الحنيف المائل، لأن الأحنف هو الذي يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها، وتحنف إذا مال.

واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى:{حَنِيفًا}[البقرة:١٣٥]، على أقوال[2]:

أحدها: أن الحنيفية حج البيت، والحنيف هو الحاج. وهذا قول ابن عباس[3]، والحسن[4]، ومجاهد[5]، وعطية[6]، وكثير بن زياد[7]، وعبدالله بن قاسم[8]، والضحاك[9]، والسدي[10].

وقالوا: "إنما سمي دين إبراهيم الإسلام (الحنيفية)، لأنه أول إمام لزم العباد - الذين كانوا في عصره ، والذين جاءوا بعده إلى يوم القيامة - اتباعه في مناسك الحج ، والائتمام به فيه. قالوا : فكل من حج البيت فنسك مناسك إبراهيم على ملته ، فهو (حنيف)، مسلم على دين إبراهيم"[11].

الثاني: أنها اتباع الحق، قاله مجاهد[12]، والربيع بن أنس[13].

الثالث: اتباع إبراهيم في شرائعه التي هي شرائع الإسلام.

فقالوا: "إنما سمي دين إبراهيم (الحنيفية)، لأنه أول إمام سن للعباد الختان ، فاتبعه من بعده عليه. قالوا : فكل من اختتن على سبيل اختتان إبراهيم ، فهو على ما كان عليه إبراهيم من الإسلام ، فهو " حنيف " على ملة إبراهيم"[14].

الرابع: أنها: (الإخلاص): وقوله {بل ملة إبراهيم حنيفا}، معناه: (بل ملة إبراهيم مخلصا)، فـ(الحنيف)" على قولهم : المخلص دينه لله وحده[15]، قاله السدي[16]، ومقاتل بن سليمان[17]، وخصيف[18].

الخامس: وقيل: (الحنيفية) الإسلام. فكل من ائتم بإبراهيم في ملته فاستقام عليها ، فهو (حنيف).

قال القفال: "وبالجملة فالحنيف لقب لمن دان بالإسلام كسائر ألقاب الديانات، وأصله من إبراهيم عليه السلام"[1].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠٤/٣.
(٢)انظر: مفاتيح الغيب: ٧١/٤.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٧):ص١٠٦/٣، وابن أبي حاتم(١٢٩١):ص٢٤١/١، و(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢، وتفسير الطبري(٢٠٩١):ص١٠٤/٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٤):ص١٠٦/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٢)، و(٢٠٩٣):ص١٠٤/٣-١٠٥.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٥):ص١٠٦/٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٨):ص١٠٦/٣.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩١):ص٢٤١/١، و(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢.
(١٠)انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩١):ص٢٤١/١، و(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢.
(١١) تفسير الطبري: ١٠٤/٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٩):ص١٠٦/٣، وابن أبي حاتم(١٢٩٢):ص٢٤١/١.
(١٣)انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩٢):ص٢٤١/١.
(١٤) تفسير الطبري: ١٠٦/٣.
(١٥) انظر: تفسير الطبري: ١٠٦/٣.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٢١٠٠):ص١٠٧/٣.
(١٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤١/١.
(١٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٥):ص٢٤٢/١.

السادس: أن الحنيف: المستقيم. قاله محمد بن كعب[٢]، وروي عن عيسى بن جارية[٣] مثله.
السابع: أن الحنيف: الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم. قاله أبو قلابة[٤].
الثامن: أن الحنيف: الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلا. قاله أبو العالية[٥].

التاسع: أن الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات، والعمات، وما حرم الله عز وجل، والختان. وكانت حنيفة في الشرك: كانوا أهل الشرك، وكانوا يحرمون في شركهم الأمهات والبنات والخالات والعمات، وكانوا يحجون البيت، وينسكون المناسك. قاله قتادة[٦].

والصواب: أن (الحنيفية) هو الإستقامة على دين إبراهيم واتباعه على ملته، قال الإمام الطبري: " وذلك أن الحنيفية لو كانت حج البيت ، لوجب أن يكون الذين كانوا يحجونه في الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاء. وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفا بقوله : {ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين} [سورة آل عمران : ٦٧]، فكذلك القول في الختان. لأن " الحنيفية " لو كانت هي الختان ، لوجب أن يكون اليهود حُنفاء. وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله : {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا} [سورة آل عمران : ٦٧].

فقد صحّ إذًا أن " الحنيفية " ليست الختانَ وحدَه ، ولا حجَّ البيت وحده ، ولكنه هو ما وصفنا : من الاستقامة على ملة إبراهيم ، واتباعه عليها ، والائتمام به فيها. فإن قال قائل : أوَ ما كان مَنْ كان من قبل إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، من الأنبياء وأتباعهم ، مستقيمين على ما أمروا به من طاعة الله استقامة إبراهيم وأتباعه ؟

قيل : بَلى. فإن قال : فكيف أضيف " الحنيفية " إلى إبراهيم وأتباعه على ملته خاصة ، دون سائر الأنبياء قبله وأتباعهم ؟ قيل : إنّ كل من كان قبل إبراهيم من الأنبياء كان حنيفًا متّبعًا طاعة الله ، ولكن الله تعالى ذكره لم يجعل أحدًا منهم إمامًا لمن بعده من عباده إلى قيام الساعة ، كالذي فعل من ذلك بإبراهيم ، فجعله إمامًا فيما بيّنه من مناسك الحج والختان ، وغير ذلك من شرائع الإسلام ، تعبُّدًا به أبدًا إلى قيام الساعة. وجعل ما سنّ من ذلك عَلَمًا مميّزًا بين مؤمني عباده وكفارهم ، والمطيع منهم له والعاصي. فسمِّي الحنيفُ من الناس " حنيفًا " باتباعه ملته ، واستقامته على هديه ومنهاجه ، وسُمِّي الضالُّ من ملته بسائر أسماء الملل ، فقيل : " يهودي ، ونصرانيّ ، ومجوسيّ " ، وغير ذلك من صنوف الملل"[٧].

وفي انتصاب قوله:{حَنِيفًا}[البقرة:١٣٥]، وجهان[٨]:

أحدهما: أنه نصب على الحال من إبراهيم. قاله الزجاج[٩].

---

(١) مفاتيح الغيب: ٧١/٤.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٣):ص٢٤٢/١.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٢/١.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٤):ص٢٤٢/١.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٦):ص٢٤٢/١.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٧):ص٢٤٢/١.
(٧) تفسير الطبري: ١٠٧/٣-١٠٨.
(٨) انظر: مفاتيح الغيب: ٧٥/٤.
(٩) انظر: معاني القرآن: ٢١٣/١.

الثاني: أنه نصب على القطع، أراد :بل ملة إبراهيم الحنيف، فلما سقطت الألف واللام لم تتبع النكرة المعرفة فانقطع منه فانتصب، قاله نحاة الكوفة.

قال الزجاج:" ويجوز الرفع {بل ملةُ إبراهيم حنيفاً}، والأجود والأكثر: النصب، ومجاز الرفع على معنى: قل ملتُنا وديننُا ملة إبراهيم"[1].

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[البقرة:١٣٥]، أي:" وما كان إبراهيم من المشركين"[2].

قال مقاتل:" يعني: من اليهود والنصارى"[3].

قال الطبري: أي :" إنه لم يكن ممن يدين بعبادة الأوثان والأصنام، ولا كان من اليهود ولا من النصارى ، بل كان حنيفًا مسلمًا"[4].

قال البيضاوي:" تعريض بأهل الكتاب وغيرهم، فإنهم يدعون اتباعه وهم مشركون"[5].

قال ابن عطية:" ونفى عنه الإشراك، فانتفت عبادة الأوثان واليهودية لقولهم: عزير ابن الله، والنصرانية لقولهم: المسيح ابن الله"[6].

قال الرازي: قوله تعالى:{وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[البقرة:١٣٥]، "تنبيه على أن في مذهب اليهود والنصارى شركاء، لأنه تعالى حكى عن بعض اليهود قولهم: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله وذلك شرك"[7].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن أهل الباطل يدْعون إلى ضلالهم، ويدَّعون فيه الخير؛ {كونوا هوداً أو نصارى هذه دعوة إلى ضلال؛ {تهتدوا}: ادعاء أن ذلك خير؛ وهكذا أيضاً قد ورث هؤلاء اليهود من ضل من هذه الأمة، كأهل البدع في العقيدة، والقدر، والإيمان - الذين ادعوا أنهم على حق، وأن من سلك طريقهم فقد اهتدى؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لتركبن سَنن من كان قبلكم»[1] .

٢- ومن فوائد الآية: أن كل داع إلى ضلال ففيه شبه من اليهود، والنصارى؛ دعاة السفور الآن يقولون: اتركوا المرأة تتحرر؛ اتركوها تبتهج في الحياة؛ لا تقيدوها بالغطاءِ، وتركِ التبرج، ونحو ذلك؛ أعطوها الحرية؛ وهكذا كل داع إلى ضلالة سوف يطلي هذه الضلالة بما يغر البليد فهو شبيه باليهود، والنصارى.

٣- ومنها: مقابلة الباطل بالحق؛ لقوله تعالى: {بل ملة إبراهيم حنيفاً}؛ إذ لابد للإنسان من أن يسير على طريق؛ لكن هل هو حق، أو باطل؟! بين الله أن كل ما خالف الحق فهو باطل في قوله تعالى: {بل ملة إبراهيم حنيفاً}.

---

(١) معاني القرآن: ٢١٣/١.
(٢) صفوة التفاسير:٨٧/١.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤١/١.
(٤) تفسير الطبري: ١٠٨/٣.
(٥) تفسير البيضاوي: ١٠٨/١.
(٦) المحرر الوجيز: ٢١٥/١.
(٧)انظر: مفاتيح الغيب: ٧٥/٤.
(١) أخرجه أحمد ٢١٨/٥، حديث رقم ٢٢٢٤٢؛ وأخرجه الترمذي ص١٨٧١، كتاب الفتن، باب ١٨: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، حديث رقم ٢١٨٠؛ وأخرجه ابن حبان في صحيحه ٢٤٨/٨، باب: ذكر الأخبار عن اتباع هذه الأمة سنن من قبلهم من الأمم، حديث رقم ٦٦٦٧، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ٢٣٥/٢، حديث رقم ١٧٧١.

٤- ومنها: الثناء على إبراهيم عليه السلام من وجوه ثلاثة:
أولاً: إمامته؛ ووجهها: أننا أمرنا باتباعه؛ والمتبوع هو الإمام.
ثانياً: أنه حنيف؛ والحنيف هو المائل عن كل دين سوى الإسلام.
ثالثاً: أنه ليس فيه شرك في عمله -صلى الله عليه وسلم-؛ لقوله تعالى: {وما كان من المشركين}.
٥- ومن فوائد الآية: أن الشرك ممتنع في حق الأنبياء؛ لقوله تعالى: {وما كان من المشركين}.
٦- ومنها: أن ملة إبراهيم (عليه السلام) أفضل الملل؛ وهي التوحيد، والحنيفية السمحة؛ لقوله تعالى: {بل ملة إبراهيم حنيفاً}.
٧- ومنها: أن اليهودية والنصرانية نوع من الشرك؛ لأن قوله تعالى: {وما كان من المشركين} في مقابل دعوتهم إلى اليهودية والنصرانية يدل على أنهما نوع من الشرك؛ كل من كفر بالله ففيه نوع من الشرك؛ لكن إن اتخذ إلهاً فهو شرك حقيقة، وواقعاً؛ وإلا فإنه شرك باعتبار اتباع الهوى.
٨- قد ذكر الرازي- من خلال تفسيره للآية -أنواعا من شبه المخالفين الطاعنين في الإسلام منها: حكى عنهم أنهم قالوا: {كونوا هودا أو نصارى تهتدوا} ولم يذكروا في تقرير ذلك شبهة، بل أصروا على التقليد، فأجابهم الله تعالى عن هذه الشبهة: بأنه ذكر جوابا إلزاميا وهو قوله: {قل بل ملة إبراهيم حنيفا} وتقرير هذا الجواب أنه إن كان طريق الدين التقليد فالأولى في ذلك اتباع ملة إبراهيم، لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم والأخذ بالمتفق أولى من الأخذ بالمختلف إن كان المعول في الدين على التقليد، فكأنه سبحانه قال: إن كان المعول في الدين على الاستدلال والنظر، فقد قدمنا الدلائل، وإن كان المعول على التقليد فالرجوع إلى دين إبراهيم عليه السلام وترك اليهودية والنصرانية أولى.
فإن قيل: أليس أن كل واحد من اليهود والنصارى يدعي أنه على دين إبراهيم عليه السلام.
قلنا: لما ثبت أن إبراهيم كان قائلا بالتوحيد، وثبت أن النصارى يقولون بالتثليث، واليهود يقولون بالتشبيه، فثبت أنهم ليسوا على دين إبراهيم عليه السلام، وأن محمدا عليه السلام لما دعا إلى التوحيد، كان هو على دين إبراهيم(١).

القرآن
{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)} [البقرة : ١٣٦]
التفسير:
قولوا -أيها المؤمنون- لهؤلاء اليهود والنَّصارى: صدَّقنا بالله الواحد المعبود بحق، وبما أنزل إلينا من القرآن الذي أوحاه الله إلى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وما أنزل من الصحف إلى إبراهيم وابنيه إسماعيل وإسحاق، وإلى يعقوب والأسباط -وهم الأنبياء مِن ولد يعقوب الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة- وما أُعطي موسى من التوراة، وعيسى من الإنجيل، وما أُعطي الأنبياء جميعًا من وحي ربهم، لا نفرق بين أحد منهم في الإيمان، ونحن خاضعون لله بالطاعة والعبادة.
في سبب نزول الآية أقوال(١):

---
(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٧٤/٤.

أحدها: قال ابن عباس قال : "أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نَفرٌمن يهود، فيهم أبو ياسر بن أخطب، ورافع بن أبي رافع ، وعازر ، وخالد ، وزيد ، وأزار بن أبي أزار ، وأشْيَع ، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال : أومن بالله وَمَا أنزلَ إلينا وما أنزلَ إلى إبرَاهيمَ وإسماعيل وإسحاقَ ويعقوب والأسباط ، ومَا أوتي مُوسى وعيسى وَمَا أوتي النبيون من رَبهم لا نُفرّق بين أحد منهم ونحن له مُسلمون. فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته ، وقالوا : لا نؤمن بعيسى ، ولا نؤمن بمن آمن به. فأنزل الله فيهم : {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ}[سورة المائدة : ٥٩]"[٢].

الثاني: وقال قتادة: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم} إلى قوله :{ونَحنُ له مسلمون}، أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا ويصدقوا بأنبيائه ورسله كلهم ، ولا يفرِّقوا بين أحد منهم"[٣].

الثالث: وأخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة ، قال: "كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبْرَانيَّة ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تُكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا"[٤].

وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي من حديث عثمان بن حكيم ، عن سعيد بن يَسار عن ابن عباس ، قال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ {آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أنزلَ إِلَيْنَا} الآية ، والأخرى بـ {آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران : ٥٢]"[٥]"[٦].

قوله تعالى:{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ}[البقرة:١٣٦]، "أي قولوا أيها المؤمنون آمنا بالله"[٧].

قال مقاتل:" بأنه واحد لا شريك له"[٨].

قال الطبري:"أي: قولوا أيها المؤمنون، لهؤلاء اليهودِ والنصارَى-الذين قالوا لكم كونوا هُودًا أو نصارى تَهتدوا " - : صدَّقنا بالله.

قال الشيخ السعدي:" فقوله: {آمَنَّا بِاللَّهِ} أي: بأنه موجود، واحد أحد، متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده بالعبادة كلها، وعدم الإشراك به في شيء منها، بوجه من الوجوه"[٩].

قال البيضاوي:" الخطاب للمؤمنين لقوله تعالى: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ}"[١٠].

قال ابن عطية:" هذا الخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، علمهم الله الإيمان"[١١].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣/١١٠-١١١، والعجاب: ١/٣٨١-٣٨٢.

(٢) تفسير الطبري(٢١٠١):ص ٣/١١٠. وانظر: سيرة ابن هشام ٢ : ٢١٦.

(٣) تفسير الطبري(٢١٠٣): ٣/١١١.

(٤)صحيح البخاري برقم (٤٤٨٥)، وأخرج ابن ابي حاتم بمعناه عن عطاء بن يسار، انظر: تفسيره(١٢٩٨):ص١/٢٤٢.

(٥)صحيح مسلم برقم (٧٢٧) وسنن أبي داود برقم (١٢٥٩) وسنن النسائي (١٥٥/٢).

(٦) تفسير ابن كثير: ١/٤٤٩.

(٧) صفوة التفاسير: ١/٨٧.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان: ١/١٤١.

(٩) تفسير السعدي: ١/٦٨.

(١٠) تفسير البيضاوي: ١/١٠٨.

(١١) المحرر الوجيز:١/٢١٥.

قوله تعالى:{وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا}[البقرة:١٣٦]، أي: صدّقنا بالكتاب الذي أنزل الله إلى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم"[١].

قال مقاتل بن سليمان:" يعني قرآن محمد- صلى الله عليه وسلم"[٢].

قال الصابوني: أي :وآمنا بما "أنزل إلينا من القرآن العظيم"[٣].

قال ابن عطية:" يعني به القرآن، وصحت إضافة الإنزال إليهم من حيث هم المأمورون المنهيون فيه"[٤].

قال الطبري:" فأضاف الخطاب بالتنزيل إليهم، إذ كانوا متّبعيه ، ومأمورين منهيين به[٥].

قال السعدي: "فقوله{وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا}: يشمل القرآن والسنة، لقوله تعالى: {وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله، من صفات الباري، وصفات رسله، واليوم الآخر، والغيوب الماضية والمستقبلة، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية، وأحكام الجزاء وغير ذلك[٦].

قوله تعالى:{وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ}[البقرة:١٣٦]، "أي: صدَّقنا أيضًا وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباط "[٧].

قال الطبري:" وهم الأنبياء من ولد يَعقوب"[٨].

قال مقاتل:" وهم بنو يعقوب يوسف وإخوته فنزل على هؤلاء صحف إبراهيم"[٩].

قال البيضاوي: "وهي-أي الصحف- وإن نزلت إلى إبراهيم لكنهم لما كانوا متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها فهي أيضاً منزلة إليهم، كما أن القرآن منزل إلينا"[١٠].

قال الصابوني:" أي وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم من الصحف والأحكام التي كان الأنبياء متعبدين بها وكذلك حفدة إبراهيم وإسحاق وهم الأسباط حيث كانت النبوة فيهم"[١١].

قال ابن عطية:أي" إنا نؤمن بجميع الأنبياء، لأن جميعهم جاء بالايمان بالله، فدين الله واحد وإن اختلفت أحكام الشرائع"[١٢].

واختلف في قوله تعالى:{الْأَسْبَاطِ}[البقرة:١٣٦]، على وجهين[١٣]:

احدها: أن (السبط) في بني إسرائيل كالقبيلة في العرب، و(الأسباط): القبائل من اليهود، سموا بذلك، ليفرق بين ولد إسماعيل الذين يقال لهم: قبائل، وولد إسحاق الذين يقال لهم: أسباط[١].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠٨/٣.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤١/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٨٧/١.
(٤) المحرر الوجيز: ٢١٥/١.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ١٠٨/٣.
(٦) انظر: تفسير السعدي: ٦٨/١.
(٧)انظر: تفسير الطبري: ١٠٨/٣.
(٨)انظر: تفسير الطبري: ١٠٨/٣.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤١/١.
(١٠) تفسير البيضاوي: ١٠٨/١.
(١١) صفوة التفاسير:٨٧/١.

(١٢) المحرر الوجيز: ٢١٥/١.
(١٣) انظر: مفاتيح الغيب: ٧٦/٤.

وهذا قول أبي عبيدة وجماعة من العلماء[٢].
الثاني: أن (الأسباط) جمع (سِبْط)-بكسر السين وسكون الباء-: ابن الابن، أي: الحفيد، والمراد أسباط إسحاق، أي: أولاد يعقوب، وهم الذين تشعبت منهم قبائل بني إسرائيل، وسمّوا بذلك؛ لأنه وُلِد لكل رجل منهم أمة من الناس فسموا بذلك[٣].
وهذا قول أبي العالية[٤]، وقتادة[٥]، والربيع بن أنس[٦]، والسدي[٧]، واختاره الثعلبي[٨] والزجاج[٩]، وآخرون[١٠].
قال الثعلبي:" وسبط الرّجل حافده، ومنه قيل للحسن والحسين (عليهما السلام) سبطا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم"[١١].
وقال الزمخشري: "السبط: الحافد، وكان الحسن والحسين سبطي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، {وَالْأَسْباطِ} حفدة يعقوب ذرارىّ أبنائه الاثني عشر"[١٢].
قال الحافظ ابن حجر: الأسباط:" اسم إخوة يوسف: رُوْبِيْل بضم الراء وسكون الواو وكسر الموحدة بعدها تحتانية ساكنة ثم لام وهو أكبرهم، وشمعون بالشين المعجمة، ولاوي، ويهوذا، وداني، ونفتالي بفاء ومثناة، وكاد، وأشير، وأيساجر، ورايلون، وبنيامين[١٣]، وهم الأسباط"[١٤].
وقد اختلف في(الأسباط) هل كان فيهم أنبياء، وفيه قولان:
أحدهما: أنه كان فيهم أنبياء[١].

---

(١)انظر: تهذيب اللغة للأزهري: ٣٤٢/١٢-٣٤٣، جمهرة اللغة لابن دريد: ٣٣٦/١، لسان العرب لابن منظور: ١٩٢٢/٣-١٩٢٣، الصحاح للجوهري: ١١٢٩/٣، تاج العروس للزبيدي: ٢٧٣/١٠.
(٢)انظر: مجاز القرآن: ٢٣٠/١، وهو قول البخاري في جامعه الصحيح-فتح-: ١٤٧/٨، والطبري في جامع البيان: ١١٣/٣، والزمخشري في الكشاف: ٣١٥/١، والراغب في المفردات: ٢٢٢، والسمين الحلبي في الدر المصون: ٣٨٥/١، والسمرقندي في بحر العلوم: ١٦١/١-١٦٢، والرازي في مفاتيح الغيب: ٩١/٤، والبغوي في معالم التنزيل: ١٥٦/١، والواحدي في الوسيط: ٢٢٠/١، وابن دريد في جمهرة اللغة: ٣٣٦/١، ورشيد رضا في تفسير القرآن الحكيم: ٤٨٣/١، وغيرهم.
(٣)انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٣٩٩/١، جامع البيان للطبري: ١١١/٣-١١٢، تفسير ابن كثير لابن كثير: ٢٣٣/١.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣٠٠):ص٢٤٣/١.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٤٣/١.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٤٣/١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣٠١):ص٢٤٣/١.
(٨) تفسير الثعلبي:٢٨٣/١.
(٩) انظر: معاني القرآن: ٢١٧/١، وتهذيب اللغة: ١٦١٥/٢، والتفسير البسيط: ٣٥٦/٣.
(١٠)وممن قال بذلك: القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٤١/٢، وابن عطية في المحرر الوجيز: ٣٦٨/١، والسيوطي في الإتقان: ١٨٥/٢، والبلنسي في مبهمات القرآن: ١٨٤/١، والقاسمي في محاسن التأويل: ٢٧١/٢، وابن عاشور في التحرير والتنوير: ٧٣٢/١.
(١١) تفسير الثعلبي:٢٨٣/١.
(١٢)الكشاف: ١٩٥/١، و مفاتيح الغيب: ٧٢/٤.
(١٣) ورد اختلاف في بعض الأسماء انظر: جامع البيان للطبري: ١١٢/٣-١١٣، المحرر الوجيز لابن عطية: ٣٦٨/١، تفسير مبهمات القرآن للبلنسي: ١٨٤/١، الإتقان للسيوطي: ١٨٥/٢-١٨٦، محاسن التأويل للقاسمي: ٢٦٧/٢، التحرير والتنوير لابن عاشور: ٧٣٢/١.
(١٤) الفتح: ٦/ ٤٨٣.

والثاني: أنه لم يكن فيهم نبيّ.

والراجح أنه كان فيهم أنبياء، يدل عليه ظاهر هذه الآية، وقوله تعالى{وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ} [آل عمران: ٨٤] وقوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ}[النساء: ١٦٣]، فهذه الآيات تدل على نبوة الأسباط إذ عطفهم في نسق واحد على الأنبياء-عليهم الصلاة والسلام-، ولا يوجد ما يمنع هذا الظاهر لغة أو شرعاً حتى يقال إن الأسباط في هذه الآيات قبائل بني إسرائيل وأن هناك حذفاً تقديره: أنبياء الأسباط أو نحو ذلك، على أن القول بوجود حذف خلاف الأصل. أما ما قيل: من أن كيد إخوة يوسف ليوسف يتنافى مع القول بنبوتهم، فيقال: ذاك قبل النبوة، بل قد قيل إنه قبل البلوغ، والعصمة للأنبياء إنما تكون بعد الإيحاء إليهم على الصحيح، على أن ظواهر النصوص الثابتة لا ينبغي ردها بمثل ذلك. أما ما قيل من أنه لم تأت نصوص صحيحة تثبت نبوتهم، فيقال إن ظواهر تلك الآيات كاف في ذلك، ولابد من القول بها حتى تأتي نصوص صحيحة صريحة تفيد عدم نبوتهم، فيلجأ عندها إلى القول بالحذف ونحوه جمعاً بين النصوص وإعمالاً لها كافة، أما هكذا فلا. وأما قوله-عز وجل-عن بني إسرائيل في زمن موسى {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا} [الأعراف: ١٦٠] فالمراد به قبائل بني إسرائيل المنحدرة من أبناء يعقوب عليهم السلام، ولا يوجد مانع يمنع أن يراد بلفظ في سياق معنى، ويراد به في سياق آخر معنى آخر، والله أعلم.

و{الأسباط}: مشتق من السبط، وهو ضرب من الشجر، يعلفه الإبل، كأنه جعل إسحاق بمنزلة شجرة، وكذلك يفعل النسابون في النسب، يجعلون الوالد بمنزلة الشجرة، ويجعلون الأولاد بمنزلة أغصانها(٢).

وقال أبو العباس: "سألت ابن الأعرابي، ما معنى (السبط)، في كلام العرب؟ فقال: السِّبط والسِّبطان والأسباط: خاصة الأولاد، أو المُصاص منهم"(٣)

قوله تعالى:{وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ}[البقرة:١٣٦]، أي: "وآمنا أيضًا بالتوراة التي آتاها الله موسى ، وبالإنجيل الذي آتاه الله عيسى ، والكتب التي آتى النبيين كلهم"(٤).

قال مقاتل:" {وما أوتي موسى}، يعني التوراة (و) {ما أوتى عيسى}، يعني: الإنجيل، يقول ما أنزل على موسى وعيسى وصدقنا وما أوتي النبيون من ربهم وأوتي داود وسليمان الزبور"(٥).

قال الطبري:أي" وأقرَرنا وصدّقنا أن ذلك كله حَق وهُدى ونور من عند الله ، وأن جَميع من ذكر الله من أنبيائه كانوا على حق وهدى ، يُصدِّق بعضهم بعضًا ، على منهاج واحد في الدعاء إلى توحيد الله ، والعمل بطاعته"(٦).

---

(١)وممن جزم بنبوتهم: الخازن في لباب التأويل: ٨٥/١، ود. الأشقر في الرسل والرسالات: ١٩. وممن اختار عدم نبوتهم: السيوطي والألوسي ورشيد رضا كما في الإتقان: ١٨٥/٢، وروح المعاني: ٣٩٥/١، وتفسير القرآن الحكيم: ٤٨٣/١.

(٢) انظر: تهذيب اللغة:١٦١٥/٢(سبط)، وتفسير الثعلبي: ٢٨٣/١، والتفسير البسيط: ٣٥٦/٣.

(٣) تهذيب اللغة:١٦١٥/٢(سبط)، ونلقه الواحدي في التفسير البسيط: ٣٥٦/٣.

(٤) تفسير الطبري: ٣/ ١٠٩-١١٠.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:١٤١/١.

(٦) تفسير الطبري: ٣/ ١٠٩-١١٠.

قال أبو السعود: أي:" من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الباهرة الظاهرة بأيديهما حسبما فُصّل في التنزيل الجليل وإيرادُ الإيتاء لما أشير إليه من التعميم وتخصيصُهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى، {وَمَا أُوتِيَ النبيون} أي جملةُ المذكورين وغيرُهم، {مِّن رَّبّهِمُ} من الآيات البيناتِ والمعجزاتِ الباهراتِ"[١].

قال قتادة:" أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله"[٢].

وقال سليمان بن حبيب المحاربي:" إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل ولا نعمل بما فيها"[٣].

وقد يسأل سائل: لِمَ عبر الله تعالى بقوله: {وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل}، وفي موسى وعيسى قال تعالى: {وما أوتي موسى وعيسى}؛ فهل هناك حكمة في اختلاف التعبير؟

فالجواب: أن نقول - والله أعلم-: إن هناك حكمة لفظية، وحكمة معنوية:

فالحكمة اللفظية: لئلا تتكرر المعاني بلفظ واحد؛ لو قال: (ما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وما أنزل إلى موسى... وما أنزل إلى النبيين) تكررت أربع مرات؛ ومعلوم أن من أساليب البلاغة الاختصار في تكرار الألفاظ بقدر الإمكان.

وأما الحكمة المعنوية: فلأن موسى وعيسى دينهما باقٍ إلى زمن الوحي، وكان أتباعهما يفتخرون بما أوتوا من الآيات؛ فالنصارى يقولون: عيسى بن مريم يُحيي الموتى، ويفعل كذا، ويفعل كذا؛ وهؤلاء يقولون: إن موسى فلق الله له البحر، وأنجاه، وأغرق عدوه، وما أشبه ذلك؛ فبين الله سبحانه وتعالى في هذا أن هذه الأمة تؤمن بما أوتوا من وحي وآيات[٤].

قوله تعالى: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ}[البقرة:١٣٦]، أي:" لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض"[٥].

قال قتادة:" أمر الله المؤمنين أن لا يفرقوا بين أحد منهم"[٦].

قال مقاتل:" فنؤمن ببعض النبيين، ونكفر ببعض، كفعل أهل الكتاب"[٧].

قال الثعلبي:" فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى"[٨].

قال ابن عطية:" أي لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما تفعلون"[٩].

قال الواحدي: أي:" أي: لا نكفر ببعض ونؤمن ببعض كما فعلت اليهود والنصارى"[١٠].

قال الطبري:"بل نشهد لجميعهم أنّهم كانوا رسلَ الله وأنبياءَه ، بعثوا بالحق والهدى"[١١].

---

(١) تفسير أبي السعود: ١٦٦/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٠٤):ص٢٤٣/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٠٣):ص٢٤٣/١.
(٤) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٨/٢.
(٥) تفسير الطبري: ٣/ ١٠٩-١١٠.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٠٥):ص٢٤٣/١.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان: ١/!٤١.
(٨) تفسير الثعلبي:٢٨٣/١.
(٩) المحرر الوجيز: ٢١٥/١.
(١٠) التفسير البسيط: ٣٥٧/٣.
(١١) تفسير الطبري: ٣/ ١٠٩-١١٠.

قال أبو السعود:" كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض وإنما اعتبروا عدمُ التفريق بينهم مع أن الكلامَ فيما أوتوه لاستلزام عدم التفريق بينهم بالتصديق والتكذيب لعدم التفريق بين ما أوُتوه"(١).

قال السعدي:أي: "بل نؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين، التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين، فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم - وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب - فإنهم يكفرون بغيره، فيفرقون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا، أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل وخصوصا محمد صلى الله عليه وسلم، فإذا كذبوا محمدا، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفرا برسولهم"(٢).

وفي قوله تعالى:{لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ }[البقرة:١٣٦]، وجهان(٣):

الأول: إنا لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فإنا لو فعلنا ذلك كانت المناقضة لازمة على الدليل وذلك غير جائز. قال الفراء: "أي لا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم كما فعلت اليهود والنصارى"(٤).

الثاني: لا نفرق بين أحد منهم، أي لا نقول: إنهم متفرقون في أصول الديانات، بل هم مجتمعون على الأصول التي هي الإسلام، كما قال الله تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} [الشورى : ١٣].

والصواب الوجه الأول، لأنه أليق بسياق الآية، والله أعلم.

قوله تعالى:{وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[البقرة:١٣٦]، أي: "ونحنُ له خاضعون بالطاعة، مذعنون له بالعبودية"(٥).

قال السعدي:" أي: نؤمن بالكل، ولا نفضل البعض عن البعض"(٦).

قال الصابوني:" أي منقادون لأمر الله خاضعون لحكمه"(٧).

قال أبو السعود:" أي مخلصون له ومُذعنون، حالٌ أُخرى منْهُ أو عطفٌ على {آمنا}"(٨).

الفوائد:

١- فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده، كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية

---

(١) تفسير أبي السعود: ١٦٦/١.
(٢) تفسير السعدي: ٦٨/١.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ٧٦/٤.
(٤) تفسير القرطبي: ١٤١/٢.
(٥) تفسير الطبري: ١١٠/٣.
(٦) تفسير السعدي: ١٤٥/١.
(٧) صفوة التفاسير:٨٧/١.
(٨) تفسير أبي السعود: ١٦٦/١.

المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة، فسبحان من جعل كتابه تبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

٢- ومنها: أن الكتب التي أوتيها الرسل قد نزلت من عند الله؛ لقوله تعالى: {وما أنزل إلينا}، ولقوله تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط} [الحديد: ٢٥] .

٣- ومنها: الإشارة إلى البداءة بالأهم - وإن كان متأخراً؛ لقوله تعالى: {وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم} مع أن ما أنزل إلينا متأخر عما سبق.

٤- ومنها: الإيمان بما أوتي النبيون من الآيات الكونية، والآيات الشرعية.

٥- ومنها: أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل، على حد سواء في أصل الإيمان؛ وأما الشرائع فلكلٍّ منهم جعل الله شرعة ومنهاجاً، كما قال تعالى: {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً} [المائدة: ٤٨]؛ فنحن مأمورون باتّباع شريعة محمد صلى الله عليه وسلم التي نسخت جميع الأديان؛ أما في الإيمان بأنهم رسل من عند الله، وأنهم صادقون بما جاءوا به فإنا لا نفرق بين أحد منهم؛ لقوله تعالى: {لا نفرق بين أحد منهم}، وقوله تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله} [البقرة: ٢٨٥] .

٦- ومن فوائد الآية: وجوب الإخلاص لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {ونحن له مسلمون}.

٧- ومنها: أن الرسل ليسوا مستقلين بهذه الآيات؛ فلا يملكون أن يأتوا بهذه الآيات، أو بهذا الوحي؛ فهم يتلقون من الله؛ حتى الرسول صلى الله عليه وسلم إذا طُلب منه الآيات لا يستطيع أن يأتي بها؛ ولهذا لما اقترح المكذبون عدة آيات قال تعالى: {قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولًا} [الإسراء: ٩٣] ، وقال تعالى: {وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين} [العنكبوت: ٥٠] ، أي فلا أملك أن آتي بالآيات.

٨- ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يشعر أنه هو وإخوانه كنفس واحدة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[1] وشبّك بين أصابعه؛ لقوله تعالى: {ونحن له مسلمون}: فأتى بضمير الجمع: {قولوا آمنا بالله... ونحن...}.

٩- ومنها: أن الإسلام لا بد أن يكون بالقلب، واللسان، والجوارح؛ لإطلاقه في قوله تعالى: {مسلمون}؛ فيستسلم قلب المرء لله - تبارك وتعالى - محبة، وتعظيماً، وإجلالاً؛ ويستسلم لسانه لما أمره الله سبحانه وتعالى أن يقول؛ وتستسلم جوارحه لما أمره الله تعالى أن يفعل.

القرآن

{فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)} [البقرة : ١٣٧]

التفسير:

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٠، كتاب الصلاة، باب ٨٨: تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، حديث رقم ٤٨١؛ وأخرجه مسلم ص١١٣٠، كتاب البر والصلة، باب ١٧: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم ٦٥٨٥ [٦٥] ٢٥٨٥؛ بدون و "شبك أصابعه".

فإنْ آمن الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم بمثل الذي آمنتم به، مما جاء به الرسول، فقد اهتدوا إلى الحق، وإن أعرضوا فإنما هم في خلاف شديد، فسيكفيك الله -أيها الرسول- شرَّهم وينصرك عليهم، وهو السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم.

سبب النزول:

قال مقاتل: " لما نزلت هذه الآية[{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ}]، قرأها النبي- صلى الله عليه وسلم- على اليهود والنصارى، فقال: إن الله- عز وجل- أمرني أن أوصي بهذه الآية، فإن انتم آمنتم يعني صدقتم بالنبي- صلى الله عليه وسلم- والكتاب، فقد اهتديتم وإن توليتم وأبيتم عن الإيمان فإنما أنتم في شقاق، فلما سمعت اليهود ذكر عيسى- صلى الله عليه وسلم- قالوا: لا نؤمن بعيسى. وقالت النصارى: وعيسى بمنزلتهم مع الأنبياء، ولكنه ولد الله. يقول: إن أبوا أن يؤمنوا بمثل ما آمنتم به فسيكفيكهم الله يا محمد يعني أهل الكتاب ففعل الله- عز وجل- ذلك فقتل أهل قريظة، وأجلى [بني] النضير من المدينة إلى الشام"(١). ونقله عنه ابن حجر ملخصا(٢).

قوله تعالى:{فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا}[البقرة:١٣٧]،" أي: فإن آمن أهل الكتاب بنفس ما آمنم به معشر المؤمنين، فقد اهتدوا إلى الحق كما اهتديتم"(٣).

قال ابن عباس:" أخبر الله سبحانه أن الإيمان هو العروة الوثقى، وأن لا يقبل عملا إلا به، ولا يحرم الجنة إلا على من تركه"(٤).

وعن الربيع:" ثم قال: {فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا}، فقال: من تكلم بهذا صدقا من قلبه- يعني- الإيمان فقد اهتدى"(٥).

قال مقاتل:" يقول فإن صدق أهل الكتاب بالذي صدفتم به يا معشر المسلمين من الإيمان بجميع الأنبياء والكتب، فقد اهتدوا من الضلالة"(٦).

قال ابن عطية: أي:" إن صدقوا تصديقا مثل تصديقكم"(٧).

قال الطبري:أي" فإن صدّق اليهودُ والنصارَى بالله ، ومَا أنزل إليكم ، وما أنزل إلى إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ ، ومَا أوتي مُوسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، وأقروا بذلك ، مثلَ ما صدّقتم أنتم به أيّها المؤمنون وأقررتم ، فقد وُفّقوا ورَشِدوا ، ولزموا طريق الحق ، واهتدوا ، وهم حينئذ منكم وأنتم منهم ، بدخولهم في ملتكم بإقرارهم بذلك. فدلّ تعالى ذكره بهذه الآية ، على أنه لم يقبل من أحد عَملا إلا بالإيمان بهذه المعاني التي عدَّها قبلها"(٨).

قال الزجاج:" فإن قال قائل: فهل للإيمان مِثْلٌ هو غير الِإيمان؟ قيل له: المعنى واضح بين، وتأويله: فإن أتَوْا بتصديق مثل تصديقكم وإيمانكم - بالأنبياءِ، ووحَّدوا كتوحيدكم - فقد اهتدوا، أي فقد صاروا مسلمين مثلكم"(٩).

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤٢/١.
(٢) انظر: العجاب: ٣٨٢/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٨٧/١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٠٧):ص٢٤٤/١، وتفسير الطبري(٢١٠٨):ص١١٣/٣.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٠٨):ص٢٤٤/١.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤١/١.
(٧) المحرر الوجيز: ٢١٥/١.
(٨) تفسير الطبري: ١١٣/٣.
(٩) معاني القرآن: ٢١٤/١.

وقوله تعالى:{بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ}[البقرة:١٣٧]، اختلف المعربون في الباء، وفي (مثل) أيهما الزائد، وفيه قولان[١]:

أحدهما: أن (مثل) هي الزائدة، وأن التقدير: فإن آمنوا بما آمنتم به فقد اهتدوا؛ وأن (مثل) زائدة إعراباً لا معنًى؛ وأن المعنى: أنهم إن آمنوا بما آمنتم به إيماناً مماثلاً لإيمانكم؛ فعلى هذا تكون الزيادة في كلمة (مثل).

وقد روي عن ابن عباس : لا تقولوا : {فإن آمنوا بمثل مَا آمنتم به فقد اهتدوا}، فإنه ليس لله مثل، ولكن قولوا : " فإن آمنوا بالذي آمنتم به فَقد اهتدوا " - أو قال: " فإن آمنوا بما آمنتم به "[٢].

وهذه القراءة جاءت مصاحفُ المسلمين بخلافها ، وأجمعت قَرَأة القرآن على تركها.

قال الطبري: " فكأن ابن عباس - في هذه الرواية إن كانت صحيحة عنه - يوجِّه تأويل قراءة من قرأ : {فإن آمنُوا بمثل مَا آمنتم به}، فإن آمنوا بمثل الله ، وبمثل ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل. وذلك إذا صرف إلى هذا الوجه ، شِرْكٌ لا شكَّ بالله العظيم. لأنه لا مثل لله تعالى ذكرُه ، فنؤمن أو نكفر به"[٣].

الثاني: أن الزائد هو (الباء) حرف الجر؛ وأن التقدير: فإن آمنوا مثل ما آمنتم - أي مثل إيمانكم -؛ والباء الثانية أيضاً زائدة.

وقد اتفق الجميع على أن المراد الزيادة الإعرابية؛ وليست الزيادة المعنوية؛ لأنه ليس في القرآن ما هو زائد معنى - أي لا فائدة فيه -؛ والمعروف أن الأسماء لا تزاد؛ وأما الزيادة في الحروف فكثيرة؛ لأن الاسم كلمة جاءت لمعنى في نفسها؛ والحرف كلمة جاءت لمعنى في غيرها؛ ومعلوم أننا لو وزنا بالميزان المستقيم لكان ما يجيء لمعنى في غيره أولى بالزيادة مما يجيء لمعنى في نفسه؛ ولهذا أنكر بعض النحويين زيادة الأسماء، وقالوا: لا يمكن أن تزاد الأسماء؛ لأنها جاءت لمعنى في ذاتها؛ بخلاف الحرف؛ فعلى هذا تكون الزيادة في الباء - أي فإن آمنوا مثل ما آمنتم -؛ أي مثل إيمانكم؛ وعلى كلا الاحتمالين من حيث الإعراب فالمعنى واحد - أي إن آمنوا إيماناً مطابقاً لإيمانكم مماثلاً له من كل الوجوه فقد اهتدوا -.

و(الهداية) هنا هداية العلم، والتوفيق؛ لأنهم آمنوا عن علم فوفِّقوا، واهتدوا؛ والهداية هنا مطلقة كما أن المسلمين الذين آمنوا على الوصف المذكور مهتدون هداية مطلقة[٤].

قوله تعالى:{وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ}[البقرة:١٣٧]، " أي وإن أعرضوا عن الإِيمان بما دعوتهم إليه، فاعلم أنهم إنما يريدون عداوتك وخلافك، وليسوا من طلب الحق في شيء"[٥].

قال مقاتل:" يقول: إن أبوا أن يؤمنوا بمثل ما آمنتم به ، أي وإن كفروا بالنبيين وجميع الكتب، فإنما هم في ضلال واختلاف، نظيرها: {وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد}، يعني لفي ضلال واختلاف"[٦].

قال ابن عطية:" أي أعرضوا، يعني به اليهود والنصارى، فإنما هم في شقاق لك، هم في شق وأنت في شق"[١].

---

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٤٢/٢.
(٢) تفسير الطبري(٢١٠٩):ص ١١٤/٣.
(٣) تفسير الطبري: ١١٤/٣.
(٤) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٤٢/٢.
(٥) صفوة التفاسير: ٨٨/١.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤٢/١.[بتصرف بسيط].

قال الطبري:"أي: وإن تولى هؤلاء الذين قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه : {كونوا هودًا أو نصارَى} فأعرضوا، فلم يؤمنوا بمثل إيمانكم أيّها المؤمنون بالله ، وبما جاءت به الأنبياءُ ، وابتُعِثت به الرسل ، وفرّقوا بين رُسُل الله وبين الله ورسله ، فصدّقوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ فاعلموا، أيها المؤمنون ، أنهم إنما هُمْ في عصيان وفِرَاق وحَربٍ لله ولرسوله ولكم"(٢).

قال الواحدي:" أي: في خلاف وعداوة، وتأويله: أنهم صاروا في شِقّ غير شَقّ المسلمين"(٣).

قال الربيع:" {وإن تولوا} عنه يعني عن الإيمان"(٤).

قال محمد بن إسحاق:"{وإن تولوا} على كفرهم"(٥).

و(الشقاق): من (شَقَّ عليه هذا الأمر)، إذا كرَبه وآذاه، ثم قيل : (شاقَّ فلانٌ فلانًا)، بمعنى : نال كل واحد منهما من صاحبه ما كرَبه وآذاه ، وأثقلته مَساءَته، ومنه قول الله تعالى ذكره: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا} [النساء : ٣٥] بمعنى : فراقَ بينهما(٦).

و(الشقاق) في اللغة: له ثلاثة معان:

أحدها: العداوة، مثل قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} [هود : ٨٩] .

قال الواحدي: والعداوة تسمى شقاقًا؛ لأنّ كلّ واحد من المعادين يأتي بما يشقّ على صاحبه، أو لأنّ كل واحد صار في شقّ غير شق صاحبه للعداوة والمباينة"(٧).

والثاني: الخلاف، مثل قوله: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا} [النساء : ٣٥].

والثالث: الضلالة، مثل قوله: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [الحج : ٥٣].

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى: {فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ} [البقرة:١٣٧]، وجوها(٨):

أولها: أن معناه: في خلاف. قاله ابن عباس(٩)، وأبو العالية(١٠)، وقتادة(١١) والربيع بن أنس(١٢)، وعطاء(١٣)، والأخفش(١٤).

ودليل هذا القول، قوله: {لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي }[هود:٨٩]، أي خلافي(١٥)، ومنه قول الشاعر(١):

---

(١) المحرر الوجيز: ٢١٦/١.
(٢) تفسير الطبري: ١١٥/٣.
(٣) التفسير البسيط: ٣٥٨/٣.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٠٩):ص٢٤٤/١.
(٥)أخرجه ابن أبي حاتم(١٣١٠):ص٢٤٤/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ١١٥/٣-١١٦.
(٧) التفسير البسيط: ٣٥٨/٣.
(٨) انظر:تفسير الثعلبي:٢٨٤/١، ومفاتيح الغيب: ٧٤/٤.
(٩) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨٤/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣١١):ص٢٤٤/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢١١٠):ص١١٥/٣، وتفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٤/١.
(١٢)انظر: تفسير الطبري(٢١١١):ص١١٥/٣، تفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٤/١.
(١٣) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨٤/١.
(١٤) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨٤/١.
(١٥) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨٤/١.

فكان إليها والذي اصطاد بكرها ... شقاقا وبعضهن أو لطم وأهجرا

وثانيها: أي: في ضلال. قاله أبو عبيدة(٢)، ومقاتل(٣).ودليله قوله تعالى:{ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِما}[النساء:٣٥]، أي اختلاف بينهما، قال الشاعر(٤):

إلى كم نقتل العلماء قسرا ... ونفجر بالشّقاق وبالنفاق

أي بالضلال والاختلاف(٥).

وثالثها: أن الشقاق: الفراقُ والمحاربة. إذا شَاقَّ فقد حارب ، وإذا حَارب فقد شاقَّ ، وهما واحدٌ في كلام العرب ، ومنه : {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ }[سورة النساء : ١١٥]. قاله ابن زيد(٦).

ورابعها: أي: في عداوة. قاله الحسن(٧)، وابن سلمة(٨) والسدي(٩).

يقال: كان كلّ واحد منهما أخذ في شقّ صاحبه، أي في جهده وما يشق عليه من قوله: {إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ}[النحل:٧]،ودليله قوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}[الأنفال:١٣]،أي عادوا الله ورسوله(١٠).

ومنه قول بشر بن أبي حازم(١١):

وإلّا فاعلموا انّا وأنتم ... بغاة ما حيينا في شقاق

أي: في عداوة(١٢).

قال الزجاج: { هُمْ فِي شِقَاقٍ}:" أي في مشاقة وعداوة ومن هذا قول الناس: فلان قد شق عصا المسلمين، إنما هو قد فارق ما اجتمعوا عليه من اتباع إمامهم، وإنما صار في شق - غير شق المسلمين"(١٣).

وسادسها: أن الشقاق: خلع الطّاعة، وبيانه قوله {وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ}[النساء:١١٥]. وهذا قول الكسائي (١).

---

(١) لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد الثعلبي في تفسيره: ٢٨٤/١.

(٢) انظر:تفسير الثعلبي:٢٨٤/١، ومفاتيح الغيب: ٧٤/٤.

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤٢/١.

(٤) لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد الثعلبي في تفسيره: ٢٨٤/١.

(٥) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨٤/١.

(٦) انظر: تفسير الطبري(٢١١٢):ص١١٥/٣.

(٧) انظر:تفسير الثعلبي:٢٨٤/١، ومفاتيح الغيب: ٧٤/٤.

(٨) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨٤/١.

(٩) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨٤/١.

(١٠) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨٤/١.

(١١)ديوان بشر الأسدي: ص ١٦٥، والبيت من قصيدة، مطلعها:

أهمت منك سلمى بانطلاق * وليس وصال غانية بباقي

وسبب هذا الشعر كما نقله ابن السيرافي في شرح أبيات سيبويه: أن قوما من آل بدر الفزاريين جاوروا بني لأم من طي، فعمد بنو لأم إلى الفزاريين فجزوا نواصيهم وقالوا: قد مننا عليكم ولم نقتلكم، وبنو فزارة حلفاء بني أسد، فغضب بنو أسد لأجل ما صنع بالبدريين، فأنشأ بشر هذه القصيدة يذكر فيها ما صنع ببني بدر ويقول للطائيين: فإذ قد جززتم نواصيهم فاحملوها إلينا وأطلقوا من قد أسرتم منهم، وإن لم تفعلوا فاعلموا أنا نبغيكم ونطلبكم، فإن أصبنا أحدا منكم طلبتمونا به، فصار كل واحد منا يبغي صاحبه، فنبقى في شقاق وعداوة أبدا. راجع ديوان بشر الأسدي: ص ١٦٥ يهجو أوس بن حارثة وفيه " ما حيينا " بدل " ما بقينا "، وشرح السيرافي: ج ٢ ص ١٤، وخزانة الأدب للبغدادي: ج ١٠ ص ٢٩٧.

(١٢) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨٤/١.

(١٣) معاني القرآن: ٢١٤/١.

قوله تعالى:{فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ}[البقرة:١٣٧]، " أي سيكفيك يا محمد شرهم وأذاهم ويعصمك منهم"[٢].

قال ابن كثير:أي : "فسينصرك عليهم ويُظْفِرُك بهم"[٣].

قال مقاتل:" يعني أهل الكتاب ففعل الله- عز وجل- ذلك فقتل أهل قريظة، وأجلى [بني] النضير من المدينة إلى الشام"[٤].

قال الزجاج:" هذا ضمان من اللَّه عزَّ وجلَّ في النصر لنبيه - صلى الله عليه وسلم - لأنه إنما يكفيه إياهم بإظهار ما بعثه به على كل دين سواه - وهذا كقوله: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}[التوبة:٣٣]"[٥].

قال أبو السعود:" أي سيكفيك شِقاقَهم فإن الكفاية لا تتعلق بالأعيان بل بالأفعال"[٦].

قال الطبري: " ففعل الله بهم ذلك عَاجلا وأنجزَ وَعْده ، فكفى نبيّه صلى الله عليه وسلم بتسليطه إيّاه عليهم ، حتى قتل بعضهم ، وأجلى بعضًا ، وأذلّ بعضًا وأخزاه بالجزية والصَّغار"[٧].

قال الزجاج:" فإن قال قائل: فإن من المرْسَل مَنْ قُتِل، فإن تأويل ذلك - والله أعلم - أن اللَّه غالب هو ورسله بالحجة الواضحة، والآية البينة، ويجوز أن تكون غلبة الآخرة لأن الأمر هو على ما يستقر عليه في العاقبة"[٨].

وقد قيل: إن الله لم يأمر رسولاً بحرب فاتبع ما أمره الله به في حربه إلا غَلَب. فعلى هذا التأويل يجوز أن يكون لم يقتل رسول قط محارباً.

قوله تعالى:{وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[البقرة:١٣٧]، " أي هو تعالى يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم من المكر والشر"[٩].

قال مقاتل:"[{السميع}]، لقولهم للمؤمنين: {كونوا هودا أو نصارى تهتدوا}، ثم قال {العليم}، بما قالوا"[١٠].

قال الثعلبي:أي" {السَّمِيعُ} لأقوالهم، {العَلِيمُ} بأحوالهم"[١١]

قال ابن عطية:" {السَّمِيعُ} لقول كل قائل، {العَلِيمُ} بما يجب أن ينفذ في عباده"[١٢].

قال أبو السعود:" تذييلٌ لما سبق من الوعد وتأكيدٌ له والمعنى أنه تعالى يسمع ما تدعون به ويعلم ما في نِيَّتك من إظهار الدينِ فيستجيب لك ويوصلك إلى مرادك"[١٣].

وفي قوله تعالى:قوله تعالى:{وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[البقرة:١٣٧]، وجهان[١]:

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي:٢٨٤/١.
(٢) صفوة التفاسير:٨٨/١.
(٣) تفسير ابن كثير: ٤٥٠/١.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:١٤٢/١.
(٥) معاني القرآن: ٢١٤/١.
(٦) تفسير أبي السعود: ٦٧!/١.
(٧) تفسير الطبري: ١١٦/٣.
(٨) معاني القرآن: ٢١٥/١.
(٩)صفوة التفاسير:٨٨/١.
(١٠)تفسير مقاتل بن سليمان:١٤٢/١.
(١١) تفسير الثعلبي:٢٨٤/١.
(١٢) المحرر الوجيز: ٢١٦/١.
(١٣) تفسير أبي السعود: ١٦٨/١.

الأول: أنه وعيد لهم والمعنى أنه يدرك ما يضمرون ويقولون وهو عليم بكل شيء فلا يجوز لهم أن يقع منهم أمر إلا وهو قادر على كفايته إياهم فيه.
الثاني: أنه وعد للرسول عليه السلام يعني: يسمع دعاءك ويعلم نيتك وهو يستجيب لك ويوصلك إلى مرداك، واحتج الأصحاب بقوله: {وهو السميع العليم} على أن سمعه تعالى زائد على علمه بالمسموعات لأن قوله: {عليم} بناء مبالغة فيتناول كونه عالما بجميع المعلومات، فلو كان كونه سميعا عبارة عن علمه بالمسموعات لزم التكرار وأنه غير جائز، فوجب أن يكون صفة كونه تعالى سميعا أمرا زائدا على وصفه بكونه عليما. والله أعلم بالصواب(٢).
وقال الشيخ ابن عثيمين: " قد يقول قائل: يبدو لنا أن المناسب أن يقول: «وهو القوي العزيز» لأنه قال: {فسيكفيكهم الله} فما هو الجواب عن ختمها بالسمع، والعلم؟ فالظاهر لي - والله أعلم - أنه لما كان تدبير الكيد للرسول -صلى الله عليه وسلم- من هؤلاء قد يكون بالأقوال، وقد يكون بالأفعال؛ والتدبير أمر خفي ليس هو حرباً يعلن حتى نقول: ينبغي أن يقابل بقوة، وعزة؛ قال تعالى: {وهو السميع العليم} أي حتى الأمور التي لا يُدرى عنها، ولا يبرزونها، ولا يظهرون الحرابة للرسول -صلى الله عليه وسلم- فإن الله سميع عليم بها؛ هذا ما ظهر لي - والله أعلم - "(٣).
الفوائد:
١- من فوائد الآية: أنه لا بد أن يكون إيمان اليهود، والنصارى مثل إيمان النبي صلى الله عليه وسلم، وأمته حقيقة، ووصفاً.
٢- ومنها: أن ما خالف ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم فهو ضلال؛ لأن الله سبحانه وتعالى علق الاهتداء بأن يؤمنوا بمثل ما آمن به الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته.
٣- ومنها: أنه لا حجة لمن تولى عن شريعة النبي صلى الله عليه وسلم إلا الشقاق، والمجادلة بالباطل؛ لقوله تعالى: {فإن تولوا فإنما هم في شقاق}.
٤- ومنها: وقوع الشقاق بين أهل الكتاب، والمسلمين؛ وعليه فلا يمكن أن يتفق المسلمون وأهل الكتاب؛ فتبطل دعوة أهل الضلال الذين يدْعون إلى توحيد الأديان؛ لقوله تعالى: {فإنما هم في شقاق}؛ فاليهود، والنصارى لما لم يؤمنوا صاروا معنا في شقاق؛ وهذا الشقاق لا بد أن يؤدي إلى عداوة، وبغضاء؛ وبالتالي إلى قتال؛ وهكذا وقع: فالمسلمون قاتلوا اليهود، وقاتلوا النصارى - الروم كلهم نصارى -؛ ومن بعد ذلك قاتلوا النصارى في الحروب الصليبية؛ وسيقاتلونهم أيضاً مرة أخرى حتى يدخل الإسلام عاصمتهم الروم؛ ولا بد من هذا في المستقبل بإذن الله؛ وسنقاتل

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٧٩/٤.
(٢)ورد اسم (السميع) في كتاب الله عز وجل خمسا وأربعين مرة، اقترن بـ(العليم) اثنتين وثلاثين مرة؛ فهو أكثر اسم اقترن به، وكان (السميع) أولا في المواضع جميعها، وحتى عندما اقترن بـ(البصير) وبـ(القريب).
(السميع) بمعنى السامع بصيغة المبالغة، وهو سمع مطلق يليق بالله -عز وجل-، ويذكر العلماء هنا أنه -سبحانه- «يسمع دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء»، يسمع ما يتهامس به المتهامسون، ويتناجى به المتناجون، وما تسر به لصاحبك، والكل عنده سبحانه وتعالى سواء.
و(العليم) علم يليق به -سبحانه وتعالى-؛ فهو يعلم كل شيء، ما كان وما يكون وما سيكون وما لم يكن ولو كان كيف يكون، فقد أحاط سبحانه بكل شيء علما. واقتران (السميع) بـ(العليم)، فيه تحذير للعباد ألا يتكلموا بما لا يرضي الله؛ لأنه (سميع عليم)، علمه بالمسموع مباشر ليس عن طريق رسول أو واسطة، وفي اقتران الاسمين تأييد للنبي صلى الله عليه وسلم ، كما في (يونس:٦٥)، وتطمين للمؤمنين إذا هم دعوا الله عز وجل بأنه (سميع عليم) فيجيب الدعاء إذا علم من أحوالهم الصدق والإخلاص.
(٣) تفسير ابن عثيمين: ٤١/٢.

اليهود حتى يختبئ اليهودي بالحجر، والشجر فينادي: «يا عبد الله، هذا يهودي ورائي فاقتله إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود»[1] فلا يبلّغ عنهم.
٥- ومن فوائد الآية: الوعيد الشديد لهؤلاء المتولين عن شريعة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لقوله: {فسيكفيكهم الله}.
٦- ومنها: تكفل الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنهم إذا لم يؤمنوا بمثل ما آمن المؤمنون، وتولوا، فإن الله سبحانه وتعالى سيكفيه إياهم عن قرب؛ لقوله تعالى: {فسيكفيكهم الله}؛ والحمد لله أنه صار ذلك عن قرب: فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يُتوفَّ حتى أجلى اليهود عن المدينة، وفتح حصونهم في خيبر، وأبقاهم فيها عمالاً؛ وفي خلافة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أجلاهم من خيبر؛ فكفى الله المؤمنين شرهم - والحمد لله -.
٧- ومن فوائد الآية: الإشارة إلى التوكل على الله - تبارك وتعالى - في الدعوة إليه، وفي سائر الأمور؛ لأنه إذا كان وحده سبحانه وتعالى هو الكافي فيجب أن يكون التوكل والاعتماد عليه وحده؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه} [الطلاق: ٣] .
٨- ومنها: إثبات الاسمين الكريمين {السميع}، و{العليم}، وما يتضمناه من الصفات والمعاني العظيمة.
٩- ومنها: أنه يجب على المرء مراقبة الله سبحانه وتعالى في جميع أقواله؛ لأن الله سبحانه وتعالى سامع لها لا يخفى عليه الصوت مهما خفي؛ بل هو يعلم عزّ وجلّ ما توسوس به نفس الإنسان - وإن لم يتكلم به
١٠- ومنها: مراقبة الله سبحانه وتعالى في السر، والعلن؛ وذلك؛ لأن مقتضى اسمه الكريم: {العليم} أنه يعلم كل شيء.

القرآن
{صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)} [البقرة : ١٣٨]
التفسير:
الزموا دين الله الذي فطركم عليه، فليس هناك أحسنُ مِن فطرة الله التي فطر الناس عليها، فالزموها وقولوا نحن خاضعون مطيعون لربنا في اتباعنا ملَّة إبراهيم.
في سبب نزول الآية قولان:
أحدها: قال الواحدي: "قال ابن عباس: إن النصارى كان إذا ولد لأحدهم ولد فأتى عليه سبعة أيام، صبغوه في ماء لهم يقال له: المعمودي ليظهروه بذلك، ويقولون: هذا طهور مكان الختان، فإذا فعلوا ذلك قالوا: الآن صار نصرانيا حقا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. نزلت في تحويل القبلة"[1]. وأخرج الطبري عن قتادة[2]،وعطاء[3]، نحو ذلك.

---

(١) خرجه البخاري ص٢٣٥، كتاب الجهاد والسير، باب ٩٤: قتال اليهود، حديث رقم ٢٩٢٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٨٤، كتاب الفتن، باب ١٨: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، حديث رقم ٧٣٣٩ [٨٢] ٢٩٢٢.
(١) أسباب النزول: ٤١.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢١١٣):ص١١٧/٣-١١٨.

(٣) انظر: تفسير الطبري(٢١١٤):ص١١٨/٣.

الثاني: قال ابن حجر: "أخرج ابن مردويه في تفسير هذه الآية من طريق أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قالت بنو إسرائيل: يا موسي هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله، فناداه ربه يا موسى الألوان كلها من صبغي وأنزل الله على نبيه {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً}"(١).

قال الطبري:" وذلك أنّ النصارى إذا أرادت أن تنصِّر أطفالهم ، جعلتهم في ماء لهم تزعم أن ذلك لها تقديس ، بمنزلة غُسل الجنابة لأهل الإسلام ، وأنه صبغة لهم في النصرانية، فقال الله تعالى ذكره - إذ قالوا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه المؤمنين به : " كونوا هودًا أو نَصَارَى تَهتدوا " - : قل لهم يا محمد : أيها اليهود والنصارى ، بل اتبعوا ملة إبراهيمَ ، صبغة الله التي هي أحسن الصِّبَغ ، فإنها هي الحنيفية المسلمة ، ودعوا الشركَ بالله ، والضلالَ عن محجَّة هُداه"(٢).

قوله تعالى:{صِبْغَةَ اللَّهِ}[البقرة:١٣٨]، "أي ما نحن عليه من الإيمان هو دين الله الذي صبغنا به وفطرنا عليه فظهر أثره علينا كما يظهر الصبغ في الثوب"(٣).

قال الطبراني: "أي: "دينَ اللهِ وفِطْرَتَهُ ؛ لأن دينَ الإسلامِ يؤثرُ في المُتَدَيِّن مِن الطهور والصلاةِ والوَقَار وسائرِ شعائر الإسلامِ كالصَّبْغ الذي يكونُ في الثوب"(٤).

قال مقاتل:" يقول الله- عز وجل- دين الله"(٥).

قال ابن أبي زمنين: "أي :دين الله"(٦).

قال ابن عطية:" شريعته وسنته وفطرته"(٧).

قال البيضاوي:" أي صبغنا الله صبغته، وهي فطرة الله تعالى التى فَطَرَ الناس عَلَيْهَا، فإنها حلية الإنسان كما أن الصبغة حلية المصبوغ، أو هدانا الله هدايته وأرشدنا حجته، أو طهر قلوبنا بالإيمان تطهيره، وسماه صبغة لأنه ظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ، وتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ الثوب، أو للمشاكلة، فإن النصارى كانوا يغسمون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون: هو تطهير لهم وبه تتحقق نصرانيتهم"(٨).

قال السعدي: أي: "الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياما تاما، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة، وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعا واختيارا ومحبة، وصار

---

(١) العجاب في بيان الأسباب: ٣٨٤/١. وقد رواه مرفوعًا أيضًا المقدسي في "المختارة".
وأخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في "العظمة" عن ابن عباس موقوفًا كما في: الدر:١/ ٣٤٠ وتفسير ابن أبي حاتم(١٣١٤):ص٢٤٥/١، وقال ابن كثير بعد أن أورده من طريق ابن مردويه "١/ ١٨٨": "كذا وقع في رواية ابن مردويه مرفوعًا، وهو في رواية ابن أبي حاتم موقوف وهو أشبه إن صح إسناده والله أعلم وسيأتي أيضًا في الآية "٢٥٥" من طريق ابن أبي حاتم وأبي نعيم في "الحلية". هذا من حيث السند، وأما من حيث المتن فإني لا أجد أي علاقة بسبب نزول هذه الآية.
(٢) تفسير الطبري: ١١٧/٣.
(٣) صفوة التفاسير:٨٨/١.
(٤) تفسير الطبراني: ٩٢/١.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:١٤٢/١.
(٦) تفسير ابن أبي زمنين: ١٨٢/١.
(٧) المحرر الوجيز: ٢١٦/١.
(٨) تفسير البيضاوي: ١٠٩/١.

الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحث الدين على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومعالي الأمور"[١].

واختلف في تفسير قوله تعالى:{صِبْغَةَ اللَّهِ}[البقرة:١٣٨]، على أقوال[٢]:

أحدها: أن المعنى: دينُ الله. وهو قول: ابن عباس[٣]، وأبي العالية[٤]، ومجاهد[٥]، والحسن[٦]، وإبراهيم النخعي[٧]، وعبد الله بن كثير[٨]، والضحاك[٩]، وقتادة[١٠]، وعكرمة[١١]، وعطية العوفي[١٢]، والربيع بن أنس[١٣]، والسدي[١٤]، وابن زيد[١٥] [١٦].

وقد ذكروا في سبب تسمية دين الله بـ{صبغة الله}، وجوها[١٧]:

أحدها: "أن بعض النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون: هو تطهير لهم. وإذا فعل الواحد بولده ذلك قال: الآن صار نصرانيا. فقال الله تعالى: اطلبوا صبغة الله وهي الدين، والإسلام لا صبغتهم". قاله ابن عباس[١٨]، وأخرج الطبري عن قتادة[١٩]،وعطاء[٢٠]، نحو ذلك.

والسبب في إطلاق لفظ الصبغة على الدين طريقة المشاكلة كما تقول لمن يغرس الأشجار وأنت تريد أن تأمره بالكرم: اغرس كما يغرس فلان تريد رجلا مواظبا على الكرم، ونظيره قوله تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)} [البقرة : ١٤ -

---

(١) تفسير السعدي: ٦٨/١-٦٩.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ١١٨/٣-١١٩، وتفسير ابن كثير: ٤٥٠/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢١٢٣):ص١١٩/٣، وابن أبي حاتم(١٣١٣):ص٢٤٥/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢١١٦):ص١١٨/٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢١١٨)، و(٢١١٩)، و(٢١٢٠):ص١١٨/٣.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٤٥/١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٤٥/١.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٤٥/١.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٤٥/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢١١٥):ص١١٨/٣.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٤٥/١.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢١٢١):ص١١٨/٣.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢١١٧):ص١١٨/٣.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢١٢٢):ص١١٩/٣.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٢١٢٤):ص١١٩/٣.
(١٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٤٠٢/١-٤٠٣، جامع البيان للطبري: ١١٨/٣-١١٩، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٤٤/٢، معالم التنزيل للبغوي: ١٥٧/١، تفسير ابن كثير لابن كثير: ٢٣٤/١. وقال به أيضاً: أبو عبيدة في مجاز القرآن: ٥٩/١، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: ٦٤، والرازي في مفاتيح الغيب: ٩٥/٤-٩٦، وأبو حيان في البحر المحيط: ٤١١/١، وابن جزيء في التسهيل لعلوم التنزيل: ٩٩/١، وغيرهم.
(١٧) انظر: مفاتيح الغيب: ٧٥/٤ وما بعدها.
(١٨) مفاتيح الغيب: ٧٥/٤. وقد جاء هذا الخبر منسوبا الى ابن عباس في أسباب النزول للواحدي: ٤١، و الوسيط: ١ / ٢٠٦. وتفسير البغوي: ١٥٧/١. قال ابن عباس هي أن النصارى إذا ولد لأحدهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم أصفر يقال له المعمودي وصبغوه به ليطهروه بذلك الماء مكان الختان ، فإذا فعلوا به ذلك قالوا : الآن صار نصرانيا حقا فأخبر الله أن دينه الإسلام لا ما يفعله النصارى.
(١٩) انظر: تفسير الطبري(٢١١٣):ص١١٧/٣-١١٨.
(٢٠) انظر: تفسير الطبري(٢١١٤):ص١١٨/٣.

١٥]، {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} (النساء: ١٤٢)، {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ} [آل عمران : ٥٤]، {{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [الشورى : ٤٠]} (الشورى: ٤٠)، {إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ} [هود : ٣٨](١).

وثانيها: أن اليهود تصبغ أولادها يهودا والنصارى تصبغ أولادها نصارى، بمعنى يلقونهم فيصبغونهم بذلك لما يشربون في قلوبهم، عن قتادة قال ابن الأنباري: يقال: فلان يصبغ فلانا في الشيء، أي يدخله فيه ويلزمه إياه كما يجعل الصبغ لازما للثواب وأنشد ثعلب(٢):

دع الشر وأنزل بالنجاة تحرزا ... إذا أنت لم يصبغك في الشر صابغ(٣)

وثالثها: سمي الدين صبغة، لأن هيئته تظهر بالمشاهدة من أثر الطهارة والصلاة، قال الله تعالى: {سيماهم فى وجوههم من أثر السجود} [الفتح: ٢٩].

ورابعها: وقيل: أن قوله: {صبغة الله} متعلق بقوله: {قولوا ءامنا بالله} (البقرة: ١٣٦) إلى قوله: {ونحن له مسلمون} [العنكبوت: ٤٦] فوصف هذا الإيمان منهم بأنه صبغة الله تعالى، ليبين أن المباينة بين هذا الدين الذي اختاره الله، وبين الدين الذي اختاره المبطل ظاهرة جلية، كما تظهر المباينة بين الألوان والأصباغ لذي الحس السليم(٤).

والثاني:أن{صبغة الله}: فطرَة الله(٥). قاله: مجاهد(٦)، وعبدالله ابن كثير(٧).

وعلى قول هؤلاء تفسير الآية: "بل نتبع فطرة الله وملّته التي خلق عليها خلقه ، وذلك الدين القيم. من قول الله تعالى ذكره : { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [سورة الأنعام : ١٤]. بمعنى خالق السماوات والأرض:(٨).

قال الراغب: "الصبغة إشارة من الله- عز وجل- إلى ما أوجده فينا من بداية العقول التي ميزنا بها من البهائم ، رشحنا به لمعرفته ومعرفة حسن العدالة وطلب الحق وهو المشار إليه بالفطرة في قوله : {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} الآية"(٩).

قال الرازي: " ومعنى هذا الوجه، أن الإنسان موسوم في تركيبه وبنيته بالعجز والفاقة، والآثار الشاهدة عليه بالحدوث والافتقار إلى الخالق فهذه الآثار كالصبغة له وكالسمة اللازمة."(١٠)

كما وأن من حمل قوله: (صبغة الله) على الفطرة فهو مقارب في المعنى، لقول من يقول: هو دين الله، لأن الفطرة التي أمروا بها هو الذي تقتضيه الأدلة من عقل وشرع، وهو الدين أيضا، لكن الدين أظهر لأن المراد على ما بينا هو الذي وصفوا أنفسهم به في قوله {قولوا ءامنا بالله} فكأنه تعالى قال في ذلك: إن دين الله الذي ألزمكم التمسك به فالنفع به سيظهر دينا ودنيا كظهور حسن الصبغة، وإذا حمل الكلام على ما ذكرناه لم يكن لقول من يقول: إنما قال

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٧٥/٤.

(٢) البيت ورد في كتب التفاسير: مفاتيح الغيب: ٧٩/٤، وتفسير القاسمي: ٤٠٩/١، وروح البيان: ٣٠٤/١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ٧٥/٤.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب: ٧٥/٤.

(٥)انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة : ٥٩ .

(٦) انظر: تفسير الطبري(٢١٢٦)، و(٢١٢٧):ص١١٩/٣.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٢١٢٨):ص١١٩/٣.

(٨) تفسير الطبري: ١٢٠/٣.

(٩) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣٢٤/١.

(١٠) مفاتيح الغيب: ٨٠/٤.

ذلك لعادة جارية لليهود والنصارى في صبغ يستعملونه في أولادهم معنى لأن الكلام إذا استقام على أحسن الوجوه، بدونه فلا فائدة فيه[١].
الثالث: وقيل:هو غسل الله، أي اغتسلوا عند إسلامكم الغسل الذي أوجبه الله عليكم[٢].
وبهذا المعنى جاءت السنة الثابتة في قيس بن عاصم وثمامة بن أثال حين أسلما، روى احمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن ثمامة الحنفي أسر فمر به النبي صلى الله عليه وسلم يوما فأسلم ، فبعث به إلى حائط أبي طلحة فأمره أن يغتسل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قد حسن إسلام صاحبكم"[٣] .
الرابع: وقيل: هو الختان لأنّه يصبغ صاحبه بالدم[٤].
الخامس: وقيل: : إنه حجة الله، عن الأصم[٥].
السادس: وقيل: إنه خلقة الله، قاله أبو عبيدة[٦]، وأجازه الزجاج[٧].
من صبغت الثوب إذا غيّرت لونه وخلقته. فيكون المعنى: إنّ الله ابتدأ الخلقة على الإسلام، دليله قول مقاتل في هذه الآية: {فِطْرَتَ اللَّهِ}[الروم : ٣٠] أيْ "دِيْنَ اللهِ"[٨]، ويوضِّحه قول رسولِ الله صلى الله عليه وسلم:" ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه"[٩][١٠].
السابع: هو سنة الله. حكاه الثعلبي عن أبي عبيدة[١١].
الثامن: أن {صِبْغَةَ اللَّهِ}، أيْ: وجْهَةَ اللهِ ؛ بمَعْنَى القِبْلَةِ. قاله ابنُ كيسان[١٢].
التاسع: وقيل: إن القربة إلى الله تعالى يقال لها صبغة، حكاه ابن فارس في المجمل[١٣].
العاشر: وقيل :"صبغة الله على مراتب، أولها: ما ركب فينا من الهداية وهي الفطرة والثانية : الهداية بالتوفيق ، والثالثة : الهداية ببعثة الرسل ، والرابعة : الهداية في الترقي توليه إلى الدرجة العليا والسعادة القصوى"[١٤].
والصواب أن{صِبْغَةَ اللَّهِ} هو دين الله، وذلك للوجوه التي ذكرناها. والله تعالى أعلم.
وقد اختلف في أصل(الصبغة)على قولين[١٥]:
أحدهما: أن أصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء، وهو الذي يسمونه المعمودية ، ويقولون : هذا تطهير لهم. روي ذلك عن ابن عباس[١]، وقتادة[٢]،وعطاء[٣].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٧٦/٤.
(٢) انظر: تفسير القرطبي: ١٤٥/٢.
(٣) مسند أحمد(١٠٢١٧).
(٤) تفسير الثعلبي:٦/٢.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب: ٧٦/٤.
(٦) انظر: تفسير الثعلبي:٥/٢.
(٧) انظر: معاني القرآن: ٢١٥/١، وتفسير الثعلبي:٥/٢.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤٢/١.
(٩) رواه البخاري: (١٣٥٨)، ومسلم(٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(١٠) انظر: تفسير الثعلبي:٥/٢.
(١١) انظر: تفسير الثعلبي:٦/٢.
(١٢) انظر:تفسير الثعلبي:٥/٢، وتفسير الطبراني: ٩١/١.
(١٣) انظر: تفسير القرطبي: ١٤٥/٢.
(١٤) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣٢٥/١.
(١٥) انظر: تفسير القرطبي: ١٤٤/٢.

وقال بعض شعراء ملوك همدان(٤) :

وكل أناس لهم صبغة ... وصبغة همدان خير الصبغ
صبغنا على ذاك أبناءنا ... فأكرم بصبغتنا في الصبغ

فهذا يتمدح أنهم صبغوا أولادهم بصبغة معينة، تميزوا فيها عن أبناء القبائل الأخرى(٥).

الثاني: وقيل: إن الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول في الإسلام، بدلا من معمودية النصارى(٦).

قال القرطبي: "وعلى هذا التأويل يكون غسل الكافر واجبا تعبدا"(٧).

وتعددت أقوال أهل العلم في انتصاب {صِبْغَةَ اللَّهِ}[البقرة:١٣٨]، وفيه ثلاثة أوجه (٨):

الأول: أنه نصب على الإغراء، كقوله تعالى:{فِطْرَتَ اللَّهِ}[الروم : ٣٠]، أي: اتبعوا وألزموا صبغة الله. قاله ابن كثير(٩)، وأبو عبيدة(١٠).

قال الحافظ ابن حجر:" وكأن لفظ {صبغة} ورد بطريق المشاكلة(١١)؛ لأن النصارى كانوا يغمسون من ولد منهم في ماء المعمودية، ويزعمون أنهم يطهرونهم بذلك، فقيل للمسلمين: الزموا صبغة الله فإنها أطهر(١٢)"(١٣).

الثاني: أنه بدل من قوله: {مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ}(١٤). قاله الأخفش(١٥).

الثالث: وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله: {آمَنَّا بِاللَّهِ}، كقوله {وَاعْبُدُوا اللَّهَ}[النساء : ٣٦](١).

---

(١) أسباب النزول: ٤١.

(٢) انظر: تفسير الطبري(٢١١٣):ص٣/١١٧-١١٨.

(٣) انظر: تفسير الطبري(٢١١٤):ص٣/١١٨.

(٤) البيت من شواهد كتب التفاسير، مثل: تفسير القرطبي: ٢/١٤٤، والبحر المحيط: ١/٥٨٣.

(٥)تفسير القرطبي: ٢/١٤٤.

(٦) انظر: حكاه القرطبي عن الماوردي، ولم نقف عليه في النكت والعيون، انظر: تفسير القرطبي: ٢/١٤٤.

(٧)تفسير القرطبي: ٢/١٤٤.

(٨) انظر: تفسير الثعلبي: ٢/٦، وتفسير ابن كثير: ١/٤٥٠.

(٩) انظر: تفسير ابن كثير:١/٤٥٠.

(١٠) انظر: تفسير الثعلبي:٢/٦.

(١١) المشاكلة هي: أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً. فمثال التحقيق: قوله-عز وجل-: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [البقرة: ١٩٤]، فالعدوان من المشركين في اللفظ ظلم في المعنى، والعدوان الذي أمر الله به إنما هو القصاص، والقصاص عدل لا ظلم، وإن كان اللفظ واحداً. ومثال التقدير: هذه الآية إذ أمر الله بالتزام صبغته، أي: دينه، وهي لفظة في مقابل صبغة النصارى أولادهم بغمسهم في ماء المعمودية، فلفظ الصبغة لم يتقدم معناه في الحقيقة، وإنما هو أمر معروف من حال النصارى. انظر: الحجة للفارسي: ١/٢٣٦، مفتاح العلوم للسكاكي: ٢٠٠، جواهر البلاغة لأحمد الهاشمي: ٣٧٥، معجم المصطلحات البلاغية لأحمد مطلوب: ٦٢١-٦٢٢.

(١٢) ذكر هذا المعنى الواحدي في أسباب النزول-تحقيق أيمن شعبان-: ٤١، والبغوي في معالم التنزيل: ١/١٥٧، وأبو حيان في البحر المحيط: ١/٤١١ عن ابن عباس، وانظر ذلك في: معاني القرآن للفراء: ١/٨٢-٨٣، معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١/٢١٥، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ٢٤٩، الكشاف للزمخشري: ١/٣١٦، مفاتيح الغيب للرازي: ٤/٩٥، الدر المصون للسمين: ١/٣٨٨، أنوار التنزيل للبيضاوي: ١/٨٥، تيسير المنان تفسير القرآن للكوكباني: ٢/١٣٦٢-١٣٦٣، وغيرها.

(١٣) الفتح: ٨/١١.

(١٤) وكذلك رَفع (الصبغة) من رَفع (الملة)، على ردّها عليها، وقد يجوز رفعها على غير هذا الوجه. وذلك على الابتداء ، بمعنى : هي صبغةُ الله.(انظر: تفسير الطبري: ٣/١١٧).

(١٥) انظر: معاني القرآن: ١/١٥٩.

وقال الحافظ ابن حجر: " هو مصدر انتصب عن قوله: {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٦] على الأرجح(٢)"(٣).

وفي قوله تعالى:{صِبْغَةَ اللهِ}[البقرة: ١٣٨]، قراءتان(٤):

إحداهما: قراءة النصب: صِبْغَةَ الله}، وهي قراءة الجمهور.

والثانية: {صِبْغَةُ الله}، بالرفع، وهي قراءة شاذة قرأ بها الأعرج وابن أبي عبلة.

قوله تعالى:{وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً}[البقرة:١٣٨]، "أي لا أحد أحسن من الله صبغة(دينا وتطهيرا)"(٥).

قال أبو العالية:أي" ومن أحسن من الله دينا"(٦)، وروي عن مجاهد وإبراهيم النخعي والحسن والسدي والربيع بن أنس وعبد الله بن كثير نحو ذلك(٧).

قال مقاتل:" يعني الإسلام"(٨).

قال البيضاوي:أي:" لا صبغة أحسن من صبغته"(٩).

قال أبو السعود:" أي لا صبغة أحسنُ من صبغته تعالى"(١٠).

قال الصابوني:" ولا أحد أحسن من الله ديناً"(١١).

قال السعدي: قال على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} أي: لا أحسن صبغة من صبغته"(١٢).

قال القاسمي: "لأنها صبغة قلب لا تزول، لثباتها بما تولاها الحفيظ العليم، فلا يرتد أحد عن دينه سخطة له بعد أن خالط الإيمان بشاشة قلبه"(١٣).

وقال ابن عثيمين: أي: "لا أحد أحسن من الله صبغة، وذلك؛ لأن دين الله عزّ وجلّ مشتمل على المصالح، ودرء المفاسد؛ ولا يوجد دين يشتمل على هذا إلا ما جاء من عند الله، سواء كان الدين الإسلامي الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، أو الأديان الأخرى ما دامت قائمة لم تنسخ؛ ومجيء الاستفهام بمعنى النفي أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يتضمن التحدي؛ فإن

---

(١) حكاه عنه ابن كثير في تفسيره: ٤٥٠/١. ولم نقف عليه في الكتاب.

(٢) انظر نحواً من ذلك الترجيح في: البحر المحيط لأبي حيان: ٤١١/١-٤١٢، والدر المصون للسمين الحلبي: ٣٨٨/١، البيان في غريب إعراب القرآن لأبي البركات ابن الأنباري: ١٢٦/١، إملاء ما من به الرحمن للعكبري: ٦٦/١.

(٣) الفتح: ١١/٨.

(٤)انظر: الدر المصون للسمين: ٣٨٨/١، المحرر الوجيز لابن عطية: ٣٧٠/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٤١١/١.

(٥) تفسير البغوي: ١٥٨/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣١٥):ص٢٤٥/١.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٥/١.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:١٤٢/١.

(٩) تفسير البيضاوي: ١٠٩/١.

(١٠) تفسير أبي السعود: ١٦٨/١.

(١١) صفوة التفسير:٨٨/١.

(١٢) تفسير السعدي: ٦٨/١-٦٩.

(١٣) تفسير القاسمي: ٤٠٩/١-٤١٠.

القائل إذا قال: (ليس مثل زيد بشر) ليس كقوله: (مَنْ مثل زيد مِن البشر؟!)؛ فالثاني أبلغ: كأنه يتحدى المخاطب أن يأتي بأحد مثله[(١)].

قوله تعالى: {وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}[البقرة:١٣٨]، "أي ونحن نعبده جلّ وعلا ولا نعبد أحداً سواه"[(٢)].

قال مقاتل:" يعني موحدون"[(٣)].

قال الثعلبي:أي:" مطيعون"[(٤)].

قال البيضاوي:" تعريض بهم، أي لا نشرك به كشرككم"[(٥)].

قال البغوي: أي: "موحدون أو "مطيعون"[(٦)].

قال الآلوسي: أي:"متبعون ملة إبراهيم أو خاضعون مستكنون في إتباع تلك الملة"[(٧)].

قال أبو السعود:" أي لله الذي أولانا تلك النعمة الجليلة، {عابدون} شكراً لها ولسائر نعمه"[(٨)].

فـ(العبادة) التذلل لله عزّ وجلّ بفعل أوامره محبة له، واجتناب نواهيه تعظيماً له مع شعور الإنسان بمنزلته، وأن منزلته أن يكون عبداً لله عزّ وجلّ.

قال الراغب:"وقوله:{وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} تعريض بهم أي لا نشرك [به] كشرككم"[(٩)].

وتقديم المعمول في قوله تعالى: {لَهُ عَابِدُونَ}[البقرة:١٣٨]، على عامله هنا له فائدتان[(١٠)]:

أولهما: لفظية؛ وهي مراعاة فواصل الآيات.

والثانية: معنوية؛ وهي الحصر، والاختصاص؛ فهو كقوله تعالى: {إياك نعبد} [الفاتحة: ٥].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: وجوب الالتزام بدين الله؛ لأن المعنى: الزموا صبغة الله عزّ وجلّ.

٢- ومنها: أن هذا الدين حق؛ لأن الله سبحانه وتعالى أضافه إلى نفسه؛ وكل ما يضاف إلى الله عزّ وجلّ فإنه حق.

٣- ومنها: أن دين الله سبحانه وتعالى أحسن الأديان، وأكملها، وأشملها، وأقومها بمصالح العباد؛ لقوله تعالى: {ومن أحسن من الله صبغة}.

٤- ومنها: وجوب إخلاص العبادة لله؛ لقوله تعالى: {ونحن له عابدون}؛ فقدم المعمول لإفادة الحصر؛ وعبادة الله فخر، وشرف للعبد؛ ولهذا جاء وصف العبودية في المقامات العليا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فجاءت في مقام الدفاع عنه في قوله تعالى: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا} [البقرة: ٢٣] ؛ وفي مقام تكريمه بالإسراء في قوله تعالى: {سبحان الذي

---

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٤٣/٢.
(٢) صفوة التفاسير:٨٨/١.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:١٤٢/١.
(٤) تفسير الثعلبي:٦/٢.
(٥) تفسير البيضاوي: ٩١/١٠.
(٦) تفسير البغوي: ١٥٧/١.
(٧) روح المعاني: ٣٩٨/١.
(٨) تفسير أبي السعود: ١٦٨/١.
(٩) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣٢٥/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن عثيمين:٩٧/٢.

أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى} [الإسراء: ١] ، وفي مقام رسالته، مثل قوله تعالى: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً} [الكهف: ١].

٥ - ومن فوائد الآية: أن العقل يقضي بالتزام الدين؛ لقوله تعالى: {ومن أحسن من الله صبغة}؛ فإن العقل يهدي إلى التزام الأحسن؛ كل إنسان له عقل سليم فإن عقله يأمره بالتزام الأحسن.

القرآن

{قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩)} [البقرة : ١٣٩]

التفسير:

قل -أيها الرسول لأهل الكتاب-: أتجادلوننا في توحيد الله والإخلاص له، وهو رب العالمين جميعًا، لا يختص بقوم دون قوم، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ونحن لله مخلصو العبادة والطَّاعة لا نشرك به شيئًا، ولا نعبد أحدًا غيره.

قوله تعالى:{قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى اللَّهِ}[البقرة:١٣٩]،أي:"قل أتخاصموننا وتجادلوننا في دين الله الذي أمَرَنا أن نَدينه به"[(١)].

أخرج الطبري عن مجاهد : {قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى اللَّهِ}، قل : أتخاصموننا ؟"[(٢)]. وروي عن ابن عباس[(٣)]، ابن زيد[(٤)]، نحو ذلك.

قال الثعلبي: أي:" قُلْ يا محمّد لليهود والنصارى أتجادلوننا وتخاصمونا في دين الله وذلك بأن قالوا: يا محمّد إنّ الأنبياء كانوا منّا وعلى ديننا"[(٥)].

قال الراغب: "(المحاجة): المقاومة في إظهار الحجة البينة للحجة، أي المقصد، وقد ألزمهم بهذه الآية الحجة المذكورة في قوله : {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى} ، ولما كانت الشرائع مبنية بالقول المجمل على ثلاثة أشياء: الإقرار بالباري- عز وجل- ، والعمل له والإخلاص في ذلك قال، قل لهم إنا قد تشاركنا في الإقرار بالله- عز وجل- وفى العمل له ونحن قد حصل لنا الإخلاص [في ذلك] من دونكم"[(٦)].

قال المراغي: " المحاجة : المجادلة بدعوى الحق لدى كل من المتخاصمين مع إقامة الحجة على ذلك ، في الله : أي في دينه"[(٧)].

وقد اختلف أهل التفسير في تلك المحاجة وذكروا وجوها[(٨)]:

أحدها: أن ذلك كان قولهم أنهم أولى بالحق والنبوة لتقدم النبوة فيهم والمعنى: أتجادلوننا في أن الله اصطفى رسول من العرب لا منكم وتقولون: لو أنزل الله على أحد لأنزل عليكم، وترونكم أحق بالنبوة منا.

---

(١) تفسير الطبري: ١٢٢/٣.
(٢) تفسير الطبري(٢١٢٩):ص١٢١/٣.
(٣)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣١٦):ص٢٤٥/١.تفسير الطبري(٢١٣١):ص١٢١/٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢١٣٠):ص١٢١/٣.
(٥) تفسير الثعلبي:٦/٢.
(٦) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣٢٥/١.
(٧) تفسير المراغي: ٢٢٧/١.
(٨) انظر: مفاتيح الغيب: ٨١/٤.

قال صاحب الكشاف: "أتجادلوننا في شأن اللّه واصطفائه النبي من العرب دونكم ، وتقولون : لو أنزل اللّه على أحد لأنزل علينا"(١).
وقال :النسفي: أي "أتجادلوننا في شأن الله واصطفائه النبي من العرب دونكم وتقولون لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا وترونكم أحق بالنبوة منا"(٢).
وثانيها: قولهم: نحن أحق بالإيمان من العرب الذين عبدوا الأوثان.
وثالثها: قولهم؛ {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [المائدة : ١٨] وقولهم: {لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى} [البقرة : ١١١] وقولهم: {كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا} [البقرة : ١٣٥]، عن الحسن.
ورابعها: {قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى اللّهِ} أي: أتحاجوننا في دين الله.
قال ابن كثير:أي "أتناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد ، واتباع أوامره وترك زواجره"(٣).
خامسها: وقيل : لتقدم آبائنا وكتبنا(٤).
وقوله تعالى{فِى اللّهِ }[البقرة:١٣٩]، أي: "في دينه والقرب منه والحظوة له"(٥).
قال ابن عرفة:" سماها حجة مجازا، وإنما هي شبهة وليست حجة بوجه"(٦).
وفي قوله تعالى: {أَتُحَآجُّونَنَا}[البقرة:١٣٩]، وجهان من القراءة:
أحدهما: {أَتُحَآجُّونَنَا}، وهي قراءة الجماعة، فجاز اجتماع حرفين مثلين من جنس واحد متحركين، لأن الثاني كالمنفصل.
والثاني: {أَتُحَآجُّونَّا} بإدغام النون(٧)، لاجتماع المثلين. قرأ بها زيد بن ثابت.
قال الزجاج: "وهذا وجه جيد"(٨).
قال النحاس : "وهذا جائز إلا أنه مخالف للسواد"(٩).
ويجوز (أتحاجونا) بحذف (النون) الثانية ، كما قرأ نافع {فَبِمَ تُبَشِّرُونَ} [الحجر : ٥٤](١٠)، قال الشاعر(١١):
تراه كالثغام يعل مسكا ... يسوء الغانيات إذا فليني
يريد فلينني.
قال الزجاج: " ورأيت مذهب المازني وغيره رد هذه القراءة، وكذلك ردوا {فَبِمَ تُبَشِّرُونَ} [الحجر : ٥٤]،والأقدام على رد هذه القراءة غلط، لأن نافعا رحمه الله قرأ بها، وأخبرني إسماعيل بن إسحاق أن نافعا رحمه الله لم يقرأ بحرف إلا وأقل ما قرأ به إثنان من

---

(١) تفسير الكشاف: ١٩٧/١.
(٢) تفسير النسفي: ١٣٠/١.
(٣) تفسير ابن كثير: ٤٥١/١.
(٤) انظر: تفسير القرطبي: ١٤٥/٢.
(٥)تفسير القرطبي: ١٤٥/٢.
(٦) تفسير ابن عرفة: ٤٣٣/١.
(٧) انظر: تفسير الكشاف: ١٩٦/١.
(٨) معاني القرآن: ٢١٦/١.
(٩) تفسير القرطبي: ١٤٥/٢-١٤٦.
(١٠) انظر: معاني القرآن للزجاج: ٢١٦/١، وتفسير القرطبي: ١٤٥/٢-١٤٦.
(١١) لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد الزجاج في معاني القرآن: ٢١٧/١.

قراء المدينة، وله وجه في العربية فلا ينبغي أن يرد، ولكن (الفتح) في قوله: {فَبِمَ تُبَشِّرُونَ} [الحجر : ٥٤] أقوى في العربية"[١].

وفي مسألة المحاجة كانت مع من؟ ذكر المفسرون وجوها[٢]:

أحدها: أنه خطاب لليهود والنصارى. قاله مقاتل[٣]، والثعلبي[٤]، والبيضاوي[٥]، وابن عطية[٦] وغيرهما.

وثانيها: أنه خطاب مع مشركي العرب حيث قالوا: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف : ٣١]، والعرب كانوا مقرين بالخالق.

وثالثها: أنه خطاب مع الكل.

والقول الأول أشبه بالصواب وأليق بنظم الآية. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى:{وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ}[البقرة:١٣٩]، أي:" والله ربنا وربكم وهو الخالق وجميعنا خلقه"[٧].

قال البيضاوي:أي:" لا اختصاص له بقوم دون قوم، يصيب برحمته من يشاء من عباده"[٨].

قال ابن كثير:" أي: وهو تعالى المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له"[٩].

قال ابن عطية:أي:" والرب تعالى واحد "[١٠].

قال البغوي:" أي نحن وأنتم سواء في الله فإنه ربنا وربكم"[١١].

قال النسفي: أي: فنشرك جميعاً في أننا عباده، وهو ربنا وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده[١٢].

قال الصابوني:" أي ربُّ الجميع على السواء وكلُّنا عبيدة"[١٣].

قال أبو السعود: " أي أتجادلوننا والحالُ أنه لا وجه للمجادلة أصلاً ،لأنه تعالى ربُنا أي مالكُ أمرنا وأمركم"[١٤].

قال الآلوسي:"أي وهو:" تعالى مالك أمرنا وأمركم"[١٥].

---

(١) معاني القرآن: ٢١٦/١-٢١٧.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٨١/٤.
(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤٣/١.
(٤) انظر: تفسير الثعلبي:٦/٢.
(٥) انظر: تفسير البيضاوي: ١٠٩/١.

(٦) انظر: المحرر الوجيز: ٢١٦/١.
(٧) تفسير المراغي: ٢٢٨/١.
(٨) تفسير البيضاوي: ٠٩!/١.
(٩) تفسير ابن كثير: ٤٥١/١.
(١٠) المحرر الوجيز: ٢١٦/١.
(١١) تفسير البغوي: ١٧٥/١.
(١٢) انظر: تفسير النسفي: ١٣٠/١.
(١٣) صفوة التفاسير:٨٨/١.
(١٤) تفسير أبي السعود: ١٦٩/١.
(١٥) روح المعاني: ٣٩٦/١.

قال القاسمي: أي:" ونحن وأنتم في العبودية له سواء"[١].

قال أبو حيان:" المعنى : أنه مع اعترافنا كلنا أنا مربوبون لرب واحد ، فلا يناسب الجدال فيما شاء من أفعاله ، وما خص به بعض مربوباته من الشرف والزلفى ، لأنه متصرف في كلهم تصرف المالك"[٢].

وذكروا أن في قوله تعالى:{وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ}[البقرة:١٣٩]، وجهان[٣]:

الأول: أنه أعلم بتدبير خلقه وبمن يصلح للرسالة وبمن لا يصلح لها، فلا تعترضوا على ربكم، فإن العبد ليس له أن يعترض على ربه، بل يجب عليه تفويض الأمر بالكلية له.

الثاني: أنه لا نسبة لكم إلى الله تعالى إلا بالعبودية، وهذه النسبة مشتركة بيننا وبينكم، فلم ترجحون أنفسكم علينا، بل الترجيح من جانبنا لأنا مخلصون له في العبودية، ولستم كذلك، وهو المراد بقوله: {ونحن له} وهذا التأويل أقرب.

قوله تعالى:{وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ}[البقرة:١٣٩]، "أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم لا يتحمل أحد وزر غيره"[٤].

قال أبو السعود: أي {ولنا أعمالنا} الحسنةُ الموافقةُ لأمره، {وَلَكُمْ أعمالكم} السيئةُ المخالفة لحُكمه"[٥].

قال ابن عطية: أي:"وكل مجازى بعمله، فأي تأثير لقدم الدين؟"[٦].

قال النسفي: "يعني أن العمل هو أساس الأمر وكما أن لكم أعمالاً فلنا كذلك"[٧]، فإذا كان : "كل مجازى بعمله ، فأي تأثير لقدم الدين"[٨].

قال ابن عثيمين:" أي أننا لا نسأل عنكم، ولا تُسألون عنا؛ كل له عمله؛ وسيجازيه الله به يوم القيامة"[٩].

قال القاسمي:" أي نحن برءاء منكم ومما تعبدون، وأنتم برءاء منا. كما قال في الآية الأخرى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [يونس: ٤١] . وقال تعالى: {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} [آل عمران: ٢٠] الآية"[١٠].

قال البيضاوي:" فلا يبعد أن يكرمنا بأعمالنا، كأنه ألزمهم على كل مذهب ينتحلونه إفحاماً وتبكيتاً، فإن كرامة النبوة إما تفضل من الله على من يشاء والكل فيه سواء، وإما إفاضة حق على المستعدين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلي بالإخلاص. وكما أن لكم أعمالاً ربما يعتبرها الله في إعطائها، فلنا أيضاً أعمال"[١١].

---

(١) محاسن التأويل: ٤١٠/١.
(٢) البحر المحيط: ٣٥٨/١.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ٨١/٤.
(٤) صفوة التفاسير:٨٨/١.
(٥) تفسير أبي السعود: ١٦٩/١.
(٦) المحرر الوجيز: ٢١٦/١.
(٧) تفسير النسفي: ١٣٠/١.
(٨) تفسير القرطبي: ١٤٥/٢.
(٩) تفسير ابن عثيمين:٩٩/٢.
(١٠) محاسن التأويل: ٤١٠/١.
(١١) تفسير البيضاوي: ٠٩!/١.

قال الزجاج:"ثم أعلموهم أنهم مخلصون، وإخلاصهم إيمانهم بأن الله عز وجل واحد، وتصديقهم جميع رسله، فاعلموا أنهم مخلصون، دون من خالفهم"(١).
وقال الرازي: " فالمراد منه النصيحة في الدين كأنه تعالى قال لنبيه: قل لهم هذا القول على وجه الشفقة والنصيحة، أي لا يرجع إلى من أفعالكم القبيحة ضرر حتى يكون المقصود من هذا القول دفع ذلك الضرر وإنما المراد نصحكم وإرشادكم إلى الأصلح، وبالجملة فالإنسان إنما يكون مقبول القول إذا كان خاليا عن الأغراض الدنيوية، فإذا كان لشيء من الأغراض لم ينجع قوله في القلب ألبتة فهذا هو المراد فيكون فيه من الردع والزجر ما يبعث على النظر وتحرك الطباع على الاستدلال وقبول الحق"(٢).
قوله تعالى:{وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ}[البقرة:١٣٩]، أي: ونحن "مخلصون لله الدينَ، لا نشرك به شيئاً"(٣).
قال البيضاوي:أي:" موحدون، نخصه بالإيمان والطاعة دونكم"(٤).
قال الطبري:" إذ عبد بعضكم العجلَ، وبعضكم المسيحَ ، فأنَّى تكونون خيرًا منا ، وأولى بالله منا؟"(٥).
قال ابن عطية:" أي ولم تخلصوا أنتم، فكيف تدعون ما نحن أولى به منكم؟"(٦).
قال أبو السعود: أي مخلصون له" في تلك الأعمال لا نبتغي بها إلا وجهَه، فأنّى لكم المُحاجّةُ وادعاء حقية ما أنتم عليه والطمع في دخول الجنة بسببه ودعوةِ الناس إليه"(٧).
قال القاسمي:أي" لا نشرك به شيئا، وأنتم تشركون به عزيرا والمسيح والأحبار والرهبان"(٨).
قال النسفي:"والمخلص أحرى بالكرامة وأولى بالنبوة من غيره(٩)،
قال القرطبي: "وفيه معنى التوبيخ ، أي ولم تخلصوا أنتم فكيف تدعون ما نحن أولى به منكم"(١٠).
قال البقاعي:" ونحن أحسن أعمالاً منكم لأنا دونكم (له) وحده (مخلصون) لا نشرك به شيئاً وأنتم تشركون به عزيراً والمسيح والأحبار والرهبان ، وأنتم تعلمون ذلك في باطن الأمر وإن أظهرتم خلافه ، فلزم قطعاً أنا أخص به منكم"(١١).
قال صاحب الكشاف: " ثم قال {وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} فجاء بما هو سبب الكرامة ، أى ونحن له موحدون نخلصه بالإيمان فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه لكرامته بالنبوّة ، وكانوا يقولون : نحن أحق بأن تكون النبوة فينا ، لأنا أهل كتاب والعرب عبدة أوثان"(١٢).

---

(١) معاني القرآن: ٢١٧/١.
(٢) مفاتيح الغيب: ٨١/٤.
(٣) تفسير ابن عثيمين:٩٩/٢.
(٤) تفسير البيضاوي: ١٠٩/١.
(٥) تفسير الطبري: ١٢٢/٣.
(٦) المحرر الوجيز: ٢١٦/١.
(٧) تفسير أبي السعود: ١٦٩/١.
(٨) محاسن التأويل: ٤١٠/١.
(٩) تفسير النسفي: ١٣٠/١.
(١٠) تفسير القرطبي: ١٤٦/٢.
(١١) تفسير البقاعي: ٢٥٧/١-٢٥٨.
(١٢) تفسير الكشاف: ١٩٧/١.

قال الثعلبي:" وهذه الآية منسوخة بآية السّيف"[١].

قال القرطبي:" والإخلاص حقيقته تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين"[٢].

وقيل: أن" الإخلاص: عزل النفس جملة ، فلا يبلغ عبد حقيقته حتى لا يحب أن يحمد على عمل"[٣].

والإخلاص في اللغة: خَلَص يخلص خلوصًا: صفا وزال عنه شوبه، ويقال: خلص من ورطته: سلم منها، ونجا، ويقال: خلَّصه تخليصًا: أي نجّاه. والإخلاص في الطاعة: ترك الرياء[٤].

وحقيقة الإخلاص: استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن، والرياء أن يكون ظاهره خيرًا من باطنه، والصدق في الإخلاص أن يكون باطنه أعْمَرَ من ظاهره.

وقيل: تصفية العمل من كل ما يشوبه[٥].

ولهذا قال القاضي عياض: "تَرْك العمل من أجل الناس رياءٌ، والعملُ من أجل الناس شركٌ، والإخلاصُ أن يعافيَكَ الله منهما" [٦].

والإخلاص: في حياة المسلم أن يَقصد بعمله، وقوله، وسائر تصرفاته، وتوجيهاته وتعليمه وجه الله تعالى وحده لا شريك له ولا رب سواه.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: الإنكار على اليهود والنصارى الذين يحاجون المسلمين في الله مع إقرارهم بأنه ربهم؛ لقوله تعالى: {قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم}.

٢- ومنها: وجوب البراءة من أعمال الكفار؛ لقوله تعالى: {ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم}؛ فإن المراد بذلك البراءة مما هم عليه.

٣- ومنها: أنه ينبغي للمرء أن يفتخر بما هو عليه من الحق؛ لقوله تعالى: {ولنا أعمالنا} أي فنحن مفتخرون بها بريئون من أعمالكم.

٤- ومنها: أنه لا يجوز التشبه بأعداء الله؛ لأن المشابهة موافقة في العمل؛ لهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من تشبه بقوم فهو منهم»[٧]؛ وهنا قال تعالى: {ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم}: فنحن متميزون عنكم، وأنتم متميزون عنا.

٥- ومنها: وجوب الإخلاص لله؛ لتقديم المعمول في قوله تعالى: {ونحن له مخلصون}.

القرآن

---

(١) تفسير الثعلبي:٦/٢.

(٢) تفسير القرطبي: ١٤٦/٢

(٣) تفسير البقاعي: ٢٥٧/١-٢٥٨.

(٤) المعجم الوسيط، ٢٤٩/١، ومختار الصحاح، ص٧٧.

(٥) مدارج السالكين، لابن القيم، ٩١/٢.

(٦) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم، ٩١/٢.

(٧)أخرجه أحمد ٥٠/٢، حديث رقم ٥١١٤، وأخرجه أبو داود ص١٥١٨، كتاب اللباس، باب ٤: في لبس الشهرة، حديث رقم ٤٠٣١، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنفن كتاب السير، باب ٧٩: ما قالوا فيما ذكر من الرماح واتخاذها، حديث رقم ٣٣٠٠٦، قال الحافظ في الفتح ٢٧١/١٠: أخرجه أبو داود بسند حسن؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح ٥٠٤/٢، وقال في الإرواء: صحيح ١٠٩/٥، حديث رقم ١٢٦٩.

{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)} [البقرة : ١٤٠]

التفسير:

بل أتقولون مجادلين في الله: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط- وهم الأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة من ولد يعقوب- كانوا على دين اليهود أو النصارى؟ وهذا كذب؛ فقد بُعِثوا وماتوا قبل نزول التوراة والإنجيل. قل لهم -أيها الرسول-: أأنتم أعلم بدينهم أم الله تعالى؟ وقد أخبر في القرآن بأنهم كانوا حنفاء مسلمين، ولا أحد أظلم منكم حين تخفون شهادة ثابتة عندكم من الله تعالى، وتدَّعون خلافها افتراء على الله. وما الله بغافل عن شيء من أعمالكم، بل هو مُحْصٍ لها ومجازيكم عليها.

قوله تعالى: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى}[البقرة:١٤٠]، أي" أم تقولون إن امتيازكم باليهودية أو النصرانية التي أنتم عليها إنما كان بأن هؤلاء الأنبياء كانوا عليها"(١).

قال البيضاوي:"يعني:"أيّ الأمرين تأتون المحاجة، أو ادعاء اليهودية، أو النصرانية على الأنبياء"(٢).

قال الزجاج:" كأنهم قالوا لهم: بأي الحجتين تتعلقون في أمرنا؟
أبالتوحيد فنحن موحدون، أم باتباع دين الأنبياء فنحن متبعون"(٣).

قال الزمخشري: المعنى:" أىّ الأمرين تأتون: ألمحاجة في حكمة اللَّه أم ادّعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء؟"(٤).

قال ابن كثير: أنكر تعالى عليهم ، في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم ، إما اليهودية وإما النصرانية"(٥).

قال ابن عثيمين: أي: " بل أتقولون أن إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كانوا على ملة اليهودية، والنصرانية، وهذا من سفه هؤلاء اليهود الذين يدعون ذلك؛ لأن أصل اليهودية، والنصرانية حدثت بعد هؤلاء؛ فكيف يكون هؤلاء هوداً، أو نصارى؟!!!"(٦).

ولا يخفى بأن هذه دعوى كاذبة؛ فليس هؤلاء هوداً، ولا نصارى؛ بل إن الله سبحانه وتعالى قال موبخاً لهؤلاء مبيناً ضلالهم ـــ الذين ادعوا أن إبراهيم كان يهودياً، أو نصرانياً {ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين} [آل عمران: ٦٧] ، وقال تعالى: {وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون} [آل عمران: ٦٥] ؛ فكيف كون يهودياً أو نصرانياً وكتاب اليهود والنصارى لم ينزل إلا من بعد إبراهيم؟!!! (٧).

---

(١) تفسير المراغي: ٢٢٩/١.

(٢) تفسير البيضاوي: ١١٠/١.
(٣) معاني القرآن: ٢١٧/١.
(٤) الكشاف: ١٩٧/١.
(٥) تفسير ابن كثير: ٤٥١/١.
(٦) تفسير ابن عثيمين: ١١/٢-١٠١.[بتصرف بسيط].
(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين:١٠١/٢.

وفي قوله تعالى:{أَمْ تَقُولُونَ}[البقرة:١٤٠]، قراءتان[١]:

إحداهما: قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: {أَمْ تَقُولُونَ} بالتاء على المخاطبة، كأنه قال: أتحاجوننا أم تقولون.

قال القرطبي: " وهي قراءة حسنة، لأن الكلام متسق، كأن المعنى: أتحاجوننا في الله أم تقولون إن الأنبياء كانوا على دينكم ، فهي (أم) المتصلة"[٢]، ويحتمل أن تكون(أم) المنقطعة بمعنى: بل أتقولون والهمزة للإنكار أيضا.

الثاني: وقراءة الباقين:{أَمْ يقُولُونَ} بالياء على أنه إخبار عن اليهود والنصارى، وعلى هذا الوجه تكون(أم) منقطعة، لانقطاع معناه بمعنى الانقطاع إلى حجاج آخر غير الأول، كأنه قيل: أتقولون إن الأنبياء كانوا قبل نزول التوراة والإنجيل هودا أو نصارى.

والراجح من القراءة (أم تقولون) بالتاء، وذلك لأنه اليق بالسياق[٣]، والقراءة بالياء قراءة شاذة عن عامة القراء. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: (وإسماعيل): هو أكبر أولاد إبراهيم؛ وهو الذي أمر الله أباه أن يذبحه؛ والقصة مبسوطة في سورة الصافات.

قوله تعالى: (وإسحاق): هو أخو إسماعيل؛ وهو الولد الثاني لإبراهيم -عليه السلام-؛ (ويعقوب): هو ابن إسحاق؛ وهو الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل؛ (والأسباط) سبق الكلام على بيانهم.

قوله تعالى: (كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى) يعني كانوا على ملة اليهودية، والنصرانية؛ وهذا من سفه هؤلاء اليهود الذين يدعون ذلك؛ لأن أصل اليهودية، والنصرانية حدثت بعد هؤلاء؛ فكيف يكون هؤلاء هوداً، أو نصارى؟!!!

ولا إشكال بأن هذه الآية أيضًا احتجاجٌ من الله تعالى ذكره لنبيّه صلى الله عليه وسلم على اليهود والنصارى ، الذين ذكر الله قَصَصهم. يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قُلْ يا محمد - لهؤلاء اليهود والنصارى - : أتحاجُّوننا في الله ، وتزعمون أن دينكم أفضلُ من ديننا ، وأنكم على هدى ونحنُ على ضَلالة ، ببرهان من الله تعالى ذكره ، فتدعوننا إلى دينكم ؟ فهاتوا برهانكم على ذلك فنتبعكم عليه ، أم تقولون : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباط كانوا هودًا أو نَصَارَى على دينكم ؟ فهاتُوا - على دعواكم ما ادّعيتم من ذلك - برهانًا فنصدِّقكم ، فإن الله قد جَعلهم أئمة يقتدى بهم[٤].

قال الرازي: إنما أنكر الله تعالى ذلك القول عليهم لوجوه[٥]:

---

(١) انظر: السبعة في القراءات: ١٧١، والحجة: ٢/٢٢٨-٢٢٩، وتفسير الثعلبي:٢/٧، وتفسير الطبري: ٣/١٢٢-١٢٣، ومفاتيح الغيب: ٤/٨١، وتفسير القرطبي: ٢/١٤٦-١٤٧.

(٢) تفسير القرطبي: ٢/١٤٦.

(٣) يقول الطبري: "(أم تقولون) بالتاء دون الياء عطفًا على قوله : " قل أتحاجُّوننا " ، بمعنى : أيّ هذين الأمرين تفعلون ؟ أتجادلوننا في دين الله ، فتزعمون أنكم أولى منا وأهدى منا سبيلا - وأمرنا وأمركم ما وصفنا ، على ما قد بيناه آنفًا - أمْ تزعمون أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ ، ومن سَمَّى الله ، كانوا هُودًا أو نصارَى على ملتكم ، فيصحّ للناس بَهتكم وكذبكم ، لأن اليهودية والنصرانية حدثت بعد هؤلاء الذين سماهم الله من أنبيائه".(تفسير الطبري: ٣/١٢٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٣/١٢٣.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب: ٤/٨١.

أحدها: لأن محمدا صلى الله عليه وسلم ثبتت نبوته بسائر المعجزات، وقد أخبر عن كذبهم في ذلك فثبت لا محالة كذبهم فيه.
وثانيها: شهادة التوراة والإنجيل على أن الأنبياء كانوا على التوحيد والحنيفية.
وثالثها: أن التوراة والإنجيل أنزلا بعدهم.
ورابعها: أنهم ادعوا ذلك من غير برهان فوبخهم الله تعالى على الكلام في معرض الاستفهام على سبيل الإنكار والغرض منه الزجر والتوبيخ وأن يقرر الله في نفوسهم أنهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين فيما يقولون.

قوله تعالى:{قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ}[البقرة:١٤٠]، أي: " أأنتم أعلم بهم وبما كانوا عليه من الأديان ، أم الله ؟"[١].

قال القرطبي:"وهو تقرير وتوبيخ في ادعائهم بأنهم كانوا هودا أو نصارى، فرد الله عليهم بأنه أعلم بهم منكم، أي لم يكونوا هودا ولا نصارى"[٢].

قال ابن عثيمين:" ومن المعلوم أنه لا أحد أعلم من الله عزّ وجلّ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى قال ذلك إلزاماً للخصم حتى يتبين بطلان ما ادعاه؛ وهو كقوله تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل : ٥٩]؛ ومن المعلوم أن الله خير مما يشركون؛ لكن من أجل إفحام الخصم، وإلزامه بما هو ظاهر لا إشكال فيه"[٣].

قوله تعالى:{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ}[البقرة:١٤٠]، "يعني: لا أحد أظلم في كتمان الشهادة ممن كتم شهادة عنده من الله"[٤].

قال ابن عثيمين: أي:" وأيُّ امرئ أظلم منهم ؟ وقد كتموا شهادةً عندهم من الله بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباطَ كانوا مسلمين ، فكتموا ذلك ، ونحلُوهم اليهودية والنصرانية"[٥].

قال الزمخشري:"وفيه تعريض بكتمانهم شهادة اللّه لمحمد صلى اللّه عليه وسلم بالنبوّة في كتبهم وسائر شهاداته"[٦].

قال الربيع :"أهلُ الكتاب، كتموا الإسلام وهم يعلمون أنه دينُ الله، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل : أنّهم لم يكونوا يهودَ ولا نصارَى ، وكانت اليهودية والنصرانية بعد هؤلاء بزمان"[٧]. وروي عن مجاهد[٨]، والحسن[٩]، نحو ذلك.

وقال قتادة: "أولئك أهل الكتاب كتموا الإسلام وهم يعلمون أنه دينُ الله ، واتخذوا اليهودية والنصرانية ، وكتموا محمدًا صلى الله عليه وسلم ، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل"[١٠].

---

(١) تفسير الطبري: ١٢٤/٣.
(٢) تفسير القرطبي: ١٤٧/٢.
(٣) تفسير ابن عثيمين:١٠١/٢.
(٤) تفسير ابن عثيمين:١٠١/٢.
(٥) تفسير ابن عثيمين:١٠١/٢.
(٦) الكشاف: ١٩٧/١.
(٧)انظر: تفسير الطبري(٢١٣٥):ص١٢٥/٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢١٣٢)،(٢١٣٣):ص١٢٤/٣.
(٩)انظر: تفسير الطبري(٢١٣٤):ص١٢٥/٣.
(١٠)انظر: تفسير الطبري(٢١٣٦)، (٢١٣٧):ص١٢٦/٣-١٢٧.

وفي قوله تعالى:{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ}[البقرة:١٤٠]، ثلاثة أوجه[١]:
أحدها: أن في الآية تقديما وتأخيرا والتقدير: ومن أظلم عند الله ممن كتم شهادة حصلت عنده كقولك: ومن أظلم من زيد من جملة الكاتمين للشهادة والمعنى: لو كان إبراهيم وبنوه هود أو نصارى، ثم إن الله كتم هذه الشهادة لم يكن أحد ممن يكتم شهادة أظلم منه لكن لما استحال ذلك مع عدله وتنزهه عن الكذب، علمنا أنه ليس الأمر كذلك.
وثانيها: ومن أظلم منكم معاشر اليهود والنصارى إن كتمتم هذه الشهادة من الله فمن في قوله: {من الله} تتعلق بالكاتم على القول الأول وبالمكتوم منه على القول الثاني كأنه قال: ومن أظلم ممن عنده شهادة فلم يقمها عند الله بل كتمها وأخفاها.
وثالثها: أن يكون: (من) في قوله: (مِنَ اللَّهِ) صلة الشهادة والمعنى: ومن أظلم ممن كتم شهادة جاءته من عند الله فجحدها كقول الرجل لغيره عندي شهادة منك، أي شهادة سمعتها منك وشهادة جاءتني من جهتك ومن عندك.
وذكر الزمخشري في قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ}[البقرة:١٤٠]، معنيين[٢]:
أحدهما: أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم، لأنهم كتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها.
والثاني: أنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منا فلا نكتمها.
واختلف في قوله تعالى:{مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً}[البقرة:١٤٠]، على قولين[٣]:
أحدهما: يريد علمهم بأن الأنبياء كانوا على الإسلام. قاله مجاهد[٤]، والربيع[٥] والحسن[٦].
والثاني: يريد: ما كتموه اليهود من أمر محمد صلى الله عليه وسلم ونبوَّته، وهم يعلمون ذلك ويجدونه في كتبهم. قاله قتادة[٧]، والربيع[٨]، وابن زيد[٩].
والقول الأول أشبه بسياق الآية، إذ جاء إثر سرد قصة أنبيائه لهم. والله تعالى أعلم.
قوله تعالى:{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[البقرة:١٤٠]، يعني: "أن الله عزّ وجلّ لا يغفل عما يعمل هؤلاء؛ بل هو جل وعلا عالم به، وسوف يحاسبهم عليه"[١٠].
قال النسفي:" من تكذيب الرسل وكتمان الشهادة"[١١].
قال الصابوني:" أي مطلع على أعمالهم ومجازيهم عليها وفيه وعيد شديد"[١٢].
قال البيضاوي:" وعيد لهم"[١٣].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٢/٤.
(٢) انظر: الكشاف: ١٩٧/١.
(٣) انظر: تفسير القرطبي: ١٤٧/٢، وتفسير ابن كثير: ٤٥١/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢١٣٢)،(٢١٣٣):ص١٢٤/٣.
(٥)انظر: تفسير الطبري(٢١٣٥):ص١٢٥/٣.
(٦)انظر: تفسير الطبري(٢١٣٤):ص١٢٥/٣.
(٧)انظر: تفسير الطبري(٢١٣٦)، (٢١٣٧):ص١٢٦/٣-١٢٧.
(٨)انظر: تفسير الطبري(٢١٣٦):ص١٢٦/٣.
(٩)انظر: تفسير الطبري(٢١٣٩):ص١٢٧/٣.
(١٠) تفسير ابن عثيمين:١٠٢/٢.
(١١) تفسير النسفي: ١٢٩/١.
(١٢) صفوة التفاسير:٨٩/١.
(١٣) تفسير البيضاوي: ١١٠/١.

قال ابن كثير: والقول فيه تهديد ووعيد شديد ، أي : أن علمه محيط بعملكم ، وسيجزيكم عليه [1].

قال أبو السعود:" يدخُل فيها كتمانُهم لشهادته سبحانه وافتراؤهم على الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسلام دُخولاً أولياً أي هو محيطٌ بجميع ما تأتونَ وما تذرونَ فيعاقبُكم بذلك أشد عقاب"[2].

وقرِئ: {عما يعملون}، على صيغة الغَيْبة، فالضميرُ إما لمن كَتَم باعتبار المعنى وإما لأهلِ الكتاب[3].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: إبطال دعوى هؤلاء اليهود، والنصارى أن إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، كانوا هوداً أو نصارى؛ فهذه الدعوى باطلة؛ بل وصفُ هؤلاء الإسلام؛ فإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط ليسوا هوداً، ولا نصارى؛ بل هم مسلمون لله سبحانه وتعالى.

٢- ومنها: رد علم هذه الأشياء إلى الله؛ لقوله تعالى: {أأنتم أعلم أم الله}.

٣- ومنها: الرد على أهل التحريف في أسماء الله، وصفاته الذين يقولون: «إن هذا جائز عقلاً على الله؛ فنقر به؛ وهذا يمتنع عقلاً على الله؛ فلا نقر به» كالمعتزلة، والأشاعرة، ونحوهم؛ نقول لهم كلهم في الجواب: {أأنتم أعلم أم الله}: أأنتم أعلم بما يجوز على الله، ويمتنع عليه، ويجب له، أم الله أعلم بما يمتنع عليه، ويجب له، ويجوز له؟!!! وهذه في الحقيقة حجة ملزمة مفحمة مقحمة لهؤلاء الذين يتحكمون في صفات الله تعالى بعقولهم، فيقولون: «يجب لله كذا؛ يمتنع عليه كذا»؛ نقول: {أأنتم أعلم أم الله}.

٤- ومن فوائد الآية: عظم كتم العلم؛ لقوله تعالى: {ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله}؛ فإن العالم بشريعة الله عنده شهادة من الله بهذه الشريعة، كما قال الله تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم} [آل عمران: ١٨] ؛ فكل إنسان يكتم علماً فقد كتم شهادة عنده من الله؛ ثم إن في هذا عظم إثمه؛ لقوله تعالى: {ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله}.

٥- ومنها: كمال علم الله، ومراقبته لعباده؛ لقوله تعالى: {وما الله بغافل عما تعملون}.

٦- ومنها: ثبوت الصفات المنفية؛ وهي ما نفاه الله سبحانه وتعالى عن نفسه؛ لقوله تعالى: {وما الله بغافل عما تعملون}؛ فإن هذه صفة منفية، وليست ثبوتية؛ والصفات المنفية متضمنة لإثبات كمال ضدها؛ فلكمال مراقبته، وعلمه سبحانه وتعالى ليس بغافل عما نعمل.

٧- ومنها: تخويف الإنسان، وإنذاره من المخالفة؛ لقوله تعالى: {وما الله بغافل عما تعملون}؛ فإياك والمخالفة؛ مثلما تهدد إنساناً بشيء تقول: لست بغافل عنك.

٨- ومنها: إضافة العمل إلى العامل؛ ففيه رد على الجبرية الذين يقولون: «إن الإنسان مجبر على عمله»؛ لقوله تعالى: {عما تعملون}.

القرآن

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٥٢/١.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٧٠/١.

(٣) اظر: تفسير البيضاوي: ١١٠/١، وتفسير أبي السعود: ١٧٠/١.

{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)} [البقرة : ١٤١]

التفسير:

تلك أُمَّة من أسلافكم قد مضَتْ، لهم أعمالهم ولكم أعمالكم، ولا تُسْألون عن أعمالهم، وهم لا يُسْألون عن أعمالكم. وفي الآية قطع للتعلق بالمخلوقين، وعدم الاغترار بالانتساب إليهم، وأن العبرة بالإيمان بالله وعبادته وحده، واتباع رسله، وأن من كفر برسول منهم فقد كفر بسائر الرسل.

وهذه الآية جاءت تأكيدا وقد تقدم تفسيرها[١]، وكررها، "لقطع التعلق بالمخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال"[٢].

قال الصابوني:" كرّرها، لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي إذا كان أولئك الأنبياء على فضلهم وجلاله قدرهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى "[٣].

قال البيضاوي:" تكرير للمبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم. قيل: الخطاب فيما سبق لهم، وفي هذه الآية لنا تحذيراً عن الاقتداء بهم. وقيل: المراد بالأمة في الأول الأنبياء، وفي الثاني أسلاف اليهود والنصارى"[٤].

قوله تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ}[البقرة:١٤١]، "أي: إن جماعة الأنبياء قد مضت بالموت"[٥].

قال الصابوني: " أي تلك جماعة وجيل قد سلف ومضى"[٦].

قال الطبري: أي: "مضت لسبيلها، فصارت إلى ربها، وخَلَتْ بأعمالها وآمالها"[٧].

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قوله: "{تلك}، يعني" هذه"[٨].

وقوله تعالى:{تِلْكَ أُمَّةٌ}[البقرة:١٤١]، يعني :إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ. قاله قتادة[٩]، والربيع[١٠]، وأبو العالية[١١].

قال البيضاوي:" يعني إبراهيم ويعقوب وبنيهما"[١٢].

قال ابن عثيمين:" المشار إليه إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ومن سبق؛ وكان اليهود يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم في هؤلاء؛ فبين الله تعالى أن هذه أمة قد مضت"[١٣].

قال ابن كثير:" ولهذا جاء ، في الأثر : "من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه"[١][٢].

---

(١) وقد سبق ان تناولنا معاني الآية في الآية رقم(١٣٤) من السورة.
(٢) تفسير السعدي :٧٠/١.
(٣) صفوة التفاسير:٨٩/١.
(٤) تفسير البيضاوي: ١١٠/١.
(٥) تفسير المراغي: ٢٣٠/١.
(٦) صفوة التفاسير:٨٦/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ١٢٨/٣.
(٨) تفسير ابن أبي حاتم(١٢٨٦):ص٢٤٠/١.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢١٤٠):ص١٢٨/٣.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢١٤١):ص ١٢٨/٣.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٨٧):ص٢٤١/١.
(١٢) تفسير البيضاوي: ١٠٨/١.
(١٣) تفسير ابن عثيمين:٨٠/٢.

قال الطبري: " وإنما قيل للذي قد مات فذهب : (قد خلا)، لتخليه من الدنيا وانفراده، عما كان من الأنس بأهله وقرنائه في دنياه، وأصله من قولهم : (خلا الرجل)، إذا صار بالمكان الذي لا أنيس له فيه ، وانفرد من الناس. فاستعمل ذلك في الذي يموت ، على ذلك الوجه"(٣).

و(الأمة) في الأصل: "المقصود، وسمي بها الجماعة، لأن الفرق تؤمها"(٤).

قوله تعالى:{لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ}[البقرة:١٤١]، " أي :لها ما كسبت من الأعمال ، ولكم ما كسبتم منها"(٥).

قال الثعلبي: أي:" من الدين والعمل"(٦).

قال الطبري: أي:"لها عند الله ما كسبت من خير في أيام حياتها ، وعليها ما اكتسبت من شر ، لا ينفعها غيرُ صالح أعمالها ، ولا يضرها إلا سيِّئها"(٧).

قال الصابوني:" أي لها ثواب ما كسبت، ولكم ثواب ما كسبتم"(٨).

قال سعيد:" يعني ما عملت من خير أو شر"(٩).

قال ابن كثير:"أي : إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرًا يعود نفعهُ عليكم ، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم"(١٠).

قال البيضاوي:أي" لكل أجر عمله، والمعنى أن انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم»(١١)"(١٢).

قال النسفي:" أي إن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أو متأخراً ، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم وذلك لافتخارهم بآبائهم"(١٣).

قوله تعالى:{ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[البقرة: ١٤١]، " أي لا تسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا بل كل نفسٍ تتحمل وحدها تبعة ما اكتسبت من سوء"(١٤).

---

(١)رواه مسلم(٢٦٩٩) من حديث أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رفعه به ، في حديث أوله : "من نفَّس عن مؤمن كربة ، لكن بلفظ : من بطأ ، بدون ألف ، وكذا هو بهذا اللفظ عند العسكري من حديث أبي عوانة وعبد اللَّه بن سيف ، فرقهما ، كلاهما عن الأعمش ، ورواه القضاعي من حديث زائدة به بلفظ الترجمة ، وعن محمد بن النضر الحارثي قال : من فاته حسب نفسه يعني الدين لم ينفعه حسب أبيه".

(٢)تفسير ابن كثير: ٤٤٨/١.

(٣) تفسير الطبري: ١٠٠/٣.

(٤) تفسير البيضاوي: ١٠٨/١.

(٥) تفسير المراغي: ٢٣٠/١.

(٦) تفسير الثعلبي:٢٨٢/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ١٢٨/٣.

(٨) صفوة التفاسير:٨٦/١.

(٩) اخرجه ابن أبي حاتم(١٢٨٨):ص٢٤١/١.

(١٠) تفسير ابن كثير: ٤٤٧/١-٤٤٨.

(١١)الحديث:" غريب جدا، قال ابن حجر في الكافي(ص:١٢):"لم أجده". وأخرج الطبراني حديثا بمعناه في معجمه الكببير:(٣٥٤):ص١٦١/١٨، وبمعناه أيضا ماذكره الحكيم الترمذي في نواد الأصول(٢٦٥)، وانظر: نصوص أخرى بنحوها ذكرها السيوطي في الدر المنثور:٩٦/٥.

(١٢) تفسير البيضاوي: ١٠٨/١.

(١٣) تفسير النسفي:٨٩/١.

(١٤) صفوة التفاسير:٨٦/١.

قال النسفي: أي:" ولا تؤاخذون بسيئاتهم"[١].

قال ابن عثيمين: أي "لا تُسألون عن أعمال من سبقكم، لأن لهم ما كسبوا، ولكم ما كسبتم "[٢].

قال القرطبي: "أي: لا يؤاخذ أحد بذنب أحد، مثل قوله تعالى : {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام : ١٦٤] أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى"[٣].

قال الثعلبي:" وإنّما تسألون عمّا تعملون أنتم"[٤].

قال البيضاوي:" أي لا تؤاخذون بسيئاتهم، كما لا تثابون بحسناتهم[٥].

قال الصابوني:" أي لا تسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا بل كل نفسٍ تتحمل وحدها تبعة ما اكتسبت من سوء"[٦].

قال القاسمي:" أي فعليكم بترك الكلام في تلك الأمة. فلها ما كسبت. وانظروا فيما دعاكم إليه خاتم النبيين محمد صلّى الله عليه وسلّم فإن ذلك أنفع لكم وأعود عليكم. ولا تسألون إلا عن عملكم"[٧].

قال المراغي: أي: "ولا يسأل أحد عن عمل غيره، بل يسأل عن عمل نفسه ويجازى به ، فلا يضره ولا ينفعه سواه ، وهذه قاعدة أقرتها الأديان جميعا وأيّدها العقل كما قال : {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨)وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} [النجم : ٣٨-٣٩]، لكن غلبة الجهل جعلت الناس يعتمدون في طلب سعادة الآخرة ، وبعض مصالح الدنيا على كرامات الصالحين ، وساعدهم على ذلك رؤساء الأديان فأوّلوا لهم نصوص الدين اتباعا للهوى ، ومن ثمّ جاء القرآن يقرّر ارتباط السعادة بالكسب والعمل ، وينفى الانتفاع بالأنبياء والصالحين لمن لم يقتد بهم في صالح أعمالهم ، وقد حاجّ بذلك أهل الكتاب الذين يفتخرون بأسلافهم ويعتمدون على شفاعتهم وجاههم ليقطع أطماعهم في تلك الشفاعة. وعلينا معشر المسلمين أن نجعل نصب أعيننا ورائدنا في أعمالنا تلك القاعدة - الجزاء على العمل - ولا نغتر بشفاعة سلفنا الصالح ، ونجعلها وسيلة لنا في النجاة إذا نحن قصّرنا في عملنا ، فكل من السلف والخلف مجزىّ بعمله ، ولا ينفع أحدا عمل غيره"[٨].

قال ابن عاشور: " والخطاب موجه إلى اليهود أي لا ينفعكم صلاح آبائكم إذا كنتم غير متبعين طريقتهم ، فقوله : {لَهَا مَا كَسَبَتْ} تمهيد لقوله : {وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ} إذ هو المقصود من الكلام ، والمراد بما كسبت وبما كسبتم ثواب الأعمال بدليل التعبير فيه بلها ولكم ، ولك أن تجعل الكلام من نوع الاحتباك والتقرير لها ما كسبت وعليكم ما كسبتم أي إثمه، ومن هذه الآية ونظائرها انتزع الأشعري التعبير عن فعل العبد بالكسب"[٩]

---

(١) تفسير النسفي:٨٩/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين:٨١/٢.
(٣) تفسير القرطبي: ١٣٩/٢.
(٤) تفسير الثعلبي:٢٨٢/١.
(٥) تفسير البيضاوي: ١٠٨/١.
(٦) صفوة التفاسير:٨٦/١.
(٧) محاسن التأويل:٤١٢/١.
(٨) تفسير المراغي: ٢٣١/١.
(٩) تفسير ابن عاشور: ٧٣٥/١.

ولما حاج الله تعالى اليهودَ في هؤلاء الأنبياء، فعقبه بهذه الآية لوجوه(١):
أحدها: ليكون وعظا لهم وزجرا حتى لا يتكلوا على فضل الآباء فكل واحد يؤخذ بعمله.
وثانيها: أنه تعالى بين أنه متى لا يستنكر أن يكون فرضكم عين فرضهم لاختلاف المصالح لم يستنكر أن تختلف المصالح فينقلكم محمد صلى الله عليه وسلم من ملة إلى ملة أخرى.
وثالثها: أنه تعالى لما ذكر حسن طريقة الأنبياء الذين ذكرهم في هذه الآيات بين أن الدليل لا يتم بذلك بل كل إنسان مسؤول عن عمله، ولا عذر له في ترك الحق بأن توهم أنه متمسك بطريقة من تقدم، لأنهم أصابوا أم أخطأوا لا ينفع هؤلاء ولا يضرهم لئلا يتوهم أن طريقة الدين التقليد، فإن قيل لم كررت الآية؟ قلنا فيه قولان، أحدهما: أنه عني بالآية الأولى إبراهيم ومن ذكر معه، والثانية أسلاف اليهود.
الفوائد:
١- من فوائد الآية: بطلان التقليد، لأن قوله: {لها ما كسبت} يدل على أن كسب كل أحد يختص به ولا ينتفع به غيره، كما أن الاعتماد على أعمال الآباء لا يجدي شيئاً.
٢- ومنها: الترغيب في الإيمان، واتباع محمد عليه الصلاة والسلام، والتتحذير من مخالفته.
٣-- ومنها: أن الأبناء لا يثابون على طاعة الآباء بخلاف قول اليهود من أن صلاح آبائهم ينفعهم. وقال الله تعالى: {فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} [المؤمنون: ١٠١] وقال تعالى: {ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به} [النساء: ١٢٣] وكذلك قوله تعالى: {ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى} [الأنعام: ١٦٤] وقال: {فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم} [النور: ٥٤].
٤- ومنها أن العبد مكتسب، وليس معنى كون العبد مكتسبا دخول شيء من الأعراض بقدرته من العدم إلى الوجود.
٥- ومنها: أنه تعالى لا يؤاخذ أحداً بما لم يعمله؛ لقوله تعالى: { ولا تسألون عما كانوا يعملون}.

القرآن

{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢)} [البقرة : ١٤٢]

التفسير:
سيقول الجهال وضعاف العقول من اليهود وأمثالهم، في سخرية واعتراض: ما الذي صرف هؤلاء المسلمين عن قبلتهم التي كانوا يُصَلُّون إلى جهتها أول الإسلام؛ وهي "بيت المقدس" قل لهم -أيها الرسول-: المشرق والمغرب وما بينهما ملك لله، فليست جهة من الجهات خارجة عن ملكه، يهدي مَن يشاء من عباده إلى طريق الهداية القويم. وفي هذا إشعار بأن الشأن كله لله في امتثال أوامره، فحيثما وَجَّهَنا تَوَجَّهْنا.
سبب النزول:
أخرج الواحدي عن البراء، قال: "لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحب أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل الله تعالى: {قد نرى تقلب وجهك في السماء} إلى آخر الآية،

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٧٨/٤.

فقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قال الله تعالى: {قل لله المشرق والمغرب} إلى آخر الآية"[1].

قوله تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ}[البقرة:١٤٢]، "أي سيقول ضعفاء العقول من الناس"[2].

قال الطبري: يعني: سيقول الجهال من الناس، وهم اليهود وأهل النفاق"[3].

قال البيضاوي:" يريد به المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين واليهود والمشركين"[4].

قال المراغي:" أي سيقول الذين خفّت أحلامهم ، وامتهنوا عقولهم بالتقليد والإعراض عن النظر ، والتأمل من المنكرين تغيير القبلة من المنافقين واليهود والمشركين على جهة الإنكار والتعجب"[5].

وفي والمراد بـ{السفهاء}[البقرة:١٤٢]، هَا هُنَا ستة أقوال :

أحدها : أنهم اليهود ، وهو قول ابن عباس[6]، ومجاهد[7]، والبراء[8]، والحسن[9].

قال الزمخشري:وذلك" لكراهتهم التوجه إلى الكعبة، وأنهم لا يرون النسخ"[10].

ومن جهة أخرى أنهم كانوا يأنسون بموافقة الرسول لهم في القبلة، وكانوا يظنون أن موافقته لهم في القبلة ربما تدعوه إلى أن يصير موافقا لهم بالكلية، فلما تحول عن تلك القبلة استوحشوا من ذلك واغتموا وقالوا: قد عاد إلى طريقة آبائه، واشتاق إلى دينهم، ولو ثبت على قبلتنا لعلمنا أنه الرسول المنتظر المبشر به في التوراة، فقالوا: ما حكى الله عنهم في هذه الآية [11].

والثاني : المنافقون ، وهو قول السدي[12].

---

(١) أسباب النزول: ٤٢. والحديث أخرجه البخاري (فتح الباري: ٩٥/١ - ح: ٤٠، ٥٠٢/١ - ح: ٣٩٩) ومسلم (٣٧٤/١ - ح: ٥٢٥) والإمام أحمد (الفتح الرباني: ١١٥/٣ - ح: ٤٢١)، وابن أبي حاتم(١٣٢٧):ص٢٤٨/١، والترمذي (٢٠٧/٥ - ح: ٢٩٦٢) وابن ماجه (٣٢٢/١ - ح: ١٠١٠)، والبيهقي في دلائل النبوة(٢٨٧/٢)عن البراء مختصرا. وله شواهد، منها:

١ - ما أخرجه ابن جرير(٢١٦٠):ص١٣٨/٣، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله، وسنده صحيح.

٢ - ما أخرجه ابن جرير أيضا(٢١٤٩):ص١٣٢/٣، من طريق ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه، وسنده حسن.

٣- ما أخرجه ابن أبي حاتم أيضا(١٣٢٩):ص٢٤٨/١، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله، وسنده ضعيف.

(٢) صفوة التفاسير:٩٠/١.

(٣) تفسير الطبري:١٢٩/٣.

(٤) تفسير البيضاوي: ١١٠/١.

(٥) تفسير المراغي: ٥/٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري(٢١٤٧):ص١٣٠/٣.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٢١٤٢)، و(٢١٤٣):ص١٣٠/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٢١٤٤)، و(٢١٤٥)، و(٢١٤٦):ص١٣٠/٣.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣٢٣):ص٢٤٧/١.

(١٠) الكشاف: ١٩٨/١.

(١١) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٤/٤، وتفسير الطبري: ١٣٩/٣-١٤٠، وزاد المسير: ١٥٣/١، والنكت والعيون للماوردي: ١٩٧/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢١٤٨):ص١٣٠/٣، وابن أبي حاتم(١٣٢٤):ص٢٤٧/١.

قال الزمخشري:" لحرصهم على الطعن والاستهزاء"[1].
والثالث : كفار قريش. حكاه الزجاج[2]، وقاله الحسن، والأصم[3].
إذ أنهم: "قالوا: رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها، والله ليرجعن إلى دينهم"[4].
الرابع: أنهم اليهود ومشركو مكة، قاله البغوي[5]، والواحدي[6].
الخامس: أنهم اليهود وأهل النفاق، قاله الطبري[7]، والسمرقندي[8]، وعزاه ابن عطية للسدي[9].
إذ "قالها بعض اليهود والمنافقون استهزاء، وذلك أنهم قالوا: اشتاق الرجل إلى وطنه"[10].
السادس: أن المراد بالسفهاء: الكفار وأهل النفاق واليهود، والآية عامة في هؤلاء كلهم ، يدل عليه وهو قوله: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة : ١٣٠] فوجب أن يتناول الكل. وهذا قول ابن كثير[11]، والبيضاوي[12]، والحافظ ابن حجر[13]، وجماعة من أهل التفسير[14].
قال الرازي:" الأقرب أن يكون الكل قد قال ذلك، لأن الأعداء مجبولون على القدح والطعن فإذا وجدوا مجالا لم يتركوا مقالا البتة"[15].
مع أن هذه الأقوال لا تعارض بينها لاحتمال أن يكون كل صاحب قول ذكر ذلك من باب التفسير بالجزء والمثال أو على سبيل بيان الطائفة التي نزلت فيهم الآية[16]، إلا أن أظهر هذه الأقوال هو القول الأخير، لأن جمع السفهاء محلى بأل وهو يفيد العموم فيدخل فيه الكل. والله أعلم.
قال الزمخشري:" فإن قلت: أى فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه ؟ قلت: فائدته أنّ مفاجأة المكروه أشدّ، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع لما يتقدّمه من توطين النفس، وأنّ الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه، وقبل الرمي يراش السهم"[17].

---

(١) الكشاف: ١٩٨/١.
(٢) انظر: معاني القرآن: ٢١٨/١.
(٣)انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٧٩/٤، زاد المسير لابن الجوزي: ١٥٣/١.
(٤) الكشاف: ١٩٨/١.
(٥) انظر: تفسير البغوي: ١٥٨/١.
(٦) انظر: الوجيز: ١٣٥/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري : ١٢٩/٣.
(٨) انظر: بحر العلوم: ١٦٣/١.
(٩) انظر: المحرر الوجيز: ٢١٨/١.
(١٠) المحرر الوجيز: ٢١٨/١. حكاه عن السدي.
(١١)انظر: تفسير ابن كثير: ٤٥٢/١
(١٢) انظر: تفسير البيضاوي: ١١٠/١.
(١٣)الفتح: ٢١/٨.
(١٤) منهم الرازي في مفاتيح الغيب: ٧٩/٤-٨٠ وأبو السعود في إرشاد العقل السليم: ١٧١/١، والألوسي في روح المعاني: ٢/٢، وغيرهم.
(١٥) مفاتيح الغيب: ٨٠/٤.
(١٦)انظر: روح المعاني للألوسي: ٢/٢.
(١٧) الكشاف: ١٩٨/١.

قوله تعالى:{ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا}[البقرة:١٤٢]، " أي ما صرفهم وحوّلهم عن القبلة التي كانوا يصلون إليها وهي بيت المقدس"(١).

قال الطبري:" أيّ شيء حوّل وُجوه هؤلاء ، فصرفها عن الموضع الذي كانوا يستقبلونه بوجوههم في صلاتهم ؟"(٢).

قال ابن كثير:" أي : ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا ، وتارة يستقبلون كذا ؟"(٣).

قال المراغي:يعني:" أىّ شىء جرى لهؤلاء المسلمين ، فصرفهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، وهى قبلة النبيين والمرسلين من قبلهم؟"(٤).

قال الزجاج:" ما عدلهم عنها يعني قبلة بيت المقدس،

لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان أمر بالصلاة إلى بيت المقدس، لأن مكة وبيت الله الحرام كانت العرب آلفة

لحجه، فأحب الله - عز وجل - أن يمتحن القوم بغير ما ألفوه ليظهر من يتبع الرسول - صلى الله عليه وسلم - ممن لا يتبعه، كما قال الله عز وجل: { وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ }[البقرة:١٤٣]،فامتحن الله ببيت المقدس فيما روى لهذه العلة، والله أعلم"(٥).

قال البيضاوي:" والقبلة: في الأصل الحالة التي عليها الإنسان من الاستقبال، فصارت عرفاً للمكان المتوجه نحوه للصلاة"(٦).

والقبلة: "هي الجهة التي يُصلى نحوها ، ولا تصح الصلاة إلا بالاتجاه إليها ، والقبلة من شعائر الإسلام ، ومما يتميز به المسلمون وحدة قبلتهم ، وسميت القبلة قبلة : لأن المصلى يقابلها وتقابله ، وقيل لإقبال الناس عليها"(٧).

قال الرازي: "يقال ولاه عنه صرفه عنه وولى إليه بخلاف ولى عنه ومنه قوله: {وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ} [الأنفال : ١٦]، وقوله: {ما ولاهم} استفهام على جهة الاستهزاء والتعجب"(٨).

قال الشيخ السعدي:" ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله، إلا سفيه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقى أحكام ربه بالقبول، والانقياد، والتسليم كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [الأحزاب : ٣٦]، {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء : ٦٥]، {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ

---

(١) صفوة التفاسير:٩٠/١.
(٢) تفسير الطبري:١٣١/٣.
(٣) تفسير ابن كثير:٤٥٤/١.
(٤) تفسير المراغي: ٥/٢.
(٥) معاني القرآن: ٢١٨/١.
(٦) تفسير البيضاوي: ١١٠/١.
(٧)عون المعبود١٤/١ .
(٨) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٠/٤.

الْمُفْلِحُونَ} [النور : ٥١]، وقد كان في قوله (السفهاء) ما يغني عن رد قولهم، وعدم المبالاة به"[١].

وقد ذكر العلماء في هذا (التولي) وجهان[٢]:

الوجه الأول: وهو المشهور المجمع عليه عند المفسرين: أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة من بيت المقدس عاب الكفار المسلمين فقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها فالضمير في قوله: (ما ولاهم) للرسول والمؤمنين والقبلة التي كانوا عليها هي بيت المقدس.

واختلف أهل العلم في المدة التي صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس بعد الهجرة، على أقوال[٣]:

أحدها: تسعة أشهر أو عشرة أشهر. وهذا قول أنس بن مالك رضي الله عنه[٤].

الثاني: ثلاثة عشر شهرا. قاله معاذ[٥].

الثالث: ستة عشر شهرا. قاله سعيد بن المسيب[٦].

الرابع: سبعة عشر شهرا. قاله ابن عباس[٧]، والبراء بن عازب[٨].

قال الواقدي: "صرفت القبلة يوم الاثنين النصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا"[٩].

الخامس: سنتان. حكاه الرازي[١٠].

قال الرازي: "وقول ابن عباس أثبت عندنا من سائر الأقوال"[١١].

قلت :المشهور أن هذا التحويل قد تم في ليلة للنصف من شعبان للسنة الثانية من الهجرة ، وهذا القول خلاف ما قال به الجمهور. والله أعلم.

الوجه الثاني: قول أبي مسلم، وهو أنه لما صح الخبر بأن الله تعالى حوله عن بيت المقدس إلى الكعبة وجب القول به، ولولا ذلك لاحتمل لفظ الآية أن يراد بقوله كانوا عليها، أي السفهاء كانوا عليها فإنهم كانوا لا يعرفون إلا قبلة اليهود وقبلة النصارى، فالأولى إلى المغرب والثانية إلى المشرق، وما جرت عادتهم بالصلاة حتى يتوجهوا إلى شيء من الجهات فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوجها نحو الكعبة كان ذلك عندهم مستنكرا، فقالوا: كيف يتوجه أحد إلى هاتين الجهتين المعروفتين، فقال الله تعالى رادا عليهم؛ {قل لله المشرق والمغرب}[١٢].

قال الرازي:" واعلم أن أبا مسلم صدق فإنه لولا الروايات الظاهرة لكان هذا القول محتملا والله أعلم"[١٣].

---

(١) تفسير السعدي :٧١/١.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٥/٤.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٥/٤. وتفسير الطبري: ١٣٢/٣-١٣٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢١٥٥):ص١٣٥/٣.
(٥)انظر: تفسير الطبري(٢١٥٦):ص١٣٦/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢١٥٧)ص: ١٣٧/٣، و(٢١٥٤)ص:١٣٤/٣.
(٧)انظر: تفسير الطبري(٢١٤٩)ص: ١٣٢/٣-١٣٣.
(٨)انظر: تفسير الطبري(٢١٥٠)، و(٢١٥١)، و(٢١٥٢)، و(٢١٥٣)ص: ١٣/٣-١٣٤.
(٩) مفاتيح الغيب: ٨٠/٤.
(١٠) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٠/٤.
(١١) مفاتيح الغيب: ٨٠/٤.
(١٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٠/٤.
(١٣) مفاتيح الغيب: ٨٠/٤.

وقد اختلف العلماء في السبب الذي كان من أجله يُصلّي رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس ، قبل أن يُفرض عليه التوجُّه شطرَ الكعبة، وفيه قولان[1]:

أحدهما: أن ذلك كان باختيار من النبي صلى الله عليه وسلم. قاله عكرمة[2]، والحسن البصري[3]، والربيع[4].

الثاني: أنه كان بفرض الله عز ذكره عليهم. وهو قول ابن عباس[5]، وابن جريج[6].

قوله تعالى: {قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}[البقرة:١٤٢]، أي: قل لهم يا محمد " لله وحده المشرق، والمغرب"[7].

قال الثعلبي: أي:" ملكا، والخلق عبيده يحولهم كيف شاء"[8].

قال ابن كثير:" أي : الحكم والتصرف والأمر كله لله ، وحيثما تولوا فثمَّ وجه الله"[9].

قال الزمخشري:" أى بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها"[10].

قال الواحدي:" أي: له أن يأمر بالتوجه إلى أي جهة شاء"[11].

قال البيضاوي:أي:" لا يختص به مكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه، وإنما العبرة بارتسام أمره لا بخصوص المكان"[12].

قال أبو السعود:" أي لله تعالى ناحيتا الأرض أي الجهاتُ كلها ملكا وملكا وتصرفاً فلا اختصاصَ لناحيةٍ منها لذاتها بكونها قبلةً بدون ما عداها بل إنما هو بأمر الله سبحانه ومشيئتِه"[13].

قال الطبراني :" أي مَن كان مَالِكَ المشرقِ والمغرب لا يُعْتَرَضُ عليهِ في جميع ما يأمرُ ، ويجوز أن يكونَ معناهُ : أنَّ الله خالقُ الأماكنِ كلِّها ، فليسَ بعضُ ما خَلَقَ أولَى أن يُجعل قبلةً في العقلِ من بعضٍ ، فوجبَ الانتهاءُ إلى أمرِ الله باستقبالِ ما شاءَ اللهُ"[14].

قال الزجاج:" معناه حيث أمر الله أن يصلى ويتعبد، فهو له، وعالم به، وهو فيه كما قال: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [الأنعام : ٣]، وكما قال: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}[الحديد:٤]، وكما قال:{ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ }[المجادلة:٧]"[15].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣/١٣٨-١٣٩.
(٢) انظر: تفسير الطبري:(٢١٥٨):ص٣/١٣٨.
(٣) انظر: تفسير الطبري:(٢١٥٨):ص٣/١٣٨.
(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢١٥٩):ص٣/١٣٨.
(٥) انظر: تفسير الطبري: (٢١٦٠):ص٣/١٣٨-١٣٩,
(٦) انظر: تفسير الطبري: (٢١٦١):ص٣/١٣٩.
(٧) تفسير ابن عثيمين:٢/١٠٦.
(٨) تفسير الثعلبي:٢/٨.
(٩) تفسير ابن كثير:١/٤٥٤.
(١٠) الكشاف: ١/١٩٨.
(١١) التفسير البسيط: ٣/٣٦٨.
(١٢) تفسير البيضاوي: ١/١١٠.
(١٣) تفسير أبي السعود: ١/١٧١.
(١٤) تفسير الطبراني: ١/٩٥.
(١٥) معاني القرآن: ١/٢١٨-٢١٩.

قال المراغي:" أي أجبهم: بأن الجهات كلها لله ، فليست صخرة بيت المقدس بأفضل من سائر الصخور في جوهرها ، وليس فيها من المنافع ما لا يوجد في غيرها ، وكذلك الكعبة والبيت الحرام ، وإنما يجعل الله تعالى للناس قبلة ، لتكون جامعة لهم فى عبادتهم ، لكن سفهاء الأحلام يظنون أن القبلة أصل في الدين من حيث هى الصخرة المعيّنة أو البناء المعين"[١].

قال ابن عثيمين:" وخص المشرق، والمغرب؛ لأن منهما تطلع الشمس، وتغرب"[٢].

قال الشيخ السعدي: " فإذا كان المشرق والمغرب ملكا لله، ليس جهة من الجهات خارجة عن ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من ملة أبيكم إبراهيم، فلأي شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلة تحت ملك الله، لم تستقبلوا جهة ليست ملكا له؟ فهذا يوجب التسليم لأمره، بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم، وهدايته وإحسانه، أن هداكم لذلك فالمعترض عليكم، معترض على فضل الله، حسدا لكم وبغيا"[٣].

وتجدر الإشارة بأن مسألة تعيين القبلة، ففيها الخلاف الشديد بين أهل السنة والمعتزلة، أما أهل السنة فإنهم يقولون: لا يجب تعليل أحكام الله تعالى ألبتة[٤].

---

(١) تفسير المراغي: ٥/٢.

(٢) تفسير ابن عثيمين:١٠٦/٢.

(٣) تفسير السعدي :٧١/١.

(٤)واحتجوا عليه بوجوه:

أحدها: أن كل من فعل فعلا لغرض، فإما أن يكون وجود ذلك الغرض أولى له من لا وجوده، وإما أن لا يكون كذلك، بل الوجود والعدم بالنسبة إليه سيان، فإن كان الأول، كان ناقصا لذاته مستكملا بغيره، وذلك على الله محال، وإن كان الثاني استحال أن يكون غرضا ومقصودا ومرجحا فإن قيل: إنه وإن كان وجوده وعدمه بالنسبة إليه على السوية إلا أن وجوده لما كان أنفع للغير من عدمه، فالحكيم يفعله ليعود النفع إلى الغير قلنا: عود النفع إلى الغير ولا عوده إليه، هل هما بالنسبة إلى الله تعالى على السواء، أو ليس الأمر كذلك، وحينئذ يعود التقسيم.

وثانيها: أن كل من فعل فعلا لغرض فإما أن يكون قادرا على تحصيل ذلك الغرض من دون تلك الواسطة، أو لا يكون قادرا عليه. فإن كان الأول كان توسط تلك الواسطة عبثا، وإن كان الثاني كان عجزا وهو على الله محال.

وثالثها: أنه تعالى إن فعل فعلا لغرض فذلك الغرض وإن كان قديما لزم من قدمه قدم الفعل وهو محال، وإن كان محدثا توقف إحداثه على غرض آخر، ولزم الدور أو التسلسل وهو محال.

ورابعها: أن تخصيص إحداث العالم بوقت معين دون ما قبله وما بعده إن كان لحكمة اختص بها ذلك الوقت دون ما قبله وما بعده كان طلب العلة في أنه لم حصلت تلك الحكمة في

ذلك الوقت دون سائر الأوقات كطلب العلة في أنه لم حصل العالم في ذلك الوقت دون سائر الأوقات، فإن استغنى أحدهما عن المرجح فكذا الآخر، وإن افتقر فكذا الآخر وإن لم يتوقف ذلك على الحكمة فقد بطل توفيق فاعلية الله على الحكمة والغرض.

وخامسها: ما سبق من الدلائل على أن جميع الكائنات من الخير والشر، والكفر والإيمان، والطعة والعصيان واقع بقدرة الله تعالى وإرادته، وذلك يبطل القول بالغرض، لأنه يستحيل أن يكون لله غرض يرجع إلى العبد في خلق الكفر فيه وتعذيبه عليه أبد الآباد.

وسادسها: أن تعلق قدرة الله تعالى وإرادته بإيجاد الفعل المعين في الأزل، إما أن يكون جائزا أو وجبا، فإن كان جائزا افتقر إلى مؤثر آخر ويلزم التسلسل، ولأنه يلزم صحة العدم على القديم، وإن كان واجبا فالواجب لا يعلل فثبت عندنا بهذه الوجوه أن تعليل أفعالي الله وأحكامه بالدواعي والأغراض محال، وإذا كان كذلك كانت فاعليته بمحض الإلهية والقدرة والنفاذ والاستيلاء، وهذا هو الذي دل عليه صريح قوله تعالى: {قل لله المشرق والمغرب} فإنه علل جواز النسخ بكونه مالكا للمشرق والمغرب، والملك يرجع حاصله إلى القدرة ولم يعلل ذلك بالحكمة على ما تقوله المعتزلة، فثبت أن هذه الآية دالة بصريحها على قولنا ومذهبنا.

قوله تعالى:{ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة:١٤٢]،أي" والله يسدّد من يشاء من خلقه ويُرشده إلى الطريق القويم على الحق الذي لا اعوجاج فيه"(١).

قال الطبراني: أي: "إلى طريقٍ قَوِيْمٍ؛ وهو الإسلامُ وقِبلة الكعبةِ"(٢).

قال أبو العالية:" يهديهم إلى المخرج من الشبهات والضلالات والفتنة"(٣).

قال الزمخشري:يعني من يهدي من يشاء" من أهلها إلى {صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، وهو ما توجبه الحكمة والمصلحة، من توجيههم تارة إلى بيت المقدس، وأخرى إلى الكعبة"(٤).

قال النسفي: " أي يرشد من يشاء إلى قبلة الحق وهي الكعبة التي أمرنا بالتوجه إليها ، أو الأماكن كلها لله فيأمر بالتوجه إلى حيث شاء فتارة إلى الكعبة وطوراً إلى بيت المقدس لا اعتراض عليه لأنه المالك وحده"(٥).

قال ابن عثيمين:" أي: يدِلّ، ويوفق من يشاء، ولكن كل شيء قيد بمشيئة الله فهو مقرون بالحكمة: يهدي من يشاء ممن هو أهل للهداية؛ و(المشيئة) هي الإرادة الكونية: فما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن"(٦).

قال السعدي: " والمطلق يحمل على المقيد، فإن الهداية والضلال، لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية، التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى كما قال تعالى: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ} ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقا بجميع أنواع الهداية"(٧).

قال القاسمي:" فيه تعظيم أهل الإسلام وإظهار عنايته تعالى بهم وتفخيم شأن الكعبة. كما فخمه بإضافته إليه في قوله تعالى: وَطَهِّرْ بَيْتِيَ [الحج: ٢٦] "(٨).

و{الصراط}: "الطريق الواسع الذي يسهل سلوكه؛ والمراد به هنا شريعة الله التي شرعها لعباده"(٩).

وقال الطبري في تفسير {صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}: "أي الطريق القويم ويعني بذلك إلى "قبلة إبراهيمَ الذي جعله للناس إمامًا ويخذُل من يشاء منهم ، فيضلُّه عن سبيل الحق"(١٠).

الفوائد:

١- من فوائد الآية: علم الله تعالى بما سيكون؛ لقوله تعالى: {سيقول السفهاء}.

٢- ومنها: تحقق وقوع خبر الله عزّ وجلّ؛ لأنهم قالوا ذلك.

أما المعتزلة فقد قالوا: لما دلت الدلائل على أنه تعالى حكيم، والحكيم لا يجوز أن تكون أفعاله خالية عن الأغراض، علمنا أن له سبحانه في كل أفعاله وأحكامه حكما وأغراضا، ثم إنها تارة تكون ظاهرة جلية لنا، وتارة مستورة خفية عنا، وتحويل القبلة من جهة إلى جهة أخرى يمكن أن يكون لمصالح خفية وأسرار مطوية عنا، وإذا كان الأمر كذلك: استحال الطعن بهذا التحويل في دين الإسلام.(انظر: مفاتيح الغيب: ٨٦/٤).

(١) تفسير الطبري: ٢٨٦/٤.

(٢) تفسير الطبراني: ٩٤/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٣٠):ص٢٤٨/١.

(٤) الكشاف: ١٩٨/١.

(٥) تفسير النسفي: ١٣٠/١.

(٦) تفسير ابن عثيمين:١٠٦/٢.

(٧) انظر: تفسير السعدي: ٧١/١.

(٨) محاسن التأويل: ٤١٣/١.

(٩) تفسير ابن عثيمين:١٠٦/٢.

(١٠) تفسير الطبري: ١٤٠/٣-١٤١.

٣- ومنها: من اعترض على حكم الله فهو سفيه.
٤- ومنها: تسلية النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، حيث أخبر الله تعالى أنه لا يعترض عليه في ذلك إلا سفيه.
٥- ومنها: إعلام المرء بما يتوقع أن يكون ليستعد له؛ ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: "إنك تأتي قوماً أهل كتاب" ؛ ليكون مستعداً(١).
٦- ومنها: جواز تعليل الأحكام الشرعية بمقتضى الربوبية لإسكات الناس حتى لا يحصل منازعة؛ إذا قال أحد: لماذا كذا؟ قلت: الله ربك يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؛ «لماذا أحل كذا، وحرم كذا؟» تقول: لأنه ربك؛ «لماذا توجه الناس من المشرق إلى المغرب؛ من المغرب إلى المشرق؛ من بيت المقدس إلى الكعبة؟» قلت: لأن ذلك بمقتضى ربوبية الله: [لله المشرق والمغرب].
٧- من فوائد الآية: أن العدو يحتج على عدوه بما يثير نعرته، ويلزمه؛ لقوله تعالى: {عن قبلتهم}؛ لم يقولوا: عن القبلة؛ كأنهم يقولون: كنتم تتولون ذلك فما الذي صرفكم عنه؟!! وهكذا قد يثير شعور الإنسان حتى يبقى على ما هو عليه، وكأنهم قالوا: بالأمس تختارونها، واليوم تنكرونها، وتنبذونها؛ فالخصم دائماً يُهيج خصمه بما يثير نعرته؛ ليوافقه فيما ذهب إليه.
٨- من فوائد الآية: عموم ملك الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {لله المشرق والمغرب}؛ فهو المالك سبحانه وتعالى للجهات يُصرِّف إليها العباد كيف يشاء؛ ونحن ليس علينا إلا السمع، والطاعة؛ أينما وجهنا توجهنا؛ هذا المهم؛ لا أن تتجه إلى كذا، أو إلى كذا؛ فالسجود لغير الله شرك؛ وكان بالنسبة للملائكة حين أمرهم الله بالسجود لآدم طاعة، وعبادة؛ وقتل النفس بغير حق - ولا سيما قتل الولد - من أكبر الكبائر؛ وحين أمر الله تعالى إبراهيم أن يذبح ابنه كان قربة، وعبادة؛ فالاعتبار بطاعة الله سبحانه وتعالى.
٩- من فوائد الآية: إثبات مشيئة الله؛ لقوله تعالى: {يهدي من يشاء}.
فإن قال قائل: هل في ذلك حجة للجبرية في قولهم: إن العبد مجبر على عمله؟
فالجواب: أنه لا حجة لهم في ذلك؛ لأن الاحتجاج ببعض القرآن دون بعض كفر به؛ فالقرآن من متكلم واحد؛ فمطلقه في موضع يقيد في موضع آخر؛ بل إن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم تقيد القرآن، وتبينه، وتخصصه؛ فإذاً لا دليل في هذه الآية للجبرية إلا من نظر بعين أعور؛ لأن الأعور ينظر من جانب العين الصحيحة؛ لكن من جانب العين العوراء لا يرى؛ والواجب أن ينظر الإنسان إلى النصوص بعينين ثاقبتين؛ وليس بعين واحدة؛ وقد دلت النصوص من الكتاب، والسنة على أن الإنسان له إرادة، واختيار، وقدرة، وأضافت أعماله إليه؛ وحينئذ لا يمكن أن يكون مجبراً.
١٠- من فوائد الآية: أن الهداية بيد الله؛ لقوله تعالى: {يهدي من يشاء}، ومنها: أنْ هدَى هذه الأمة إلى القبلة التي يرضاها الرسول صلى الله عليه وسلم.
١١- ومنها: الثناء على هذه الأمة؛ لأنها التي على صراط مستقيم؛ لأن أول من يدخل في قوله تعالى: {يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} هؤلاء الذين تولوا عن بيت المقدس إلى الكعبة.

---

(١) أخرجه البخاري ص١١٨، كتاب الزكاة، باب ٦٣: أخذ الصدقة من الأغنياء...، حديث رقم ١٤٩٦؛ وأخرجه مسلم ص٦٨٤، كتاب الإيمان، باب ٧: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم ١٢١ [٢٩] ١٩. قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل: "فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ فإن هم أطاعوا لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة".

١٢- ومنها: أن معارضة الشرع كما أنه سفه، فهو أيضاً ضلال؛ لأن الشرع هو الصراط المستقيم - وهو الهداية؛ وما سواه ضلال، واعوجاج.
١٣- ومنها: فضيلة هذه الأمة، حيث هداها الله إلى استقبال بيته الذي هو أول بيت وضع الناس.

القرآن
{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)} [البقرة : ١٤٣]
التفسير:
وكما هديناكم -أيها المسلمون- إلى الطريق الصحيح في الدين، جعلناكم أمة خيارًا عدولا لتشهدوا على الأمم في الآخرة أن رسلهم بلَّغتهم رسالات ربهم، ويكون الرسول في الآخرة كذلك شهيدًا عليكم أنَّه بلَّغكم رسالة ربه. وما جعلنا -أيها الرسول- قبلة "بيت المقدس" التي كنت عليها، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة بـ "مكة"، إلا ليظهر ما علمناه في الأزل؛ علما يتعلق به الثواب والعقاب لنميز مَن يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيث توجهت، ومَن هو ضعيف الإيمان فينقلب مرتدًا عن دينه لشكه ونفاقه. وإن هذه الحال التي هي تحول المسلم في صلاته من استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة لثقيلة شاقة إلا على الذين هداهم ومنّ عليهم بالإيمان والتقوى وما كان الله ليضيع إيمانكم به واتباعكم لرسوله، ويبطل صلاتكم إلى القبلة السابقة. إنه سبحانه وتعالى بالناس لرءوف رحيم.
في سبب نزول الآية قولان:
أحدهما: قال الواحدي: " قال ابن عباس في رواية الكلبي: كان رجال من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد ماتوا على القبلة الأولى، منهم أسعد بن زرارة وأبو أمامة أحد بني النجار، والبراء بن معرور أحد بني سلمة، وأناس آخرون، جاءت عشائرهم فقالوا: يا رسول الله توفي إخواننا وهم يصلون إلى القبلة الأولى، وقد صرفك الله تعالى إلى قبلة إبراهيم، فكيف بإخواننا؟ فأنزل الله: {وما كان الله ليضيع إيمانكم} الآية. ثم قال: {قد نرى تقلب وجهك في السماء} وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لجبريل عليه السلام: "وددت أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها" وكان يريد الكعبة، لأنها قبلة إبراهيم، فقال له جبريل: "إنما أنا عبد مثلك لا أملك شيئا فسل ربك أن يحولك عنها إلى قبلة إبراهيم" ثم ارتفع جبريل وجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بما سأله فأنزل الله تعالى هذه الآية"(١).
الثاني: أخرج الواحدي عن البراء قال: "صلينا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا نحو بيت المقدس، ثم علم الله - عز وجل - هوى نبيه - صلى الله عليه وسلم - فنزلت: {قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها} الآية"(٢).

---

(١) أسباب النزول: ٤٢-٤٣.
(٢) أسباب النزول:٤٣، هي ذات الرواية السابقة التي مضى تخريجها في سبب نزول الآية(١١٥) من سورة البقرة، إلا أنها بلفظ آخر، ويشهد لها:
١ - ما أخرجه مسلم (١/٣٧٥ - ح: ٥٢٧) وأبو داود (١/٦٣٣ - ح: ١٠٤٥) عن أنس بن مالك نحوه.

قوله تعالى:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}[البقرة:١٤٣]، " أي كما هديناكم إلى الإسلام كذلك جعلناكم يا معشر المؤمنين أمة عدولاً خياراً"[١].

قل ابن عثيمين:"أي: مثلَ هذا الجعل الذي جعلنا لكم وهو اتجاهكم إلى القبلة جعلناكم أمة وسطاً"[٢].

قال الطبري:" كذلك خصصناكم ففضَّلناكم على غيركم من أهل الأديان ، بأن جعلناكم أمة وسطًا"[٣].

قال السعدي:" أي: عدلا خيارا.. فجعل الله هذه الأمة، وسطا في كل أمور الدين، وسطا في الأنبياء، بين من غلا فيهم، كالنصارى، وبين من جفاهم، كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطا في الشريعة، لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى"[٤].

قال البيضاوي:" أي خياراً، أو عدولاً مزكين بالعلم والعمل. وهو في الأصل اسم للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، ثم أطلق على المتصف بها، مستوياً فيه الواحد والجمع"[٥].

قال النسفي: " أي: كما جعلنا قبلتكم متوسطة بين المشرق والمغرب جعلناكم أمة وسطاً بين الغلو والتقصير فإنكم لم تغلوا غلو النصارى حيث وصفوا المسيح بالألوهية ، ولم تقصروا تقصير اليهود حيث وصفوا مريم بالزنا وعيسى بأنه ولد الزنا"[٦].

ويحتمل التشبيه في قوله تعالى{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}[البقرة:١٤٣]، وجهين من التفسير [٧]:

أحدهما: أن التشبيه في قوله: {وَكَذَلِكَ}، يرجع إلى ذكر الأنبياء الذين أنعم الله عليهم، وهم إبراهيم وأولاده، فلما ذكرهم وذكر النعمة عليهم بالكتاب المنزل، والحنيفية المستقيمة، قال: {وَكَذَلِكَ} أي: وكما اخترنا إبراهيم وذريته واصطفيناهم، كذلك جعلناكم أمةً وسطًا.

الثاني: وقيل: هذه الآية تتصل بما قبلها من قوله: {يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} أي: هديناكم وخصصناكم دونهم بالصراط المستقيم، وتحويل قبلتكم إلى قبلة إبراهيم، وكذلك أنعمنا عليكم نعمة أخرى فقال: إنا جعلناكم عدولًا.

قال البيضاوي:" {وَكَذَلِكَ، إشارة إلى مفهوم الآية المتقدمة، أي كما جعلناكم مهديين إلى الصراط المستقيم، أو جعلنا قبلتكم أفضل القبل."[٨].

---

٢ - ما أخرجه الطبري(٢١٦٠):ص١٣٨/٣-١٣٩، وابن أبي حاتم(١٣٢٩):ص٢٤٨/١، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه.

٣ - ما أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٢٨):ص٢٤٨/١، عن البراء نحوه وإسناده صحيح. وانظر: تفسير ابن كثير: ٤٥٢/١.

(١) صفوة التفاسير:٩٠/١.

(٢) تفسير ابن عثيمين:١٠٩/٢.

(٣) تفسير الطبري:١٤١/٣.

(٤) تفسير السعدي :٧١/١.

(٥) تفسير البيضاوي: ١١٠/١.

(٦) تفسير النسفي: ١٣٠/١.

(٧) انظر: التفسير البسيط: ٣٦٩/٣.

(٨) تفسير البيضاوي: ١١٠/١.

و(الوسَط): "اسم لما بين طرفي الشيء"[١].

قال الفراء: "الوَسَط المثقل: اسم، كقولك: رأسٌ وسط وأسفل، ولا تقولن ههنا: وسْط بالتخفيف، واحتجم وَسَط رأسه، وربما خفف، وليس بالوجه. وجلس وسْط القوم، ولا تقول: وسَط؛ لأنه في معنى بين القوم، وجلس وسَط الدار؛ لأن (بين) لا يصلح في هذا الموضع، وربما خفف"[٢].

قال الجوهري: "كل وضع صلح فيه بين فهو (وسْط)، وإن لم يصلح فيه بين فهو (وسَط) بالتحريك، وربما سكن، وليس بالوجه، كقول الشاعر[٣]:

قالوا يالَ أشجع يومَ هَيْجٍ ووَسْط الدار ضَربًا واحْتِمايا"[٤]

ومما يصدق هذا ما روي في الخبر: "الجالس وسْط الحلقة ملعون"[٥]، لم يرو إلا بالتخفيف[٦].

وقيل: (وَسَط): جمع واسط، و(فَعَل) يجوز في جمع (فاعل)، نحو: خدَم ونشَأ، والواسط: الذي يسِطُ الشيء، أي: يتوسطه، قال حسان[٧]:

وَسَطتْ نسبتي الذوائبَ منهم كلُّ دار فيها أبٌ لي عظيم

وفلان من واسطة قومه، أي: من أعيانهم، وهذا يحتمل أمرين:

أحدهما: أن نسبه توسط نسبهم، فهو كريم الطرفين، أبوه وأمه من ذلك النسب.

والثاني: أنه أخذ من واسطة القلادة؛ لأنه يجعل فيه أنفَسَ خَرَزها.

قال الشاعر[٨]:

ومَن يفتقِرْ في قومه يحمَدِ الغنى وإن كان فيهم واسطَ العَمِّ مُخْوِلا

قوله: واسط العم، يحتمل المعنيين[٩].

وقد اختلف أهل العمل في قوله: {وَسَطًا}[البقرة:١٤٣]، على وجوه[١٠]:

القول الأول: أنه (العدل)، وهذا قول جماعة من أهل العلم، منهم: أبو سعيد"[١١]، وابن عباس وسعيد[١٢]، ومجاهد[١]، وقتادة[٢]، والربيع،[٣] وعطاء[٤]، وعبد الله بن كثير[٥]، وابن زيد[٦]، وحبان بن أبي جبلة[٧].

---

(١) التفسير البسيط: ٣٦٩/٣.

(٢) نقله عنه الواحدي، انظر: التفسير البسيط: ٣٦٩/٣. ولم أجده في معاني القرآن، وانظر: اللسان:٤٣١/٧:(وسط).

(٣)البيت، نسبه في "اللسان" ٨/ ٤٨٣١ (وسط) لأعصر بن سعد بن قيس عيلان.

(٤) الصحاح:١١٦٨/٣:(وسط).

(٥)أخرجه الإمام أحمد في "المسند" ٥/ ٣٨٤ عن حذيفة، في الذي يقعد في وسط الحلقة قال: ملعون على لسان ٢٢٧٥٢، والترمذي (٢٧٥٣) الأدب، باب: كراهية القعود وسط الحلقة، وأبو داود (٤٨٢٦) الأدب، باب: في الجلوس وسط الحلقة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٦)انظر: التفسير البسيط: ٣٧٠/٣.

(٧)البيت لحسان بن ثابت في "ديوانه" ص ٢٢٥.

(٨)البيت لجابر بن الثعلب الطائي، ينظر: "ديوان الحماسة" ١/ ١٠٩.

(٩) انظر: التفسير البسيط: ٣٧٤/٣.

(١٠) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٤/٤.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٢١٦٥)، و(٢١٦٦)، و(٢١٦٧)، و(٢١٦٨):ص١٤٢/٣-١٤٣، ورواه الإمام أحمد في المسند: ٩/٣.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢١٦٩):ص١٤٤/٣.

وقال به أيضاً: الفراء[8] ، والزجاج[9] ، وأبو عبيدة[10] ، وابن قتيبة[11]، إلا أنهما قالا: عدلاً: خياراً، والعدل والخيار بمعنى-كما ذكر الزجاج-لأن من كان خياراً فهو عدلاً. وقال به أيضاً: ابن عطية[12] ، والقرطبي[13] ، والواحدي[14] ، والسمرقندي[15]، وأبو حيان[16]، وقال: "وإذا صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجب المصير في تفسير الوسط إليه"[17]. قلت: وقد صح كما سيأتي.

والدليل عليه: الآية والخبر والشعر والنقل والمعنى[18]:

أ- أما الآية فقوله تعالى: {قَالَ أَوْسَطُهُمْ} [القلم : ٢٨]، "أي أعدلهم"[19].

ب- ومن الأخبار:

- ما أخرجه الطبري عن أبي سعيد، وأبي هريرة، عن النبي صلى الله في قوله : " {وكذلك جَعلناكم أمة وَسَطًا}، قال ، عُدولا"[20].

- وروي عنه عليه الصلاة والسلام: "خير الأمور أوسطها"[21]، "أي أعدلها"[22].

- وقيل: كان النبي صلى الله عليه وسلم أوسط قريش نسبا، وقال عليه الصلاة والسلام: "عليكم بالنمط الأوسط"[23].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٢١٧٠)، و(٢١٧١):ص١٤٤/٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢١٧٢)، و(٢١٧٣):ص١٤٤/٣.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢١٧٤):ص١٤٤/٣-١٤٥.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢١٧٥):ص١٤٥/٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢١٧٧):ص١٤٥/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢١٧٨):ص١٤٥/٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢١٧٦):ص١٤٥/٣.
(٨) انظر: معاني القرآن: ٨٣/١.
(٩)معاني القرآن وإعرابه: ٢١٩/١
(١٠)مجاز القرآن: ٥٩/١.
(١١)تفسير غريب القرآن: ٦٤.
(١٢)المحرر الوجيز: ٣/٢.
(١٣)الجامع لأحكام القرآن: ١٥٣/٢.
(١٤)الوجيز: ١٣٥/١.
(١٥)بحر العلوم: ١٦٤/١.
(١٦)البحر المحيط: ٣٦٥/١.
(١٧)البحر المحيط: ٣٦٥/١.
(١٨) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٤/٤.
(١٩) مفاتيح الغيب: ٨٤/٤.
(٢٠) تفسير الطبري(٢١٦٥)، و(٢١٦٦)، و(٢١٦٧)، و(٢١٦٨):ص١٤٢/٣-١٤٣، ورواه الإمام أحمد في المسند: ٩/٣.
(٢١)أخرجه البيهقي في شعب الإيمان:(٦٦٥١):ص٢٦١/٥، عن مطرف وإسناده صحيح موقوف، ومن طريق ابن وهب(٢٧٣ /٣)، واسناده ضعيف، و رواه البيهقي في السنن الكبرى (٢٧٣/٣):بإسناده عن عمرو بن الحارث، وقال هذا منقطع.
(٢٢) مفاتيح الغيب: ٨٤/٤.
(٢٣) قال العراقي في "تخريج الإحياء: ١/ ١٠٦: حديث: "عليكم بالنمط الأوسط"، رواه أبو عبيد في "غريب الحديث" موقوفا على علي بن أبي طالب، ولم أجده مرفوعا، وذكره في "اللسان" ٨/ ٤٨٣٣ "وسط" من كلام

- وروي عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلّغت ؟ فيقول : نعم. فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد ، فيقال لنوح : من يشهد لك؟ فيقول : محمد وأمته" قال : فذلك قوله : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}[١]. قال : الوسط: العدل ، فتدعون ، فتشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم"[٢].

- وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يجيء النبي يوم القيامة [ومعه الرجل والنبي] ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه ، فيقال [لهم] هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا. فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم. فيقال [له] من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فيدعى بمحمد وأمته ، فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم. فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا صلى الله عليه وسلم فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا" فذلك قوله عز وجل : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} قال : "عدلا {لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} "[٣].

ج- وأما الشعر، فقول زهير[٤]:

هُمُ وَسَطٌ تَرْضَى الأنامُ بِحُكْمِهِمْ ... إذَا نزلَتْ إحْدَى اللَيَالِي بِمُعْظَمِ

د-وأما النقل: فقال الجوهري: "{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}، أي عدلا"[٥]، وهو الذي قاله الأخفش[٦]، والخليل[٧]، وقطرب[٨]، وابن منظور[٩]، والفيروزآبادي[١٠]، والرازي[١١]، وغيرهم.

هـ- وأما المعنى، فمن وجوه[١٢]:

أحدها: أن الوسط حقيقة في البعد عن الطرفين، ولا شك أن طرفي الإفراط والتفريط رديئان فالمتوسط في الأخلاق يكون بعيدا عن الطرفين فكان معتدلا فاضلا.

وثانيها: إنما سمي العدل وسطا، لأنه لا يميل إلى أحد الخصمين، والعدل هو المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الطرفين.

وثالثها: لا شك أن المراد بقوله: {وكذالك جعلناكم أمة وسطا} طريقة المدح لهم، لأنه لا يجوز أن يذكر الله تعالى وصفا ويجعله كالعلة في أن جعلهم شهودا له ثم يعطف على ذلك شهادة الرسول إلا وذلك مدح فثبت أن المراد بقوله: (وسطا) ما يتعلق بالمدح في باب الدين، ولا يجوز

علي. وفي "تفسير القرطبي" ٢/ ١٤٠ - ١٤١: "عليكم بالنمط الأوسط، فاليه ينزل العالي وإليه يرتفع النازل". والنمط: جماعة من الناس أمرهم واحد، وقيل هو الطريقة.

(١) المسند: ٣٢/٣.

(٢)صحيح البخاري برقم (٣٣٣٩ ، ٤٤٨٧) وسنن الترمذي برقم (٢٩٦١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٠٠٧) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٨٤).

(٣) المسند: ٥٨/٣.

(٤) ديوانه: ٢٧/٢، و وشرح المعلقات العشر :٥٧.

(٥) الصحاح:١١٦٧/٣، (وسط).

(٦) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٤/٤، ولم اجده في معاني القرآن.

(٧) انظر: العين: ٢٧٩/٧. ولفظه:" والوسط من الناس وكل شيء: أعدله، وأفضله، ليس بالغالي ولا المقصر".

(٨) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٤/٤.

(٩) انظر: لسان العرب: ٤٢٨/٧(وسط).

(١٠) انظر: القاموس المحيط:٦٩١/١(وسط).

(١١) انظر: الصحاح:٣٣٨، (وسط).

(١٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٤/٤.

أن يمدح الله الشهود حال حكمه عليهم بكونهم شهودا إلا بكونهم عدولا، فوجب أن يكون المراد في الوسط العدالة.
ورابعها: أن أعدل بقاع الشيء وسطه، لأن حكمه مع سائر أطرافه على سواء وعلى اعتدال، والأطراف يتسارع إليها الخلل والفساد والأوسط محمية محوطة فلما صح ذلك في الوسط صار كأنه عبارة عن المعتدل الذي لا يميل إلى جهة دون جهة.
وخامسها: أنه سمي العدل وسطا، من وسط الوادي والقاع، وهو خير موضح فيه، وأكثره كَلأً وماءً، وذلك أن في غالب الأمر الماء يبرح وسط الوادي؛ لأنه في الصيف وشدة الحر ينحسر عن الأطراف إلى جوف الوادي، فيكون الكلأ هناك أكثر، ولذلك تقول العرب: انزل وسط الوادي، أي: خير مكان منه [1]، فعلى هذا (الوسط) اسم وصف به[2].
القول الثاني: أن الوسط من كل شيء خياره.
وقالوا: وهذا التفسير أولى من الأول لوجوه:
أحدها: أن لفظ الوسط يستعمل في الجمادات قال صاحب "الكشاف": "اكتريت جملا من أعرابي بمكة للحج فقال: أعطى من سطا تهنة أراد من خيار الدنانير"[3].
قال الرازي:"ووصف العدالة لا يوجد في الجمادات، فكان هذا التفسير أولى"[4].
الثاني: أنه مطابق لقوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران : ١١٠]
يقول الحافظ ابن كثير: (وسطا) "هاهنا : الخيار والأجود ، كما يقال : قريش أوسطُ العرب نسباً وداراً ، أي : خيرها. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطا في قومه، أي : أشرفهم نسبا، ومنه الصلاة الوسطى، التي هي (أفضل) الصلوات ، وهي العصر ، كما ثبت في الصحاح وغيرها ، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خَصَّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب ، كما قال تعالى : {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [الحج : ٧٨]"[5].
القول الثالث: أن الرجل إذا قال: فلان أوسطنا نسبا، فالمعنى: أنه أكثر فضلا، وهذا وسط فيهم كواسطة القلادة، وأصل هذا أن الاتباع يحوشون الرئيس فهو في وسطهم وهم حوله فقيل وسط لهذا المعنى[6].
القول الرابع: يجوز أن يكونوا وسطا على معنى: أنهم متوسطون في الدين بين المفرط والمفرط والغالي والمقصر في الأشياء، لأنهم لم يغلوا كما غلت النصارى فجعلوا ابنا وإلها ولا قصروا كتقصير اليهود في قتل الأنبياء وتبديل الكتب وغير ذلك مما قصروا فيه[7].
قال الكلبي: "يعني متوسطة أهل دين: وسط بين الغلو والتقصير لأنهما مذمومان في الدين"[8].

---

(١) انظر: اللسان:(وسط).
(٢) انظر: التفسير البسيط: ٣٧٢/٣، ومعاني القرآن للزجاج: ٢١٩/١.
(٣) الكشاف: ١٩٩/١.
(٤) مفاتيح الغيب: ٨٤/٤.
(٥) تفسير ابن كثير: ٤٥٤/٤.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٥/٤.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٥/٤.
(٨) تفسير الثعلبي: ٨/٢.

قال الراغب: " الوسط في الأصل اسم للمكان الذي يستوي إليه المساحة من الجوانب في المدورة، ومن الطرفين في المطول كالنقطة من الدائرة ولسان الميزان من العمود، ويجعل عبارة عن العدل، وكذلك السواء والنصف، وشبه به كل ما وقع بين طرفين إفراط وتفريط كالجود بين السرف والبخل والشجاعة بين التهور والجبن"[١].

وهذا القول الأخير اختاره الطبري، إذ يقول:" وأنا أرى أن (الوسط) في هذا الموضع ، هو (الوسط) الذي بمعنى : الجزءُ الذي هو بين الطرفين ، مثل (وسَط الدار) محرَّك الوَسط مثقَّله، غيرَ جائز في " سينه " التخفيف. وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم (وسَط)، لتوسطهم في الدين ، فلا هُم أهل غُلوٍّ فيه ، غلوَّ النصارى الذين غلوا بالترهب ، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه - ولا هُم أهلُ تقصير فيه ، تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله ، وقتلوا أنبياءَهم ، وكذبوا على ربهم ، وكفروا به ؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك ، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها"[٢].

وقد اعترض على رأيه الحافظ ابن حجر، قائلا: "لا يلزم من كون الوسط في الآية صالحاً لمعنى التوسط أن لا يكون أريد به معناه الآخر، كما نص عليه الحديث"[٣].

قلت: أن جميع الأقوال السابقة متقاربة في المعنى وغير متنافية. والله أعلم.

قوله تعالى:{لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}[البقرة:١٤٣]، " أي لتشهدوا على الأمم يوم القامة أن رسلهم بلّغتهم"[٤].

قال ابن عثيمين:" أي: تشهدون على الناس بأن الرسل قد بلغتهم؛ فمنهم من آمن، ومنهم من كفر"[٥].

قال البيضاوي:" علة للجعل، أي لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج، وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما بخل على أحد وما ظلم، بل أوضح السبل وأرسل الرسل، فبلغوا ونصحوا. ولكن الذين كفروا حملهم الشقاء على اتباع الشهوات، والإعراض عن الآيات، فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين من قبلكم، أو بعدكم"[٦].

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣٢٨/١-٣٢٩.

(٢) تفسير الطبري: ١٤٢/٣. ويؤكد ابن عاشور المعنى نفسه قائلا: إن" الوسط هو الخيار العدل الخارج من بين طرفي إفراط وتفريط علمنا أن الله تعالى أكمَلَ عقولَ هذه الأمة بما تنشأ عليه عقولهم من الاعتياد بالعقائد الصحيحة ومجانبة الأوهام السخيفة التي ساخت فيها عقول الأمم ، ومن الاعتياد بتلقي الشريعة من طرق العدول وإثبات أحكامها بالاستدلال استنباطاً بالنسبة للعلماء وفَهْماً بالنسبة للعامة ، فإذا كان كذلك لزم من معنى الآية أن عقول أفراد هاته الأمة عقول قيِّمة وهو معنى كونها وسطاً ، ثم هذه الاستقامة تختلف بما يناسب كل طبقة من الأمة وكلَّ فرد ، ولما كان الوصف الذي ذكر أثبتَ لمجموع الأمة قلنا إن هذا المجموع لا يقع في الضلال لا عمداً ولا خطأ ، أما التعمد فلأنه ينافي العدالة وأما الخطأ فلأنه ينافي الخلقة على استقامة الرأي فإذا جاز الخطأ على آحادهم لا يجوز توارد جميع علمائهم على الخطأ نظراً ، وقد وقع الأمران للأمم الماضية فأجمعوا على الخطأ متابعة لقول واحد منهم لأن شرائعهم لم تحذرهم من ذلك أو لأنهم أساءوا تأويلها ، ثم إن العامة تأخذ نصيباً من هذه العصمة فيما هو من خصائصها وهو الجزء النقلي فقط وبهذا ينتظم الاستدلال".(تفسير ابن عاشور: ١٩/٢-٢٠).

(٣) الفتح: ٢٢/٨. وقوله (كما نص عليه الحديث) أي: حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً عند البخاري-فتح-: ٢١/٨ رقم: ٤٤٨٧ قال: (والوسط: العدل)، وانظر: فتح الباري: ٢٢/٨، وتنصيصه على أن ذلك من نفس الخبر، وليس بمدرج من قول بعض الرواة كما وهم فيه بعضهم..

(٤) صفوة التفاسير:٩٠/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين:١١٠/٢.

(٦) تفسير البيضاوي: ١١١/١.

قال ابن عاشور:"علة لجَعْلِهم وسطاً فإن أفعال الله تعالى كلها منوطة بحكم وغايات لعلمه تعالى وحكمته وذلك عن إرادة واختيار لا كصدور المعلول عن العلة كما يقول بعض الفلاسفة ، ولا بوجوب وإلجاء كما توهمه عبارات المعتزلة وإن كان مرادهم منها خيراً فإنهم أرادوا أن ذلك واجب لذاته تعالى لكمال حكمته"(١).

ثم قال: "و(الناس) عام والمراد بهم الأمم الماضون والحاضرون وهذه الشهادة دنيوية وأخروية:

١- فأما الدنيوية فهي حكم هاته الأمة على الأمم الماضين والحاضرين بتبرير المؤمنين منهم بالرسل المبعوثين في كل زمان وبتضليل الكافرين منهم برسلهم والمكابرين في العكوف على مللهم بعد مجيء ناسخها وظهور الحق ، وهذا حكم تاريخي ديني عليه إذا نشأت عليه الأمة نشأت على تعود عرض الحوادث كلها على معيار النقد المصيب.

وفي حديث أنس بن مالك أن جنازة مرت فأثني عليه خيراً فقال النبي: "وجبت وجبت"، ثم مرت أخرى فأثني عليها شراً فقال النبي:"وجبت وجبت"، فلما سأله عمر عن ذلك قال: "من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض"(٢).

٢- ومن خصائص الأمة المحمدية الأخروية أنها تشهد لكل نبي أنكر قومه أنه قد بلغ، تشهد له بأداء الرسالة وتبليغها فيقبل الله شهادتها، والشهادة الأخروية هي ما رواه البخاري والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:"يجاء بنوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، يا رب، فتسأل أمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته، فيجاء بكم، فتشهدون "، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم {وكذلك جعلناكم أمة وسطا} [البقرة: ١٤٣]- قال: عدلا - {لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا} [البقرة: ١٤٣]"(٣).

فقوله (ثم قرأ) يدل على أن هذه الشهادة من جملة معنى الآية لا أنها عين معنى الآية ، والظاهر من التعليل هو الشهادة الأولى لأنها المتفرعة عن جعلنا أمة وسطاً ، وأما مجيء شهادة

---

(١) تفسير ابن عاشور:٢٠/٢.

(٢) رواه البخاري:(١٣٦٧) ومسلم(٩٤٩).

(٣) رواه البخاري: (٧٣٤٩). وفي رواية الترمذي: " حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، أَخْبَرَنَا جَعْفَرُ بْنُ عَوْنٍ ، أَخْبَرَنَا الْأَعْمَشُ ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " : يُدْعَى نُوحٌ فَيُقَالُ : هَلْ بَلَّغْتَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ ، فَيُقَالُ : هَلْ بَلَّغَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ ، وَمَا أَتَانَا مِنْ أَحَدٍ ، فَيُقَالُ : مَنْ شُهُودُكَ ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ ، قَالَ : فَيُؤْتَى بِكُمْ تَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى :وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا سورة البقرة آية ١٤٣ وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ " ، قَالَ أَبُو عِيسَى : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ عَوْنٍ ، عَنِ الْأَعْمَشِ ، نَحْوَهُ ".(جامع الترمذي(٢٩٠٦).

وروى الإمام أحمد (١١٦٤) وابن ماجه (٤٢٨٤)عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ , وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلانِ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَيُدْعَى قَوْمُهُ فَيُقَالُ لَهُمْ : هَلْ بَلَّغَكُمْ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ : لا فَيُقَالُ لَهُ : هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ , فَيُقَالُ لَهُ : مَنْ يَشْهَدُ لَكَ ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ ؛ فَيُدْعَى مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ ؛ فَيُقَالُ لَهُمْ : هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ؛ فَيُقَالُ : وَمَا عِلْمُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : جَاءَنَا نَبِيُّنَا فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا , فَذَلِكَ قَوْلُهُ : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) قَالَ : يَقُولُ : عَدْلا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) صححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٤٤٨).

الآخرة على طِبقها فذلك لما عرفناه من أن أحوال الآخرة تكون على وفق أحوال الدنيا قال تعالى : {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(١٢٤) {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا(١٢٥) {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} [طه : ١٢٤-١٢٦]"(١).

قوله تعالى:{وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[البقرة:١٤٣]، أي:" ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم"(٢).

قال ابن عثيمين: أي: النبي صلى الله عليه وسلم يشهد على أمته بأنه بلغ البلاغ المبين"(٣).

قلت: وكون النبي-صلى الله عليه و آله- شاهداً على أمته وعلى الناس أجمعين هذهِ حقيقة قرآنية قد نصّ عليها القرآن في سور عديدة وآياتٍ كثيرة، منها الآية المبحوث عنها(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا) وهكذا قال تعالى في سورة الفتح:{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الفتح:٩].

ومنها قوله تعالى:{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا}) [المزمل:١٦].

بل يصرح القرآن المجيد بأنّ كلّ امةٍ من الأمم جعل الله عليها شهيداً منهم من نبيٍ أو رسول أو إمام، قال تعالى:{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء:٤٢].

وقال تعالى:{وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [القصص:٧٦].

وقال تعالى:{وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النمل: ٩٠].

وقال تعالى:{وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} [النحل: ٨٥].

وقال تعالى:{وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [الزُمَر:٧٠].

وقد يسأل السائل: مَن المراد من الأمة الوسط، هل هي الأمة الإسلامية بكاملها، تشهد على الناس ويشهد بعضها على بعض؟

فنقول: أجمع أهل العلم بأن الأمة الوسط هم الموصوفون بالعدالة والخيرية، ولا شكّ بأنّ الشاهد يجب انْ يكون عادلاً وإلاّ لا يصح الاستشهاد به في الدنيا فضلاً عن الآخرة، قال تعالى:{وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ} [الطلاق:٣]، والحال الأمة الإسلامية – بحكم الضرورة والبداهة – فيها العادل والظالم، والمؤمن والمنافق، والبر والفاجر، فكيف يستشهد الله تعالى بهم جميعاً؟ هذا ما لا يرتضيه العقل ويخالف الوجدان والذوق والمنطق السليم، والتحليل العلمي ويخالف أيضاً القرآن العظيم، يقول تعالى مخاطباً المؤمنين مِن هذهِ الأمة:{إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ

---

(١) تفسير ابن عاشور: ٢٠/٢.
(٢) صفوة التفاسير:٩٠/١.
(٣) تفسير ابن عثيمين:١١٠/٢.

آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[آل عمران:١٤١]، فقوله تعالى:{وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهدَاءَ} لفظة "منكم" هنا للتبعيض، أي يتخذ بعضكم شهداء، فلو أنّ الأمة تشهد لقال: {ويتخذكم شهداء} وهذا دليل قرآنيٌ واضح على أنّ الشهداء على الأمة الإسلامية بعضها لا كلها. والله تعالى أعلم.

قال الفخر الرازي: "دلّت الآية على أن من ظهر كفره وفسقه نحو المشبّه، والخوارج، والروافض[١] فإنه لا يُعتدّ به في الإجماع، لأن الله إنّما جَعل الشهداء مَن وَصَفهم بالعدالة والخَيريّة، ولا يختلف في ذلك الحكم من فسق أو كفر بقوله أو فعل، ومن كفر برد النص أو كفر بالتأويل"[٢].

أما القول بأن الأمة الوسط الشهيدة على الناس، هي الأمة الاسلامية بأجمعها[٣]، فهذا فيه نظر، إذ روي عن الضحاك في قوله : " لتكونوا شُهداء على الناس " ، يعني بذلك: الذين استقاموا على الهُدى ، فهم الذين يكونون شهداء على الناس يوم القيامة ، لتكذيبهم رُسلَ الله وكفرهم بآيات الله"[٤].

قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ}[البقرة:١٤٣]، " أي وما أمرناك بالتوجه إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة""[٥].

قال الطبري: أي:"إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولا إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة" [٦].

قوله تعالى: {إلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ}[البقرة:١٤٣]، أي "إلا لنختبر إيمان الناس فنعلم من يصدّق الرسول، ممن يشكّك في الدين ويرجع إلى الكفر لضعف يقينه"[٧].

قال الطبري: أي:" ليظهر حالُ من يَتَّبعك ويُطيعك ويستقبل معك حيثما توجهتَ مِمَّن ينقلب على عَقبَيْه ، أي : مُرْتَدّاً عن دينه"[٨].

قال البيضاوي:أي:" إلا لنمتحن به الناس ونعلم من يتبعك في الصلاة إليها، ممن يرتد عن دينك إلفاً لقبلة آبائه"[٩].

وإن قيل: كيف يكون علمه تعالى غاية الجعل وهو لم يزل عالماً.

قلت-البيضاوي-: "هذا وأشباهه باعتبار التعلق الحالي الذي هو مناط الجزاء، والمعنى ليتعلق علمنا به موجوداً. وقيل: ليعلم رسوله والمؤمنون لكنه أسنده إلى نفسه لأنهم خواصه، أو لتميز

---

(١) وقالت طائفة" انّ الشهداء على هذه الأمة إنمّا هم الأئمة الاثنى عشر، كل واحدٍ منهم يكون شهيداً على أهل زمانه دون غيرهم". وهذا القول باطل لا محال، لأن قوله تعالى(لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس) المخاطب هم خيار أمة محمد وقد ذكرنا الخبر عن الضحاك بأن الأمة الوسط يقصد بها المستقيمون على الإسلام. والله تعالى أعلم.

(٢) مفاتيح الغيب: ٩٤/٤.

(٣) انظر: تفسير الدر المنثور: ١٤٤/١, نقلاً عن رجل مجهول إنه سال ابن عمر فقال: "والأمة الوسط أمة محمّد(صلى الله عليه و آله) جميعاً.

(٤) تفسير الطبري(٢١٩٦):ص ١٥٢/٣.

(٥) صفوة التفاسير:٩٠/١.

(٦) تفسير ابن كثير: ٤٥٧/١.

(٧) صفوة التفاسير:٩٠/١.

(٨) تفسير ابن كثير: ٤٥٧/١.

(٩) تفسير البيضاوي: ١١١/١.

الثابت من المتزلزل كقوله تعالى: {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}، فوضع العلم موضع التمييز المسبب عنه، ويشهد له قراءة ليعلم على البناء للمفعول، والعلم إما بمعنى المعرفة، أو معلق لما في مَنْ من معنى الاستفهام، أو مفعوله الثاني ممن ينقلب، أي لنعلم من يتبع الرسول متميزاً ممن ينقلب"(١).

وفي قوله تعالى:{إلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ}[البقرة:١٤٣]، ثلاثة أوجه(٢):

أحدها: أن المراد علم ظهور. أي علم بأن الشيء حصل، فيعلمه أنه حاصل؛ وأما العلم به قبل وقوعه فهو علم بأنه سيحصل؛ وفرق بين العلم بالشيء أنه سيحصل، والعلم بأنه قد حصل.

الثاني: أن المراد علم الجزاء؛ لأن علم الله الكائن في الأزل لا يترتب عليه الجزاء حتى يُمتحن العبد، ويُنظر.

والثالث: وقيل المعنى:" وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لعلمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه"(٣).

والصواب الوجهان الأولان؛ وأحسنهما أن يكون المراد بالعلم هنا الذي يترتب عليه الجزاء؛ لأنه الواضح وليس فيه تكلف(٤). والله أعلم.

قال ابن عثيمين:" وهذا ــ وإن كان له وجه من حيث اللفظ؛ وهو أن يعبر بالمضارع عن الماضي أحياناً ــ لكنه ضعيف هنا من حيث المعنى؛ إذ لا حكمة من ذلك؛ لأنه يكون معنى الآية: وما جعلنا هذا إلا لأننا قد علمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه؛ وحينئذ يقال: إذاً ما الفائدة؟! لأنه لا يناسب أن الله ما جعل هذه القبلة إلا لأنه قد علم من يبقى على دينه، ومن لا يبقى"(٥).

وقد ذكر الرازي في قوله تعالى:{إلا لِنَعْلَمَ}[وجوها عن المفسرين(٦):

أحدها: أن قوله: {إلا لنعلم} معناه إلا ليعلم حزبنا من النبيين والمؤمنين كما يقول الملك: فتحنا البلدة الفلانية بمعنى: فتحها أولياؤنا، ومنه يقال: فتح عمر السواد، ومنه قول عليه الصلاة والسلام فيما يحكيه عن ربه: "استقرضت عبدي فلم يقرضني، وشتمني ولم يكن ينبغي له أن يشتمني يقول وادهراه وأنا الدهر" وفي الحديث: "من أهان لي وليا فقد أهانني".

وثانيها: معناه ليحصل المعدوم فيصير موجودا، فقوله: {إلا لنعلم} معناه: إلا لنعلمه موجودا، فإن قيل: فهذا يقتضي حدوث العلم، قلنا: اختلفوا في أن العلم بأن الشيء سيوجد هل هو علم بوجوده إذا وجد الخلاف فيه مشهور.

وثالثها: إلا لنميز هؤلاء من هؤلاء بانكشاف ما في قلوبهم من الإخلاص والنفاق، فيعلم المؤمنون من يوالون منهم ومن يعادون، فسمي التمييز علما، لأنه أحد فوائد العلم وثمراته.

---

(١) تفسير البيضاوي: ١١١/١.
(٢) انظر: تفسير ابن عثيمين:١١٠/٢.
(٣) تفسير ابن عثيمين:١١٠/٢.
(٤) انظر: تفسير ابن عثيمين:١١٠/٢.

(٥) تفسير ابن عثيمين:١١٠/٢.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب: ٩٥/٤-٩٦.

ورابعها: {إلا لنعلم} معناه: إلا لنرى، ومجاز هذا أن العرب تضع العلم مكان الرؤية، والرؤية مكان العلم كقوله: {ألم تر كيف} [الفجر: ٦] [الفيل: ١] [إبراهيم: ١٩] ورأيت، وعلمت، وشهدت، ألفاظ متعاقبة.

وخامسها: ما ذهب إليه الفراء: وهو أن حدوث العلم في هذه الآية راجع إلى المخاطبين، ومثاله أن جاهلا وعاقلا اجتمعا، فيقول الجاهل: الحطب يحرق النار، ويقول العاقل: بل النار تحرق الحطب، وسنجمع بينهما لنعلم أيهما يحرق صاحبه معناه: لنعلم أينا الجاهل، فكذلك قوله: {إلا لنعلم} إلا لتعلموا والغرض من هذا الجنس من الكلام: الاستمالة والرفق في الخطاب، كقوله: {وإنا أو إياكم لعلى هدى} (سبأ: ٢٤) فأضاف الكلام الموهم للشك إلى نفسه ترقيقا للخطاب ورفقا بالمخاطب، فكذا قوله: {إلا لنعلم}.

وسادسها: نعاملكم معاملة المختبر الذي كأنه لا يعلم، إذ العدل يوجب ذلك.

وسابعها: أن العلم صلة زائدة، فقوله؛ {إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه} معناه: إلا ليحصل اتباع المتبعين، وانقلاب المنقلبين، ونظيره قولك في الشيء الذي تنفيه عن نفسك: ما علم الله هذا مني أي ما كان هذا مني والمعنى: أنه لو كان لعلمه الله.

وفي قوله تعالى:{وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا}[البقرة:١٤٣]، وجوه(١):

الأول: أن يكون هذا الكلام بيانا للحكمة في جعل القبلة، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي بمكة إلى الكعبة ثم أمر بالصلاة إلى بيت المقدس بعد الهجرة تأليفا لليهود، ثم حول إلى الكعبة فنقول: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ} الجهة: {الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا} أولا: يعني وما رددناك إليها إلا امتحانا للناس وابتلاء.

الثاني: يجوز أن يكون قوله: {الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا} لسانا للحكمة في جعل بيت المقدس قبلة، يعني إن أصل أمرك أن تسقبل الكعبة وأن استقبالك بيت المقدس كان أمرا عارضا لغرض وإنما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها قبل وقتك هذا، وهي بيت المقدس، لنمتحن الناس وننظر من يتبع الرسول ومن لا يتبعه وينفر عنه.

الثالث: وقد ذكره أبو مسلم فقال: "لولا الروايات لم تدل الآية على قبلة من قبل الرسول عليه الصلاة والسلام عليها، لأنه قد يقال: كنت بمعنى صرت كقوله تعالى: {كنتم خير أمة} [آل عمران: ١١٠]، وقد يقال: كان في معنى لم يزل كقوله تعالى: {وكان الله عزيزا حكيما} [النساء: ١٥٨]، فلا يمتنع أن يراد بقوله: {وما جعلنا القبلة التى كنت عليها} أي التي لم تزل عليها وهي الكعبة إلا كذا وكذا"(٢).

واختلفوا في أن هذه المحنة حصلت بسبب تعيين القبلة أو بسبب تحويلها(٣):

أحدهما: أنها حصلت بسبب تعيين القبلة، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي إلى الكعبة، فلما جاء المدينة صلى إلى بيت المقدس، فشق ذلك على العرب من حيث إنه ترك قبلتهم، ثم إنه لما حوله مرة أخرى إلى الكعبة شق ذلك على اليهود من حيث إنه ترك قبلتهم.

الثاني: أن هذه المحنة إنما حصلت بسبب التحويل، فإنهم قالوا: إن محمدا صلى الله عليه وسلم لو كان على يقين من أمره لما تغير رأيه، روى القفال عن ابن جريح أنه قال: بلغني أنه رجع ناس ممن أسلم، وقالوا مرة ههنا ومرة ههنا، وقال السدي: لما توجه النبي عليه الصلاة والسلام نحو

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٩٥/٤.
(٢) مفاتيح الغيب: ٩٠/٤.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ٩٠/٤.

المسجد الحرام اختلف الناس فقال المنافقون: ما بالهم كانوا على قبلة ثم تركوها، وقال المسلمون: لسنا نعلم حال إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون نحو بيت المقدس، وقال آخرون: اشتاق إلى بلد أبيه ومولده، وقال المشركون: تحير في دينه.

قال الرازي:" والقول الأخير أولى، لأن الشبهة في أمر النسخ أعظم من الشبهة الحاصلة بسبب تعيين القبلة، وقد وصفها الله تعالى بالكبيرة فقال: {وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله} فكان حمله عليه أولى"(١).

وقوله تعالى{مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ}، استعارة ومعناه: "من يكفر بالله ورسوله، ووجه الاستعارة أن المنقلب على عقبيه قد ترك ما بين يديه وأدبر عنه، فلما تركوا الإيمان والدلائل صاروا بمنزلة المدبر عما بين يديه فوصفوا بذلك كما قال تعالى: {ثم أدبر واستكبر} [المدثر: ٢٣] وكما قال: {كذب وتولى} [طه: ٤٨]، وكل ذلك تشبيه"(٢).

قوله تعالى:{وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ}[البقرة:١٤٣]، "أي وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعباً إلاّ على الذين هداهم الله"(٣).

قال ابن عباس:" يعني: تحويلها على أهل الشك والريبة"(٤).

قال مجاهد:" يقول: ما أمروا به من التحول إلى الكعبة من بيت المقدس""(٥)، وروي عن أبي العالية، وقتادة، ومقاتل بن حيان نحو ذلك(٦).

قال الزجاج:" يعني قبلة بيت المقدس، أي وإن كان اتباعها لكبيرة، المعنى إنه كبير على غير المخلصين، فأما من أخلص فليست بكبيرة عليه، كما قال: {إلا على الذين هدى الله} أي فليست بكبيرة عليهم"(٧).

قال ابن كثير:"أي : "هذه الفعلة ،وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنُوا بتصديق الرسُول ، وأنَّ كلَّ ما جاء به فهو الحقّ الذي لا مرْية فيه ، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فله أن يكلّف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك "(٨).

و(الكبَر): "يراد به الشيء الشاق العظيم؛ ومنه قوله -صلى الله عليه وسلم- في صاحبَي القبرين: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير»(١)، أي في أمر شاق عليهما"(٩).

قال الرازي: أي: " لثقيلة شاقة مستنكرة كقوله: {كبرت كلمة تخرج من أفواههم}[الكهف: ٥]، أي: عظمت الفرية بذلك، وقال الله تعالى: {سبحانك هذا بهتان عظيم} [النور:١٦]، وقال: {إن ذالكم كان عند الله عظيما} [الأحزاب: ٥٣]"(١٠).

---

(١) مفاتيح الغيب: ٩٠/٤.
(٢) مفاتيح الغيب: ٩٧/٤.
(٣) صفوة التفاسير:٩٠/١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٤٤):ص٢٥١/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٤٤):ص٢٥١/١.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٥١/١.
(٧) معاني القرآن: ٢٢٠/١.
(٨) تفسير ابن كثير: ٤٥٧/١.
(١) أخرجه البخاري ص٢٠، كتاب الوضوء، باب ، حديث رقم ٢١٨، وأخرجه مسلم ص٧٢٧، كتاب الطهارة، باب ٣٤: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، حديث رقم ٦٧٧[١١١] ٢٩٢.
(٩) تفسير ابن عثيمين: ٤٩/٢.
(١٠) مفاتيح الغيب: ٩١/٤.

قال ابن عطية:" وشهد الله تعالى في هذه الآية للمتبعين بالهداية"(١).

وفي قوله تعالى:{وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ}[البقرة:١٤٣]، أربعة تأويلات(٢):

أحدها : معناه وإن التولية عن بيت المقدس إلى الكعبة والتحويل إليها لكبيرةٌ ، وهذا قول ابن عباس(٣)، ومجاهد(٤)، وقتادة(٥).

والتأنيث في قوله{كانت}، للتولية، لأنه قال: {ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها} ثم قال عطفا على هذا: {وإن كانت لكبيرة} أي وإن كانت التولية.

والثاني : إن الكبيرة هي القبلة بعينها التي كان رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يتوجه إليها من بيت المقدس قبل التحويل ، وهذا قول أبي العالية الرياحي(٦).

لأنه لا بد له من مذكور سابق وما ذاك إلا القبلة في قوله: {وما جعلنا القبلة التى كنت عليها} [البقرة: ١٤٣].

والثالث: أن الكبيرة هي الصلاة ، التي كانوا صَلَّوْهَا إلى القبلة الأولى ، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد (٧).

والراجح هو القول الأول، " لأن القوم إنما كبُر عليهم تحويل النبي صلى الله عليه وسلم وَجْهه عن القبلة الأولى إلى الأخرى، لا عين القبلة، ولا الصلاة. لأن القبلة الأولى والصلاة ، قد كانت وهى غير كبيرة عليهم"(٨).

قال الرازي: "إن قلنا الامتحان وقع بنفس القبلة، قلنا: إن تركها ثقيل عليهم، لأن ذلك يقتضي ترك الألف والعادة، والإعراض عن طريقة الآباء والأسلاف وإن قلنا: الامتحان وقع بتحريف القبلة قلنا: إنها لثقيلة من حيث أن الإنسان لا يمكنه أن يعرف أن ذلك حق إلا بعد أن عرف مسألة النسخ وتخلص عما فيها من السؤالات، وذلك أمر ثقيل صعب إلا على من هداه الله تعالى حتى عرف أنه لا يستنكر نقل القبلة من جهة إلى جهة كما لا يستنكر نقلة إياهم من حال إلى حال في الصحة والسقم والغنى والفقر، فمن اهتدى لهذا النظر ازداد بصره، ومن سفه واتبع الهوى وظواهر الأمور ثقلت عليه هذه المسألة"(٩).

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى:{هَدَى اللَّهُ}[البقرة:١٤٣]، وجهان من المعنى:

أحدهما: أي: الذين ثبت الله.قاله ابن عباس(١٠).

الثاني: أن المراد: عصم الله. قاله قتادة(١١).

قال ابن عثيمين:" والمراد بالهداية هنا: هداية العلم، وهداية التوفيق؛ أما كونها هداية العلم فلأن الذين يخشون الله هم العلماء، كما قال الله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}

---

(١) المحرر الوجيز: ٢٢٠/١.

(٢) انظر: النكت والعيون: ٢٠١/١، ومفاتيح الغيب: ٩٠/٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٢١٠):ص١٦٤/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٢١١)، و(٢٢١٢):ص١٦٤/٣.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٢١٣):ص١٦٤/٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٢١٤):ص١٦٤/٣.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٢١٥)، و(٢٢١٦):ص١٦٤/٣-١٦٥.

(٨) تفسير الطبري:١٦٥/٣.

(٩) مفاتيح الغيب: ٩١/٤.

(١٠) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٣٤٥):ص٢٥١/١.

(١١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٣٤٥):ص٢٥١/١.

[فاطر: ٢٨] أي العلماء به، وبأسمائه، وصفاته، وبأحكامه؛ هذه هي هداية العلم؛ لأنهم إذا علموا خشوا الله سبحانه وتعالى، ولم يكرهوا شريعته، ولم يكبر ذلك عليهم، ولم يشق؛ كذلك هداية التوفيق - وهي المهمة: إذا وفق العبد للانقياد لله سبحانه وتعالى سهل عليه دينه، وصار أيسر عليه من كل شيء، كما قال تعالى: {{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(٦) {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} [الليل : ٥-٧]"[١].

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}[البقرة:١٤٣]، أي "ما كان الله يترك إيمانكم سدًى بدون مجازاة عليه"[٢].

قال ابن عباس :"يقول : صَلاتكم التي صليتموها من قبل أن تكون القبلة. فكان المؤمنون قد أشفقوا على مَن صلى منهم أن لا تُقبلَ صلاتهم""[٣].

قال مقاتل:" يعني إيمان صلاتكم نحو بيت المقدس يقول لقد تقبلت منهم"[٤].

قال الصابوني:" أي ما صحَّ ولا استقام أن يضيع الله صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها"[٥].

قال الماوردي:" يعني صلاتكم إلى بيت المقدس ، فسمى الصلاة إيماناً لاشتمالها على نية وقول وعمل"[٦].

قال الزجاج:" أي من كان صلى إلى بيت المقدس قبل أن تحول القبلة إلى البيت الحرام بمكة فصلاته غير ضائعة وثوابه قائم"[٧].

قال الفخر الرازي:" أي لا يضيع ثواب إيمانكم لأن الإيمان قد انقضى وفنى وما كان كذلك استحال حفظه وإضاعته إلا أن استحقاق الثواب قائم بعد انقضائه فصح حفظه وإضاعته وهو كقوله تعالى: {أنى لا أضيع عمل عامل منكم} [آل عمران: ١٩٥]"[٨].

قال الطبري: (وإضاعته إياه) جل ثناؤه - لو أضاعه - : تركُ إثابة أصْحابه وعامليه عليه ، فيذهب ضياعًا ، ويصير باطلا كهيئة " إضاعة الرجل ماله " ، وذلك إهلاكه إياه فيما لا يعتاض منه عوضًا في عاجل ولا آجل، فأخبر الله جل ثناؤه أنه لم يكن يُبطل عَمل عاملٍ عمل له عملا وهو له طاعة ، فلا يُثيبه عليه ، وإن نُسخ ذلك الفرضُ بعد عمل العامل إياه على ما كلفه من عمله"[٩].

وعنى بـ(الإيمان)، في هذا الموضع:(الصلاةَ). قاله: ابن عباس[١٠]، والبراء[١١]، وقتادة[١٢]، والسدي[١٣]، والربيع[١]، وداود بن أبي عاصم[٢]، وابن زيد[٣]، وسعيد بن مسيب[٤].

---

(١) تفسير ابن عثيمين: ٤٩/٢.
(٢) تفسير ابن عثيمين: ٥٠/٢.
(٣) أخرجه الطبري(٢٢٢٧):ص١٦٩/٣.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤٦/١.
(٥) صفوة التفاسير:٩٠/١.
(٦) النكت والعيون:٢٠١/١.
(٧) معاني القرآن: ٢٢١/١.
(٨) مفاتيح الغيب: ٩٩/٤-١٠٠.
(٩) تفسير الطبري: ١٦٩/٢-١٧٠.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٢١٩):ص١٦٧/٣، و(٢٢٢٧):ص١٦٩/٣.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٢٢٠)، و(٢٢٢١)، و(٢٢٢٢):ص١٦٧٠١٦٨/٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٢٢٣):ص١٦٨/٣.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٢٢٤):ص١٦٨/٣.

وفي سبب تسمية الصلاة بالإيمان، وجهان(٥):
أحدهما: أن الصلاة سميت إيمانا، لما كانت صادرة عن الإيمان والتصديق في وقت بيت المقدس وفي وقت التحويل، ولما كان الإيمان قطبا عليه تدور الأعمال وكان ثابتا في حال التوجه هنا وهنا ذكره، إذ هو الأصل الذي به يرجع في الصلاة وغيرها إلى الأمر والنهي، ولئلا تندرج في اسم الصلاة صلاة المنافقين إلى بيت المقدس فذكر المعنى الذي هو ملاك الأمر.
والثاني: أنها سميت إيمانا، إذ هي من شعب الإيمان.
قال ابن عثيمين:"والمراد بـ(إِيمَانَكُمْ)، صلاتهم إلى بيت المقدس؛ وهذا عام للذين ماتوا قبل تحويل القبلة، ومن بقوا حتى حولت، «ما كان الله...» في القرآن فهي الأمر الممتنع غاية الامتناع؛ مثل: «لا ينبغي»، أو «ما ينبغي» فالمراد أنه ممتنع مستحيل، كقوله تعالى: {لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر} [يس: ٤٠] ، وقوله تعالى: {وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً} [مريم: ٩٢] أي ممتنع مستحيل؛ وقوله -صلى الله عليه وسلم-: "إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام"(١)، المعنى: أنه مستحيل"(٦).
قال الرازي: "فإن قيل: إذا كان الشك إنما تولد من تجويز البداء على الله تعالى فكيف يليق ذلك بالصحابة؟ قلنا: الجواب من وجوه:
أحدها: أن ذلك الشك وقع لمنافق فذكر الله تعالى ذلك ليذكره المسلمون جوابا لسؤال ذلك المنافق.
وثانيها: لعلهم اعتقدوا أن الصلاة إلى الكعبة أفضل فقالوا: ليت إخواننا ممن مات أدرك ذلك، فذكر الله تعالى هذا الكلام جوابا عن ذلك.
وثالثها: لعله تعالى ذكر هذا الكلام ليكون دفعا لذلك السؤال لو خطر ببالهم"(٧).
وقد اختلفوا في الخطاب الموجه في قوله: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}[البقرة:١٤٣]، على قولين(٨):
القول الأول: أن الخطاب مع المؤمنين.
وقد ذكر القفال على هذا القول، أربعة أوجه(٩):
الوجه الأول: أن الله خاطب به المؤمنين الذين كانوا موجودين حينئذ، وذلك جواب عما سألوه من قبل.
الثاني: أنهم سألوا عمن مات قبل نسخ القبلة فأجابهم الله تعالى بقوله: {وما كان الله ليضيع إيمانكم} أي وإذا كان إيمانكم الماضي قبل النسخ لا يضيعه الله فكذلك إيمان من مات قبل النسخ.
الثالث: يجوز أن يكون الأحياء قد توهموا أن ذلك لما نسخ بطل، وكان ما يؤتى به بعد النسخ من الصلاة إلى الكعبة كفارة لما سلف واستغنوا عن السؤال عن أمر أنفسهم لهذا الضرب من

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٢٢٢٥):ص١٦٨/٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٢٢٦):ص١٦٨/٣-١٦٩.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٢٢٨):ص١٦٩/٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٢١٩):ص١٦٧/٣.
(٥) انظر: المحرر الوجيز: ٢٢١/١.
(١) أخرجه مسلم ص٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٧٩: في قوله عليه السلام: "إن الله لا ينام"...، حديث رقم ٤٤٥ [٢٩٣] ١٧٩.
(٦) تفسير ابن عثيمين: ٥٠/٢.
(٧) تفسير الإمام الرازي: ٩٨/٤-٩٩.
(٨) تفسير الإمام الرازي: ٩٨/٤-٩٩.
(٩) انظر: مفاتيح الغيب: ٩٣/٤.

التأويل فسألوا عن إخوانهم الذين ماتوا ولم يأتوا بما يكفر ما سلف فقيل: {وما كان الله ليضيع إيمانكم} والمراد أهل ملتكم كقوله لليهود الحاضرين في زمان محمد صلى الله عليه وسلم : {وإذ قتلتم نفسا} [البقرة: ٧٢]، {وإذ فرقنا بكم البحر} [البقرة: ٥٠].

الرابع: يجوز أن يكون السؤال واقعا عن الأحياء والأموات معا، فإنهم اشفقوا على ما كان من صلاتهم أن يبطل ثوابهم، وكان الإشفاق واقعا في الفريقين فقيل: إيمانكم للأحياء والأموات، إذ من شأن العرب إذا أخبروا عن حاضر وغائب أن يغلبوا الخطاب فيقولوا: كنت أنت وفلان الغائب فعلتما. والله أعلم(١).

القول الثاني: أنه يحتمل أن يكون ذلك خطابا لأهل الكتاب، والمراد بالإيمان صلاتهم وطاعتهم قبل البعثة ثم نسخ، وإنما اختار أبو مسلم هذا القول لئلا يلزمه وقوع النسخ في شرعنا. قاله أبو مسلم(٢).

قال ابن عطية:" وخاطب الحاضرين والمراد من حضر ومن مات، لأن الحاضر يغلب، كما تقول العرب: ألم نقتلكم في موطن كذا؟، ومن خوطب لم يقتل ولكنه غلب لحضوره"(٣).

وقرأ الضحاك: {لِيُضَيِّعَ}، بفتح (الضاد) وشد (الياء)(٤).

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}[البقرة:١٤٣]، "أي إن الله رءوف بعباده ، لأنه ذو الرحمة الواسعة"(٥).

قال مقاتل:"{ لَرَءُوفٌ}: يعني يرق لهم، { رَحِيمٌ}: حين قبلها منهم قبل تحويل القبلة"(٦).

قال الزجاج:" ومعنى الرأفة كمعنى الرحمة"(٧).

قال البغوي:" والرأفة أشد الرحمة"(٨).

قال ابن عطية:" والرأفة أعلى منازل الرحمة"(٩).

قال النسفي:" {رحيم}،لا يضيع أجورهم ، والرأفة: أشد من الرحمة، وجمع بينهما كما في الرحمن الرحيم"(١٠).

قال أبو السعود:" تحقيقٌ وتقريرٌ للحُكم وتعليلٌ له فإن اتصافَه عز وجل بهما يقتضي لا محالة أن لا يُضيعَ أجورَهم ولا يدَعَ ما فيه صلاحهم"(١١).

قال الصابوني:" تعليل للحكم أي أنه تعالى عظيم الرحمة بعباده لا يضيع أعمالهم الصالحة التي فعلوها"(١٢).

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٩٣/٤.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٩٣/٤.
(٣) المحرر الوجيز: ٢٢٠/١-٢٢١.
(٤) انظر: المحرر الوجيز: ٢٢١/١.
(٥) تفسير المراغي: ٨/٢.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤٦/١.
(٧) معاني القرآن: ٢٢١/١.
(٨) تفسير البغوي: ١!/٦١.
(٩) المحرر الوجيز: ٢٢١/١.
(١٠) تفسير النسفي:١٢٩/١.
(١١) تفسير أبي السعود: ١٧٤/١.
(١٢) صفوة التفاسير:٩٠/١.

قال الطبري: "أي: "أن الله بجميع عباده ذُو رأفة، و(الرأفة)، أعلى مَعاني الرحمة ، وهي عَامَّة لجميع الخلق في الدنيا ، ولبعضهم في الآخرة، وأما (الرحيم): فإنه ذو الرحمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة ، على ما قد بينا فيما مضى قبل"[1].

واختلفت القراءة في قوله تعالى:{ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}[البقرة:١٤٣]، على وجهين[2]:

أحدهما: {لرءوف رحيم} مهموزا غير مشبع على وزن: رعف. قرأ بها عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم.

والثاني: {رؤف} مثقلا مهموزا مشبعا على وزن رعوف، قرأ بها ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم، وكذلك ابن عامر.

وفيه أربع لغات: (رئف) أيضا كحزر، و(رأف) على وزن فعل[3]، وكلتاهما قراءتان سبعيتان، قال الوليد بن عقبة[4]:

وَشرُّ الطالِبِينَ - وَلا تَكُنْه - ... بقَاتِلِ عَمِّه ، الرَّؤُفُ الرَّحِيم

وقال العلماء: إن الرأفة أشد الرحمة؛ فهي رحمة خاصة؛ و(رَحِيمٌ) أي متصف بالرحمة؛ وقالوا: إنه قدمت (لَرَءُوفٌ) على (رَحِيمٌ) - مع أن (الرؤوف) أبلغ - من أجل مراعاة الفواصل؛ وقال تعالى: (رَحِيمٌ)، لأن هذا يتعلق بفعله - أي برحمته الخلق[5].

قال القفال -رحمه الله-: "الفرق بين الرأفة والرحمة: أن الرأفة مبالغة في رحمة خاصة وهي دفع المكروه وإزالة الضرر كقوله: {ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله} (النور: ٢) أي لا ترأفوا بهما فترفعوا الجلد عنهما، وأما الرحمة فإنها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ويدخل فيه الإفضال والإنعام، وقد سمى الله تعالى المطر رحمة فقال: {وهو الذى يرسل الرياح * بشرا بين * يدى رحمته} (الأعراف: ٥٧) لأنه إفضال من الله وإنعام، فذكر الله تعالى الرأفة أولا بمعنى أنه لا يضيع أعمالهم ويخفف المحن عنهم، ثم ذكر الرحمة لتكون أعم وأشمل، ولا تختص رحمته بذلك النوع بل هو رحيم من حيث أنه دافع للمضار التي هي الرأفة وجالب للمنافع معا"[6].

وقد ذكروا في وجه تعلق هذين الاسمين(الرءوف الرحيم) بما قبلهما وجوها[7]:

أحدها: أنه تعالى لما أخبر أنه لا يضيع إيمانهم قال: {إن الله بالناس لرءوف رحيم} [الحج: ٦٥] والرؤف الرحيم كيف يتصور منه هذه الإضاعة.

---

(١) تفسير الطبري: ٣/١٧٠-١٧١.

(٢) انظر: السبعة في القراءات: ١٧١، والحجة: ٢/٢٢٩-٢٣٠.

(٣) مفاتيح الغيب: ٤/١٠٠.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٢/ ١٤٥ ، وتفسير أبي حيان:١ / ٤٢٧ ، في الأول(يقاتل)، والثاني(يقابل) ، وكأن هذا البيت من شعر الوليد بن عقبة ، الذي كتب به إلى معاوية يحض معاوية على قتال علي رضي الله عنهما . وهي في أنساب الأشراف : ١٤٠ ، وتاريخ الطبري ٥ / ٢٣٦ - ٢٣٧ ، وحماسة البحتري : ٣٠ ، واللسان (حلم) وغيرها ، وليس فيها هذا البيت ، وكأنه قبل البيت الذي يقول فيه :

لَكَ الْوَيْلاتُ! أَقْحِمْهَا عَلَيْهِمْ فخيرُ الطَّالبي التِّرَةِ الغَشُومُ

وقوله : " لا تكنه " ، دعاء له ، واستنكار أن يكون كهذا الطالب الثائر الذي يطالب بدم عمه ، وهو رؤوف رحيم بعدوه وقاتل عمه ، وهو شر طالب ثأر .

(٥) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢/٥٠.

(٦) مفاتيح الغيب: ٤/١٠٠.

(٧) مفاتيح الغيب: ٤/٩٥.

وثانيها: أنه لرؤف رحيم فلذلك ينقلكم من شرع إلى شرع آخر وهو أصلح لكم وأنفع في الدين والدنيا.
وثالثها: قال: {وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله} فكأنه تعالى قال: وإنما هداهم الله ولأنه رؤف رحيم.
الفوائد:
١- من فوائد الآية: فضيلة هذه الأمة حيث هداها الله إلى استقبال بيته الذي هو أول بيت وضع للناس؛ وروى الإمام أحمد في مسنده أن مما يحسدنا عليه اليهود القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها؛ فهم يحسدوننا على هذه الخصلة؛ وكذلك على يوم الجمعة، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين[٢]؛ المهم أن استقبال القبلة مما حسدونا عليه؛ لأن الكعبة أول بيت وضع للناس، وأعظم بيت في الأرض؛ ولا يوجد بيت قصده ركن من أركان الإسلام للحج إلا الكعبة؛ ولذلك حسدنا اليهود عليها، وأثاروا ضجة عظيمة على التولي عن قبلتهم إلى الكعبة، وصاروا مع من يناصرهم من المشركين؛ أحدثوا أمراً عظيماً حتى إن بعض المسلمين ارتد - والعياذ بالله - عن الإسلام لما سمع من زخرف القول من هؤلاء اليهود، وغيرهم.
٢- ومن فوائد الآية: فضل هذه الأمة على جميع الأمم؛ لقوله تعالى: {وسطاً}.
٣- ومنها: عدالة هذه الأمة؛ لقوله تعالى: {لتكونوا شهداء على الناس}؛ والشهيد قوله مقبول؛ والمراد بـ «الأمة» هنا أمة الإجابة؛ ومن هنا نعرف حذق أهل الفقه، حيث قالوا: إن «العدل» من استقام على دين الله؛ يعني: هذه الأمة أمة وسط إذا كانت على دين الرسول صلى الله عليه وسلم فتكون شهيداً، وتقبل شهادتها إذا استقامت على دين الله، وكانت أمة حقيقية؛ فعلية يؤخذ من هذا حدّ «العدل»: أن العدل من استقام على دين الله.
٤- من فوائد الآية: أن هذه الأمة تشهد على الأمم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: {لتكونوا شهداء على الناس}؛ والشهادة تكون في الدنيا، والآخرة؛ فإذا حشر الناس، وسئل الرسل: هل بلغتم؟ فيقولون: نعم؛ ثم تسأل الأمم: هل بُلِّغتم؟ فيقولون: ما جاءنا من بشير، ولا نذير؛ ما جاءنا من أحد؛ فيقال للرسول: من يشهد لك؟ فيقول: «محمد، وأمته»؛ يُستشهدون يوم القيامة، ويَشهدون؛ فيكونون شهداء على الناس.
فإذا قال قائل: كيف تشهد وهي لم تر؟ نقول: لكنها سمعت عمن خبره أصدق من المعاينة - صلوات الله وسلامه عليه.
٥- من فوائد الآية: أن نبينا -صلى الله عليه وسلم- يكون شهيداً علينا يوم القيامة - شهيداً علينا بالعدالة؛ وقيل: شهيداً علينا بأنه بلغ البلاغ المبين؛ وقد ثبت عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال يوم عرفة في أعظم مجمع حصل له مع الصحابة: "ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم؛ قال: اللهم اشهد؛ ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم؛ قال: اللهم اشهد؛ ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم؛ قال: اللهم اشهد"[١] ؛ فأشهد

(٢) أخرجه أحمد ص١٨٦٩، حديث رقم ٢٥٥٤٣؛ وفيه علي بن عاصم شيخ الإمام أحمد؛ قال يعقوب بن شيبة: "كان من أهل الدين، والصلاح، والخير البارع، وكان شديد التوقي، أنكر عليه كثرة الغلط، والخطأ مع تماديه على ذلك" (ميزان الاعتدال ١٣٥/٣)؛ وقال الألباني: "ولذلك ضعفه جمهور أئمة الحديث، وكذبه ابن معين وغيره"، (سلسلة الأحاديث الضعيفة ٤٤٣/٣)؛ وقال أحمد: "هو والله عندي ثقة، وأنا أحدث عنه" (الكامل في ضعفاء الرجال ٣٢٦/٦).
(١) أخرجه البخاري ص٥٩٠، كتاب الفتن، باب ٨: قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا ترجعوا بعدي كفاراً"...، حديث رقم ٧٠٧٨، وأخرجه مسلم ص٨٨٠ – ٨٨١، كتاب الحج، باب ١٩: حجة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم ٢٩٥٠ [١٤٧] ١٢١٨.

النبي صلى الله عليه وسلم ربه على إقرار أمته بالبلاغ؛ نعم؛ لقد بلغ البلاغ المبين -صلى الله عليه وسلم-، فترك أمته على المحجة البيضاء؛ وما مات حتى أكمل الله به الدين؛ وما بقي شيء يحتاج الناس إليه في دينهم صغيراً كان، أو كبيراً إلا بينه -صلى الله عليه وسلم- بياناً واضحاً - والحمد لله - فالرسول صلى الله عليه وسلم شهيد على هذه الأمة؛ قال الله تعالى في سورة النساء: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً} [النساء: ٤١] ، يعني: كيف تكون الحال في ذلك اليوم عظيم؛ ولهذا لما قرأ ابن مسعود على النبي صلى الله عليه وسلم، ووصل إلى هذه الآية قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «حسبك» يعني: قف؛ قال: "فإذا عيناه -صلى الله عليه وسلم- تذرفان"(٢)؛ لأن الأمر العظيم؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم شهيد علينا؛ يشهد بأننا بُلِّغنا، وأقيمت علينا الحجة، وما بقي لنا عذر بأيّ وجه من الوجوه؛ ولهذا لا عذر لأحد بعد أن يتبين له الهدى أن يشاق الله ورسوله، كما قال تعالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً} [النساء: ١١٥] .

٦- ومن فوائد الآية: إثبات رسالة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعالى: {ويكون الرسول عليكم شهيداً}.

٧- ومنها: أنه لا رسول بعده؛ لأن «أل» هنا للعهد، وهو يخاطب هذه الأمة؛ فالرسول المعهود فيها واحد؛ وهو محمد صلى الله عليه وسلم؛ ويلزم من ذلك أن لا يكون بعده رسول.

٨- ومنها: أن الله سبحانه وتعالى قد يمتحن العباد بالأحكام الشرعية إيجاباً، أو تحريماً، أو نسخاً؛ لقوله تعالى: {ما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه}؛ فلينتبه الإنسان لهذا؛ فإن الله قد يبتليه بالمال بأن يعطيه مالاً ليبلوه أيقوم بواجبه، أم لا؛ وهذه محنة؛ لأن غالب من ابتلي بالمال طغى من وجه، وشح من وجه آخر؛ ثم اعتدى في تمول المال؛ فضَلَّ في تموله، والتصرف فيه، وتصريفه؛ وقد يبتليه بالعلم؛ فيرزقه علماً ليبلوه أيعمل به، أم لا؛ ثم هل يعلمه الناس، أم لا؛ ثم هل يدعو به إلى سبيل الله، أم لا؛ فليحذر من آتاه الله علماً أن يخل بواحد من هذه الأمور.

وكذلك قد يمتحن العباد بالأحكام الكونية ؛ ومنها ما يجري على العبد من المصائب.

ومن امتحانه بهما أن الله حرم الصيد على المحرم، ثم أرسله على الصحابة وهم محرمون حتى تناله أيديهم، ورماحهم.

٩- ومن فوائد الآية: وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعالى: {لنعلم من يتبع الرسول فالله امتحن العباد ليعلم هل يتبعون الرسول؛ والصحابة رضي الله عنهم اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك أشد الاتباع: جاءهم رجل وهم يصلون الفجر في قباء وهم ركوع، فقال: «إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أُنزل عليه الليلة القرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشأم؛ فاستداروا إلى الكعبة»(٣)؛ هذا هو الاتباع العظيم؛ وكذلك

---

(٢) أخرجه البخاري ص٤٣٧، كتاب فضائل القرآن، باب ٣٣: قول المقرئ للقارئ "حسبك"؛ وأخرجه مسلم ص٨٠٣، كتاب صلاة المسافرين، باب ٤٠: فضل استماع القرآن...، حديث رقم ١٨٦٧ [٢٤٧] ٨٠٠؛ واللفظ للبخاري.

(٣) أخرجه البخاري ص٣٥، كتاب الصلاة، باب ٣٢: ما جاء في القبلة...، حديث رقم ٤٠٣، وأخرجه مسلم ص٧٥٩ – ٧٦٠، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٢: تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، حديث رقم ١١٧٨ [١٣] ٥٢٦.

فعل بنو سلمة في مسجد القبلتين[٤]؛ إذاً فاتباع الرسول واجب؛ وإلا لما احتيج إلى محنة الناس عليه.

١٠- ومن فوائد الآية: إثبات علم الله؛ لقوله تعالى: {لنعلم}؛ وعلم الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء، كما قال تعالى: {لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً} [الطلاق: ١٢] .

١١- ومنها: أن الردة عن الإسلام انقلاب؛ لقوله تعالى: {ممن ينقلب على عقبيه}؛ فإن بعض الذين أسلموا ارتدوا حينما تحولت القبلة إلى الكعبة؛ وقالوا: «إن محمداً ليس على يقين من أمره: بالأمس له قبلة؛ واليوم له قبلة»؛ وما علموا أن ذلك مما يؤيد رسالته؛ لأن الإنسان الكذاب يحرص على أن لا يتراجع؛ لأن التراجع وصمة فيه؛ لكن الإنسان الصدوق لا يهتم أن يقول ما أوحي إليه، سواء وافق ما كان عليه أولاً، أو خالف.

١٢ - ومنها: أن التقدم حقيقة إنما يكون بالإسلام، وأن الرجعية حقيقة إنما تكون بمخالفة الإسلام؛ لقوله تعالى: {ممن ينقلب على عقبيه}؛ فإن هذا حقيقة الرجوع على غير هدًى؛ لأن الذي ينقلب على عقبيه لا يبصر ما وراءه؛ فمن قال للمتمسكين بكتاب الله وسنة رسوله رجعيون، قلنا له: بل أنت الرجعي حقيقة؛ لأن الله سمى مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم انقلاباً على العقب؛ ولا أبلغ من هذا الرجوع أن الإنسان يرجع على عقبيه رجوعاً أعمى - والعياذ بالله - لا يدري ما وراءه.

١٣- ومن فوائد الآية: أن تغيير القبلة شاق إلا على طائفة معينة من الناس؛ لقوله تعالى: {وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله}؛ وهذا يقع كثيراً للإنسان: تشق عليه بعض الأوامر الشرعية، واجتناب بعض النواهي الشرعية؛ لكن بتمام الإيمان تزول هذه المشقة، وتكون سهلة؛ والعلماء اختلفوا: أيهما أفضل رجل يفعل العبادة بمشقة، ويترك المعصية بمشقة؛ وآخر يفعل العبادة بيسر، ويترك المعصية بيسر؛ قال بعض العلماء: الأول أفضل؛ لأنه مجاهد يجاهد نفسه، فيتعب؛ وقال آخرون: بل الثاني أفضل؛ لأن العبادة كأنها امتزجت بدمه ولحمه، حتى صارت سجية له، ويسيرة عليه لا ينشرح صدره إلا بها؛ والصحيح أن يقال: أما الذي يفعلها بسهولة، ويسر، وانقياد فهذا أكمل حالاً بلا شك؛ لأنه مطمئن بالإيمان فرح بالطاعة؛ أما الثاني فحاله أدنى؛ ولكنه يؤجر على مجاهدة نفسه على الطاعة؛ وعلى ترك المعصية؛ على أن هذا الثاني الذي قلنا: إنه مفضول، وله أجر المشقة ربما يمن الله عزّ وجلّ عليه - وهو أكرم الأكرمين - حتى تكون العبادة في نفسه سهلة، ويفعلها بارتياح؛ وهذا هو معنى قول بعض أهل العلم: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله؛ فالإنسان قد يفعل العبادة في البداية بمشقة، ويكون عنده نوع من التعب في تنفيذها؛ لكن إذا علم الله من نيته صدق القصد والطلب، يسر الله له الطاعة حتى كانت سجية له.

١٤- ومن فوائد الآية: إظهار منة الله عزّ وجلّ على من هداه الله؛ لأنه نسب الهداية إليه؛ لقوله تعالى: {إلا على الذين هدى الله}؛ وهذه أعظم منة منَّ الله بها عليه أن هداه للإسلام؛ فيجب أن يشعر بها الإنسان؛ لا يمنّ بدينه على ربه؛ بل يعتقد أن المنة لله عليه، كما قال تعالى: {يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين} [الحجرات: ١٧] ؛ فكم من أناس ضلوا عن الحق مع بيانه، ووضوحه؛ وهم كثيرون؛ بل هم الأكثر، كما قال تعالى: {وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله} [الأنعام: ١١٦] ؛

---

(٤) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٤١/١ ـ ٢٤٢.

وانظر إلى الفضل، والكرم: هو الذي منّ علينا بالهداية، ثم يقول في سورة الرحمن: {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان} [الرحمن: ٦٠] ؛ فكأننا نحن الذين أحسنا؛ فأحسن إلينا بالجزاء مع أن له الإحسان أولاً، وآخراً؛ هو الذي أحسن إلينا أولاً، وأحسن إلينا آخراً؛ ولكن هذه مِن منَّته سبحانه وتعالى، ومِن شكره لسعي عبده، كما قال تعالى: {إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً} [الإنسان: ٢٢] .

١٥- ومن فوائد الآية: أن الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر عمل عامل إذا كان مبنياً على الإيمان؛ لقوله تعالى: {وما كان الله ليضيع إيمانكم}؛ كل عمل تعمله صادر عن إيمانه فإنه لن يضيع؛ ستجده مسجلاً - قولاً كان، أو فعلاً، أو همّاً بالقلب، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة»(١).

١٦- ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «الرؤوف» و «الرحيم» ، وما تضمناه من الصفة؛ وهي الرأفة، والرحمة.

١٧- ومنها: إثبات عموم الرحمة لكل الناس؛ لقوله تعالى: {إن الله بالناس لرؤوف رحيم}؛ وهذه هي الرحمة العامة التي بها يعيش الناس في دنياهم برزق الله من طعام، وشراب، وكسوة، وغيرها؛ وأما الرحمة الخاصة فهي للمؤمنين خاصة؛ وبها يحصل سعادة الدنيا، والآخرة، كالعلم والإيمان المثمرَين لطاعة الله، ورسوله.

١٨- ومنها: أن العمل من الإيمان، لقوله تعالى: {وما كان الله ليضيع إيمانكم}؛ فإنها فسرت بالصلاة إلى بيت المقدس؛ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة: أن العمل داخل في الإيمان؛ وهذا أحد أدلتهم؛ ومن الدليل على ذلك قوله (صلى الله عليه وسلم): «الإيمان بضع وسبعون شعبة؛ فأفضلها قول: لا إله إلا الله؛ وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق؛ والحياء شعبة من الإيمان»(١)؛ فقول: «لا إله إلا الله» من أعمال اللسان؛ و «إماطة الأذى عن الطريق» من أعمال الجوارح؛ وقوله (صلى الله عليه وسلم): «الحياء شعبة من الإيمان» من أعمال القلوب؛ كما أن الإيمان أيضاً يطلق على الاعتقاد؛ لقوله صلى الله عليه وسلم): «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله»(٢)؛ فقوله -صلى الله عليه وسلم-: «أن تؤمن بالله» هذا اعتقاد القلب؛ فالإيمان عند أهل السنة والجماعة يشمل: اعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح؛ ووجه كون الأعمال من الإيمان أنها صادرة عن إيمان؛ الإيمان هو الذي حمل عليها، ولهذا لا يعد عمل المنافق من الإيمان؛ عمل المنافق - صلاته، وذكره لله؛ ونفقاته - لا يُعَدّ من الإيمان؛ لأنه صادر عن غير إيمان.

١٩- استدلت المعتزلة بهذه الآية على أنه تعالى لا يخلق الكفر ولا الفساد قالوا لأنه تعالى بين أنه بالناس لرؤف رحيم، والكفار من الناس فوجب أن يكون رؤفا رحيما بهم، وإنما يكون كذلك لو لم يخلق فيهم الكفر الذي يجرهم إلى العقاب الدائم والعذاب السرمدي، ولو لم يكلفهم ما لا يطيقون فإنه تعالى لو كان مع مثل هذا الإضرار رؤفا رحيما فلعى أي طريق يتصور أن لا يكون رؤفا رحيما

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٤٤، كتاب الرقاق، باب ٣١: من هم بحسنة أو سيئة، حديث رقم ٦٤٩١، وأخرجه مسلم ص٧٠٠، كتاب الإيمان، باب ٥٩: إذا هم العبد بحسنة...، حديث رقم ٣٣٨ [٢٠٧] ١٣١.

(١) أخرجه مسلم ص٦٨٧، كتاب الإيمان، باب ١٢: بيان عدد شعب الإيمان...، حديث رقم ١٥٣ [٥٨] ٣٥.

(٢) أخرجه البخاري ص٦، كتاب الإيمان، باب ٣٧: سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ... ، حديث رقم ٥٠؛ وأخرجه مسلم ص٦٨١، كتاب الإيمان، باب ١: بيان الإيمان والإسلام ... ، حديث رقم ٩٣ [١] ٨.

٢٠- استدلت المعتزلة بقوله: {وما كان الله ليضيع إيمانكم} على أن الإيمان اسم لفعل الطاعات فإنه تعالى أراد بالإيمان ههنا الصلاة. والجواب: لا نسلم أن المراد من الإيمان ههنا الصلاة، بل المراد منه التصديق والإقرار فكأنه تعالى قال: أنه لا يضيع تصديقكم بوجوب تلك الصلاة سلمنا أن المراد من الإيمان ههنا الصلاة ولكن الصلاة أعظم الإيمان وأشرف نتائجه وفوائده فجاز إطلاق اسم الإيمان على الصلاة على سبيل الإستعارة من هذه الجهة(١).

القرآن

{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)} [البقرة : ١٤٤]

التفسير:

قد نرى تحوُّل وجهك -أيها الرسول- في جهة السماء، مرة بعد مرة؛ انتظارًا لنزول الوحي إليك في شأن القبلة، فلنصرفنك عن "بيت المقدس" إلى قبلة تحبها وترضاها، وهي وجهة المسجد الحرام بـ "مكة"، فولِّ وجهك إليها. وفي أي مكان كنتم -أيها المسلمون- وأردتم الصلاة فتوجهوا نحو المسجد الحرام. وإن الذين أعطاهم الله علم الكتاب من اليهود والنصارى لَيعلمون أن تحويلك إلى الكعبة هو الحق الثابت في كتبهم. وما الله بغافل عما يعمل هؤلاء المعترضون المشككون، وسيجازيهم على ذلك.

قوله تعالى:{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ}[البقرة:١٤٤]، " أي قد نرى تردد نظرك جهة السماء حينا بعد حين ، تطلعا للوحي بتحويل القبلة إلي الكعبة"(٢).

قال أبو العالية:" يقول:قد نرى نظرك إلى السماء"(٣).

قال النسفي:أي" قد نرى يا محمد نحن تردد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء، إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة موافقة لإبراهيم ومخالفة لليهود ، ولأنها ادعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم"(٤).

وفي قوله تعالى:{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ}[البقرة:١٤٤]، وجهان(٥):

الأول: قال جمهور المفسرين: أن ذلك كان لانتظار تحويله من بيت المقدس إلى الكعبة.

الثاني: وهو قول أبي مسلم الأصفهاني، قالوا: لولا الأخبار التي دلت على هذا القول وإلا فلفظ الآية يحتمل وجها آخر، وهو أنه يحتمل أنه عليه السلام إنما كان يقلب وجهه في أول مقدمة المدينة، فقد روي أنه عليه السلام كان إذا صلى بمكة جعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، وهذه صلاة إلى الكعبة فلما هاجر لم يعلم أين يتوجه فانتظر أمر الله تعالى حتى نزل قوله: {فول وجهك شطر المسجد الحرام}(٦).

---

(١) مفاتيح الغيب: ٩٩/٤.
(٢) تفسير المراغي:٩/٢.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٥٦):ص٢٥٣/١.
(٤) انظر: تفسير النسفي: ٩٣/١.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب: ٩٥/٤.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب: ٩٥/٤.

وقد اختلف في السبب الذي من أجله كان صلى الله عليه وسلم يهوى قبلة الكعبة، وفيه قولان(١):

أحدهما: أنه كره قبلة بيت المقدس ، من أجل أن اليهودَ قالوا : يتَّبع قبلتنا ويُخالفنا في ديننا!. قاله مجاهد(٢)، وابن زيد(٣).

الثاني:أنه كان يهوى ذلك ، من أجل أنه كان قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام. روي ذلك عن ابن عباس(٤).

قوله تعالى:{فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا}[البقرة:١٤٤]، " أي فلنوجهنك إلى قبلةٍ تحبها، - وهي الكعبة"(٥).

قال الطبري:" أي فلنصرفنَّك عن بيت المقدس ، إلى قبلة تَهواها وتُحبها"(٦).

قال المراغي:" أي فلنجعلنّك تلي جهة تحبها وتتشوف لها غير جهة بيت المقدس"(٧)

قال أبو العالية:"{ فلنولينك قبلة ترضاها }،وذلك أن الكعبة كانت أحب القبلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يقلب وجهه في السماء، وكان يهوى الكعبة، فولاه الله قبلة كان يهواها ويرضاها"(٨).

قوله تعالى:{فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}[البقرة:١٤٤]، " أي: فاجعل وجهك بحيث يلى جهة المسجد الحرام"(٩).

قال القرطبي: "أي ناحية الكعبة ونحوه"(١٠).

قال الطبري: أي:" اصرف وجهك وَحوِّله نحو المسجد الحرام"(١١).

قال النسفي:" أي: اجعل تولية الوجه تلقاء المسجد، أي في جهته وسمته، لأن استقبال عين القبلة متعسر على النائي، وذكر المسجد الحرام دون الكعبة دليل على أن الواجب مراعاة الجهة دون العين"(١٢).

قال المراغي:" وفي ذكر {الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} دون الكعبة، إيذان بكفاية مراعاة جهة الكعبة حين الصلاة إذا كان بعيدا عنها بحيث لا يراها ، ولا يجب استقبال عينها إلا لمن يراها بعينه"(١٣).

وسمي المسجد (حراماً)؛ "لأنه يمنع فيه من أشياء لا تمنع في غيره، ولأنه محترم معظم؛ والمراد به الكعبة، وما حولها من البناء المعروف"(١٤).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٧٤/٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٢٣٤):ص١٧٣/٣-١٧٤.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٢٣٥):ص١٧٤/٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٢٣٦):ص١٧٤/٣.
(٥) صفوة التفاسير:٩٠/١.
(٦) تفسير الطبري:١٧٥/٣.
(٧) تفسير المراغي:٩/٢.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٥٨):ص٢٥٣/١.
(٩) تفسير المراغي:١٠/٢.
(١٠) انظر: تفسير اقرطبي: ١٥٩/٢، وتفسير النسفي: ١٣٤/١.
(١١) تفسير الطبري: ١٧٥/٣.[بتصرف بسيط].
(١٢) انظر: تفسير النسفي: ١٣٤/١.
(١٣) تفسير المراغي:١٠/٢.
(١٤) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٥٤/٢.

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى:{ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}[البقرة:١٤٤]، وجهان:
أحدهما:يعني: تلقاءه. قاله أبو العالية[١]. وروي عن ابن عباس[٢]، ومجاهد[٣]، وقتادة[٤]، والربيع[٥]، والبراء[٦]، وابن زيد[٧]، ورفيع[٨]، نحو ذلك.
والثاني: يعني: وسطه. قاله البراء[٩].
قال الطبري: "و(الشطر)، معناه: "النحوَ والقصدَ والتلقاء"[١٠] ، كما قال الهذلي[١١]:
إنَّ العَسِيرَ بهَا دَاء مُخَامِرُهَا .. فَشَطْرَهَا نَظَرُ العَيْنَيْنِ مَحْسُورُ
يعني بقوله : شَطْرَهَا، نحوها. وكما قال ابن أحمر[١٢] :
تَعْدُو بِنَا شَطْرَ جَمْعٍ وهْيَ عَاقِدةٌ قَدْ كَارَبَ العَقْدُ مِنْ إيفَادِهَا الحَقَبَا"[١٣]
وقد اختلفوا في المكان الذي أمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يولِّيَ وجهه إليه من المسجد الحرام، وفيه قولان[١٤]:
أحدهما: أن القبلةَ التي حُوِّل إليها النبي صلى الله عليه وسلم، وعناها الله: حيالَ ميزاب الكعبة. قاله: عبدالله بن عمرو[١٥].
والثاني: أن البيت كله قبلةٌ، وقبلةُ البيت الباب. قاله: ابن عباس[١٦].

---

(١) انظر: الطبري(٢٢٣٧)،:ص١٧٦/٣، وابن أبي حاتم(١٣٦١):ص٢٥٤/١.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٢٣٨):ص١٧٦/٣، و(٢٢٤٤):ص١٧٧/٣.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٢٣٩)، و(٢٢٤٠):ص١٧٦/٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٢٤١)، و(٢٢٤٢):ص١٧٦/٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٢٢٢٤٣٣٩):ص١٧٧/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٢٤٥):ص١٧٧/٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٢٤٦):ص١٧٧/٣.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣٦٢):ص٢٥٤/١.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣٦٠):ص٢٥٤/١.
(١٠) تفسير الطبري: ١٧٥/٣.
(١١) البيت هو قيس بن العيزارة الهذلي . والعيزارة أمه ، واسمه قيس بن خويلد بن كاهل، انظر: ديوانه في أشعار الهذليين للسكري : ٢٦١ (أوربة) ، ورسالة الشافعي : ٣٥ ، ٤٨٧ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٢٠٠ ، والكامل ١ : ١٢ ، ٢ : ٣ ومجاز القرآن لأبي عبيدة : ٦٠ ، واللسان (شطر) (حسر) ، وغيرها . ورواية الشافعي في الرسالة : " إن العسيب " بالباء في آخره ، ورواية ديوانه وابن هشام : " إن النعوس " . والعسير : التي تعسر بذنبها إذا حملت ، من شراستها . والنعوس : التي تغمض عينيها عند الحلب . والعسيب : جريد النخل إذا كشط عنه خوصه . وأرى أنه لم يرد صفة الناقة بأحد هذه الألفاظ الثلاثة ، وإنما هو اسم ناقته . وكلها صالح أن يكون اسما للناقة . وقد قال ابن هشام : " النعوس : ناقته ، وكان بها داء فنظر إليها نظر حسير ، من قوله : " وهو حسير " . ويروى : " داء يخامرها فنحوها . . . " ، ورواية ديوانه " مخزور " . ومحسور ، هو الحسير : الذي قد أعيى وكل . ومخزور : من قولهم : " خزر بصره " : إذا دانى بين جفنيه ونظر بلحاظه . وهو يصف ناقته ، ويذكر حزنه وحبه لها ، فهو من الداء الذي خامرها مشفق عليها ، يطيل النظر إليها حتى تحسر عيناه ويكل .
(١٢) سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٩ ، والروض الأنف ٢ : ٣٨ ، والخزانة ٣ : ٣٨ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : ٦٠ .
(١٣) تفسير الطبري: ١٧٥/٣.
(١٤) انظر: تفسير الطبري: ١٧٨/٣-١٧٩.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٢٢٤٧)، و(٢٢٤٨)، و(٢٢٤٩):ص١٧٧/٣-١٧٨.
(١٦) انظر تفسير الطبري(٢٢٥٠):ص١٧٩/٣.

والصواب: أن "المولّي وجهه شطرَ المسجد الحرام ، هو المصيبُ القبلة"[١]، وقبلة البيت بابه، كما قال أسامة بن زيد : "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجَ من البيت أقبلَ بوجهه إلى الباب ، فقال : هذه القبلةُ ، هذه القبلة"[٢]. والله أعلم.

قوله تعالى:{وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}[البقرة:١٤٤]، " فأينما كنتم من الأرض أيها المؤمنون فحوِّلوا وجُوهكم في صلاتكم نَحو المسجد الحرام وتلقاءَه"[٣].

قال الصابوني:" أي: وحيثما كنتم أيها المؤمنون فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة أيضاً "[٤].

قال المراغي:" أي وفي أىّ مكان كنتم فاستقبلوا جهته بوجوهكم فى الصلاة"[٥].

قال ابن عثيمين:" عدل عن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم إلى الخطاب لأمته؛ لأن الخطاب الموجه للنبي صلى الله عليه وسلم خطاب له، وللأمة؛ إذ إنه الإمام؛ والخطاب إذا وجه للإمام فهو خطاب له، ولمن اتبعه"[٦].

قوله تعالى:{وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ}[البقرة:١٤٤]، " أي إن اليهود والنصارى ليعلمون أن هذا التحويل للقبلة حقٌ من عند الله"[٧].

قال المراغي:" أي وإن أهل الكتاب يعلمون أن ذلك التولي شطر المسجد الحرام ، هو الحق المنزل من اللّه على نبيه صلى اللّه عليه وسلم ، وهم مع هذا يفتنون ضعاف المؤمنين في دينهم ويتقبلون ذلك منهم ، إذ يذكرون للناس أقوالا على أنها من كتبهم ، وما هى من كتبهم ، ولكن يريدون بذلك الخداع والفتنة والتهويش على الذين في قلوبهم مرض ، بإثارة الشكوك فى نفوسهم"[٨].

واختلف في قوله تعالى:{وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ}[البقرة:١٤٤]، على قولين[٩]:

أحدهما أنهم أحبارَ اليهود وعلماء النصارى.

والثاني: عنى بذلك اليهودَ خاصة. قاله السدي[١٠].

والقول الأول أولى بالصواب، أي: أن هؤلاء الأحبارَ والعلماءَ من أهل الكتاب ، يعلمون أن التوجُّهَ نحو المسجد ، الحقُّ[١١] الذي فرضه الله عز وجل على إبراهيم وذريته وسائر عباده

---

(١) تفسير الطبري:١٧٩/٣.

(٢) أخرجه الطبري(٢٢٥٢)، و(٢٢٥٣)، و(٢٢٥٤)، و(٢٢٥٥):ص١٨٠/٣-١٨١، ورواه أحمد في المسند (٢١٢٤٧):ص٢٠١/٥.

(٣) تفسير الطبري:١٨٢/٣.

(٤) صفوة التفاسير:٩٠/١.

(٥) تفسير المراغي: ١٠/٢.

(٦) تفسير ابن عثيمين: ١٢٤/٢.

(٧) صفوة التفاسير:٩٠/١.

(٨) تفسير المراغي:١٠/٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ١٨٣/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٢٥٦):ص١٨٣/٣.

(١١)و(الحق) معناه الشيء الثابت؛ فإن أضيف إلى الخبر فهو الصدق؛ وإن أضيف إلى الحكم فهو العدل؛ قال الله تعالى: {وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلًا} [الأنعام: ١١٥] .

بعده[1]، وأن هذا التحويل كان في بشارة أنبيائهم برسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه يصلي إلى القبلتين. والله أعلم.

قال القرطبي: فإن قيل : كيف يعلمون ذلك وليس من دينهم ولا في كتابهم ؟ قيل عنه جوابان[2] :

أحدهما : أنهم لما علموا من كتابهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم نبي علموا أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا به.

الثاني : أنهم علموا من دينهم جواز النسخ وإن جحده بعضهم ، فصاروا عالمين بجواز القبلة.

قوله تعالى:{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ }[البقرة:١٤٤]، " أي: وليس[3] الله بغافل عما تعملون أيها المؤمنون يجازيَكم به أحسن جزاء"[4].

قال مقاتل:" يعني عما يعملون من كفرهم بالقبلة"[5].

قال الصابوني: " أي لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها"[6].

قال المراغي:أي" فهو العليم بالظاهر والباطن والمحاسب على ما في السرائر ، والرقيب على الأعمال ، فيجازي كل عامل بما عمل ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ولا يخفى ما في هذا من التهديد والوعيد الشديد لليهود على عنادهم ، وإيقادهم نار الفتنة بين المؤمنين"[7].

قال البيضاوي:" وعد ووعيد للفريقين"[8].

قال أبو السعود:" وعد ووعيد للفريقين والخطابُ للكل تغليبا"[9].

قال القاسمي:" فيه إنباء بتماديهم على سوء أحوالهم"[10].

قال الشيخ ابن عثيمين: "إن (ما) اسم موصول تفيد العموم؛ يعني: عن أيّ عمل يعملونه سواء كان يتعلق بالجوارح، أو يتعلق بالقلوب؛ فيشمل الاعتقاد، ويشمل القول، والفعل[11].

واختلفت القراءة في قوله تعالى: {وَمَا اللَّهُ بِغَـافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}[البقرة:١٤٤]، على وجهين[12]:

أحدهما: {تعملون}، بالتاء، قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي، على مخاطبة أهل الكتاب أو أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وعلى الوجهين فهو إعلام بأن الله تعالى لا يهمل أعمال العباد ولا يغفل عنها ، وضمنه الوعيد.

الثاني:{ يَعْمَلُونَ}، بالياء من تحت، قرأ بها الباقون.

الفوائد:

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٨٣/٣.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ١٦١/٢.

(٣)قوله تعالى: (وما الله بغافل عما يعملون)؛ { ما } هنا حجازية؛ لأن القرآن بلغة قريش؛ والدليل على هذا قوله تعالى في سورة يوسف: {ما هذا بشراً} [يوسف: ٣١] ؛ ولم يقل: «بشر» ؛ فالقرآن بلغة قريش؛ وقريش حجازيون؛ و{ ما } عندهم تعمل عمل «ليس».

(٤) تفسير الطبري: ١٨٤/٣.[بتصرف بسيط].

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:١/!٤٧.

(٦) صفوة التفاسير:١٩٠/١.

(٧) تفسير المراغي: ١١/٢.

(٨) تفسير البيضاوي: ١١٢/١.

(٩) تفسير أبي السعود: ١/!٧٥.

(١٠) محاسن التأويل: ٤٢٦/١.

(١١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٥٤/٢.

(١٢) انظر:القرطبي: ١٦١/٢، و تفسير النسفي: ١٣٤/١، وتفسير البيضاوي: ١٧٢/١.

١- لا خلاف بين العلماء أن الكعبة قبلة في كل أفق ، وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فرض عليه استقبالها ، وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها وعالم بجهتها فلا صلاة له ، وعليه إعادة كل ما صلى ذكره أبو عمر. وأجمعوا على أن كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها ، فإن خفيت عليه فعليه أن يستدل على ذلك بكل ما يكنه من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك مما يمكن أن يستدل به على ناحيتها. ومن جلس في المسجد الحرام فليكن وجهه إلى الكعبة وينظر إليها إيمانا واحتسابا ، فإنه يروى أن النظر إلى الكعبة عبادة ، قاله عطاء ومجاهد[(١)]. واختلفوا هل فرض الغائب استقبال العين أو الجهة ، فمنهم من قال بالأول. قال ابن العربي : وهو ضعيف ، لأنه تكليف لما لا يصل إليه. ومنهم من قال بالجهة ، وهو الصحيح لثلاثة أوجه : الأول : أنه الممكن الذي يرتبط به التكليف. الثاني : أنه المأمور به في القرآن ، لقوله تعالى : {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ} يعني من الأرض من شرق أو غرب {فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} الثالث : أن العلماء احتجوا بالصف الطويل الذي يعلم قطعا أنه أضعاف عرض البيت[(٢)].

٢- من فوائد الآية: إثبات رؤية الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {قد نرى تقلب وجهك في السماء}.

٣- ومنها: أن النظر إلى السماء ليس سوء أدب مع الله؛ لقوله تعالى: {قد نرى تقلب وجهك في السماء لكن في الصلاة لا يرفع بصره إلى السماء؛ لورود الوعيد الشديد به.

٤- ومنها: إثبات علو الله؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقلب وجهه في السماء؛ لأن الوحي يأتيه من السماء.

٥- ومنها: كمال عبودية الرسول صلى الله عليه وسلم لربه، حيث كان يحب أن يتوجه إلى الكعبة؛ لكنه لم يفعل حتى أمر بذلك.

٦- ومنها: إثبات عظمة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {فلنولينك قبلة}؛ فإن ضمير الجمع للتعظيم.

٧- ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يتوجه إلى الكعبة؛ لقوله تعالى: {ترضاها} مع قوله تعالى: {قد نرى تقلب وجهك}.

٨- ومنها: وجوب الاتجاه نحو المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: {فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام}.

٩- ومنها: أن الوجه أشرف الأعضاء حيث عبر به عن سائر الجسم.

١٠- ومنها: ما استدل به المالكية على أنه ينبغي للمصلي أن ينظر تلقاء وجهه؛ لقوله تعالى: {فول وجهك شطر المسجد الحرام}؛ فإذا ولّى الإنسان وجهه شطر المسجد الحرام فسيكون نظره تلقاء وجهه غالباً؛ وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم: ماذا ينظر إليه المصلي حال القيام؟ فالمشهور عن المالكية أن المصلي ينظر تلقاء وجهه؛ وعند الإمام أحمد أنه ينظر إلى موضع سجوده[(١)] - وهو مذهب الشافعي، وأبي حنيفة؛ واستدلوا لذلك بأثر مرسل عن محمد بن سيرين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطأطئ رأسه، وينظر إلى موضع سجوده ؛ ولأنه أظهر في الخشوع؛ وقال بعض العلماء: إن الإمام والمنفرد ينظران إلى موضع السجود؛ وأما المأموم فينظر إلى إمامه - بكسر الهمزة؛ واستدلوا لذلك بأحاديث في البخاري؛ وهي أن الرسول صلى

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١٦٠/٢.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ١٦٠/٢.

(١) راجع تفسير الطبري ٨/١٩.

الله عليه وسلم حينما صلى صلاة الكسوف، وأخبر أصحابه بأنه عرضت عليه الجنة والنار قال لهم: «وذلك حين رأيتموني تقدمت وتأخرت»(٢)؛ وهذا دليل على أنهم ينظرون إليه؛ ومنها أنه لما صنع له المنبر قام يصلي عليه، فكان يقوم، ويركع؛ فإذا أراد السجود نزل، وسجد على الأرض؛ وقال: «إنما فعلت هذا لتأتموا بي، ولتعلَّموا صلاتي»(٣)؛ وهذا دليل على أنهم ينظرون إليه؛ ومنها أيضاً أنهم لما أخبروا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة السر؛ قيل لهم: بم تعرفون ذلك؟ قالوا: «باضطراب لحيته»(٤)؛ وهذه كلها في الصحيح؛ فهذا دليل على أن المأموم ينظر إلى إمامه؛ ولأنه أبلغ في الائتمام به؛ لأن الإمام قد يقوم، وقد يجلس ساهياً مثلاً؛ فإذا كان المأموم ينظر إلى الإمام كان ذلك أبلغ في الاقتداء به؛ أما الإمام، والمنفرد فإنهما ينظران إلى موضع السجود؛ وهذا القول أقرب؛ ولا سيما إذا كان المأموم محتاجاً إلى ذلك، كما لو كان لا يسمع، فيريد أن ينظر إلى الإمام ليقتدي به، أو نحو ذلك.

لكن يستثنى من ذلك إذا كان جالساً؛ فإنه ينظر إلى موضع إشارته؛ لقول عبد الله بن الزبير: «كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يجاوز بصره إشارته»(٥)؛ ومما يستثنى من ذلك عند بعضهم: إذا كنت في المسجد الحرام ويمكنك مشاهدة الكعبة؛ فإنك تنظر إلى الكعبة؛ ومنها إذا كنت في خوف وحولك العدو؛ فإنك تنظر إلى جهة العدو؛ فهذه المسائل الثلاث تستثنى؛ والراجح في مسألة الكعبة أن المصلي لا ينظر إليها حال صلاته؛ لعدم الدليل على ذلك؛ ولأنه ربما ينشغل به عن صلاته، لا سيما إذا كان الناس يطوفون حولها؛ وأما استثناء الصلاة حال الخوف فصحيح؛ لدخوله في عموم قوله تعالى: {وخذوا حذركم}؛ وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه بعث طليعة؛ فكان يصلي وهو يلتفت إلى الشعب هل جاء الطليعة أم لا(٦).

١١- ومن فوائد الآية: عظمة هذا المسجد لوصفه بالحرام - أي ذي الحرمة والتعظيم - ولهذا كان من يدخله آمناً، ولا يدخله أحد إلا بإحرام وجوباً إن كان لم يؤد الفرض؛ أو استحباباً إن كان قد أداه - بخلاف غيره؛ فكل شيء فيه حياة فهو آمن داخل الحرم - حتى الجماد: فالشجر آمن لا يجوز قطعه في الحرم؛ والصيد آمن لا يقتل في الحرم؛ بل ولا ينفر من مكانه.

١٢- ومنها: وجوب الاتجاه إلى القبلة في أيّ مكان كان الإنسان: من بر، أو بحر، أو جو؛ لقوله تعالى: {وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره}؛ ويشمل من كان في مكة، ومن كان بعيداً عنها،

---

(٢) أخرجه البخاري ص٩٤، كتاب الجمعة، باب ١١: إذا انفلتت الدابة في الصلاة، حديث رقم ٢١٢؛ وأخرجه مسلم ص٨٢٠، كتاب الكسوف، باب ٣: ما عرض على النبي في صلاة الكسوف...، حديث رقم ٢١٠٢ [١٠] ٩٠٤.

(٣) أخرجه البخاري ص٧٢، كتاب الجمعة، باب ٢٦: الخطبة على المنبر، حديث رقم ٩١٧؛ وأخرجه مسلم ص٧٦٢، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ١٠: جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة...، حديث رقم ١٢١٦ [٤٤] ٥٤٤.

(٤) أخرجه البخاري ص٥٩، كتاب الأذان، باب ٩١: رفع البصر إلى الإمام في الصلاة، حديث رقم ٧٤٦.

(٥) خرجه أبو داود ص١٣٩٦، كتاب الصلاة، باب ١٨٠: الإشارة في التشهد، حديث رقم ٩٩٠، وأخرجه النسائي ص٢١٧٠ كتاب السهو، باب ٣٩: موضع البصر عند الإشارة...، حديث رقم ١٢٧٦، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٣٥٥/١، باب ٢٢٦: النظر إلى السباب، حديث رقم ٧١٨، وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح (٤٠٧/١).

(٦) أخرجه أبو داود ص١٢٩٠، كتاب الصلاة، باب ١٦٣: الرخصة في ذلك، حديث رقم ٩١٦، وأخرجه ابن خزيمة ٢٤٦/١، باب ٩٣: ذكر الدليل على أن الالتفات المنهي عنه في الصلاة...، حديث رقم ٤٨٥، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٨٣/٢ – ٨٤، كتاب الجهاد، وقال الحاكم (صحيح على شرط الشيخين غير أنهما لم يخرجا لسهل لقلة رواية التابعين عنه)؛ وأقره الذهبي؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: (صحيح) ٢٥٦/١.

ومن كان في جوف الكعبة؛ لعموم قوله تعالى: {وحيث ما كنتم}؛ إذاً إذا كان في جوف الكعبة يستقبل أمام وجهه من أيّ الجهات كان؛ إلا أن بعض أهل العلم يقول: لا يستقبل الباب إذا كان مفتوحاً ما لم يكن له عتبة؛ لأنه لابد من شاخص يكون بين يديه حتى يصح أن يقال: إنه ولّى وجهه شطره؛ وإذا كنا خارج الكعبة - ولكن في المسجد - فإنا ندور حوله؛ لأننا لو استقمنا في صف مستقيم لم نولّ وجوهنا شطره؛ ويكون من خرج عن مسامتته ولّى وجهه جهة غيره؛ لأنه محصور الآن؛ وإذا ابتعدنا فإن بعض العلماء يقول: إن كنت في مكة فاستقبل المسجد؛ وإن كنت خارج مكة فاستقبل مكة؛ لكن هذا تقريبي؛ إنما الصواب في هذه المسألة أن من أمكنه مشاهدة عين الكعبة وجب عليه استقبال العين - لا يخرج عن مسامتتها؛ ومن لا يمكن مشاهدتها لبعد، أو حيلولة شيء دونها استكفى بالجهة؛ لقوله تعالى: {لا يكلف الله نفساً إلا وسعها} [البقرة: ٢٨٦] .

ويسقط استقبال القبلة في مواضع؛ منها:

أ - عند صلاة النفل في سفر؛ فيصلي حيث كان وجهه.

ب - عند الخوف الشديد إذا كان لا يمكن استقبال القبلة.

ج - إذا كان عاجزاً عن استقبال القبلة لمرض - أو صلب - يعني: لو صلب إلى غير القبلة، أو نحو ذلك.

أما إذا اشتبهت عليه القبلة فعليه أن يجتهد إن كان بمكان يصح فيه الاجتهاد؛ فإن أصاب فذاك؛ وإن أخطأ فهو معذور؛ إذاً فالاشتباه لا يُستثنى؛ لأن حقيقة الأمر أنه لا يجوز أن يصلي إلا وهو يعتقد أنه إلى القبلة؛ بخلاف الذي ذكرنا؛ فالعاجز يعرف أن القبلة خلفه، فيصلي إلى غير القبلة؛ وكذلك في شدة الخوف؛ وكذلك المتنفل في السفر.

١٣- المسلمين على وجهة واحدة؛ لأنه تعالى قال: {وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره}؛ فالمسلمون في أقطار الدنيا كلها يتجهون إلى قبلة واحدة؛ هذا توحيد؛ ولا سيما أنهم يتجهون هذا الاتجاه، ويتحدون هذا الاتحاد في أعظم مشعر عملي، أو في أعظم فريضة عملية - وهي الصلاة؛ فيدل هذا على أن الشرع يراعي مراعاة تامة توحيد المسلمين في دينهم، وتوحيدهم في الاتجاه البدني، وكذلك في الاتجاه القلبي الفكري.

١٤- والنصارى؛ لقوله تعالى: {وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم}؛ ولكن مع ذلك شنعوا على النبي صلى الله عليه وسلم تشنيعاً عظيماً حين توجه إلى الكعبة بأمر ربه.

١٥- ومنها: أن ما كان من عند الله فهو حق؛ لقوله تعالى: {أنه الحق} مضافاً إلى الله: {من ربهم}.

١٦- ومنها: أن هؤلاء المعاندين من أهل الكتاب يعاندون مع علمهم التام، ومع إقرارهم بربوبية الله سبحانه وتعالى؛ فهم يعلمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيستقبل الكعبة؛ وهم علموا ذلك مما جاء في كتبهم من وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأن هذا النبي الأمي سوف يتجه إلى الكعبة؛ وكان عليهم حيث أقروا بربوبية الله لهم، وعلموا الحق أن ينقادوا له، وأن يكونوا أولى الناس باتباعه؛ لأن من أقر بربوبية الله سبحانه وتعالى لزم أن يقر بأحكامه، ويلتزم بها؛ لأن الرب له الملك المطلق يتصرف كيف يشاء؛ ولهذا أضاف الربوبية هنا إليهم: {من ربهم}؛ لإقامة الحجة عليهم حيث يعترفون بربوبيته.

١٧- ومن فوائد الآية: انتفاء غفلة الله عزّ وجلّ عن أعمالهم المتضمن لكمال علمه، وإحاطته بهم؛ ولا يكفي أن نقول: انتفاء الغفلة فقط؛ بل نقول: المتضمن لكمال العلم، والإحاطة؛ لقوله تعالى: {وما الله بغافل عما يعملون}.

١٨- ومنها: صحة تقسيم الصفات إلى ثبوتية، ومنفية؛ لأن التي في الآية هنا منفية - وهي قوله تعالى: {وما الله بغافل عما يعملون} فالصفات المنفية: كل صفة صُدِّرت بما يدل على النفي بأيّ أداة كانت، مثل قوله تعالى: {لا تأخذه سنة ولا نوم} [البقرة: ٢٥٥] ، وقوله تعالى: {وتوكل على الحي الذي لا يموت} [الفرقان: ٥٨] ، وقوله تعالى: {وما مسنا من لغوب} [ق: ٣٨] ، وقوله تعالى: {ولم يعيَ بخلقهن} [الأحقاف: ٣٣] ؛ واعلم أن الصفات المنفية لا يراد بها مجرد النفي؛ وإنما يراد بها مع النفي: ضدها؛ فإذا قال الله تعالى عن نفسه: {وما مسنا من لغوب} [ق: ٣٨] فالمراد: نفي اللغوب، وإثبات كمال قوته، وقدرته.

القرآن

{وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)} [البقرة : ١٤٥]

التفسير:

ولئن جئت -أيها الرسول- الذين أُعطوا التوراة والإنجيل بكل حجة وبرهان على أن توجُّهك إلى الكعبة في الصلاة هو الحق من عند الله، ما تبعوا قبلتك عنادًا واستكبارًا، وما أنت بتابع قبلتهم مرة أخرى، وما بعضهم بتابع قبلة بعض. ولئن اتبعت أهواءهم في شأن القبلة وغيرها بعد ما جاءك من العلم بأنك على الحق وهم على الباطل، إنك حينئذ لمن الظالمين لأنفسهم. وهذا خطاب لجميع الأمة وهو تهديد ووعيد لمن يتبع أهواء المخالفين لشريعة الإسلام[١].

سبب النزول:

أخرج الطبري من طريق أسباط عن السدي قال:" وإنما أنزلت هذه الآية من أجل أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حُوِّل إلى الكعبة ، قالت اليهود : إن محمدًا اشتاقَ إلى بلد أبيه ومولده! ولو ثبت على قبلتنا لكُنا نرجو أن يكون هو صاحبَنا الذي ننتظر! فأنزل الله عز وجل فيهم : {وإنّ الذين أوتوا الكتابَ ليعلمون أنه الحق من ربهم}، إلى قوله :{ ليكتمون الحق وهم يعلمون}"[٢].

وروي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[٣]، وقتادة[٤]، نحوه.

قوله تعالى:{وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ}[البقرة:١٤٤]، " أي ولئن جئت اليهود والنصارى بكل معجزة على صدقك في أمر القبلة"[٥].

قال ابن عثيمين:أي" إن أتيتهم بكل آية تدل على صدق ما أتيت به"[٦].

قال الطبري:أي: " ولئن جئتَ، يا محمد ، اليهودَ والنصارَى ، بكل برهان وحُجة، بأن الحق هو ما جئتهم به ، من فرض التحوُّل من قبلة بيت المقدس في الصلاة، إلى قبلة المسجد الحرام"[٧].

---

(١) تفسير السعدي: ٧٢/١
(٢) تفسير الطبري(٢٢٥٨):ص١٨٦/٣، و(٢٢٠٤):ص١٥٧/٣.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٢٥٨):ص١٨٦/٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢١٦٣):ص١٣٩/٣-١٤٠.
(٥) صفوة التفاسير:٩٢/١.[بتصرف بسيط].
(٦) تفسير ابن عثيمين:١٣٤/٢.
(٧) تفسير الطبري: ١٨٤/٣.

واختلفوا في قوله تعالى:{وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}[البقرة:١٤٤]، على قولين[١]:
أحدهما:أن المراد علماؤهم الذين أخبر الله تعالى عنهم في الآية المتقدمة بقوله: {وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم} [البقرة: ١٤٤]. قاله الأصم[٢].
الثاني:أن المراد جميع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، واحتجوا عليه بأن قوله: {الذين أوتوا الكتاب} صيغة عموم فيتناول الكل.

قوله تعالى:{مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ}[البقرة:١٤٤]، أي:" ما اتبعوك يا محمد ولا صلّوا إلى قبلتك"[٣].

قال ابن عثيمين:" أي الكعبة؛ لعنادهم، واستكبارهم"[٤].

قال الطبري:أي: "ما صدّقوا به، ولا اتَّبعوا - مع قيام الحجة عليهم بذلك - قبلتَك التي حوَّلتُك إليها، وهي التوجُّه شَطرَ المسجد الحرام"[٥].

قال الزجاج: أي" فإن أهل الكتاب قد علموا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حق وأن صفته ونبوته في كتابهم، وهم يحققون العلم بذلك فلا تغني الآيات عند من يجد ما يعرف"[٦].

قوله تعالى:{وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ}[البقرة:١٤٥]، أي: "وما لك من سبيل يا محمد إلى اتباع قبلتهم"[٧].

قال ابن عطية:" لفظ خبر يتضمن الأمر، أي فلا تركن إلى شيء من ذلك"[٨].

قال الطبري:" وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس بصلاتها ، وأن النصارى تستقبل المشرقَ ، فأنَّى يكون لك السبيل إلى إتباع قِبلتهم. مع اختلاف وجوهها ؟ يقول : فالزم قبلتَك التي أمِرت بالتوجه إليها ، ودعْ عنك ما تقولُه اليهود والنصارى وتدعُوك إليه من قبلتهم واستقبالها"[٩].

وذكروا في قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ}[البقرة:١٤٥]، وجوها[١٠]:
أحدها: أنه دفع لتجويز النسخ، وبيان أن هذه القبلة لا تصير منسوخة.
والثاني: حسما لأطماع أهل الكتاب فإنهم قالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجوا أن يكون صاحبنا الذي ننتظره، وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم.
الثالث: المقابلة يعني ما هم بتاركي باطلهم وما أنت بتارك حقك.
الرابع: أراد أنه لا يجب عليك استصلاحهم باتباع قبلتهم، لأن ذلك معصية.
الخامس: وما أنت بتابع قبلة جميع أهل الكتاب من اليهود والنصارى لأن قبلة اليهود مخالفة لقبلة النصارى، فلليهود بيت المقدس وللنصارى المشرق، فالزم قبلتك ودع أقوالهم.

قوله تعالى:{وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ}[البقرة:١٤٤]، أي:"وما اليهود بتابعةٍ قبلة النصارى ، ولا النصارى بتابعةٍ قبلة اليهود فمتوجِّهةٌ نحوها"[١١].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ١٠٧/٤.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ١٠٧/٤.
(٣) صفوة التفاسير:٩٢/١.
(٤) تفسير ابن عثيمين:١٣٤/٢.
(٥) تفسير الطبري: ١٨٤/٣.
(٦) معاني القرآن: ٢٢٤/١.
(٧) تفسير الطبري: ١٨٥/٣.
(٨) المحرر الوجيز: ٢٢٣/١.
(٩) تفسير الطبري: ١٨٥/٣.
(١٠) انظر: مفاتيح الغيب: ١١٥/٤.
(١١) تفسير الطبري: ١٨٥/٣-١٨٦.

قال السدي:" يقول : ما اليهود بتابعي قبلة النصارى ، ولا النصارى بتابعي قبلة اليهود"(١). وروي عن ابن زيد وابن زيد(٢) مثله.

قال ابن عثيمين:" فاليهود لا تتبع قبلة النصارى؛ والنصارى لا تتبع قبلة اليهود؛ لأن النصارى يقولون: إن اليهود كفار؛ واليهود يقولون: إن النصارى كفار ليسوا على حق؛ ولهذا يكذبون عيسى صلى الله عليه وسلم"(٣).

قال المراغي:" أي إن اليهود لا تترك قبلتها وتتجه إلى المشرق ، والنصارى لا تغيّر قبلتها وتتجه إلى المغرب ، لأن كلا منهما متمسك بما هو فيه ، محقّا كان أو مبطلا ، ولا ينظر إلى حجة وبرهان ، إذ التقليد أعمى بصيرته ، فلا يبحث فى فائدة ما هو فيه ، ولا يوازن بينه وبين غيره ، ليتّبع أصلح الأمور وأكثرها نفعا"(٤).

قال أبو السعود:" فإن اليهودَ تستقبلُ الصخرةَ والنصارى مطلع الشمس لا يرجى توافقُهم كما لا يرجى موافقتُهم لك لتصلُّب كلِّ فريقٍ فيما هو فيه"(٥).

وفي قوله تعالى:{وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ}[البقرة:١٤٤]، تفسيران(٦):

أحدهما: أن المعنى: ليست اليهود متبعة قبلة النصارى ولا النصارى متبعة قبلة اليهود، قاله السدي(٧)، وابن زيد(٨).

قال ابن عطية: "فهذا إعلام باختلافهم وتدابرهم وضلالهم"(٩).

الثاني:أن معنى الآية: وما من أسلم معك منهم بمتبع قبلة من لم يسلم، ولا من لم يسلم بمتبع قبلة من أسلم.

قال ابن عطية: "والأول أظهر في الأبعاض، وقبلة النصارى مشرق الشمس وقبلة اليهود بيت المقدس"(١٠).

قوله تعالى:{وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ}[البقرة:١٤٤]، أي: " ولئن التمست يا محمد رضَا هؤلاء اليهود والنصارى، فاتبعتَ قبلتهم"(١١).

قال أبو السعود:" أي ولئن اتبعت أهواءَهم فرضاً"(١٢).

قال الثعلبي: أي" مرادهم في أمر القبلة"(١٣).

قال الواحدي:" أي: صليت إلى قبلتهم"(١٤).

---

(١) أخرجه الطبري(٢٢٥٧):ص: ١٨٦/٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٢٥٨):ص١٨٦/٣.
(٣) تفسير ابن عثيمين:١٣٤/٢.
(٤) تفسير المراغي: ١١/٢.
(٥) تفسير أبي السعود: ١٧٥/١.
(٦) انظر: المحرر الوجيز: ٢٢٣/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٢٥٧):ص: ١٨٦/٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٢٥٨):ص١٨٦/٣.
(٩) المحرر الوجيز: ٢٢٣/١.
(١٠) المحرر الوجيز: ٢٢٣/١.
(١١) تفسير الطبري: ١٨٦/٣.[بتصرف بسيط].
(١٢) تفسير أبي السعود: ١٧٥/١.
(١٣) تفسير الثعلبي:١٢/٢.
(١٤) التفسير البسيط: ٣٥٩/٣.

قال المراغي:" أي ولئن وافقتهم فيما يريدون ، فصليت إلى قبلتهم مداراة لهم وحرصا على اتباعك والإيمان بك"[١].

قال الصابوني:" أي ولئن فرض وقدّر أنك سايرتهم على أهوائهم، واتبعت ما يهوونه ويحبونه بعد وضوح البرهان الذي جاءك بطريق الوحي"[٢].

و(الهوى)، هو الميل؛ ومنه يقال للنجم: (هوى) إذا مال، وسقط؛ ويطلق (الهوى) في الغالب على الميل عن الحق؛ ويقابله (الهدى)؛ فيقال: اتبعَ الهوى بعد الهدى؛ وإن صح الحديث وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"[١] - فهو دليل على أن الهوى يكون في الخير كما يكون في الشر[٣].

قال ابن عطية:" وهوى النفس: إنما يستعمل في الأكثر: فيما لا خير فيه، وقد يستعمل في الخير مقيدا به، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أسرى بدر: "فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر"[٤]"[٥].

قال السعدي: "إنما قال: {أهواءهم}، ولم يقل: (دينهم)، لأن ما هم عليه مجرد أهوية نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين، اتبع الهوى ولا محالة، قال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}"[٦] .

واختلفوا في المخاطب في قوله تعالى:{وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ}[البقرة:١٤٥]، على ثلاثة أوجه[٧]:

أحدها: أن الخطاب له -صلى الله عليه وسلم- في الظاهر، وهو في المعنى لأمته، كما قال: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ} [الطلاق: ١].

الثاني: أن المراد: الرسول وغيره. فإن ظاهر الخطاب وإن كان مع الرسول إلا أن المراد منه غيره والغرض منه أن لا يميل إلى مخاطبتهم ومتابعتهم أحد من الأمة.

الثالث:وقيل غيره، لأنه تعالى عرف أن الرسول لا يفعل ذلك، فلا يجوز أن يخصه بهذا الخطاب.

والراجح، أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته، "وما ورد من هذا النوع الذي يوهم من النبي صلى الله عليه وسلم ظلما متوقعا فهو محمول على إرادة أمته لعصمة النبي صلى الله عليه وسلم وقطعنا أن ذلك لا يكون منه فإنما المراد من يمكن أن يقع ذلك منه، وخوطب النبي صلى الله عليه وسلم تعظيما للأمر"[٨].

---

(١) تفسير المراغي: ١٢/٢.

(٢) صفوة التفاسير:٩٢/١.

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة ٢١٢/١ – ٢١٣، حديث رقم ١٠٤، قال النووي في آخر الأربعين النووية "حسن صحيح"، وقال الحافظ في الفتح ٢٨٩/١٣: أخرجه الحسن بن سفيان وغيره؛ ورجاله ثقات؛ وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٩٤/٢): تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه...

(٣) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٥٩/٢.

(٤) رواه مسلم في الجهاد والسير(١٧٦٣)، وأحمد في المسند(٢٢١، وأبو داود في الجهاد(٢٦٩٠)، والترمذي في تفسير القرآن(٣٠٨١).

(٥) المحرر الوجيز: ٢٢٣/١.

(٦) تفسير السعدي: ٧٢/١.

(٧) انظر: مفاتيح الغيب: ١١٠/٤، والتفسير البسيط: ٣٩٥/٣.

(٨) المحرر الوجيز: ٢٢٣/١.

قال الواحدي:"وقيل: أن الله تعالى خاطب نبيه -عليه السلام- بهذا مهددًا أمته، أي: إذا استحققت منا مثل ذا الجزاء عند مخالفة، لو وقعت منك، ولن تقع أبدًا كانوا هم أجدر وأخلق، بتكاثف الأوزار، واجتماع الآثام، عند ما يظهر منهم من إيثار الضلال والانحراف عن الحق"[1].

قوله تعالى:{مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ}[البقرة:١٤٥]، أي" بعد ما جاءك الحق اليقين ، والعلم الذي لا شكّ فيه"[2].

قال الثعلبي:أي:" إنها حق وإنها قبلة إبراهيم"[3].

قال الواحدي:أي" أن قبلة الله: الكعبة"[4].

قال الطبري: أي: "من بعد ما وصَل إليك من العلم ، بإعلامي إياك أنهم مقيمون على باطل ، وعلى عنادٍ منهم للحق ، ومعرفةٍ منهم أنّ القبلة التي وجهتُك إليها هي القبلةُ التي فرضتُ على أبيك إبراهيم عليه السلام وسائر ولده من بعده من الرسل - التوجُّهَ نحوها"[5].

قال ابن عثيمين:" والمراد بـ (العلم) الوحي الذي نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم"[6].

قوله تعالى:{إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِين}[البقرة:١٤٥]، أي:" لتكونن من جملة الظالمين"[7].

قال الثعلبي:أي" الجاحدين الضارين أنفسهم"[8].

قال الواحدي:" أي: إنك إذن مثلهم"[9].

قال الطبري:"أي: "إنك إذا فعلت ذلك، من عبادي الظَّلمةِ أنفسَهم، المخالفين أمري ، والتاركين طاعتي ، وأحدُهم وفي عِدادِهم"[10]، و"الغرض منه التهديد والزجر"[11]

قال ابن عثيمين:"أي:لمن المعتدين الذين نقصوا الواجب عليهم من اتباع الحق دون الأهواء"[12].

قال الصابوني:" والكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير، وإلا فحاشاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أتباع أهواء الكفرة المجرمين، وهو من باب التهييج للثبات على الحق"[13].

قال البيضاوي:" وأكد تهديده وبالغ فيه من سبعة أوجه:

أحدها: الإتيان باللام الموطئة للقسم.

ثانيها: القسم المضمر.

ثالثها: حرف التحقيق وهو أن.

رابعها: تركيبه من جملة فعلية وجملة اسمية.

---

(١) التفسير البسيط: ٣٩٦/٣.
(٢) تفسير المراغي: ١٢/٢.
(٣) تفسير الثعلبي:١٢/٢.
(٤) التفسير البسيط: ٣٥٩/٣.
(٥) تفسير الطبري: ١٨٧/٣.
(٦) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٥٩/٢.
(٧) تفسير المراغي: ١٢/٢.
(٨) تفسير الثعلبي:١٢/٢.
(٩) التفسير البسيط: ٣٩٥/٣.
(١٠) تفسير الطبري: ١٨٧/٣.
(١١) تفسير الراي: ١١٧/٤.
(١٢) تفسير ابن عثيمين:١٣٦/٢.
(١٣) صفوة التفاسير:٩٢/٢.

وخامسها: الإتيان باللام في الخبر.
وسادسها: جعله من الظَّالِمِينَ، ولم يقل إنك ظالم لأن في الاندراج معهم إيهاماً بحصول أنواع الظلم.
وسابعها: التقييد بمجيء العلم تعظيماً للحق المعلوم، وتحريصا على اقتفائه وتحذيراً عن متابعة الهوى، واستفظاعاً لصدور الذنب عن الأنبياء"[١].

قال المراغي:" وإذا كان هذا الوعيد توجه لأعلى الناس مقاما عند ربه لو حاول اتباع الهوى استرضاء للناس بمجاراتهم على الباطل ، فما ظنك بغيره ممن يتبع الهوى ويجارى الناس على شيء نهاهم اللّه عنه ، فليعلم المؤمنون أن اتباع أهواء الناس ولو لغرض صحيح من الظلم العظيم الذي يوقع في مهاوى الهلاك ، فكأنه قيل : إن هذا ظلم عظيم لا هوادة فيه مع أحد ، فلو فرض وقوعه من أكرم الناس على اللّه لسحل عليه الظلم {وما للظّالمين من أنصار}، فكيف بمن دونه ممن لا يقار به منزلة عند ربه ؟ ولا شكّ أن سماع هذا الوعيد وأشباهه يوجب على المؤمن أن يفكر طويلا ويتأمل فيما وصل إليه حال المسلمين اليوم ، وكيف إن علماءهم يجارون العامة في بدعهم وضلالاتهم وهم يعترفون ببعدها عن الدين ، ولا يكون لهم وازع من نواهيه ، وقوارعه الشديدة ، وزواجره التي تخرّ لها الجبال سجّدا، وأعجب من هذا مجاراتهم لأهواء الملوك والأمراء ، حتى إنهم ليلقّقون لهم من الحيل والفتاوى ما يسترضونهم به ، ويكون فيه إشباع لشهواتهم واتباع لأهوائهم"[٢].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على هداية الخلق؛ لأن قوله تعالى: {ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية} دليل على أنه -صلى الله عليه وسلم- كان يعرض الآيات، ويبين الحقائق؛ ولكن لا ينتفعون بها.

٢- ومنها: شدة عناد هؤلاء الذين أوتوا الكتاب؛ وأنهم مهما أوتوا من الآيات فإنهم لن ينصاعوا لها، ولن يتبعوها.

٣- ومنها: أن الذين أوتوا الكتاب لن يتبعوا قبلة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وإذا كان كذلك فلن يتبعوا دينه؛ لأن القبلة بعض الدين؛ فمتى كفروا بها فهو كفر بالدين كله.

٤- ومنها: أن الكعبة قبلة للمسلمين خاصة؛ لأنه تعالى أضاف استقبالها إليهم؛ ولكن الظاهر - والله أعلم - أن الكعبة قبلة لكل الأنبياء؛ لقوله تعالى: {إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً} [آل عمران: ٩٦وهكذا قال شيخ الإسلام: إن المسجد الحرام قبلة لكل الأنبياء؛ لكن أتباعهم من اليهود، والنصارى هم الذين بدلوا هذه القبلة.

٥- ومنها: وجوب الانقياد للحق إذا ظهرت آياته؛ لأن هذه الآية سيقت مساق الذم؛ فدل هذا على وجوب اتباع الحق إذا تبينت الآيات.

٦- ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم مستحيل أن يكون تابعاً لقبلتهم؛ لأن قبلتهم التي يدعونها لم تثبت شرعاً؛ ثم لو فرض أنها جاءت في شرائعهم فإنها نُسِخت بقبلة الإسلام.

٧- ومنها: أنه يستحيل شرعاً أن يتبع المسلم طريقة اليهود، والنصارى؛ لقوله تعالى: {وما أنت بتابع قبلتهم}؛ وجه الاستحالة: أن الجملة جاءت بالاسمية المؤكدة بحرف الجر في سياق النفي؛ فالمؤمن حقيقة لا يمكن أن يتابع أعداء الله، ولا أن يأخذ بآرائهم، وأفكارهم، واتجاهاتهم؛ وقد حمى

---

(١) تفسير البيضاوي: ١١٢/١.
(٢) تفسير المراغي: ١٢/٢.

النبي صلى الله عليه وسلم ذلك غاية الحماية، حيث قال: «من تشبه بقوم فهو منهم»(٢)، حتى نحذر ونبعد عن التشبه بأعداء الله، والتقليد لهم سواء في أمور العبادة، أو في أمور العادة؛ فإن التشبه بأعداء الله حرام: وقد يؤدي إلى الكفر، والشرك - والعياذ بالله.

٨- ومن فوائد الآية: أن اليهود والنصارى لا يتبع بعضهم بعضاً؛ بل يضلل بعضهم بعضاً؛ فاليهود يرون النصارى ليسوا على شيء من الدين؛ والنصارى يرون اليهود ليسوا على شيء من الدين أيضاً؛ كل منهم يضلل الآخر فيما بينهم؛ كل واحد منهم يرى أن الآخر ليس على ملة صحيحة؛ ولهذا قال تعالى: {وما بعضهم بتابع قبلة بعض} [البقرة: ١٤٥] ؛ فقبلة اليهود إلى بيت المقدس - إلى الصخرة؛ وقبلة النصارى إلى المشرق يتجهون نحو الشمس؛ لكنهم على الإسلام يد واحدة بعضهم لبعض وليّ، كما قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض} [المائدة: ٥١] ؛ لأنهم كلهم أعداء للإسلام.

٩- ومن فوائد الآية: أن اتباع اليهود والنصارى اتباع للهوى لا للهدى؛ لقوله تعالى: {ولئن اتبعت أهواءهم}.

١٠- ومنها: أن اليهود والنصارى ليسوا على هدى، حيث جعل الله سبحانه وتعالى ما هم عليه هوى، وليس بهدى.

١١- ومنها: أن الإنسان لا يؤاخذ بالمخالفة إلا بعد قيام الحجة؛ لقوله تعالى: {من بعد ما جاءك من العلم}؛ فالإنسان قد يتابع غيره جهلاً؛ فلا يؤاخذ به - وإن كان يسمى ضالاً؛ لكنه ليس بظالم؛ لأنه لم يتعمد المخالفة؛ لا يتحقق الظلم إلا لمن عرف الحق وخالفه.

١٢- ومنها: التلطف في الخطاب للرسول -صلى الله عليه وسلم-؛ لقوله تعالى: {لمن الظالمين}؛ لأنك لو قلت لرجل: «أنت رجل ظالم» لكان أشد وقعاً من قولك له: أنت من الظالمين؛ ونظيره قوله تعالى: {عبس وتولى} [عبس: ١عندما تقرؤها تظن أن العابس والمتولي غير الرسول صلى الله عليه وسلم؛ تظن أنه رجل آخر؛ ولكن المراد به الرسول صلى الله عليه وسلم.

١٣- ومنها: بيان أن العلم حقيقة هو علم الشريعة؛ لقوله تعالى: {من بعد ما جاءك من العلم}: أتى بـ «أل» المفيدة للكمال؛ ولا شك أن العلم الكامل الذي هو محل الحمد والثناء هو العلم بالشريعة؛ ولذلك نقول: إن عصر النبوة هو عصر العلم؛ وليس عصرنا الآن هو عصر العلم الذي يمدح على الإطلاق؛ لكن ما كان منه نافعاً في الدين فإنه يمدح عليه لهذا.

١٤- ومنها: أن الظلم، والعدل، وغير ذلك مقرون بالأعمال؛ لا بالأشخاص؛ بمعنى أنه ليس بين الله تعالى وأحد من الخلق شيء يحابيه، ويراعيه به؛ كل من خالفه فهو ظالم؛ فلا نقول مثلاً: هذا قريب من الرسول صلى الله عليه وسلم تكفر سيئاته لقربه من الرسول صلى الله عليه وسلم؛ أو نقول: هذا إنسان من قريش من سلالة الأشراف - من سلالة بني هاشم - تكفّر عنه سيئاته؛ فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول الله سبحانه وتعالى له: {ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين}؛ فما بالك بمن دون الرسول صلى الله عليه وسلم!!! فلا أحد يحابى من قِبل الله عزّ وجلّ من أجل نسبه، أو حسبه، أو جاهه بين الناس: قال الله تعالى: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} [الحجرات: ١٣] .

---

(٢) أخرجه أحمد ٥٠/٢، حديث رقم ٥١١٤، وأخرجه أبو داود ص١٥١٨، كتاب اللباس، باب ٤: في لبس الشهرة، حديث رقم ٤٠٣١، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنفن كتاب السير، باب ٧٩: ما قالوا فيما ذكر من الرماح واتخاذها، حديث رقم ٣٣٠٠٦، قال الحافظ في الفتح ٢٧١/١٠: أخرجه أبو داود بسند حسن؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح ٥٠٤/٢، وقال في الإرواء: صحيح ١٠٩/٥، حديث رقم ١٢٦٩.

١٥- ومن فوائد الآية: قد يرد التعليق على شرط لا يمكن تحققه؛ لقوله تعالى: {ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين}؛ فهذا الشرط لا يمكن أن يقع من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.
١٦- ومنها: تحذير الأمة من اتباع أهواء غير المؤمنين؛ وجه ذلك أنه إذا كان هذا الوصف يكون للرسول -صلى الله عليه وسلم- لو اتبع أهواءهم فالذي دونه من باب أولى؛ فعلينا أن نحذر غاية الحذر من اتباع أهواء أعداء الله؛ فالواجب على علماء الأمة أن يحذّروها مما وقعت فيها الآن من اتباع أهواء أعداء الله، ويبينوا لهم أن اتباع أهوائهم هو الظلم؛ والظلم ظلمات يوم القيامة؛ والظلم مرتع مبتغيه وخيم.
١٧- دلت الآية على أن توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم لأن قوله: {من بعد ما جاءك من العلم} يدل على ذلك.

القرآن
{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)} [البقرة : ١٤٦]
التفسير:
الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل من أحبار اليهود وعلماء النصارى يعرفون أنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم رسول الله بأوصافه المذكورة في كتبهم، مثل معرفتهم بأبنائهم. وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون صِدْقه، وثبوت أوصافه.
سبب النزول:
قال الواحدي:" نزلت في مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه كانوا يعرفون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنعته وصفته وبعثه في كتابهم كما يعرف أحدهم ولده إذا رآه مع الغلمان؛ قال عبد الله بن سلام: لأنا أشد معرفة برسول الله - صلى الله عليه وسلم - مني بابني، فقال له عمر بن الخطاب: وكيف ذاك يا ابن سلام؟ قال: لأني أشهد أن محمدا رسول الله حقا يقينا، وأنا لا أشهد بذلك على ابني، لأني لا أدري ما أحدث النساء، فقال عمر: وفقك الله يا ابن سلام"(١).
قوله تعالى:{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ }[البقرة:١٤٦]،" أي إن اليهود والنصارى يعرفون أن محمدا النبي الأمي خاتم الرسل كما يعرفون أبناءهم"(٢).
قال الثعلبي:" يعني محمدا كما يعرفون أبناءهم من بين النصارى"(٣).
قال البيضاوي:" أي يعرفونه بأوصافه كمعرفتهم أبناءهم لا يلتبسون عليهم بغيرهم"(٤).
قال المراغي:" هذا كالدليل لما ذكر فى قوله : {لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ }، فكأنه قال : إن سبب العلم بأنه الحق ، أنهم يعرفون النبي صلى اللّه عليه وسلم بما في كتبهم من البشارة به ومن نعوته وصفاته التي لا تنطبق على غيره ، كما يعرفون أبناءهم الذين يربّونهم ويحوطونهم بعنايتهم ، فلا يفوتهم شىء من أمرهم"(٥).

---

(١) أسباب النزول: ٤٤، وانظر: العجاب: ٣٩٨/١-٣٩٩.
(٢) تفسير المراغي:٩٤/٧.
(٣) تفسير الثعلبي:١٣/٢.
(٤) تفسير البيضاوي: ١١٢/١.
(٥) تفسير المراغي:١٢/٢-١٣.

واختلف في عود الضمير في قوله تعالى{يَعْرِفُونَهُ}[البقرة:١٤٦]، على ثلاثة أوجه(١):
أحدها: أنه عائد إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أي: يعرفونه معرفة جلية، يميزون بينه وبين غيره كما يعرفون أبناءهم، لا تشتبه عليهم وأبناء غيرهم. قاله ابن عباس(٢)، مجاهد(٣) وقتادة(٤) وغيرهما، وهو قول أكثر المفسرين(٥).
قال البيضاوي:" الضمير لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإن لم يسبق ذكره لدلالة الكلام عليه"(٦).
الثاني: أنه راجع إلى أمر القبلة: أي علماء أهل الكتاب يعرفون أمر تحويل القبلة التي نقلت إليها كما يعرفون أبناءهم. قاله أبو العالية(٧)، وقتادة(٨)، والربيع بن أنس(٩)، والضحاك(١٠)، والسدي(١١)، مقاتل(١٢)، وروي عن ابن عباس –أيضا-(١٣)، واختاره الإمام الطبري(١٤).
الثالث: أنه يرجع إلى القرآن. حكاه البيضاوي(١٥).
قال السدي:" يعرفون الكعبة أنها هي قبلة الأنبياء كما يعرفون أبناءهم"(١٦).
والقول الأول أولى بالصواب، وذلك للوجوه الآتية(١٧):
أحدها: أن الضمير إنما يرجع إلى مذكور سابق، وأقرب المذكورات العلم في قوله: {من بعد ما جاءك من العلم} [البقرة: ١٤٥]، والمراد من ذلك العلم: النبوة، فكأنه تعالى قال: إنهم يعرفون ذلك العلم كما يعرفون أبناءهم، وأما أمر القبلة فما تقدم ذكره البتة.
وثانيها: أن الله تعالى ما أخبر في القرآن أن أمر تحويل القبلة مذكور في التوراة والإنجيل، وأخبر فيه أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مذكورة في التوراة والإنجيل، فكان صرف هذه المعرفة إلى أمر النبوة أولى.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١٦٢/٢-١٦٣.
(٢)عزاه في: زاد المسير: ١/ ١٥٨.
(٣) عزاه إليه ابن عطية، انظر: المحرر الوجيز: ٢٢٤/١.
(٤)عزاه إليه ابن عطية، انظر: المحرر الوجيز: ٢٢٤/١.
(٥) انظر: تفسير الثعلبي:١٣/٢، وقال في "البحر المحيط" ١/ ٤٣٥: "واختاره الزجاج ورجحه التبريزي، وبدأ به الزمخشري" وهو الذي رجحه أبو حيان.
(٦) تفسير البيضاوي: ١١٢/١.
(٧) عزاه إليهم في زاد المسير: ١٥٨/١.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٥/١، و زاد المسير: ١٥٨/١.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٥/١..
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٥/١..
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٦٨):ص٢٥٥/١.
(١٢) عزاه إليهم في زاد المسير: ١٥٨/١.
(١٣) عزاه إليهم في زاد المسير: ١٥٨/١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري: ١٨٧/٣.
(١٥) انظر: تفسير البيضاوي: ١١٢/١.
(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٦٨):ص٢٥٥/١.
(١٧) انظر: مفاتيح الغيب: ١١٩/٤.

وثالثها: أن المعجزات لا تدل أول دلالتها إلا على صدق محمد عليه السلام، فأما أمر القبلة فذلك إنما يثبت لأنه أحد ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فكان صرف هذه المعرفة إلى أمر النبوة أولى.

وفي سبب تخصيص ذكر الأبناء في المعرفة دون الأنفس في قوله تعالى{كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}، قال الرازي: " لأن الذكور أعرف وأشهر وهم بصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق"(١).

وقال القرطبي: "وخص الأبناء في المعرفة بالذكر دون الأنفس وإن كانت ألصق لأن الإنسان يمر عليه من زمنه برهة لا يعرف فيها نفسه ، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه. وروي أن عمر قال لعبدالله بن سلام : أتعرف محمدا صلى الله عليه وسلم كما تعرف ابنك ؟ فقال : نعم وأكثر ، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته ، وابني لا أدري ما كان من أمه"(٢).

قوله تعالى : {وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ}[البقرة:١٤٦]، "أي وإن جماعة منهم، ليخفون الحق ولا يعلنونه"(٣).

قال مجاهد:" يكتمون محمدًا صلى الله عليه وسلم، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل"(٤).

قال الثعلبي:" يعني صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأمر الكعبة"(٥).

قال الزجاج:" أي يكتمون صفته، ومن لا يعلم أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - وما جاء به"(٦).

قال البيضاوي:" تخصيص لمن عاند واستثناء لمن آمن"(٧).

قال ابن عطية:" والفريق الجماعة، وخص لأن منهم من أسلم ولم يكتم"(٨).

وفي الحق الذي كتموه، قولان:

أحدهما: أنه النبي محمد-صلى الله عليه وسلم- يكتمه اليهود والنصارى. قاله مجاهد(٩)، وقتادة(١٠)، وخصيف.

ولهذا ذكر الله في سورة آل عمران أن بعضهم يقول لبعض: كيف تبينون الهدى لمحمد، وأصحابه؟! إذا بينتموه يحاجوكم به عند الله أفلا تعقلون! فهم يتواصون بالكتمان - والعياذ بالله (١١).

الثاني: وقيل المراد: استقبال الكعبة(١٢)، قاله الربيع(١٣)، والسدي(١)، ومقاتل(٢).

---

(١) مفاتيح الغيب:١١٨/٤.
(٢) تفسير القرطبي: ١٦٣/٢.
(٣) صفوة التفاسير: ٩٢/١.
(٤) أخرجه الطبري (٢٢٧٠):ص١٨٩/٣.
(٥) تفسير الثعلبي:١٣/٢.
(٦) معاني القرآن: ٢٢٥/١.
(٧) تفسير البيضاوي: ١١٢/١.
(٨) المحرر الوجيز: ٢٢٤/١.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٢٧٠):ص١٨٩/٣.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٢٦٩):ص١٨٩/٣.
(١١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٦٢/٢.
(١٢) انظر: تفسير القرطبي: ١٦٣/٢.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٢٧١):ص١٩٠/٣، وابن أبي حاتم(١٣٧١):ص٢٥٦/١.

قال الطبري: "وذلك الحق هو القبلة التي وجَّه الله عز وجل إليها نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم. يقول : فَولِّ وجهك شطرَ المسجد الحرام التي كانت الأنبياء من قبل محمدٍ صلى الله عليه وسلم يتوجَّهون إليها. فكتمتها اليهودُ والنصارى ، فتوجَّه بعضُهم شرقًا ، وبعضُهم نحو بيتَ المقدس ، ورفضُوا ما أمرهم الله به ، وكتموا مَعَ ذلك أمرَ محمد صلى الله عليه وسلم وهم يجدونَه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل. فأطلع الله عز وجل محمدًا صلى الله عليه وسلم وأمَّتَه على خيانتهم اللهَ تبارك وتعالى ، وخيانتهم عبادَه ، وكتمانِهم ذلك ، وأخبر أنهم يفعلون ما يَفعلون من ذلك على علم منهم بأن الحق غيرُه"[3].

قوله تعالى:{وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة:١٤٦]، أي:" يكتمون والحال أنهم يعلمون أنه الحق"[4].

قال الزجاج:أي" أنه الحق"[5].

قال الواحدي:" لأن الله بيّن ذلك في كتابهم"[6].

قال ابن عثيمين: "وهذا أبلغ في الذم، وأقبح في الفعل أن يكونوا كاتمين للحق وهم يعلمون، ومثله : {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ} [النمل : ١٤] وقوله {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ} [البقرة : ٨٩] "[7].

وفي قوله تعالى: {وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة:١٤٦]، وجهان من التفسير[8]:

أحدهما: وهم يعلمون أنه حق.

والثاني: وهم يعلمون ما على مخالفه من العقاب.

الفوائد

١- من فوائد الآية: أن النبي صلى الله عليه وسلم معروف عند أهل الكتاب معرفة تامة؛ وذلك كما جاء في كتبهم، كما قال الله - تبارك وتعالى: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم} [الأعراف: ١٥٧] .

٢- ومنها: أنه لا عذر ولا حجة لأهل الكتاب في إنكارهم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم أوتوا من وصفه ما يعرفونه به كما يعرفون أبناءهم.

٣- ومنها: بيان أن تعلق الإنسان بالابن أقوى من تعلقه بالبنت؛ لقوله تعالى: {كما يعرفون أبناءهم}؛ فهو يعرف الابن أكثر مما يعرف البنت لقوة تعلقه به.

٤ - ومنها: الاحتراس في القرآن الكريم، حيث قال تعالى: {وإن فريقاً منهم}؛ لأن كتمان الحق لم يكن من جميعهم؛ بل من فريق منهم؛ وطائفة أخرى لا تكتم الحق؛ فإن من النصارى من آمن، كالنجاشي؛ ومن اليهود - كعبد الله بن سلام - مَن آمن، ولم يكتم الحق.

---

(١) عزاه في زاد المسير:١/!٥٨.
(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤٨/١.
(٣) تفسير الطبري: ١٨٩/٣.
(٤) تفسير ابن عثيمين:١٤١/٢.
(٥) معاني القرآن: ٢٢٥/١.
(٦) التفسير البسيط: ٣٩٨/٣.
(٧) تفسير ابن عثيمين:١٤١/٢.
(٨) انظر: زاد المسير: ١٥٨/١.

٥- ومنها: شدة اللوم، والذم لهؤلاء الذين يكتمون الحق؛ لأنهم يكتمونه مع العلم به؛ فهم عامدون ظالمون؛ وهذا أشد قبحاً من كتمان الإنسان ما يكون متردداً فيه.

القرآن

{الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)} [البقرة : ١٤٧]

التفسير:

الذي أنزل إليك -أيها النبي- هو الحق من ربك، فلا تكونن من الشاكين فيه. وهذا وإن كان خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم فهو موجه للأمة.

قوله تعالى:{الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ}[البقرة:١٤٧]، أي:" اعلم يا محمد أنّ الحق ما أعلمك ربك وأتاك من عنده ، لا ما يقول لكَ اليهود والنصارى"(١).

قال الربيع:" يقول:لا تكنْ في شك ، فإنها قبلتُك وقبلةُ الأنبياء من قبلك"(٢).

قال الثعلبي: "أي هذا الحق"(٣) من ربك(٤).

قال الواحدي:" أي: هذا الحق من ربك"(٥).

قال ابن عثيمين: "يعنى أن الحق ثابت، وحاصل من ربك؛ وقيل: هذا الحق من ربك"(٦).

قال الطبري:" وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكره خبر لنبيه عليه السلام :عن أن القبلة التي وجهه نحوها ، هي القبلةُ الحقُّ التي كان عليها إبراهيم خليل الرحمن ومَنْ بعده من أنبياء الله عز وجل"(٧).

قال ابن كثير:" ثبّت تعالى نبيه والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك"(٨).

وروي عن علي رضي الله عنه أنه قرأ :{الحق}، منصوبا بـ {يعلمون}، أي {يعلمون الحق}(٩).

قال النحاس : "فأما الذي في "الأنبياء" {الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنبياء : ٢٤] فلا نعلم أحدا قرأه إلا منصوبا، والفرق بينهما أن الذي في سورة (البقرة) مبتدأ آية، والذي في الأنبياء ليس كذلك"(١٠).

قال القرطبي:" ويصح نصبه على تقدير (الزم الحق)، والرفع على الابتداء أو على إضمار مبتدأ والتقدير:(هو الحق)، أو على إضمار فعل ، أي (جاءك الحق)"(١١).

وأما الألف واللام في قوله{الْحَقُّ}[البقرة:١٤٧]، ففيه وجهان(١٢):

---

(١) تفسير الطبري:١٩٠/٣.
(٢) أخرجه الطبري(٢٢٧٢):ص١٩٠/٣.
(٣) تفسير الثعلبي:١٣/٢.
(٤) انظر: زاد المسير: ١٥٨/١.
(٥) التفسير البسيط: ٣٩٨/٣.
(٦) تفسير ابن عثيمين:١٤٣/٢.
(٧) تفسير الطبري: ١٩٠/٣.
(٨) تفسير ابن كثير:٤٦٢/١.
(٩) انظر: تفسير الثعلبي:١٣/٢.
(١٠) انظر: تفسير القرطبي: ١٦٣/٢.
(١١) انظر: تفسير القرطبي: ١٦٣/٢.
(١٢) انظر: مفاتيح الغيب: ١١٩/٤.

الأول: أن يكون للعهد، والإشارة إلى الحق الذي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إلى الحق الذي في قوله: {ليكتمون الحق} أي هذا الذي يكتمونه هو الحق من ربك.
والثاني: أن يكون للجنس على معنى: الحق من الله تعالى لا من غيره يعني إن الحق ما ثبت أنه من الله تعالى كالذي أنت عليه وما لم يثبت أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب فهو الباطل.
قوله تعالى:{فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ}[البقرة:١٤٧]، أي:" فلا تكوننَّ من الشاكّين"[١].
قال الطبري: "أي من الشاكين، في أن القبلة التي وجَّهتك نَحوها قبلةُ إبراهيم خليلي عليه السلام وقبلة الأنبياء غيره"[٢].
قال ابن زيد:" قال: من الشاكين قال ، لا تشكنّ في ذلك"[٣].
قال الزجاج:" أي من الشاكين والخطاب أيضا عام أي فلا تكونوا من الشاكين"[٤].
قال الصابوني:"والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته"[٥].
قال الواحدي:"يعني: فلا تكونن من الممترين في الجملة التي أخبرتك من أمر القبلة، وعناد من كتم النبوة، وامتناعهم من الإيمان بك"[٦].
قال الثعلبي:" والخطاب في هذه الآية: وفي ما قبلها للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره، وكل ما ورد عليك من هذا النحو فهو سبيله"[٧].
قال ابن عثيمين:" والخطاب هنا للرسول صلى الله عليه وسلم؛ وهذا النهي يراد به التثبيت؛ إذ لا يمكن وقوع الامتراء من النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما أن أمر المؤمن بالإيمان يراد به الثبوت، والاستمرار عليه، كما في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل} [النساء: ١٣٦] ، كما أن الشرط قد يعلق بما لا يمكن وقوعه كما سبق في قوله تعالى: {ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين} [البقرة: ١٤٥] "[٨].
و(المرية): الشك، ومنه: الامتراء والتماري[٩]، وأنشد الطبري قول الأعشى[١٠]:
تَدِرُّ عَلَى أَسْوُقِ المُمْتَرِينَ ... رَكْضًا ، إِذَا مَا السَّرَابُ ارْجَحَنّ
قال ابن عطية:" ووهم في ذلك لأن أبا عبيدة وغيره قالوا: الممترون في البيت هم الذين يمرون الخيل بأرجلهم همزا لتجري كأنهم يحتلبون الجري منها، فليس في البيت معنى من الشك كما قال الطبري"[١١].
وقال الراغب : "المرية: التردد في الأمر، وهو أخصمن الشك، والامتراء والمماراة: المحاجة فيما فيه مرية"[١٢].

---

(١) صفوة التفاسير:٩٢/١.
(٢) تفسير الطبري: ١٩٠/٣.
(٣) أخرجه الطبري(٢٢٧٣):ص١٩١/٣.
(٤) معاني القرآن: ٢٢٥/١.
(٥) صفوة التفاسير:٩٢/١.
(٦) التفسير البسيط: ٣٩٨/٣.
(٧) تفسير الثعلبي:١٣/٢.
(٨) تفسير ابن عثيمين:١٤٣/٢-١٤٤.
(٩) انظر: زاد المسير: ١٥٨/١، والتفسير البسيط: ٣٩٨/٣، وتفسير القرطبي: ١٥٠/٢.
(١٠)ديوانه : ٢٠ واللسان (رجحن) .
(١١) المحرر الوجيز: ٢٢٤/١.
(١٢)المفردات: ٤٦٩.

وقد اختلف العلماء في تحديد نوع(المرية) في قوله {فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}[البقرة:١٤٧]، على أقوال(١):

أحدها: فلا تكونن من الممترين في أن الذين تقدم ذكرهم علموا صحة نبوتك، وأن بعضهم عاند وكتم، قاله الحسن.

وثانيها: بل يرجع إلى أمر القبلة. قاله الربيع(٢).

وثالثها: إلى صحة نبوته وشرعه.

والقول الثالث هو الأقرب، "لأن أقرب المذكورات إليه قوله: {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} فإذا كان ظاهره يقتضي النبوة وما تشتمل عليه من قرآن ووحي وشريعة، فقوله: {فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} وجب أن يكون راجعا إليه"(٣). والله تعالى أعلم.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: أن ما جاء من عند الله فهو حق؛ لقوله تعالى: {الحق من ربك}.

٢- ومنها: أنه ما دام الحق من الله فإنه يجب أن يؤمن الإنسان به، وأن لا يلحقه في ذلك شك، ولا مرية.

٣- ومنها: أن كل شيء خالف ما جاء عن الله فهو باطل؛ لقوله تعالى: {فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون} [يونس: ٣٢] .

٤- ومنها: تقوية الرسول صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه من الحق - وإن كتمه أهل الكتاب - لأن الإنسان بشر؛ لما أنكر هؤلاء الذين أوتوا الكتاب الحق قد يعتري الإنسان شيء من الشبهة - وإن كان بعيداً؛ فبين الله سبحانه وتعالى أن ما جاء به هو الحق؛ لقوله تعالى: {الحق من ربك}.

٥- ومنها: عناية الله سبحانه وتعالى بالنبي بذكره بالربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: {من ربك}.

٦- ومنها: أن الشك ينافي الإيمان؛ لقوله تعالى: {فلا تكونن من الممترين}.

٧- ومنها: أنه قد ينهى عن الشيء مع استحالة وقوعه؛ لقوله تعالى: {فلا تكونن من الممترين}؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يكون من الممترين.

٨- ومنها: عناية الله سبحانه وتعالى بالرسول صلى الله عليه وسلم بالتثبيت؛ لأن قوله تعالى له: {الحق من ربك} يقتضي ثباته عليه؛ وقوله تعالى: {فلا تكونن من الممترين} يقتضي استمراره على هذا الثبات؛ ولا شك أن في هذا من تأييد الرسول صلى الله عليه وسلم، وتثبيته ما هو ظاهر.

القرآن

{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)} [البقرة : ١٤٨]

التفسير:

ولكل أمة من الأمم قبلة يتوجَّه إليها كل واحد منها في صلاته، فبادروا - أيها المؤمنون- متسابقين إلى فِعْل الأعمال الصالحة التي شرعها الله لكم في دين الإسلام. وسيجمعكم الله جميعا يوم القيامة من أي موضع كنتم فيه. إن الله على كل شيء قدير.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ١١٢/٤.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣٧٣):ص٢٥٦/١.

(٣) مفاتيح الغيب: ١١٢/٤.

قوله تعالى: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}[البقرة:١٤٨]، "أي ولكل أمة جهة توليها في صلاتها"[١].

قال ابن عباس:" يعني بذلك: أهل الأديان، يقول: لكل قبلة يرضونها. ووجه الله حيث توجه المؤمنون"[٢].

قال أبو العالية:" قال: لليهودي وجهة هو موليها، (وللنصارى) وجهة هو موليها، وهداكم الله أنتم أيتها الأمة (القبلة) التي هي القبلة"[٣]. وروي عن مجاهد في أحد قوليه. والضحاك، وعطاء، والسدي، والربيع نحو ذلك[٤].

قال الثعلبي:" أي ولكل أهل ملة قبلة، مستقبلها ومقبل إليها"[٥].

قال البيضاوي:" ولكل أمة قبلة، أو لكل قوم من المسلمين جهة وجانب من الكعبة"[٦].

قال الصابوني:" أي لكل أمة من الأمم قبلةٌ هو موليها وجهه أي مائل إليها بوجهه"[٧].

وروي عن مجاهد في قوله{لكل وجهة هو موليها}، قال:"أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة"[٨]. وروي عن الحسن نحو ذلك[٩].

وقال قتادة:" هي صلاتهم إلى بيت المقدس، وصلاتهم إلى الكعبة"[١٠].

يقال:"وليته، ووليت إليه. إذا أقبلت إليه ووليت عنه إذا أدبرت عنه، وأصل التولية: الانصراف"[١١].

قد ذكر أهل العلم في قوله:{وَلِكُلٍّ}[البقرة:١٤٨]، أربعة أوجه[١٢]:

أحدها: أنه يتناول جميع الفرق، أعني المسلمين واليهود والنصارى والمشركين، وهو قول الاصم، قال: لأن في المشركين من كان يعبد الأصنام ويتقرب بذلك إلى الله تعالى كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: {هؤلاء شفعاؤنا عند الله} [يونس: ١٨].

وثانيها: أن المراد: أهل الكتاب وهم: المسلمون واليهود والنصارى، والمشركون غير داخلين فيه.وهو قول ابن عباس[١٣]، وأبي العالية[١٤]، و"مجاهد في أحد قوليه. والضحاك، وعطاء، والسدي، والربيع"[١٥].

وثالثها: أن المراد: لكل قوم من المسلمين وجهة أي جهة من الكعبة يصلي إليها: جنوبية أو شمالية، أو شرقية أو غربية، واحتجوا على هذا القول بوجهين:

---

(١) تفسير المراغي: ١٤/٢.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٧٤):ص٢٥٦/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٧٥):ص٢٥٦/١.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٥٦/١.
(٥) تفسير الثعلبي:١٣/٢.
(٦) تفسير البيضاوي: ١١٣/١.
(٧) صفوة التفاسير:٩٢/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٧٦):ص٢٥٧/١.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٥٧/١.
(١٠) أهرجه ابن ابي حاتم(١٣٧٧):ص٢٥٧/١.
(١١) تفسير الثعلبي:١٣/٢.
(١٢) انظر : مفاتيح الغيب: ١٢٠/٤.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣٧٤):ص٢٥٦/١.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣٧٥):ص٢٥٦/١.
(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٥٦/١.

الأول: قوله تعالى: {هو موليها} يعني الله موليها وتولية الله لم تحصل إلا في الكعبة، لأن ما عداها تولية الشيطان.
والثاني: أن الله تعالى عقبه بقوله: {فاستبقوا الخيرات} والظاهر أن المراد من هذه الخيرات ما لكل أحد من جهة، والجهات الموصوفة بالخيرية ليست إلا جهات الكعبة.
ورابعها: أن المراد: لكل واحد من الرسل وأصحاب الشرائع جهة قبلة، فقبلة المقربين: العرش، وقبلة الروحانيين: الكرسي، وقبلة الكروبيين: البيت المعمور، وقبلة الأنبياء الذين قبلك بيت المقدس، وقبلتك الكعبة.
واختلفوا في المراد بقوله تعالى{وِجْهَةٌ}[البقرة:١٤٨]، على قولين(١):
أحدهما: أن المراد المنهاج والشرع، قاله الحسن(٢)، وهو كقوله تعالى: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} [الحج : ٦٧] ، {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة : ٤٨] والمراد منه أن للشرائع مصالح، فلا جرم اختلفت الشرائع بحسب اختلاف الأشخاص، وكما اختلف بحسب اختلاف الأشخاص لم يبعد أيضا اختلافها بحسب اختلاف الزمان بالنسبة إلى شخص واحد، فلهذا صح القول بالنسخ والتغيير.
الثاني: أن المراد منه أمر القبلة، قاله ابن عباس(٣)،
وقالوا: لأنه تقدم قوله تعالى: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [البقرة : ١٤٤] فهذه الوجهة يجب أن تكون محمولة على ذلك.
وذكروا في الضمير(هو) في قوله تعالى:{هُوَ مُوَلِّيهَا}[البقرة:١٤٨]، وجهان(٤):
الأول: أنه عائد إلى الكل، أي ولكل أحد وجهة هو مولى وجهه إليها.
الثاني: أنه عائد إلى اسم الله تعالى، أي: الله تعالى يوليها إياه.
وتقرير الكلام على الوجه الثاني أعني أن يكون الضمير في قوله: {هو موليها} عائدا إلى الله تعالى فههنا وجهان:
الأول: أن الله عرفنا أن كل واحدة من هاتين القبلتين اللتين هما بيت المقدس والكعبة جهة يوليها الله تعالى عباده، إذا شاء يفعله على حسب ما يعلمه صلاحا فالجهتان من الله تعالى وهو الذي ولى وجوه عباده إليهما، فاستبقوا الخيرات بالانقياد لأمر الله في الحالتين، فإن انقيادكم خيرات لكم، ولا تلتفتوا إلى مطاعن هؤلاء الذين يقولون: {ما ولاهم عن قبلتهم} [البقرة: ١٤٢]، فإن الله يجمعكم وهؤلاء السفهاء جميعا في عرصة القيامة، فيفصل بينكم.
الثاني: أنا إذا فسرنا قوله: {ولكل وجهة} بجهات الكعبة ونواحيها، كان المعنى: ولكل قوم منكم معاشر المسلمين وجهة، أي ناحية من الكعبة: {فاستبقوا الخيرات} بالتوجه إليها من جميع النواحي، فإنها وإن اختلفت بعد أن تؤدي إلى الكعبة فهي كجهة واحدة ولا يخفى على الله نياتهم فهو يحشرهم جميعا ويثيبهم على أعمالهم.
واختلفت القراءة في قوله تعالى:{هُوَ مُوَلِّيهَا}[البقرة:١٤٨]، على وجهين(٥):
أحدهما: {هو مُولَّاها}، بفتح اللام، "أي مصروف إليها"(١). قرأ بها ابن عباس وابن عامر وأبو رجاء وسليمان بن عبد الملك.

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب: ١١٣/٤.
(٢) انظر : مفاتيح الغيب: ١١٣/٤.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣٧٤):ص٢٥٦/١.
(٤) انظر : مفاتيح الغيب: ١١٣/٤.
(٥) انظر: السبعة في القراءات: ١٧٢، وتفسير الثعلبي:١٣/٢.

الثاني: { مُوَلِّيهَا}، بكسر اللام. قرأ بها الباقون.
وقرئ: {وَلِكُلّ وِجْهَةٍ}: بالإضافة، والمعنى وكل وجهة الله موليها أهلها، واللام مزيدة للتأكيد جبراً لضعف العامل[٢].
قال الثعلبي:" وفي حرف أبيّ: {ولك قبلة هو موليها}، وفي حرف عبد الله: {ولكل جعلنا قبلة هو موليها}"[٣].
قوله تعالى: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}[البقرة:١٤٨]، أي:" فبادروا وسارعوا أيها المؤمنون إلى فعل الخيرات"[٤].
قال أبو السعود:" أي تسابقوا إليها"[٥].
قال البيضاوي:أي"من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين، أو الفاضلات من الجهات وهي المسامتة للكعبة"[٦].
قال المراغي: "أي فبادروا إلى فعل كل نوع من أنواع الخير ، وليحرص كل منكم أن يكون سباقا إليه"[٧].
قال الزجاج:" أي فبادروا إلى القبول من - الله عز وجل، وولوا وجوهكم حيث أمركم أن تولوا"[٨].
قال الطبري: "أي : قد بيّنت لكم أيها المؤمنون الحقَّ ، وهديتكم للقِبلة التي ضلّت عنها اليهود والنصارى وسائرُ أهل الملل غيركم ، فبادروا بالأعمال الصالحة ، شكرًا لربكم ، وتزوَّدوا في دنياكم لآخرتكم ، فإني قد بيّنت لكم سبُل النجاة ، فلا عذر لكم في التفريط ، وحافظوا على قبلتكم ، فلا تضيِّعوها كما ضَيَّعتها الأمم قبلكم ، فتضلُّوا كما ضلت"[٩].
قال الثعلبي:أي" وبادروا فعل الخيرات، ومجازه فاستبقوا إلى الخيرات: أي يسبق بعضكم بعضا فحذف حرف الخبر. كقول الشاعر[١٠]:
ثنائي عليكم آل حرب ومن يمل   سواكم فإني مهتد غير مائل
أراد من يمل إلى سواكم"[١١].
وذكروا في قوله تعالى: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}[البقرة:١٤٨]، وجهين من التفسير:
أحدهما: أن المعنى:" سارعوا في الخيرات". قاله أبو العالية[١]، وروي عن الربيع بن أنس[٢] نحو ذلك.

---

(١) تفسير الثعلبي:١٣/٢.
(٢) تفسير البيضاوي: ١١٣/١.
(٣) تفسير الثعلبي:١٤/٢.
(٤) صفوة التفاسير:٩٢/١.
(٥) تفسير أبي السعود: ١٧٧/١.
(٦) تفسير البيضاوي: ١١٣/١.
(٧) تفسير المراغي: ١٥/٢.
(٨) معاني القرآن: ٢٢٦/١.
(٩) تفسير الطبري: ١٩٦/٣.
(١٠) البيت للراعي النميري، انظر: ديوانه: ٢٠٥، و١٠٨، و البيت ورد في: البحر المحيط: ٤٣٩/١، والدر المصون: ١٧٦/٢، وغيرهما.
والبيت سقط في المخطوط عد الثعلبي، وفيه: وهو الداعي [......]عليكم بالحرب ... ومن يمل سواكم فإني منه غير مائل
(١١) تفسير الثعلبي:١٤/٢.

الثاني: أن المراد:" اثبتوا على قبلتكم. قاله الحسن[٣].

قوله تعالى:{أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا}[البقرة:١٤٨]، أي: "في أيّ مكان وبقعة تهلكون فيه، يأت بكم الله جميعًا يوم القيامة"[٤].

قال أبو العالية:" يعني: يوم القيامة"[٥]. وروي عن السدي، والربيع بن أنس، نحو ذلك[٦].

قال الزجاج:" أي يرجعكم إليه"[٧].

قال البيضاوي:" فيقدر على الإماتة والإحياء والجمع"[٨].

قال الواحدي:" أي: أينما تكونوا يجمعكم الله للحساب فيجزيكم بأعمالكم"[٩].

قال أبو السعود:" أي في أيّ موضعٍ تكونوا من موافِقٍ أو مخالفٍ مجتمعِ الأجزاء أو متفرقِها يحشُرُكم الله تعالى إلى المَحْشَرِ للجزاء"[١٠].

قال الثعلبي:" يريد أهل الكتاب،[فيجمعكم الله] يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم"[١١].

قال المراغي:" أي ففى أي مكان تقيمون فيه ، فالله يأتي بكم ويجمعكم للحساب فعليكم أن تستبقوا إلى فعل الخيرات ، فالبلاد والجهات لا شأن لها فى أمر الدين ، وإنما الشأن لعمل البر ، وفي هذا وعد لأهل الطاعة ، ووعيد لأهل المعصية"[١٢].

قال الصابوني:" أي في أي موضع تكونوا من أعماق الأرض أو قمم الجبال يجمعكم الله للحساب فيفصل بين المحق والمبطل"[١٣].

وعن السدي: قوله {أينما تكونوا}، قال: من الأرض"[١٤].

وعن الضحاك، في قوله: "{أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا}، قال: البر والفاجر"[١٥].

وذكر البيضاوي في قوله تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا}[البقرة:١٤٨]، ثلاثة أوجه[١٦]:

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣٧٩):ص٢٥٧/١.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٧/١.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣٨١):ص٢٥٧/١.
(٤) تفسير الطبري: ١٩٧/٣.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٨٢):ص٢٥٨/١.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٥٨/١.

(٧) معاني القرآن: ٢٢٦/١.
(٨) تفسير البيضاوي: ١١٣/١.
(٩) التفسير البسيط: ٤٠٥/٣.
(١٠) تفسير ابي السعود: ١٧٧/١.
(١١) تفسير الثعلبي:١٤/٢.
(١٢) تفسير المراغي: ١٥/٢.
(١٣) صفوة التفاسير:٩٢/١.
(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٨٣):ص٢٥٨/١.
(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٨٤):ص٢٥٨/١.
(١٦) انظر: تفسير البيضاوي: ١١٣/١.

أحدها: في أي موضع تكونوا من موافق ومخالف مجتمع الأجزاء ومفترقها، يحشركم الله إلى المحشر للجزاء.
الثاني: أينما تكونوا من أعماق الأرض وقلل الجبال، يقبض أرواحكم.
الثالث: أينما تكونوا من الجهات المتقابلة، يأت بكم الله جميعاً ويجعل صلواتكم كأنها إلى جهة واحدة.
قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[البقرة:١٤٨]، " أي إنه تعالى قادر على كل شيء"(١).
قال ابن عثيمين:" أي: لا يعتريه عجز في كل شيء فعله"(٢).
قال الزجاج: أي:"فتوفون ما عملتم"(٣).
قال القرطبي: " ثم وصف نفسه تعالى بالقدرة على كل شيء لتناسب الصفة مع ما ذكر من الإعادة بعد الموت والبلى"(٤).
قال المراغي:" فهو لا يعجزه أن يحشر الناس يوم الجزاء مهما بعدت بينهم المسافات. وتناءت بهم الديار والجهات"(٥).
قال الصابوني:" أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسامكم وأبدانكم"(٦).
قال أبو السعود:" فيقدِر على الإماتة والإحياء والجمع فهو تعليل للحكم السابق"(٧).
قال محمد بن إسحاق: "{إن الله على كل شيء قدير}:أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير"(٨).
وعن محمد ابن إسحاق كذلك:" قوله: {على كل شيء قدير}، أي لا يقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك"(٩).
الفوائد:
١- من فوائد قوله تعالى{فاستبقوا الخيرات}، الأمر بالبدار إلى الطاعة في وقتها، واعلم أن أداء الصلاة في أول الوقت عند الشافعي رضي الله عنه أفضل، خلافا لأبي حنيفة.
٢- ومن فوائد الآية: أن الأمم قد تختلف مناهجها - وإن اتفقت على أصل واحد؛ وهو الإسلام؛ ونعني بـ«الإسلام» المعنى العام؛ وهو الاستسلام لله بشرائعه القائمة التي لم تُنسَخ.
٣- ومنها: أن الإنسان يجب عليه أن يتبع الحق أينما كان؛ ولا ينظر إلى كثرة المخالف؛ لا يقل: الناس على كذا فكيف أشذ عنهم! بل يجب عليه أن يتبع الحق؛ لأن قوله تعالى: {ولكل وجهة} يشمل الوجهة الشرعية، والوجهة القدرية؛ يعني ما وجه الله العباد إليه شرعاً، وما وجههم إليه قدراً؛ الوجهة القدرية معروفة: فمن الناس من يهديه الله تعالى فيكون اتجاهه إلى الحق؛ ومن الناس من يُخذَل فيَضل، ويكون اتجاهه إلى الباطل؛ فالوجهة التي يتبعها المشركون، واليهود،

---

(١) صفوة التفاسير:٣١/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين:٣٥٨/١.
(٣) معاني القرآن: ٢٢٦/١.
(٤) تفسير القرطبي: ١٦٧/٢.
(٥) تفسير المراغي:١٥/٢.
(٦) صفوة التفاسير:٩٢/١.
(٧) تفسير أبي السعود: ١٧٧/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٢٤):ص٥٩/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٧١):ص٢٠٢/١.

والنصارى، وما أشبه ذلك هذه وجهة قدرية؛ أما شرعية فلا؛ لأن الله ما شرع الكفر أبداً؛ ولا شرع شيئاً من خصال الكفر؛ والوجهة الشرعية: اختلاف الشرائع بين الناس؛ فلا تظن أن اختلاف الشريعة الإسلامية عن غيرها معناه أنها ليست حقاً؛ فإنها الحق من الله.

٤- ومن فوائد الآية: وجوب المسابقة إلى الخير؛ لقوله تعالى: {فاستبقوا الخيرات}.

٥- ومنها: أن الأمر يقتضي الفورية؛ لأن الاستباق إلى الخير لا يكون إلا بالمبادرة إلى فعله؛ فهذه الآية مما يستدل به على أن الأمر المطلق للفورية.

٦- ومنها: البلاغة التامة في قوله تعالى: {فاستبقوا الخيرات} دون «استبقوا إلى الخيرات» - وإن كان بعض الناس يقولون: إنها نُزع منها حرف الجر؛ وليس بصحيح؛ لأن {فاستبقوا الخيرات} يشمل الاستباق إليها، والاستباق فيها؛ فليس معناه: إذا وصلت إلى الخير فإنك تقف؛ بل حتى في نفس فعلك الخير كن مسابقاً؛ وهذا يشبهه قوله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم} [الفاتحة: ٦] ؛ فالمطلوب أن يصل الإنسان إلى الصراط، ويستمر فيه؛ ولهذا قال تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم} [الفاتحة: ٦] .

٧- ومن فوائد الآية: إحاطة الله تعالى بالخلق أينما كانوا؛ لقوله تعالى: {أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً}.

٨- ومنها: الإشارة إلى البعث؛ لأن الإتيان بالجميع يكون يوم القيامة.

٩- ومنها: إثبات عموم قدرة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {إن الله على كل شيء قدير}؛ وقد قال الله تعالى: {وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً} [فاطر: ٤٤].

وهناك كلمة يقولها بعض الناس فيقول: «إن الله على ما يشاء قدير»؛ وهذا لا ينبغي:

أولاً: لأنه خلاف إطلاق النص؛ فالنص مطلق.

ثانياً: لأنه قد يفهم منه تخصيص القدرة بما يشاء الله دون ما لم يشأ؛ والله قادر على ما يشاء، وعلى ما لا يشاء.

ثالثاً: أنه قد يفهم منه مذهب المعتزلة القدرية الذين قالوا: «إن الله عزّ وجلّ لا يشاء أفعال العبد؛ فهو غير قادر عليها».

ولهذا ينبغي أن نطلق ما أطلقه الله لنفسه، فنقول: إن الله على كل شيء قدير؛ أما إذا جاءت القدرة مضافة إلى فعل معين فلا بأس أن تقيد بالمشيئة، كما في قوله تعالى: {وهو على جمعهم إذا يشاء قدير} [الشورى: ٢٩] ؛ فإن {إذا يشاء} عائدة على «الجمع» ؛ لا على «القدرة» ؛ فهو قدير على الشيء شاءه، أم لم يشأه؛ لكن جمعه لا يقع إلا بالمشيئة؛ ومنه الحديث في قصة الرجل الذي أكرمه الله سبحانه وتعالى، فقال: «ولكني على ما أشاء قادر»(١)؛ لأنه يتكلم عن فعل معين؛ ولهذا قال: «قادر» : أتى باسم الفاعل الدال على وقوع الفعل دون الصفة المشبهة - «قدير» - الدالة على الاتصاف بالقدرة.

القرآن

{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩)} [البقرة : ١٤٩]

التفسير:

---

(١) أخرجه مسلم ص٧١٢، كتاب الإيمان، باب ٨٣، آخر أهل النار خروجاً، رقم الحديث: ٤٦٣ [٣١٠] ١٨٧.

ومن أي مكان خَرَجْتَ -أيها النبي- مسافرًا، وأردت الصلاة، فوجِّه وجهك نحو المسجد الحرام. وإنَّ توجُّهك إليه لهو الحق الثابت من ربك. وما الله بغافل عما تعملونه، وسيجازيكم على ذلك.

قوله تعالى:{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}[البقرة:١٤٩]، معناه: "ومن أيّ موضع خرَجْت إلى أي موضع وجَّهتَ ، فحوِّل يامحمد وَجْهك شطر المسجد الحرام"[١].

قال ابن عثيمين:" أي مستقبلاً له؛ وذلك عند الصلاة"[٢].

قال مقاتل:" يعني الحرم كله فإنه مسجد كله"[٣].

قال البيضاوي:" ومن أي مكان خرجت للسفر {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، إذا صليت"[٤].

و(شطر المسجد) أي جهة المسجد؛ و(المسجد الحرام) هو المسجد الذي فيه الكعبة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام..."[٢]؛ بل لقوله تعالى: {هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله} [الفتح: ٢٥] ؛ ووصِف بالحرام لاحترامه، وتعظيمه[٥].

قوله تعالى:{وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ}[البقرة:١٤٩]، "أي وإن توليك إياه لهو الحق الثابت الموافق للحكمة والمصلحة"[٦].

قال ابن أبي زمنين:" يعني: أن القبلة: الكعبة"[٧].

قال الآلوسي:" أي: الاستقبال أو الصرف أو التولية، [هو الحق] الثابت الموافق للحكمة"[٨].

قال الطبري:اي:"وإنّ التوجه شَطرَه للحق الذي لا شكّ فيه من عند ربك ، فحافظوا عليه ، وأطيعوا الله في توجهكم قِبَلَه"[٩].

قال أبو حيان:" هذا إخبار من الله تعالى بأن استقبال هذه القبلة هو الحق ، أي الثابت الذي لا يعرض له نسخ ولا تبديل"[١٠].

قوله تعالى:{ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[البقرة:١٤٩]، "أي فالله ليس بغافل عن أعمالكم، وسيجازيكم بذلك خير الجزاء"[١١].

---

(١) تفسير الطبري: ١٩٨/٣.
(٢) تفسير انب عثيمين:١٤٩/٢-١٥٠.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤٩/١.
(٤) تفسير البيضاوي:١١٣/١.
(٢) أخرجه البخاري ص٩٢، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة، باب ١: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، حديث رقم ١١٨٩، أخرجه مسلم ص٩٠٩، كتاب الحج، باب ٩٥: فضل المساجد الثلاثة، حديث رقم ٣٣٨٤ [٥١١] ١٣٩٧.
(٥) انظر: تفسير ابن عثيمين:١٥٠/٢.
(٦) تفسير المراغي: ١٦/٢.
(٧) تفسير ابن أبي زمنين: ١٨٧/١.
(٨) روح المعاني: ٤١٥/١.

(٩) تفسير الطبري: ١٩٨/٣.
(١٠) البحر المحيط: ٢٨٢/١.
(١١) تفسير المراغي: ١٦/٢.

قال الطبري:"أي: فإن الله تعالى ذكره لَيس بساهٍ عن أعمالكم ، ولا بغافل عنها ، ولكنه محصيها لكم ، حتى يجازيكم بها يوم القيامة"[^١].

قال المراغي:" ولا يخفى ما في هذا من الوعد والبشارة للمؤمنين بنيل المكافأة على ما يفعلون"[^٢].

قال أبو حيان:" فالجهات كلها بالنسبة إلى البارىء تعالى مستوية ، فكونه خص باستقبال هذه زماناً ، ونسخ ذلك باستقبال جهة أخرى متأبدة ، لا يظهر في ذلك في بادي الرأي إلا أنه تعبد محض. فلم يبق في ذلك إلا امتثال ما أمر الله به ، فأخبر تعالى أنه لا يغفل عن أعمالكم ، بل هو المطلع عليها ، المجازي بالثواب من امتثل أمره ، وبالعقاب من خالفه"[^٣].

وفي قوله تعالى:{ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[البقرة:١٤٩]، قراءتان[^٤]:

إحداهما:{ عَمَّا تَعْمَلُونَ} بالتاء: خطاب للمسلمين.

قال القاسمي:" فهو وعد للمؤمنين"[^٥].

والثانية: {عَمَّا يَعْمَلُونَ} بالياء، وهو قراءة أبو عمرو، خطاب لهؤلاء الذين اعترضوا على النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإن الله تعالى ليس بغافل عنهم؛ بل سوف يجازيهم بما يستحقون.

قال القاسمي:" فهو وعيد للكافرين"[^٦].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: وجوب التوجه إلى المسجد الحرام أينما كان الإنسان؛ لقوله تعالى: {ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام}؛ وسبق ذكر ما يستثنى من ذلك عند قوله تعالى: {قد نرى تقلب وجهك في السماء...} [البقرة: ١٤٤] الآية.

٢- ومنها: تكرار الأمر الهام لتثبيته، والثبات عليه، ودفع المعارضة فيه؛ لأنه كلما كرر كان مقتضاه أن الأمر ثابت محكم يجب الثبوت عليه؛ وكون المسلمين ينقلون من وجهة إلى وجهة في القبلة أمر هام له شأن عظيم؛ ولهذا ارتد من ارتد من الناس حين حوِّلت القبلة.

٣- ومنها: إثبات حرمة المسجد الحرام، وتعظيمه؛ لقوله تعالى: {المسجد الحرام}؛ فالمسجد محترم معظم؛ حتى ما حوله صار محترماً معظماً؛ فالبلد كله آمن حتى الأشجار التي لا إحساس لها آمنة في هذا المكان؛ ولهذا حرم النبي صلى الله عليه وسلم أن يختلى خلاها، أو يعضد شوكها(٢)، أو يقطع شجرها(٣)، كل هذا لاحترام هذا المكان، وتعظيمه.

٤- ومنها: أن التوجه إلى الكعبة هو الحق؛ لقوله تعالى: {وإنه للحق من ربك} فأثبت فيه الحقية مؤكداً بـ{إن}، واللام.

---

[^١]: (١) تفسير الطبري: ١٩٨/٣.
[^٢]: (٢) تفسير المراغي: ١٦/٢.
[^٣]: (٣) البحر المحيط: ٣٨٢/١.
[^٤]: (٤) انظر:تفسير البيضاوي: ١١٣/١، والبحر المحيط: ٣٨٢/١، وتفسير ابن عثيمين/ ٦٧/٢.
[^٥]: (٥) محاسن التأويل:٤٣٠/١.
[^٦]: (٦) محاسن التأويل: ٤٣٠/١.

(٢) راجع البخاري ص١٤٤، كتاب جزاء الصيد، باب ١٠: لا يحل القتال بمكة، حديث رقم ١٨٣٤؛ ومسلماً ص٩٠٣، كتاب الحج، باب ٨٢: تحريم مكة، وتحريم صيدها، وخلاها، وشجرها، ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، حديث رقم ٣٣٠٢ [٤٤٥] ١٣٥٣.

(٣) راجع البخاري ص١٢، كتاب العلم، باب ٣٩: كتابة العلم، حديث رقم ١١٢؛ ومسلماً ص٩٠٤، كتاب الحج، باب ٨٢: تحريم مكة، وتحريم صيدها، وخلاها...، حديث رقم ٣٣٠٦ [٤٤٨] ١٣٥٥...

٥- ومنها: كمال علم الله سبحانه وتعالى، ومراقبته لخلقه؛ لقوله تعالى: {وما الله بغافل عما تعملون}.
٦- ومنها: إضافة العمل إلى الإنسان، فيكون فيه رد على الجبرية؛ لقوله تعالى: {عما تعملون}؛ ولا شك أن الإنسان يضاف إليه عمله؛ وعمله: كسبه - إن كان في الخير - واكتسابه - إن كان في الشر - كما قال تعالى: {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} [البقرة: ٢٨٦] .
والناس في هذه المسألة - أعني مسألة أعمال العباد - ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:
القسم الأول: من يرون أن الإنسان مجبر على العمل؛ لا يفعل شيئاً باختيار أبداً؛ وما فعله الاختياري إلا كفِعله الاضطراري: فمن نزل من السطح على الدرج درجة درجة هو كمن سقط بدون علمه من أعلى السطح؛ وهذا مذهب الجبرية من الجهمية؛ وهو مذهب باطل ترده الأدلة السمعية، والعقلية.
القسم الثاني: من يرون أن الإنسان مستقل بعمله، وأن الله سبحانه وتعالى لا يصرِّف العبد إطلاقاً؛ فالعبد له الحرية الكاملة في عمله، ولا تعلق لمشيئة الله به، ولا تعلق لتقدير الله، وخلقه بعمل الإنسان، وهذا مذهب المعتزلة القدرية؛ وهو مذهب باطل للأدلة السمعية، والعقلية.
وكلا القسمين مع بطلانهما يلزم عليهما لوازم باطلة .
القسم الثالث: يرون أن فعل العبد باختياره؛ وله تعلق بمشيئة الله؛ فمتى فعل العبد الفعل علمنا أن الله تعالى قد شاءه، وقدره؛ وأنه لا يمكن أن يقع في ملك الله ما لا يريد؛ بل كل ما وقع فهو مراد لله مخلوق له؛ ووجه كون فعل العبد مخلوقاً لله: أن الإنسان مخلوق لله؛ وفعله كائن بأمرين: بعزيمة صادقة؛ وقدرة؛ والله عزّ وجلّ هو الذي خلق العزيمة الصادقة، والقدرة؛ فالإنسان بصفاته، وأجزائه، وجميع ما فيه كله مخلوق لله عزّ وجلّ.
هذا القول الوسط هو الذي تجتمع فيه الأدلة جميعاً؛ لأن الذين قالوا: «إن الإنسان مجبر» أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا من أيديهم الدليل الآخر؛ والذين قالوا: «إنه مستقل» أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا الدليل الثاني من أيديهم؛ لكن أهل السنة، والجماعة - والحمد لله - أخذوا بأيديهم بالدليلين؛ وقالوا: الإنسان يفعل باختياره؛ ولكن تصرفه تحت مشيئة الله عزّ وجلّ؛ ولهذا إذا وقع الأمر بغير اختياره رُفع عنه حكمه: فالنائم لا حكم لفعله، ولا لقوله؛ والمكره على الشيء لا حكم لفعله، ولا لقوله؛ بل أبلغ من ذلك: الجاهل بالشيء لا حكم لفعله مع أنه قد قصد الفعل؛ لكنه لجهله يعفى عنه؛ كل ذلك يدل على أن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده.

القرآن

{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)} [البقرة : ١٥٠]

التفسير:
ومن أى مكان خرجت -أيها النبي- فتوجَّه إلى المسجد الحرام، وحيثما كنتم -أيها المسلمون-، بأي قطر من أقطار الأرض فولُّوا وجوهكم نحو المسجد الحرام؛ لكي لا يكون للناس المخالفين لكم احتجاج عليكم بالمخاصمة والمجادلة، بعد هذا التوجه إليه، إلا أهل الظلم والعناد منهم، فسيظلُّون على جدالهم، فلا تخافوهم وخافوني بامتثال أمري، واجتناب نهيي؛ ولكي أتم نعمتي عليكم باختيار أكمل الشرائع لكم، ولعلكم تهتدون إلى الحق والصواب.
سبب النزول:

قال السدي:" كان النبي صلى الله عليه وسلم يُصلي قِبَل بيت المقدس ، فنسختها الكعبة. فلما وُجِّه قبل المسجد الحرام ، اختلف الناس فيها ، فكانوا أصنافًا ، فقال المنافقون : ما بالهم كانوا على قبلة زمانًا ، ثم تركوها وتوجهوا إلى غيرها ؟ وقال المسلمون : ليت شعرَنا عَن إخواننا الذين مَاتوا وهم يصلُّون قبَلَ بيت المقدس! هل تقبَّل الله منا ومنهم ، أوْ لا ؟ وقالت اليهود : إنّ محمدًا اشتاق إلى بلد أبيه ومولده ، ولو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون هو صاحبنا الذي ننتظر! وقال المشركون من أهل مكة : تَحيَّر على محمد دينُهُ ، فتوجه بقبلته إليكم ، وعلم أنكم كنتم أهدى منه ، ويوشك أنْ يدخل في دينكم! فأنزل الله جل ثناؤه في المنافقين : " سَيقول السفهاء من الناس مَا ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها " إلى قوله : " وإنْ كانتْ كبيرةً إلا على الذين هَدى الله " ، وأنزل في الآخرين الآيات بعدها"(١).

قوله تعالى:{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}[البقرة:١٥٠]، أي: و"من أيّ مكان وبُقعة شَخصتَ فخرجت يا محمد ، فولِّ وجهك تلقاء المسجد الحرام"(٢).

قال المراغي:" أي ومن حيث خرجت في أسفارك في المنازل القريبة أو البعيدة ، فولّ وجهك جهة المسجد الحرام"(٣).

قال الصابوني:" أي من أيّ مكان خرجت إليه للسفر فتوجه بوجهك في صلاتك جهة الكعبة"(٤).

وفي تكرار قوله تعالى : {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}[البقرة:١٥٠]، قولان(٥):

أحدهما: أن هذا تأكيد للأمر باستقبال الكعبة واهتمام بها ، لأن موقع التحويل كان صعبا في نفوسهم جدا ، فأكد الأمر ليرى الناس الاهتمام به فيخف عليهم وتسكن نفوسهم إليه.

والثاني: أنه أراد بالأول : ولّ وجهك شطر الكعبة، أي عاينها إذا صليت تلقاءها. ثم قال : {وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ} معاشر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة وغيرها {فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}، ثم قال {ومن حيث خرجت}، يعني: وجوب الاستقبال في الأسفار ، فكان هذا أمرا بالتوجه إلى الكعبة في جميع المواضع من نواحي الأرض.

والقول الثاني أحسن من الأول، لأن فيه حمل كل آية على فائدة والله تعالى أعلم.

قال الواحدي:" إنما كرر هذا؛ لأن هذا من مواضع التوكيد؛ لأجل النسخ الذي نُقلوا فيه من جهة إلى جهة للتقرير"(٦).

قال الصابوني:" وفائدة هذا التكرار أن القبلة كان أول ما نسخ من الأحكام الشرعية، فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل والتقرير وإزالة الشبهة"(٧).

قوله تعالى:{وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}[البقرة:١٥٠]، " أي: وحيثما كنتم أيها المؤمنون فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة"(٨).

---

(١) أخرجه الطبري(٢٢٠٤):ص٣/١٥٧-١٥٨.
(٢) تفسير الطبري: ١٩٩/٣.
(٣) تفسير المراغي: ١٦/٢.
(٤) صفوة التفاسير:٩٢/١.
(٥) تفسير القطربي: ١٦٨/٢.
(٦) التفسير البسيط: ٤٠٦/٣.
(٧) صفوة التفاسير:٩٢/١.
(٨) صفوة التفاسير:٩٠/١.

قال المراغي: أي:" وحيثما كنتم من أقطار الأرض مقيمين أو مسافرين وصليتم فولوا وجوهكم شطره"[١].

قوله تعالى:{لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ}[البقرة:١٥٠]، " أي لئلا يكون لأولئك المحاجين في أمر القبلة وهم أهل الكتاب والمشركون وتبعهما المنافقون - حجة وسلطان عليكم"[٢].

قال أبو العالية:" يعني به أهل الكتاب حين قالوا: صرف محمد صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة، وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه، وكان حجتهم على النبي صلى الله عليه وسلم عند انصرافه إلى البيت الحرام، أن قالوا: سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا"[٣].

قال ابن أبي حاتم:" وروي عن مجاهد، وعطاء، والسدي وقتادة والربيع بن أنس والضحاك، قالوا: قد رجعت إلى قبلتنا"[٤].

قال ابن عطية: "المعنى: عرفتكم وجه الصواب في قبلتكم"[٥].

قال الزمخشري: "معناه: لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا للمعاندين منهم القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه وحباً لبلده، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء"[٦].

قال الزجاج:" أي: قد عرفكم الله أمر الاحتجاج في القبلة مما قد بيناه لئلا يكون للناس على الله حجة في قوله: {ولكل وجهة هو موليها}"[٧].

قال الصابوني:" أي عرّفكم أمر القبلة لئلا يحتج عليكم اليهود فيقولوا: يجحد ديننا ويتبع قبلتنا فتكون لها حجة عليكم أو كقول المشركين: يدعى محمد ملة إبراهيم ويخالف قبلته "[٨].

واختلف في المعنيين بـ(الناس)، في الآية على ثلاثة أقوال:[٩]:

أحدها: أنهم مشركو العرب. قاله مجاهد[١٠]، وعطاء[١١].

وحجتهم قولهم : "قدر رجعتت إلى قبلتنا!"[١٢]، وقد أجيبوا عن هذا بقوله : {قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [البقرة : ١٤٢].

الثاني: أنهم أهل الكتاب. قاله قتادة[١٣]، والربيع[١٤].

وفي حجتهم قولان:

القول الأول: "أنهم كانوا يقولون: ما درَى مُحمد وأصحابهُ أين قبلتهم حتى هديناهم نحن! وقولهم : يُخالفنا مُحمد في ديننا ويتبع قبلتنا! فهي الحجة التي كانوا يحتجُّون بها عَلى رسول الله

---

(١) تفسير المراغي: ١٦/٢.
(٢) تفسير المراغي: ١٧/٢.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٨٧):ص٢٥٨/١.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم:٢٥٨/١.
(٥) المحرر الوجيز: ٢٢٥/١.
(٦) الكشاف: ٢٠٦/١.
(٧) معاني القرآن: ٢٢٦/١.
(٨) صفوة التفاسير:٩٢/١.
(٩) انظر: تفسير الطبري: ١٩٩/٣-٢٠٠، وتفسير القرطبي: ١٦٩/٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٣٠٠)، و(٢٣-١)، و(٢٣٠٢):ص٢٠٢/٣.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٣٠٦):ص٢٠٣/٣.
(١٢) تفسير الطبري(٢٢٩٢):ص١٩٩/٣.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٢٩٢):ص١٩٩/٣.
(١٤)انظر: تفسير الطبري(٢٢٩٣):ص١٩٩/٣-٢٠٠.

صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، على وجه الخصومة منهم لهم ، والتمويه منهم بها على الجهالّ وأهل الغباء من المشركين"(١). قاله الطبري.

القول الثاني:" ذلك أنهم كانوا قد عرفوا أن الكعبة قبلة إبراهيم، وقد كانوا وجدوا في التوراة أن محمدا سيحول إليها، فحوله الله إليها لئلا يكون لهم حجة فيحتجون. بأن هذا النبي الذى نجده في كتابنا سيحول إليها ولم تحول أنت فلما حول النبي صلى الله عليه وسلم ذهبت حجتهم ثم قال: إلا الذين ظلموا منهم يعني إلا أن يظلموكم فيكتموا ما عرفوا"(٢). قاله أبو روق.

الثالث: أنهم المنافقون. إذ قالوا:" إن هذا الرجل لا يثبت على دينه؛ ولو كان نبياً حقاً لثبت على دينه"(٣).

قال ابن عطية:" وقوله: {لِلنَّاسِ}، عموم في اليهود والعرب وغيرهم"(٤).

قال ابن عثيمين:"وهذه عادة أهل الباطل يموِّهون، ويقلبون الحق باطلاً؛ لأنهم يريدون غرضاً سيئاً؛ بل إن تحوله إلى استقبال الكعبة مع هذه الاعتراضات، والمضايقات دليل على أنه رسول الله حقاً فاعل ما يؤمر به"(٥).

و(الحجة): "من الحج الذي هو القصد، لأنها مقصودة للمخاصم، ومنه: المحجّة: لأنها تقصد بالسلوك. والمخاصمةُ يقال لها: المحاجّة؛ لقصد كل واحد من الخصمين إلى إقامة بينته وإبطال ما في يد صاحبه" (٦).

قال الطبري:"وإنما (الحجة) في هذا الموضع: الخصومة والجدال"(٧).

قال الثعلبي:" ومعنى (الحجة) في [الآية]: الخصومة والجدل، والدعوى بالباطل كقوله { لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ}[الشورى:١٥]: أي لا خصومة، وقوله { أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ}[البقرة:١٣٩]، وليحاجوكم وتحاجون وحاججتم كلها بمعنى المجادلة والمخاصمة، لا بمعنى الدليل والبرهان"(٨).

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين؟ قلت: لأنهم يسوقونه سياق الحجة"(٩).

وقوله تعالى: {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ}[البقرة:١٥٠]، قرأ نافع وحده بتسهيل الهمزة، وقرأ الباقون {لِئَلَّا}، بالهمز(١٠).

قوله تعالى: {إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}[البقرة:١٥٠]، أي:" لكن الذين ظلموا منهم لن تنجوا من محاجتهم، ومخاصمتهم"(١١).

قال الحسن:" يقول: لن يحتج عليكم بذلك إلا ظالم، فولوا وجوهكم شطره، لئلا يحتج عليكم الظلمة"(١).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٠٠/٣.
(٢) تفسير الثعلبي:١٦/٢.
(٣) تفسير ابن عثيمين:١٥٤/٢.
(٤) المحرر الوجيز: ٢٢٥/١.
(٥) تفسير ابن عثيمين:١٥٥/١.
(٦) التفسير البسيط: ٤٠٦/٣، وانظر: "المفردات" ص ١١٥، "لسان العرب" ٢/ ٧٧٩ (حجج).
(٧) تفسير الطبري: ٢٠١/٣.
(٨) تفسير الثعلبي:١٥/٢.

(٩) الكشاف: ٢٠٦/١.
(١٠) المحرر الوجيز: ٢٢٥/١.
(١١) تفسير ابن عثيمين:١٥٥/١.

قال أبو العالية:" يعني: مشركي قريش، يقول: إنهم سيحتجون عليكم بذلك"[٢]. وروي عن مجاهد، وعطاء وقتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك[٣].

قال الزجاج:" المعنى: "إلا من ظلم باحتجاجه فيما قد وضح له"[٤].

قال الزمخشري:" وهم أهل مكة حين يقولون: بدا له فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم"[٥].

قال ابن عثيمين:" المراد بهم المعاندون المكابرون الذين لا يَرْعَوون للحق مهما تبين"[٦].

قال المراغي:" أي لكن الذين ظلموا منهم بالعناد، فإن لهم عليكم حجة ، إذ يقول اليهود : ما تحوّل إلى الكعبة إلا ميلا لدين قومه ، وحبّا لبلده ، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء قبله ، ويقول المشركون : رجع إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا ، ويقول المنافقون : إنه متردد مضطرب لا يثبت على قبلة ، إلى نحو هذا من الآراء التي سداها ولحمتها الهوى ، ولا مرجع فيها لحجة وبرهان ، بل هى جدل في دين الله وشرعه بلا هدى ولا كتاب منير ، ومثل هؤلاء لا يقام لقولهم وزن"[٧].

واختلف في نوع الاستثناء في قوله تعالى: {إلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}[البقرة:١٥٠]، وفيه ثلاثة أوجه[٨]:

أحدها: أنه استثناء متصل. فيكون {الذين ظلموا} مستثنى من (الناس) ؛ لأن الناس منهم ظالم؛ ومنهم من ليس بظالم.

قال ابن عطية:" والمعنى أنه لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة للذين ظلموا، يعني اليهود وغيرهم من كل من تكلم في النازلة في قولهم ما وَلَّاهُمْ استهزاء، وفي قولهم: تحير محمد في دينه، وغير ذلك من الأقوال التي لم تنبعث إلا من عابد وثن أو من يهودي أو من منافق"[٩].

وممن صحّح الإستثناء على ظاهره: أبو العالية[١٠]، ومجاهد[١١]، وعطاء[١٢]، وقتادة[١٣]، وقتادة[١٣]، والربيع[١٤]، والسدي[١٥]، وأبو روق[١٦][١٧]، وقال به أبو حيان[١٨]، ونسبه إلى ابن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٨٨):ص٢٥٩/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٨٩):ص٢٥٩/١.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٥٩/١.
(٤) معاني القرآن: ٢٢٧/١.
(٥) الكشاف: ٢٠٦/١.
(٦) تفسير ابن عثيمين:١٥٥/١.
(٧) تفسير المراغي: ١٧/٢.
(٨)انظر: التفسير البسيط: ٤٠٦/٣، وتفسير ابن عثيمين: ٦٩/٢.
(٩) المحرر الوجيز:٢٢٥/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣٨٩):ص٢٥٩/١.
(١١)انظر: تفسير الطبري(٢٣٠٠)، و(٢٣٠١)، و(٢٣٠٢):٢٠٢/٣، تفسير ابن أبي حاتم:٢٥٩/١.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٣٠٦):٢٠٣/٣، وتفسير ابن أبي حاتم:٢٥٩/١.
(١٣)انظر: تفسير الطبري(٢٣٠٣):٢٠٢/٣، وتفسير ابن أبي حاتم:٢٥٩/١.
(١٤)انظر: تفسير الطبري(٢٣٠٤):٢٠٢/٣، وتفسير ابن أبي حاتم:٢٥٩/١.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٢٣٠٥):ص٢٠٢/٢.
(١٦)هو عطية بن الحارث الهمداني الكوفي صدوق، صاحب تفسير، عده ابن حجر من طبقة صغار التابعين، ينظر: "تقريب التهذيب" ص ٣٩٣ (٤٦١٥)، "الجرح والتعديل" ٣/ ٣٨٢.
(١٧) انظر: تفسير الثعلبي:١٦/٢.
(١٨) انظر: البحر المحيط: ٣٨٤/١.

عباس[١]، قال: "واختاره الطبري[٢]، وبدأ به ابن عطية[٣]، ولم يذكر الزمخشري[٤] غيره، وذلك أنه متى أمكن الاستثناء المتصل إمكانًا حسنًا كان أولى من غيره"[٥].

الثاني: أنه منقطع، و(إلا) بمعنى (لكن)؛ يعني: لئلا يكون للناس عليكم حجة؛ لكن الذين ظلموا منهم لن تنجوا من محاجتهم، ومخاصمتهم. وهذا مذهب الأخفش[٦]، والمؤرج[٧]، والفراء[٨].

وهذا "كقوله تعالى: {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ} [النساء: ١٥٧] يعني: لكن الذين يتبعون الظن {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} [الليل:١٩ - ٢٠]، يعني: لكن يبتغي، فيكون منقطعًا من الكلام الأول"[٩].

الثالث: وقيل أن (إلا) ههنا بمعنى (الواو)، وهذا مذهب أبو عبيدة[١٠]، ومعمر بن المثنى[١١].

والمعنى : والذين ظلموا لا يكون لهم أيضا حجة، فهو استثناء بمعنى (الواو) ، ومنه قول الشاعر[١٢]:

ما بالمدينة دار غير واحدة ... دار الخليفة إلا دار مروانا

كأنه قال : إلا دار الخليفة ودار مروان.

وأنشدوا قول الآخر[١٣]:

كل أخٍ مفارقُهُ أخوه ... لعَمْرُ أبيك إلا الفرقدان

فقال: أراد: والفرقدان أيضًا يفترقان.

وقول الشاعر[١٤]:

وأرى لها دارًا بأغْدِرَةِ السِّيـ ... ـدَانِ لم يَدْرُس لها رَسْمُ

إلّا رَمَادًا خامدًا دَفَعَتْ ... عنهُ الرِّياحَ خَوَالِد سُحْمُ

أراد: أرى دارًا ورمادًا[١٥].

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٣٨٤/١.

(٢) انظر: تفسير الطبري:٢٠٤/٣.

(٣) انظر: المحرر الوجيز: ٢٢٥/١.

(٤) انظر: الكشاف: ٢٠٦/١.

(٥) البحر المحيط: ٣٨٤/١.

(٦) انظر: معاني القرآن: ١٦٢/١.

(٧) البيت نسب فى كتاب سيبويه ١/ ٣٧٣ إلى الفرزدق. وانظر فى تخريج إعرابه السيرافي على الكتاب ٣/ ٣٠٦ من التيمورية.

(٨) معاني القرآن:٨٩/١.

(٩) التفسير البسيط: ٤١٠/٣.

(١٠) انظر: تفسير الثعلبي:١٦/٢.

(١١) انظر: "مجاز القرآن" لأبي عبيدة ١/ ٦٠ - ٦١، وتفسير الثعلبي:١٦/٢، والتفسير البسيط: ٤١٢/٣.

(١٢) انظر: التفسير البسيط: ٤٠٩/٣.

(١٣)البيت. نسب لعمرو بن معدي كرب، ينظر: "ديوانه" ص١٧٨، "الكتاب" ٢/ ٣٣٤، "المؤتلف والمختلف" ص ١٥١، ولعمرو أو لحضرمي في "خزانة الأدب" ٣/ ٤٢١. وهو بلا نسبة في "تفسير الثعلبي" ١/ ١٢٥٥، "لسان العرب" ٦/ ٣٤٠٢ "فرقد". والفرقدان: نجمان في السماء لا يغربان.

(١٤)البيت للمُخَبَّل السعدي، ينظر: "ديوانه" ص ٣١٢، "تفسير الثعلبي" ١/ ١٢٥٦، "لسان العرب" ٢/ ١٢٢٥ (خلد)، "المفضليات" ص ١١٣ - ١١٤. والأغدرة: جمع غدير، السِّيدان: أرض لبني سعد. الخوالد: البواقي وعنى بها: الأثافي. سحم: ذات لون يضرب إلى السواد.

(١٥) انظر: معاني القرآن للأخفش: ٥٢/١.

وكذا قيل في قوله تعالى : {إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [التين : ٦] أي الذين آمنوا[١]،

قال الثعلبي:" يؤيد هذا القول ما روى أبو بكر بن مجاهد عن بعضهم إنه قرأ بعضهم: {إلى الذين ظلموا}، مخففا يعني: مع الذين ظلموا"[٢].

ومعنى الآية على هذا القول: "لئلا يكون للناس، يعني اليهود عليكم حجة في أمر الكعبة حيث لا يستقبلونها وهي قبلة إبراهيم فيقولون لكم تزعمون إنكم على دين إبراهيم ولم تستقبلوا قبلته ولا للذين ظلموا وهم مشركوا مكة لأنهم قالوا: إن الكعبة قبلة جدنا إبراهيم فما بال محمد تحول عنها فلا يصلي إليها ويصلي إلى قبلة اليهود"[٣].

وأبطل الزجاج والفراء هذا الوجه الثالث:

فقال الزجاج: "هذا خطأ عند الحذاق من النحويين ، وفيه بطلان المعاني"[٤].

وقال الفراء:" هذا صواب فِي التفسير، خطأ فِي العربية، إنما تكون (إلا) بمنزلة (الواو)، إذا عطفتها على استثناء قبلها، فهنالك تصير بمنزلة (الواو)"[٥].

والأقرب - والله أعلم - أن الاستثناء منقطع؛ "لأن قوله تعالى: {لئلا يكون للناس عليكم حجة} هذا عام شامل؛ لكن من ظلَم من اليهود، أو المشركين، فإنه لن يرعوي بهذه الحكمة التي أبانها الله عزّ وجلّ"[٦].

وقرأ زيد بن على رضى اللّه عنهما: {ألا الذين ظلموا منهم}، على أنّ ألا للتنبيه ووقف على {حجة}، ثم استأنف منبها[٧].

قوله تعالى: {فَلا تَخْشَوْهُمْ}[البقرة:١٥٠]، أي:" فلا تخافوهم"[٨].

قال السدي:" يقول: لا تخشوا أن أردَّكم في دينهم"[٩].

قال الزمخشري:أي:" فلا تخافوا مطاعنهم في قبلتكم فإنهم لا يضرونكم"[١٠].

قال الثعلبي: أي:فلا تخافوهم" في انصرافكم إلى الكعبة وفي تظاهرهم عليكم في المحاجة والمجاوبة فاني وليكم أظهركم عليهم بالحجة والنصرة"[١١].

قال الواحدي:أي:" لا تخشوهم في انصرافكم إلى الكعبة، وفي تظاهرهم عليكم في المحاجّة والمحاربة"[١٢].

قال المراغي:" أي فلا تخشوا الظالمين في توجهكم إلى الكعبة ،لأن كلامهم لا يستند إلى حجة من برهان عقلى ولا هدى سماوى"[١٣].

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي: ١٦/٢، ومعاني القرآن للفراء: ٩٠/١، وتفسير القرطبي: ١٦٩/٢.
(٢) تفسير الثعلبي:١٧/٢.
(٣) تفسير الثعلبي:١٧/٢.
(٤)تفسير القرطبي: ١٦٩/٢. ولم أجد قول الزجاج في معاني القرآن.
(٥) معاني القرآن: ٨٩/١.
(٦) تفسير ابن عثيمين: ٦٩/٢.
(٧) انظر: الكشاف: ٢٠٦/١.
(٨) صفوة التفاسير:٩٢/١.
(٩) أخرجه الطبري(٢٣٠٨):ص٣/ ٢٠٧، وابن أبي حاتم(١٣٩٠):ص٢٥٩/١.
(١٠) الكشاف: ٢٠٦/١.
(١١) تفسير الثعلبي:١٧/٢.
(١٢) التفسير البسيط: ٤١٥/٣.
(١٣) تفسير المراغي: ١٧/٢.

قال ابن كثيرأي:"لا تخشوا شُبَهَ الظلمة المتعنتين"[1].
قال أبو السعود:أي:" فإن مطاعنهم لاتضركم شيئا"[2].
قال ابن عثيمين:" يعني مهما قال الذين ظلموا من كلام، ومهما قالوا من زخارف القول، ومهما ضايقوا من المضايقات فلا تخشوهم"[3].
قال الشيخ السعدي: " لأن حجتهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه، وهذا بخلاف صاحب الحق، فإن للحق صولة وعزا، يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته، التي هي أصل كل خير، فمن لم يخش الله، لم ينكف عن معصيته، ولم يمتثل أمره"[4].
قوله تعالى:{وَاخْشَوْنِي}[البقرة:١٥٠]، أي:"وخافوني"[5].
قال أبو السعود:أي:" فلا تخالفوا أمرى"[6].
قال الزمخشري:أي:" فلا تخالفوا أمرى وما رأيته مصلحة لكم"[7].
قال ابن كثير:أي:"وأفْرِدُوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه"[8].
قال ابن عثيمين:" الأمر هنا للوجوب بلا شك؛ الواجب على المرء أن يخشى الله وحده."[9].
قال المراغي:أي:" فلا تخالفوا ما جاءكم به رسولى عنى ، فأنا القادر على جزائكم بما وعدتكم"[10].
قال أهل العلم:"وفي هذا إيماء إلى أن صاحب الحق هو الذي يخشى جانبه ، وأن المبطل ينبغي ألا يؤبه له ، فإن الحق دائما يعلو ، وما آفة الحق إلا ترك أهله له ، وخوفهم من أهل الباطل"[11].
قال القرطبي: "الخشية أصلها طمأنينة في القلب تبعث على التوقي، والخوف : فزع القلب تخف له الأعضاء ، ولخفة الأعضاء به سمي خوفا، ومعنى الآية التحقير لكل من سوى الله تعالى، والأمر بإطراح أمرهم ومراعاة أمر الله تعالى[12].
قوله تعالى: {وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ}[البقرة:١٥٠]، " أي وأمرتكم بما مر، لإتمام النعمة عليكم لما أنه نعمة جليلة"[13].
قال الزمخشري:أي:" ولإتمامى النعمة عليكم، أمرتكم بذلك،"[14].
قال ابن كثير: أي : "ولأتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها"[1].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤٦٤/١.
(٢) تفسير أبي السعود: ١٧٨/١.
(٣) تفسير ابن عثيمين:١٥٥/١-١٥٦.
(٤) تفسير السعدي: ٧٣/١.
(٥) صفوة التفاسير:٩٢/١.
(٦) تفسير أبي السعود: ١٧٨/١.
(٧) الكشاف: ٢٠٦/١.
(٨) تفسير ابن كثير: ٤٦٤/١.
(٩) تفسير ابن عثيمين:١٥٦/١.
(١٠) تفسير المراغي: ١٧/٢.
(١١) تفسير المراغي: ١٧/٢.
(١٢) تفسير القرطبي: ١٧٠/٢.
(١٣) تفسير أبي السعود: ١٧٨/١.
(١٤) الكشاف: ٢٠٦/١.

قال الصابوني:" أي أتمّ فضلي عليكم بالهداية إلى قبلة أبيكم إبراهيم والتوفيق لسعادة الدارين"[٢].

قال الثعلبي:أي:" ولكن أتم نعمتي بهدايتي اياكم إلى قبلة إبراهيم فتتم لكم الملة الحنيفية"[٣].

قال ابن عثيمين:أي" في هذه الشريعة الخاصة ـــ وهي استقبال الكعبة بدلاً عن بيت المقدس"[٤].

قال المراغي:" بإعطائكم قبلة مستقلة في بيت ربكم الذي وضع قواعده جدكم ، وجعل الأمم الأخرى تبعا لكم فيه ، وطهره من عبادة الأوثان والأصنام ، ووجّه شعوب العالم جميعا إلى بلادكم ، وفي ذلك من الفوائد المادية والمعنوية ما يجلّ حصره وفي الحق أن كل أمر من الله فامتثاله نعمة ، وتكون النعمة أتمّ ، والمنة أكمل ، إذا كان فيه حكمة ظاهرة ، وشرف للأمة ، وأثر حميد نافع لها"[٥].

قال القرطبي: "أي ولأن أتم، قاله الأخفش. وقيل : مقطوع في موضع رفع بالابتداء والخبر مضمر ، التقدير : ولأتم نعمتي عليكم عرفتكم قبلتي ، قاله الزجاج. وإتمام النعمة الهداية إلى القبلة ، وقيل : دخول الجنة. قال سعيد بن جبير : ولم تتم نعمة الله على عبد حتى يدخله الجنة[٦].

وإتمام الشيء: بلوغ غايته؛ والغالب أنه يكون في الكمال؛ و «النعمة» هي ما ينعَم به الإنسان؛ ويقال: «نِعمة» بكسر النون؛ ويقال: «نَعمة» بالفتح؛ لكن الغالب في نعمة الخير أن تكون بالكسر؛ و«النَّعمة» بالفتح: التنعم من غير شكر، كما قال تعالى: {ونعمة كانوا فيها فاكهين} [الدخان: ٢٧] ، وقال تعالى: {وذرني والمكذبين أولي النَّعمة} [المزمل: ١ونزلت هذه الآية في أول الهجرة عند تحويل القبلة - يعني في السنة الثانية - ولا يعارضها قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي} [المائدة: ٣] ؛ وقد نزلت في يوم عرفة في حجة الوداع؛ لأن المراد في آية المائدة: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي} الإتمام العام في كل الشريعة؛ أما هنا: {ولأتم نعمتي عليكم} [البقرة: ١٥٠] : في هذه الشريعة الخاصة - وهي استقبال الكعبة بدلاً عن بيت المقدس؛ لأنه سبق أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقلب وجهه في السماء ينتظر متى يؤمر بالتوجه إلى الكعبة؛ فلا شك أنه من نعمة الله عزّ وجلّ أن أنعم على المسلمين بأن يتجهوا إلى هذا البيت الذي هو أول بيت وضع للناس، والذي - كما قال بعض أهل العلم - هو قبلة جميع الأنبياء، كما ذكره شيخ الإسلام - رحمه الله - ويحتمل وجهاً آخر في الجمع بين الآيتين: بأن هذه الآية جاءت بصيغة المضارع الدال على الاستمرار؛ وآية المائدة بصيغة الماضي الدال على الانتهاء[٧].

وقد أضاف الله سبحانه وتعالى النعمة إليه؛ لأنه عزّ وجلّ صاحبها: هو الذي يسديها، ويوليِها على عباده؛ ولولا نعم الله العظيمة ما بقي الناس طرفة عين؛ وانظر إلى قوله تعالى:

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤٦٤/١.
(٢) صفوة التفاسير:٩٢/١-٩٣.
(٣) تفسير الثعلبي:١٧/٢.
(٤) تفسير ابن عثيمين:١٥٧/٢.
(٥) تفسير المراغي: ١٨/٢.
(٦) تفسير القرطبي: ١٧٠/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٦٩/٢.

{إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم} [الفاتحة] ؛ في النعمة قال: {أنعمت عليهم}؛ لأن النعمة من الله وحده، كما قال تعالى: {وما بكم من نعمة فمن الله} [النحل: ٥٣] ؛ وأما الغضب على المخالف في دين الله فيكون من الله، ومن أولياء الله من الرسل، وأتباعهم(١).

قال الواحدي :"قال عطاء: عن ابن عباس: {وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ} يريد: في الدنيا والآخرة، أما الدنيا: فأنصركم على عدوكم، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأولادهم، وأما في الآخرة: ففي رحمتي وجنتي، وأزوجكم من الحور العين "(٢).

قوله تعالى:{وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[البقرة:١٥٠]، أي:" ولإرادتي اهتدائكم لما أنه صراط مستقيم مؤد إلى سعادةِ الدَّارين"(٣).

قال ابن كثير: أي : "إلى ما ضَلّت عنه الأمم هديناكم إليه، وخَصصْناكم به ، ولهذا كانت هذه الأمة أشرفَ الأمم وأفضلها(٤).

قال الزمخشري: أي" ولإرادتى اهتداءكم أمرتكم بذلك"(٥).

قال المراغي:" أي وليعدّكم بذلك إلى الاهتداء بالثبات على الحق"(٦).

قال الشيخ السعدي: "أي: تعلمون الحق، وتعملون به، فالله تبارك وتعالى - من رحمته - بالعباد، قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبيين، حتى إن من جملة ذلك أنه يقيض للحق، المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها تتبين الأشياء، فلولا الليل، ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح، ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحا ظاهرا، فلله الحمد على ذلك"(٧).

قال ابن عثيمين:" و{لعل} هنا للتعليل؛ أي: تكتسبون علماً، وعملاً؛ وهذه هي العلة الثانية؛ العلة الأولى: {لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم}؛ والعلة الثانية: {ولأتم نعمتي عليكم والثالثة: {ولعلكم تهتدون}؛ وسيأتي بيان أنواع الهداية.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: تكرير الأمر الهام؛ وذلك لتثبيته، وتَسرِّ به النفوس، وبيان أهميته.

٢- ومنها: وجوب استقبال الكعبة أينما كان الإنسان؛ قال أهل العلم: من أمكنه مشاهدة الكعبة فالواجب إصابة عينها؛ ومن لم تمكنه كفى استقبال جهتها؛ لقوله تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم}؛ وسبق ذكر ما يستثنى من ذلك عند قوله تعالى: {قد نرى تقلب وجهك في السماء} [البقرة: ١٤٤] الآية.

٣- ومنها: دفع ملامة اللائمين ما أمكن؛ تعالى: {لئلا يكون للناس عليكم حجة}.

---

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٧٠/٢.
(٢) التفسير البسيط: ٤١٥/٣.
(٣) تفسير أبي السعود: ١٧٨/١.
(٤) تفسير ابن كثير: ٤٦٤/١.
(٥) الكشاف: ٢٠٦/١.
(٦) تفسير المراغي: ١٨/٢.
(٧) تفسير السعدي: ٧٣/١,

٤- ومنها: أن الظالم لا يدفع ملامته شيء؛ بمعنى أنه سيلوم وإن لم يكن محل لوم؛ لقوله تعالى: {إلا الذين ظلموا منهم}.
٥- ومنها: أن أهل الباطل يحاجون في الحق لإبطاله؛ ولكن حججهم باطلة.
ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يعرف شبه المخالفين التي يدعونها حججاً لِيَنْقَضَّ عليهم منها، فيبطلها؛ قال الله تعالى: {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون} [الأنبياء: ١٨] .
٦- ومن فوائد الآية: وجوب تنفيذ شريعة الله عزّ وجلّ، وألا يخشى الإنسان لومة لائم.
٧- ومنها: وجوب خشية الله تعالى؛ لأنه هو الذي بيده النفع، والضرر.
٨- ومنها: نعمة الله - تبارك وتعالى - على هذه الأمة، وفضله، وإحسانه؛ لقوله تعالى: {ولأتم نعمتي عليكم}.
٩- ومنها: إثبات حكمة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {ولأتم... ولعلكم تهتدون}.
١٠- ومنها: أن تنفيذ أوامر الله، وخشيته سبب للهداية؛ والهداية نوعان: هداية علمية؛ وهداية عملية؛ ويقال: هداية الإرشاد؛ وهداية التوفيق.
فـ«الهداية العلمية» معناها أن الله يفتح على الإنسان من العلم ما يحتاج إليه لأمور دينه ودنياه.
و«الهداية العملية» أن يوفق للعمل بهذا العلم.
الأولى: وسيلة، والثانية: غاية؛ ولهذا لا خير في علم بدون عمل؛ بل إن العلم بدون عمل يكون وبالاً على صاحبه؛ والهداية هنا شاملة للعلمية، والعملية؛ ووجه كونها شاملة: أنهم لم يعلموا أن مرضاة الله بالتوجه إلى الكعبة إلا بما علمهم الله؛ ثم إن الله وفقهم للعمل به؛ فلم يمانعوا أبداً؛ بل إن أهل قباء أتاهم الخبر وهم يصلون صلاة الفجر وكانوا متجهين إلى بيت المقدس، فاستداروا إلى الكعبة؛ فصار الإمام نحو الجنوب، والمأمومون نحو الشمال؛ هذه هداية عملية عظيمة؛ لأن انتقال الإنسان إلى ما أمره الله به بهذه السهولة مع توقع المعارضات، والمضايقات يدل على قوة إيمانهم، وثقتهم بربهم سبحانه وتعالى؛ وهكذا يجب على كل مؤمن إذا جاء أمر الله أن يمتثل الأمر؛ وسيجعل الله له من أمره يسراً؛ لأن تقوى الله فيها تيسير الأمور؛ لقوله تعالى: {ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً}.
١١- ومنها: إثبات الحكمة في أفعال الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {ولعلكم تهتدون}.

القرآن

{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)} [البقرة : ١٥١]

التفسير:

كما أنعمنا عليكم باستقبال الكعبة أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، ويطهركم من دنس الشرك وسوء الأخلاق، ويعلمكم الكتاب والسنة وأحكام الشريعة، ويعلمكم من أخبار الأنبياء، وقصص الأمم السابقة ما كنتم تجهلونه.

قوله تعالى:{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً}[البقرة:١٥١]، أي:" كما اتممت عليكم نعمتي كذلك أرسلت فيكم رسولاً منكم"[١].

(١) صفوة التفاسير:٩٤/١.

قال مقاتل:" يعنى محمدا- صلى الله عليه وسلم-"(١)، وروي عن ابي العالية(٢)، والربيع بن أنس(٣) مثل ذلك.

قال أبو السعود: أي"كإتمامي لنعمتي عليكم بإرسال رسولٍ كائنٍ منكم فإن"(٤).

قال البيضاوي:" أي ولأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة، أو في الآخرة كما أتممتها بإرسال رسول منكم، أو بما بعده كما ذكرتكم بالإرسال فاذكروني"(٥).

قال ابن عثيمين:" هذه أيضاً منّة رابعة وجهت إلى المؤمنين؛ والثلاث قبلها هي: قوله تعالى: {لئلا يكون للناس عليكم حجة} [البقرة: ١٥٠] ، وقوله تعالى: {ولأتم نعمتي عليكم} [البقرة: ١٥٠] ، وقوله تعالى: {ولعلكم تهتدون} [البقرة: ١٥٠]"(٦).

و(الكاف) في قوله تعالى:{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً}[البقرة:١٥١]، للتشبيه(٧)، وتحتاج إلى شيء يرجع إليه، وللعلماء فيه أقوال(٨):

أحدها: أنها ترجع إلى ما قبلها، ومعناه: ولأتم نعمتي عليكم كما أرسلنا فيكم رسولا، وفيه وجوه(٩):

الوجه الأول: أنه راجع إلى قوله: {ولاتم نعمتى عليكم} [البقرة: ١٥٠]، أي ولأتم نعمتي عليكم في الدنيا بحصول الشرف، وفي الآخرة بالفوز بالثواب، كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول.

قال الثعلبي:" فيكون إرسال الرسول شرطا للخشية مزيدا بإتمام النعمة"(١٠).

الوجه الثاني: أن إبراهيم عليه السلام دعى بدعوتين:

الأولى: قوله: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة : ١٢٨]، فهذه الدعوة الأولى.

والثانية قوله: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ} [البقرة : ١٢٩].

فبعث الله الرسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم ووعد في هذه الآية أن يجيب الدعوة الثانية أن يجعل من ذريته أمة مسلمة لك فمعنى الآية: ولأتم نعمتي عليكم: ببيان شرائع ملتكم الحنيفية وأهديكم لدين خليلي إبراهيم، كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يعني فكما أجبت دعوته بانبعاث الرسول كذلك أجبت دعوته بأن أهديكم لدينه وأجعلكم مسلمين(١١).

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٠/١.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣٩٢):ص٢٥٩/١.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٩/١.
(٤) تفسير أبي السعود: ١٧٨/١.
(٥) تفسير البيضاوي: ١١٤/١.
(٦) تفسير ابن عثيمين:١٦٠/٢.
(٧) انظر: تفسير الثعلبي:١٨/٢.
(٨) انظر: تفسير الثعلبي:١٨/٢، ومفاتيح الغيب: ١٢٢/٤، وتفسير الطبري: ٢٠٨/٣ وما بعدها، وتفسير البغوي: ١٦٦/١-١٦٧.
(٩) انظر: مفاتيح الغيب: ١٢٢/٤.
(١٠) تفسير الثعلبي:١٨/٢.
(١١) تفسير الثعلبي:١٨/٢-١٩.

قال الإمام الطبري: " فبعث الله الرسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم ووعد إجابة الدعوة الثانية بأن يجعل في ذريته أمة مسلمة ، يعني كما أجبت دعوته بأن أهديكم لدينه وأجعلكم مسلمين وأتم نعمتي عليكم ببيان شرائع الملة الحنيفية"[١].

قال الثعلبي:" وهذا على قول من يجعله متصلا بما قبلها وجوابا للآية الأولى"[٢].

وهو إختيار الفراء[٣]، إذ قال:" "وقوله:{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ ...}[البقرة:١٥٠]، جواب لقوله: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [البقرة : ١٥٢] : {كَمَا أَرْسَلْنا}، فهذا جواب مقدم ومؤخر"[٤].

الوجه الثالث: أن التقدير: وكذلك جعلناكم أمة وسطا كما أرسلنا فيكم رسولا، أي كما أرسلنا فيكم رسولا من شأنه وصفته كذا وكذا، فكذلك جعلناكم أمة وسطا. وهو قول أبي مسلم الأصفهاني[٥].

الثاني: أن(الكاف) متعلقة بما بعدها وهو قوله:{فاذكروني أذكركم}، معناه: كما أرسلنا فيكم رسولا منكم فاذكروني[٦]، وهذه الآية خطاب لأهل مكة والعرب، يعني: كما أرسلنا فيكم يا معشر العرب رسولا منكم محمد صلى الله عليه وسلم[٧].

وهذا قول مجاهد[٨]، وعطاء[٩]، وأبي نجيح[١٠]، والكلبي[١١]،ومقاتل[١٢]، والأخفش[١٣]، وابن كيسان[١٤].

واختاره الزجاج، فقال:" والأجود أن تكون (كما) معلقة بقوله عز وجل:{فاذكروني أذكركم}، أي فاذكروني بالشكر والإخلاص كما أرسلنا فيكم"[١٥].

---

(١) تفسير الطبري: ٢٠٨/٣-٢٠٩.
(٢) تفسير الثعلبي:١٩/٢.
(٣) انظر: معاني القرآن: ٩٢/١.
(٤) معاني القرآن: ٩٢/١، أي مقدّم فى اللفظ، مؤخر فى النية. والعبارة فى الطبرىّ ٣/ ٢١٠: «وزعموا أن ذلك من المقدّم الذي معناه التأخير» .
(٥) انظر: مفاتيح الغيب: ١٢٢/٤.
(٦) انظر: معاني القرآن للأخفش: ١٦٣/١، وتفسير الطبري: ٢١٠/٣.
(٧) انظر: تفسير الثعلبي: ١١٩/٢، ومعاني القرآن للزجاج: ٢٢٨/١، قال الزجاج:" ومعنى الآية أنها خطاب لمشركي العرب، فخاطبهم الله عز وجل بما دلهم على إثبات رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال كما أرسلنا فيكم محمدا - صلى الله عليه وسلم - وهو رجل منكم أمي تعلمون أنه لم يتل كتابا قبل رسالته ولا بعدها إلا بما أوحي إليه، وإنكم كنتم أهل جاهلية لا تعلمون الحكمة ولا أخبار الأنبياء، ولا آبائهم ولا أقاصيصهم. فأرسل إليكم النبي - صلى الله عليه وسلم - فأنبأكم بأخبار الأنبياء، وبما كان من أخبارهم مع أممهم، لا يدفع ما أخبر به أهل الكتاب، فكما أنعمت عليكم بإرساله فاذكروني - بتوحيدي، وتصديقه - صلى الله عليه وسلم - ".[معاني القرآن: ٢٢٨/١].
(٨) انظر:تفسير ابن أبي حاتم(١٣٩١):ص٢٥٩/١، وتفسير الطبري(٢٣١٠):ص٢١٠/٤، وتفسير الثعلبي:١٩/٢، ومفاتيح الغيب: ١٢٢/٤.
(٩) انظر: تفسير الثعلبي:١٩/٢، ومفاتيح الغيب: ١٢٢/٤.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٣٠٩):ص٢١٠/٣.
(١١) انظر: تفسير الثعلبي:١٩/٢، ومفاتيح الغيب: ١٢٢/٤.
(١٢) انظر: تفسير الثعلبي:١٩/٢.
(١٣) انظر: معاني القرآن: ١٦٣/١.
(١٤) انظر: تفسير الثعلبي:١٩/٢.
(١٥) معاني القرآن: ٢٢٧/١.

ثم قال:" فإن قال قائل فكيف يكون جواب " (كما أرسلنا) (فاذكروني أذكركم)، فالجواب ههنا إنما يصلح أن يكون جوابين لأن قوله، (فاذكروني) أمر، وقوله (أذكركم) جزاء اذكروني: والمعنى إن تذكروني أذكركم"(١).

وإن قيل: (كما) هل يجوز أن يكون جوابا؟ قلنا: جوّزه الفراء(٢) وجعل لأذكروني جوابين:

أحدهما: {كما}.

والثاني: {أذكركم}، ووجه ذلك لأنه أوجب عليهم الذكر ليذكرهم الله برحمته، ولما سلف من نعمته(٣).

قال الرازي: "والوجه الأول أولى، لأنه قبل الكلام إذا وجد ما يتم به الكلام من غير فصل فتعلقه به أولى"(٤).

وقد ذكروا في وجه التشبيه في قوله{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً}[البقرة:١٥١]، قولان(٥):

الأول: إن قلنا الكاف متعلق بقوله ولأتم نعمتي كان المعنى أن النعمة في أمر القبلة كالنعمة بالرسالة لأنه تعالى يفعل الأصلح.

الثاني: وإن قلنا إنه متعلق بقوله تعالى: {اذكروني} دل ذلك على أن النعمة بالذكر جارية مجرى النعمة بالرسالة.

قوله تعالى:{يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا}[البقرة:١٥١]، "أي يقرأ عليكم القرآن"(٦).

قال مقاتل:أي"القرآن"(٧).

قال الثعلبي:" يعني: القرآن"(٨).

قوله تعالى:{وَيُزَكِّيكُمْ}[البقرة:١٥١]، "أي ويطهركم، وينمي أخلاقكم، ودينكم"(٩).

قال مقاتل بن سليمان:" يعنى: ويطهركم من الشرك والكفر"(١٠).

قال مقاتل بن حيان: "ويطهركم من الذنوب"(١١).

قال الثعلبي:" أي يعلمون من الأحكام وشرائع الإسلام"(١٢).

قال ابن كثير:" أي : يطهرهم من رذائل الأخلاق ودَنَس النفوس وأفعال الجاهلية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور"(١٣).

قال البيضاوي:" أي يحمِلكم على ما تصيرون به أزكياءَ (١)، قدمه باعتبار القصد وأخره في دعوة إبراهيم عليه السلام باعتبار الفعل"(٢).

---

(١) معاني القرآن: ٢٢٧/١.
(٢) انظر: معاني القرآن: ٩٢/١.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ١٢٣/٤، ومعاني القرآن للفراء: ٩٢/١.
(٤) مفاتيح الغيب: ١٢٣/٤.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب: ١٢٣/٤.
(٦) صفوة التفاسير:٩٤/١.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٠/١.
(٨) تفسير الثعلبي:١٩/٢.
(٩) تفسير ابن عثيمين:٢/!٦٠.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٠/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٩٣):ص٢٥٩/١.
(١٢) تفسير الثعلبي:١٩/٢.
(١٣) تفسير ابن كثير:٤٦٤/١.

قال الصابوني:" أي يطهركم من الشرك وقبيح الفعال"[3].

قال السعدي أي: يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتكم من الشرك، إلى التوحيد ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع، إلى التحاب والتواصل والتوادد، وغير ذلك من أنواع التزكية[4].

قال المراغي:" أي يطهر نفوسكم من أدران الرذائل التي كانت فاشية في العرب من وأد البنات ، وقتل الأولاد تخلصا من النفقة ، وسفك الدماء لأوهن الأسباب ، ويغرس فيها فاضل الأخلاق وحميد الآداب، وبهذه الزكاة التي زكّوا بها أنفسهم فتحوا الممالك الكبرى ، وكانوا أئمة الأمم التي كانت تحتقر هذا الجنس ، وعرفوا لهم فضلهم بعدلهم وسياستهم للأمم سياسة حكيمة أنستهم سياسة الأمم التي قبلهم ، وجعلت لذلك الدين أثرا عميقا في نفوسهم ، فدانوا لحكمه خاضعين ، واهتدوا بهديه راشدين"[5].

وقد ذكر أهل التفسير في قوله تعالى:{وَيُزَكِّيكُمْ }[البقرة:١٥١]، وجوها[6]:

أحدها: أنه عليه الصلاة والسلام يعلمهم ما إذا تمسكوا به صاروا أزكياء. عن الحسن.

وثانيها: يزكيهم بالثناء والمدح، أي يعلم ما أنتم عليه من محاسن الأخلاق فيصفكم به، كما يقال: إن المزكي زكي الشاهد، أي وصفه بالزكاء.

وثالثها: أن التزكية عبارة عن التنمية، كأنه قال يكثركم، كما قال: {إذ كنتم قليلا فكثركم} [الأعراف: ٨٦]، وذلك بأن يجمعهم على الحق فيتواصلوا ويكثروا، عن أبي مسلم.

قال الرازي: "وهذه الوجوه غير متنافية فلعله تعالى يفعل بالمطيع كل ذلك"[7].

قوله تعالى:{وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتابَ}[البقرة:١٥١]، أي "ويعلمكم القرآن الكريم"[8].

قال الصابوني:" أي يعلمكم أحكام الكتاب المجيد"[9].

قال مقاتل:" يعني القرآن"[10].

قال ابن كثير:" وهو القرآن"[11].

قال المراغي: أي: "ويبين لكم ما انطوى عليه من الحكم الإلهية، والأسرار الربانية التي لأجلها وصف بأنه هدى ونور ، فالنبى صلى الله عليه وسلم كان يتلوه عليهم ليحفظوا نظمه ولفظه ، حتى يبقى مصونا من التحريف والتصحيف ، ويرشدهم إلى ما فيه من أسرار وحكم ليهتدوا بهديه ، ويستضيئوا بنوره"[12].

---

(١) ونقله بتمامه، أبو السعود في تفسيره: ١٧٨/١.
(٢) تفسير البيضاوي: ١١٤/١.
(٣) صفوة التفاسير:٩٤/١.
(٤) تفسير السعدي: ٧٤/١.
(٥) تفسير المراغي: ١٨/٢-١٩.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب: ١٣١/٤.
(٧)مفاتيح الغيب: ١٢٣/٤.
(٨) تفسير المراغي: ٢٤٨/١-٢٤٩.
(٩) صفوة التفاسير:٩٤/١.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٠/١.
(١١) تفسير ابن كثير:٤٦٤/١.
(١٢) تفسير المراغي: ٢٤٨/١-٢٤٩.

قوله تعالى:{وَالْحِكْمَةَ}[البقرة:١٥١]، أي: ويعلمكم السنة النبوية المطهرة"[١].
قال مقاتل بن سليمان:"يعني: الحلال والحرام"[٢].
قال ابن كثير:" وهي السنة "[٣].
قال الطبري:أي " ويعلمكم من أخبار الأنبياء ، وقصَص الأمم الخالية ، والخبر عما هو حادثٌ وكائن من الأمور التي لم تكن العرب تعلمها ، فعلِموها من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأخبرهم جل ثناؤه أنّ ذلك كله إنما يدركونه برَسوله صلى الله عليه وسلم"[٤].
قال الرازي في معنى{الحكمة}:" فهي العلم بسائر الشريعة التي يشتمل القرآن على تفصيلها، ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه (الحكمة) هي سنة الرسول عليه السلام" [٥].
قال ابن عثيمين: {والحكمة}: هي أسرار الشريعة، وحسن التصرف بوضع كل شيء في موضعه اللائق به - بعد أن كانوا في الجاهلية يتصرفون تصرفاً أهوج من عبادة الأصنام، وقتل الأولاد، والبغي على العباد"[٦].
قال المراغي في تفسير {الحكمة}: وهى "العلم المقترن بأسرار الأحكام ومنافعها ، الباعث على العمل بها، ذاك أن سنة الرسول العملية وسيرته صلى اللّه عليه وسلم في بيته ، ومع أصحابه في السلم والحرب ، والسفر والإقامة ، فى القلة والكثرة ، جاءت مفصلة لمجمل القرآن ، مبيّنة لمبهمه ، كاشفة لما في أحكامه من الأسرار والمنافع، ولو لا هذا الإرشاد العملي لما كان البيان القولى كافيا في انتقال الأمة العربية من طور الشتات والفرقة والعداء ، والجهل إلى الائتلاف والاتحاد ، والتآخى والعلم ، وسياسة الأمم، فالنبى صلى اللّه عليه وسلم وقف أصحابه على فقه الدين ، ونفذ بهم إلى سرّه ، فكانوا حكماء علماء عدولا أذكياء ، حتى إن أحدهم كان يحكم المملكة العظيمة ويقيم فيها العدل ويحسن السياسة ، وهو لم يحفظ من القرآن إلا بعضه ، لكنه فقهه وعرف أسرار أحكامه"[٧].
وقوله:{وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ}، فليس بتكرار، "لأن تلاوة القرآن عليهم غير تعليمه إياهم" وَيُعَلِّمُكُمُ.
قال البيضاوي: وكرر الفعل ليدل على أنه جنس آخر"[٨].
قوله تعالى:{وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}[البقرة:١٥١]، "أي ويعلمكم من أمور الدنيا والدين الشيء الكثير الذي لم تكونوا تعلمونه"[٩].
قال ابن عثيمين:" أي من أمور الدين، والدنيا؛ وهذه الجملة لتقرير ما سبق من تعليمهم الكتاب، والحكمة"[١٠].

---

(١) صفوة التفاسير:٩٤/١.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٠/١.
(٣) تفسير ابن كثير:٤٦٤/١.
(٤) تفسير الطبري: ٢١١/٣.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب: ١٢٣/٤.
(٦) تفسير ابن عثيمين:١٦١/٢.
(٧) تفسير المراغي: ٢٤٩/١.
(٨) تفسير البيضاوي: ١١٤/١.
(٩) صفوة التفاسير:٩٤/١.
(١٠) تفسير ابن عثيمين:١٦١/٢.

قال المراغي: أي: "ويعلمكم مع الكتاب والحكمة ما ليس مصدر علمه النظر والفكر ، بل طريق معرفته الوحى كأخبار عالم الغيب وسير الأنبياء وأحوال الأمم التي كانت مجهولة عندكم ، وأكثرها كان مجهولا عند أهل الكتاب أيضا ، وقد بلغوا في هذا النوع من العلم مبلغا فاقوا به سائر الأمم"(١).

قال الرازي: "فهذا تنبيه على أنه تعالى أرسله على حين فترة من الرسل وجهالة من الأمم، فالخلق كانوا متحيرين ضالين في أمر أديانهم فبعث الله تعالى محمدا بالحق حتى علمهم ما احتاجوا إليه في دينهم وذلك من أعظم أنواع النعم"(٢).

قال ابن كثير:" فكانوا في الجاهلية الجَهْلاء يُسفَهُون بالقول الفرَى ، فانتقلوا ببركة رسالته ، ويُمن سفارته ، إلى حال الأولياء ، وسجايا العلماء فصاروا أعمق الناس علمًا ، وأبرهم قلوبًا ، وأقلهم تكلفًا ، وأصدقهم لهجة. وقال تعالى : { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ } الآية [آل عمران : ١٦٤]. وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة ، فقال تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ } [إبراهيم : ٢٨]"(٣).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس:" {ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون}، يعني: كما علمكم أن يصلي الراكب على دابته والرجل على راحلته"(٤).

الفوائد:

١- من فوائد الآية: بيان نعمة الله تعالى علينا بإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعالى: {كما أرسلنا فيكم رسولاً}؛ لأن هذه الآية متعلقة بقوله تعالى: {ولأتم نعمتي عليكم} [البقرة: ١٥٠] ؛ فإن هذا من تمام النعمة؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليُعبَد بما شرع؛ ولا يمكن أن نعرف أن هذا مما يرضاه الله أن نتعبده به، وهذا مما لا يرضاه إلا بواسطة الرسل؛ ولو أن الإنسان وكِل إلى عقله في العبادة ما عرف كيف يعبد الله؛ ولو وكِل إلى عقله في العبادة ما اجتمع الناس على عبادة الله: لكان كل واحد يقول: هذا هو الصواب؛ ولو أن الإنسان وكل إلى عقله في العبادة ما كانت أمتنا أمة واحدة؛ فعلى كل حال لا يمكن لنا بمجرد عقولنا أن ندرك كيف نعبد الله؛ ومَثّل يسير يبين ذلك: لو أمرنا بالتطهر للصلاة - ولم يبين لنا الكيفية - لتنازع الناس في ذلك؛ وأخذ كلٌ برأيه؛ فافترقت الأمة؛ فلولا أن الله أبان لنا كيف نعبده ما عرفنا كيف نعبده، فهذا من نعمة الله علينا من إرسال هذا الرسول محمداً (صلى الله عليه وسلم) الذي بين لنا كل شيء؛ ولهذا قال أبو ذر رضي الله عنه: «تركنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا عندنا منه علم»(١)؛ حتى الطيور في السماء علمنا عنها الرسول صلى الله عليه وسلم.

٢- ومن فوائد الآية: أن كون الرسول مِنّا يقتضي أن تكون قريش أول من يصدق به؛ لأنهم يعرفونه، ويعرفون نسبه، ويعرفون أمانته؛ ولهذا وبخهم الله تعالى على الكفر به، ووصْفِه

---

(١) تفسير المراغي: ٢٤٩/١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ١٣١/٤.

(٣) تفسير ابن كثير:٤٦٤/١-٤٦٥.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم(١٣٩٤):ص٢٦٠/١.

(١) أخرجه أحمد ١٦٢/٥: حديث ٢١٧٧٠، وأخرجه ابن حبان ١٤٢/١ باب الزجر عن كتبة المرء السنن مخافة أن يتكل عليها دون الحفظ لها، حديث رقم ٦٥، وأخرجه الطبراني فيالمعجم الكبير ١٦٦/٢ رقم ١٦٤٧؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٦٧/٨، (رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح)، (تخريج صحيح ابن حبان: ٢٦٧/١، حديث ٦٥ حاشية (١))، وقال: إسناده صحيح.

بالضلال، والجنون، فقال جل وعلا: {ما ضل صاحبكم وما غوى} [النجم: ٢] ، وقال جل وعلا: {وما صاحبكم بمجنون} [التكوير: ٢٢] .

٣- ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ جميع ما أوحي إليه على وجه الكمال؛ لقوله تعالى: {يتلو عليكم آياتنا}؛ فإن هذا يدل على أن جميع الآيات التي أوحاها الله إليه قد تلاها؛ ولهذا القرآن - والحمد لله - مبين لفظه، ومعناه؛ ليس فيه شيء يشتبه على الناس إلا اشتباهاً نسبياً بحيث يشتبه على شخص دون الآخر، أو في حال دون الأخرى؛ قال الله تعالى: {إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه} [القيامة: ١٧ - ١٩] .

٤- ومنها: أن من فوائد رسالة النبي صلى الله عليه وسلم حصول العلم؛ لأن هذه الآيات كلها علم؛ لقوله تعالى: {يتلو عليكم آياتنا}.

٥- ومنها: أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فهو من آيات الله الدالة على كمال ربوبيته، وسلطانه، ورحمته، وحكمته سواء كان من الآيات الكونية، أو الشرعية؛ لكن منها ما هو بيِّن ظاهر؛ ومنها ما يخفى على كثير من الناس إلا الراسخين في العلم؛ ومنها ما هو بيْن ذلك.

٦- ومنها: أن الشريعة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم كلها تزكية للأمة، وتنمية لأخلاقها، ودعوة إلى الأخلاق الفاضلة؛ ولهذا كان من القواعد المقررة في الشريعة أنها تأتي بالمصالح الخالصة، أو الراجحة، وتنهى عن المفاسد الخالصة، أو الراجحة؛ فالخمر فيه مصالح، ومفاسد؛ لكن مفاسده راجحة؛ ولهذا حرم؛ الحجر على السفيه فيه مصالح، وفيه مفاسد؛ لكن مصالحه راجحة؛ فلذلك قدمت المصالح؛ أو مصالح خالصة - فليس فيها مفاسد، كعبادة الله مثلاً؛ هذه قاعدة الشريعة؛ ولهذا قال تعالى: {ويزكيكم}.

٧- ومن فوائد الآية: أن كل ما فيه تزكية للنفوس فإن الشريعة قد جاءت به؛ لقوله تعالى: {ويزكيكم

٨- ومنها: أن وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومهمته التي جاء بها أنه يعلمنا الكتاب والحكمة.

٩- ومنها: الرد على أهل التأويل، وأهل التجهيل؛ لقوله تعالى: {يعلمكم الكتاب} - أهل التأويل الذين يؤولون آيات الصفات - لأنه لو كان هذا التأويل من العلم لعلمنا إياه النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلما لم يعلمنا إياه علمنا أنه ليس من العلم الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وأهل التجهيل - وهم طائفة يقولون: «إن الرسول صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، والأمة كلها لا تعلم معاني آيات الصفات، وأحاديثها؛ فلا يدرون ما معناها؛ حتى النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بالحديث من صفات الله ولا يدري معناها»!!!

١٠- ومن فوائد الآية: أن الرسول صلى الله عليه وسلم علم الأمة لفظ القرآن، ومعناه؛ ولهذا إذا استشكل الصحابة شيئاً من المعنى سألوه، فعلمهم؛ ولكن الغالب أنهم لا يستشكلون؛ لأنه نزل بلغتهم، وفي عصرهم، يعرفون معناه، ومغزاه، وأسبابه.

١١- ومنها: اشتمال الشريعة على الحكمة؛ لقوله تعالى: {ويعلمكم الكتاب والحكمة}؛ فالشريعة متضمنة للحكمة تضمناً كاملاً؛ فما من شيء من مأموراتها، ولا منهياتها، إلا وهو مشتمل على الحكمة؛ لكن هنا حكمة لازمة لكل حكم؛ وهو طاعة الله ورسوله؛ فإن هذه أعظم حكمة؛ وهي ثابتة فيما نعقل حكمته، وفيما لا نعقلها؛ ولهذا لما قالت المرأة لعائشة رضي الله عنها: «ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا

نؤمر بقضاء الصلاة»[1]؛ فبينت الحكمة من ذلك؛ وهو طاعة الله، ورسوله؛ وهذه حكمة لازمة في كل حكم سواء عقل معناه، أو لم يُعقَل.

١٢- ومن فوائد الآية: أن الأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله تعالى: {ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون}؛ وهو مما يدل على نقص الإنسان، حيث كان الأصل فيه الجهل؛ قال تعالى: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً} [النحل: ٧٨] ؛ ثم قال عزّ وجلّ: {وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة} [النحل: ٧٨] ؛ فبين طرق العلم: {السمع والبصر}؛ وبهما الإدراك؛ و {الأفئدة} ؛ وبها الوعي، والحفظ.

١٣- ومنها :فضل الله عزّ وجلّ، حيث علمنا ما لم نكن نعلم؛ لقوله تعالى: {ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون}؛ وهذا عام في كل ما نحتاج إلى العلم به من أمور الدنيا، والآخرة.

إذا قال قائل: «اضربوا لنا مثلاً» فماذا نقول؟

فالجواب: أن كل الشريعة مثال؛ فإننا لا نعرف كيف نصلي إلا بتعليم الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ولا كيف نتوضأ، ولا مقدار الواجب في الأموال من الزكاة، ولا مَن تُصرف إليهم الزكاة، ولا غير ذلك من أمور الشريعة إلا بتعليم الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وهناك أحكام قدرية لا نعرفها أيضاً علمنا الله سبحانه وتعالى إياها، كابتداء الكون، ونهايته: كخلق السموات، والأرض؛ واليوم الآخر؛ إذاً فعلومنا الشرعية، والقدرية متلقاة من الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وليس لنا علم بها قبل تعليم النبي صلى الله عليه وسلم.

القرآن

{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)} [البقرة : ١٥٢]

التفسير:

أمر تعالى المؤمنين بذكره، ووعد عليه أفضل الجزاء، وهو الثناء في الملأ الأعلى على مَنْ ذكره، وخصوني -أيها المؤمنون- بالشكر قولا وعملا ولا تجحدوا نعمي عليكم.

قوله تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}[البقرة:١٥٢]، "أي اذكروني بالعبادة والطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة"[1].

قال مقاتل بن سليمان:" يقول فاذكروني بالطاعة أذكركم بخير"[2].

قال الزجاج:" المعنى: إن تذكروني أذكركم"[3].

قال الطبري:أي: " فاذكروني أيها المؤمنون بطاعتكم إياي فيما آمركم به وفيما أنهاكم عنه ، أذكرْكم برحمتي إياكم ومغفرَتي لكم"[4].

قال البيضاوي: "{فَاذْكُرُونِي}: بالطاعة، {أَذْكُرْكُمْ}: بالثواب"[5].

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٧، كتاب الحيض، باب ٢٠: لا تقضي الحائض الصلاة، حديث رقم ٣٢١، وأخرجه مسلم ص٧٣٣، كتاب الحيض، باب ١٥: وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، حديث رقم ٧٦٣ [٦٩] ٣٣٥.

(١) صفوة التفاسير:٩٤/١.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥٠/١.

(٣) معاني القرآن: ٢٢٧/١.

(٤) تفسير الطبري: ٢١١/٣.

(٥) تفسير البيضاوي: ١١٤/١.

أصل الذكر في اللغة: "التنبيه على الشيء، ومن ذكّرك شيئا فقد نبهك عليه، وإذا ذكرته فقد تنبهت عليه، والذَّكرُ أَنْبَهُ من الأنثى. وقوله: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ} [الزخرف: ٤٤] أي: شرف لك، من النباهة. ومعنى الذكر: حضور المعنى للنفس، ثم يكون تارة بالقلب، وتارة بالقول، وليس موجبه أن يكون بعد النسيان؛ لأنه يستعمل كثيرًا دون أن يتقدمه نسيان"[١].

وقال الراغب:" الذكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وكل واحد منهما ضربان، ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان، بل عن إدامة الحفظ، وكل قول يقال له ذكر"[٢].

قال ابن عثيمين: "وذِكر الله يكون بالقلب، واللسان، والجوارح"[٣].

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى:{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}[البقرة:١٥٢]، على وجوه[٤]:

أحدها: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي.قاله سعيد بن جبير[٥]، وفي رواية" أذكركم برحمتي"[٦].

الثاني: اذكروني فيما افترضت عليكم، أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي. قاله الحسن[٧].

الثالث: فاذكروني - بتوحيدي، وتصديقه - صلى الله عليه وسلم -، أذكركم برحمتي ومغفرتي والثناء عليكم. قاله الزجاج[٨].

الرابع: يعني:" إن الله يذكر من ذكره، ويزيد من شكره، ويعذب من كفره". قاله أبو العالية[٩]، وروي عن الحسن، والسدي، والربيع بن أنس، نحو ذلك[١٠].

الخامس: اذكروني في الرخاء أذكركم في البلاء. قاله سعيد بن جبير[١١]، وبيانه: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات :١٤٣- ١٤٤].

السادس: ذكر الله إياكم أكثر من ذكركم إياه. قاله ابن عباس[١٢].

السابع:اذكروني بالإجابة والإحسان وهو بمنزلة قوله: {ادعوني أستجب لكم}[غافر: ٦٠]، إذ أمر الخلق بأن يذكروه راغبين راهبين، وراجين خائفين ويخلصوا الذكر له عن الشركاء، فإذا هم ذكروه بالإخلاص في عبادته وربوبيته ذكرهم بالإحسان والرحمة والنعمة في العاجلة والآجلة. وهذا قول أبي مسلم[١٣].

وبذلك فإن قوله:{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}، عمل، وجزاء؛ العمل: ما أفاده قوله تعالى: {اذكروني}؛ والجزاء: ما أفاده قوله تعالى: {أذكركم}[١٤].

---

(١) التفسير البسيط: ٤١٩/٣، وانظر: "البحر المحيط" ١/ ٤٤٥ - ٤٤٦، "لسان العرب" ٣/ ١٥٠٧ - ١٥٠٩ (ذكر).
(٢) المفردات: ١٨٤.
(٣) تفسير ابن عثيمين:١٦٦/٢.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب: ١٢٤/٤. وتفسير ابن كثير: ٤٦٥/١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٣١٢):ص٢١١/٣.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٩٩):ص٢٦١/١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٤٠٠):ص٢٦١/١.
(٨) انظر: معاني القرآن: ٢٢٨/١.
(٩) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٣٩٦):ص٢٦٠/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٦٠/١.
(١١)انظر: مفاتيح الغيب: ١٢٤/٤.
(١٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٣٩٥):ص٢٦٠/١.
(١٣) انظر: مفاتيح الغيب: ١٢٤/٤.
(١٤) انظر: تفسير ابن عثيمين:١٦٦/٢.

وفي قوله تعالى:{ فَاذْكُرُونِي}[البقرة:١٥٢]، قراءتان[1]:
إحداهما: { فَاذْكُرُونِيَ}، بفتح الياء.
والثانية:{ فَاذْكُرُونِي} بإسكان الياء؛ لأن ياء المتكلم من حيث اللغة العربية يجوز إسكانها، وفتحها، وحذفها تخفيفاً؛ لكنها في القرآن تتوقف على السماع.
قوله تعالى:{وَاشْكُرُوا لِي}[البقرة:١٥٢]، "أي اشكروا نعمتي عليكم"[2].
قال مقاتل: "يقول اشكروا الله- عز وجل- في هذه النعم"[3].
قال ابن كثير:أي:" اشكروا لي أيها المؤمنون فيما أنعمت عليكم من الإسلام ، والهداية للدين الذي شرعته لأنبيائي وأصفيائي، إذ "أمر الله تعالى بشكره ، ووعده على شكره بمزيد الخير ، فقال : {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم : ٧]"[4].
قال ابن عثيمين:" أي قوموا بالشكر، و «الشكر» هو القيام بطاعة المنعم"[5].
قال أبو العالية:"إن الله يزيد من شكره"[6].
وروي عن زيد بن أسلم: "أن موسى صلى الله عليه وسلم قال لربه: أي رب أخبرني كيف أشكرك. قال له ربه: تذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني"[7].
قال ابن منظور: يقال: شكرته، وشكرت له، وباللام أفصح"[8].
وقال الفراء:"العرب لا تكاد تقول شكرتك، إنما تقول: شكرت لك، ونصحت لك، ولا يقولون: نصحتك، وربما قيلتا"[9].
قال أبو حيان:"وهو من الأفعال التي ذكر أنها تارة تتعدى بحرف الجر، وتارة تتعدى بنفسها وقالوا: إذا قلت شكرت لزيد، فالتقدير: شكرت لزيد صنيعه، فجعلوه مما يتعدى لواحد بحرف جر ولآخر بنفسه، ولذلك فسر الزمخشري هذا الموضع بقوله. واشكروا لي ما أنعمت به عليكم"[10].
وقال ابن عطية:" واشكروا لي ، واشكروني بمعنى واحد ، ولي أفصح وأشهر مع الشكر"[11].
قال الواحدي:" تقول العرب: شكرته وشكرت له، ونصحته ونصحت له، في أحرف تسمع ولا تقاس، فمن قال: شكرتك، أوقع اسم المنعم موقع النعمة، فعدّى الفعل بغير وسيطة، والأجود: شكرت لك؛ لأنه الأصل في الكلام، والأكثر في الاستعمال"[12].
قوله تعالى:{وَلَا تَكْفُرُونِ}[البقرة:١٥٢]، أي:" ولا تكفروا نعمتي بالجحود والعصيان"[13].
قال مقاتل:أي"لا تكفروا بها"[1].

---

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين:١٦٦/٢.
(٢) صفوة التفاسير:٩٤/١.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥٠/١.
(٤) تفسير ابن كثير: ٤٦٥/١.
(٥) تفسير ابن عثيمين:١٦٦/٢.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٠١):ص٢٦١/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٠٢):ص٢٦١/١.
(٨) لسان العرب: ٤/ ٢٣٠٥ (شكر).
(٩) معاني القرآن: ٩٢/١.
(١٠) البحر المحيط: ٣٨٩/١.
(١١) المحرر الوجيز: ٢٢٦/١.
(١٢) التفسير البسيط: ٤٢٠/٣.
(١٣) صفوة التفاسير:٩٤/١.[بتصرف بسيط].

قال الزمخشري:" ولا تجحدوا نعمائي"[2].

قال البيضاوي:"بجحد النعم وعصيان الأمر"[3].

قال أبو حيان:" أي ولا تكفروا نعمتي"[4].

قال الطبري:أي "لا تجحدوا إحساني إليكم ، فأسلبكم نعمتي التي أنعمت عليكم ، ولكن اشكروا لي عليها ، وأزيدكم فأتمم نعمتي عليكم ، وأهديكم لما هديت له من رَضيت عنه من عبادي ، فإنّي وعدت خلقي أنّ من شكر لي زدته ، ومن كفرني حَرمته وسلبته ما أعطيتُه"[5].

قال ابن عثيمين:" أي لا تجحدوني، أو تجحدوا نعمتي؛ بل قوموا بشكرها، وإعلانها، وإظهارها"[6].

قال المراغي: وهذا تحذير من الله لهذه الأمة حتى لا تقع فيما وقعت فيه الأمم السابقة ، إذ كفرت بأنعم الله فلم تستعمل العقل والحواس فيما خلقت لأجله ، فسلبها ما كان قد وهبها تأديبا لها ولغيرها، وقد امتثل المسلمون هذه الأوامر حينا من الدهر ثم تركوها بالتدريج فحلّ بهم ما ترى من النكال والوبال ، كما قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم:7]"[7].

قال الواحدي:"وأصل الكفر إنما هو ستر النعمة لا ستر المنعم"[8].

وقد ختم بجملة النهي: {وَلَا تَكْفُرُونِ}، "لأنه لما أمر بالشكر ، لم يكن اللفظ ليدل على عموم الأزمان ، ولا يمكن التكليف باستحضار الشكر في كل زمان ، فقد يذهل الإنسان عن ذلك في كثير من الأوقات. ونهى عن الكفران ، لأن النهي يقتضي الامتناع من المنهي عنه في كل الأزمان ، وذلك ممكن لأنه من باب التروك"[9].

روي عن أبي العالية، "يعني قوله: {ولا تكفرون}، قال: إن الله يعذب من كفره"[10]. وروي، عن الربيع بن أنس نحو ذلك[11].

وعن زيد بن أسلم: "أن موسى صلى الله عليه وسلم قال له ربه: تذكرني ولا تنساني، فإذا نسيتني فقد كفرتني"[12].

قال الزجاج:" قوله تعالى:{وَلَا تَكْفُرُونِ}[البقرة:152]، الأكثر الذي أتى به القراء حذف الياءات مع النون"[13].

---

(1) تفسير مقاتل بن سليمان: 1/150.

(2) الكشاف: 1/206.

(3) تفسير البيضاوي: 1/114.

(4) البحر المحيط: 1/389. قال أبو حيان:" ولو كان من الكفر ضدّ الإيمان ، لكان : ولا تكفروا ، أو ولا تكفروا بي".

(5) تفسير الطبري: 3/211.

(6) تفسير ابن عثيمين:2/167.

(7) تفسير المراغي: 1/350

(8) التفسير البسيط: 3/421.

(9) البحر المحيط: 1/389.

(10) أخرجه ابن أبي حاتم(1403):ص1/261.

(11) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: 1/261.

(12) أخرجه ابن أبي حاتم(1404):ص1/261.

(13) معاني القرآن:1/228. وقد حذفت مع غير النون، كقوله: {يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ} (4) [ق: 41].[انظر: التفسير البسيط: 3/421].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: وجوب ذكر الله؛ للأمر به؛ مطلق الذكر واجب: يجب على كل إنسان أن يذكر ربه؛ بل كل مجلس يجلسه الإنسان ولا يذكر الله فيه، ولا يصلي على النبي إلا كان عليه ترة - أي خسارة، وحسرة يوم القيامة؛ فالعبد مأمور بذكر الله؛ لكن ذكر الله ينقسم إلى فريضة من فرائض الإسلام؛ وإلى واجب من واجباته؛ وإلى سنة من سننه - بحسب ما تقتضيه الأدلة؛ إنما مطلق الذكر حكمه أن واجب.

٢- ومنها: أن مَنْ ذكر الله ذكره الله؛ لقوله تعالى: {أذكركم}؛ وكون الله يذكرك أعظم من كونك تذكره؛ ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي؛ ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»(١)؛ وذكر الله يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ فالأصل ذكر القلب كما قال -صلى الله عليه وسلم-: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله؛ وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب»(٢) فالمدار على ذكر القلب؛ لقوله تعالى: {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه} [الكهف: ٢٨]؛ وذكر الله باللسان، أو بالجوارح بدون ذكر القلب قاصر جداً، كجسد بلا روح؛ وصفة الذكر بالقلب التفكر في آيات الله، ومحبته، وتعظيمه، والإنابة إليه، والخوف منه، والتوكل عليه، وما إلى ذلك من أعمال القلوب؛ وأما ذكر الله باللسان فهو النطق بكل قول يقرب إلى الله؛ وأعلاه قول: «لا إله إلا الله»؛ وأما ذكر الله بالجوارح فبكل فعل يقرب إلى الله: القيام في الصلاة، والركوع، والسجود، والجهاد، والزكاة، كلها ذكر لله؛ لأنك عندما تفعلها تكون طائعاً لله؛ وحينئذٍ تكون ذاكراً لله بهذا الفعل؛ ولهذا قال الله تعالى: {وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر} [العنكبوت: ٤٥] ؛ قال بعض العلماء: أي لما تضمنته من ذكر الله أكبر؛ وهذا أحد القولين في هذه الآية.

٣- ومن فوائد الآية: فضيلة الذكر؛ لأن به يحصل ذكر الله للعبد؛ وذكر الله للعبد أمر له شأن كبير عظيم؛ فليس الشأن بأن تذكر الله، أو أن تحب الله؛ ولكن الشأن أن يذكرك الله عزّ وجلّ، وأن يحبك الله عزّ وجلّ؛ ولهذا قال الله تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} [آل عمران: ٣١] ؛ فقال تعالى: {يحببكم الله} لأن هذا هو الغاية المطلوبة.

٤- ومنها: وجوب الشكر؛ لقوله تعالى: {واشكروا لي}؛ و«الشكر» يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ ولا يكون إلا في مقابلة نعمة؛ فسببه أخص من سبب «الحمد»؛ ومتعلّقه أعم من متعلق «الحمد»؛ فيختلفان إذاً من حيث السبب؛ ويختلفان من حيث المتعلق؛ سبب «الحمد» كمال المحمود، وإنعام المحمود؛ فإذا كان سببه إنعام المحمود كان «الحمد» من «الشكر»؛ أما «الشكر» فسببه واحد؛ وهو نعمة المشكور؛ وأما متعلق «الحمد» فيكون باللسان فقط؛ وأما متعلق «الشكر» فثلاثة: يكون باللسان، والقلب، والجوارح؛ وعليه قول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا فـ«يدي» هذا الشكر بالجوارح؛ و«لساني» هذا الشكر باللسان - يعني القول؛ و«الضمير المحجبا» يعني القلب.

---

(١) أخرجه البخاري ص٦١٦، كتاب التوحيد، باب ١٥: قول الله تعالى: (ويحذركم الله نفسه)، حديث رقم ٧٤٠٥، وأخرجه مسلم ص١١٤٤، كتاب الذكر والدعوات...، باب ١: الحث على ذكر الله تعالى، حديث رقم ٦٨٠٥ [٢] ٢٦٧٥.

(٢) أخرجه البخاري ص٦، كتاب الإيمان، باب ٣٩: فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم ٥٢، وأخرجه مسلم ص٩٥٥، كتاب المساقاة، باب ٢: أخذ الحلال وترك الحرام، حديث رقم ٤٠٩٤ [١٠٧] ١٥٩٩.

والشكر بالقلب أن يعتقد الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من الله عزّ وجلّ وحده؛ فيجب الله سبحانه وتعالى لهذا الإنعام؛ ولهذا ورد في الحديث: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه»(٣)؛ فإن الإنسان إذا شعر بأن هذه النعمة من الله أحب الله سبحانه وتعالى؛ لأن النفوس مجبولة على محبة من يحسن إليها.

وأما الشكر باللسان فأن يتحدث الإنسان بنعمه لا افتخاراً؛ بل شكراً؛ قال الله تعالى: {وأما بنعمة ربك فحدث} [الضحى: ١١] ؛ وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»(١).

وأما الشكر بالجوارح فأن يقوم الإنسان بطاعة الله، ويصرف هذه النعمة لما جعلت له؛ فإن هذا من شكر النعمة.

٥- ومن فوائد الآية: وجوب ملاحظة الإخلاص؛ لقوله تعالى: {واشكروا لي} يعني مخلصين لله عزّ وجلّ؛ لأن الشكر طاعة؛ والطاعة لا بد فيها من الإخلاص، كما قال تعالى: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً} [الكهف: ١١٠] .

٦- ومنها: تحريم كفر النعمة؛ لقوله تعالى: {ولا تكفرون} ولهذا إذا أنعم الله على عبده نعمة فإنه يحب أن يرى أثر نعمته عليه؛ فإذا أنعم الله عليه بعلم فإن الله يحب من هذا العالم أن يظهر أثر هذه النعمة عليه:

أولاً: على سلوكه هو بنفسه بحيث يكون معروفاً بعلمه، وعمله به.

ثانياً: بنشر علمه ما استطاع، سواء كان ذلك على وجه العموم، أو الخصوص.

ثالثاً: أن يدعو إلى الله على بصيرة بحيث إنه في كل مجال يمكنه أن يتكلم في الدعوة إلى الله بقدر ما يستطيع حتى في المجالس الخاصة فيما إذا دعي إلى وليمة مثلاً، ورأى من المصلحة أن يتكلم فليتكلم؛ وبعض أهل العلم يكون معه كتاب، فيقرأ الكتاب على الحاضرين، فيستفيد، ويفيد؛ وهذا طيب إذا علم من الناس قبول هذا الشيء بأن يكون قد عوَّدهم على هذا، فصاروا يرقبونه منه؛ أما إذا لم يعوِّدهم فإنه قد يثقل عليهم بهذا، ولكن من الممكن أن يفتح المجال بإيراد يورده - سؤالاً مثلاً - حتى ينفتح المجال للناس، ويسألون، وينتفعون؛ لأن بعض طلبة العلم تذهب مجالسهم كمجالس العامة لا ينتفع الناس بها؛ وهذا لا شك أنه حرمان - وإن كانوا لا يأثمون إذا لم يأتوا بما يوجب الإثم؛ فالذي ينبغي لطالب العلم - حتى وإن لم يُسأل - أن يورد هو سؤالاً لأجل أن يفتح الباب للحاضرين، فيسألوا؛ وقد جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، وأماراتها؛ وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هذا جبريل أتاكم

---

(٣) أخرجه الترمذي ص٢٠٤١، كتاب المناقب، باب ٣١، في مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم ٣٧٨٩، وأخرجه الحاكم في مستدركه ١٥٠/٣، كتاب الهجرة، ومن مناقب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ وقال الذهبي: "صحيح" (المرجع السابق).

(١) أخرجه أحمد ٢/٣، حديث رقم ١١٠٠٠؛ وأخرجه الترمذي ص١٩٧٠، كتاب تفسير القرآن، باب ١٧: ومن سورة بني إسرائيل، حديث رقم ٣١٤٨؛ وأخرجه ابن ماجة ص٢٧٣٩، كتاب الزهد، باب ٣٧: ذكر الشفاعة، حديث رقم ٤٣٠٨؛ ومدار الحديث على عليّ بن زيد بن جدعان، وفيه ضعف، والحديث صحيح بطرقه وشواهده، منها ما أخرجه الدارمي في المقدمة بمعناه ٣٩/١، حديث رقم ٤٧؛ وما أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة ٣٥٥/٢ - ٣٥٦، وقال الألباني في تخريجه: صحيح الإسناد ٣٥٦/٢، وقال في صحيح الترمذي: صحيح ٧١/٣، حديث رقم ٢٥١٦ - ٣٣٦٩.

يعلمكم دينكم»[٢]؛ مع أن الذي يجيب الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ولكن جعله معلماً وهو يسأل؛ لأنه هو السبب في هذا التعليم.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)} [البقرة : ١٥٣]

التفسير

يا أيها المؤمنون اطلبوا العون من الله في كل أموركم: بالصبر على النوائب والمصائب، وترك المعاصي والذنوب، والصبر على الطاعات والقربات، والصلاة التي تطمئن بها النفس، وتنهى عن الفحشاء والمنكر. إن الله مع الصابرين بعونه وتوفيقه وتسديده. وفي الآية: إثبات معيَّة الله الخاصة بالمؤمنين، المقتضية لما سلف ذكره؛ أما المعية العامة، المقتضية للعلم والإحاطة فهي لجميع الخلق.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}[البقرة:١٥٣]، " أي: يا أيها الذين آمنوا باللّه وصدقوا رسوله"[١].

قال الصابوني:" هذا نداء من الله جل شأنه للمؤمنين يخاطبهم فيه"[٢].

قال ابن عباس:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يا أيها الذين آمنوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"[٣].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك[يعني استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"[٢].

قال ابن عثيمين:"إن تصدير الحكم بالنداء، دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان"[٤].

قوله تعالى:{اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ }[البقرة:١٥٣]، أي: "استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم ، بالصبر والصلاة"[٥].

قال ابن جريج:" إنهما معونتان على رحمة الله"[٦].

قال الصابوني:" فبالصبر تنالون كل فضيلة ، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة"[٧].

قال مقاتل: أي:" استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلوات في مواقيتها نحو الكعبة، حين عيرتهم اليهود بترك قبلتهم"[٨].

---

(٢) أخرجه البخاري ص٦، كتاب الإيمان، باب ٣٧: سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ... ، حديث رقم ٥٠؛ وأخرجه مسلم ص٦٨١، كتاب الإيمان، باب ١: بيان الإيمان والإسلام ... ، حديث رقم ٩٣ [١] ٨.

(١) تفسير المراغي: ٤٣/١١، وانظر: صفوة التفاسير: ٤٨٧/٢.

(٢) صفوة التفاسير: ٧٥/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٥):ص١٩٦/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١٩٦/١.

(٤) تفسير ابن عثيمين:٣٣٧/١.

(٥) صفوة التفاسير: ٢٧٣/١.

(٦) أخرجه الطبري(٨٥٤):ص١٥/٢.

(٧) صفوة التفاسير: ٢٧٣/١.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٠/١.

قال الزجاج:" أي أنكم إذا صليتم تلوتم في صلاتكم ما تعرفون به فضل ما أنتم عليه، فكان ذلك لكم عونا"[١].

قال المراغي:" أي استعينوا على إقامة دينكم والدفاع عنه ، وعلى سائر ما يشق عليكم من مصايب الحياة ، بالصبر وتوطين النفس على احتمال المكاره ، وبالصلاة التي تكبر بها الثقة بالله عزّ اسمه ، وتصغر بمناجاته فيها كل المشاقّ"[٢].

قال النسفي: أي: استعينوا على حوائجكم إلى الله، بالجمع بينهما، وأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة محتملين لمشاقها وما يجب فيها من إخلاص القلب ودفع الوساوس الشيطانية والهواجس النفسانية ومراعاة الآداب والخشوع واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدي جبار السموات والأرض ، أو استعينوا على البلايا والنوائب بالصبر عليها والالتجاء إلى الصلاة عند وقوعها"[٣].

قال الجصاص:" ينصرف الأمر بالصبر على أداء الفرائض التي فرضها الله واجتناب معاصيه وفعل الصلاة المفروضة"[٤].

قال الراغب: وخصها[أي الصلاة] برد الضمير إليها دون الصبر ، وأما الصلاة التي تخفف على غير الخاشع ، فإنها مسماة باسمها ، وليس هي في حكمها ، بدلالة قوله تعالى : {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} ، ومثلها ، وقل ما ترى صلاة غير الخاشع تنهاه عن الفحشاء والمنكر"[٥].

وقال المفسرون وأصحاب المعاني: "إن جميع العبادات داخلة تحت قوله: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ} لأنه أراد الصبر عليها، ولكن خصت الصلاة بالذكر تخصيصا وتفضيلا، كقوله: {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} [الرحمن: ٦٨]، وقوله {وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} [البقرة: ٩٨]"[٦].

و(الصبر) في اللغة: "الحبس"[٧].

قال الطبري:و(الصبر): "حبس النفس على ما تكره ومنعها محابّها وكفها عن هواها[٨]، والصبر لغة: الحبس، يقال قتل فلان صبرا أي أمسك وحبس حتى أتلف، وصبرت نفسي على الشيء : حبستها، قال الحطيئة[٩]:

قُلْتُ لها أَصْبِرُها جاهِداً: وَيْحَك، أَمْثالُ طَرِيفٍ قَلِيلْ

والمصبورة التي نهي عنها في الحديث هي المحبوسة على الموت، وهي المجثّمة، قال عنترة يذكر حربا كان فيها[١٠]:

---

(١) معاني القرآن: ٢٢٩/١.
(٢) تفسير المراغي: ٢٣/٢.
(٣) تفسير النسفي: ٦٣/١.
(٤) أحكام القرآن: ٣٩/١.
(٥) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٧٧/١.
(٦) التفسير البسيط: ٤٥٦/٢.
(٧) انظر: لسان العرب:٤٣٨/٤:(صبر).
(٨) انظر تفسير الطبري: ١١/٢.
(٩)يوانه بشرح أبي سعيد السكري : ١٧٦ . وهو في اللسان (صبر)، والجامع : ١٤٤. وفيه (ويلك) بدل (ويحك) ، والإقناع : ٥٤ وفيه (به) بدل (بها) ، والعروض لابن جني : ٨٠
(١٠)ديوانه : ٨٩ من أبيات ، يقول قبله ، يذكر الغراب ، ويتشاءم به:
إنَّ الذينَ نعيْتَ لي بفِراقهِمْ قد أسْهرُوا لَيْلي التّمامَ فأوْجعوا
وَعَرَفْتُ أنَّ مَنِيَّتِي إنْ تَأْتِنِي لا يُنْجِنِي مِنْهَا الفِرَارُ الأَسْرَعُ
فصبرتُ عارفةً لذلكَ حرَّةً ترسو إذا نفسُ الجبانِ تطلع

فَصَبَرْتُ عارِفَةً لذلك حُرَّةً ... تَرْسُو، إذا نَفْسُ الجبان تَطَلَّعُ

يقول: حَبَست نفساً صابرة. قال أبو عبيد: يقول إنه حَبَس نفسَه[١].

وقال الراغب، الصبر ضربان : "صبر عن المشتهى ، وهو العفة ، وصبر على المكروه وهو الشجاعة "[٢].

وفي الآية قدّم الصبر على الصلاة "لأنها لا تكمل إلا به، أو لمناسبته لحال المخاطبين، ويجوز أن يراد بالصبر نوع منه وهو الصوم بقرينة ذكره مع الصلاة"[٣].

وفي الاصطلاح الشرعي(الصبر): "هو كَفُّ النَّفْس عن الجَزَع والسَّخَط، وحبسها عن شهواتها، وكف اللسان عن الشكوى، والثبات على أحكام الكتاب والسنة"[٤].

وقال السعدي: " (الصبر) على ثلاثة أقسام:

أحدها: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها.

والثاني: وعن معصية الله حتى تتركها.

والثالث: وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها.

فـ(الصبر): "هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر، أن يدرك مطلوبه، خصوصا الطاعات الشاقة المستمرة، فإنها مفتقرة أشد الافتقار، إلى تحمل الصبر، وتجرع المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر، فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها، لم يدرك شيئا، وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم، وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار. وكذلك البلاء الشاق، خصوصا إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية، ويوجد مقتضاها، وهو التسخط، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، والافتقار على الدوام" [٥].

وقد ذكر الصبر في القرآن الكريم ، في (اثنان وثمانون) موضعاً في المدح ، وموضعان في الذم ، أما موضعا الذم فقوله تعالى : {وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} [إبراهيم : ٢١] ، وقوله تعالى : {وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} [ص : ٦].

و(الاستعانة) هي "طلب العون؛ و "الاستعانة بالصبر" أن يصبر الإنسان على ما أصابه من البلاء، أو حُمِّل إياه من الشريعة"[٦].

قال الواحدي:"فالاستعانة بالصبر: هو أن يستعين على دينه بحبس النفس عن الشهوات والمحارم، وحبسها على الطاعات"[١].

و قوله(نفس عارفة)، أي: حاملة الشدائد صبور، إذا حملت على أمر احتملته ، من طول مكابدتها لأهوال هذه الحياة . و(ترسو)، تثبت . و(تطلع) ، تنزو متلفتة إلى مهرب ، أو ناصر ، من الجزع والرعب.

(١) انظر: اللسان: مادة(ص ب ر).

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني: ١/١٧٧.

(٣) تفسير الآلوسي: ١/٢٤٨-٢٤٩.

(٤) أصول المنهج الإسلامي: العبيد: ٥١٨.

(٥) تفسير السعدي: ٧٥.

(٦) تفسير ابن عثيمين: ١/٩٧.

قال تعالى :{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥]؛ أي: لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك، ونبرأ من كل معبود دونك ومن عابديه، ونبرأ من الحول والقوة إلا بك، فلا حَوْلَ لأحد عن معصيتك ولا قوة على طاعتك إلا بتوفيقك ومعونتك، وقال عن نبيه يعقوب عليه السلام : {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}[، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمه عبدالله بن عباس رضى الله عنهما: "إذا سألتَ فاسْألِ اللهَ، وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِن بالله"[٢]، وقال في دعائه: "اللَّهُمَ أعِنِّى عَلَى ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبادَتِكَ "[٣].

وفي سبب تخصيص الإستعانة بالصبر والصلاة وجهان[٤]:

أحدهما: أنه تعالى خصهما بذلك، لما فيهما من المعونة على العبادات، أما الصبر فهو قهر النفس على احتمال المكاره في ذات الله تعالى وتوطينها على تحمل المشاق وتجنب الجزع، ومن حمل نفسه وقلبه على هذا التذليل سهل عليه فعل الطاعات وتحمل مشاق العبادات، وتجنب المحظورات ومن الناس من حمل الصبر على الصوم.

والثاني: ومنهم من حمله على الجهاد لأنه تعالى ذكر بعده: {ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله} [البقرة: ١٥٤] وأيضا فلأنه تعالى أمر بالتثبت في الجهاد فقال: {إذا لقيتم فئة فاثبتوا} [الأنفال: ٤٥] وبالتثبت في الصلاة أي في الدعاء فقال: {وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين} [آل عمران: ١٤٧].

والقول الأول أولى، وذلك لعموم اللفظ وعدم تقييده، والاستعانة بالصلاة لأنها يجب أن تفعل على طريق الخضوع والتذلل للمعبود والإخلاص له، ويجب أن يوفر همه وقلبه عليها وعلى ما يأتي فيها من قراءة فيتدبر الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ومن سلك هذه الطريقة في الصلاة فقد ذلل نفسه لاحتمال المشقة فيما عداها من العبادات ولذلك قال: {اتل ما أوحى إليك من الكتاب} [العنكبوت: ٤٥] ولذلك نرى أهل الخير عند النوائب متفقين على الفزع إلى الصلاة، وروي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[٥].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[البقرة:١٥٣]، أي إن الله مع الصابرين"بالنصر والمعونة والحفظ والتأييد"[٦].

قال الواحدي: "قال عطاء عن ابن عباس:"يقول: إني معكم أنصركم ولا أخذلكم"[٧].

قال الزجاج:" أي يظهر دينه على سائر الأديان، لأن من كان الله معه فهو الغالب - كما قال عز وجل: {فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة : ٥٦]"[٨].

---

(١) التفسير البسيط: ٤٢٢/٣.

(٢)رواه أحمد في المسند: ٢٩٣/١، والترمذي (٢٥١٦)، في صفة القيامة، باب(٥٩). عن ابن عباس.

(٣) رواه أبو داود(١٥٢٢)، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : (يَا مُعَاذُ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ، فَقَالَ : أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ) وصححه الألباني في صحيح أبي داود .

(٤) انظر: مفاتيح الغيب: ١٢٤/٤.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب: ١٢٤/٤-١٢٥.

(٦) صفوة التفاسير:٩٤/١.

(٧) انظر: التفسير البسيط: ٤٢٣/٣.

(٨) معاني القرآن: ٢٢٩/١.

قال المراغي:" أي إن اللّه ناصرهم ومجيب دعوتهم ، ومن كان اللّه ناصره فلا غالب له ، أما الجازع فقلبه لاه عن ذكر اللّه ، والقلب اللاهي ممتلىء بهموم الدنيا وأكدارها ، وإن حاز الدنيا بحذافيرها"(١).

قال أبو حيان:"أي: بالمعونة والحفظ والتأييد ، كما قال : اهجهم، وروح القدس معك . وقال تعالى : {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة : ٤٠]، ومن كان الله معه فهو الغالب"(٢).

قال الرازي: "يعني في النصر لهم كما قال: {فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} [البقرة: ١٣٧]، فكأنه تعالى ضمن لهم إذا هم استعانوا على طاعاته بالصبر والصلاة أن يزيدهم توفيقا وتسديدا وألطافا كما قال: {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى} [مريم: ٧٦]"(٣).

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن وهب، قال: "سمعت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول: الصبر في بابين، الصبر لله بما أحب وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره، وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله"(٤).

وفي رواية أخرى:" سمعت ابن زيد وقال لي: الصبر في بابين: على ما أحب الله وإن ثقل. وصبر على ما تكره وإن نازعت إليه الهوى. فمن كان هكذا فهو من الصابرين"(٥).

وعن علي بن الحسين قال: "إذا جمع الله الأولين والآخرين، ينادي مناد: أين الصابرون، ليدخلوا الجنة قبل الحساب. قال: فيقوم عنق من الناس، فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين يا بني آدم؟ فيقولون: إلى الجنة قالوا: وقبل الحساب؟

قالوا نعم. قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: الصابرون قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله، وصبرنا عن معصية الله، حتى توفانا الله. قالوا: أنتم كما قلتم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين"(٦).

وقال سعيد بن جبير: "الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر"(٧).

ومن الصفات الثابتة لله عز وجل (المَعِيَّة)، فهو مع عباده سبحانه وتعالى أينما كانوا، فقال سبحانه: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد : ٤]، وقال :{مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة : ٧] ، وهذه معية عامة، فالمعية نوعان(٨):

أحدهما: مَعِيَّة عامَّة؛ كقوله تعالى{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد : ٤]، ومعناها: إحاطته بهم عِلمًا وقُدْرَةً، وهو إجماع الصحابة والتابعين.

والثاني: مَعِيَّة خاصَّة، فهيَ مَعِيَّته سبحانه لأحْبابه وأوليائه، فتلك غير المعية العامة، فهو معهم بالرعايَة والإعانة والكفاية، والنصر والتأييد والهداية، والتوفيق وغير ذلك، مما تجفو عبارة

---

(١) تفسير المراغي: ٢٣/٢.
(٢) انظر: تفسير البحر المحيط: ٦٢١/١.
(٣) مفاتيح الغيب: ١٢٥/٤.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم(١٤٠٥):ص٢٦١/١-٢٦٢.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٤٠٨):ص٢٦٢/١.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم(١٤٠٦):ص٢٦٢/١.
(٧) تفسير ابن أبي حاتم(١٤٠٧):ص٢٦٢/١.
(٨)معارج القبول، حافظ حكمي: ١٦٤.

المخلوق عنه، ويقصر تعريفه دونه؛ كقوله تعالى :{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: ١٢٨]، وقوله لموسى وهارون :{إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦]، وكل ذلك لم يَنْفِ العلو؛ فهو سبحانه وتعالى مُسْتَوٍ على عَرْشِه، بائِن (مُنْفَصِل) مِن خَلْقِه، {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠]، وليس معنى مَعِيَّته مع عِبادِه أن يكون ذلك بالجوارح، أو أنه تعالى مختلط بالخَلْق؛ فهو خلاف ما أجمع عليه سَلَفُ الأُمَّة وخِلاف ما فَطَرَ اللهُ عليه الخَلْق، بل القمر آية من آيات الله، ومن أصْغَر مَخْلُوقاته، وهو موضوع في السماء، وهو مع المُسافر وغير المسافر، أينما كان ومن أشار إلى غير هذا، فإنما يشير إلى الإلحاد والحلول والاتحاد، والله ورسوله بَرِيئان مِنه[١].

وقد قال تعالى: {مَعَ الصَّابِرِينَ}[البقرة:١٥٣]، لثلاثة وجوه[٢]:

الوجه الأول: أن الصلاة من الصبر؛ لأنها صبر على طاعة الله.

الوجه الثاني: أن الاستعانة بالصبر أشق من الصلاة؛ لأن الصبر مُرّ: الصبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل فهو مرٌّ يكابده الإنسان، ويعاني، ويصابر، ويتغير دمه حتى من يراه يقول: هذا مريض.

الوجه الثالث: أنه إذا كان مع الصابرين فهو مع المصلين من باب أولى بدليل أنه ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الإنسان المصلي يناجي ربه، وأن الله قِبل وجهه[١] - وهو على عرشه سبحانه وتعالى.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: فضيلة الإيمان، وأنه من أشرف أوصاف الإنسان؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا...}.

٢- ومنها: الإرشاد إلى الاستعانة بالصلاة؛ لقوله تعالى: {استعينوا بالصبر والصلاة}.

٣- ومنها: بيان الآثار الحميدة للصلاة، وأن من آثارها الحميدة أنها تعين العبد في أموره.

٤- ومنها: جواز الاستعانة بغير الله فيما يمكن أن يعين فيه؛ لقوله تعالى: {واستعينوا بالصبر والصلاة وجاء في الحديث: «وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة»[٢].

٥- ومنها: أن الاستعانة بالصلاة من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا استعينوا...} إلخ.

٦- ومنها: فضيلة الصبر؛ لأنه يعين على الأمور؛ والصبر ثقيل جداً على النفس؛ لأن الإنسان إذا أصابه ضيق، أو بلاء ثقل عليه تحمله، فاحتاج إلى الصبر؛ ولهذا قال الله تعالى للنبي -صلى الله عليه وسلم-: {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين} [هود: ٤٩] ؛ فقال تعالى: {فاصبر} إشارة إلى أن هذا الوحي الذي نزل على

---

(١)معارج القبول، حافظ حكمي: ١٦٤.

(٢) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٧٢/٢.

(١) راجع البخاري ص٣٥، كتاب الصلاة، باب ٣٣: حك البزاق باليد من المسجد، حديث رقم٤٠٦، وراجع صحيح مسلم ص٧٦٣، كتاب المساجد، باب ١٣: النهي عن البصاق في المسجد...، حديث رقم ١٢٢٣[٥٠] ٥٤٧.

(٢) أخرجه البخاري ص٢٣٢، كتاب الجهاد، باب ٧٢: فضل من حمل متاع صاحبه في السفر حديث رقم ٢٨٩١؛ وأخرجه مسلم ص٨٣٧، كتاب الزكاة، باب ١٦: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم ٢٣٣٥ [٥٦] ١٠٠٩، واللفظ لمسلم.

الرسول صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى صبر، وتحمل؛ لأنه سيجد من ينازع، ويضاد؛ ونظيره قوله تعالى: {إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً * فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً} [الإنسان: ٢٣، ٢٤] ؛ إذاً الصبر شاق على النفوس؛ لكن يجب على الإنسان أن يصبر؛ ولهذا من لم يوفق للصبر فاته خير كثير؛ والذي يصبر أيضاً غالباً ينتظر الفرج لا سيما إذا صبر بإخلاص، وحسن نية؛ وانتظار الفرج عبادة، وباب للفرج؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «واعلم أن النصر مع الصبر؛ وأن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسراً»(٣)؛ لأنه إذا كان منتظراً للفرج هان عليه الصبر؛ لأنه يؤمل أن الأمور ستزول، وأن دوام الحال من المحال؛ فإذا كان يؤمل الأجر في الآخرة، ويؤمل الفرج في الدنيا هان عليه الصبر كثيراً؛ وهذه لا شك من الخصال الحميدة التي جاء بها الإسلام، ودليل على أن الأمور تسهل بالصبر؛ مهما بلغتك الأمور اصبر، فتهون؛ ولهذا جعل الله الصبر عوناً.

٧- ومن فوائد الآية: أن في الصبر تنشيطاً على الأعمال، والثبات عليها؛ لقوله تعالى: {إن الله مع الصابرين}؛ فإذا آمن الإنسان بأن الله معه ازداد نشاطاً، وثباتاً؛ وكون الله سبحانه وتعالى مع الإنسان مسدداً له، ومؤيداً له، ومصبِّراً له، لا شك أن هذه درجة عالية كل يريدها؛ ولهذا لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى قوم يتناضلون قال: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً وأنا مع بني فلان؛ قال الآخرون: يا رسول الله، إذا كنت معهم فلا نناضل؛ فقال: ارموا وأنا معكم كلكم»(٤).

٨- ومن فوائد الآية: إثبات معية الله سبحانه وتعالى؛ ومعيته تعالى نوعان:

النوع الأول: عامة لجميع الخلق، ومقتضاها الإحاطة بهم علماً، وقدرة، وسلطاناً، وسمعاً، وبصراً، وغير ذلك من معاني ربوبيته؛ لقوله تعالى: {ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا} [المجادلة: ٧] .

والنوع الثاني: خاصة؛ ومقتضاها مع الإحاطة: النصر، والتأييد؛ وهي نوعان: مقيدة بوصف ، كقوله تعالى: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} [النحل: ١٢٨] ؛ و مقيدة بشخص ، كقوله تعالى لموسى، وهارون: {إنني معكما أسمع وأرى} [طه: ٤٦] ، وقوله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا} [التوبة: ٤٠] .

القرآن

{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤)} [البقرة : ١٥٤]

التفسير:

ولا تقولوا -أيها المؤمنون- فيمن يُقتلون مجاهدين في سبيل الله: هم أموات، بل هم أحياء حياة خاصة بهم في قبورهم، لا يعلم كيفيتها إلا الله - تعالى-، ولكنكم لا تُحسُّون بها. وفي هذا دليل على نعيم القبر.

في سبب نزول الآية، ثلاثة أقوال:

---

(٣) أخرجه أحمد ٢٩٣/١، حديث رقم ٢٦٦٩؛ وأخرجه الترمذي ص١٩٠٤ - ١٩٠٥، كتاب صفة القيامة، باب ٥٩: حديث حنظلة، حديث رقم ٢٥١٦، وفي سنده قيس بن الحجاج، قال الحافظ في التقريب: صدوق، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ٣٠٨/٢ - ٣٠٩، حديث رقم ٢٠٤٣.

(٤) أخرجه البخاري ص٢٣٣، كتاب الجهاد، باب ٧٨: التحريض على الرمي...، حديث رقم ٢٨٩٩.

أحدها: قال الواحدي:" نزلت في قتلى بدر من المسلمين، وكانوا بضعة عشر رجلا، ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين، وذلك أن الناس كانوا يقولون للرجل يقتل في سبيل الله مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها، فأنزل الله هذه الآية"[١].

وكذا ذكره الثعلبي[٢] بغير إسناد.

وذكره مقاتل بن سليمان[٣]، وبه زيادة أن سمى الستة من المهاجرين وهم: عبيدة بن الحارث[٤]، وعمير بن أبي وقاص[٥]، وذو الشمالين[٦] بن عبد عمرو[٧] وعاقل بن البكير[٨]، ومهجع مولى عمر[٩]، وصفوان بن بيضاء[١٠]، وسمى الثمانية من الأنصار وهم: سعد بن خيثمة[١١] ومبشر بن عبد المنذر[١٢] وحارثة بن سراقة[١٣]، وعوف[١٤] ومعوذ[١٥] ابنا عفراء[١٦]، وهي أمهما، واسم أبيهما الحارث بن مالك ويزيد بن الحارث[١٧]، وعمير بن الحمام[١٨] ورافع بن المعلى[١٩].

وذكره ابن عطية[٢٠]، والرازي[٢١]، والقاسمي[١] وغيرهم من المفسرين.

---

(١)أسباب النزول: ٤٤. والخبر أخرجه ابن مندة في "الصحابة" (لباب النقول: ٣٠) من طريق السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما بمعناه وقد علمنا سابقا أن هذه سلسلة الكذب (الإتقان: ١٨٩/٢) .

(٢) انظر: تفسير الثعلبي:٢١/٢.

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥٠/١-١٥١.

(٤)في الأصل: عبيد وهو خطأ وترجمته في "الإصابة" "٢/ ٤٤٩".

(٥)في الأصل:" عتبة هو خطأ "الإصابة" "٣/ ٣٥".

(٦)واسمه عمير "الإصابة" "٣/ ٣٥".

(٧)جاء في "تفسير مقاتل": "وذي الشمالين عبد عمر بن نضلة" وقد سقط منه لفظ "بن" وواو عمرو.

(٨)انظر: في الأصل وفي "تفسير مقاتل": عقيل وهو خطأ "الإصابة" "٢/ ٢٤٧".

(٩)مهجع العكي "الإصابة" "٢/ ٤٦٦".

(١٠) ترجمه الحافظ في "الإصابة" باسم: صفوان بن وهب "٢/ ١٩١".

(١١)انظر: في الأصل: سعيد وهو خطأ "الإصابة" "٢/ ٢٥".

(١٢)انظر: الإصابة:٣/ ٣٦٠. ولم ينقط في الأصل.

(١٣)انظر: الإصابة:١/ ٢٩٧.

(١٤)انظر: الإصابة" "٣/ ٤٢".

(١٥)انظر: في الأصل: مسعود وهو تحريف "الإصابة" "٣/ ٤٥٠".

(١٦)هي عفراء بنت عبيدة من بني النجار، الصحابية التي شهد سبعة من أولادها بدرًا رضي الله عنها "الإصابة" "٤/ ٣٦٤" و"المجتبى من المجتنى" لابن الجوزي "ص١٦٥".

(١٧)انظر: الإصابة" "٣/ ٦٥٤".

(١٨)انظر: الإصابة" "٣/ ٣١. في الأصل: عمرو وفي "تفسير مقاتل": عمر وكلاهما خطأ. قال السيوطي في "اللباب" "ص٣٠": "أخرج ابن منده في الصحابة من طريق السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قتل تميم بن الحمام ببدرا، وفيه وفي غيره نزلت {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ} الآية قال أبو نعيم: اتفقوا على أنه عمير بن الحمام، وأن السدي صحفه".

(١٩) انظر: الإصابة" "١/ ٤٩٩".

وانظر أسماء الشهداء الأربعة عشر في "السيرة" لابن هشام "١/ ٧٠٦-٧٠٨".

(٢٠) انظر: المحرر الوجيز: ٢٢٧/١.

(٢١) مفاتيح الغيب: ١٣٢/٤، قال الرازي: "قال ابن عباس رضي الله عنهما: "نزلت الآية في قتلى بدر وقتل من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلا، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، فمن المهاجرين: عبيدة بن الحرث ابن عبد المطلب، وعمر بن أبي وقاص، وذو الشمالين، وعمرو بن نفيلة، وعامر بن بكر، ومهجع بن

وذكره الماوردي مختصرا ولفظه:"وسبب ذلك أنهم كانوا يقولون لقتلى بدر وأُحُد : مات فلان ، ومات فلان ، فنزلت الآية"[٢].

الثاني: وقال ابن عطية في سبب نزولها:أن" المؤمنين صعب عليهم فراق إخوانهم وقراباتهم فنزلت الآية مسلية لهم، تعظم منزلة الشهداء، وتخبر عن حقيقة حالهم، فصاروا مغبوطين لا محزونا لهم"[٣].

الثالث: وحكي الفخر الرازي: "أن الكفار والمنافقين قالوا: إن الناس يقتلون أنفسهم طلبا لمرضاة محمد من غير فائدة، فنزلت هذه الآية"[٤].

قوله تعالى:{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ}[البقرة:١٥٤]، " أي لا تقولوا للشهداء إنهم أموات"[٥].

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، في قول الله تعالى: "{ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله}، يعني: الذين قتلوا في طاعة الله في قتال المشركين"[٦].

قال سعيد بن جبير:" يقول الله: لا تحسبهم أمواتا"[٧].

قال مقاتل:أي" ولا تقولوا معشر المؤمنين لمن يقتل في سبيل الله أموات"[٨].

قال ابن عثيمين: أي: "لا تقولوا: هم أموات، والذي يقتل في سبيل الله هو الذي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا"[٩].

قال المراغي:" أي ولا تتحدثوا في شأنهم ، فتقولوا : إنهم أموات"[١٠].

قال أبو حيان:" نهوا عن قولهم عن الشهداء أموات ، وأخبر تعالى أنهم أحياء"[١١].

قال ابن عاشور: "نهي عن القول الناشيء عن اعتقاد، ذلك لأن الإنسان لا يقول إلاّ ما يَعتقد فالمعنى ولا تعتقدوا ، والظاهر أن هذا تكميل لقوله : {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [البقرة : ١٤٣] كما تقدَّم من حديث البراء فإنه قال : "قتل أناس قبل تحويل القبلة"، فأعقب قوله :{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} بأن فضيلة شهادتهم غير منقوصة"[١٢].

عبد الله. ومن الأنصار: سعيد بن خيثمة، وقيس بن عبد المنذر، وزيد بن الحرث، وتميم بن الهمام، ورافع بن المعلى، وحارثة بن سراقة، ومعوذ بن عفراء، وعوف بن عفراء، وكانوا يقولون: مات فلان ومات فلان فنهى الله تعالى أن يقال فيهم أنهم ماتوا".

(١) تفسير القاسمي: ١٣١/١، قال القاسمي: " قال الضحاك هم النفر الذين قتلوا عند بئر معونة وقال الكلبي هم الذين قتلوا ببدر قتل يومئذ من المسلمين أربعة عشر رجلا وكان الناس يقولون مات فلان ومات فلان فأنزل الله تعالى " ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء " يعني هم في الحكم كالأحياء لأنه يجري ثوابهم إلى يوم القيامة ولأنهم يسرحون في الجنة حيث شاؤوا كما قال في آية أخرى {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران : ١٦٩]".

(٢) النكت والعيون: ٢٠٩/١.

(٣) المحرر الوجيز: ٢٢٧/١.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب: ١٣٢/٤.

(٥) صفوة التفاسير:٩٤/١.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم(١٤٠٩):ص٢٦٢/١.

(٧) تفسير ابن أبي حاتم(١٤١٠):ص٢٦٢/١.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان: ١/!٥١.

(٩) تفسير ابن عثيمين:١٧٥/٢. [بتصرف بسيط].

(١٠) تفسير المراغي:٢٣/٢.

(١١) البحر المحيط: ٣٩٠/١.

(١٢) التحرير والتنوير: ٥٣/٢.

قوله تعالى:{بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ}[البقرة:١٥٤]، " أي بل هم أحياءً عند ربهم يرزقون ولكن لا تشعرون بذلك"[١].

قال مقاتل:" مرزوقون في الجنة عند الله، ومساكن أرواح الشهداء سدرة المنتهى في جنة المأوى"[٢].

قال المراغي:أي:" بل هم أحياء في عالم غير عالمكم، ولكن لا تشعرون بحياتهم"[٣].

قال الصابوني:" لأنهم في حياةٍ برزخية أسمي من هذه الحياة"[٤].

قال ابن عثيمين:" وهي حياة برزخية لا نعلم كيفيتها"[٥].

قال البيضاوي:" وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يحس به من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل بل بالوحي"[٦].

قال أبو السعود:" وفيه رمز إلى أنها ليست مما يشعر به بالمشاعر الظاهرة من الحياة الجسمانية وإنما هي أمر روحاني لا يدرك بالعقل بل بالوحي"[٧].

قال الطبري: أي: "ولكنكم لا تَرونهم فتعلموا أنهم أحياءٌ ، وإنما تعلمون ذلك بخبري إياكم به"[٨].

قال ابن عثيمين:" أي لا تشعرون بحياتهم؛ لأنها حياة برزخية غيبية؛ ولولا أن الله عزّ وجلّ أخبرنا بها ما كنا نعلم بها"[٩].

قال أبو العالية:" يقول هم أحياء في صدور طير خضر، يطيرون في الجنة حيث شاءوا، ويأكلون من حيث شاءوا"[١٠].

واختلف في حقيقة الموت والحياة في الآية، على قولين[١١]:

أحدهما: أن المراد حقيقة الموت والحياة.

والثاني: وقيل : ذلك مجاز.

والظاهر هو القول الأول. والله أعلم.

قال أبو حيان:" وإذا حمل الموت والحياة على الحقيقة فاختلفوا ، فقال قوم : معناه النهي عن قول الجاهلية أنهم لا يبعثون ، فالمعنى : أنهم سيحيون بالبعث ، فيثابون ثواب الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله. وأكثر أهل العلم على أنهم أحياء في الوقت. ومعنى هذه الحياة : بقاء أرواحهم دون أجسادهم ، إذ أجسادهم نشاهد فسادها وفنائها. واستدلوا على بقاء الأرواح بعذاب القبر ، وبقوله : {وَلَـاكِن لا تَشْعُرُونَ} معناه : لا تشعرون بكيفية حياتهم، ولو كان المعنى بإحياء أنهم سيحيون يوم القيامة ، أو أنهم على هدى ونور ، لم يظهر لنفي الشعور معنى ، إذ هو خطاب للمؤمنين ، وهم

---

(١) صفوة التفاسير:٩٤/١.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥١/١.

(٣) تفسير المراغي: ٢٣/٢.

(٤)صفوة التفاسير:٩٤/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين:١٧٦/٢.

(٦) تفسير البيضاوي: ١١٤/١.

(٧) تفسير أبي السعود: ١٧٩/١.

(٨) تفسير الطبري: ٢١٨/٣

(٩) تفسير ابن عثيمين:١٧٦/٢.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤١٢):ص٢٦٣/١، و أخرجه الحاكم: ٢/ ٢٧١ كتاب التفسير حديث صحيح الإسناد.

(١١) انظر: البحر المحيط: ٣٩٠/١.

قد علموا بالبعث ، وبأنهم كانوا على هدى. فلا يقال فيه : ولكن لا تشعرون ، لأنهم قد شعروا به وبقوله : {وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ}، وقد ذهب بعض الناس إلى أن الشهيد حي الجسد والروح ، ولا يقدح في ذلك عدم الشعور به من الحي غيره. فنحن نراهم على صفة الأموات وهم أحياء ، كما قال تعالى : {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} ، وكما ترى النائم على هيئته ، وهو يرى في منامه ما ينعم به أو يتألم به"(١).

فإن قال قائل: كيف لا نقول أموات وقد ماتوا؟

فالجواب: أن المراد هنا: لا تقولوا: أموات موتاً مطلقاً - دون الموت الذي هو مفارقة الروح للجسد؛ فهذا موجود؛ ولولا أن أرواحهم فارقت أجسادهم لما دفناهم، ولكانوا باقين يأكلون، ويشربون؛ ولكن الموت المطلق لم يقع منهم بدليل الإضراب الإبطالي في قوله تعالى: {بل أحياء} يعني: بل هم أحياء..والمراد: أحياء عند ربهم"(٢).

قال ابن عاشور: "وإنما قال : (وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)، للإشارة إلى أنها حياةٌ غير جسمية ولا مادِّيَّة بل حياة روحية ، لكنها زائدة على مطلق حياة الأرواح ، فإن للأرواح كلها حياة وهي عدم الاضمحلال وقبول التجسد في الحَشْر مع إحساس ما بكونها آيلة إلى نعيم أو جحيم ، وأما حياة الذين قتلوا في سبيل الله فهي حياة مشتملة على إدراكات التنعم بلذات الجنة والعوالم العلوية والانكشافات الكاملة ، ولذلك ورد في الحديث إن أرواح الشهداء تجعل في حواصل طيور خضر ترعى من ثمر الجنة وتشرب من مائها (٣)، والحكمة في ذلك أن اتصال اللذات بالأرواح متوقف على توسط الحواس الجسمانية ، فلما انفصلت الروح عن الجسد عُوِّضت جسداً مناسباً للجنة ليكون وسيلة لنعميها"(٤).

واختلف في مستقر أرواح الشهداء على أقوال(٥):

أحدها: قيل : قبورهم يرزقون فيها.

والثاني: وقيل : في قباب بيض في الجنة يرزقون فيها ، قاله أبو بشار السلمي(٦).

الثالث: أن أرواح الشهداء تعارف في طير بيض يأكلن من ثمار الجنة ، وأن مساكنهم سِدرة المنتهى ، قاله قتادة(٧).

الرابع: وقيل : يأكلون من ثمر الجنة ويجدون ريحها ، وليسوا فيها ، قاله مجاهد(٨).

الخامس: وروي عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال : "" الشهداءُ على بَارِق نهر بباب الجنة ، في قبة خضراء "(٩).

---

(١) البحر المحيط: ٣٩٠/١-٣٩١.

(٢) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٧٦/٢.

(٣) لعله يقصد هذا الحديث: سأل مسروق عبد الله بن مسعود عن هذه الآية {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران : ١٦٩]، فقال:"إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: " أرواحهم في أجواف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل".(رواه مسلم:(١٨٨٧).

(٤) تفسير ابن عاشور: ٥٣/٢-٥٤.

(٥) انظر: البحر المحيط: ٣٩١/١.

(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٣٢٤):ص٢١٧/٣-٢١٨.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٣١٩):ص٢١٥/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٣١٧)، و(٢٣١٨):ص٢١٥/٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٣٢٣):ص٢١٦/٣-٢١٧.

وجاء في صحيح مسلم : "إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل مُعلَّقة تحت العرش ، فاطَّلع عليهم ربك اطِّلاعَة ، فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : يا ربنا ، وأيّ شيء نبغي ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك ؟ ثم عاد إليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يُتْرَكُون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا ، فنقاتل في سبيلك ، حتى نقتل فيك مرة أخرى ؛ لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جلّ جلاله : إني كتبتُ أنَّهم إليها لا يرجعون"(١).

وروي عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نَسَمَةُ المؤمن طائر تَعْلَقُ في شجر الجنة ، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه"(٢).

قال ابن كثير: "ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضًا، وإن كان الشهداء قد خصِّصُوا بالذكر في القرآن ، تشريفًا لهم وتكريمًا وتعظيما"(٣).

وقد اختلف العلماء في هذا الوصف الذي اتصف به الشهيد، هل هو خاص به، أم أنه يشمل عموم المؤمنين؟:

القول الأول: أن هذا الوصف لم يخص مؤمنًا شهيدًا من غير شهيد.

روى كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "إنما نسمة(٤) المؤمن طير يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه"(٥).

ففي هذا الحديث لم يخص مؤمنًا شهيدًا من غير شهيد(٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٧) -رحمه الله-: "الصحيح الذي عليه الأئمة وجماهير أهل السنة: أن الحياة، والرزق، ودخول الأرواح الجنة، ليس مختصًا بالشهيد. كما دلت على ذلك النصوص الثابتة، ويختص الشهيد بالذكر، لكون الظان يظن أنه يموت، فينكل عن الجهاد، فأخبر بذلك ليزول المانع من الإقدام على الجهاد والشهادة، كما نُهي عن قتل الأولاد خشية الإملاق، لأنه هو الواقع، وإن كان قتلهم لا يجوز مع عدم خشية الإملاق"(٨).

---

(١)صحيح مسلم برقم (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ولفظه مختلف لكن معناه واحد.

(٢)المسند (٤٥٥/٣).

(٣) تفسير ابن كثير: ٤٦٧/١.

(٤) نسمة: أي روح. انظر. النهاية: ٩٤/٥.

(٥) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجنائز، باب جامع الجنائز: ٢٤٠/١. والنسائي، كتاب الجنائز، باب أرواح المؤمنين، رقم ٢٠٧٣. وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى، رقم ٤٢٧١.
قال ابن القيم في "الروح"، ص٢٥٢: "الحديث من صحاح الأحاديث".
وقال ابن كثير: "هذا إسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، فإن الإمام أحمد -رحمه الله- رواه عن محمد بن إدريس الشافعي -رحمه الله- عن مالك بن أنس الأصبحي -رحمه الله- عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه"، تفسير ابن كثير: ٤٠٤/١.

(٦) التمهيد: لابن عبد البر: ٥٩/١١.

(٧) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، الدمشقي، ولد سنة ٦٦١هـ، الإمام، الفقيه، المجتهد، المحدث، الحافظ، الأصولي، أبو العباس تقي الدين، شيخ الإسلام، وشهرته تغني عن الإطناب في ذكره، وبالإسهاب في أمره، تصانيفه كثيرة قيمة نافعة، منها: اقتضاء الصراط المستقيم، منهاج السنة، درء تعارض العقل والنقل. توفي سنة ٧٢٨هـ. انظر: ذيل طبقات الحنابلة: ٣٨٧/٢، لابن رجب، والكواكب الدرية في مناقب المجدد ابن تيمية. مرعي بن يوسف الكرمي، والرد الوافر على من زعم: بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر، لابن ناصر الدين، وتذكرة الحفاظ للذهبي: ١٤٩٦/٤.

(٨) فتاوى ابن تيمية: ٣٣٢/٤، و ٢٧٨/٤.

وقد تابع ابن تيمية على قوله هذا: تلميذه ابن القيم في كتابه الروح[١]، وابن كثير في تفسيره[٢]، وشارح الطحاوية[٣].

القول الثاني: أن هذا الوصف خاص بالشهداء لا غيرهم. وإن الآيات والأحاديث السابقة تدل على أنهم الشهداء دون غيرهم، وأما حديث: «إنما نسمة المؤمن...»، فتأويله: إنما نسمة المؤمن من الشهداء[٤].

ونقل القرطبي عن ابن العربي أنه حكى إجماع الأمة على اختصاص الشهيد بهذا الوصف[٥].

والذي يظهر أن هذا الإجماع غير صحيح، لمعارضته النص الصريح، والصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: «إنما نسمة المؤمن...»، بل حكى شيخ الإسلام -رحمه الله- خلاف ذلك وأن جماهير أهل السنة على أن هذا الوصف ليس مختصًا به، وبهذا قال بعض كبار العلماء من الشافعية كابن كثير والحنفية كابن أبي العز كما سبق، والله أعلم.

قال الراغب: إن الحياة تقال على أوجه، وكل واحدة يقابلها موت[٦]:

الأول : في القوة النامية التي بها الغذاء والشهوة إليها ، وذلك موجود في النبات والحيوان والإنسان ، ولذلك يقال : نبات حي.

والثاني: في القوة الحساسة التي بها الحركة المكانية وهي موجودة في الحيوان والإنسان دون النبات.

والثالث: القوة العاملة العاقلة [وبها يكون العقل والعلم] وهي في الإنسان دون الحيوانات والنبات وبها يتعلق التكليف ، وقد يقال للعلم المستفاد الحقيقي ، والعمل الصالح حياة ، وعلى ذلك قوله تعالى : {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}.

و(الشهيد) في اللغة: على وزن "فَعِيْل"، مشتق من الفعل شَهِدَ يَشْهُد شهادةً، فهو شاهد وشهيد، فشاهد وشهيد بمعنى واحد، مثل عالم وعليم، وناصر ونصير[٧]. إلا أن صيغة فعيل أبلغ[٨]، وفعيل من أبنية المبالغة في فاعل[٩].

وقيل: الشهيد: فعيل، بمعنى مفعول[١٠].

والشهيد: القتيل في سبيل الله، وقد استشهد فلان على ما لم يُسَمَّ فاعله[١١].

والشين والهاء والدال أصل يدلّ على حضور، وعلم، وإعلام، ومن ذلك الشهادة، يجمع

---

(١) ص٢٥٩ وما بعدها.

(٢) ١٨٧/١، و ٤٠٤/١.

(٣) ابن أبي العز الحنفي، ص٤٠٣-٤٠٤.

(٤) انظر: التمهيد، لابن عبد البر: ٦٤/٦-٦٥.

(٥) انظر: "التذكرة" ص٦٣٥ للقرطبي، فقد نقل عن ابن العربي في كتابه "سراج المريدين" إجماع الأمة على اختصاص الشهيد بهذا الوصف.

وكتاب "سراج المريدين" مخطوط في دار الكتب المصرية تحت رقم (٢٠٣٤٨ ب).

وانظر: فهرست مخطوطات دار الكتب المصرية: ٤٥٨/١ (في ٢٤٥ لوحة).

(٦) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني: ٣٤٧/١-٣٤٨.

(٧) جمهرة اللغة، لابن دريد: ٦٥٣/٢، ١٢٤٨/٣.

(٨) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، لابن السمين، ص٢٧٨.

(٩) النهاية، لابن الأثير: ٥١٣/٢.

(١٠) أنيس الفقهاء، للقونوي، ص١٢٣.

(١١) مختار الصحاح، للرازي، ص١٤٧.

الأصول التي ذكرناها من الحضور، والعلم، والإعلام[١].

والشاهد، والشهيد: الحاضر، والجمع شهداء، وشهَّد، وأشهاد، وشهود[٢].

ومما يدل على أن من معانيه الحضور: ما جاء في الحديث: «لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه»[٣].

ومن ذلك قول الشاعر:

كأني، وإن كانت شهودًا عشيرتي إذا غبت عني يا عثيم غريب[٤]

ويقال: قوم شهود، أي حضور[٥].

وهذا معروف في لسان العرب معرفة يستغنى بها عن الاستشهاد عليها بشيء، ولكن لتأكيد هذا أوردنا بعض الشواهد في ذلك.

وقد اختلف في اشتقاق كلمة (شهيد)، هل هو من الشهادة؟ أو من المشاهدة، أو هو فعيل بمعنى مفعول؟ أو بمعنى فاعل؟[٦].

فإن كان الاشتقاق من الشهادة، فهو شهيد، بمعنى: مشهود، أي مشهود عليه، ومشهود له بالجنة، ويجوز أن يكون من الشهادة، وتكون فعيل بمعنى فاعل، لأن الله تعالى يقول: {وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاس} [الحج: ٧٨]، أي تشهدون عليهم، وهذا وإن كان عامًا في جميع أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، فالشهداء أولى بهذا الاسم، فهذان وجهان في معنى الشهيد إذا جعلته مشتقًا من الشهادة.

وإن كان من المشاهدة، فهو فعيل، بمعنى: فاعل، على معنى أنه يشاهد من ملكوت الله، وقد يكون بمعنى مفعول، من المشاهدة، أي أن الملائكة تشاهد قبضه والعروج بروحه، ونحو ذلك، فيكون فعيلاً بمعنى مفعول[٧].

وبناء على عدم الاتفاق في تقدير معنى الفعل؛ افترقت الأقوال، وتشعبت الآراء في سبب التسمية، وكان اختلاف بعض هذه الأقوال يرجع إلى تباين وتضاد، وبعضها ليس كذلك، بل الأقوال فيها متقاربة.

ونلاحظ عند استقراء هذه الأقوال أنها تفرعت عن قولين رئيسين هما:

القول الأول: أن الشهيد بمعنى شاهد، أي فعيل بمعنى فاعل، وشاهد قد تكون بمعنى الإخبار والإعلام، كما في قوله تعالى: {وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ} [يوسف: ٨١]. فالشهادة هنا بمعنى الإخبار.

وقد ترد ويراد منها الحضور والمشاهدة، كما في قوله تعالى: {وَبَنِينَ شُهُوداً} [المدثر: ١٣]. أي حضورًا[٨].

وهؤلاء اختلفوا أيضًا في سبب التسمية على أقوال:

أحدها: لأنه ممن يستشهد يوم القيامة مع النبي -صلى الله عليه وسلم- على الأمم الخالية، قال

---

(١) المقاييس في اللغة: ٢٢١/٣

(٢) لسان العرب: ٢٣٩/٣.

(٣) البخاري: كتاب النكاح، ح٤٨٩٩.

(٤) أورده ابن منظور في اللسان، وقال قبله: وأنشد ثعلب، انظر: لسان العرب: ٢٤٠/٣.

(٥) الصحاح، للجوهري: ٤٩٤/٢.

(٦) تاج العروس، للزبيدي: ٢٥٦/٨، بتصرف. وانظر: النهاية: ٥١٣/٢.

(٧) الروض الأنف، للسهيلي: ١٩٥/٣، بتصرف.

(٨) عمدة الحفاظ، للسمين، ص٢٨٠، بتصرف.

تعالى: {لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً} [البقرة: ١٤٣][1].
الثاني:لأن أرواحهم شهدت دار السلام، أي حضرتها، وأما أرواح غيرهم فلا تحضرها إلى يوم البعث[2]. قال الأزهري[3]: «وقال ابن شميل في تفسير الشهيد الذي يستشهد: الشهيد: الحي. قلت: أراه تأول قول الله جل وعز: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩]. كأن أرواحهم أحضرت دار السلام أحياءً، وأرواح غيرهم أخرت إلى يوم البعث، وهذا قول حسن»[4].
الثالث: لقيامه بشهادة الحق في أمر الله حتى قتل[5].
الرابع: لأنه يشهد عند خروج روحه ما أعد الله له من الثواب والكرامة بالقتل[6].
الخامس: لأنه شهد المغازي[7].
السادس: لأنه شهد لله بالوجود والإلهية بالفعل، كما شهد غيره بالقول[8].
السابع: لأنه يشاهد الملائكة عند احتضاره[9].
الثامن: لأنه يشاهد الدارين: دار الدنيا، ودار الآخرة[10].
القول الثاني: أن الشهيد بمعنى مشهود، أي فعيل بمعنى مفعول، واختلف في تحديد سبب التسمية إلى أقوال:
أحدها: لأن ملائكة الرحمة تشهده[11]، وصحح هذا القول الرازي[12] في كتابه "حلية الفقهاء"[13].
فالشهيد: هو المحتضر، فتسميته بذلك لحضور الملائكة إياه، إشارة إلى ما قال الله عز وجل: {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا} [فصلت: ٣٠][14].
الثاني: لأن الله وملائكته شهود له بالجنة[15]، أو بالخير[16].
الثالث: لأنه شهد له بالإيمان، وحسن الخاتمة بظاهر حاله[1].

---

(١) انظر تهذيب اللغة للأزهري (٧٣/٦).
(٢) عمدة الحفاظ، ص٢٧٩.
(٣) هو: محمد بن احمد بن الأزهر بن طلحة، الأزهري الهروي اللغوي، الإمام المشهور في اللغة، ولد سنة ٢٨٢هـ، من مؤلفاته في اللغة كتاب "التهذيب"، وله تصنيف في غريب الألفاظ التي تستعملها الفقهاء يسمى بـ"الزاهر" وهو على غريب ألفاظ كتاب المزني. توفي سنة ٣٧٠هـ. انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان: ٦٣٩/٤.
(٤) تهذيب اللغة: ٧٣/٦.
(٥) لسان العرب، لابن منظور: ٢٤٣/٣.
(٦) لسان العرب: ٢٤٣/٣، تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ١٦٧/٣.
(٧) تاج العروس: ٢٥٤/٨.
(٨) المطلع على أبواب المقنع، لابن مفلح، ص١١٦.
(٩) بذل الماعون في فضل الطاعون، لابن حجر، ص١٩٠.
(١٠) بذل الماعون في فضل الطاعون، ص١٩٠.
(١١) لسان العرب: ٢٤٣/٣.
(١٢) هو: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الأنصاري، كان من أئمة أهل اللغة في وقته. من أهم مؤلفاته: "المقاييس في اللغة"، و"المجمل"، وغيرها. توفي سنة ٣٩٥هـ. انظر: وفيات الأعيان: ١١٨/١، ومقدمة كتاب المقاييس في اللغة لعبد السلام هارون.
(١٣) ص٩٣.
(١٤) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص٤٦٨.
(١٥) تهذيب اللغة: ٧٣/٦.
(١٦) عمدة الحفاظ، ص٢٧٩.

الرابع: لأن عليه شاهدًا يشهد بشهادته؛ وهو دمه[٢].

هذه أغلب الأقوال التي قيلت في سبب التسمية، وما لم نذكره فإنه يدخل في بعض هذه الأقوال، ولا يخرج عنها في الغالب.

وأقرب الأقوال إلى الصحة -والله أعلم- هو ما رجّحه الإمام السهيلي[٣] -رحمه الله- حيث قال -بعد ذكره بعض هذه الأوجه-: «وأولى هذه الوجوه كلها بالصحة: أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول، ويكون معناه: مشهودًا له بالجنة، أو يشهد عليه النبي عليه السلام، كما قال: «هؤلاء أنا شهيد عليهم»، أي: قيم عليهم بالشهادة لهم، وإذا حشروا تحت لوائه، فهو وال عليهم، وإن كان شاهدًا لهم، فمن ههنا اتصل الفعل بعلى، فتقوى هذا الوجه من جهة الخبر، ومن وجه آخر من العربية؛ وهو أن النبي –صلى الله عليه وسلم- حين ذكر الشهداء قال: «والمرأة تموت بجمع شهيد»[٤]، ولم يقل: شهيدة، وفي رواية أخرى قال: «والنفساء شهيد، يجرها جنينها بسرره إلى الجنة»[٥]، ولم يقل: شهيدة، وفعيل إذا كان صفة لمؤنث كان بغير هاء إذا كان بمعنى مفعول، نحو امرأة قتيل وجريح، وإن كان بمعنى فاعل، كان بالهاء، كقولهم: امرأة عليمة ورحيمة، ونحو ذلك.

فدل على أن الشهيد مشهود له، ومشهود عليه، وهذا استقراء من اللغة صحيح، واستنباط من الحديث بديع، فقف عليه[٦].

وقد أشاد بهذا القول الزبيدي[٧] -رحمه الله- فقال - بعد ذكره الخلاف في ذلك-: «وذكر أكثر من ذلك محررًا مهذبًا: الشيخ أبو القاسم السهيلي في الروض الأنف بما لا مزيد عليه»[٨].

وتعدّ لفظة "شهيد" لفظة عامة يدخل تحتها جميع من أثبت له الشارع صفة الشهادة، لكن الفقهاء -رحمهم الله- لهم اصطلاح خاص في تسمية الشهيد الذي يأخذ أحكامًا تخصه عن سائر الموتى.

وقد اختلفوا في تحديد الشروط والضوابط التي تحدد مفهوم الشهيد بالمعنى الاصطلاحي، ولذا فإنهم قد اختلفت تعريفاتهم حسب شرط كل مذهب، وسوف نعرض هنا لبعض هذه التعريفات -إن شاء الله- على وجه الاختصار والإجمال:

---

(١) تاج العروس: ٢٥٥/٨، المطلع، ص١١٦.

(٢) تاج العروس: ٢٥٥/٨.

(٣) هو: أبو القاسم عبد الرحمن بن الخطيب أبي محمد بن عبد الله بن الخطيب أبي عمر أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي، الإمام المشهور، الفقيه، الحافظ، الأديب، كان عالمًا بالعربية واللغة والقراءات، بارعًا في ذلك. ولد سنة ٥٠٨هـ، له عدة مؤلفات، منها: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، نتائج الفكر في النحو، وغيرها كثير. توفي سنة ٥٨١هـ. انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، لابن فرحون، ص١٥٠، تذكرة الحفاظ للذهبي: ١٣٤٨/٤.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجنائز، باب النهي عن البكاء على الميت، رقم ٣٦.

(٥) سوف يأتي تخريجه كاملاً -إن شاء الله- عند ذكر أنواع الشهادة.

(٦) الروض الأنف: ١٩٥/٣.

(٧) هو: محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الزبيدي الحنفي، الملقب بمرتضى، ولد سنة ١١٤٥، نحوي، محدث، أصولي، مؤرخ، نسابة، أصله من واسط في العراق، ومولده في بلجرام في الشمال الغربي من الهند، ومنشأه في زبيد باليمن، رحل إلى الحجاز، وأقام بمصر. من تصانيفه: تاج العروس في شرح القاموس، الروض المعطار في نسب السادة آل جعفر الطيار، إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين. توفي بالطاعون في مصر سنة ١٢٠٥هـ. انظر: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، للجبرتي: ٩١/٢-١١٤، ومعجم المؤلفين: ٢٨٢/١١.

(٨) تاج العروس: ٢٥٦/٨.

أولا: التعريف الاصطلاحي للشهيد عند الحنفية:

اختلفت عبارات الحنفية في تحديد مفهوم الشهيد عندهم، ولعل أحسنها وأشملها: تعريف ابن عابدين[(١)]، الذي عرفه بقوله: «هو كل مكلف، مسلم، طاهر، قتل ظلمًا، بجارحة، ولم يجب بنفس القتل مال، ولم يرتث[(٢)]»[(٣)]، «وكذا لو قتله باغ أو حربي أو قاطع طريق ولو تسببًا أو بغير آلة جارحة»[(٤)].

ثانيا: التعريف الاصطلاحي للشهيد عند المالكية:

جاء في وصف الشهيد الذي لا يغسل ولا يصلى عليه قول خليل[(٥)]، هو: «شهيد معترك فقط، ولو ببلد الإسلام أو لم يقاتل، وإن أجنب على الأحسن، إلا إن رفع حيًا، وإن أنفذت مقاتله، إلا المغمور...»[(٦)].

ثالثا: التعريف الاصطلاحي للشهيد عند الشافعية:

عرفه الإمام النووي[(٧)] -رحمه الله- بأنه: «من مات بسبب قتال الكفار حال قيام القتال»[(٨)].

رابعا: التعريف الاصطلاحي للشهيد عند الحنابلة:

عرّف ابن مفلح[(٩)] -رحمه الله- الشهيد بأنه: «من قتل بأيدي الكفار في معركتهم»[(١٠)].

وتعاريف الفقهاء -رحمهم الله- للشهيد بالمعنى الاصطلاحي ليست بجامعة ولا مانعة عدا الحنفية، ولعل ذلك -والله أعلم- لكثرة الخلاف في ضابط الشهيد، والاختلاف في أكثر صوره.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: النهي عن القول بأن الذين قتلوا في سبيل الله أموات؛ وهو يشمل القول بالقلب - وهو الاعتقاد، والقول باللسان - وهو النطق.

٢- ومنها: التنبيه على الإخلاص في القتال؛ لقوله تعالى: {في سبيل الله}؛ وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً أيّ ذلك في سبيل الله؟ فقال -

---

(١) هو: محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الدمشقي الحنفي، ولد سنة ١١٩٨هـ، من أشهر مؤلفاته: حاشيته المسماة "رد المحتار على الدر المختار"، فقيه الديار الشامية، وإمام الحنفية في عصره. توفي سنة ١٢٥٢هـ. انظر: الأعلام: ٤٢/٦. ومعجم المؤلفين، لعمر كحالة: ٧٧/٩

(٢) المرتث هو من أصيب في المعركة أو غيرها ولم يجهز عليه في مصرعه ثم مات بعد ذلك متأثرًا بجراحته، وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث خاص. انظر ص١٦٥.

(٣) حاشية ابن عابدين: ٢٤٧/٢.

(٤) المصدر نفسه والصحيفة نفسها.

(٥) هو: خليل بن إسحاق بن موسى المصري المالكي، مؤلف المختصر الذي هو عمدة المذهب. توفي سنة ٧٦٧هـ. انظر: الديباج: ٣٥٧/١. وشجرة النور الزكية، ص٢٢٣. ومعجم المؤلفين: ١١٣/٣.

(٦) مختصر خليل، ص٥٦-٥٧.

(٧) هو: الإمام محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، الشافعي، ولد سنة ٦٣١هـ، من كبار علماء الإسلام، له المؤلفات الجليلة النافعة، منها: شرح صحيح مسلم، وروضة الطالبين، والمجموع شرح المهذب، ورياض الصالحين، وغيرها. توفي سنة ٦٧٦هـ. انظر: طبقات الشافعية، لابن هداية الله، ص٨٩. والمنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي، للسخاوي.

(٨) روضة الطالبين: ١١٩/٢.

(٩) هو: برهان الدين أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مفلح الحنبلي، ولد سنة ٨١٥هـ، انتهى إليه رئاسة عصره. من مؤلفاته: "المبدع في شرح المقنع"، وهو عمدة في المذهب. توفي سنة ٨٨٤هـ. انظر: السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة: ٦٠/١.

(١٠) المبدع شرح المقنع، لابن مفلح: ٢٣٤/٢.

صلى الله عليه وسلم-: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[(1)]؛ وهذه مسألة مهمة؛ لأن كثيراً من الناس قد يقصد أن هذا جهاد، فيخرج؛ لأنه جهاد وقتال لأعداء الله؛ لكن كونه يشعر بأن هذا في سبيل الله - أي في الطريق الموصل إلى الله أبلغ.

٣- ومن فوائد الآية: إثبات حياة الشهداء؛ لكنها حياة برزخية لا تماثل حياة الدنيا؛ بل هي أجلّ، وأعظم، ولا تعلم كيفيتها.

٤- ومنها: أن ثواب الله سبحانه وتعالى للعامل أجلُّ، وأعلى؛ وذلك؛ لأن الشهيد عرض نفسه للموت ابتغاء ثواب الله؛ فأثابه الله، حيث جعله حياً بعد موته حياة برزخية أكمل من حياة الدنيا؛ لقوله تعالى: {عند ربهم يرزقون} [آل عمران: ١٦٩] .

٥- ومنها: إثبات الحياة البرزخية؛ لقوله تعالى: {بل أحياء}؛ وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا دفن الإنسان رد الله عليه روحه، وجاءه ملكان يسألانه عن ربه، ودينه، ونبيه[(2)].

٦- ومنها: إثبات نعيم القبر؛ لقوله تعالى: {بل إحياء}.

٧- ومنها: أن أحوال البرزخ، وعالم الغيب غير معلومة لنا، ولا نشعر بها إلا ما علمنا الله ورسوله.

القرآن

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)} [البقرة : ١٥٥]

التفسير:

ولنختبرنكم بشيء يسير من الخوف، ومن الجوع، وبنقص من الأموال بتعسر الحصول عليها، أو ذهابها، ومن الأنفس: بالموت أو الشهادة في سبيل الله، وبنقص من ثمرات النخيل والأعناب والحبوب، بقلَّة ناتجها أو فسادها. وبشِّر -أيها النبي- الصابرين على هذا وأمثاله بما يفرحهم ويَسُرُّهم من حسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

سبب النزول:

قال الماوردي:" لما تقدم من دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يجعلها عليهم سنين كسني يوسف[(1)] حين قحطوا سبع سنين ، فقال الله تعالى مجيباً لدعاء نبيه:{وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ}، الخوف يعني الفزع في القتال، والجوع يعني المجاعة بالجدب "[(2)].

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٥١ – ٢٥٢، كتاب فرض الخمس، باب ١٠: من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره، حديث رقم ٣١٢٦، وأخرجه مسلم ص١٠١٨، كتاب الإمارة، باب ٤٢: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم ٤٩٢٠ [١٥٠] ١٩٠٤، واللفظ لمسلم.

(٢) راجع مسند الإمام أحمد ٢٩٥/٤ – ٢٩٦، حديث رقم ١٨٨١٥، وأبو داود ص١٥٧٢، كتاب السنة، باب ٢٣: المسألة في القبر وعذاب القبر، حديث رقم ٤٧٥٣، والترمذي مختصراً ص١٩٦٨، كتاب تفسير القرآن، باب ١٤: ومن سورة إبراهيم، حديث رقم ٣١٢٠، وقال الألباني في صحيح أبي داود ١٦٥/٣ – ١٦٦، "صحيح". أهـ. وأصله في البخاري ومسلم.

(١) لفظ الحديث:" "اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنين يوسف". رواه البخاري في "صحيحه" كتاب "الأذان" باب يهوي بالتكبير حين يسجد "الفتح" "٢/ ٢٩٠" بهذا اللفظ وبدون "عليهم في كتاب الاستسقاء" باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم" اجعلها عليهم سنين كسني يوسف "الفتح" "٢/ ٤٩٢" وكتاب "التفسير" باب "ليس لك من الأمر شيء". "الفتح" "٨/ ٢٢٦".

(٢) النكت والعيون: ٢٠٩/١، وانظر: العجاب: ٤٠٥/١-٤٠٦.

وعبّر عنه أبو حيان بقوله:" وقيل : هؤلاء أهل مكة ، خاطبهم بذلك إعلاماً أنه أجاب دعوة نبيه صلى الله عليه وسلّم فيهم ، وليبقوا يتوقعون المصيبة ، فتضاعف عليهم المصيبات"[١].

قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ}[البقرة : ١٥٥] ،" أي ولنختبرنكم[٢].

قال الثعلبي:أي:" ولنختبرنكم يا أمة محمد"[٣].

قال ابن عطية:"معناه: لنمتحننكم"[٤].

قال المراغي:" أي والله لنمتحننكم"[٥].

قال أبو السعود:أي:" لنصيبنكم إصابة من يختبر أحوالكم، أتصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء"[٦].

قال القرطبي: أي: "لنمتحننكم لنعلم المجاهد والصابر علم معاينة حتى يقع عليه الجزاء، والبلاء يكون حسنا ويكون سيئا. وأصله المحنة"[٧].

قال ابن كثير:"إذ "أخبر تعالى أنه يبتلي عباده المؤمنين، أي : يختبرهم ويمتحنهم ، كما قال تعالى : {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}[محمد:٣١] فتارة بالسراء ، وتارة بالضراء"[٨].

قال ابن عباس:" أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دارُ بلاء ، وأنه مبتليهم فيها ، وأمرَهم بالصبر وبَشّرهم فقال : {وبشر الصابرين}، ثم أخبرهم أنه فعل هكذا بأنبيائه وصَفوته ، لتطيب أنفسهم فقال :{ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا}"[٩].

واختلف النحويون في فتح (الواو) في قوله تعالى:{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ}[البقرة : ١٥٥]، على قولين[١٠]:

أحدهما:. أنها مفتوحة لالتقاء الساكنين. قاله سيبويه[١١].

الثاني: وقال آخرون: أنها مبنيه علي الفتح .

قال الزجاج:"فالذين قالوا إنها مبنية على الفتح غير خارجين من قول سيبويه، وكلا القولين جائز"[١٢].

قوله تعالى:{بِشَيْءٍ}[البقرة:١٥٠]، " بشيءٍ يسير من ألوان البلاء"[١٣].

قال الزمخشري: أي: "بِشَيْءٍ قليل[١٤] من كل واحد من هذه البلايا، و(شيء)هنا للتقليل؛ ويحتمل أن يكون للتكثير.

---

(١) البحر المحيط: ٣٩١/١، وانظر: العجاب: ٤٠٦/١.
(٢) صفوة التفاسير:٩٤/١.
(٣) تفسير الثعلبي:٢٢/٢.
(٤) المحرر الوجيز: ٢٢٧/١.
(٥) تفسير المراغي:٢٤/٢.
(٦) تفسير أبي السعود: ١٨٠/١.
(٧) انظر: تفسير القرطبي: ١٧٣/٢.
(٨) تفسير ابن كثير: ٤٦٧/١.
(٩) أخرجه الطبري(٢٣٢٥):ص٢١٩/٣.
(١٠) انظر: معاني القرآن للزجاج:٢٣٠/١.
(١١) انظر: معاني القرآن للزجاج:٢٣٠/١.
(١٢) معاني القرآن: ٢٣٠/١.
(١٣) صفوة التفاسير:٩٤/١.
(١٤) انظر: تفسير الكشاف: ٢٠٧/١.

قال أبو السعود:" أي بقليل من ذلك فإن ما وقاهم عنه أكثر بالنسبة إلى ما أصابهم بألف مرة وكذا ما يصيب به معانديهم وإنما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة حميدة"[١].

قال ابن عطية:" فالمراد بشيء من هذا وشيء من هذا فاكتفى بالأول إيجازا ولذلك وحد"[٢].

وقرأ الضحاك: {بأشياء}، على الجمع، والمعنى قريب بعضه من بعض[٣].

وإنما قال {بِشَيْءٍ} على الوحدان، ولم يقل بأشياء على الجمع لوجهين[٤]:

الأول: لئلا يوهم بأشياء من كل واحد، فيدل على ضروب الخوف والتقدير بشيء من كذا وشيء من كذا.

الثاني: معناه بشيء قليل من هذه الأشياء.

وقال الإمام الطبري: "وإنما قال تعالى ذكره : " بشيء من الخوف " ولم يقل بأشياء ، لاختلاف أنواع ما أعلم عبادَه أنه مُمتحنهم به. فلما كان ذلك مختلفًا - وكانت " مِن " تَدلّ على أنّ كل نوع منها مُضمر " شيء " ، فإنّ معنى ذلك : ولنبلونكم بشيء من الخوف ، وبشيء من الجوع ، وبشيء من نقص الأموال - اكتفى بدلالة ذكر " الشيء " في أوله ، من إعادته مع كل نوع منها، ففعل تعالى ذكره كل ذلك بهم ، وامتحنهم بضروب المحَن"[٥].

قوله تعالى:{مِنَ الْخَوْفِ}[البقرة:١٥٥]، أي: "وشيء من الخوف"[٦].

قال ابن عطية:" يعني من الأعداء في الحروب"[٧].

قال الطبري: يعني: من الخوف من العدو"[٨].

قال ابن عثيمين:معناه: "الذُّعْر؛ وهو شامل للخوف العام، والخوف الخاص؛ الخوف العام: كأن تكون البلاد مهددة بعدو؛ والخوف الخاص: كأن يكون الإنسان يبتلى بنفسه بمن يخيفه ويروعه"[٩].

قال ابن عباس:" {الخوف}: يعني: خوف العدو"[١٠].

قال الشافعي: "خوف العدو"[١١].

قال النسفي:" خوف الله والعدو"[١٢].

قوله تعالى:{وَالْجُوعِ}[البقرة:١٥٥]، أي: "وشيء من الجوع""[١٣].

---

(١) تفسير أبي السعود: ١٨٠/١.
(٢) المحرر الوجيز: ٢٢٨/١.
(٣) انظر: المحرر الوجيز: ٢٢٨/١.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب: ١٣٧/٤.
(٥) تفسير الطبري: ٢٢٠/٣.
(٦) معاني القرآن للزجاج: ٢٣٠/١.
(٧) المحرر الوجيز: ٢٢٧/١.
(٨) تفسير الطبري: ٢٢٠/٣.
(٩) تفسير ابن عثيمين: ٧٩/٢.
(١٠) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٢/٢، وتفسير القرطبي: ١٧٣/٢.
(١١)انظر: تفسير الشافعي:١/ ٢٤٢، وتفسير الثعلبي:٢٢/٢، وتفسير البيضاوي: ١١٤/١، وتفسير القرطبي: ١٧٣/٢.
(١٢) تفسير النسفي:١٣٧/١.
(١٣) معاني القرآن للزجاج: ٢٣٠/١.

قال الطبري:"وهو القحط، يقول: وبسَنه تُصيبكم ينالكم فيها مجاعة وشدة ، وتتعذر المطالب عليكم"(١).

وفي قوله تعالى: :{وَالْجُوعِ}[البقرة:١٥٥]، وجهان:

أحدهما: أن المراد: الجوع بسبب يعني المجاعة والقحط. وهذا في قول ابن عباس(٢).

والثاني:أنه الجوع في شهر رمضان. قاله الشافعي (٣).

قال ابن عطية:أي:" الجدب والسنة، وأما الحاجة إلى الأكل فإنما اسمها الغرث، وقد استعمل فيه المحدثون الجوع اتساعا"(٤).

قال النسفي:أي:" أي القحط أو صوم شهر رمضان"(٥).

و{الْجُوعِ}: "هو خلو البطن من الطعام مع شدة اشتهائه؛ وهو ضد «الشِّبع»؛ وله أسباب؛ السبب الأول: قلة الطعام؛ و السبب الثاني: قلة المال الذي يحصل به الطعام؛ والسبب الثالث: أن يصاب الإنسان بمرض يمنعه من الطعام إما لقلة الشهية؛ وإما للعجز عن استساغه لسدَدٍ في الحلق، أو قروح في المعدة، أو غير ذلك؛ والجوع لا يدرك أثره إلا من جربه؛ بل كل المصائب لا يدرك أثرها إلا من جربها؛ أما من لم يجرب فإنه لا يشعر بآثار المصائب؛ ولهذا قيل: وبضدها تتبين الأشياء"(٦).

قوله تعالى:{وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ}[البقرة:١٥٥]، أي:و"وذهاب بعض الأموال"(٧).

قال الزجاج: أي"وشيء من تقص الأموال"(٨).

قال ابن عطية:أي:" بالجوائح والمصائب"(٩).

قال أبو السعود: أي:بـ" الزكاة والصدقات"(١٠).

قال ابن كثير:"أي "ذهاب بعضها"(١١).

قال الثعلبي:" يعني الخسران والنقصان في المال، وهلاك المواشي"(١٢).

قال النسفي:" بموت المواشي أو الزكاة ، وهو عطف على شيء ، أو على الخوف أي وشيء من نقص الأموال"(١٣).

أخرج ابن أبي حاتم عن رجاء بن حيوة: "{ونقص من الثمرات}، قال: حتى لا تحمل النخلة إلا ثمرة واحدة"(١٤).

---

(١) تفسير الطبري: ٢٢٠/٣.
(٢) انظر: تفسير الثعلبي:٢٢/٢، وتفسير القرطبي: ١٧٣/٢.
(٣)انظر: تفسير الشافعي:١/ ٢٤٢، وتفسير الثعلبي:٢٢/٢، وتفسير البيضاوي: ١١٤/١، وتفسير القرطبي: ١٧٣/٢.
(٤) المحرر الوجيز: ٢٢٧/١.
(٥) تفسير النسفي:١/!٣٧.
(٦) تفسير ابن عثيمين: ١٧٨/٢.
(٧) صفوة التفاسير:٩٤/١.
(٨) معاني القرآن للزجاج: ٢٣٠/١.
(٩) المحرر الوجيز: ٢٢٧/١.
(١٠) تفسير أبي السعود: ١٨٠/١.
(١١) تفسير ابن كثير: ٤٦٧/١.
(١٢) تفسير الثعلبي:٢٢/٢.
(١٣) تفسير النسفي:١٣٨/١.
(١٤) تفسير ابن أبي حاتم:٢٦٤/١.

وفي سبب نقص الأموال أقوال:
أحدها: أن ذلك بسبب الاشتغال بقتال الكفار[1].
الثاني:وقيل: بالجوائح المتلفة.
الثالث: بالزكاة المفروضة. قاله الشافعي[2].
و{الأموال}: "جمع (مال)؛ وهو كل ما يتموله الإنسان من نقود، ومتاع، وحيوان"[3].
قوله تعالى:{وَالْأَنْفُسِ}[البقرة:١٥٥]، أي:" وموت بعض الأحباب"[4].
قال ابن عطية:اي:" بالموت والقتل"[5].
قال أبو السعود: أي بـ" الأمراض"[6].
قال الطبري:أي: "موتُ ذراريكم وأولادكم"[7].
قال النسفي:أي:" بالقتل والموت، أو بالمرض والشيب"[8].
وفي نقص الأنفس، ثلاثة أقوال:
أحدهما: يعني: بالقتل والموت في الجهاد. قاله ابن عباس[9].
الثاني:يعني بالأمراض. قاله الشافعي[10].
الثالث: وقيل: الشيب[11].
و{الأنفس}: "جمع (نفس)؛ والمراد: الأرواح، كالأمراض الفتاكة التي تهلك بها أمم، مثل الطاعون، وغيره"[12].
قوله تعالى:{وَالثَّمَرَاتِ}[البقرة:١٥٥]، أي:" وضياع بعض الزروع والثمار"[13].
قال ابن عباس: "المراد: قلة النبات وانقطاع البركات"[14].
قال الطبري: " وجُدوب تحدُث، فتنقص لها ثماركم "[15].
قال ابن عطية:أي:" بالعاهات ونزع البركة"[1].

---

(١) وذلك بأن ينفق الإنسان ماله في الاستعداد للجهاد وقد يقتل، فهناك يحصل النقص في المال والنفس. فهناك يحصل النقص في المال والنفس وقال الله تعالى: {وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم} (التوبة: ٤١) وقد يحصل الجوع في سفر الجهاد عند فناء الزاد قال الله تعالى: {ذالك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله} (التوبة: ١٢٠).(مفاتيح الغيب: ١٣٧/٤).
(٢)انظر: تفسير الشافعي:١/ ٢٤٢، وتفسير الثعلبي:٢٢/٢، وتفسير البيضاوي: ١١٤/١، وتفسير القرطبي: ١٧٣/٢.
(٣) تفسير ابن عثيمين:١٧٩/٢.
(٤) صفوة التفاسير:٩٤/١.
(٥) المحرر الوجيز: ٢٢٨/١.
(٦) تفسير أبي السعود: ١٨٠/١.
(٧) تفسير الطبري: ٢٢٠/٣.
(٨) تفسير النسفي:١٣٨/١.
(٩) انظر: تفسير القرطبي:١٧٤/٢.
(١٠)انظر: تفسير الشافعي:١/ ٢٤٢، وتفسير الثعلبي:٢٢/٢، وتفسير البيضاوي: ١١٤/١، وتفسير القرطبي: ١٧٣/٢.
(١١) انظر: تفسير الثعلبي:٢٢/٢.
(١٢) تفسير ابن عثيمين:١٧٩/٢.
(١٣) صفوة التفاسير:٩٤/١.
(١٤) انظر: تفسير القرطبي: ١٧٣/٢.
(١٥) تفسير الطبري: ٢٢٠/٣.

قال الثعلبي:" يعني [الحوائج] ، وأن لا تخرج الثمرة كما كانت تخرج"[٢].
قال ابن كثير: فـ"لا تُغِلّ الحدائق والمزارع كعادتها، كما قال بعض السلف : فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة. وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده ، فمن صبر أثابه الله ومن قنط أحل الله به عقابه"[٣].
قال النسفي:أي:" ثمرات الحرث أو موت الأولاد لأن الولد ثمرة الفؤاد"[٤].
و{الثمرات}: "جمع (ثمرة)؛ وهي "ما ينتج من أشجار النخيل، والأعناب، وغيرهما، بأن تأتي كوارث تنقص بها هذه الثمار، أو تتلف"[٥].
وفي نقص { وَالثَّمَرَاتِ}، قولان:
أحدهما: أنها نقص من ثمار الأشجار.
قال القاسمي:" أي بأن لا نغلّ الحدائق كعادتها، للغيبة عنها في سبيل الله، وفقد من يتعاهدها، وخصت بالذكر لأنها أعظم أموال الأنصار الذين هم أخص الناس بهذا الذكر، لا سيما في وقت نزول هذه الآيات. وهو أول زمان الهجرة"[٦].
الثاني: أن"المراد موت الأولاد". قاله الشافعي[٧]، وولد الرجل ثمرة قلبه[٨].
والقول الثاني ضعيف، لأنه صرف عن ظاهر اللفظ، وقد اعترض عليه ابن كثير[٩]، والله أعلم.
قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}[البقرة:١٥٥]، " أي: وبشر الصابرين على المصائب والبلايا بجنات النعيم"[١].

---

(١) المحرر الوجيز: ٢٢٨/١.
(٢) تفسير الثعلبي:٢٢/٢.
(٣) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٦٧/١.
(٤) تفسير النسفي:١٣٨/١.
(٥) تفسير القرطبي: ١٧٩/٢.
(٦) محاسن التأويل: ٤٤٢/١.
(٧) انظر: تفسير الثعلبي:٢٢/٢، وتفسير البيضاوي: ١١٤/١، وتفسير القرطبي: ١٧٣/٢. ولم أجد هذا التفسير في تفسير الشافعي:١/ ٢٤٢. وإنما قال:" {والثمرات} : الصدقات".
(٨) روي عَنْ أَبِي سِنَانٍ قَالَ دَفَنْتُ ابْنِي سِنَانًا وَأَبُو طَلْحَةَ الْخَوْلَانِيُّ جَالِسٌ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ فَلَمَّا أَرَدْتُ الْخُرُوجَ أَخَذَ بِيَدِي فَقَالَ أَلَا أُبَشِّرُكَ يَا أَبَا سِنَانٍ قُلْتُ بَلَى فَقَالَ حَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَرْزَبٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ مَاذَا قَالَ عَبْدِي فَيَقُولُونَ حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ فَيَقُولُ اللَّهُ : " ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ" رواه الترمذي (٩٤٢)، حسنه الألباني في السلسة الصحيحة (١٤٠٨).
(٩) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٦٧/١. قال ابن كثير: " وقد حكى بعضُ المفسرين أن المراد من الخوف هاهنا : خوف الله، وبالجوع : صيام رمضان ، ونقص الأموال : الزكاة ، والأنفس : الأمراض ، والثمرات : الأولاد، وفي هذا نظر".
وقيل: "لأن هذا الابتلاء موعود به في المستقبل ، مذكور قبل وقوعه توطنا عليه عند الوقوع ، ولعله ما من بلية ذكرها إلا وقد تقدمت لهم قبل نزول الآية ، إذ الخوف من اللّه تعالى لم يزل مشحونا في قلوب المؤمنين ، ويبعد أن يعبر عن الصدقة بالنقص وقد عبر عنها الشرع بالزكاة التي هي النمو ضد النقص وورد، " ما نقصت صدقة من مال". [صحيح مسلم (٤/ ٢٠٠١): باب استحباب العفو والتواضع، (٢٥٨٨)]، ويمكن أن يقال هي نقص حساً وإنما سميت زكاة باعتبار ما يؤول إليه حال القيام بها من النمو فالعوض المرجو من كرم اللّه خلف فلما ذكرها اللّه تعالى في سياق الابتلاء الموعود بها عبر عنها بالزكاة تسهيلا لاخراجها على المكلف لأنه إذا استشعر العوض من اللّه تعالى ونمو ماله بذلك ، هان عليه بذلها وسمحت نفسه لذلك.والله أعلم".[حاشية الكشاف: ٢٠٧/١].

قال سعيد بن جبير:" يعني: بشرهم بالجنة"(٢).
قال الطبري:أي" يا محمد ، بشّر الصابرين على امتحاني بما أمتحنهم به"(٣).
قال الثعلبي:أي الصابرين"على البلايا والرزايا"(٤).
قال القرطبي:أي "بالثواب على الصبر، والصبر أصله الحبس ، وثوابه غير مقدر"(٥).
قال الزجاج: أي:" بالصلاة عليهم من ربهم والرحمة وبأنهم المهتدون"(٦).
قال الزمخشري:" والخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، أو لكل من يتأتى منه البشارة"(٧).
قال أبو حيان:" خطاب للنبي صلى الله عليه وسلّم ، أو لكل من تتأتى منه البشارة ، أي على الجهاد بالنصر ، أو على الطاعة بالجزاء ، أو على المصائب بالثواب ، أقوال : والأحسن عدم التقييد ، أي كل من صبر صبراً محموداً شرعاً ، فهو مندرج في الصابرين"(٨).
وأصل (التبشير): "إخبار الرجل الرجلَ الخبرَ ، يَسرّه أو يسوءه ، لم يسبقه به إلى غيره"(٩).
ونرى بأن هذه المصائب الخمس (الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ) والجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات: (القسم، واللام، والنون)؛ والتقدير: واللّهِ لنبلونكم؛ والفعل هنا مع نون التوكيد مبني على الفتح؛ و (نبلو) بمعنى نختبر.
الفوائد:
١- من فوائد الآية: ابتلاء العباد بما ذكر الله من الخوف، والجوع، ونقص الأموال، والأنفس، والثمرات، وهو لمن وقع به ظاهر؛ ولغيرهم يكون الابتلاء بالاعتبار، والخوف أن يقع بهم مثل ما وقع بالذين ابتلوا.
٢- ومنها: أن الناس ينقسمون عند المصائب إلى قسمين: صابر، وساخط؛ وقد جاء في الحديث: «من رضي فله الرضا؛ ومن سخط فله السخط»(٢)؛ فالصبر على المصائب واجب؛ وقد ذكر العلماء أن للإنسان عند المصيبة أربعة مقامات:
المقام الأول: الصبر - وهو واجب.
المقام الثاني: الرضا - وهو سنة على القول الراجح؛ والفرق بينه، والصبر، أن الصابر يتجرع مرارة الصبر، ويشق عليه ما وقع؛ ولكنه يحبس نفسه عن السخط؛ وأما الراضي: فإن المصيبة باردة على قلبه لم يتجرع مرارة الصبر عليه؛ فهو أكمل حالاً من الصابر.
المقام الثالث: الشكر: بأن يشكر الله على المصيبة.
فإن قيل: كيف يشكره على المصيبة؟

---

(١) صفوة التفاسير:٩٤/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٢٠):٢٦٤/١.
(٣) تفسير الطبري: ٢٢١/٣.
(٤) تفسير الثعلبي:٢٣/٢.
(٥) انظر: تفسير القرطبي: ١٧٣/٢.
(٦) معاني القرآن: ٢٣١/١.

(٧) الكشاف: ٢٠٧/١.
(٨) البحر المحيط: ٤٥٠/١-٤٥١.
(٩) تفسير الطبري: ٢٢١/٣.
(٢) أخرجه الترمذي ص١٨٩٢، كتاب الزهد، باب ٥٦: ما جاء في الصبر على البلاء، حديث رقم ٢٣٩٦، وأخرجه ابن ماجة ص٢٧١٩، كتاب الفتن، باب ٢٣: الصبر على البلاء، حديث رقم ٤٠٣١، وفي الحديث سعد بن سنان مختلف فيه، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: "سنده حسن" ٢٩٩/١، حديث رقم ١٤٦.

فالجواب: أن ذلك من وجوه:
منها: أن ينسبها إلى ما هو أعظم منها؛ فينسب مصيبة الدنيا إلى مصيبة الدين؛ فتكون أهون؛ فيشكر الله أن لم يجعل المصيبة في الأشد.
ومنها: احتساب الأجر على المصيبة بأنه كلما عظم المصاب كثر الثواب؛ ولهذا ذكروا عن بعض العابدات أنها أصيبت بمصيبة، ولم يظهر عليها أثر الجزع؛ فقيل لها في ذلك، فقالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها.
المقام الرابع: السخط - وهو محرم - بل من كبائر الذنوب؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[١].
٣- ومن فوائد الآية: البشرى للصابرين.

القرآن
{الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)} [البقرة : ١٥٦]
التفسير:
من صفة هؤلاء الصابرين أنهم إذا أصابهم شيء يكرهونه قالوا: إنَّا عبيد مملوكون لله، مدبَّرون بأمره وتصريفه، يفعل بنا ما يشاء، وإنا إليه راجعون بالموت، ثم بالبعث للحساب والجزاء.
قوله تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ}[البقرة:١٥٦]، "أي نزل بهم كرب أو بلاء أو مكروه"[١].
قال مقاتل:" يعني فيما ذكر من هذه الآية"[٢].
قال الآلوسي:" إشارة إلى أن الأجر لمن صبر وقت إصابتها، كما في الخبر «إنما الصبر عند أول صدمة»[٣]"[٤].
قال البيضاوي:" الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو لمن تتأتى منه البشارة"[٥].
قال الراغب:" المصيبة: من: أصاب السهم، إذا بلغ على صواب ، وهي في الأصل صفة ، وليس يريد بالقول اللفظ فقط ، فإن التلفظ بذلك مع الجزع القبيح والسخط للقضاء ليس يعني شيئاً وإنما يريد تصور ما خلق الإنسان لأجله ، والقصد له والاستهانة بما يعرض في طريق الوصول ، فأمر تعالى ببشارة من اكتسب العلوم الحقيقية وتصورها ، وتصور بها المقصد ووطن نفسه عليه"[٦].
قال القرطبي:"و(المصيبة): كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه ، يقال : أصابه إصابة ومصابة ومصابا. والمصيبة واحدة المصائب. والمصوبة "بضم الصاد" مثل المصيبة. وأجمعت

---

(١) أخرجه البخاري ص١٠١، كتاب الجنائز، باب ٣٨: ليس منا من ضرب الخدود، حديث رقم ١٢٩٧؛ وأخرجه مسلم ص٦٩٥، كتاب الإيما، باب ٤٤: تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب...، حديث رقم ٢٨٥ [١٦٥] ١٠٣.
(١) صفوة التفاسير:٩٤/١.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥١/١.
(٣) صحيح مسلم(٩٢٦)/ص٦٣٨/٢.
(٤) روح المعاني: ٤٢١/١.
(٥) تفسير البيضاوي: ١١٥/١.
(٦) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣٥٣/١.

العرب على همز المصائب ، وأصله الواو ، كأنهم شبهوا الأصلي بالزائد ، ويجمع على مصاوب ، وهو الأصل. والمصاب الإصابة ، قال الشاعر(١) :
أَظَلَيْمُ إن مُصَابَكم رَجُلا... أَهْدَى السّلامَ تحيَّةً ظُلْمُ
وصاب السهم القرطاس يصيب صيبا، لغة في أصابه(٢)، والمصيبة : النكبة ينكبها الإنسان وإن صغرت ، وتستعمل في الشر"(٣).
قال أبو حيان:" و(المصيبة) : كل ما أذى المؤمن في نفس أو مال أو أهل ، صغرت أو كبرت ، حتى انطفاء المصباح لمن يحتاجه يسمى : مصيبة. وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلّم ، أنه استرجع عند انطفاء مصباحه(٤)"(٥).
وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذىً، ولا غم, حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها خطاياه"(٦)، والنصب التعب، والوصب: المرض، وقيل هو المرض اللازم(٧).
وإن قيل : ولم قلت إن الأمر بالصبر يقتضي العلم ، وما الصبر من العلم ؟
قيل : "الصبر على الحقيقة إنما يكون لمن عرف فضيلة مطلوبة ، ولهذا قال الخضر لموسى لما علم أن ليس يرف مقصده في فعله قال : {قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا} [الكهف : ٦٧-٦٨]، فدل أن حقيقة تحمل الصبر لأبد له من معرفة المقصود به"(٨).
قوله تعالى: {قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ}[البقرة:١٥٦]، أي: إنا لله" عبيدا وملكا"(٩).
قال الصابوني:"أي استرجعوا وأقروا بأنهم عبيد الله يفعل بهم ما يشاء"(١٠).
قال ابن عثيمين: أي قالوا: بقلوبهم، وألسنتهم إنا ملك لله يفعل بنا ما يشاء،"(١١).
قال الزجاج:" أي نحن وأموالنا لله ونحن عبيده يصنع بنا ما شاء، وفي ذلك صلاح لنا وخير"(١٢).

---

(١) البيت للحارث بن خالد المخومي كما في الأغاني: ٢٢٩/٩، والخزانة:٤٥٤/١، ونسبه ابن هشام في المغني:٦٩٧، للأعرجي، وهو في مجالس ثعلب:٢٢٤، وتفسير الطبري: ١١٦/١، وأمالي ابن الشجري:١٦١/١، بدون نسبة، وجا عند بعظهم" أظليم، وعند بعضهم: أظلوم، بدل أسليم، وانظر: اللسان:(صوب).
(٢) انظر: الصحاح:(صوب).
(٣) تفسير القرطبي: ١٧٥/٢.
(٤)أخرجه) :الطبراني في الكبير رقم ٧٨٢٤).
(٥) البحر المحيط:٤٥١/١.
(٦)خرجه البخاري في كتاب المرضى باب:ما جاء في كفارة المرض (الفتح ٢٣٩/١١برقم٥٦٤١)، وأخرجه مسلم في كتاب البر واصلة والآداب: باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك، حتى الشوكة يشاكها(١٩٩٠/٤برقم ٢٥٧٢).
(٧)فتح الباري(٢٤٢/١١-٢٤٣).
(٨) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣٥٣/١-٣٥٤.
(٩) تفسير الثعلبي: ٢٣/٢، وتفسير البغوي: ١٦٩/١.
(١٠) صفوة التفاسير:٩٤/١.
(١١) تفسير ابن عثيمين:١٧٩/٢.[بتصرف بسيط].
(١٢) معاني القرآن: ٢٣١/١.

قال أبو حيان:" معناه الإقرار بالملك والعبودية لله ، فهو المتصرّف فينا بما يريد من الأمور"(١).

قال أهل العلم:"إن إسناد الإصابة إلى المصيبة ، لا إلى الله تعالى ، ليعم ما كان من الله ، وما كان من غيره. فما كان من الله فهو داخل تحت قوله : {إِنَّا لِلَّهِ} ، لأن في الإقرار بالعبودية تفويضاً للأمور إليه ، وما كان من غيره فتكليفه أن يرجع إلى الله في الإنصاف منه ، ولا يتعدى"(٢).

وقد أمال نصير (النون) في قوله {إنا لله}، فأمال قتيبة {النون واللام} جميعا، فخمها الباقون(٣).

قوله تعالى:{ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}[البقرة:١٥٦]، أي:" وإنا إليه صائرون فنرجو ثوابه"(٤).

قال الزجاج:" أي نحن مصدقون بأنا نبعث ونعطي الثواب على
تصديقنا، والصبر على ما ابتلانا به"(٥).

قال الثعلبي:أي" {وإنا إليه راجعون} في الآخرة"(٦).

قال ابن كثير: " أي : تسلَّوا بقولهم هذا عما أصابهم ، وعلموا أنَّهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرَّة يوم القيامة ، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده ، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة"(٧).

قال أبو حيان:" إقرار بالبعث وتنبيه على مصيبة الموت التي هي أعظم المصائب ، وتذكير أن ما أصاب الإنسان دونها فهو قريب ينبغي أن يصير له"(٨).

قال البيضاوي:" وليس الصبر بالاسترجاع باللسان، بل به وبالقلب بأن يتصور ما خلق لأجله، وأنه راجع إلى ربه، ويتذكر نعم الله عليه ليرى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرده منه فيهون على نفسه، ويستسلم له"(٩).

قال أبو السعود:" وليس الصبر هو الاسترجاع باللسان بل بالقلب بأن يتصور ما خلق له وأنه راجع إلى ربه ويتذكر نعم الله تعالى عليه ويرى أن ما أبقى عليه اضعاف ما استرده منه فيهون ذلك على نفسه ويستسلم"(١٠).

قال ابن عطية:" جعل هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب وعصمة للممتحنين لما جمعت من المعاني المباركة، وذلك توحيد الله والإقرار له بالعبودية والبعث من القبور واليقين بأن رجوع الأمر كله إليه كما هو له"(١١).

---

(١) البحر المحيط: ٤٥١/١.
(٢) البحر المحيط: ٤٥١/١-٤٥٢.
(٣) انظر: تفسير الثعلبي:٢٣/٢.
(٤) تفسير ابن عثيمين:١٧٩/٢.[بتصرف بسيط].
(٥) معاني القرآن: ٢٣١/١.
(٦) تفسير الثعلبي:٢٣/٢.
(٧) تفسير ابن كثير: ٤٦٧/١-٤٦٨.
(٨) البحر المحيط: ٤٥١/١.
(٩) تفسير البيضاوي: ١١٥/١.
(١٠) تفسير أبو السعود: ١٨٠/١.
(١١) المحرر الوجيز: ٢٢٨/١.

وقال سعيد بن جبير: " مَا أعطِيَ أحدٌ ما أعطيت هذه الأمة :{الذينَ إذا أصابتهم مصيبه قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صَلواتٌ من رَبهم وَرحمةٌ}، ولو أعطيها أحدٌ لأعطيها يعقوب عليه السلام ، ألم تسمعْ إلى قوله : { يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ}[سورة يوسف : ٨٤]"[١].

قال أبو بكر الوراق: "{إنا لله}: اقرار منا له بالملك، {وإنا إليه راجعون}: في الآخرة، إقرار على أنفسنا بالهلاك"[٢].

قال عليه السلام: " من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته ، وأحسن عقباه ، وجعل له خلفاً يرضاه "[٣].

وعن جويبر، عن الضحاك، قال: "كتب إليه رجل يسأله عن هذه الآية الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أخاصة هي؟ أو عامة؟ قال: هي لمن آمن بالتقوى وأدى الفرائض"[٤].

قال الراغب:"وحقيقة الرجوع إليه تتبين في قوله- عز وجل- {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}فهو أدق معنى مما قدره من قال : (إنا راجعون) إلى أن لا يملك أمورنا غيره كما كنا في الابتداء ، فجعل ذلك رجوعاً لهم"[٥].

قال القرطبي: جعل الله تعالى هذه الكلمات:{قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، ملجأ لذوي المصائب ، وعصمة للممتحنين : لما جمعت من المعاني المباركة ، فإن قوله: (إِنَّا لِلَّهِ) توحيد وإقرار بالعبودية والملك. وقوله : {وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} إقرار بالهلك على أنفسنا والبعث من قبورنا ، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له"[٦].

وللمفسرين في هاتين الجملتين المقولتين:{ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}[البقرة:١٥٦]، أقوال[٧]:

أحدها : أن نفوسنا وأموالنا وأهلينا لله لا يظلمنا فيما يصنعه بنا. الثاني : أسلمنا الأمر لله ورضينا بقضائه ، {وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} يعني : للبعث لثواب المحسن ومعاقبة المسيء.

الثالث : راجعون إليه في جبر المصاب وإجزال الثواب.

الرابع : أن معناه إقرار بالمملكة في قوله : {إِنَّا لِلَّهِ} ، وإقرار بالهلكة في قوله : {وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} .

---

(١) أخرجه الطبري(٢٣٣١):ص٢٢٤/٣.

(٢) تفسير الثعلبي:٢٣/٢.

(٣) رواه الطبراني في الكبير وإسناده ضعيف: انظر: مجمع الزوائد: ٣٣١/٢. وأخرجه الطبري والبيهقي في الشعب، فقال: خْبَرَنَا أَبُو زَكَرِيَّا بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ ، أَنَا أَبُو الْحَسَنِ الطَّرَائِفِيُّ ، نَا عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ ، نَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، فِي قَوْلِهِ " : إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ سورة البقرة آية ١٥٦ ، إِلَى آخِرِ الآيَةِ ، قَالَ : أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا سَلَّمَ لأَمْرِ اللَّهِ , وَرَجَعَ وَاسْتَرْجَعَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ثَلاثَ خِصَالٍ مِنَ الْخَيْرِ : الصَّلاةَ مِنَ اللَّهِ ، وَالرَّحْمَةَ ، وَتَحْقِيقَ سَبِيلِ الْهُدَى ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنِ اسْتَرْجَعَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ جَبَرَ اللَّهُ مُصِيبَتَهُ ، وَأَحْسَنَ عُقْبَاهُ ، وَجَعَلَ لَهُ خَلَفًا صَالِحًا يَرْضَاهُ. " (شعب الإيمان: ٩٠٥٨).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٢٣):ص٢٦٥/١.

(٥) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣٥٣/١-٣٥٤.

(٦) تفسير القرطبي: ١٧٦/٢.

(٧) انظر: البحر المحيط: ٤٥١/١.

قال أبو حيان:" واشتملت الآية على فرض ونفل. فالفرض : التسليم لأمر الله ، والرضا بقدره ، والصبر على أداء فرائضه. والنفل : إظهاراً لقول {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} ، وفي إظهاره فوائد منها : غيظ الكفار لعلمهم بجده في طاعة الله"[١].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن من سمة الصابرين تفويض أمرهم إلى الله بقلوبهم، وألسنتهم إذا أصابتهم المصائب؛ لقوله تعالى: {وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون}.

٢- ومنها: مشروعية هذا القول؛ وقد جاءت السنة بزيادة: «اللهم أجُرني في مصيبتي» - أي أثبني عليها - «وأخلف لي» بقطع الهمزة - أي اجعل لي خلفاً «خيراً منها»[٢] والدليل على هذا قصة أم سلمة رضي الله عنها: كانت تحب زوجها ابن عمها أبا سلمة محبة شديدة؛ ولما مات - وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد حدثها بهذا الحديث - قالت: «اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها»؛ فكانت تفكر في نفسها، وتقول: من يصير خيراً من أبي سلمة!!!وهي مؤمنة في نفسها أن ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم حق؛ لكن لا تدري من هو؛ وما كان يجول في فكرها أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون هو الخلف؛ فأخلف الله لها خيراً من زوجها؛ فإذا قالها الإنسان مؤمناً محتسباً أجرَه الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها[٢].

القرآن

{أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)} [البقرة : ١٥٧]

التفسير:

أولئك الصابرون لهم ثناء من ربهم ورحمة عظيمة منه سبحانه، وأولئك هم المهتدون إلى الرشاد.

---

(١) البحر المحيط: ٤٥٢/١.

(٢) أخرجه مسلم ص٨٢٢، كتاب الجنائز، باب ٢: ما يقال عند المصيبة، حديث رقم ٢١٢٦ [٣] ٩١٨.

(٢) وقد ورد في ثواب الاسترجاع ، وهو قول { إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } عند المصائب أحاديث كثيرة: وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، وعَبَّاد بن عباد قالا حدثنا هشام بن أبي هشام ، حدثنا عباد بن زياد ، عن أمه ، عن فاطمة ابنة الحسين ، عن أبيها الحسين بن علي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها - وقال عباد : قدم عهدها - فيحدث لذلك استرجاعا ، إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب" ورواه ابنُ ماجه في سُنَنه ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن وَكِيع ، عن هشام بن زياد ، عن أمه ، عن فاطمة بنت الحسين ، عن أبيها [الحسين].

وقد رواه إسماعيل بن عُلَية ، ويزيد بن هارون ، عن هشام بن زياد عن أبيه ، كذا عن ، فاطمة ، عن أبيها.

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق السالحيني ، أخبرنا حماد بن سلمة ، عن أبي سنان قال : دفنتُ ابنًا لي ، فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة - يعني الخولاني - فأخرجني ، وقال لي : ألا أبشرك ؟ قلت : بلى. قال : حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عرْزَب ، عن أبي موسى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قال الله : يا ملك الموت ، قبضتَ ولد عبدي ؟ قبضت قُرَّة عينه وثمرة فؤاده ؟ قال نعم. قال : فما قال ؟ قال : حَمِدَك واسترجع ، قال : ابنو له بيتًا في الجنة ، وسمُّوه بيتَ الحمد". ثم رواه عن علي بن إسحاق ، عن عبد الله بن المبارك. فذكره (المسند (٤١٥/٤).. وهكذا رواه الترمذي عن سُوَيد بن نصر ، عن ابن المبارك ، به. سنن الترمذي برقم (١٠٢١). وقال : حسن غريب. واسم أبي سنان : عيسى بن سنان.

قوله تعالى:{أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ}[البقرة:١٥٧]، " أي أولئك الموصوفون بما ذكر لهم ثناء وتمجيد ورحمة من الله"[١].

قال أبو العالية:" يقول: فالصلوات والرحمة على الذين صبروا واسترجعوا"[٢]. وروي عن الربيع[٣] مثل ذلك.

وعن سعيد بن جبير في قوله: "{ورحمة}، يعني: رحمة لهم وأمنة من العذاب"[٤].

قال المراغي:أي "أولئك الصابرون لهم من ربهم مغفرة ومدح على ما فعلوا، ورحمة يجدون أثرها في برد القلوب عند نزول المصيبة"[٥].

قال الثعلبي:" أي أهل هذه الصفة، {عليهم صلوات}"[٦].

وقيل : أراد بالرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة[٧].

قال ابن عطية:" وصلوات الله على عبده: عفوه ورحمته وبركته وتشريفه إياه في الدنيا والآخرة، وكرر الرحمة لما اختلف اللفظ تأكيدا، وهي من أعظم أجزاء الصلاة منه تعالى، وشهد لهم بالاهتداء"[٨].

قال القرطبي: " وصلاة الله على عبده : عفوه ورحمته وبركته وتشريفه إياه في الدنيا والآخرة. وقال الزجاج : الصلاة من الله عز وجل الغفران والثناء الحسن. ومن هذا الصلاة على الميت إنما هو الثناء عليه والدعاء له"[٩].

قال الطبري: " وصلوات الله على عباده ، غُفرانه لعباده ، كالذي روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اللهم صَلِّ على آل أبي أوْفى"[١٠]، يعني : اغفر لهم"[١١].

قال البيضاوي:" الأصل [في الصلاة]:الدعاء، ومن الله تعالى التزكية والمغفرة، وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها. والمراد بالرحمة اللطف والإحسان"[١٢].

قال الزجاج:" الصلاة في اللغة على ضربين:

أحدهما الركوع والسجود.

والآخر: الرحمةوالثناء والدعاء.

---

(١) صفوة التفاسير:٩٤/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٢٨):ص٢٦٦/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٣٣٠):ص٢٢٤/٣.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٢٩):ص٢٦٦/١.

(٥) تفسير المراغي: ٢٥٦/١.

(٦) تفسير الثعلبي:٢٣/٢.

(٧) انظر: تفسير القرطبي: ١٧٧/٢.

(٨) المحرر الوجيز: ٢٢٨/١.

(٩) تفسير القرطبي: ١٧٧/٢.

(١٠) رواه البخاري ٣ : ٢٨٦ (من الفتح) . ومسلم ١ : ٢٩٧ ، كلاهما من طريق شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن عبد الله بن أبي أوفى قال ، " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : اللهم صل عليهم ، فأتاه أبي أبو أوفى بصدقته ، فقال : اللهم صل على آل أبي أوفى " .قال الحافظ : " يريد أبا أوفى نفسه ، لأن الآل يطلق على ذات الشيء . . . وقيل لا يقال ذلك إلا في حق الرجل الجليل القدر " . وهذه فائدة نفيسة ، من الحافظ ابن حجر ، رحمه الله .

(١١) تفسير الطبري: ٢٢٢/٣.

(١٢) تفسير البيضاوي: ١١٥/١.

فصلاة الناس على الميت إنما معناها الدعاء، والثناء على الله صلاة، والصلاة من الله عز وجل على أنبيائه وعباده معناها الرحمة لهم، والثناء عليهم"[١].

وقد اختلف في أصل (الصلاة)، على ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنها :الدُّعاءُ ، كما قال الأعشى[٢]:

لَهَا حَارِسٌ لا يَبْرَحُ الدَّهْرَ بَيْتَهَا ... وَإنْ ذُبِحَتْ صَلَّى عَلَيْهَا وَزَمْزَمَا

يعني بذلك : دعا لها ، وكقول الأعشى أيضًا[٣]:

وَقَابَلَهَا الرِّيحَ فِي دَنِّهَا ... وصَلَّى عَلَى دَنِّهَا وَارْتَسَمْ

قال الطبري: " وأرى أن الصلاة المفروضة سُمِّيت " صلاة " ، لأنّ المصلِّي متعرِّض لاستنجاح طَلِبتَه من ثواب الله بعمله ، مع ما يسأل رَبَّه من حاجاته ، تعرُّضَ الداعي بدعائه ربَّه استنجاحَ حاجاته وسؤلهُ"[٤].

الثاني: أنها من الرحمة. قاله أبو عبية[٥]،واحتجّ بقول الأعشى[٦]:

تقولُ بنتي وقد قَرّبْتُ مُرْتَحِلًا ... يا رَبِّ جَنِّبْ أَبِي الأوصابَ والوجعا

عليكِ مِثْلُ الذي صلَّيتِ فاغتمضي ... نومًا فإنّ لجنب المرء مضطجَعا

قال: عليك مثل دعائك، أي: ينالك من الخير مثل الذي أردت لي. فأبو عبيدة يجعل صليت بمعنى: ترحمت[٧].

والقولان الأول والثاني: قريبان من البعض، " لأن المترحم على الإنسان داعٍ له، والداعي للإنسان مترحّم عليه"[٨].

والثالث: أنها : مأخوذة من :الصّلا، وهو عرق في وسط الظهر، ويفترق عند العجب فيكتنفه، ومنه أخذ المصلي في سبق الخيل، لأنه يأتي مع صلوي السابق، فاشتقت الصلاة منه، إما لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمصلّي من الخيل، وإما لأن الراكع والساجد صلواه"[٩].

قال ابن عطية:" والقول إنها من الدعاء أحسن[١٠].

قال ابن عثيمين:"وجاءت بلفظ الإشارة{أولَئِكَ}، للبعيد للدلالة على علو مرتبتهم، ومنزلتهم"[١١].

---

(١) معاني القرآن:٢٣١/١.

(٢)ديوانه : ٢٠٠ ، يذكر الخمر في دنها . وزمزم العلج من الفرس : إذا تكلف الكلام عند الأكل وهو مطبق فمه بصوت خفي لا يكاد يفهم . وفعلهم ذلك هو الزمزمة . " ذبحت " أي بزلت وأزيل ختمها . وعندئذ يدعو مخافة أن تكون فاسدة ، فيخسر .

(٣)ديوان الأعشى : ٢٩ . وقوله " وقابلها الريح " أي جعلها قبالة مهب الريح ، وذلك عند بزلها وإزالة ختمها . ويروى : " فأقبلها الريح " وهو مثله . وارتسم الرجل : كبر ودعا وتعوذ ، مخافة أن يجدها قد فسدت ، فتبور تجارته .

(٤) تفسير الطبري: ٢٤٣/١.

(٥) انظر: مجاز القرآن: ٦١-٦٢.

(٦)ديوانه: ١٠٦، وانظر: الخزانة: ١/ ٣٥٩، ومراتب النحويين: ١٩٤.

(٧) انظر: التفسير البسيط: ٤٣١/٣.

(٨) التفسير البسيط: ٤٣١/٣.

(٩) المحرر الوجيز: ٨٥/١.

(١٠) المحرر الوجيز: ٨٥/١.

(١١) تفسير ابن عثيمين:١٨٢/٢.

وقد تعددت عبارات المفسرين في قوله تعالى:{صَلَواتٌ}[البقرة:١٥٧]، هاهنا، على أقوال:

أحدها: يعني مغفرة من ربهم. قاله ابن جبير[١]، ومقاتل[٢]، وابن عباس[٣].

ومنه قوله تعالى: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ } [التوبة : ١٠٣] يعني "استغفر لهم إن استغفارك سكن لهم"[٤].

الثاني: أنها الثناء. قاله ابن كيسان[٥].

الثالث:أنها: الغفران والثناء الحسن. قاله الزجاج[٦].

وأصح الأقوال فيها أن المراد بها الثناء عليهم في الملأ الأعلى؛ والمعنى أن الله يثني على هؤلاء في الملأ الأعلى رفعاً لذكرهم، وإعلاءً لشأنهم[٧]. والله أعلم.

وفي قوله تعالى:{ وَرَحْمَةٌ}[البقرة:١٥٧]، وجهان:

أحدهما: ونعمة. قاله ابن عباس[٨].

الثاني: أن الصلاة والرحمة معناهما واحد، وإنما ذكرهما لاختلاف اللفظين كقول الحطيئة[٩]:

ألا حبذا هند وأرض بها هند ... وهند أتى من دونها النأي والبعد

والنأي: هو البعد بعينه.

وهذا قول ابن كيسان[١٠].

ومنه قول ذي الرمة[١١]:

لمياءُ في شفتيها حوَّة لَعَسٌ ... وفي اللثات وفي أنيابها شَنَبُ

فاللعَس حُوَّة، فكرر لما اختلف اللفظان[١٢].

ومثله قوله: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ} [الزخرف: ٨٠]. فذكر السر والنجوى، لإشباع المعنى، والاتساع في اللفظ[١٣].

و كما قال :{مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى} [البقرة : ١٥٩]، فعطف قوله:{ وبينات}، على{هدى}، هو من عطف الخاص على العام؛ لأن (الهدى) منه خفي ومنه جلي، فنص بـ (البينات) على الجلي من الهدى؛ لأن القرآن مشتمل على المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، فذكر عليه

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٤٢٦):ص٢٦٥/١.

(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥١/١.

(٣) انظر: البحر المحيط: ٤٥٢/١.

(٤)تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥١/١.[بتصرف بسيط].

(٥) انظر: البحر المحيط: ٤٥٢/١.

(٦) انظر: معاني القرآن: ٢٣١/١، والبحر المحيط: ٤٥٢/١.

(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين:٨٢!/٢.

(٨) انظر: تفسير الثعلبي:٢٣/٢.

(٩) ديوانه: ٣٩، والدرر: ٢٢١، اللسان(سند)، ونأي)، وبلا نسبة في المفصل: ١٠/١، وهمع الهوامع: ٨٨/٢، وانظر: تفسير الثعلبي:٢٣/٢-٢٤.

(١٠) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٣/٢-٢٤.

(١١)"ديوانه" ص ٣٢، "لسان العرب" ٤/ ٢٣٣٦ (شنب).

(١٢) انظر: التفسير البسيط: ٤٣٤/٤.

(١٣) انظر: المحرر الوجيز: ٢٢٨/١، والتفسير البسيط: ٤٣٣/٣.

أشرف أنواعه، وهو الذي يتبين الحلال والحرام والموعظة. قال السمين الحلبي معللاً الغرض من هذا العطف:"لأن الهدى يكون بالأشياء الخفية والجلية، والبينات من الأشياء الجلية"(١).

فيمكن القول بأن تكرار{لرحمة} في قوله تعالى: {صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ}، هو لما اختلف اللفظ، تأكيدا وإشباعا للمعنى، أي: "من باب عطف العام على الخاص؛ لأن الثناء عليهم في الملأ الأعلى من الرحمة"(٢).

والصلاة منّا: دعاء، ومن الله تعالى: رحمة، وأنشد الأزهري في تفسير هذه الآية قول الشاعر (٣):

صلّى على يحيى وأشياعه ... ربٌّ كريمٌ وشفيعٌ مُطاعْ

معناه: ترحم عليه على الدعاء، لا على الخبر (٤).

قال ثعلب عن ابن الأعرابي: "الصلاة من الله رحمة، ومن المخلوقين: الملائكة والإنس والجن القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح، ومن الطير والهوام: التسبيح، ومنه قوله: {كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ} [النور: ٤١]"(٥).

قال الواحدي:" فالصلاة لها معانٍ بالتدريج، أصلها: الدعاء، ثم صارت الرحمة، لما ذكرنا من أن الداعي مترحّم، ثم صارت للمغفرة؛ لأن الترحم يوجب المغفرة، ومن ترحم الله عليه غفر له"(٦).

قوله تعالى:{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[البقرة:١٥٧]، أي وأولئك" هم المهتدون إلى طريق السعادة"(٧).

قال سعيد بن جبير:" يعني: من المهتدين بالاسترجاع عند المصيبة"(٨).

قال البيضاوي:مهتدون" للحق والصواب حيث استرجعوا وسلموا لقضاء الله تعالى"(٩).

قال الطبري:أي: أولئك الموصوفون بالصبر المذكور هم "المصيبون طريق الحقّ"(١٠).

قال ابن عثمين:" أي الذين اهتدوا إلى طريق الحق؛ فإن هذا الكلام الذي يقولونه مع الصبر هو الهداية"(١١).

واختلف في قوله تعالى: :{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[البقرة:١٥٧]، على وجوه(١٢):

أحدها: أنهم المهتدون إلى الاسترجاع. وهذا قول سعيد بن جبير(١)، ومقاتل(٢).

---

(١) الدر المصون: ٢٨١/٢.
(٢) تفسير ابن عثيمين: ٨١/٢.
(٣) البيت للسفاح بن بُكير بن معدان اليربوعي، في شرح اختيارات المفضل" ص ١٣٦٢، في قصيدة رثى بها يحيى ابن شداد بن ثعلبة بن بشر، أحد بني ثعلبة بن يربوع، وقال أبو عبيدة: هي لرجل من بني قريع، رثى بها يحيى بن ميسرة صاحب مصعب بن الزبير وكان وفيا له حتى قتل معه. انظر: اللسن: (صلا)، وامعجم البلدان ٨: ٣٧٤. والخزانة: ١٤٠/١. وشرح المفضليات: ٦٣٠-٦٣٣. وفي رواية: "رب رحيم".
(٤) انظر: اللسان: (صلا)، والتفسير البسيط: ٤٣٢/٣.
(٥) التفسير البسيط: ٤٣٢/٣.
(٦) التفسير البسيط: ٤٣٢/٣.
(٧) صفوة التفاسير:٩٤/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٢٩):ص٢٦٦/١.
(٩) تفسير البيضاوي: ١١٥/١.
(١٠) تفسير الطبري: ٢٢٣/٣.
(١١) تفسير ابن عثيمين:١٨٢/٢.
(١٢) انظر: تفسير الثعلبي:٢٤/٢، والنكت والعيون:٢١٠/١.

الثاني: وقيل: إلى الجنة والثواب.
الثالث: وقيل: إلى الحق والصواب.
الرابع: المهتدون إلى تسهيل المصائب وتخفيف الحزن (٣).
الخامس: المهتدون إلى استحقاق الثواب وإجزال الأجر (٤).
وكان عمر بن الخطاب إذا قرأ هذه الآية قال: " نعم العدلان، ونعم العلاوة"(٥) .
قال ابن عطية:" أراد بالعدلين: الصلاة والرحمة، وبالعلاوة: الاهتداء"(٦).

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: بيان حكمة الله عزّ وجلّ فيما يبتلي به العباد.
٢ - ومنها: عظم ثواب الصبر؛ لقوله تعالى: {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة}.
٣ - ومنها: إثبات رحمة الله عزّ وجلّ؛ وهي صفة حقيقية ثابتة لله؛ بها يرحم من يشاء من عباده؛ ومن آثارها حصول النعم، واندفاع النقم.
٤ - ومنها: الثناء على الصابرين بأنهم هم المهتدون الذين اهتدوا إلى ما فيه رضا الله وثوابه.
٥-قال الشيخ السعدي: " ودلت هذه الآية، على أن من لم يصبر، فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله، والعقوبة، والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل، إذا وقعت، وبيان ما تقابل به، إذا وقعت، وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر، بضد حال الصابر، وأن هذا الابتلاء والامتحان، سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلا وبيان أنواع المصائب"(٧).

القرآن

{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)} [البقرة : ١٥٨]

التفسير:

إن الصفا والمروة- وهما جبلان صغيران قرب الكعبة من جهة الشرق- من معالم دين الله الظاهرة التي تعبَّد الله عباده بالسعي بينهما. فمَن قصد الكعبة حاجًّا أو معتمرًا، فلا إثم عليه ولا حرج في أن يسعى بينهما، بل يجب عليه ذلك، ومن فعل الطاعات طواعية من نفسه مخلصًا بها لله تعالى، فإن الله تعالى شاكر يثيب على القليل بالكثير، عليم بأعمال عباده فلا يضيعها، ولا يبخس أحدًا مثقال ذرة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٢٩):ص١/٢٦٦.
(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١/١٥١.
(٣) انظر: النكت والعيون:١/٢١٠.
(٤) انظر: النكت والعيون:١/٢١٠.
(٥) تفسير الثعلبي:٢/٢٤، قوله تعالى: { أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ } فهذان العدلان { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } فهذه العلاوة ، وهي ما توضع بين العدلين ، وهي زيادة في الحمل وكذلك هؤلاء ، أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضًا.
(٦) المحرر الوجيز: ١/٢٢٨.
(٧) تفسير السعدي: ١/٧٥.

اختلف في سبب نزول هذه الآية على أقوال[١]:

أحدها: قالت:عائشة-رضي الله عنها-: "أنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يهلون لمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية"[٢].

الثاني: قال الشعبي: "أن وَثنًا كان في الجاهلية على الصفا يسمى (إسافًا)، ووثنًا على المرْوة يسمى(نائلة)، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بالبيت مَسحوا الوثنين. فلما جاء الإسلام وكُسرت الأوثان ، قال المسلمون : إنّ الصفا والمرْوة إنما كانَ يُطاف بهما من أجل الوَثنين ، وليس الطواف بهما من الشعائر! قال : فأنزل الله : إنهما من الشعائر ، " فمن حَجّ البيتَ أو اعتمر فلا جُناحَ عليه أن يطوّف بهما " [٣].

وروي عن يزيد[٤]، وأنس بن مالك[٥]، وابن عمر[٦]، ومجاهد[٧]، وابن زيد[٨]، نحو ذلك.

وقد ذكر ابن إسحاق في كتاب السيرة أن إسافا ونائلة كانا بشرين، فزنيا داخل الكعبة فمسخا حجرين فنصبتهما قُريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلما طال عهدهما عبدا ، ثم حولا إلى الصفا والمروة ، فنصبا هنالك ، فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما ، ولهذا يقول أبو طالب، في قصيدته المشهورة :

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم ... بمفضى السيول من إساف ونائل[٩]

الثالث: وقال قتادة: "قوله :{إنّ الصفا والمرْوَة من شعائر الله}، الآية ، فكان حَيٌّ من تهامة في الجاهلية لا يسعون بينهما ، فأخبرهم الله أنّ الصفا والمروة من شعائر الله ، وكانَ من سُنة إبراهيم وإسماعيلَ الطواف بينهما"[١٠]. وروي عن عائشة[١١]، نحو ذلك.

الرابع: وقال مقاتل بن سليمان:" وذلك أن الخمس: وهم قريش، وكنانة، وخزاعة، وعامر بن صعصعة، قالوا: ليست الصفا والمروة من شعائر الله، وكان على الصفا صنم يقال له نائلة، وعلى المروة صنم يقال له يساف في الجاهلية. قالوا، إنه حرج علينا في الطواف بينهما، فكانوا لا يطوفون بينهما فأنزل الله- عز وجل- {إن الصفا والمروة من شعائر الله}"[١٢].

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي:٤٤-٤٧، والعجاب: ٤٠٦/١-٤١١.

(٢) أسباب النزول للواحدي: ٤٤-٤٥. و أخرجه البخاري (فتح الباري: ٦١٤/٣ - ح: ١٧٩٠ ٤٩٧/٣ - ح: ١٦٤٣) ومسلم (٩٢٨/٢ - ح: ٢٦٠ ٩٢٩/٢ - ح: ٢٦١، ٩٣٠/٢ - ح: ٢٦٣) والإمام مالك (الموطأ: ٢٥٧ - ح: ٨٣٥ رواية يحيى الليثي) والإمام أحمد (الفتح الرباني: ١٨/ ٧٨ - ح: ١٧٣، ٧٩/١٨ - ح: ٧٤) وأبو داود (٤٥٣/٢ - ح: ١٩٠١) والترمذي (٢٠٨/٥ - ح: ٢٩٦٥) والنسائي (جامع الأصول: ١٨/٢) وابن ماجه (٩٩٤/٢ - ح: ٢٩٨٦) وابن جرير (٢٩/٢، ٣١) كلهم عن عائشة رضي الله عنها به.

(٣) أخرجه الطبري(٢٣٣٥):ص٣/ ٣٣١.

(٤)انظر: تفسير الطبري(٢٣٣٧):ص٣/ ٢٣٢.

(٥)انظر: تفسير الطبري(٢٣٣٨)،و(٢٣٣٩):ص٣/ ٢٣٢.

(٦)انظر: تفسير الطبري(٢٣٤٠):ص٣/ ٢٣٣.

(٧)انظر: تفسير الطبري(٢٣٤٣)، و(٢٣٤٤):ص٣/ ٢٣٥.

(٨)انظر: تفسير الطبري(٢٣٤٥):ص٣/ ٢٣٥.

(٩)السيرة النبوية لابن إسحاق (رقم النص ٤) ط ، حميد الله ، المغرب.

(١٠) أخرجه الطبري(٢٣٤٩):ص ٢٣٦/٣، و(٢٣٥٢):ص٢٣٨/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٣٥٠)، و(٢٣٥١):ص ٢٣٦/٣-٢٣٧.

(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥٢/١.

الخامس: وقال ابن كثير: "قال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت ، ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة ، فأنزل الله تعالى : {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ}[1].

السادس:قال ابن عباس:" أنه كانَ في الجاهلية شَياطين تعزفُ الليل أجمعَ بين الصفا والمروة، وكانت بَينهما آلهة ، فلما جاء الإسلام وظهر ، قال المسلمون : يا رَسولَ الله ، لا نطوف بين الصفا والمروة ، فإنه شركٌ كنا نفعله في الجاهلية! فأنزل الله :{ فلا جُناح عليه أن يطوَّف بهما}"[2].

والصواب : "إنّ الله تعالى ذكره قد جعل الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله ، كما جعل الطواف بالبيت من شعائره، فأما قوله :{فلا جناحَ عليه أن يطَّوَّف بهما}، فجائزٌ أن يكون قيل لكلا الفريقين اللذين تخوَّف بعضهم الطواف بهما من أجل الصنمين اللذين ذكرهما الشعبي، وبَعضُهم من أجل ما كان من كراهتهم الطواف بهما في الجاهلية ، على ما رُوي عن عائشة، وأيُّ الأمرين كان من ذلك ، فليس في قول الله تعالى ذكره : {فلا جُناح عليه أن يطَّوَّف بهما}، الآية ، دلالةٌ على أنه عَنى به وَضعَ الحرَج عَمن طاف بهما ، من أجل أن الطواف بهما كان غير جائزٍ بحظر الله ذلك ، ثم جُعل الطواف بهما رُخصة ، لإجماع الجميع على أن الله تعالى ذكره لم يحظُر ذلك في وقت ، ثم رخص فيه بقوله :{فلا جناح عليه أن يطَّوَّف بهما}"[3].

وروي عن حَبيبة بنت أبي تجراة، قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بين الصفا والمروة ، والناس بين يديه ، وهو وراءهم ، وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره، وهو يقول : "اسعَوا ، فإن الله كتب عليكم السعي" [4].

وفي رواية أخرى عن صفية بنت شيبة، أن امرأة أخبرتها أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم بين الصفا والمروة يقول: "كتب عليكم السعي ، فاسعوا" [5].

وقد استُدلّ بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج[6]، لأنه عليه السلام طاف بينهما، وقال : "لتأخذوا عني مناسككم". فكل ما فعله في حَجته تلك واجب لا بد من فعله في الحج ، إلا ما خرج بدليل ، والله أعلم[7].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٧٠/١.

(٢) أخرجه الطبري(٢٣٤٢):ص٢٣٤/٣، و تفسير القرطبي: ١٧٩/٢، وانظر: أسباب النزول للواحدي: ٤٦، حكاه عن السدي.

(٣) تفسير الطبري: ٢٣٩/٣-٢٤٠.

(٤)المسند (٤٢١/٦).

(٥)المسند (٤٣٧/٦).

(٦) مع الاتفاق على مشروعية السعي للحج والعمرة إلا أن أهل العلم اختلفوا في حكمه، فقال مالك والشافعي وأحمد في أظهر روايتيه: هو ركن من أركان الحج لا ينوب عنه الدم، وقال أبو حنيفة: هو واجب ينوب عنه الدم، وقال أحمد في إحدى روايتيه: هو سنة لا يجب بتركه دم، والأول أظهر لقول عائشة-رضي الله عنها-عند البخاري-فتح-: ٧١٩/٣ رقم: ١٧٩٠، ومسلم: ٩٢٨/٢-٩٢٩ رقم: ١٢٧٧، واللفظ له: (فلعمري! ما أتم الله حج من لم يطف بين الصفا والمروة)، وانظر: الذخيرة للقرافي: ٢١٣/٣، نهاية المحتاج للرملي: ٣٢١/٣، الإفصاح لابن هبيرة: ٢٧٨/١، المغني لابن قدامة: ٢٣٨/٣، فتح القدير لابن الهمام: ٤٦٧/٢.

(٧) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٧١/١. قد فصّل الإمام الرازي في هذا الموضوع قائلا:

قوله تعالى: {لا جناح عليهن} أنه لا إثم عليه، والذي يصدق عليه أنه لا إثم في فعله يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح، ثم يمتاز كل واحد من هذه الثلاثة عن الآخر بقيد زائد، فإذن ظاهر هذه الآية لا يدل على أن السعي بين الصفا والمروة واجب، أو ليس بواجب، لأن اللفظ الدال على القدر المشترك بين الأقسام لا دلالة فيه البتة على خصوصية من الرجوع إلى دليل آخر، إذا عرفت هذا فنقول: مذهب الشافعي رحمه الله أن هذا السعي

ركن، ولا يقوم الدم مقامه، وعند أبي حنيفة رحمه الله أنه ليس بركن، ويقوم الدم مقامه، وروي عن ابن الزبير ومجاهد وعطاء، أن من تركه فلا شيء عليه، حجة الشافعي رضي الله عنه من وجوه:

أحدها: ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا"، فإن قيل: هذا الحديث متروك الظاهر، لأنه يقتضي وجوب السعي وهو العدو، ذلك غير واجب قلنا: لا نسلم أن السعي عبارة عن العدو بدليل قوله: {فاسعوا إلى ذكر الله} (الجمعة: ٩) والعدو فيه غير واجب، وقال الله تعالى: {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} (النجم: ٣٩) وليس المراد منه العدو، بل الجد والاجتهاد في القصد والنية، سلمنا أنه يدل على العدو، ولكن العدو مشتمل على صفة ترك العمل به في حق هذه الصفة، فيبقى أصل المشي واجبا.

وثانيها: ما ثبت أنه عليه السلام سعى لما دنا من الصفا في حجته، وقال: "إن الصفا والمروة من شعائر الله ابدؤا بما بدأ الله به" فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت، وإذا ثبت أنه عليه السلام سعى وجب أن يجب علينا السعي للقرآن والخبر، أما القرآن: فقوله تعالى: {واتبعوه} وقوله: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى} (آل عمران: ٣١) وقوله: {لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة} (الأحزاب: ٢١) وأما الخبر فقوله عليه السلام: "خذوا عني مناسككم" والأمر للوجوب.

وثالثها: أنه أشواط شرعت في بقعة من بقاع الحرم، أو يؤتى به في إحرام كامل فكان جنسها ركنا كطواف الزيارة، ولا يلزم طواف الصدر لأن الكلام للجنس لوجوبه مرة، واحتج أبو حنيفة رضي الله عنه بوجهين:

أحدهما: هذه الآية وهي قوله: {لا جناح عليهن * أن يطوف بهما} وهذا لا يقال في الواجبات. ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله: {ومن تطوع خيرا} فبين أنه تطوع وليس بواجب.

وثانيهما: قوله: "الحج عرفة" ومن أدرك عرفة فقد تم حجه، وهذا يقتضي التمام من جميع الوجوه، ترك العمل به في بعض الأشياء، فيبقى معمولا به في السعي والجواب عن الأول من وجوه:

الأول: ما بينا أن قوله: {فلا جناح عليه} ليس فيه إلا أنه لا إثم على فاعله، وهذا القدر المشترك بين الواجب وغيره، فلا يكون فيه دلالة على نفي الوجوب والذي يحقق ذلك قوله تعالى: {فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلواة إن خفتم} (النساء: ١٠١) والقصر عند أبي حنيفة واجب، مع أنه قال فيه: {فلا جناح عليه} فكذا ههنا.

الثاني: أنه رفع الجناح عن الطواف بهما لا عن الطواف بينهما، وعندنا الأول غير واجب، وإنما الثاني هو الواجب.

الثالث: قال ابن عباس: كان على الصفا صنم وعلى المروة صنم وكان أهل الجاهلية يطوفون بهما ويتمسحون بهما فلما جاء الإسلام كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين فأنزل الله تعالى هذه الآية، إذا عرفت هذا فنقول انصرفت الإباحة إلى وجود الصنمين حال الطواف لا إلى نفس الطواف كما لو كان في الثوب نجاسة يسيرة عندكم، أو دم البراغيث عندنا، فقيل: لا جناح عليك أن تصلي فيه، فإن رفع الجناح ينصرف إلى مكان النجاسة لا إلى نفس الصلاة.

الرابع: روي عن عروة أنه قال لعائشة: إني أرى أن لا حرج علي في أن لا أطوف بهما، فقالت: بئس ما قلت لو كان كذلك لقال: أن لا يطوف بهما، ثم حكى ما تقدم من الصنمين، وتفسير عائشة راجح على تفسير التابعين، فإن قالوا: قرأ ابن مسعود: (فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما) واللفظ أيضا محتمل له كقوله: {يبين الله لكم أن تضلوا} (النساء: ١٧٦) أي أن لا تضلوا، وكقوله تعالى: {أن تقولوا يوم القيامة} (الأعراف: ١٧٢) معناه: أن لا تقولوا، قلنا: القراءة الشاذة لا يمكن اعتبارها في القرآن لأن تصحيحها يقدح في كون القرآن متواترا.

الخامس: كما أن قوله: {فلا جناح عليه} لا يطلق على الواجب، فكذلك لا يطلق على المندوب، ولا شك في أن السعي مندوب، فقد صارت الآية متروكة العمل بظاهرها.

وأما التمسك بقوله: {فمن تطوع خيرا} فضعيف، لأن هذا لا يقتضي أن يكون المراد من هذا التطوع هو الطواف المذكور أولا، بل يجوز أن يكون المقصود منه شيئا آخر قال الله تعالى: {وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين} (البقرة: ١٨٤) ثم قال: {فمن تطوع خيرا فهو خير له} (البقرة: ١٨٤) فأوجب عليهم الطعام، ثم ندبهم إلى التطوع بالخير فكان المعنى: فمن تطوع وزاد على طعام مسكين كان خيرا، فكذا ههنا يحتمل أن يكون هذا التطوع مصروفا إلى شيء آخر وهو من وجهين:

أحدهما: أنه يزيد في الطواف فيطوف أكثر من الطواف الواجب مثل أن يطوف ثمانية أو أكثر.

قوله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} [البقرة : ١٥٨]، أي إن الصفا والمروة من :" من أعلام دينه ومناسكه"[١].

قال البيضاوي:أي: "إن الصفا والمروة-وهما علما جبلين بمكة- من أعلام مناسكه"[٢].

قال الطبري: أي أنهما :"من معالم الله التي جعلها تعالى ذكره لعباده مَعلمًا ومَشعَرًا يعبدونه عندها، إما بالدعاء ، وإما بالذكر ، وإما بأداء ما فرض عليهم من العمل عندها"[٣].

قال المراغي:" أي إن هذين الموضعين من علامات دين الله ، وكذلك الأعمال والمناسك التي تعمل بينهما وهى السعى بينهما هى أيضا من الشعائر ، لأن القيام بها علامة الخضوع لله والإيمان به وعبادته إذعانا وتسليما"[٤].

قال أبو حيان:" وليس الجبلان لذاتهما من شعائر الله، بل ذلك على حذف مضاف ، أي إن طواف الصفا والمروة"[٥].

و(الصفا): "جمع (صَفَاة)، وهي الصخرة الصلبة الملساء"[٦]، ومنه قول الطرمَّاح [٧]:

أَبَى لِي ذُو القُوَى وَالطَّوْلِ ألا ... يُؤَبِّسَ حَافِرٌ أَبَدًا صَفَاتِي

وقال امرؤ القيس[٨]:

لها كفل كصفا المسيل ... أبرز عنها جحاف مضر

وقالوا إن (الصفا)واحد ، وأنه يثنى (صَفَوان)، ويجمع (أصفاء) و (صُفِيًّا) ، (وصِفِيًّا)، واستشهدوا على ذلك بقول الراجز[٩]:

كأَنَّ مَتْنَيْهِ مِنَ النَّفِيِّ ... مَوَاقِعُ الطَّيْرِ عَلَى الصُّفِيِّ

الثاني: أن يتطوع بعد حج الفرض وعمرته بالحج والعمرة مرة أخرى حتى طاف بالصفا والمروة تطوعا وأما الحديث الذي تمسكوا به فنقول: ذلك الحديث عام وحديثنا خاص والخاص مقدم على العام والله أعلم.(مفاتيح الغيب: ١٤٦/٤-١٤٧).

(١) صفوة التفاسير:٩٦/١.

(٢)تفسير البيضاوي: ١١٥/١.

(٣)تفسير الطبري: ٢٢٦/٣.

(٤) تفسير المراغي:٢٧/٢.

(٥) البحر المحيط: ٤٥٦/١.

(٦) تفسير الثعلبي: ٢٤/٢، وانظر: تفسير الطبري: ٢٢٤/٣.

(٧)ديوانه : ١٣٤ ، الطول : القدرة والغنى . وهو ذو الطول والقوة ، هو الله سبحانه . وأبس الشيء يؤبسه : ذلله ولينه ، أو كسره ، ومثله قول عباس بن مرداس :

إنْ تَكُ جُلْمُودَ صَخْرٍ لاَ أُؤَبِّسُهُ ... أُوقِدْ عَلَيْهِ ، فأُحمِيهِ ، فينصَدِعُ

السَّلْمُ تأخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِه ... وَالحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ

(٨)ديوانه : ١٦٤؛ ولسان العرب ٩/ ٢١ (جحف)؛ وتاج العروس ٢٣/ ٦٧ (جحف)؛ وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٤/ ١٦١؛ ومقاييس اللغة ١/ ٤٢٨؛ ومجمل اللغة ١/ ٤٠٦مشوب (١/ ١٧٧).

(٩)والجمهرة ٣ : ١٣٥ ، والمخصص ١٠ : ٩٠ ، ومجالس ثعلب : ٢٤٩ ، والحيوان ٢ : ٣٣٩ ، والقالي ٢ : ٨ ، واللسان (صفا) و (نفا) وكلهم رواه " متنيه " إلا ابن دريد فإنه أنشده :

كأنّ مَتْنَيَّ من النَّفِيِّ ... مِنْ طُولِ إشْرَافِي على الطَّوِيِّ

والنفي : ما تطاير من دلو المستقى . ومن روى " متني " فكأنه عنى أن الأخيل يصف نفسه . وأما من روى " متنيه " ، فإنه عنى غيره . وهو الأصح فيما أرجح ، وقد قال الأزهري : " هذا ساق كان أسود الجلدة ، استقى من بئر ملح ، فكان يبيض نفي الماء على ظهره إذا ترشش . لأنه كان ملحًا " . فإذا صح ذلك ، كانت رواية البيت الذي يليه " من طول إشراف " بغير ياء الإضافة ، ومعنى الشعر أشبه بما قال الأزهري ، لتشبيهه في البيت الثالث . و " الطوي " البئر المطوية بالحجارة .(تفسير الطبري: ٢٢٥/٣).

وقالوا : هو نظير: عَصًا وعُصِيّ وعِصِيّ ، وأعْصاء ، ورَحًا ورُحِيّ وَرِحِيّ وأرْحاء[١].

وأما (المروة)، فإنها الحصاةُ الصغيرة، يجمع قليلها (مَرَوات)، وكثيرها (المرْو)، مثل (تمرة وتمَرات وتمر)، قال الأعشى ميمون بن قيس[٢]:

وَتَرَى بالأرْض خُفًّا زائِلا... فَإذا مَا صَادَفَ المَرْوَ رَضَح

يعني بـ(المرو): الصخرَ الصغار ، ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي[٣] :

حَتَّى كأنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ ... بِصَفَا المُشَرِّقِ كُلَّ يَوْمٍ تُقْرَعُ

أي صخرة رخوة صغيرة[٤].

وإنّ {الصفا والمروة}، في هذا الموضع : الجبلين المسمَّيَين بهذين الاسمين اللذين في حَرَمه[٥]، دون سائر الصفا والمرو، ولذلك أدخل فيهما :(الألف واللام)، ليعلم عباده أنه عنى بذلك الجبلين المعروفين بهذين الاسمين ، دون سائر الأصفاء والمرْو[٦].

قال البيضاوي: {شَعَائِرِ }:"جمع شعيرة وهي العلامة"[٧].

قال الثعلبي : "وكل كان معلما لقربان يتقرب به إلى الله عز وجل من دعاء وصلاة من ذبيحة وأداء فرض وغير ذلك فهو شعيرة"[٨]..

قال الواحدي:" شعائر الله: متعبداته التي أشعرها الله، أي: جعلها أعلامًا لنا، وهي كلّ ما كان من مَشعر، أو موقف، أو مسعًى، أو منحر .

قال الزجاج: وإنما قيل شعائر لكل علم لما تعبد به، لأن قولهم شعرت به: علمته، فلهذا سميت الأعلام التي هي متعبدات شعائر"[٩].

واختلف في أصل(الشعائر) [١٠] على أقوال[١]:

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣/٢٢٤-٢٢٥، وتفسير الثعلبي:٢/٢٤.

(٢) ديوانه : ١٦١ ، ورواية الديوان : وَتُولّي الأرْضَ خُفًّا مُجْمَرًا وهو يصف ناقته وشدتها ونشاطها ، والخف المجمر : هو الوقاح الصلب الشديد المجتمع ، نكبته الحجارة فصلب . رضح الحصا والنوى رضحًا : دقه فكسره . يعني من شدة الخف وصلابته ، وذلك محمود في الإبل .

(٣) ديوانه : ٣ ، والمفضليات : ٥٨٧ ، من قصيدة البارعة في رثاء أولاده ، يقول عن المصائب المتتابعة تركته كهذه الصخرة التي وصف . والمشرق : المصلي بمنى . قال ابن الأنباري : " وإنما خص المشرق ، لكثرة مرور الناس به " . ثم قال : " ورواها أبو عبيدة : " المشقر " : يعني سوق الطائف . يقول : كأني مروة في السوق يمر الناس بها ، يقرعها واحد بعد واحد " .

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٣/٢٢٥-٢٢٦، وتفسير الثعلبي:٢/٢٤.

(٥) وهو الجبل الذي يبدأ منه المسلمون سعيهم للحج أو العمرة، وسمي بذلك لأن حجاره ملساء، أو لأنه لا يخالطها طين أو تراب، قال أبو حيان: (وهو الذي يدل عليه الاشتقاق). انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٢/٢٤، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢/١٧٩، معالم التنزيل للبغوي: ١/١٧٢، البحر المحيط لأبي حيان: ١/٤٥٤، الدر المصون للسمين: ١/٤١٤، معجم البلدان لياقوت: ٣/٤١١.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٣/٢٢٦، وتفسير الثعلبي:٢/٢٤-٢٥.

(٧) تفسير البيضاوي: ١/١١٥.

(٨) تفسير الثعلبي:٢/٢٥.

(٩) معاني القرآن: ١/٢٢٣، وانظر: "البحر المحيط" ١/ ٤٥٤.

(١٠) في حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من تطواف هاجر وترددها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها ، لما نفد ماؤها وزادُها ، حين تركهما إبراهيم - عليه السلام - هنالك ليس عندهما أحد من الناس ، فلما خافت الضيعة على ولدها هنالك ، ونفد ما عندها قامت تطلب الغوث من الله ، عز وجل ، فلم تزل تردد في هذه

البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله ، عز وجل ، حتى كشف الله كربتها ، وآنس غربتها ، وفرج شدتها ، وأنبع لها زمزم.

قال البخاري ، رحمه الله : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن أيوب السختياني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وَدَاعة - يزيد أحدُهما على الآخر - عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : أول ما اتخذ النساء المنْطَق من قبَل أم إسماعيل ، عليهما السلام اتخذت منطقًا ليعفي أثرها على سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ، عليهما السلام ، وهي ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زَمْزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسِقاء فيه ماء ، ثم قفَّى إبراهيم ، عليه السلام ، منطلقًا. فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مرارًا ، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم. قالت : إذًا لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم ، عليه السلام ، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ، ورفع يديه ، قال : { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } [إبراهيم : ٣٧] ، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ، عليهما السلام ، وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ماء السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال : يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقربَ جبل في الأرض يليها فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا ؟ فلم تر أحدًا. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طَرْفَ درعها ، ثم سعت سَعْيَ الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي. ثم أتت المروة ، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحَدًا ؟ فلم تر أحدًا. ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "فلذلك سعى الناس بينهما". فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت : صه ، تريد نفسها ، ثم تَسَمَّعت فسمعَت أيضًا. فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غُوَاث فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه - أو قال : بجناحه - حتى ظهر الماء ، فجعلت تُحَوِّضُهُ ، وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف. قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "يرحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينًا مَعينًا".

قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافي الضيعة ؛ فإن هاهنا بيتًا لله ، عز وجل ، يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله ، عز وجل ، لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم - أو أهل بيت من جُرْهم - مقبلين من طريق كَدَاء. فنزلوا في أسفل مكة ، فرأوا طائرًا عائفًا ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على الماء ، لعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جَريًّا أو جَرِيَّين ، فإذا هم بالماء. فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا. قال : وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ، ولكن لا حَقَّ لكم في الماء. قالوا : نعم. قال ابن عباس فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس. فنزلوا ، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم. حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلامُ ، وتعلم العربية منهم ، وأنْفَسَهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل ، عليهما السلام ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيلُ ليطالع تَرِكَتَه. فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بشَرّ ، نحن في ضيق وشدة. وشكت إليه. قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، وقولي له : يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل ، عليه السلام ، كأنه آنس شيئًا. فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسأل عنك ، فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا في جَهْد وشدَّة. قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول غَيِّرْ عتبة بابك. قال : ذاك أبي. وقد أمرني أن أفارقك ، فالحقي بأهلك. فطلَّقها وتزوج منهم بأخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده. فدخل على امرأته ، فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا. قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وَهَيْئَتهم. فقالت : نحن بخير وسعة. وأثنت على الله ، عز وجل. فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم. قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء. قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء". قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ولم يكن لهم يومئذ حَب ، ولو كان لهم ، لدعا لهم فيه. قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه". قال : "فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، ومُريه يُثَبِّت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل ، عليه السلام ، قال : هل أتاكم من

أحدها: أن أصلها من الإشعار، وهي الأعلام على الشيء. قاله الثعلبي[٢].

ومنه: الشعائر بمعنى العلامة؛ ولهذا تسمى الهدايا: شعائر؛ لأنها تُشْعَر بحديدة في سنامها من جانبها الأيمن حتى يخرج الدم، قال الكميت[٣]:

نُقَتِّلُهُمْ جِيَلا فَجِيلا تَرَاهُمُ ... شَعَائِرَ قُرْبَانٍ بِهِمْ يُتَقَرَّبُ

الثاني: أنها جمع شعيرة؛ وهي التي تكون عَلَماً في الدين[٤]. وهذا قول الزجاج[٥]، والأكثرين، وهو الأقرب.

الثالث: وقيل: جمع شعارة.

قال الرازي: إن (الشعائر) " هي أعلام طاعته وكل شيء جعل علما من أعلام طاعة الله فهو من شعائر الله، قال الله تعالى: {والبدن جعلناها لكم من شعائر الله} [الحج: ٣٦]، أي علامة للقربة، وقال: {ذالك ومن يعظم شعائر الله} [الحج: ٣٢] وشعائر الحج: معالم نسكه ومنه المشعر الحرام، ومنه إشعار السنام: وهو أن يعلم بالمدية فيكون ذلك علما على إحرام صاحبها، وعلى أنه قد جعله هديا لبيت الله، ومنه الشعائر في الحرب، وهو العلامة التي يتبين بها إحدى الفئتين من الأخرى والشعائر جمع شعيرة، وهو مأخوذ من الإشعار الذي هو الإعلام"[٦].

أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه فسألني عنك ، فأخبرته ، فسألني : كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير. قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال : ذاك أبي ، وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك. ثم لبثَ عنهم ما شاء الله ، عز وجل ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِي نَبْلا له تحت دوحة قريبًا من زمزم ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد ، والوالد بالولد. ثم قال : يا إسماعيل ، إن الله أمرني بأمر. قال : فاصنع ما أمرك ربك ، عز وجل. قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك. قال : فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتًا - وأشار إلى أكَمَةٍ مرتفعة على ما حولها - قال : فعند ذلك رَفَعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } " قال : "فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت ، وهما يقولان : { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }.[صحيح البخاري برقم (٣٣٦٤)]. ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبي عبد الله محمد بن حمَّاد الظهراني. وابن جرير ، عن أحمد بن ثابت الرازي ، كلاهما عن عبد الرزاق به مختصرًا.[تفسير ابن أبي حاتم (٣٨١/١)].

(١). انظر: تهذيب اللغة للأزهري: ٤١٦/١-٤١٧، معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ١٩٤/٣، جامع البيان للطبري: ٢٢٦/٣-٢٢٧، مجاز القرآن لأبي عبيدة: ٦٢/١، معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢٣٣/١، معالم التنزيل للبغوي: ١٧٢/١-١٧٣، زاد المسير لابن الجوزي: ١٦٤/١، النكت والعيون للماوردي: ٢١١/١، المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٥/٢-٢٦، البحر المحيط لأبي حيان: ٤٥٤/١، الدر المصون للسمين: ٤١٤/١

(٢) تفسير الثعلبي:٢٥/٢.

(٣)الهاشميات : ٢١ ، ومجاز القرآن: ١٤٦/١، واللسان (شعر) ، وغيرهم . والضمير في قوله : " نقتلهم " ، إلى الخوارج الذين عدد أسماءهم في بيتين قبل :

عَلاَمَ إِذَا زُرْنَا الزُّبَيْرِ وَنَافِعًا بغارتنا ، بَعْدَ المقَانِبِ مِقْنَبُ

وَشَاطَ عَلَى أَرْمَاحِنَا بِادِّعَائِهَا وَتَحْوِيلِهَا عَنْكُمْ شَبِيبٌ وقَعْنَبُ

والجيل : الأمة ، أو الصنف من الناس . وفي المطبوعة واللسان : " تراهم " بالتاء ، وهو خطأ . والشعائر هنا جمع شعيرة : وهي البدنة المهداة إلى البيت ، وسميت بذلك لأنه يؤثر فيها بالعلامات . وإشعار البدن : إدماؤها بطعن أو رمي أو حديدة حتى تدمي .

(٤) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٨١/٢.

(٥) انظر: معاني القرآن:٢٣٣/١.

(٦) مفاتيح الغيب: ١٤٤/٤.

قال الواحدي :يحتمل أن يكون(الشعائر) من الإعلام بالشيء"[١]. وهذا قول مجاهد[٢].
واعترض عليه الطبري، فقال:" وذلك تأويل من المفهوم بعيد، وإن كان مَخرجُه مَخرجَ الخبر ، فإنه مرادٌ به الأمر، لأن الله تعالى ذكره قد أمر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم عليه السلام ، فقال له : { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [سورة النحل : ١٢٣]"[٣].
وقال أهل العلم: أن الأحكام الشرعية قسمان[٤] :
أحدهما: نوع يسمى بالشعائر، وهى ما تعبّدنا اللّه تعالى به كالصلاة على وجه مخصوص ، والتوجه فيها إلى مكان معين سماه بيته ، مع أنه من خلقه كسائر العالم ، وكمناسك الحج وأعماله ، فمثل هذا شرعه اللّه لنا لمصلحة لا نفهم سرها تمام الفهم ، ولا نزيد فيه ولا ننقص ، ولا يؤخذ فيه برأى أحد ولا باجتهاده ، إذ لو أبيح لهم ذلك لزادوا فيه ، فلا يفرق بين الأصل المشترع والدخيل المبتدع ، ويصبح المسلمون كالنصارى ويصدق عليهم قوله : { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ }.
والثاني: ما لا يسمى بالشعائر، كأحكام المعاملات من بيع وإجارة وهبة ونحوها ، وهذه قد شرعت لمصالح البشر ، ولها علل وأسباب يسهل على الإنسان فهمها.
قوله تعالى:{فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ}[البقرة:١٥٨]، " أي من قصد بيت الله للحج أو العمرة"[٥].
قال المراغي:" أي فمن أدى فريضة الحج أو اعتمر"[٦].
قال ابن عثيمنن: أي: فمن "قصده لأداء مناسك الحج؛ و(الْبَيْتَ) هو بيت الله؛ أي الكعبة"[٧].
قال الطبري: أي"فمن أتاه عائدًا إليه بَعدَ بدء"[٨].
وكل من أكثر الاختلاف إلى شيء فهو (حَاجٌّ إليه)، ومنه قول الشاعر[٩] :

---

(١)انظر: "مجاز القرآن" ١/ ١٤٦، "تفسير الطبري" ٢/ ٤٤، "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٢٣٣، "تهذيب اللغة" ٢/ ١٨٨٤ وما بعدها، "تفسير الثعلبي" ١/ ١٢٨٤، "المفردات" ص ٢٦٥، "تفسير البغوي" ١/ ١٧٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٣٣٢)، و(٢٣٣٣):ص٢٢٧/٣.
(٣) تفسير الطبري: ٢٢٧/٣.
(٤) انظر: تفسير المراغي:٢٧/٢.
(٥) صفوة التفاسير:٩٦/١.
(٦) تفسير المراغي: ٢٧/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٨١/٢.
(٨) تفسير الطبري: ٢٢٨/٣.
(٩) البيت لمخبل السعدي(شاعر مخضرم)، انظر: المعاني الكبير : ٤٧٨ ، والاشتقاق لابن دريد : ٧٧ ، ١٥٦ ، وتهذيب الألفاظ : ٥٦٣ ، وإصلاح المنطق : ٤١١ ، والبيان والتبيين ٣ : ٩٧ ، وشرح أدب الكاتب للجواليقي : ٣١٣ ، وللبطليوسي : ٤٠٥ ، واللسان (سبب) (حجج) ، (قهر) (زبرق) ، والجمرة لابن دريد : ١ : ٣١ ، ٣/٤٩ : ٤٣٤ ، وسمط اللآلي : ١٩١ ، والخزانة ٣ : ٤٢٧ .
وقد ذهب الطبري في تفسير البيت ، كما ذهب ابن دريد وابن قتيبة والجاحظ وغيرهم إلى أن " السب " هاهنا العمامة ، وأن سادات العرب كانوا يصبغون عمائمهم بالزعفران ، ومنهم حصين بن بدر ، وهو الزبرقان ، وسمي بذلك لصفرة عمامته وسيادته . وذهب أبو عبيدة وقطرب إلى أنه " السب " هنا هي الاست ، وكان مقروفًا ، وزعموا أن قول قطرب قول شاذ ، والصواب عندي أن أبا عبيدة وقطرب قد أصابا ، وأنهم أخطأوا في ردهم ما قالا . فقد كان المخبل بذيء اللسان ، حتى نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنما هو عذاب يصبه الله على من يشاء من عباده " (النقائض : ١٠٤٨) قال أبو عبيدة في النقائض : " كان المخبل

لأَشْهَدَ مِنْ عَوْفٍ حُلُولا كثِيرَةً   يَحُجُّونَ سِبَّ الزِّبْرِقانِ المُزَعْفَرَا

فقوله:(يحجون)، يكثرون التردد إليه لسُودده ورياسته. وإنما قيل للحاج " حاجّ " ، لأنه يَأتي البيت قبل التعريف ، ثم يعود إليه لطَواف يوم النحر بعد التعريف ، ثم ينصرف عنه إلى منى ، ثم يعود إليه لطوَاف الصَّدر،فلتكراره العودَ إليه مرّة بعد أخرى قيل له : " حاجٌّ [1].

واختلف في أصل (الحج)، على أقوال:

الأول: أن الحج في اللغة: كثرة الاختلاف إلى شيء والتردد إليه، فمن زار البيت للحج فإنه يأتيه أولا ليعرفه ثم يعود إليه للطواف ثم ينصرف إلى منى ثم يعود إليه لطواف الزيارة ثم يعود إليه لطواف الصدر. وهذا قول الطبري[2]، وكثير من أهل اللغه.

الثاني:أن أصل الحجّ: القصد، وكلّ من قصد شيئًا فقد حجّه. وهذا اختيار الزجاج[3]، والبيضاوي[4]، وغيرهما.

ومنه قول الشاعر[5]:

يحج مأمومة في قعرها لجف ... قاست الطبيب قذاها كالمغاريد

وقال العجاج[6]:

لقد سما ابن معمر حين اعتمر ... مغزى بعيدا من بعيد وضبر

القريعي أهجى العرب . . . ثم كان بعده حسان بن ثابت ، ثم الحطيئة ، والفرزدق ، وجرير ، والأخطل . هؤلاء الستة الغاية في الهجاء وغيره ، ولم يكن في الجاهلية ولا في الإسلام لهم نظير " . هذا وقد كان من أمر المخبل والزبرقان بن بدر ما كان في ضيافة الحطيئة (انظر طبقات فحول الشعراء : ٩٦ - ١٠٠) ، وهجاؤه له ، ثم ما استشرى من هجاء المخبل له ، لما خطب إليه أخته خليدة ، فأبى الزبرقان أن يزوجها له ، وذمه . فهجاء وهجا أخته مقذعًا ، وحط منه حتى قال له :

يَا زِبْرِقانُ أخَابَنِي خَلَفٍ   مَا أنْتَ وَيبَ أبيكَ والفَخْرُ

مَا أنْتَ إلاَ فِي بَنِي خَلَفٍ   كالإسْكَتَينِ عَلاهُمَا البَظْرُ

وكل شعره في الزبرقان وأخته مقذع . وهذا البيت الذي استشهد به الطبري من قذعه . وقبل البيت :

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا أُمَّ عَمْرَةَ أنَّنِي   تَخَاطَأنِي رَيْبُ الزَّمَانِ لأكْبَرَا

لأشْهَدَ مِنْ عَوْفٍ حُلُولاً كثيرةً   يَحُجُّونَ سِبَّ الزبْرِقانِ المُزَعْفَرَا

تَمَنَّى حُصَيْنٌ أن يَسُودَ جِذَاعَهُ   فأمْسَى حُصَيْنٌ قد أُذِلَّ وأُقْهِرَا

وفي سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٥ - ٢٧٦ قول عتبة بن ربيعة في أبي جهل : " سيعلم مصفراسته من انتفخ سحره ، أنا أم هو! " فرماه بمثل ذلك من القبيح ، الذي قاله المخبل السعدي . ومن زعم أن المخبل يقول إنه : " كره أن يعيش ويعمر حتى يرى الزبرقان من الجلالة والعظمة بحيث يحج بنو عوف عصابته " ، فقد أخطأ ، وقد نقض عليه البيت الثالث ما زعم ، فإنه يصفه بأنه تمنى السيادة ، ولكن ذلك لم يزده إلا ذلا وقهرًا ، فكيف يتأتى أن يقول ما زعم هذا أنه أراده ؟ بل أراد المخبل أن يسخر به ويتهكم ، كما فعل في سائر هجائه له . وقوله : " وأشهد " منصوب ، عطفًا على قوله : " لأكبرا " .

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٢٩/٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٢٩/٣.

(٣) انظر: معاني القرآن: ٢٣٤/١.

(٤) انظر: تفسير البيضاوي: ١١٥/١.

(٥) البيت لعذار بن درة الطائي، في اللسان:(حجج)، والجمهرة:٤٩/١، وفيها:"عياض-وسقال عذار"، وهو بلا نسبة في الحيوان:٤٢٥/٣، والمثلث:٤٦١/١، وشرح السقط:٩/١، ومقاييس اللغة:٢٣/١، والمخصص:١٣:١٨٢. والمغاريد: الصغار من الكمأة.

(٦) ديوانه "١٩" و "تفسير الطبري" "٢ / ٢٧" وغيرهما. والشطران من قصيدة له في مدح عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي, وقوله: "مغزى" أي غزوا وضبر: جمع قوائمة لثبت ثم وثب، وهو يصف بعده جيش عمر ابن عبيد الله وكان فتح الفتوح الكثيرة وعظم أمره في قتال الخوارج. هامش الطبري "٣ / ٢٢٩ لمحمود شاكر".

قوله: اعتمر، أي قصد.
الثالث:أن أصل الحج في اللغة: زيارة شيء تعظّمه. قاله الليث[١].
الرابع: أن الحج: الحلق، يقال: احجج شجتك، وذلك أن يقطع الشعر من نواحي الشجة ليدخل المحجاج في الشجة، فيكون المعنى: حج فلان أي حلق. قاله قطرب[٢].
قال القفال: "وهذا محتمل لقوله تعالى: {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ} [الفتح : ٢٧] أي حجاجا وعمارا، فعبر عن ذلك بالحلق فلا يبعد أن يكون الحج مسمى بهذا الاسم لمعنى الحلق"[٣].
والقول الأول أولى بالصواب، وعليه الجمهور، لأن قولهم رجل محجوج إنما هو فيمن يختلف إليه مرة بعد أخرى، وكذلك محجة الطريق هو الذي كثر السير إليه"[٤].و الله أعلم.
و(أو)في قوله: {أَوِ اعْتَمَرَ}، للتنويع؛ لأن قاصد البيت إما أن يكون حاجاً؛ وإما أن يكون معتمراً"[٥].
وفي أصل (العمرة)، في اللغة: أقوال:
أحدهما: أنها من القصد. قاله الزجاج[٦].
قال الأزهري: "وقد يقال: الاعتمار القصد، وأنشد للعجاج[٧]:
لَقَدْ سَمَا ابْنُ مَعْمَرٍ حِينَ اعْتَمَرْ ... غْزًى بَعِيدًا من بَعِيدٍ وَضَبَرْ
يعنى: حين قصد مغزًى بعيدًا "[٨]
ومن ذلك قول أعشى باهلة[٩]:
وجاشت النفس لما جاء جمعهم ... وراكب جاء من تثليث معتمر

---

(١) انظر: افتسير البسيط: ٤٣٦/٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ١٣٦/٤.
(٣) مفاتيخ الغيب: ١٣٦/٤.
(٤)مفاتيخ الغيب: ١٣٦/٤.
(٥) تفسير ابن عثيمين: ٨١/٢.
(٦) انظر: معاني القرآن: ٢٣٤/١.
(٧) ديوانه:١٩، تهذيب اللغة" ٣/ ٢٥٦٦ (عمر)، "تفسير الثعلبي" ٢/ ٢٥، "القرطبي" ٢/ ١٦٦، قوله: مغزى: أي غزوًا. ومعنى: ضبر الجواد: تهيأ للوثوب بقوائمه أو جمع قوائمه ليثب ثم وثب. ينظر: "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٢٣٤.
(٨) تفسير الثعلبي:٢٥/٢، وتهذيب اللغة" ٣/ ٢٥٦٦ (عمر).
(٩) الأصمعيات: ٨٨. وأمالي الشريف المرتضى ٣: ١٠٠، الخزانة: ١: ٨٩، والجمهرة: ١٤٠/٣، والمرزباني: ١٤، واللسان: ١٦/٦، ومعجم البلدان:٣٦٧/٢، والبيت ضمن قصيدة من المراثي المعدودات، يرثي بها أعشى باهلة أخاه لأمه المنتشر بن وهب بن سلمة بن كراثة بن هلال بن عمرو بن سلامة بن ثعلبة بن وائل بن معن بن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان. وكان المنتشر رئيسًا. وكان من خبر مقتله ما رواه البغدادي في الخزانة عن جابر أخو بني فراص. وكان بنو نفيل عمرو بن كلاب أعداء له، فلما رأوا مخرجه وعورته وما يطلبه به بنو الحرث بن كعب – وطريقه عليهم، وكان من حج ذا الخلصة أهدى له هديا يتحرم به ممن لقيه – فلم يكن مع المنتشر هدى، فسار حتى إذا كان بهضب النباع انكسر له بعض غلمته الذين كانوا معه، فصعدوا في شعب من النباع فقالوا في غار فيه – وكان الأقيصر يتكهن – وأنذر بنو نفيل بالمنتشر بني الحرث بن كعب فقال الأقيصر: النجاء يا منتشر، فقد أتيت! فقال: لا أبرح حتى أبرد، فمضى الأقيصر وأقام المنتشر، وأتاه غلمته بسلاحه وأراد قتالهم فأمنوه، وكان قد أسر رجلا من بني الحرث بني كعب يقال له هند بن أسماء بن زنباع، فأسه أن يفدي نفسه فأبطأ عليه، فقطع أنملة، ثم أبطأ فقطع منه أخرى، وقد أمنه القوم ووضع سلاخه، فقال [أي هند بن أسماء]: أتؤمنون مقطعًا؟ والله لا أومنه! ثم قتل وقتل غلمته.

الثاني: أنها من الزيارة[١]. وهو اختيار الطبري[٢]، وبه قال البيضاوي[٣].
وإنما قيل له : (معتمر)، لأنه إذا طاف به انصرف عنه بعد زيارته إياه، وإنما يعني تعالى ذكره بقوله : (أو اعتمر)، أو اعتمرَ البيت[٤].
قال القفال: "ولا شبهة في العمرة إذا أضيفت إلى البيت أن تكون بمعنى الزيارة، لأن المعتمر يطوف بالبيت وبالصفا والمروة، ثم ينصرف كالزائر"[٥].
الثالث: أن :اعتمر: أي حل بمكة بعد الطواف والسعي، ففعل ما يفعل الحلال. قاله المفضل بن سلمة[٦].
والراجح أن (العمرة) في اللغة: الزيارة؛ والمراد بها: زيارة البيت لأداء مناسك العمرة[٧]. والله أعلم.
قوله تعالى:{فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}[البقرة:١٥٨]،" أي: لا حرج ولا إثم عليه أن يسعى بينهما"[٨].
قال الطبري: أي: "فلا حَرَج عليه ولا مَأثم في طوَافه بهما"[٩].
قال المراغي:أي" فلا يتخوفنّ من الطواف بهما"[١٠].
و(الجناح) الإثم. قاله السدي[١١].
وإنما نفى الإثم؛ لأنهم كانوا يتحرجون من الطواف بهما، "من أجل أن المشركين كانوا يطوفون بهما"[١٢].
قال ابن عباس:" وذلك أنّ ناسًا كانوا يتحرجون أن يَطوفوا بين الصفا والمروة ، فأخبر الله أنهما من شعائره ، والطواف بينهما أحبُّ إليه ، فمضت السُّنة بالطَّواف بينهما"[١٣].
قال الرازي: وأما الجناح فهو من قولهم: جنح إلى كذا أي مال إليه، قال الله تعالى: {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها} [الأنفال: ٦١]، وجنحت السفينة، إذا لزمت الماء فلم تمض، وجنح الرجل في الشيء يعلمه بيده، إذا مال إليه بصدره وقيل للأضلاع: جوانح لاعوجاجها، وجناح الطائر من هذا، لأنه يميل في أحد شقيه ولا يطير على مستوى خلقته فثبت أن أصله من الميل، ثم من الناس من قال إنه بقي في عرف القرآن كذلك أيضا فمعنى: لا جناح عليه أينما ذكر في القرآن: لا ميل لأحد عليه بمطالبة شيء من الأشياء، ومنهم من قال: بل هو مختص بالميل إلى الباطل وإلى ما يأثم به"[١٤].

---

(١) انظر: المفرات: ٣٥٠.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٢٢٩/٣.
(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ١١٥/١.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب: ١٣٧/٤.
(٥) مفاتيح الغيب: ١٣٧/٤.
(٦) انظر: تفسير الثعلبي:٢٥/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين:١٨٤/٢.
(٨) صفوة التفاسير:٩٦/١.
(٩) تفسير الطبري: ٣٣٠/٣.
(١٠) تفسير المراغي:٢٧/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٣٣٤):ص٢٣١/٣.
(١٢) تفسير المراغي:٢٧/٢.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٣٤١):ص٢٣٣/٣.
(١٤) مفاتيح الغيب: ١٣٧/٤.

قال البيضاوي: "والإجماع على أنه[أي الصفا والمروة]، مشروع في الحج والعمرة"(١).

قال المراغي:" والسرّ في التعبير بنفي الجناح الذي يصدق بالمباح ، مع أن السعى بينهما إما فرض كما هو رأى مالك(٢) والشافعي(٣) أو واجب كما هو رأى أبي حنيفة(٤) ، الإشارة إلى بيان خطأ المشركين الذين كانوا ينكرون كون الصفا والمروة من الشعائر ، وأن السعى بينهما من مناسك إبراهيم ، وذلك لا ينافي الطلب الجازم"(٥).

واختلف أهل العلم في وجوب طواف (الصفا والمروة)، على ثلاثة أقوال(٦):

أحدها: أنه سنة، قاله احمد، وبه قال أنس(٧)، وابن عباس(٨)، عبدالله بن الزبير(٩)، وعطاء(١٠)، ومجاهد(١١)، وعاصم(١٢)، وأنس بن مالك(١٣)رضي الله عنهم(١٤).

وحجتهم: قوله تعالى:{ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ}، فإنه يفهم منه التخيير.

قال البيضاوي:" وهو ضعيف، لأن نفي الجناح يدل على الجواز الداخل في معنى الوجوب، فلا يدفعه"(١٥).

الثاني: أنه واجب، يجبر بالدم. وهذا مذهب أبي حنيفة(١٦)، والثوري(١٧).

الثالث: أنه ركن. وهذا قول مالك(١٨)، والشافعي(١٩) رحمهما الله(٢٠).

واجتجوا بقوله عليه الصلاة والسلام: "اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي"(١).

---

(١) تفسير البيضاوي: ١١٥/١.

(٢)انظر: لفظ مالك في الموطأ : ٣٧٤ - ٣٧٥، وتفسير الطبري(٢٣٥٣):ص٢٤١/٣.

(٣)انظر لفظ الشافعي في الأم ٢ : ١٧٨ ، وانظر: تفسير الطبري(٢٣٥٤):ص٢٤١/٣.

(٤) وفي بعض روايات أبي حنيفة:"إن ترك أكثر من ثلاثة أشواط فعليه دم ، أو ثلاثة فأقل فعليه لكل شوط إطعام مسكين".[انظر: البحر المحيط: ٤٥٧/١].

(٥) تفسير المراغي:٢٨/٢.

(٦) انظر: تفسير البيضاوي: ١١٥/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٣٥٨):ص٢٤٢/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٣٥٧):ص٢٤١/٣-٢٤٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٣٦٢):ص٢٤٢/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٣٥٦):ص٢٤١/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٣٦٠)، و(٢٣٦١):ص٢٤٢/٣.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٣٥٨):ص٢٤٢/٣.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٣٥٩):ص٢٤٢/٣.

(١٤) انظر: تفسير البيضاوي: ١١٥/١، والبحر المحيط:٤٥٧/١.

(١٥) تفسير البيضاوي: ١١٥/١.

(١٦) وفي بعض روايات أبي حنيفة:"إن ترك أكثر من ثلاثة أشواط فعليه دم ، أو ثلاثة فأقل فعليه لكل شوط إطعام مسكين".[انظر: البحر المحيط: ٤٥٧/١].

(١٧) انظر:تفسير الطبري(٢٣٥٥):ص٢٤١/٣، وتفسير البيضاوي: ١١٥/١، والبحر المحيط:٤٥٧/١.

(١٨)انظر: لفظ مالك في الموطأ : ٣٧٤ - ٣٧٥، وتفسير الطبري(٢٣٥٣):ص٢٤١/٣.

(١٩)انظر لفظ الشافعي في الأم ٢ : ١٧٨ ، وانظر: تفسير الطبري(٢٣٥٤):ص٢٤١/٣.

(٢٠) انظر: تفسير البيضاوي: ١١٥/١، والبحر المحيط:٤٥٧/١.

(١) أخرجه أحمد ٤٢١/٦ – ٤٢٢، حديث رقم ٢٧٩١١، وأخرجه ابن خزيمة ٢٣٢/٤ – ٢٣٣، حديث رقم ٢٧٦٤، ٢٧٦٥، وأخرجه الشافعي في مسنده ٣٥١/١ – ٣٥٢، حديث رقم ٩٠٧، وقال الألباني الحديث "صحيح" (الإرواء: ٢٦٩/٤ – ٢٧٠).

قال أبو حيان:" ومن ذهب إلى أنه ركن، أو واجب يجبر بالدم، أو إن ترك أكثر من ثلاثة أشواط فعليه دم ، أو ثلاثة فأقل فعليه لكل شوط إطعام مسكين، يحتاج إلى نص جلي ينسخ هذا النص القرآن"(١).

والراجح: "أنّ الطواف بهما فرض واجب، وأن على من تركه العوْد لقضائه ، ناسيًا كان ، أو عامدًا. لأنه لا يُجزيه غير ذلك ، لتظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حج بالناس ، فكان مما علمهم من مناسك حَجّهم الطوافُ بهما"(٢). والله أعلم.

وفي قوله تعالى:{ أن يَطَّوَّفَ بِهِمَا}[البقرة:١٥٨]، وجهان من القراءة(٣):

أحدهما: {أن يطوّف}. قراءة الجمهور.

والثاني:{أن لا يطوّف}، قرأ بها أنس وابن عباس وابن سيرين وشهر، وكذلك هي في مصحف أبي وعبد الله ، وخرج ذلك على زيادة (لا)، نحو : {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا} ؟ أي:"ما منعك أن تسجد"(٤).

قال أبو عبيدة:" والعرب تضع (لا) فى موضع الإيجاب، وهى من حروف الزوائد، قال أبو النجم(٥):

فما ألوم البيض ألّا تسخرا ... ممّا رأين الشمط القفندرا

أي: ما ألوم البيض أن يسخرن، القفندر: القبيح السّمج، وقال الأحوص(٦):

ويلحيننى فى اللهو ألّا أحبّه ... وللهو داع دائب غير غافل

أراد: فى اللهو أن أحبه، قال العجاج(٧):

فى بئر لا حور سرى وما شعر

الحور: الهلكة، وقوله لا حور: أي فى بئر حور، و «لا» فى هذا الموضع فضل"(٨).

قوله تعالى:{ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا}[البقرة:١٥٨]،" أي: ومن أكثر من الطاعة بالزيادة على الواجب"(٩).

---

(١) البحر المحيط: ٤٥٧/١.

(٢) تفسير الطبري:٢٤٣/٣. ومن تلك الأخبار:

- روي عن جابر أنه قال: "لما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصفا في حجه قال : " {إنّ الصفا والمروةَ من شَعَائر الله}، ابدؤوا بما بدأ الله بذكره. فبدأ بالصفا فرَقِيَ عليه". [تفسير الطبري(٢٣٦٥):ص٢٤٣/٣].

- عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ الصفا والمروةَ من شَعائر الله " ، فأتى الصفا فبدأ بها ، فقام عليها ، ثم أتى المروة فقام عليها ، وطاف وسَعى".[تفسير الطبري(٢٣٦٦):ص٢٤٣/٣].

(٣) انظر: البحر المحيط: ٤٥٥/١-٤٥٦.

(٤) مجاز القرآن: ٢١١/١.

(٥)البيت فى الكتاب: ٢/ ٣٢ والطبري ١/ ٦١ والجمهرة ٣/ ٣٣٤ والزجاج ١/ ١٠٧ ب والقرطبي ٢/ ١٨٢ والصحاح واللسان والتاج (قفندر) والخزانة ١/ ٤٨. وأبو النجم: اسمه الفضل بن قدامة بن عبد الله، عجلى من بنى عجل بن لجيم، أخباره فى الأغانى ٩/ ٧٣، وله ترجمة فى الخزانة ١/ ٤٩.

(٦) انظر: الكامل مع آخر قبله: ٤٩، وتفسير القرطبي ١/ ٦٢، ونقله أبو على الفارسي فى الحجة : ١/ ١١٠ من إنشاد أبى عبيدة.

(٧)ديوانه ١٦- وتفسير الطبري ١/ ٦١، والجمهرة ٢/ ١٤٦، واللسان والتاج (صور)، والخزانة ٢/ ٩٥..

(٨) مجاز القرآن: ٢١١/١.

(٩) تفسير المراغي: ٢٨/٢.

قال الصابوني: "أي: من تطوّع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته المفروضة عليه، أو فعل خيراً فرضاً كان أو نفلاً"(١).
قال مقاتل:أي:" ومن تطوع خيرا بعد الفريضة فزاد في الطواف"(٢).
قال البيضاوي:" أي فعل طاعة فرضاً كان أو نفلاً، أو زاد على ما فرض الله عليه من حج أو عمرة، أو طواف أو تطوع بالسعي إن قلنا إنه سنة"(٣).
قال أبو السعود:" أي فعل طاعة فرضا كان أو نفلا أو زاد على ما فرض عليه من حج أو عمرة أو طواف"(٤).
قال أبو حيان:" التطوّع : ما تترغب به من ذات نفسك مما لا يجب عليك"(٥).
وقد تعددت آراء العلماء في تفسير قوله تعالى: {فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا}[البقرة:١٥٨]، على وجوه(٦):
أحدها: قيل : بالنفل على واجب الطواف ، قاله مجاهد(٧).
الثاني: وقيل بالعمرة. قاله ابن زيد(٨).
الثالث: وقيل: بالحج والعمرة بعد قضاء الواجب عليه(٩).
الرابع: وقيل: بالسعي بين الصفا والمروة ، وهذا قول من أسقط وجوب السعي ، لما فهم الإباحة في التطوف بهما من قوله : {فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أن يَطَّوَّفَ بِهِمَا } ، حمل هذا على الطواف بهما ، كأنه قيل : ومن تبرع بالطواف بينهما(١٠).
الخامس: بالسعي في الحجة الثانية التي هي غير واجبة(١١).
السادس: وقيل : المراد تطوع خيرًا في سائر العبادات. قاله الحسن(١٢).
والقول الأخير أولى بالصواب، لأنه أوفق لعموم اللفظ. والله تعالى أعلم.
قال الشيخ ابن عثيمين:" وتخصيص التطوع بالمستحب اصطلاح فقهي؛ أما في الشرع فإنه يشمل الواجب، والمستحب"(١٣).
وفي قوله تعالى:{ تَطَوَّعَ }[البقرة:١٥٨]، وجهان من القراءة(١٤):
أحدهما: {يطوع} بالياء وجزم العين، قرأ بها حمزة والكسائي ويعقوب، وتقديره: يتطوع، إلا أن التاء أدغمت في الطاء لتقاربهما، مثل يطوف(١٥).

---

(١) صفوة التفاسير:٩٦/١.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٢/١.
(٣) تفسير البيضاوي: ١١٥/١.
(٤) تفسير أبي السعود: ١٨١/١.
(٥) البحر المحيط: ٤٥٧/١.
(٦) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٧٢/١. ومفاتيح الغيب: ١٣٩/٤.
(٧) انظر: البحر المحيط: ٤٥٧/١.
(٨) انظر: البحر المحيط: ٤٥٧/١.
(٩) انظر: البحر المحيط: ٤٥٧/١.
(١٠) انظر: البحر المحيط: ٤٥٧/١.
(١١) انظر: البحر المحيط: ٤٥٧/١.
(١٢) انظر: البحر المحيط: ٤٥٧/١، ومفاتيح الغيب: ١٣٩/٤.
(١٣) تفسير ابن عثيمين: ٨٢/٢.
(١٤) انظر: السبعة في القراءات: ١٧٢/١، والحجة: ٢٤٨/٢.
(١٥) انظر: تفسير البيضاوي: ١١٥/١.

قال الرازي: "وهذا أحسن، لأن المعنى على الاستقبال والشرط والجزاء الأحسن فيهما الاستقبال، وإن كان يجوز أن يقال من أتاني أكرمته فيوقع الماضي موقع المستقبل في الجزاء، إلا أن اللفظ إذا كان يوافق المعنى كان أحسن"(١).

والثاني: {تطوع}، قرأ بها الباقون، على وزن (تفعل)، ماضيا.

وعلى هذه القراءة فإن قوله {تطوع}، يحتمل أمرين(٢):

أحدهما: أن يكون موضع (تطوع) جزما.

الثاني: أن لا يجعل (من) للجزاء، ولكن يكون بمنزلة (الذي) ويكون مبتدأ و(الفاء) مع ما بعدها في موضع رفع لكونها خبر المبتدأ الموصول والمعنى فيه معنى مبتدأ الخبر، إلا أن هذه الفاء إذا دخلت في خبر الموصول أو النكرة الموصوفة، أفادت أن الثاني إنما وجب لوجوب الأول كقوله: {وما بكم من نعمة فمن الله} [النحل:٥٣]، فـ(ما) مبتدأ موصول، و(الفاء) مع ما بعدها خبر له(٣).

قوله تعالى:{فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}[البقرة:١٥٨]، أي: إن الله"مثيب على الطاعة، لا تخفى عليه"(٤).

قال الصابوني:"أي إنه سبحانه شاكرٌ له طاعته ومجازيه عليها خير الجزاء، لأنه عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال فلا يضيع عنده أجر المحسنين"(٥).

قال ابن كثير: أي : "يثيب على القليل بالكثير (عَلِيمٌ) بقدر الجزاء فلا يبخس أحدا ثوابه و {لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء : ٤٠]"(٦).

قال ابن عثيمين: "أي: فالله يشكر؛ وشكره تعالى أنه يثيب العامل أكثر من عمله؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والله{عَلِيمٌ}، أي ذو علم؛ وعلمه تعالى محيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: {وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً} [الطلاق: ١٢]" (٧).

قال أبو السعود:" أي مجاز على الطاعة عبر عن ذلك بالشكر مبالغة في الإحسان إلى العباد، {عليم} مبالغ في العلم بالأشياء فيعلم مقادير أعمالهم وكيفياتها فلا ينقص من أجورهم شيئا"(٨).

قال المراغي:أي:" فإن الله يجازيه على الإحسان إحسانا ، وهو العليم بمن يستحق هذا الجزاء، وفي التعبير عن إحسان الله على عباده بالشكر - تعويدهم الآداب العالية والأخلاق السامية ، إذ أن منفعة عملهم عائدة إليهم ، وهو مع ذلك قد شكرهم عليه"(٩).

قال الرازي: أي: "أنه يعلم قدر الجزاء فلا يبخس المستحق حقه لأنه تعالى عالم بقدره وعالم بما يزيد عليه من التفضل، وهو أليق بالكلام ليكون لقوله تعالى: {عليم} تعلق بشاكر،

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٣٨/٤.

(٢) انظر: الحجة للقراءة السبعة:٢٤٥/٢.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ١٣٨/٤. ، ومنه قوله تعالى: {والذين ينفقون أموالهم} [النساء: ٣٨] إلى قوله: {فلهم أجرهم}[البقرة:٢٧٤]، وقوله:{إن الذين فتنوا المؤمنين} [البروج:١٠]، إلى قوله: {فلهم عذاب جهنم}، وقوله: {ومن عاد فينتقم الله منه} وقوله: {ومن كفر فأمتعه قليلا}، وقوله: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها}، وقوله: {ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}.[انظر: مفاتيح الغيب: ١٣٨/٤-١٣٩].

(٤) تفسير البيضاوي: ١١٥/١.

(٥) صفوة التفاسير:٩٦/١.

(٦) تفسير ابن كثير: ٤٧٢/١.

(٧) تفسير ابن عثيمين: ٨٢/٢[بتصرف بسيط].

(٨) تفسير أبي السعود: ١٨١/١.

(٩) تفسير المراغي:٢٨/٢.

ويحتمل أنه يريد أنه عليم بما يأتي العبد فيقوم بحقه من العبادة والإخلاص وما يفعله لا على هذا الحد، وذلك ترغيب في أداء ما يجب على شروطه، وتحذير من خلاف ذلك"(١).

روي عن قتادة. قوله: {شاكر عليم}، قال: إن الله لا يعذب شاكرا ولا مؤمنا"(٢).

وعنه كذلك:" لا شيء أشكر من الله، ولا أجزأ لخير من الله عز وجل"(٣).

وقرن (العلم) بـ(الشكر)، لاطمئنان العبد إلى أن عمله لن يضيع فإنه معلوم عند الله، ولا يمكن أن يضيع منه شيء؛ يعني: إذا عَلم العامل أن الله تعالى شاكر، وأنه عليم، فإنه سيطمئن غاية الطمأنينة إلى أن الله سبحانه وتعالى سيجزيه على عمله بما وعده به، ويعطيه أكثر من عمله(٤).

قال أبو حيان:" وشكر الله العبد بأحد معنيين : إما بالثواب ، وإما بالثناء. وعلمه هنا هو علمه بقدر الجزاء الذي للعبد على فعل الطاعة ، أو بنيته وإخلاصه في العمل. وقد وقعت الصفتان هنا الموقع الحسن ، لأن التطوّع بالخير يتضمن الفعل والقصد ، فناسب ذكر الشكر باعتبار الفعل ، وذكر العلم باعتبار القصد ، وأخرت صفة العلم ، وإن كانت متقدمة ، على الشكر ، كما أن النية مقدمة على الفعل لتواخي رؤوس الآي"(٥).

وفي إعراب قوله تعالى: {خيراً}[البقرة:١٥٨]، وجهان (٦):

الوجه الأول: أن تكون منصوبة بنزع الخافض؛ والتقدير: ومن تطوع بخير فإن الله شاكر عليم.

والوجه الثاني: أن تكون مفعولاً لأجله - أي ومن تطوع لأجل الخير، وطلبه فإن الله شاكر عليم.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: مشروعية الطواف بين الصفا، والمروة؛ ويؤخذ ذلك من كونه من شعائر الله؛ وهل هو ركن، أو واجب، أو سنة؟ اختلف في ذلك أهل العلم على أقوال ثلاثة؛ فقال بعضهم: إنه ركن من أركان الحج لا يتم الحج إلا به؛ وقال بعضهم: إنه واجب من واجبات الحج يجبر بدم، ويصح الحج بدونه؛ وقال آخرون: إنه سنة، وليس بواجب.

والقول بأنه سنة ضعيف جداً؛ لأن قوله تعالى: {من شعائر الله} يدل على أنه أمر مهم؛ لأن الشعيرة ليست هي السنة فقط؛ الشعيرة هي طاعة عظيمة لها شأن كبير في الدين.

بقي أن يكون متردداً بين الركن، والواجب؛ والأظهر أنه ركن؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي»(١)؛ وقالت عائشة: «والله! ما أتم الله حج امرئ ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة»(٢).

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٤٨/٤.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٣٧):ص٢٦٨/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٣٨):ص٢٦٨/١.

(٤) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٨٢/٢

(٥) البحر المحيط: ٤٥٨/١.

(٦) تفسير ابن عثيمين: ٨٢/٢.

(١) أخرجه أحمد ٤٢١/٦ – ٤٢٢، حديث رقم ٢٧٩١١، وأخرجه ابن خزيمة ٢٣٢/٤ – ٢٣٣، حديث رقم ٢٧٦٤، ٢٧٦٥، وأخرجه الشافعي في مسنده ٣٥١/١ – ٣٥٢، حديث رقم ٩٠٧، وقال الألباني الحديث "صحيح" (الإرواء: ٢٦٩/٤ – ٢٧٠).

(٢) أخرجه البخاري ص١٤٠، كتاب العمرة، باب ١٠: يفعل بالعمرة ما يفعل بالحج حديث رقم ١٧٩٠، وأخرجه مسلم ص٨٩٩، كتاب الحج، باب ٤٣: بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن...، حديث رقم ٣٠٧٩ [٢٥٩] ١٢٧٧.

فالأقرب أنه ركن؛ وليس بواجب؛ وإن كان الموفق - رحمه الله - وهو من مشائخ مذهب الإمام أحمد - اختار أنه واجب يجبر بدم.
٢- من فوائد الآية: دفع ما توهمه بعض الصحابة من الإثم بالطواف بالصفا، والمروة؛ لقوله تعالى: {فلا جناح عليه أن يطوف بهما}؛ وعلى هذا فلا ينافي أن يكون الطواف بينهما ركناً من أركان الحج، أو واجباً من واجباته، أو مشروعاً من مشروعاته؛ وذلك أن أناساً من الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية المذكورة في القرآن؛ وهي في المشلّل - مكان قرب مكة - فكانوا يتحرجون من الطواف بالصفا والمروة وقد أهلوا لمناة؛ فلما جاء الإسلام سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية: {فلا جناح عليه أن يطوف بهما}؛ فعلى هذا يكون النفي هنا لدفع ما وقع في نفوسهم من التحرج؛ لأنها من شعائر الله؛ وليس لبيان أصل الحكم.

وفيه سبب آخر لتحرج الناس من الطواف بهما: وهو أنهم كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، فكانوا يطوفون بهما كما كانوا يطوفون بالبيت أيضاً، فذكر الله عزّ وجلّ الطواف بالبيت، ولم يذكر الطواف بالصفا، والمروة؛ فقالوا: لو كان ذلك جائزاً لذكره الله عزّ وجلّ، فهذا دليل على أنه ليس بمشروع؛ لأنه من أعمال الجاهلية؛ فلا نطوف؛ فأنزل الله هذه الآية.

وفيه أيضاً سبب ثالث؛ وهو أنه يقال: إنه كان فيهما صنمان: إساف، ونائلة؛ وقيل: إنهما كانا رجلاً وامرأة زنيا في جوف الكعبة؛ فمسخهما الله سبحانه وتعالى حجارة؛ فكان من جهل العرب أن قالوا: «هذان مسخا حجارة؛ إذاً لا بد أن هناك سراً، وسبباً، فاخرجوا بهما عن الكعبة، واجعلوهما على الجبلين - الصفا، والمروة نطوف بهما، ونتمسح بهما»؛ وقد كان؛ وعلى هذا يقول أبو طالب: وحيث يُنيخ الأشعرون ركابهم بمفضى السيول من إسافٍ ونائل و«مفضى السيول» مجرى الوادي المعروف الذي بين الصفا، والمروة؛ فالحاصل أن هذه ثلاثة أسباب في نزول الآية؛ وأظهرها السبب الأول؛ على أنه لا مانع من تعدد الأسباب.

٣- ومن فوائد الآية: أن الطواف بالصفا والمروة من طاعة الله؛ لقوله تعالى: {ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم}.

٤- ومنها: أن الطاعة خير؛ لقوله تعالى: {ومن تطوع خيراً}؛ ولا ريب أن طاعة الله سبحانه وتعالى خير للإنسان في حاله ومآله.

٥- ومنها: إثبات اسم «الشاكر» لله؛ لقوله تعالى: {شاكر}.

٦- ومنها: إثبات «العليم» اسماً لله؛ لقوله تعالى: {شاكر عليم}.

٧- ومنها: إثبات صفة الشكر، والعلم؛ لقوله تعالى: {شاكر عليم}؛ لأنهما اسمان دالان على الصفة؛ وعلى الحكم إن كان متعدياً، فقوله تعالى: {عليم} يدل على العلم - وهذه هي الصفة؛ ويدل على الحكم بأنه يعلم كل شيء.

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)} [البقرة : ١٥٩]

التفسير:

إن الذين يُخْفون ما أنزلنا من الآيات الواضحات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به، وهم أحبار اليهود وعلماء النصارى وغيرهم ممن يكتم ما أنزل الله من بعد ما أظهرناه للناس في التوراة والإنجيل، أولئك يطردهم الله من رحمته، ويدعو عليهم باللعنة جميع الخليقة.

اختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية على قولين:
أحدهما: قال مقاتل:" وذلك أن معاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وحارثة بن زيد، سألوا اليهود عن أمر محمد- صلى الله عليه وسلم- وعن الرجم وغيره فكتموهم يعني اليهود، منهم كعب بن الأشرف، وابن صوريا، ما أنزلنا من البينات يعني ما بين الله- عز وجل- في التوراة يعني الرجم والحلال والحرام والهدى يعني أمر محمد- صلى الله عليه وسلم- في التوراة فكتموه الناس"(١).
وذكره الماوردي، فزاد:" فيهم كعب بن أسيد وزيد بن التابوت"(٢).
وأخرج الطبري عن ابن عباس قال : "سألَ مُعاذ بن جبل أخو بنى سَلِمة ، وسعد بن مُعاذ أخو بني عبد الأشهل ، وخارجة بن زيد أخو بني الحارث بن الخزرج ، نفرًا من أحبار يَهود - قال أبو كريب : عما في التوراة ، وقال ابن حميد : عن بَعض مَا في التوراة - فكتموهم إياه ، وأبوْا أن يُخبروهم عنه ، فأنزل الله تعالى ذكره فيهم : {إنّ الذين يَكتمون مَا أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيَّناه للناس في الكتاب أولئك يَلعنهم الله ويَلعنهم اللاعنون} "(٣).
وروي عن مجاهد(٤)، والربيع(٥)، وقتادة(٦)، والسدي(٧)، وأبو العالية(٨)، نحو ذلك. وهو قول الجمهور.
الثاني: وقيل: المراد كل من كتم الحق، فهي عامة في كل من كتم علما من دين الله يحتاج إلى بثه ، وذلك مفسر في قوله صلى الله عليه وسلم : "من سُئِل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجام من نار"(٩).
قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى}[البقرة:١٥٩]، أي:" إن الذين يُخْفون ما أنزلنا من الآيات الواضحات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به، وهم أحبار اليهود وعلماء النصارى وغيرهم ممن يكتم ما أنزل الله"(١٠).
قال الصابوني:" يخفون ما أنزلناه من الآيات البينات، والدلائل الواضحات التي تدل على صدق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم"(١١).
قال المراغي:" أي إن أهل الكتاب الذين كتموا أمر الإسلام وأمر محمد صلى الله عليه وسلم"(١٢).
قال ابن عطية:أي" أمر محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يعم بعد كل ما يكتم من

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥٢/١.
(٢) النكت والعيون: ٢١٤/١، وانظر: العجاب: ٤١٢/١.
(٣) تفسير الطبري(٢٣٧٠):ص٢٤٩/٣-٢٥٠، وانظر: العجاب: ٤١٢/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٣٧١):ص٢٥٠/٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٣٧٢)، و(٢٣٧٣):ص٢٥٠/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٣٧٤):ص٢٥١/٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٣٧٥):ص٢٥١/٣.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٤٤١):ص٢٦٨/١، وتفسير ابن كثير: ٤٧٢/١.
(٩)) المسند (٢٦٣/٢) وقد توسع الحافظ الزيلعي في كتابه "تخريج أحاديث الكشاف" (٢٥٢/١ - ٢٥٧) في ذكر طرق هذا الحديث.
(١٠) التفسير الميسر: ٢٤.
(١١) صفوة التفاسير:٩٦/١.
(١٢)تفسير المراغي: ٣٠/٢.
(١٣) المحرر الوجزي: ٢٣١/١.

قال الزجاج:" هذا إخبار عن علماء إليهود الذين كتموا ما علموه من صحة أمر النبي - صلى الله عليه وسلم -"[١].
قال البيضاوي: " {الْبَيِّنَاتِ}: كالآيات الشاهدة على أمر محمد صلّى الله عليه وسلّم، {وَالْهُدَى}: وما يهدي إلى وجوب اتباعه والإيمان به"[٢].
قال ابن عثيمين:"{الْهُدَى}:"العلم النافع الذي يهتدي به الخلق إلى الله عزّ وجلّ"[٣].
قوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ }[البقرة:١٥٩]، "أي من بعد توضيحه لهم في التوراة أو في الكتب السماوية"[٤].
قال البيضاوي: أي:من بعد ما" لخصناه في في التوراة"[٥].
قال الزمخشري:أي:" لم ندع فيه موضع إشكال ولا اشتباه على أحد منهم، فعمدوا إلى ذلك المبين الملخص فكتموه ولبسوا على الناس"[٦].
قال ابن عثيمين:" أي من بعد أن أظهرناه للناس عموماً المؤمن، والكافر؛ فإن الله تعالى بين الحق لعموم الناس، كما قال تعالى: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} [فصلت: ١٧] ؛ فكل الناس قد بين الله لهم الحق؛ لكن منهم من اهتدى؛ ومنهم من بقي على ضلاله"[٧].
واختلف في والمراد بـ{الْكِتَابِ}[البقرة:١٥٩]، على قولين:
أحدهما: يعني به القرآن. قاله الزجاج[٨].
الثاني: أنه التوراة والإنجيل، بحكم سبب الآية وأنها في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ثم يدخل القرآن مع تعميم الآية". وهذا قول ابن عطية[٩].
قال ابن عثيمين:" فما من نبي أرسله الله إلا ومعه كتاب، كما قال تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان} [الحديد: ٢٥] ، وكما قال تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} [البقرة: ٢١٣]"[١٠] .
وفي كتمان أهل الكتاب بعض ما في كتبهم، وجهان[١١]:
أحدهما: إما بعدم ذكر نصوصه للناس حين الحاجة إليه أو السؤال عنه، كالبشارة بالنبي صلى اللّه عليه وسلم وصفاته مع وجودها في كتبهم.
الثاني: وإما بتحريف الكلم عن مواضعه حين الترجمة ، أو بحمله على غير معانيه بالتأويل اتباعا لأهوائهم.

---

(١) معاني القرآن: ٢٣٥/١.
(٢) تفسير البيضاوي: ١١٦/١.
(٣) تفسير ابن عثيمين:١٨٩/٢.
(٤) صفوة التفاسير:٩٦/١.
(٥) تفسير البيضاوي: ١١٦/١.
(٦) الكشاف: ٢٠٩/١.
(٧) تفسير ابن عثيمين: ٨٣/٢.
(٨) انظر: معاني القرآن: ٢٣٥/١.
(٩) انظر: المحرر الوجيز: ٢٣١/١.
(١٠) تفسير ابن عثيمين: ٨٣/٢.
(١١) انظر: تفسير المراغي: ٣٠/٢.

قال المراغي:"وقد فضحهم الله بهذه الآيات ، وسجل عليهم اللعنات الدائمات الإيضاح"[١].
وقرأ طلحة بن صرف:{من بعد ما بينه}، على الإفراد[٢].
قوله تعالى:{أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ}[البقرة:١٥٩]، أي:"أولئك يُبعدهم الله منه ومن رحمته"[٣].
قال السعدي: أي: "يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته"[٤].
قال ابن عثيمين: أي:" يطردهم ويبعدهم عن رحمته"[٥].
قال الطبري:أي"
قال أبو السعود:" أي يطردهم ويبعدهم من رحمته"[٦].
قال الصابوني:"أي: أولئك الموصوفون بقبيح الأعمال، الكاتمون لأوصاف الرسول، المحرّفون لأحكام التوراة يلعنهم الله فيبعدهم من رحمته"[٧].
قال القرطبي:"أي: يتبرأ منهم ويبعدهم من ثوابه ويقول لهم : عليكم لعنتي ، كما قال للعين : {وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي} [ص : ٧٨] "[٨].
وأصل (اللعن) في اللغة الإبعاد والطرد، كما قال الشماخ بن ضرار ، وذكر ماءً ورَد عليه[٩]:
ذَعَرْتُ بِهِ القَطَا وَنَفَيْتُ عَنْهُ ... مَقَامَ الذِّئْبِ كَالرَّجُلِ الَّلعِينِ
يعني : مقامَ الذئب الطريد. و (اللعين) من نعت (الذئب)، وإنما أراد : مقام الذئب الطريد واللعين كالرَّجل[١٠].
وقال النابغة[١١]:
فبت كانني خرج لعين ... نفاه الناس أو أدنف طعين
قال الثعلبي:" فمعنى قولنا: لعنه الله: أي طرده وأبعده وأصل اللعنة ما ذكرنا ثم كثر ذلك حتى صار قولا"[١٢].
قوله تعالى(وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ}[القرة:١٥٩]، أي:" ويسألُ ربَّهم اللاعنون أنْ يلعنهم"[١٣].
قال الطبري والثعلبي:" أي: يسألون الله أن يلعنهم ويقولون : اللهم العنهم"[١].

---

(١) تفسير المراغي: ٣٠/٢.
(٢) المحرر الوجي: ٢٣١/١.
(٣) تفسير الطبري:٢٥٤/٣.
(٤) تفسير السعدي: ٧٧/١.
(٥) تفسير ابن عثيمين:١٩٠/٢.
(٦) تفسير أبي السعود: ١٨٢/١.
(٧) صفوة التفاسير:٩٦/١.
(٨) تفسير القرطبي: ١٨٦/٢.
(٩)ديوانه : ٩٢ ، ومجاز القرآن ٤٦١ ، وروايته في ديوانه ، " مقام الذئب " والضمير في " به " إلى " ماء " في قوله قبله : وماء قد وردت لوصل أروى ... عليه الطير كالورق اللجين وأراد في البيت : مقام الذئب الطريد اللعين كالرجل. والرجل اللعين المطرود لا يزال منتبذا عن الناس ، شبه الذئب به ، يعني في ذله وشدة مخافته وذعره.
(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٤/٣، وتفسير الثعلبي:٢٩/٢.
(١١) البيت من شواهد الثعلبي في تفسيره: ٢٩/٢.
(١٢) تفسير الثعلبي:٢٩/٢.
(١٣) تفسير الطبري:٢٥٤/٣.

قال أبو السعود:" أي الدعاء عليهم باللعن من الملائكة ومؤمني الثقلين والمراد بيان دوام اللعن واستمراره"[٢].

قال ابن عثيمين:" أي يسألون لهم اللعنة؛ وهم أيضاً بأنفسهم يبغضونهم، ويعادونهم، ويبتعدون عنهم"[٣].

قال الصابوني:أي:" وتلعنهم الملائكة والمؤمنون"[٤].

قال المراغي:أي:" ويستوجبون بأعمالهم الدعاء عليهم باللعن من الملائكة والناس أجمعين"[٥].

قال البيضاوي:" أي: الذين يتأتى منهم اللعن عليهم من الملائكة والثقلين"[٦].

قال السعدي:أي: "يسألون لهم اللعنة؛ وهم أيضاً بأنفسهم يبغضونهم، ويعادونهم، ويبتعدون عنهم، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير، يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق، وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله، فالكاتم لما أنزل الله، مضاد لأمر الله، مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، وهذا يطمسها فهذا عليه هذا الوعيد الشديد"[٧].

واختلفوا في هؤلاء اللاعنين على أقوال[٨]:

أحدها : أنهم كل شيء في الأرض من حيوان وجماد إلا الثقلين الإنس والجن ، وهذا قول ابن عباس [٩]، والضحاك [١٠]، والبراء بن عازب [١١]، ومقاتل بن سليمان[١٢].

والثاني : اللاعنون : الاثنان إذا تلاعنا لحقت اللعنة مستحقها منهما ، فإن لم يستحقها واحد منهما رجعت اللعنة على اليهود ، وهذا قول ابن مسعود[١٣].

والثالث : أنهم البهائم ، إذا يبست الأرض قالت البهائم هذا من أجل عُصاةِ بني آدم ، وهذا قول مجاهد[١٤]، وعكرمة [١٥].

الرابع: أنهم: كل دابة والجن والإنس.قاله عطاء[١].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٤/٣، وتفسير الثعلبي:٣٠/٢.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٨٢/١.

(٣) تفسير ابن عثيمين:١٩٠/٢.

(٤) صفوة التفاسير:٩٦/١.

(٥) تفسير المراغي: ٣٠/٢.

(٦) تفسير البيضاوي: ١١٦/١.

(٧) تفسير السعدي: ٧٧/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٤/٣ وما بعدها، ومعاني القرآن للزجاج: ٢٣٥/١، وتفسير الثعلبي:٣٠/٢، والنكت والعيون: ٢١٥/١، والمحرر الوجيز: ٢٣١/١.

(٩) انظر: تفسير الثعلبي: ٣٠/٢، ومعاني القرآن للزجاج: ٢٣٥/١، والنكت والعيون: ٢١٥/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٣٨٩):ص٢٥٧/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٣٨٨):ص٢٥٧/٣.

(١٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥٣/١.

(١٣) انظر: تفسير الثعلبي:٣٠/٢، ومعاني القرآن للزجاج: ٢٣٥/١، والنكت والعيون: ٢١٥/١، والمحرر الوجيز: ٢٣١/١.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢٣٧٨)، و(٢٣٧٩)، و(٢٣٨٠)، و(٢٣٨١)، و(٢٣٨٣)، و(٢٣٨٤):ص٢٥٤/٣-٢٥٥.

(١٥) انظر: تفسير الطبري(٢٣٨٢):ص٢٥٥/٣.

الخامس: أنهم عباد الله أجمعون. قاله الحسن[٢].

السادس : أنهم المؤمنون من الإنس والجن ، والملائكة يَلعنون مَنْ كَفَر بالله واليوم الآخر ، وهذا قول قتادة [٣]، و الربيع بن أنس [٤] ، وأبي العالية[٥]، واختاره ابن عطية[٦]، والزجاج[٧]، وآخرون.

قال ابن عطية:" وهذا ظاهر واضح جار على مقتضى الكلام...[وأما الأقوال الأخرى]، فلا يقتضيها اللفظ ولا تثبت إلا بسند يقطع العذر"[٨].

وقد اعترض القرطبي على القول الأخير، لكونه يخالف ما جاء في الحديث، في قوله تعالى : {يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ}، قال-عليه السلام-: "دواب الأرض"[٩].

قال القرطبي:" فإن قيل : كيف جمع من لا يعقل جمع من يعقل ؟ قيل : لأنه أسند إليهم فعل من يعقل ، كما قال : {رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [يوسف : ٤] ولم يقل ساجدات ، وقد قال : {لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا} [فصلت : ٢١] ، وقال : {وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ} [الأعراف : ١٩٨] ، ومثله كثير"[١٠].

والصواب أن (اللاعنون)، هم: الملائكةُ والمؤمنون، "لأن الله تعالى ذكره قد وصف الكفار بأن اللعنة التي تحلّ بهم إنما هي من الله والملائكة والناس أجمعين ، فقال تعالى ذكره : {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}، فكذلك اللعنة التي أخبر الله تعالى ذكره أنها حَالّة بالفريق الآخر : الذين يكتمونَ ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس ، هي لعنة الله ، ولعنة الذين أخبر أن لعنتهم حالّة بالذين كفروا وماتوا وهم كفار ، وهم " اللاعنون " ، لأن الفريقين جميعًا أهلُ كفر"[١١]. والله أعلم.

وقد ورد في الحديث المسند من طرق يشد بعضها بعضًا ، عن أبي هريرة ، وغيره : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من سُئِل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجام من نار"[١٢].

والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال : "لولا آية في كتاب الله ما حدثتُ أحدًا شيئًا : {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزلنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى} الآية"[١٣].

الفوائد:

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٤٤٩):ص٢٧٠/١.

(٢) انظر: تفسير الثعلبي:٣٠/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٣٨٥)، و(٢٣٨٦):ص٢٥٦/٣-٢٥٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٣٨٧):ص٢٥٧/٣.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٤٤٥):ص٢٦٩/١.

(٦) المحرر الوجيز: ٢٣١/١.[بتصرف بسيط].

(٧) نقله عنه الاختيار، القرطبي، ولم نقف عليه، انظر: تفسير القرطبي:١٨٦/٢.

(٨) المحرر الوجيز: ٢٣١/١.[بتصرف بسيط].

(٩)هذا قطعة من حديث طويل رواه أبو داود في السنن برقم (٤٧٥٣ ، ٤٧٥٤) والنسائي في السنن (٧٨/٤) من طريق زاذان به ، وسيأتي ذكره عند قوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا) في تفسير سورة إبراهيم.

(١٠) انظر: تفسير القرطبي: ١٨٧/٢.

(١١) تفسير الطبري: ٢٥٧/٣-٢٥٨.

(١٢)) المسند (٢٦٣/٢) وقد توسع الحافظ الزيلعي في كتابه "تخريج أحاديث الكشاف" (٢٥٢/١ - ٢٥٧) في ذكر طرق هذا الحديث.

(١٣)صحيح البخاري برقم (١١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٢).

١- من فوائد الآية: أن كتم العلم من كبائر الذنوب؛ يؤخذ من ترتيب اللعنة على فاعله؛ والذي يرتب عليه اللعنة لا شك أنه من كبائر الذنوب.

قال الحافظ ابن حجر: إن"هذه الآية تحرض على التبليغ، وهي وإن نزلت في أهل الكتاب(١)، لكن العبرة بعموم اللفظ"(٢).

٢- ومنها: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: {يكتمون}؛ والكاتم مريد للكتم.

٣- ومنها: أن ما أنزل الله من الوحي فهو بيِّن لا غموض فيه؛ وهدًى لا ضلالة فيه؛ لقوله تعالى: {من البينات والهدى من بعد ما بيَّنَّاه للناس في الكتاب}؛ والبيان ينقسم إلى قسمين: بيان مفصل؛ وبيان مجمل؛ فالمجمل هي القواعد العامة في الشريعة؛ والمفصل هو أن يبين الله سبحانه وتعالى قضية معينة مفصلة مثل آيات الفرائض في الأحكام؛ فإنها مفصلة مبيّنة لا يشذ عنها إلا مسائل قليلة؛ وهناك آيات مجملة عامة مثل: {يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود} [المائدة: ١] : فهو بيان عام؛ وكذلك بعض القصص يذكرها الله سبحانه وتعالى مفصلة، وأحياناً مجملة؛ وكل هذا يعتبر بياناً.

٤- ومن فوائد الآية: الرد على أهل التحريف الذين يسمون أنفسهم بأهل التأويل؛ لأن لازم طريقهم ألا يكون القرآن بياناً للناس؛ لأن الله أثبت لنفسه في القرآن صفات ذاتية، وفعلية؛ فإذا صرفت عن ظاهرها صار القرآن غير بيان؛ يكون الله سبحانه وتعالى ذكر شيئاً لا يريده؛ وهذا تعمية لا بيان؛ فيستفاد من هذه الآية الرد على أهل التأويل؛ والحقيقة أنهم - كما قال شيخ الإسلام - أهل التحريف لا أهل التأويل؛ لأن التأويل منه حق، ومنه باطل؛ لكن طريقهم باطل لا حق فيه.

---

(١) أخرج ابن جرير في جامع البيان: ٢٤٩/٣ رقم: ٢٣٧٠، وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام: ١٤٣/٢، وابن أبي حاتم-تحقيق الطيب-: ٢٦٨/١ رقم: ١٤٣٩، وابن المنذر كما في الدر المنثور للسيوطي: ٢٩٥/١ عن ابن عباس بإسناد حسن قال: (سأل معاذ بن جبل أخو بني سلمة وسعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل وخارجة بن زيد أخو بني الحارث بن الخزرج نفراً من أحبار يهود-قال أبو كريب: عما في التوراة، وقال ابن حميد: عن بعض ما في التوراة-فكتموهم إياه وأبوا أن يخبروهم عنه، فأنزل الله تعالى ذكره فيهم: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ) [البقرة: ١٥٩]-إلى قوله-: (اللَّاعِنُونَ) [البقرة: ١٥٩]. وقال الواحدي في أسباب النزول-تحقيق الحميدان-: ٤٧ (نزلت في علماء أهل الكتاب وكتمانهم آية الرجم وأمر محمد صلى الله عليه وسلم).

(٢) الفتح: ٢١٤/١. قال الطبري في جامع البيان: ٢٥١/٣: [وهذه الآية وإن كانت نزلت في خاص من الناس، فإنها مَعْنِيّ بها كل كاتم علماً فرض الله تعالى بيانه للناس، وذلك نظير الخبر الذي روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)،، وهو حديث صحيح أخرجه من حديث أبي هريرة الطيالسي في مسنده: ٣٣٠ رقم: ٢٥٣٤، وأبو داود في سننه: ٦٧/٤ رقم: ٣٦٥٨، والترمذي في جامعه: ٢٩/٥ رقم: ٢٦٤٩ وحسنه، والحاكم في المستدرك: ١٠١/١ وصححه ووافقه الذهبي، وابن حبان في صحيحه بترتيب ابن بلبان: ٢٩٧/١ رقم: ٩٥، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: ٥٢ رقم: ١١٦، وقد نص سحنون-رحمه الله-على أن هذا الحديث خاص بالشهادة، وبين ابن العربي في أحكام القرآن: ٤٩/١ أن الصحيح خلاف ذلك. ولا يعارض ما تفيده الآية والحديث من وجوب تبليغ العلم والنهي عن كتمه قول علي-رضي الله عنه-عند البخاري-فتح-: ٢٧٢/١ (حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله)، وقول ابن مسعود-رضي الله عنه-عند مسلم في مقدمة صحيحه: ١١ (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) لأن الآية محمولة على من قصد كتمان العلم، والحديث يفيد أن من سئل عن علم وجب عليه الجواب، لكنه مقيد بما إذا كان قصد السائل حسناً، لا بمن أراد بسؤاله تعنتاً أو انحرافاً، وأما قول علي وابن مسعود فيفيدان أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة وأن حكم العالم أن يحدث بما يُفْهَم عنه، والله أعلم. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٨٤/٢-١٨٥، فتح الباري لابن حجر: ٢٧٢/١، عمدة القاري للعيني: ٢٠٤/٢، أحكام القرآن لابن العربي: ٤٨/١-٤٩، تفسير ابن كثير لابن كثير: ٢٤٩/١، أحكام القرآن لإلكيا الهراس: ٥٣/١، وغيرها.

٥- ومن فوائد الآية: الرد على أهل التفويض الذين يقولون: إن آيات الصفات وأحاديثها لا يعلم الخلق معناها؛ وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن قولهم من شر أقوال أهل البدع والإلحاد.
٦- ومنها: بيان فضل الله عزّ وجلّ على عباده بما أنزله من البينات، والهدى؛ لأن الناس محتاجون إلى هذا؛ ولولا بيان الله سبحانه وتعالى وهدايته ما عرف الناس كيف يتوضؤون، ولا كيف يصلون، ولا كيف يصومون، ولا كيف يحجون؛ ولكن من فضل الله أن الله سبحانه وتعالى بيّن ذلك.
٧- ومنها: إثبات علو الله؛ لقوله تعالى: {ما أنزلنا}؛ والنزول إنما يكون من أعلى؛ وعلو الله بذاته ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.
٨- ومنها: قبح هذ الكتمان الذي سلكه هؤلاء؛ لأنه كتمان بعد بيان؛ ليس لهم أن يقولوا: «ما تكلمنا؛ لأنّ الأمر مشتبه علينا»؛ فالإنسان الذي لا يتكلم بالشيء لاشتباه الأمر عليه قد يعذر؛ لكن الذي لا يتكلم مع أن الله بينه للناس يكون هذا أعظم قبحاً - والعياذ بالله.
٩- ومنها: وجوب نشر العلم عند الحاجة إليه سواء ظهرت الحاجة بلسان الحال، أو بلسان المقال، ولسان الحال: أن ترى إنساناً يعمل عملاً ليس على الوجه المرضي؛ فهذا لسان حاله يدعو إلى أن تبين له الحق؛ ولسان المقال: أن يسألك سائل عن علم وأن تتعلمه؛ فيجب عليك أن تبلغه ما دمت تعلم؛ أما إذا كنت لا تعلم فإنه يجب أن تقول: «لا أدري»، أو «لا أعلم»؛ كذلك لو رأيت الناس عمّ فيهم الجهل في مسألة من أمور الدين؛ فهنا الحاجة داعية إلى البيان؛ فيجب أن تبين.
١٠- ومن فوائد الآية: أن الكتب السماوية كلها بيان للناس، لأن قوله تعالى: {في الكتاب} المراد به الجنس لا العهد؛ فالله تعالى بين الحق في كل كتاب أنزله؛ لم يترك الحق غامضاً؛ بل بينه لأجل أن تقوم الحجة على الخلق؛ لأنه لو كان الأمر غامضاً لكان للناس حجة في أن يقولوا: ما تبين لنا الأمر.
١١- ومنها: أن الرجوع في بيان الحق إلى الكتب المنزلة.
١٢- ومنها: أن هؤلاء الكاتمين ملعونون؛ يلعنهم الله، ويلعنهم اللاعنون؛ لقوله تعالى: {أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون}.
١٣- ومنها: إثبات الأفعال الاختيارية لله عزّ وجلّ؛ وهي كل فعل يتعلق بمشيئته، مثل النزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين عباده؛ والاستواء على العرش؛ والضحك؛ والكلام؛ والتعجب؛ وما إلى ذلك؛ كل فعل يتعلق بمشيئة الله عزّ وجلّ فإنه من الأفعال الاختيارية؛ و«اللعن» منها؛ ويدل على أنه منها أن له سبباً؛ وما كان له سبب فإنه يوجَد بالسبب، ويعدم بعدمه؛ إذاً فاللعن من الأفعال الاختيارية.
١٤- ومنها: جواز الدعاء باللعنة على كاتم العلم؛ لقوله تعالى: {يلعنهم اللاعنون}؛ لأن من معنى {يلعنهم اللاعنون} الدعاء عليهم باللعنة؛ تقول: اللهم العنهم؛ ولا يلعن الشخص المعين؛ بل على سبيل التعميم؛ لأن الصحيح أن لعن المعين لا يجوز - ولو كان من المستحقين للعنة؛ لأنه لا يُدرى ماذا يموت عليه؛ قد يهديه الله، كما قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم} [آل عمران: ١٢٨] ؛ وأما لعنه بعد موته أيجوز، أم لا يجوز؟ فقد يقال: إنه لا يجوز لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»[(١)]؛ وهذا عام؛ ثم إنه قد يثير ضغائن، وأحقاد من أقاربه، وأصحابه، وأصدقائه؛ فيكون

---

(١) سبق تخريجه ٢٩٤/١.

في ذلك مفسدة؛ ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[٢]؛ وأيّ خير في كونك تلعن واحداً كافراً قد مات؛ وأما طريقته فالواجب التنفير عنها، والقدح فيها، وذمها؛ أما هو شخصياً فإنه لا يظهر لنا جواز لعنه - وإن كان المعروف عند جمهور أهل العلم أنه يجوز لعنه إذا مات على الكفر.

١٥- ومن فوائد الآية: عظم كتم العلم، حيث كان من الكبائر؛ وكتم العلم يتحقق عند الحاجة إلى بيانه إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال؛ فإن من سُئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار إلا أن يكون السائل متعنتاً، أو يريد الإيقاع بالمسؤول، أو ضرب آراء العلماء بعضها ببعض، أو يترتب على إجابته مفسدة، فلا يجاب حينئذ؛ وليس هذا من كتم العلم؛ بل هو من مراعاة المصالح، ودرء المفاسد.

مسألة[١]:

دفع الفتوى - وهو أن يحوِّل المستفتي إلى غيره، فيقول: اسأل فلاناً، أو اسأل العلماء - اختلف فيها أهل العلم: هل يجوز، أو لا يجوز؟ والصحيح أنه لا يجوز؛ إلا عند الاشتباه فيجب؛ أما إذا كان الأمر واضحاً فإنه لا يجوز؛ لأنه يضيع الناس لا سيما إذا كان الإنسان يرى أنه إذا دفعها استُفتي أناس جهال يضلون الناس؛ فإنه هنا تتعين عليه الفتوى؛ ويستعين الله عزّ وجلّ، ويسأل الله الصواب والتوفيق.

١٦- ومن فوائد الآية: استحقاق الكاتمين للعنة الله، ولعنة اللاعنين.

قد يقول قائل: هذا تحصيل حاصل، لأنه كقول القائل: قام القائمون، أو يقوم القائمون، ويدخل الداخلون.

فالجواب: لا، لأنه ليس كل من نسب إليه الوصف يكون قائماً به على الوجه الأكمل؛ قد تقول: «قام القائمون» بمعنى أنهم أتوا بالقيام على وجهه؛ فمعنى {يلعنهم اللاعنون} أي الذين يعرفون من يستحق اللعنة، ويوجهونها إلى أهلها؛ فهم ذوو علم بالمستحِق، وذوي حكمة في توجيه اللعنة إليه؛ ونظير ذلك قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله...} [النساء: ١٣٦] الآية؛ فناداهم باسم الإيمان، وأمرهم به؛ أي بتحقيقه، والثبات عليه.

إذاً هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات، والهدى مع ظهوره، وبيانه يستحقون - والعياذ بالله - هذا الجزاء الوخيم من الله، ومن عباد الله؛ وعكس ذلك الذين يبينون الحق - نسأل الله أن يجعلنا منهم؛ فهؤلاء يكون لهم المودة، والمحبة من الله، ومن أولياء الله؛ وقد ورد في حديث أبي الدرداء الطويل أن العالم يستغفر له أهل السموات والأرض حتى الحيتان في الماء(١)؛ لأن الذي يبين شريعة الله يُلقي الله سبحانه وتعالى في قلوب عباده مودته، ومحبته،

---

(٢) سبق تخريجه ٢٥٥/١.

(١) تفسير ابن عثيمين: ٨٦/٢.

(١) أخرجه أحمد ص١٦٠٢، حديث رقم ٢٢٠٥٨؛ والترمذي ص١٩٢٢، كتاب العلم، باب ١٩ ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم ٢٦٨٢؛ وأبو داود ص١٤٩٣، أول كتاب العلم، باب ١: في فضل العلم، حديث رقم ٣٦٤١؛ وابن ماجة ص٢٤٩١، كتاب السنة، باب ١٧: فضل العلماء والحث على طلب العلم، حديث رقم ٢٢٣؛ والدارمي ١١٠/١، المقدمة، باب ٣٢: في فضل العلم والعالم، حديث رقم ٣٤٢؛ ومدار هذهالأسانيد على داود بن جميل عن كثير بن قيس (ويقال: قيس بن كثير؛ والأول أصوب – قاله الحافظ في التقريب -)؛ وكل من داود، وكثير ضعيف؛ وقال الألباني: "لكن أخرجه أبو داود من طريق أخرى عن أبي الدرداء بسند حسن" (راجع صحيح الترغيب والترهيب، الطبعة الثانية، حاشية ٣ ص٣٣)؛ لكن في سنده شبيب بن شيبة، قال الحافظ في التقريب: مجهول؛ وقال عمرو بن عثمان: "عن شعيب بن رزيق" بدلاً عن شبيب بن شيبة؛ وقال:

والقبول له حتى في السماء؛ ونحن نعلم ذلك - وإن لم يرد به نص خاص - عن طريق القياس الجلي: فإذا كان الله سبحانه وتعالى يعاقب الكاتمين بهذه العقوبة الواقعة منه، ومن عباده؛ وهو الذي سبقت رحمته غضبه، فالذين يبينون البينات، والهدى يستحقون أن يثني الله سبحانه وتعالى عليهم بدلاً من اللعنة، ويقربهم بدلاً من البعد.

١٧- ومن فوائد الآية: أنه يجب على من قال قولاً باطلاً، ثم تبين له بطلانه أن يبينه للناس إلا إذا كان اختلاف اجتهاد فلا يلزمه أن يبين بطلان ما سبق؛ لأنه لا يدري أيّ الاجتهادين هو الصواب.

القرآن

{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)} [البقرة : ١٦٠]

التفسير:

إلا الذين رجعوا مستغفرين الله من خطاياهم، وأصلحوا ما أفسدوه، وبَيَّنوا ما كتموه، فأولئك أقبل توبتهم وأجازيهم بالمغفرة، وأنا التواب على من تاب من عبادي، الرحيم بهم؛ إذ وفقتُهم للتوبة وقبلتها منهم.

قوله تعالى:{إلا الَّذِينَ تَابُوا}[القرة:١٦٠]، "أي إلا الذين ندموا على ما صنعوا"[١].

قال أبو حيان:أي" عن الكفر إلى الإسلام ، أو عن الكتمان ءلى الإظهار"[٢].

قال البيضاوي: أي:" عن الكتمان وسائر ما يجب أن يتاب عنه"[٣].

قال السعدي: أي: "رجعوا عما هم عليه من الذنوب، ندما وإقلاعا، وعزما على عدم المعاودة"[٤].

قال ابن عطية:" توبة الله على عبده: رجوعه به عن المعصية إلى الطاعة"[٥].

قوله تعالى:{وَأَصْلَحُوا}[البقرة:١٦٠]،أي:"وأصلحوا ما أفسدوه بالكتمان"[٦].

قال الواحدي:" أي: أصلحوا السريرة بإظهار أمر محمد - صلى الله عليه وسلم"[٧].

قال أبو حيان:أي:" ما أفسدوا من قلوبهم بمخالطة الكفر لها ، أو ما أفسدوا من أحوالهم مع الله ، أو أصلحوا قومهم بالإرشاد إلى الإسلام بعد الإضلال"[٨].

قال السعدي: أي: أصلحوا "ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن"[٩].

قال البيضاوي: " ما أفسدوا بالتدارك"[١].

"وهو أشبه بالصواب" (راجع تهذيب التهذيب ٢٧١/٤)؛ وشعيب بن رزيق الشامي قال الحافظ في التقريب: "صدوق يخطئ"؛ وقيل: صدوق حسن الحديث (تحرير تقريب التهذيب ١١٧/٢)؛ وعليه فالإسناد حسن.

(١) صفوة التفاسير:٩٦/١.

(٢) البحر المحيط:٤٥٩/١.

(٣) تفسير البيضاوي: ١١٦/١.

(٤) تفسير السعدي: ٧٧/١.

(٥) المحرر الوجيز: ٢٣١/١.

(٦) صفوة التفاسير:٩٦/١.

(٧) التفسير البسيط: ٤٤٧/٣.

(٨) البحر المحيط: ٤٥٩/١.

(٩) تفسير السعدي: ٧٧/١.

قال قتادة: "يقول: أصلحوا فيما بينهم وبين الله"(٢).
قوله تعالى:{وَبَيَّنُوا}[البقرة:١٦٠]،أي "وبينوا للناس حقيقة ما أنزل الله"(٣).
قال ابن زيد:" {بيّنوا}: ما في كتاب الله للمؤمنين ، وما سألوهم عنه من أمر النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا كله في يهود" (٤).
قال ابن عثيمين:أي: "وضحوا للناس ما كتموا من العلم ببيانه، وبيان معانيه؛ لأنه لا يتم البيان إلا ببيان المعنى"(٥).
وفي قوله تعالى:{وَبَيَّنُوا}[البقرة:١٦٠]، وجوه:
أحدها: وبينوا التوبة بإخلاص العمل. قاله الطبري(٦).
الثاني:أنهم وبيَّنوا الذي جاءهم من الله، فلم يكتموه ولم يجحدوا به". قاله قتادة(٧)، وروي عن ابن زيد(٨) نحوه.
الثالث: اعترفوا بتلبيسهم وزورهم(٩).
الرابع: ما أحدثوا من توبتهم ، ليمحوا سيئة الكفر عنهم ويعرفوا بضد ما كانوا يعرفون به ، ويقتدي بهم غيرهم من المفسدين(١٠).
قوله تعالى:{فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ}[البقرة:١٦٠]، أي:" فأولئك يقبل الله توبتهم ويشملهم برحمته"(١١).
قال أبو حيان:" أي أعطف عليهم ، ومن تاب الله عليه لا تلحقه لعنة"(١٢).
قال ابن عثيمين:" يعني الذين تابوا، وأصلحوا، وبينوا، "أقبل منهم التوبة؛ لأن توبة الله على العبد لها معنيان؛ أحدهما: توفيق العبد للتوبة؛ الثاني: قبول هذه التوبة، كما قال الله تعالى: {ثم تاب عليهم ليتوبوا}"(١٣).
قوله تعالى: {وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة:١٦٠]، "أي :كثير التوبة على عبادي، واسع الرحمة بهم"(١٤).

---

(١) تفسير البيضاوي: ١١٦/١.
(٢) أخرجه الطبري(٢٣٩٠):ص٢٦٠/٣.
(٣) صفوة التفاسير:٩٦/١.
(٤)أخرجه الطبري(٢٣٩٠):ص٢٦٠/٣.
(٥) تفسير ابن عثيمين: ٨٧/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٢٦٠/٣. قال الطبري: " وقد زعم بعضهم أن معنى قوله : " وبيَّنوا " ، إنما هو : وبينوا التوبة بإخلاص العمل. ودليل ظاهر الكتاب والتنزيل بخلافه. لأن القوم إنما عوتبوا قبل هذه الآية ، على كتمانهم ما أنزلَ الله تعالى ذكره وبينه في كتابه ، في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ودينه ، ثم استثنى منهم تعالى ذكره الذين يبينون أمرَ محمد صلى الله عليه وسلم ودينه ، فيتوبون مما كانوا عليه من الجحود والكتمان ، فأخرجهم من عِداد مَنْ يَلعنه الله ويَلعنه اللاعنون، ولم يكن العتاب على تركهم تبيين التوبة بإخلاص العمل".
(٧)أخرجه الطبري(٢٣٩٠):ص٢٦٠/٣.
(٨)أخرجه الطبري(٢٣٩٠):ص٢٦٠/٣.
(٩) انظر: البحر المحيط: ٤٥٩/١.
(١٠) انظر: البحر المحيط: ٤٥٩/١.
(١١) صفوة التفاسير:٩٦/١.
(١٢) البحر المحيط: ٤٥٩/١.
(١٣) تفسير ابن عثيمين: ٨٧/٢.
(١٤) صفوة التفاسير:٩٦/١.

قال أبو حيان: وختم الكلام بهاتين الصفتين "ترغيباً في التوبة وإشعاراً بأن هاتين الصفتين هما له ، فمن رجع إليه عطف عليه ورحمه"(١).

و{التَّوَّابُ}، يعني: "الرجاع على عباده بالعفو والصفح، بعد الذنب إذا تابوا، وبالإحسان والنعم بعد المنع، إذا رجعوا"(٢).

و{الرَّحِيمُ}: "الذي اتصف بالرحمة العظيمة، التي وسعت كل شيء ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأنابوا، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم، لطفا وكرما، هذا حكم التائب من الذنب"(٣).

قال ابن كثير: "وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر ، أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه(٤).

وفي هذه الآية التفات من التكلم إلى الغيبة في قوله تعالى: {إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى...} [البقرة: ١٥٩] ، وقوله تعالى: {أولئك يلعنهم الله} [البقرة: ١٥٩] ؛ ولم يقل: «نلعنهم»؛ وللالتفات فائدتان(٥):

الأولى: تنبيه المخاطب؛ لأنه إذا تغير نسق الكلام أوجب أن ينتبه المخاطب لما حصل من التغيير.

والفائدة الثانية: تكون بحسب السياق: ففي هذه الآية: {أولئك يلعنهم الله} الفائدة: التعظيم؛ لأن قوله: {يلعنهم الله} أبلغ في التعظيم من «أولئك نلعنهم»؛ لأن المتكلم إذا تحدث عن نفسه بصيغة الغائب صار أشد هيبة، مثل قول الملك: إن الملك يأمركم بكذا، وكذا؛ وأمر الملك بكذا، وكذا - ويعني نفسه.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: أن توبة الكاتمين للعلم لا تكون إلا بالبيان، والإصلاح؛ لقوله تعالى: {إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا}: ثلاثة شروط:

الأول: التوبة؛ وهي الرجوع عما حصل من الكتمان.

الثاني: الإصلاح لما فسد بكتمانهم؛ لأن كتمانهم الحق حصل به فساد.

الثالث: بيان الحق غاية البيان.

وبهذا تبدل سيئاتهم حسنات.

٢ - ومن فوائد الآية: أن كل ذنب - وإن عظم - إذا تاب الإنسان منه فإن الله سبحانه وتعالى يتوب عليه.

٣ - ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله سبحانه وتعالى، وهما {التواب}، و{الرحيم}؛ {التواب} على من أذنب؛ {الرحيم} على من أخلص، وعمل؛ فالرحمة تجلب الخير؛ والتوبة تدفع الشر.

٤ - ومنها: إثبات صفتين من صفات الله؛ وهما التوبة، والرحمة.

٥ - ومنها: إثبات حكمين من هذين الاسمين: أن الله يتوب، ويرحم؛ ولهذا قال تعالى: {فأولئك أتوب عليهم}.

٦ - ومنها: توكيد الحكم بما يوجبه؛ لقوله تعالى: {وأنا التواب الرحيم}.

(١) البحر المحيط: ٤٥٩/١.

(٢) تفسير السعدي: ٧٧/١.

(٣) تفسير السعدي: ٧٧/١.

(٤)تفسير ابن كثير: ٤٧٣/١.

(٥) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٨٧/٢.

٧ - ومنها: كثرة توبة الله، وكثرة من يتوب عليهم؛ لقوله تعالى: {التواب}.

والتوبة هي الرجوع إلى الله من معصيته إلى طاعته؛ فيرجع من الشرك إلى التوحيد؛ ومن الزنى إلى العفاف؛ ومن الاستكبار إلى الذل، والخضوع؛ ومن كل معصية إلى ما يقابلها من الطاعة؛ وشروطها خمسة: الإخلاص لله سبحانه وتعالى؛ والندم على الذنب؛ والإقلاع عنه في الحال؛ والعزم على أن لا يعود؛ وأن تكون التوبة في وقت تقبل فيه.

الشرط الأول: الإخلاص لله بأن يكون قصده بالتوبة رضا الله، وثواب الآخرة، وألا يحمله على التوبة خوف مخلوق، أو رجاء مخلوق، أو علو مرتبة، أو ما أشبه ذلك.

الشرط الثاني: الندم على ما جرى منه من الذنب؛ ومعنى «الندم» أن يتحسر الإنسان أن وقع منه هذا الذنب.

الشرط الثالث: الإقلاع عن المعصية؛ وهذا يدخل فيه أداء حقوق العباد إليهم؛ لأن من لم يؤد الحق إلى العباد فإنه لم يقلع؛ فهو ليس شرطاً مستقلاً - كما قاله بعض العلماء؛ ولكنه شرط داخل في الإقلاع؛ إذ إن من لم يؤد الحق إلى أهله لم يقلع عن المعصية.

الشرط الرابع: أن يعزم ألا يعود؛ فإن لم يعزم فلا توبة، وليس من الشرط ألا يعود فإذا صحت التوبة، ثم عاد إلى الذنب لم تبطل توبته الأولى؛ لكنه يحتاج إلى تجديد التوبة.

الشرط الخامس: أن تقع التوبة في الوقت الذي تقبل فيه؛ يعني أن تكون في وقت قبول التوبة؛ وذلك بأن تكون قبل حضور الموت، وقبل طلوع الشمس من مغربها؛ فإذا كان بعد حضور الموت لم تقبل؛ لقوله تعالى: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن} [النساء: ١٨] ؛ وإذا كانت بعد طلوع الشمس من مغربها لم تقبل؛ لقوله تعالى: {يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً} [الأنعام: ١٥٨] ؛ وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة؛ ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها"[(١)].

وهل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟ للعلماء في هذا ثلاثة أقوال؛ الأول: أنها تصح؛ و الثاني: أنها تصح إن كان الذنب من غير الجنس؛ و الثالث: لا تصح؛ والصحيح أنها تصح من ذنب مع الإصرار على غيره؛ لكن لا يستحق اسم التائبين على سبيل الإطلاق؛ فلا يستحق وصف التائب، ولا يدخل في مدح التائبين؛ لأن توبته مقيدة من هذا الذنب المعين؛ ومثال ذلك: إذا تاب رجل من الزنى لكنه يتتبع النساء بالنظر المحرم فإن توبته من الزنى تصح على القول الراجح؛ لكن لا يستحق وصف التائب على سبيل الإطلاق؛ وعلى القول بأنها تصح إذا كانت من غير الجنس: فإنها لا تصح؛ وإذا تاب من الزنى مع الإصرار على الربا فإنها تصح؛ لأن الربا ليس من جنسه؛ إلا على القول الثالث الذي يقول لا تصح إلا مع الإقلاع عن جميع الذنوب.

٨ - ومن فوائد الآية: عظم الكتمان؛ لأن الله ذكر لنجاتهم من هذه اللعنة ثلاثة شروط: التوبة، والإصلاح، والبيان؛ لأن كتمهم لِما أنزل الله يتضمن إفساداً في الأرض، وإضلالاً للخلق؛ فتوبتهم منه لا تكفي حتى يصلحوا ما فسد بسبب كتمانهم، مثال ذلك: قوم كتموا صفة النبي صلى الله

---

(١)أخرجه أحمد ٩٩/٤، حديث رقم ١٧٠٣٠، وأخرجه أبو داود ص١٤٠٦، كتاب الجهاد، باب ٢: الهجرة قد انقطعت، حديث رقم ٢٤٧٩، وأخرجه الدارمي ج٣١٢/٢، كتاب السير، باب ٧٠: الهجرة لا تنقطع، حديث رقم ٢٦١٣؛ وفي سنده أبو هند البجلي قال الذهبي في الميزان ٨٥٣/٤: "لا يصرف؛ لكن احتج به النسائي على قاعدته"؛ قال عبد القادر في تخريج جامع الأصول لابن الأثير ٦٠٦/١١ حاشية رقم (٢): رواه أحمد في المسند ١٩٢/١ من طريق آخر وإسناده حسن. أهـ (باختصار).

عليه وسلم، وقالوا: «ليس هو بالرسول الذي سيبعث»؛ فسيضل من الناس بناءً على قولهم عالم؛ فلا يكفي أن يتوبوا، ويندموا، ويقلعوا، ويُسْلِموا، حتى يصلحوا ما أفسدوا من الآثار التي ترتبت على كتمانهم الحق؛ وإلا لم تصح التوبة.

٩ - ومن فوائد الآية: عظم العلم، وأنه حمل ثقيل، وعبء عظيم على من حمَّله الله سبحانه وتعالى إياه، وأن الإنسان على خطر إذا لم يقم بواجبه من البيان؛ وسبق أن البيان حين يحتاج الناس إليه ويسألون، إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال.

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١)} [البقرة : ١٦١]

التفسير:

إن الذين جحدوا الإيمان وكتموا الحق، واستمروا على ذلك حتى ماتوا، أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين بالطرد من رحمته.

ذكر ابن حجر في سبب نزول الآية قولين[١]:

أحدهما: قال ابن حجر: قال الطبري: "نزلت في الذين جحدوا نبوة محمد وكذبوا، من اليهود والنصارى وغيرهم"[٢].

الثاني: قال ابن حجر: "وقال مقاتل: نزلت فيمن مات من اليهود على الكفر"[٣].

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}[البقرة:١٦١]، أي: إن الذين "كفروا بالله"[٤].

قال الطبري: أي:"إن الذين جَحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوا به من اليهود والنصارى وسائر أهل الملل ، والمشركين من عَبدة الأوثان"[٥].

قال الزمخشري:" يعنى الذين ماتوا من هؤلاء الكاتمين"[٦].

قال ابن عثيمين:"والمراد بالكُفر في القرآن والسنة: جحد ما يجب لله سبحانه وتعالى من الطاعة، والانقياد؛ وهو نوعان: إما تكذيب؛ وإما استكبار"[٧].

و(الكفْر) في اللغة: "بمعنى الستر؛ ومنها كُفُرَّى النخل - أي وعاء طلعه - لستره الطلع"[٨].

قال الطبري:" وأصْلُ (الكفر) عند العرب : تَغطيةُ الشيء ، ولذلك سمَّوا الليل: كافرًا، لتغطية ظُلمته ما لبِسَثه ، كما قال الشاعر[١] :

---

(١) انظر: العجاب: ٤١٣/١.

(٢) العجاب:٤١٣/١، ولم يقل الطبري: "نزلت"، وإنما قال: "يعني تعالى ذكره بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} ، إن الذين حجدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ... " والفرق بين التعبيرين واضح. انظر: تفسير الطبري:٢٦١/٣.

(٣) العجاب: ٤١٣/١، لم يقل مقاتل: "نزلت" وإنما قال: "ثم ذكر مَنْ مات من اليهود على الكفر ... ".انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥٣/١.

(٤) صفوة التفاسير:٩٦/١.

(٥) تفسير الطبري: ٢٦١/٣.

(٦) الكشاف: ٢٠٩/١.

(٧) تفسير ابن عثيمين:٢٠١/٢-٢٠٢.

(٨) تفسير ابن عثيمين:٢٠١/٢-٢٠٢.

فَتَذَكَّرَا ثَقَلا رَثِيدًا ، بَعْدَ مَا ... أَلْقَتْ ذُكاءُ يَمِينَهَا في كافِرِ
وقال لبيدُ بن ربيعة [٢]:
يَعْلُو طَرِيقة مَتْنِهَا مُتَوَاتِرًا ... فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومُ غَمَامُهَا
يعني: غَطَّاها"[٣].

قوله تعالى:{وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ}[البقرة:١٦١]، أي:"وماتوا وهم على جُحودهم ذلك وتكذيبهم محمدًا صلى الله عليه وسلم"[٤].

قال الزجاج:" يعني لم يتوبوا قبل موتهم من كفرهم"[٥].

قال الصابوني:أي:" واستمرّوا على الكفر حتى داهمهم الموت وهم على تلك الحالة"[٦].

قال الزمخشري:أي:" ولم يتوبوا"[٧].

قال ابن عثيمين:أي:" استمروا على كفرهم إلى الموت، فلم يزالوا على الكفر، ولم يتوبوا، ولم يرجعوا"[٨].

قال البيضاوي:" أي ومن لم يتب من الكاتمين حتى مات"[٩].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ}[البقرة:١٦١]، أي: أولئك" أبعدهم الله وأسحقهم من رحمته"[١٠].

قال الطبري: "أي: الذين كفروا وماتوا وهم كفار، عليهم لعنة الله ، بمعنى: أبعدهم الله وأسحقهم من رحمته،

قال البيضاوي:أي:" استقر عليهم اللعن من الله"[١١].

قال الزجاج:" واللعنة هي إبعاد الله، وإبعاده عذابه"[١٢].

قال ابن عطية:" واللعنة في هذه الآية تقتضي العذاب"[١٣].

قوله تعالى:{وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}[البقرة:١٦١]، يعني "ولعنهم الملائكةُ والناس أجمعون" [١٤].

قال الطبري:" ولعنة الملائكة والناس إياهم قولهم : عليهم لعنة الله" [١].

---

(١)الشعر لثعلبة بن صعير المازني ، شرح المفضليات : ٢٥٧ . والضمير في قوله " فتذكرا " للنعامة والظليم . والثقل : بيض النعام المصون ، والعرب تقول لكل شيء نفيس خطير مصون : ثقل . ورثد المتاع وغيره فهو مرثود ورثيد : وضع بعضه فوق بعض ونضده . وعنى بيض النعام ، والنعام تنضده وتسويه بعضه إلى بعض . وذكاء : هي الشمس .

(٢) انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني: ١٠٠، ويروى " ظلامها " . يعني البقرة الوحشية ، قد ولجت كناسها في أصل شجرة ، والرمل يتساقط على ظهرها .

(٣) تفسير الطبري:٢٥٥/١.

(٤) تفسير الطبري: ٢٦١/٣.

(٥) معاني القرآن: ٢٣٦/١.

(٦) صفوة التفاسير:٩٦/١.

(٧) الكشاف: ٢٠٩/١.

(٨) تفسير ابن عثيمين:٢٠٢/٢.

(٩) تفسير البيضاوي: ١١٦/١.

(١٠) تفسير الطبري:٢٦١/٣.

(١١) تفسير البيضاوي: ١١٦/١.

(١٢) معاني القرآن: ٢٣٦/١.

(١٣) المحرر الوجيز: ٢٣٢/١.

(١٤)انظر: تفسير الطبري: ٢٦١/٣.

قال الثعلبي: " أي ولعنة الملائكة، والناس أجمعين"[٢].

قال الزجاج:" المعنى لعنة الملائكة ولعنة الناس أجمعين... قيل: إنهم يلعنونه في الآخرة، كما قال عز وجل: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} [العنكبوت : ٢٥]"[٣].

قال أبو العالية: "إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ، ثم تلعنه الملائكة ، ثم يلعنه الناس أجمعون"[٤]. وروي عن قتادة[٥] نحوه.

قال المراغي:" والسر في التعبير بلعن الملائكة والناس ، مع أن لعن اللّه وحده يكفى في خزيه ، الدلالة على أن جميع من يعلم أحواله من العوالم العلوية والسفلية يراه أهلا للعن اللّه ومقته ، فلا يشفع له شافع ولا يرحمه راحم ، فهو قد استحق اللعن لدى جميع من يعقل ويعلم ، ومن استحق النكال من الرب الرءوف الرّحيم ، فماذا يرجو من سواه من عباده ؟ "[٦].

و(الملائكة): "عالم غيبي خُلِقوا من نور؛ وهم محجوبون عن الإنس؛ وربما يرونهم إما على الصورة التي خلقوا عليها، كما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل على صورته التي خلِق عليها له ستمائة جناح[١] قد سد الأفق[٢]؛ وإما على صورة أخرى، كما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل على صورة دحية الكلبي[٣]؛ وهم عباد لله عزّ وجلّ لا يستكبرون عن عبادته، ولا يستحسرون؛ يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ لا يأكلون، ولا يشربون؛ صُمْدٌ - أي لا أجواف لهم؛ والملائكة عليهم السلام لهم وظائف، وأعمال خصهم الله سبحانه وتعالى بها؛ فإسرافيل، وميكائيل، وجبريل موكلون بما فيه الحياة؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يستفتح صلاة الليل بقوله: «اللهم رب جَبرائيل وميكائيل وإسرافيل...»[٤] الحديث؛ لأن هؤلاء الثلاثة موكلون بما فيه الحياة؛ والبعث من النوم حياة؛ ولهذا ناسب أن يكون هذا الاستفتاح في أول عمل يعمله الإنسان بعد أن توفاه الله عزّ وجلّ بالنوم؛ وهؤلاء الثلاثة أحدهم مكلف بما فيه حياة القلوب - وهو جبريل - والثاني بما فيه حياة الأبدان - وهو إسرافيل - والثالث بما فيه حياة النبات - وهو ميكائيل - وأفضلهم جبريل - ولهذا امتدحه الله عزّ وجلّ بقوله تعالى: {إنه لقول رسول كريم *

---

(١)انظر: تفسير الطبري: ٢٦١/٣.

(٢) تفسير الثعلبي:٣١/٢.

(٣) معاني القرآن: ٢٣٦/١.

(٤) أخرجه الطبري(٢٣٩٤):ص٢٦٢/٣، وانظر: تفسير ابن كثير: ٤٧٣/١.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٤٥٦):ص٢٧١/١.

(٦) تفسير المراغي: ٣٢/٢.

(١) راجع البخاري ص٢٦٢، كتاب بدء الخلق، باب ٧: إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، حديث رقم ٣٢٣٢؛ ومسلماً ص٧٠٨، كتاب الإيمان، باب ٧٧: معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)...، حديث رقم ٤٣٢ [٢٨٠] ١٧٤.

(٢) راجع البخاري ص٢٦٢، كتاب بدء الخلق، باب ٧: إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء...، حديث رقم ٣٢٣٥؛ ومسلماً ص٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٧٧: معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)...، حديثرقم ٤٤٢ [٢٩٠] ١٧٧.

(٣) راجع مسلماً ص٧٠٧، كتاب الإيمان، باب ٧٤: الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلوات، حديث رقم ٤٢٣ [٢٧١] ١٦٧.

(٤) سبق تخريجه ٣١٥/١.

ذي قوة عند ذي العرش مكين} [التكوير: ١٩، ٢٠] ، وبقوله تعالى: {فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً} [مريم: ١٧] ؛ فجبريل أفضل الملائكة على الإطلاق"[١].

وإن قيل : فليس يلعنهم جميع الناس لأن قومهم لا يلعنونهم ، قيل : عن هذا جوابان[٢] :

أحدهما : أن اللعنة من أكثر الناس يطلق عليها لعنة جميع الناس ، فغلب حكم الأكثر على الأقل .

والثاني : أن المراد به يوم القيامة يلعنهم قومهم مع جميع الناس كما قال تعالى:{ يَومَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً} [العنكبوت : ٢٥].

واختلف في تفسير قوله تعالى{وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}[البقرة:١٦١]، على وجوه[٣]:

أحدها: أن المراد بـ{النَّاسِ أَجْمَعِينَ}: أهلَ الإيمان به وبرسوله خاصة، دون سائر البشر. قاله قتادة[٤]، والربيع[٥].

وضعّفه الطبري فقال: هذا" قولٌ ظاهرُ التنزيل بخلافه، ولا برهان على حقيقته من خبر ولا نظر. فإن كان ظن أن المعنيَّ به المؤمنون ، من أجل أن الكفار لا يَلعنون أنفسهم ولا أولياءهم ، فإن الله تعالى ذكره قد أخبر أنهم يَلعنونهم في الآخرة. ومعلومٌ منهم أنّهم يَلعنون الظّلَمة ، وداخلٌ في الظَّلَمة كل كافر ، بظلمه نفسه ، وجحوده نعمة ربه ، ومخالفته أمرَه"[٦].

الثاني: أن ذلك يومَ القيامة ، يُوقفُ على رءوس الأشهاد الكافرُ فيلعنه الناس كلهم. قاله أبو العالية "[٧]، وقتادة[٨].

الثالث:أن ذلك قول القائل كائنًا من كان:" لعنَ الله الظالم " ، فيلحق ذلك كل كافر ، لأنه من الظَّلمة. وهذا قول السدي[٩].

والراجح أنه عنى الله بذلك جَميعَ الناس، وهو قولهم: "(لعن الله الظالم - أو الظالمين)، لأن كلّ أحد من بني آدم لا يمتنع من قيل ذلك كائنًا من كان، ومن أي أهل ملة كان ، فيدخل بذلك في لعنته كلّ كافرٍ كائنًا من كان، لأن الله تعالى ذكره أخبر عمن شَهدهم يوم القيامة أنهم يلعنونهم فقال : {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[هود : ١٨]"[١٠].

وقرئ {والملائكةُ والناسُ أجمعون}، عطفاً على محل اسم الله، لأنه فاعل في المعنى، كقولك أعجبني ضرب زيدٍ وعمرو، أو فاعلاً لفعل مقدر نحو وتلعنهم الملائكة[١١].

قال الزجاج:" وهو جيد في العربية إلا أني أكرهه لمخالفته - المصحف، والقراءة، إنما ينبغي أن يلزم فيها السنة، ولزوم السنة فيها أيضا أقوى عند أهل العربية، لأن الإجماع في

---

(١) تفسير ابن عثيمين:٢/٢٠٢-٢٠٣.

(٢) انظر: النكت والعيون: ١/٢١٥، ومعاني القرآن للزجاج:١/٢٣٦.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣/٢٦١-٢٦٢، وتفسير ابن كثير: ١/٤٧٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٣٩٢):ص٣/٢٦٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٣٩٢):ص٣/٢٦٢.

(٦) تفسير الطبري: ٣/٢٦٢.

(٧) أخرجه الطبري(٢٣٩٤):ص٣/٢٦٢، وانظر: تفسير ابن كثير: ١/٤٧٣.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٤٥٦):ص١/٢٧١.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٣٩٥):ص ٣/٢٦٢، وتفسير ابن أبي حاتم(١٤٥٧):ص١/٢٧١.

(١٠) تفسير الطبري: ٣/٢٦٢.

(١١) انظر: تفسير البيضاوي: ١/١١٦.

القراءة إنما يقع على الشيء الجيد البالغ ورفع الملائكة في قراءة الحسن على تأويل: أولئك جزاؤهم أن لعنهم الله والملائكة، فعطف الملائكة على موضع إعراب لله في التأويل"[١].

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: أن الكافر مستحق للعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين.

٢ - ومنها: أنه تشترط لثبوت هذا أن يموت على الكفر؛ لقوله تعالى: {إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار}؛ فلو رجعوا عن الكفر إلى الإسلام ارتفعت عنهم هذه العقوبة.

٣ - ومنها: إثبات الملائكة.

٤ - ومنها: أن الكافر يلعنه الكافر؛ لقوله تعالى: {والناس أجمعين}؛ وقد أخبر الله تعالى عن أهل النار أنه كلما دخلت أمة لعنت أختها، وقال تعالى: {إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب} [البقرة: ١٦٦] إلخ؛ فالكافر - والعياذ بالله - ملعون حتى ممن شاركه في كفره.

القرآن

{خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)} [البقرة : ١٦٢]

التفسير:

دائمين في اللعنة والنار، لا يخفف عنهم العذاب، ولا هم يمهلون بمعذرة يعتذرون بها.

قوله تعالى:{خَالِدِينَ فِيهَا}[البقرة:١٦٢]،" أي: خالدين في النار"[٢].

قال البيضاوي:" أي في اللعنة أو في النار"[٣].

قال الثعلبي:" مقيمين في اللعنة والنار"[٤].

قال الزجاج:" أي في اللعنة، وخلودهم فيها خلود في العذاب"[٥].

قال أبو العالية:" يعني: {في النار}: في اللعنة"[٦]. وروي عن الربيع بن أنس[٧] نحو ذلك.

و(الخلود): "اللزوم أبدًا، ومنه يقال: أخلد إلى كذا، أي: لزمه، وركن إليه"[٨].

وقد اختلف في قوله تعالى:{خَالِدِينَ فِيهَا}[البقرة:١٦٢]، على قولين[٩]:

أحدهما: أي: خالدين في اللعنة . قاله الزجاج[١٠] وآخرون.

قال ابن عثيمين:" والمراد فيما يترتب عليها؛ فإنهم خالدون في النار التي تكون بسبب اللعنة"[١١].

والثاني: وقيل خالدين في النار، إلا أنها أضمرت تفخيما لشأنها وتهويلا كما في قوله تعالى: {إنا أنزلناه فى ليلة القدر} [القدر: ١].

---

(١) معاني القرآن: ٢٣٦/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٩٦/١.

(٣) تفسير البيضاوي: ١١٦/١، ونقله أبو السعود في تفسيره:: ١٨٣/١.

(٤) تفسير الثعلبي:٣١/٢.

(٥) معاني القرآن: ٢٣٦/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٥٨):ص٢٧١/١.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٧١/١.

(٨) التفسير البسيط: ٤٤٨/٣، وانظر: المفردات: ١٦٠، و مفاتيح الغيب: ١٤٣/٤.

(٩) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢٠٤/٢.

(١٠) انظر: معاني القرآن: ٢٣٦/١.

(١١) تفسير ابن عثيمين: ٢٠٤/٢.

والقول الأول أولى لوجوه[1]:

الأول: أن الضمير إذا وجد له مذكور متقدم فرده إليه أولى من رده إلى ما لم يذكر.

الثاني: أن حمل هذا الضمير على اللعنة أكثر فائدة من حمله على النار، لأن اللعنة هو الإبعاد من الثواب بفعل العقاب في الآخرة وإيجاده في الدنيا فكان اللعن يدخل فيه النار وزيادة فكان حمل اللفظ عليه أولى.

الثالث: أن قوله: {خالدين فيها} إخبار عن الحال، وفي حمل الضمير على اللعن يكون ذلك حاصلا في الحال، وفي حمله على النار لا يكون حاصلا في الحال، بل لا بد من التأويل؛ فكان ذلك أولى.

قوله تعالى:{لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ}[البقرة:١٦٢]، "أي لا يهوَّن عنهم، لا زمناً، ولا شدة، ولا قوة"[2].

قال الصابوني:"أي: إن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع"[3].

قال الثعلبي:" لا يرفه عنهم العذاب"[4]، وقال أيضا: لا" يهون"[5].

قال ابن كثير: أي : "لا ينقص عَمَّا هم فيه"[6]. وقال أيضا:" :" أي:لا يفتر عنهم ساعة واحدة"[7].

قال الطبري:" فإنه خبرٌ من الله تعالى ذكره عن دَوَام العذاب أبدًا من غير توقيت ولا تخفيف ، كما قال تعالى ذكره : {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا}[سورة فاطر : ٣٦] ، وكما قال :{كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا}[سورة النساء : ٥٦]"[8].

قوله تعالى:{وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ}[البقرة:١٦٢]، " أي لا يمهلون ولا يؤجلون"[9].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ١٥٣/٤. وقال الإمام الرازي: واعلم أنه تعالى وصف هذا العذاب بأمور ثلاثة. أحدها: الخلود وهو المكث الطويل عندنا، والمكث الدائم عند المعتزلة، على ما تقدم القول فيه في تفسير قوله تعالى: {بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولائك أصحاب النار هم فيها خالدون} (البقرة: ٨١). وثانيها: عدم التخفيف، ومعناه أن الذي ينالهم من عذاب الله فهو متشابه في الأوقات كلها، لا يصير بعض الأوقات أقل من بعض، فإن قيل: هذا التشابه ممتنع لوجوه:

الأول: أنه إذا تصور حال غيره في شدة كالعقاب، كان ذلك كالتخفيف منه.

الثاني: أنه تعالى يوفر عليهم ما فات وقته من العذاب ثم تنقطع تلك الزيادة فيكون ذلك تخفيفا.

الثالث: أنهم حيثما يخاطبون بقوله: {اخسئوا فيها ولا تكلمون} لا شك أنه يزداد غمهم في ذلك الوقت. (أجابوا عنه) بأن التفاوت في هذه الأمور القليلة، فالمستغرق بالعذاب الشديد لا ينتبه لهذا القدر القليل من التفاوت، قالوا: ولما دلت الآية على أن هذا العقاب متشابه، وجب أن يكون دائما لأنهم لو جوزوا انقطاع ذلك مما يخفف عنهم إذا تصوروه، وبيان ذلك أن الواقع في محنة عظيمة في الدنيا إذا بشر بالخلاص بعد أيام فإنه يفرح وييسر ويسهل عليه موقع محنته وكلما كانت محنته أعظم، كان ما يلحقه من الروح والتخفيف بتصور الإنقطاع أكثر.(مفاتيح الغيب: ١٥٣/٤).

(٢) تفسير ابن عثيمين:٢٧٧/١.

(٣) صفوة التفاسير:٩٨/١.

(٤) تفسير الثعلبي:٣١/٢.

(٥) تفسير الثعلبي: ٢٣٢/١، وانظر: تفسير البغوي: ١١٩/١.

(٦) تفسير ابن كثير: ٤٧٣/١.

(٧) تفسير ابن كثير: ٣٢٠/١-٣٢١.

(٨) تفسير الطبري: ٢٦٤/٣.

(٩)تفسير أبي السعود: ١٨٣/١، وانظر: تفسير الثعلبي:٣١/٢.

قال أبو حيان:" نفى الأنظار ، وهو تأخير العذاب"[١].
قال ابن عباس:" لا يؤخرون"[٢].
وقال عطاء عن ابن عباس: "يريد: للرجعة ولا للتوبة ولا للمعذرة"[٣].
قال الطبري: يعني: "ولا هُم يُنظرون بمعذرة يَعتذرون، كقوله : {هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [سورة المرسلات : ٣٥ - ٣٦]"[٤]. وهذا قول أبي العالية[٥].
قال البيضاوي:" أي لا يمهلون، أو لا ينتظرون ليعتذروا، أو لا ينظر إليهم نظر رحمة"[٦].
قال الزمخشري:" أى: لا يمهلون ولا يؤجلون، أو لا ينتظرون ليعتذروا. ولا ينظر إليهم نظر رحمة"[٧].
قال ابن كثير: أي: "لا يغير عنهم ساعة واحدة، ولا يفتَّر ، بل هو متواصل دائم ، فنعوذ بالله من ذلك"[٨].
قال الصابوني: "أي ولا يمهلون أو يؤجلون بل يلاقيهم العذاب حال مفارقة الحياة الدنيا"[٩].
وقال الشيخ ابن عثيمين: "أي لا يمهلون؛ بل يؤخذون بالعقاب؛ من حين ما يموتون وهم في العذاب؛ ويحتمل أن المراد لا ينظرون بالعين؛ فلا ينظرون نظر رحمة، وعناية بهم؛ وهذا قد يؤيِّد بقوله تعالى: {قال اخسئوا فيها ولا تكلمون} [المؤمنون: ١٠٨] ؛ فإن هذا من احتقارهم، وازدرائهم أنهم يوبخون بهذا القول.
قال المراغي:أي:"ولا يمهلون ليتوبوا ويعملوا صالح الأعمال ، لأن الكفر الذي استحقوا به هذا العذاب هو غاية ما يكتسبه المرء من ظلمات الروح ، ومتى مات انقطع عمله وتعذر عليه أن يجلّى تلك الظلمة ، ويرجع إلى الحق ، ويزكى نفسه ، ولا يمهل إذ هو الجاني على نفسه ، فأىّ شىء يرجو من غيره ؟"[١٠].
قال الرازي: " والإنظار هو التأجيل والتأخير قال تعالى: {فنظرة إلى ميسرة} [البقرة: ٢٨٠] والمعنى: إن عذابهم لا يؤجل، بل يكون حاضرا متصلا بعذاب مثله فكأنه تعالى أعلمنا أن حكم دار العذاب والثواب بخلاف حكم الدنيا فإنهم يمهلون فيها إلى آجال قدرها الله تعالى، وفي الآخرة لا مهلة البتة فإذا استمهلوا لا يمهلون، وإذا استغاثوا لا يغاثون وإذا استعتبوا لا يعتبون، وقيل لهم؛ {اخسئوا فيها ولا تكلمون} [المؤمنون: ١٠٨]، نعوذ بالله من ذلك، والحاصل أن هذه

---

(١) البحر المحيط: ٤٦١/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٥٩):ص٢٧٢/١.
(٣) التفسير البسيط: ٤٤٩/٣.

(٤)تفسير الطبري: ٢٦٤/٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٣٩٧):ص٢٦٤/١٣-٢٦٥.
(٦) تفسير البيضاوي: ١١٦/١.
(٧) الكشاف: ٢١٠/١.
(٨) تفسير ابن كثير: ٤٧٣/١.
(٩) صفوة التفاسير:٩٦/١.
(١٠) تفسير المراغي: ٣٢/٢.

الصفات الثلاثة التي ذكرها الله تعالى للعقاب في هذه الآية دلت على يأس الكافر من الإنقطاع والتخفيف والتأخير"(١).

وذكروا في قوله تعالى:{وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ}[البقرة:١٦٢]، وجهان(٢):

أحدهما: معناه: يؤخرون عن العذاب.

والثاني: ويحتمل أن يكون من النظر، نحو قوله تعالى:{وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ} [آل عمران: ٧٧].

قال ابن عطية:" والأول أظهر، لأن النظر بالعين إنما يعدى بإلى إلا شاذا في الشعر"(٣).

الفوائد:

١ - ومنها :أن الذين يموتون وهم كفار مخلدون في لعنة الله، وطرده، وإبعاده عن رحمته.

٢ - ومنها: أن العذاب لا يخفف عنهم، ولا يوماً واحداً؛ ولهذا يقول الله عزّ وجلّ: {وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب} [غافر: ٤٩] ؛ لم يسألوا أن يرفع العذاب؛ ولم يسألوا أن يخفف دائماً؛ بل يخفف ولو يوماً واحداً من أبد الآبدين؛ يتمنون هذا؛ يتوسلون بالملائكة إلى الله عزّ وجلّ أن يخفف عنهم يوماً واحداً من العذاب؛ ولكن يوبخون إذا سألوا هذا: {قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى} [غافر: ٥٠] ؛ فما يستطيع أحد أن يتصور كيف تكون حسرتهم حينئذٍ؛ يقولون: ليتنا فعلنا؛ ليتنا صدقنا؛ ليتنا اتبعنا الرسول؛ ولهذا يقولون: {بلى} ؛ لا يستطيعون أن ينكروا أبداً؛ {قالوا فادعوا} [غافر: ٥٠] أي أنتم؛ ولكن دعاء لا يقبل، كما قال تعالى: {وما دعاء الكافرين إلا في ضلال} [غافر: ٥٠] أي في ضياع - والعياذ بالله؛ والمقصود أنه لا يخفف عنهم العذاب.

٣ - من فوائد الآية: أنهم لا ينظرون؛ إما أنه من النظر؛ أو من الإنظار؛ فهم لا يمهلون ولا ساعة واحدة؛ ولهذا قال تعالى: {حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها} [الزمر: ٧١] ؛ فمن يوم يجيئونها تفتح؛ أما أهل الجنة فإذا جاءوها لم تفتح فور مجيئهم، كما قال تعالى: {حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها} [الزمر: ٧١] ؛ لأنهم لا يدخلونها إلا بالشفاعة، وبعد أن يقتص من بعضهم لبعض؛ فإذا جاءوها هذبوا، ونقوا، ثم شفع النبي صلى الله عليه وسلم في دخول الجنة؛ وحينئذ تفتح أبوابها.

القرآن

{وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)} [البقرة : ١٦٣]

التفسير:

وإلهكم -أيها الناس- إله واحد متفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وعبودية خلقه له، لا معبود بحق إلا هو، الرحمن المتصف بالرحمة في ذاته وأفعاله لجميع الخلق، الرحيم بالمؤمنين.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: قال ابن حجر: "قال ابن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس:" قالت كفار قريش: يا محمد صف أو انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وسورة الإخلاص"(٤). وكذا نقله الواحدي في "الوسيط"(١)، والثعلبي في تفسيره(٢).

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٤٤/٤.

(٢) انظر: المحرر الوجيز: ٢٣٢/١.

(٣) المحرر الوجيز: ٢٣٢/١.

(٤) العجاب: ٤١٣/١.

والثاني: قال ابن حجر: "ومن طريق جويبر عن الضحاك: كان للمشركين ثلاثمائة وستون صنما يعبدونها من دون الله فبين الله تعالى أنه إله واحد فأنزل هذه الآية"(٣). وكذا ذكره الثعلبي(٤).

قوله تعالى: :{وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ}[البقرة:١٦٣]، أي "أيها الناس معبودكم الحقيق بالعبادة إله واحد، فلا تشركوا به أحدا"(٥).

قال مقاتل:" يقول ربكم رب واحد فوحد نفسه تبارك اسمه"(٦).

قال المراغي:" أي وإلهكم الحقيق بالعبادة إله واحد ، فلا تشركوا به أحدا"(٧).

قال الصابوني:" أي إلهكم المستحق للعبادة إلهٌ واحد، لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله"(٨).

قال الزجاج:" أخبر عز وجل بوحدانيته"(٩).

قال ابن عثيمين:" الخطاب للبشر كلهم"(١٠).

قال أبو السعود:" خطاب عام لكافة الناس، أي المستحق منكم للعبادة، فرد في الإلهيه لاصحة لتسمية غيره إلها أصلا"(١١).

قال الراغب:" يجوز أن يكون خطاباً عاماً أي المستحق منكم العبادة وهو إله واحد لا أكثر، ويجوز أن يكون خطاباً للمؤمنين، والمعنى: الذي يقصدونه إله واحد تنبيهاً أنكم لستم كالكفار الذين يعبدون آلهة من الأصنام والشيطان والهوى وغير ذلك"(١٢).

قال أبو حيان:" وظاهر الخطاب أنه لجميع المخلوقات المتصور منهم العبادة ، فهو إعلام لهم بوحدانية الله تعالى، ويحتمل أن يكون خطاباً لمن قال : صف لنا ربك وانسبه ، أو خطاباً لمن يعبد مع الله غيره من صنم ووثن ونار"(١٣).

و(إله): "بمعنى مألوه؛ فهي بمعنى اسم المفعول؛ و(المألوه) معناه المعبود حباً، وتعظيماً - وهو إله واحد؛ ووحدانيته بالألوهية متضمنة لوحدانيته بالربوبية؛ إذ لا يُعبد إلا من يُعلم أنه رب"(١٤).

وأراد بقوله تعالى:{وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ}[البقرة:١٦٣]، أراد أمرين(١٥):

---

(١)انظر : الوسيط: ٢٤٥/١، والتفسير البسيط: ٤٥١/٣، وتفسير الثعلبي: ٣١/٢، والعجاب: ٤١٣/١.
(٢) انظر: تفسير الثعلبي:٣١/٢.
(٣) العجاب: ٤١٣/١، وتفسير الثعلبي:٣٢/٢، ولم أجد هذا في "تفسير الطبري" وابن كثير والسيوطي.
(٤) انظر: تفسير الثعلبي:٣٢/٢.
(٥)تفسير ابن عثيمين: ٢٠٦/٢.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ١/!٥٣.
(٧) تفسير المراغي: ٣٣/٢.
(٨) صفوة التفاسير:٩٨/١.
(٩) معاني القرآن: ٢٣٦/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢٠٦/٢.
(١١) تفسير أبي السعود: ١٨٣/١.
(١٢) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣٥٨/١-٣٥٩.
(١٣) البحر المحيط: ٤٦٢/١.
(١٤) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢٠٦/٢.
(١٥) انظر: النكت والعيون: ٢١٦/١.

أحدهما : أن إله جميع الخلق واحد ، لا كما ذهبت إليه عبدة الأصنام من العرب وغيرهم أن لكل قوم إلهاً غير إله من سواهم .
والثاني : أن الإله وإنْ كان إلهاً لجميع الخلق فهو واحد لا ثاني له ولا مثل له .
وقد اختُلِف في معنى وَحدانيته تعالى ذكره، على وجهين[١]:
أحدهما: نَفي الأشباه والأمثال عنه.
الثاني: انفراده من الأشياء، وانفراد الأشياء منه.
والشرك به ضربان[٢]:
أحدهما: شرك في الألوهية والعبادة، بأن يعتقد المرء أن في الخلق من يشارك اللّه أو يعينه في أفعاله ، أو يحمله على بعضها ويصدّه عن بعض ، فيتوجه إليه في الدعاء عند ما يتوجه إلى اللّه ، ويدعوه معه ، أو يدعوه من دون اللّه ، ليكشف عنه ضرا أو يجلب له نفعا.
والثاني: شرك به في الربوبية ، بأن يسند الخلق والتدبير إلى غيره معه ، أو أخذ أحكام الدين من عبادة وتحليل وتحريم من غير كتبه ووحيه الذي بلّغه عنه الرسل ، استنادا إلى أن من يؤخذ عنهم الدين ، هم أعلم بمراد اللّه ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة : ٣١].
وقوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}[البقرة:١٦٣]، "أي لا معبود بحق إلا هو جلّ وعلا"[٣].
قال محمد بن إسحاق:" أي ليس معه غيره شريكا في أمره"[٤].
قال المراغي:أي:" الذي وسعت رحمته كل شيء ، فحسب المرء أن يرجوها"[٥].
قال الطبري: أي: "لا رب للعالمين غيرُه، ولا يستوجبُ على العبادِ العبادةَ سواه ، وأنّ كلّ ما سواه فهُم خَلقه ، والواجبُ على جميعهم طاعته والانقيادُ لأمره ، وتركُ عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة ، وهجْر الأوثان والأصنام"[٦].
قال ابن عطية:" إعلام بالوحدانية، وواحِدٌ في صفة الله تعالى معناه نفي المثيل والنظير والند، وقال أبو المعالي: هو نفي التبعيض والانقسام"[٧].
قال أبو حيان:" توكيد لمعنى الوحدانية ونفي الإلهية عن غيره. وهي جملة جاءت لنفي كل فرد فرد من الآلهة ، ثم حصر ذلك المعنى فيه تبارك وتعالى"[٨].
وقد زعم بعضهم أن تقدير الخبر في قوله {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، أي: «موجود»؛ وهذا غلط واضح؛ لأنه يختل به المعنى اختلالاً كبيراً من وجهين[٩]:
الوجه الأول: أن هناك آلهة موجودة سوى الله؛ لكنها باطلة، كما قال تعالى: {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل} [الحج: ٦٢] ، وكما قال تعالى: {فما أغنت عنهم آلهتهم

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٦٥/٣-٢٦٦.
(٢)انظر: تفسير المراغي: ٢٦٥/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٩٨/١
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٦٤):ص٢٧٢/١.
(٥) تفسير المراغي: ٣٣/٢.
(٦) تفسير الطبري: ٢٦٦/٣.
(٧) المحرر الوجيز: ٢٣٢/١.
(٨) البحر المحيط: ٤٦٢/١.
(٩) انظر: تفسير ابن عثيمين:٢٠٦/٢-٢٠٧.

التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك} [هود: ١٠١] ، وكما قال تعالى: {فلا تدع مع الله إلهاً آخر} [الشعراء: ٢١٣].

الوجه الثاني: أنه يقتضي أن الآلهة المعبودة من دون الله هي الله، ولا يخفى فساد هذا؛ وعليه فيتعين أن يكون التقدير: «لا إله حق»، كما فسرناه.

قال الراغب:" إن قيل: ما فائدة الجمع بين {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} وبين {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} وأحدهما يبنى على الآخر؟

قيل: لما بين بقوله: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} أنه المقصود بالعبادة أو المستحق لها، وكان يجوز أن يتوهم أن يوجد إله غيره ولكن لا يعبد أولا يستحق العبادة أكده بقوله: (لأ إله إلأ هو)، وحق لهذا المعنى أن يكون مؤكدا ويكرر عليه الألفاظ [الملخصة]، إذ هو مبدأ مقصود العبادة ومنتهاه"[١].

قوله تعالى:{الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}، "أي: المولى لجميع النعم أصولها وفروعها"[٢].

قال السعدي:أي" المتصف بالرحمة العظيمة"[٣].

قال الصابوني:أي:" مُولي النعم ومصدر الإِحسان"[٤].

قال الماوردي:" ثم وصف فقال:{الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}، ترغيباً في عبادته وحثاً على طاعته"[٥].

قال أبو حيان:" ذكر هاتين الصفتين منبهاً بهما على استحقاق العبادة له ، لأن من ابتدأك بالرحمة إنشاء بشراً سوياً عاقلاً وتربية في دار الدنيا موعوداً الوعد الصدق بحسن العاقبة في الآخرة ، جدير بعبادتك له والوقوف عند أمره ونهيه ، وأطمعك بهاتين الصفتين في سعة رحمته. وجاءت هذه الآية عقيب آية مختومة باللعنة والعذاب لمن مات غير موحد له تعالى ، إذ غالب القرآن أنه إذا ذكرت آية عذاب ، ذكرت آية رحمة ، وإذا ذكرت آية رحمة ، ذكرت آية عذاب"[٦].

قال ابن عثيمين:"وأسماء الله سبحانه وتعالى لها ثلاث دلالات: دلالة مطابقة؛ ودلالة تضمن؛ ودلالة التزام؛ فدلالة الاسم على الذات، والصفة دلالة مطابقة؛ ودلالته على الذات وحدها، أو الصفة وحدها دلالة تضمن؛ ودلالته على ما يستلزمه من الصفات الأخرى دلالة التزام؛ مثال ذلك «الخالق»: فهو دال على ذات متصفة بالخلق؛ وعلى صفة الخلق؛ فدلالتها على الأمرين دلالة مطابقة؛ وعلى أحدهما دلالة تضمن؛ وهي تدل على صفة العلم، والقدرة دلالة التزام؛ إذ لا خلق إلا بعلم وقدرة"[٧].

قال الرازي: " واعلم أنه سبحانه إنما خص هذا الموضع بذكر هاتين الصفتين لأن ذكر الإلهية الفردانية يفيد القهر والعلو فعقبهما بذكر هذه المبالغة في الرحمة ترويحا للقلوب عن هيبة

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣٥٩/١.
(٢) الكشاف: ٢١٠/١، وانظر: تفسير النسفي: ١٤١/١.
(٣) تفسير السعدي: ٧٨.
(٤) صفوة التفاسير:٩٨/١.
(٥) النكت والعيون: ٢١٦/١.
(٦) البحر المحيط: ٤٦٣/١.
(٧) تفسير ابن عثيمين: ٢٠٧/٢.

الإلهية، وعزة الفردانية وإشعارا بأن رحمته سبقت غضبه وأنه ما خلق الخلق إلا للرحمة والإحسان"[1].

قال المراغي:" وإنما ذكر الوحدة والرحمة دون غيرهما من صفاته ، لأن الوحدة تذكر أولئك الكافرين الكاتمين للحق ، بأنهم لا يجدون ملجأ غير اللّه يقيهم عقوبته ولعنته ، والرحمة بعدها ترغبهم في التوبة وتحول بينهم وبين اليأس من فضله ، بعد أن اتخذوا الوسطاء والشفعاء عنده"[2].

وفي الحديث عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد بن السكن ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} و {الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران : ١ ، ٢]"[3].

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: أن إله الخلق إله واحد - وهو الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {وإلهكم إله واحد}.

٢ - ومنها: إثبات اسم «الإله» ، و «الواحد» لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {وإلهكم إله واحد}؛ وقد جاء في قوله تعالى: {لله الواحد القهار} [إبراهيم: ٤٨ : [فأثبت اسم «الواحد» سبحانه وتعالى.

٣ - ومنها: اختصاص الألوهية بالله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {لا إله إلا هو}.

فإن قال قائل: إن هؤلاء المشركين قد يفتنون بهذه الآلهة، فيدعونها، ثم يأتيهم ما دعوا به؛ فما هو الجواب؟

فالجواب: عن هذا أن هذه الأصنام لم توجِد ما دعوا به قطعاً؛ لقوله تعالى: {ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم من دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين} [الأحقاف: ٥، ٦] ، ولقوله تعالى: {إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير} [فاطر: ١٤] ؛ فيكون حصول ما دعوا به من باب الفتنة التي يضل بها كثير من الناس؛ والذي أوجدها هو الله عزّ وجلّ؛ لكن قد يُمتحَن الإنسان بتيسير أسباب المعصية ابتلاءً من الله عزّ وجلّ؛ فيكون هذا الشيء حصل عند دعاء هذه الأصنام لا به.

٤ - ومنها: كفر النصارى القائلين بتعدد الآلهة؛ لأن قولهم تكذيب للقرآن؛ بل وللتوراة، والإنجيل؛ بل ولجميع الرسل؛ وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ"[4].

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٦١/٤.

(٢) تفسير المراغي:٣٤/٢.

(٣)رواه أبو داود في السنن برقم (١٤٩٦) والترمذي في السنن برقم (٣٤٧٨) وقال الترمذي : "هذا حديث حسن صحيح".

(٤)أخرجه مسلم حديث (١٥٣)، وانفرد به عن البخاري.
ولهذا الحديث الشريف فوائد جمة:

الفائدة الأولى :الحديث دليل على نسخ جميع الرسالات برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وعليه فيجب على كل عبد أن يؤمن بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ليحقق الإسلام، يهودياً كان أو نصرانياً أو غيرهما من ملل الكفر، فإن قيل: لم خصَّ النبي صلى الله عليه وسلم اليهود والنصارى في حديث الباب؟
فالجواب: قال النووي رحمه الله:" وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيهاً على من سواهما، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتاب، فغيرهم ممن لا كتاب له أولى ".شرح النووي لصحيح مسلم (٣٦٥/٢).

الفائدة الثانية :الحديث دليل على أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم عامة لجميع الناس إلى قيام الساعة، وهذا من خصائص دعوة النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى { :قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)]الأعراف:١٥٨]، وقال الله تعالى { :وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }]الأنبياء:١٠٧]، وجاء في الصحيحين ما يؤيد ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم:" أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي" وفيه " وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة" وفي رواية لمسلم" وبعثت إلى كل أحمر وأسود" وفي رواية " وأرسلت إلى الخلق كافة."

الفائدة الثالثة :الحديث في مفهومه دليل على أن من لم تبلغه الدعوة فهو معذور، لأن الوعيد في الحديث لمن سمع بالرسالة ولم يؤمن بها، بخلاف من لم تبلغه.
قال القرطبي رحمه الله:" وفيه دليل على أن لم تبلغه دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أمره لا عقاب عليه، ولا مؤاخذة، وهذا كما قال تعالى { :وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا }]الإسراء:١٥] ". المفهم (١/ ٣٦٨).
واختلف أهل العلم فيمن لم تبلغه الدعوة ومات على ذلك وكذلك أطفال المشركين على أقوال ذكرها ابن القيم رحمه الله بأدلتها:
أحدها :الوقف، وترك الشهادة بأنهم في الجنة أو في النار.
والثاني :أنهم في النار.
والثالث :أنهم في الجنة.
والرابع :أنهم في منزلة بين المنزلتين بين الجنة والنار.
والخامس :أنهم تحت مشيئة الله تعالى.
والسادس :أنهم خدم أهل الجنة ومماليكهم.
والسابع :أن حكمهم حكم آبائهم في الدنيا والآخرة.
والثامن :أنهم يمتحنون في عرصة القيامة، واختاره ابن القيم رحمه الله حيث قال:" المذهب الثامن أنهم يمتحنون في عرصات القيامة ويرسل إليهم هناك رسول وإلى كل من لم تبلغه الدعوة، فمن أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه أدخله النار، وعلى هذا فيكون بعضهم في الجنة وبعضهم في النار وبهذا يتألف شمل الأدلة كلها وتتوافق الأحاديث... وقد جاءت بذلك آثار كثيرة يؤيد بعضها بعضاً " [انظر طريق الهجرتين الأقوال بأدلتها " فصل في مراتب المكلفين في الدار الآخرة (١/ ٥٧٠).
وسئل الشيخ ابن باز رحمه الله:" ما مصير من لم يبلغ بالإسلام يوم القيامة، باعتباره لم يتبلغ ولم يعرف الإسلام؟
فأجاب رحمه الله:" هذا حكمه حكم أهل الفترة الذين لم تبلغهم رسالة الرسل عليهم السلام، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أنهم يمتحنون يوم القيامة، فمن نجح منهم دخل الجنة، ومن عصى دخل النار، فمن لم تبلغه دعوة الإسلام ممن يكون نشأ في جاهلية بعيدة عن المسلمين، كما في زماننا مثلاً في أطراف أمريكا أو شواطئ إفريقيا البعيدة عن الإسلام، أو ما أشبه ذلك من الجهات التي لم تبلغها الإسلام، فهذا يمتحن يوم القيامة". مجموع فتاوى ومقالات متنوعة الجزء الثامن، وانظر فتاوى اللجنة الدائمة (١٥٠/٢).
أما في الدنيا فإننا نحكم عليهم بأنهم كفار كما هو ظاهر لنا، لأن كل من دان بدين غير الإسلام فهو كافر، وإنما مصيرهم في الآخرة فإلى الله تعالى.
قال ابن القيم رحمه الله:

٥ - ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما {الرحمن الرحيم}.
٦ - ومنها: إثبات ما تضمنه هذان الاسمان من الصفة - وهو الرحمة - والحكم: أنه يرحم بهذه الرحمة.
٧ - ومنها: أنه قد يكون للاسم من أسماء الله معنًى إذا انفرد؛ ومعنًى إذا انضم إلى غيره؛ لأن {الرحمن} لو انفرد لدل على الصفة، والحكم؛ وإذا جمع مع {الرحيم} جُعل {الرحمن} للوصف؛ و{الرحيم} للفعل.

القرآن

"والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل فهذا مقطوع به في جملة الخلف، وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجة أم لا؟ فذلك مالا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه هذا في الجملة، والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه هذا في أحكام الثواب والعقاب، وأما في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر". طريق الهجرتين (٦١٠/١).
وقال ابن عثيمين رحمه الله:
"وظاهر الحديث أن مجرد السماع تقوم به الحجة؛ لأنه قال" لاَ يَسْمَعُ بِي" ولكن قيّد هذا الإطلاق بسماع يبين به الأمر؛ لقوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ } [إبراهيم: ٤] لماذا؟ { لِيُبَيِّنَ لَهُمْ }[إبراهيم: ٤] فلابد أن يحصل البلاغ الذي تقوم به الحجة... وأما الذين في أوربا وغيرها ممن لم يصل إليهم الإسلام إلا مشوهاً، فهل يُعذبون؟
فنقول في هؤلاء: هم الآن يدينون بالكفر، ويرون أنهم طرف نقيض مع الإسلام، فنحن نحكم عليهم بأنهم كفار في الظاهر، فإذا لم تبلغهم الدعوة على وجه تقوم به الحجة، فأمرهم إلى الله يوم القيامة؛ لكن نحن نعاملهم الآن بما تقتضيه حالهم؛ لأنهم كفار".التعليق على مسلم (٤٩٠/١-٤٩١).
الفائدة الرابعة :قوله صلى الله عليه وسلم:" وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ " فيه جواز الحلف من غير استحلاف لاسيما في الأمور المهمة.
الفائدة الخامسة :قوله صلى الله عليه وسلم " وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ " فيه إثبات اليد لله تعالى إثباتاً يليق بجلاله من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف، ولا تعطيل، وهي صفة ذاتية خبرية دلّ عليها الكتاب والسنة والإجماع، قال تعالى {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } [المائدة:٦٤] ومن السنة حديث الباب، وأجمع السلف على ثبوتها.
وخالف أهل السنة والجماعة المعطلة من الجهمية والمعتزلة الذين يؤولون صفة اليدين ويقولون المراد بها في النصوص؛ القدرة أو النعمة، أو القدرة والنعمة، والرد عليهم من وجوه أشهرها:
١- أن تفسير اليد بالقدرة والنعمة مخالف لظاهر لفظ الآية، ولا دليل على هذا التأويل.
٢- أنه مخالف لإجماع السلف، فلا يعرف أحدٌ أولها بالقدرة والنعمة.
٣- أن تأويلها بالقدرة والنعمة ممتنع في بعض الآيات كقوله تعالى { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } [ص: ٢٥]، وقوله {يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } مما يدل على أنهما يدان اثنان، وتأويلهما بالنعمة يلزم أن تكون النعمة نعمتين فقط وهذا ممتنع؛ لأن نعم الله تعالى لا تعد ولا تحصى قال تعالى { :وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}[إبراهيم:٣٤] وتأويلها بالقدرة يلزم أن يكون له سبحانه قدرتان، ولا يجوز أن يكون له سبحانه قدرتان بإجماع العلماء.

٤- أن الله تعالى يقول { :مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ} [ص: ٧٥] ولو كان المراد باليد القدرة لما كان لآدم عليه السلام فضل على غيره؛ لأن الخلق كلهم خلقوا بقدرة الله تعالى، بل لم يكن لآدم عليه السلام فضل على إبليس فإبليس خلق بقدرة الله أيضاً، والله تعالى ذكر ذلك مزية لآدم وأنه خلقه بيديه.
٥- أن اليد التي أثبتها الله تعالى لنفسه جاءت في الأدلة مقرونة بأمور كثيرة، تدل على أنها يد حقيقية، فجاءت على وجوه يمتنع تأويلها بالقدرة والنعمة؛ حيث جاءت مقرونة بالطي، والقبض، والبسط واليمين، والنعمة، والقدرة لا توصف بهذه الأوصاف.

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)} [البقرة : ١٦٤]

التفسير:

إن في خلق السماوات بارتفاعها واتساعها، والأرض بجبالها وسهولها وبحارها، وفي اختلاف الليل والنهار من الطول والقصر، والظلمة والنور، وتعاقبهما بأن يخلف كل منهما الآخر، وفي السفن الجارية في البحار، التي تحمل ما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء المطر، فأحيا به الأرض، فصارت مخضرَّة ذات بهجة بعد أن كانت يابسة لا نبات فيها، وما نشره الله فيها من كل ما دبَّ على وجه الأرض، وما أنعم به عليكم من تقليب الرياح وتوجيهها، والسحاب المسيَّر بين السماء والأرض -إن في كل الدلائل السابقة لآياتٍ على وحدانية الله، وجليل نعمه، لقوم يعقلون مواضع الحجج، ويفهمون أدلته سبحانه على وحدانيته، واستحقاقه وحده للعبادة.

اختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية الكريمة على قولين[١]:

أحدهما: أنزلها عليه احتجاجًا له على أهل الشرك به من عبدة الأوثان.

قال عطاء: "نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة : {وإلهكم إله واحدٌ لا إله إلا هو الرحمن الرحيم}، فقال كفار قريش بمكة : كيف يَسعُ الناسَ إله واحد ؟ فأنزل الله تعالى ذكره : " إنّ في خَلق السموَات والأرض واختلاف الليل والنهار " ، إلى قوله : " لآياتٍ لقوم يَعقلون " ، فبهذا تعلمُون أنه إله واحدٌ ، وأنه إله كل شيء ، وخالق كل شيء"[٢].

الثاني: أنها نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، من أجل أنّ أهلَ الشرك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم [آية] ، فأنزل الله هذه الآية ، يعلمهم فيها أنّ لهم في خَلق السموات والأرض وسائر ما ذكر مع ذلك ، آيةً بينة على وحدانية الله ، وأنه لا شريك له في ملكه ، لمن عَقل وتدبَّر ذلك بفهم صحيح.

أخرج ابن مَرْدُويه عن ابن عباس قال : "أتت قريش محمدًا صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد إنما نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ، فنشتري به الخيل والسلاح ، فنؤمن بك ونقاتل معك. قال : "أوثقوا لي لئِنْ دعوتُ ربي فجعلَ لكم الصفا ذهبًا لتُؤْمنُنّ بي" فأوثقوا له ، فدعا ربه ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهبًا على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذابًا لم يعذبه أحدًا من العالمين. قال محمد صلى الله عليه وسلم : "ربّ لا بل دعني وقومي فلأدعهم يومًا بيوم". فأنزل الله هذه الآية : {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} الآية"[٣].

وأخرج الطبري عن أبي الضحى[٤]، وعطاء بن أبي رباح[٥]، وسعيد[٦]، والسدي[٧]، نحو ذلك.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٦٧/٣ -٢٧٠، والعجاب: ٤١٤/١-٤١٥.

(٢) أخرجه الطبري(٢٣٩٨):ص ٢٦٨/٣.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤٧٥/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٣٩٩)، و(٢٤٠٠)، و(٢٤٠١):ص٢٦٨/٣-٢٦٩.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٤٠٢):ص٢٦٩/٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٤٠٣):ص٢٦٩/٣-٢٧٠.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٤٠٤):ص٢٧٠/٣.

والراجح-والله أعلم-" أنّ الله تعالى ذكره نَبَّه عباده على الدلالة على وَحدانيته وتفرده بالألوهية ، دون كل ما سواه من الأشياء بهذه الآية. وجائزٌ أن تكون نزلت فيما قاله عطاء ، وجائزٌ أن تكون فيما قاله سعيد بن جبير وأبو الضحى ، ولا خبرَ عندنا بتصحيح قول أحد الفريقين يقطع العذرَ ، فيجوز أن يقضيَ أحدٌ لأحد الفريقين بصحة قولٍ على الآخر. وأيُّ القولين كان صحيحًا ، فالمراد من الآية ما قلت"(١).

قوله تعالى:{خَلْقِ السَّمَاوَاتِ الأَرْضِ}[البقرة:١٦٤]،أي "إن في إنشاء السموات والأرض وابتداعهما"(٢).

قال الصابوني:" أي إن في إبداع السماوات والأرض بما فيهما من عجائب الصنعة ودلائل القدرة"(٣).

قال ابن عثيمين: "أي إيجادهما من عدم؛ ويشمل ذلك بقاءهما، وكيفيتهما، وكل ما يتعلق بهما من الشيء الدال على علم الله سبحانه وتعالى، وقدرته، وحكمته، ورحمته"(٤).

قال الشيخ السعدي: أي: "في ارتفاعها واتساعها، وإحكامها، وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر، والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد، وفي خلق (الأرْض) مهادا للخلق، يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها، والاعتبار. ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها أتقنها، وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع، من منافع الخلق ومصالحهم، وضروراتهم وحاجاتهم. وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله، واستحقاقه أن يفرد بالعبادة، لانفراده بالخلق والتدبير، والقيام بشئون عباده"(٥).

و(السموات) جمع سماء، وتقدم أنها سبع؛ و(الأرض) مفرد يراد به الجنس؛ فيشمل السبع.

قال البيضاوي:" إنما جمع {السموات}، وأفرد {الأرض}، لأنها طبقات متفاصلة بالذات مختلفة بالحقيقة بخلاف الأرضين"(٦).

قوله تعالى:{اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}[البقرة:١٦٤]، " أي: تعاقبهما بنظام محكم"(٧).

قال البيضاوي:أي" تعاقبهما، والقصد به إلى الاستدلال بالبحر وأحواله"(٨).

قال السعدي:" وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما، خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر، والبرد، والتوسط، وفي الطول، والقصر، والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول، التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض، من أشجار ونوابت، كل ذلك بانتظام وتدبير، وتسخير، تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول، ما يدل ذلك على قدرة مصرفها، وعلمه وحكمته، ورحمته الواسعة، ولطفه الشامل، وتصريفه

---

(١) تفسير الطبري: ٢٧٠/٣.
(٢) تفسير الطبري: ٢٧٠/٣.
(٣) صفوة التفاسير:٩٨/١.
(٤) تفسير ابن عثيمين:٢٠٩/٢.
(٥) تفسير السعدي: ٧٨/١.
(٦) تفسير البيضاوي: ١١٦/١.
(٧) صفوة التفاسير:٩٨/١.
(٨) تفسير البيضاوي: ١١٦/١.

وتدبيره، الذي تفرد به، وعظمته، وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أن يؤله ويعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه ومراضيه"[١].

وفي تفسير { وَاخْتِلَافِ }، في قوله تعالى: {وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} وجهان[٢]:

أحدهما: أنه (إفتعال)، من (خُلوف) كل واحد منهما الآخر، من قولهم: خلفه يخلُفه، إذا ذهب الأول وجاء الثاني خلافه، أي: بعده، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [سورة الفرقان : ٦٢]، بمعنى : أن كل واحد منهما يخلف مَكان صاحبه، إذا ذهب الليل جَاء النهارُ بعده ، وإذا ذهب النهارُ جاء الليل خلفه. ومن ذلك قيل : خلف فلانٌ فلانًا في أهله بسوء، ومنه قول زهير[٣]:

بِهَا العِينُ وَالآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً ... وَأَطْلاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ

الثاني: أنه أراد: اختلافهما في الطول والقصر، والنور والظلمة، والزيادة والنقصان. قاله ابن كيسان[٤]، وعطاء[٥].

قال ابن عثيمين:" واختلاف الليل، والنهار أيضاً في الطول، والقصر، كما قال تعالى: {يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل} [الحج: ٦١] على وجه خفي لا يشعر الناس به: يزداد شيئاً فشيئاً، وينقص شيئاً فشيئاً - ليست الشمس تطلع فجأة من مدار السرطان، وفي اليوم التالي مباشرة من مدار الجدي! ولكنها تنتقل بينهما شيئاً فشيئاً حتى يحصل الالتئام، والتوازن، وعدم الكوارث؛ فلو انتقلت فجأة من مدار السرطان إلى مدار الجدي لهلك الناس من حر شديد إلى برد شديد؛ والعكس بالعكس؛ ولكن الله - جل وعلا - بحكمته، ورحمته جعلها تنتقل حتى يختلف الليل والنهار على حسب ما تقتضيه حكمته ورحمته"[٦].

قوله تعالى:{وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ}[البقرة:١٦٤]، أي: إن في السفن التي تسير في البحر[٧].

قال أبو مالك: "{الفلك}: السفينة"[٨]. وروي عن سعيد بن جبير مثله[٩].

قال مقاتل:" يعني السفن التي في البحر"[١٠].

---

(١) تفسير السعدي: ٧٨/١.

(٢) انظر: تفسير الثعلبي: ٣٢/٢ ، والتفسير البسيط: ٤٥٤/٣-٤٥٥، والبحر المحيط: ١/ ٤٦٥.

(٣) شرح المعلقات السبع للزوزني: ٧٢، "جمهرة اللغة" ص٤١٥ - ٤١٦، "لسان العرب" ٢/ ١٢٣٧ (خلف)، و ٥/ ٢٧٠٠، وبلا نسبة في "رصف المباني" ص ١٤٥، والهاء في " بها " إلى " ديار أم أوفى " صاحبته . والعين جمع عيناء : وهي بقر الوحش ، واسعة العيون جميلتها . والآرام جمع رئم : وهي الظباء الخوالص البياض ، تسكن الرمل . " خلفة " إذا جاء منها فوج ذهب آخر يخلفه مكانه . يصف مجيئها وذهوبها في براح هذه الرملة . والأطلاء جمع طلا : وهو ولد البقرة والظبية الصغير . ويصف الصغار من أولاد البقر والظباء في هذه الرملة ، وقد نهض هذا وذاك منها من موضع جثومه . يصف اختلاف الحركة في هذه الفقرة المهجورة التي فارقتها أم أوفى ، وقد وقف بها من بعد عشرين حجة - ، كما ذكر .

(٤) انظر: تفسير الثعلبي:٣٢/٢ ، و "البحر المحيط" ١/ ٤٦٥.

(٥) انظر: تفسير الثعلبي:٣٢/٢، وتفسير القرطبي: ٢/ ١٧٦، وتفسير البغوي: ١/ ١٧٧.

(٦)تفسير ابن عثيمين: ٢١٠/٢.

(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين:٢١١/٢. [بتصرف بسيط].

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٦٧):ص٢٧٣/١.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٧٣/١.

(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥٣/١.

قال الصابوني:" أي: السفن الضخمة الكبيرة التي تسير في البحر على وجه الماء وهي موقرةٌ بالأثقال"[١].

و(الفلك): "هي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صنعتها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها"[٢].

واختلف في مفرد (الفلك) على قولين[٣]:

أحدهما: أن واحدُه وجمعه بلفظ واحد، فتطلق على المفرد، كما في هذه الآية؛ وعلى الجمع، كما في قوله تعالى: {حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم} [يونس: ٢٢]، ويذكّر ويؤنث كما قال تعالى ذكره في تذكيره في آية أخرى : {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} [سورة يس : ٤١] ، فذكّره[٤].

والثاني: وقيل:واحده: فلك، مثل أسد وأسد، وخشب وخشب، وأصله من الدوران ، ومنه : فلك السماء التي تدور عليه النجوم. وفلكت الجارية استدار ثديها ، ومنه فلكة المغزل، وسميت السفينة فلكا، لأنها تدور بالماء أسهل دور [٥].

وتخصيص{الْفُلْكِ} بالذكر، "لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه، ولذلك قدمه على ذكر المطر والسحاب، لأن منشأهما البحر في غالب الأمر، وتأنيث الْفُلْكِ لأنه بمعنى السفينة"[٦].

قال القرطبي: " ووجه الآية في الفلك : تسخير الله إياها حتى تجري على وجه الماء ووقوفها فوقه مع ثقلها"[٧].

ويحتمل {في}، في قوله تعالى:{وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ}[البقرة:١٦٤]، وجهان[٨]:

أحدهما: أن المعنى تسير؛ في جوف البحر، على الأصل.

قال ابن عثيمين:"فالغواصات تجري في البحر بما ينفع الناس وهي في جوفه؛ لأنه يقاتل بها الأعداء، وتحمى بها البلاد؛ وهذا مما ينفع الناس.

الثاني: ويجوز أن تكون (في) بمعنى (على)، أي على سطح البحر، كقوله تعالى: {ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام} [الشورى: ٣٢].

قال ابن عثيمين:" وهذه أيضاً من آيات الله؛ سفن محملة بالآدميين، والأمتعة، والأرزاق، تجري على سطح الماء بدون تقلب، أو إزعاج غالباً! هذا من آيات الله؛ وقد حدث في عصرنا هذا ما هو أعظم آية، وأكبر منه؛ وهو الفلك الذي يجري في الهواء؛ فإذا أشار الله سبحانه وتعالى إلى شيء من آياته في أمر فما هو أعظم منه يكون أقوى دلالة على ذلك؛ وها هو الطير مسخراً في جو السماء لا يمسكه إلا الله من آيات الله، كما قال تعالى: {ألم يروا إلى الطير مسخرات في

---

(١) صفوة التفاسير:٩٨/١.

(٢) تفسير السعدي: ٧٨/١.

(٣) انظر: تفسير غريب القرآن: ٦٤، وتفسير الطبري: ٣/ ٢٧٠، وتهذيب اللغة: ٣/ ٢٨٣٠ - ٢٨٣١، والمفردات: ٣٨٧، واللسان: ٦/ ٣٤٦٥ (فلك)، والتفسير البسيط: ٤٥٥/٣، وتفسير القرطبي: ٢/ ١٧٨.

(٤) تفسير الطبري: ٢٧٣/٣.

(٥) انظر: تفسير القرطبي: ١٩٤/٢.

(٦) تفسير البيضاوي: ١١٦/١.

(٧) تفسير القرطبي: ١٩٤/٢.

(٨) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢١١/٢.

جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} [النحل: ٧٩] ؛ هذه الطيور لا تحمل إلا نفسها، فجعلها الله سبحانه وتعالى آية؛ فكيف بهذه الطائرات! تكون أعظم، وأعظم"[١].

وقرئ {الْفُلُكِ} بضمتين على الأصل، أو الجمع، وضمة الجمع غير ضمة الواحد عند المحققين"[٢].

قوله تعالى: {بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ}[البقرة:١٦٤]، "أي بما فيه مصالح الناس"[٣].

قال مقاتل:" في معايشهم"[٤].

قال الواحدي:" أي: بالذي ينفعهم، من ركوبها، والحمل عليها في التجارات، وينفع الحامل؛ لأنه يربح، والمحمول إليه؛ لأنه ينتفع بما حمل إليه"[٥].

قال القرطبي:أي: " أي بالذي ينفعهم من التجارات وسائر المآرب التي تصلح بها أحوالهم"[٦].

قال ابن عطية:" هي التجارات وسائر المآرب التي يركب لها البحر من غزو وحج، والنعمة بالفلك هي إذا انتفع بها، فلذلك خص ذكر الانتفاع إذ قد تجري بما يضر"[٧].

و(الباء) هنا للمصاحبة - أي مصحوبة بما ينفع الناس من الأرزاق، والبضائع، والأنفس، والذخائر، وغيرها؛ لأن {ما} اسم موصول يفيد العموم؛ فالفلك آية من آيات الله عزّ وجلّ الدالة على كمال قدرته، وكمال رحمته، وتسخيره، كما قال تعالى في أخرى: {وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار} [إبراهيم: ٣٢][٨] .

ومن حكمة الله عزّ وجلّ أنه قدر في الأرض أقواتها - يعني جعل قدْراً هنا، وقدْراً هنا، وقدْراً هنا؛ لأجل أن ينتفع الناس؛ فهناك ناس لا تكثر عندهم البقول، والخضروات، وما أشبه ذلك؛ يأتيهم من أرض أخرى؛ وهناك ناس يكثر عندهم نوع من النخيل لا يوجد في مكان آخر، فينقل إلى المكان الآخر، فيتبادل الناس الأرزاق، وينتفع الناس، ويتحركون - كل فيما قدر له[٩].

قوله تعالى:{وَمَا أَنزلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ}[البقرة:١٦٤]، " أي وما أنزل الله من السحاب من المطر"[١٠].

قال السعدي: "وهو المطر النازل من السحاب[١١].

قال ابن عطية:" يعني به الأمطار التي بها إنعاش العالم وإخراج النبات والأرزاق"[١٢].

قال ابن عثيمين:أي" وفيما أنزل الله سبحانه وتعالى من السماء من ماء؛ والمراد بـ(السماء) هنا العلو؛ لأن المطر ينزل من السحاب المسخر بين السماء، والأرض؛ وليس من السماء نفسها"[١٣].

---

(١)تفسير ابن عثيمين: ٢١١/٢.
(٢) انظر: تفسير البيضاوي: ١١٦/١.
(٣) صفوة التفاسير:٩٨/١.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥٣/١.
(٥) التفسير البسيط: ٤٥٦/٣-٤٥٧.
(٦) تفسير القرطبي: ١٩٦/٢.
(٧) المحرر الوجيز: ٢٣٣/١.
(٨) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢١١/٢.
(٩) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢١١/٢.
(١٠) صفوة التفاسير:٩٨/١.
(١١) تفسير السعدي: ٧٨/١.
(١٢) المحرر الوجيز: ٢٣٣/١.
(١٣) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢١١/٢.

قال أبو هريرة :"ما نزل قطر إلا بميزان"[١].

والمطر الذي أنزله الله من السماء؛ وفيه آيات عظيمة، منها[٢]:

أحدها: كونه ينزل رذاذاً هذا من آيات الله الدالة على رحمته؛ لأنه لو كان ينزل صباً لأهلك العالم.

الثاني: كونه ينزل من السماء لا يجري من الأرض هذا أيضاً من آيات الله؛ لأجل أن ينتفع به سهول الأرض، وجبالها؛ ولو كان يجري من الأرض لغرق الأسفل قبل أن يصل إلى الأعلى.

الثالث: كذلك من آيات الله كونه ينزل لا حاراً، ولا بارداً؛ البردَ ذكره الله تعالى في سياق يدل على أنه نوع من الانتقام، فقال تعالى: {وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار} [النور: ٤٣] ؛ وإن كان الله قد يجعله رحمة؛ لكن الغالب أنه انتقام.

قوله تعالى:{فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}[القرة:١٦٤]، "أي أحيا بهذا الماء الزروع والأشجار، بعد أن كانت يابسة مجدبة ليس فيها حبوب ولا ثمار"[٣].

قال مقاتل: {فأحيا به}، يعنى: بالماء، {الأرض بعد موتها}، يبسها"[٤].

قال السعدي: "أي: فأظهرت من أنواع الأقوات، وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق، التي لا يعيشون بدونها"[٥].

قال قتادة:" كما أحيا الله الأرض الميتة بهذا الماء، كذلك [يحيي] الله عز وجل الناس يوم القيامة"[٦].

قال الواحدي:" أراد بموت الأرض: جدوبتها ويبوستها، فسماها موتا مجازا، وذلك أن الأرض إذا لم يصبها مطر لم تنبت، ولم تنم نباتا، وكانت من هذا الوجه كالميت، وإذا أصابها المطر أنبتت، ونحو هذا قوله: {وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت} [الحج: ٥]، فلما وصفت بالاهتزاز وهو الحركة عند نزول الماء، توصف عند إمساك الماء بالسكون، والعرب تسمي السكون موتا، قال الشاعر[٧]:

إني لأرجو أن تموت الريح ... فأسكن اليوم وأستريح

فيجوز أن يراد بالموت في هذه الآية: ضد الاهتزاز الذي وصفت به عند نزول الماء، ولما سمى ذلك موتا سمى إزالتها إحياء ليتجانس اللفظ "[٨].

قال الشيخ ابن عثيمين:" وفي إحياء النبات آيات كثيرة: آيات دالة على الرحمة؛ وآيات دالة على الحكمة؛ وآيات دالة على القدرة"[٩]:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٦٨):ص٢٧٤/١.
(٢) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢١٢/٢.
(٣) صفوة التفاسير: ٩٨/١.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥٣/١-١٥٤.
(٥) تفسير السعدي: ٧٨/١.
(٦) اخرجه ابن أبي حاتم(١٤٧٢):ص٢٧٤/١.
(٧)البيت في "اللسان" ٧/ ٤٢٩٥ (موت)، بغير نسبة. وينظر: "شأن الدعاء" ص ١١٦، "الحجة للقراء السبعة" ٢/ ٣٨١.
(٨) التفسير البسيط: ٤٥٧/٣، وانظر: مفاتيح الغيب: ١٩٨/٤-١٩٩.
(٩) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢١٣/٢.

الأول: آيات دالة على الرحمة: لما في هذا الإحياء من المنافع العظيمة؛ لقوله تعالى: {أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم} [النازعات: ٣١، ٣٣] ، وقوله تعالى: {فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً...} [عبس: ٢٤] إلى قوله تعالى: {متاعاً لكم ولأنعامكم} ؛ فكم من نعم كثيرة في هذه الزروع التي أحياها الله سبحانه وتعالى بالمطر لنا، ولأنعامنا قوتاً، ودواءً، وغير ذلك.

والثاني: وآيات دالة على الحكمة: وهو أن حياة الأرض جاءت بسبب - وهو الماء الذي نزل؛ فمنه نأخذ أن الله - جل وعلا - يخلق بحكمة، ويقدّر بحكمة؛ الله - جل وعلا - قادر على أن يقول للأرض: «أنبتي الزرع» فتنبت بدون ماء؛ لكن كل شيء مقرون بسبب؛ فكونه جلا وعلا ربط إحياء الأرض بنزول الماء يدل على الحكمة، وأن كل شيء له نظام خاص لا يتعداه منذ خُلق إلى أن يأذن الله تعالى بخراب العالم.

الثالث: وآيات دالة على القدرة: وهي أنك ترى الأرض خاشعة هامدة سوداء شهباء ما فيها شيء؛ فإذا أنزل الله عليها المطر؛ تأتي إليها بعد نحو شهر تجدها تهتز أزهاراً، وأوراقاً، وأشجاراً: قال تعالى: {فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير} [فصلت: ٣٩] ؛ وهذه قدرة عظيمة؛ واللَّهِ! لو أن البشر من أولهم إلى آخرهم اجتمعوا على أن يخرجوا ورقة واحدة من حبة لما استطاعوا؛ وحبة تنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة؛ أليس هذا دليلاً على القدرة العظيمة!!![١].

قوله تعالى:{وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ}[البقرة:١٦٤]، " أي: نشر في الأرض من الدواب المتنوعة"[٢].

قال الصابوني:" أي: نشر وفرّق في الأرض من كل ما يدب عليها من أنواع الدواب، المختلفة في أحجامها وأشكالها وألوانها وأصواتها"[٣].

قال ابن كثير: أي: نشر من الدواب المتنوعة، "على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها ، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك ، كما قال تعالى : {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود : ٦]"[٤].

قال السعدي: "وهو دليل على قدرته وعظمته، ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع، فمنها: ما يأكلون من لحمه، ويشربون من دره، ومنها: ما يركبون، ومنها: ما هو ساع في مصالحهم وحراستهم، ومنها: ما يعتبر به، ومع أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم، المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها"[٥].

وفي تفسير (البث) في قوله تعالى:{وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ}[البقرة:١٦٤]، وجوها:

أحدها:معناه: خلق. قاله السدي[٦]، وروي عن مقاتل بن حيان[٧]، مثل ذلك.

---

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢١٣/٢.
(٢) تفسير السعدي: ٧٨.[بتصرف بسيط].
(٣) صفوة التفاسير:٩٨/١.
(٤) تفسير ابن كثير: ٤٧٥/١.
(٥) تفسير السعدي: ٧٨/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٧٣):ص٢٧٥/١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٧٥/١.

الثاني: أنه يعني: بسط. قاله مقاتل بن سليمان [1].
الثالث: معناه: فرق وبسط. قاله ابن عطية[2].
وجميع المعاني متقاربة، والله أعلم.

قال الواحدي:" البث: النشر والتفريق، ومنه قوله تعالى: {وبث منهما رجالا كثيرا ونساء} [النساء: ١]، ومنه: {كالفراش المبثوث} [القارعة: ٤]، ويقال: بثثته سري أبثثته، إذا أطلعته عليه؛ لأنك فرقت بين سرك وبينك، ويقال للحزن: بث؛ لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يظهره"[3].

قال الشيخ ابن عثيمين: "وأتى بـ(كل) لإفادة العموم الشامل لجميع الأجناس، والأنواع، والأفراد؛ ففي الأرض دواب لا يَعلم بأنواعها، ولا أجناسها - فضلاً عن أفرادها - إلا الذي خلقها سبحانه وتعالى يعلم هذه الأجناس، وأنواعها، وأفرادها، وأحوالها، وكل ما يصلحها؛ ففيها من آيات الله الدالة على كمال قدرته، ورحمته، وعلمه، وحكمته ما يبهر العقول؛ تجد هذه الدواب المختلفة المتنوعة، والحشرات الصغيرة كيف هداها الله لما خلقت له؛ قال تعالى: {أعطى كل شيء خلقه ثم هدى} [طه: ٥٠] حتى إنك لترى الماء يدخل في جحر النمل، فترى النملة تخرج من هذا الجحر حاملة أولادها! ماذا ترجو من هذه الأولاد؟! لكن رحمة أرحم الراحمين أن جعل في قلب هذه النملة رحمة لتحمل أولادها عن الغرق؛ كذلك أيضاً السباع الضارية التي تأكل ما دون أولادها من الحيوان: تجدها تحنو على ولدها، وتربيه؛ حتى إذا استقل بنفسه صار عدواً لها، أو صارت عدوة له؛ فالهرة تربي أولادها؛ فإذا استغنوا عنها طردتهم، وصارت عدوة لأولادها؛ فهذا من آيات الله عزّ وجلّ؛ ترى بعض الدواب تدب على الأرض؛ ولكن لا تكاد تدرك جسمها صغراً فضلاً عن أعضائها، وعما في جوفها؛ ومع ذلك فهي عايشة، وتعرف مصالحها، وتعرف جحرها تأوي إليه؛ فهذه من آيات الله عزّ وجلّ؛ ومن درس في علم الأحياء وجد من هذا ما يبهر العقول؛ فما بث الله سبحانه وتعالى في الأرض من الدواب من أجناسها، وأنواعها، وأفرادها فيه من آيات الله ما لا يحصى؛ لأن في كل شيء منه آية؛ وهو لا يحصى أنواعاً، أو أجناساً فضلاً عن أفرادٍ؛ وهذه الدواب تنقسم باعتبار مصالح الخلق إلى ثلاثة أقسام:
الأول: ما فيه مصلحة خالصة، أو راجحة.
الثاني: ما فيه مضرة خالصة، أو راجحة؛ لكن مضرتها لها حِكَم كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.
الثالث: ما لا مضرة فيه، ولا مصلحة؛ ولكن فيه دلالة على كمال الله سبحانه وتعالى"[4].

والآية فيها مع ظهور القدرة على إنشاء {الدابة} من ثلاثة أوجه [5]:
أحدها : تباين خلقها .
والثاني : اختلاف معانيها .
والثالث : إلهامها وجوه مصالحها .

واختلف في تفسير{ دَابَّةٍ}[البقرة:١٦٤]، على قولين:
أحدهما: أنها تجمع الحيوان كله. وهذا قول الأكثرين[6].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥٤/١.
(٢) المحرر الوجيز: ٢٣٣/١.
(٣) البتفسير البسيط: ٤٥٨/٣، وانظر: المفردات:٤٧، واللسان: ١/ ٢٠٨: (بثث).
(٤) تفسير ابن عثيمين:٢١٤/٢-٢١٥.
(٥) انظر: النكت والعيون:٢١٧/١.
(٦) انظر: النكت والعيون: ٢١٧/١، والمحرر الوجيز: ٢٣٣/١، وتفسير القرطبي: ١٩٧/٢.

قال الماوردي:" يعني جميع الحيوان الذي أنشأه فيها ، سماه {دابة} لدبيبه عليها"[١].

الثاني: أن الدابة اسم لكل ذي روح كان، غير طائر بجناحيه لدبيبه على الأرض، وهو قول الطبري[٢]، وظاهر كلام الرازي[٣].

وقد رد القول الثاني جماعة من أهل العلم كابن عطية[٤] ، وأبي حيان[٥]، والقرطبي[٦].

قال القرطبي: "وقد أخرج بعض الناس الطير، وهو مردود قال الله تعالى : {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [هود : ٦] فإن الطير يدب على رجليه في بعض حالاته"[٧] ، ومنه قول الأعشى[٨]:

نياف كغض البان ترتجّ إنْ مشتْ ... دبيب قطا البطحاء في كل منهل

وقال علقمة بن عبدة[٩] :

فكأنما صَابَتْ عليه سحابة ... صواعقها لطيرهن دبيب

وقال الحافظ ابن حجر: " الدابة: ما دبّ من الحيوان"[١٠]، واستثنى بعضهم[١١] الطير لقوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [الأنعام: ٣٨]، ولقوله تعالى: {مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا} [هود: ٥٦]، وعرفاً: ذوات الأربع[١٢]، وقيل: يختص بالفرس[١٣]، وقيل: بالحمار[١٤]، والمراد هنا المعنى اللغوي"[١٥]، أي: كل ما دب على الأرض من كائن له روح ليفيد العموم.

قوله تعالى:{وتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ}[البقرة:١٦٤]، "أي وتوجيه الرياح وتصريفها بحسب الإرادة ووفق النظام على السنن الحكيمة"[١٦].

قال ابن عثيمين:"أي: تنويعها في اتجاهها، وشدتها، ومنافعها"[١].

---

(١) النكت والعيون:٢١٧/١.
(٢)تفسير الطبري: ٢٧٥/٣.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ٢٢٢/١٢.
(٤) انظر: المحرر الوجيز: ٣٥/٢.
(٥)البحر المحيط: ٤٥٥/١
(٦) انظر: تفسير القرطبي: ١٩٧/٢.
(٧) تفسير القرطبي: ١٩٧/٢.
(٨) ديوانه: ١٦١ ، والبحر المحيط: ٦٢٩/١، والدر المصون: ٤٢٤/١.
(٩) المفضليات: ٣٩٥، واللسان (صوب). والبيت في مفضليته التي مطلعها:
طحا بك قلب في الحسان طروب ... بعيد الشباب عصر حان مشيب
(١٠) انظر: لسان العرب لابن منظور: ١٣١٤/٢، معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥٠/٤، المفردات للراغب: ١٦٤، الوسيط للواحدي: ٢٤٧/١، النكت والعيون للماوردي: ٢١٧/١، المحرر الوجيز لابن عطية: ٣٥/٢، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٩٦/٢-١٩٧، البحر المحيط لأبي حيان: ٤٥٥/١، تاج العروس للزبيدي: ٤٧٨/١، الدر المصون للسمين: ٥٢/٣.
(١١) ويقصد به الإمام الطبري:٢٧٥/٣، و ظاهر كلام الرازي في مفاتيح الغيب: ٢٢٢/١٢.
(١٢) لم أهتد إلى من ذكر هذا العرف مع البحث، والذي في لسان العرب: ١٣١٤/٢: (والدابة: التي تركب، قال: وقد غلب هذا الاسم على ما يركب من الدواب)، وما يركب أخص من ذوات الأربع، وانظر: الصحاح للجوهري: ١٢٤/١، وتاج العروس للزبيدي: ٤٧٨/١، عمدة القاري للعيني: ١٧٨/١٠.
(١٣) قاله: الراغب في المفردات: ١٦٤.
(١٤) لم أهتدِ إلى من ذكره.
(١٥) الفتح: ٤٠٠/٦.
(١٦) تفسير المراغي: ٣٧/٢.

قال مقاتل:أي:" في العذاب والرحمة"[٢].

قال ابن كثير:"تارة تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب ، تارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب ، وتارة تسوقه ، وتارة تجمعه ، وتارة تفرقه ، وتارة تصرفه"[٣].

عن أبي بن كعب، قال: "كل شيء في القرآن من الرياح فهي رحمة، وكل شيء في القرآن من الريح فهو عذاب"[٤].

و(الرِّيَاحِ) جمع ريح؛ وهي الهواء؛ وفي قراءة: {الريح} بالإفراد[٥]؛ والمراد به الجنس؛ والتصريف يشمل تصريفها من حيث الاتجاه؛ تصريفها من حيث الشدة، وعدمها؛ تصريفها من حيث المنافع، وعدمها؛ فمن حيث الاتجاه جعلها الله سبحانه وتعالى متجهة جنوباً، وشمالاً، وغرباً، وشرقاً؛ وهذه هي أصول الجهات؛ وهناك جهات أخرى تكون بينها؛ وتسمى النكبة؛ لأنها ليست في الاستقامة في الشرق، أو الغرب، أو الشمال، أو الجنوب؛ فهي نكباء - ناكبة عن الاتجاه الأصلي[٦].

قال ابن الأنباري: "إنما سميت الريح ريحا؛ لأن الغالب عليها في هبوبها المجيء بالروح والراحة، وانقطاع هبوبها يكسب الكرب والغم، فهي مأخوذة من الروح. وأصلها: روح، فصارت الواو ياء؛ لسكونها وانكسار ما قبلها، كما فعلوا في الميزان والميعاد والعيد، والدليل على أن أصلها الواو: قولهم في الجمع: أرواح. قال زهير[٧]:

قف بالديار التي لم يعفها القدم بلى وغيرها الأرواح والديم

ويقال: رحت الريح أراحها، وأرحتها أريحها: إذا وجدتها، ومنه الحديث: "من استرعي رعية فلم يحطهم بنصيحة، لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة مائة عام"[٨]"[٩].

وفي قوله تعالى:{وَتَصْرِيفَ الرِّيَاحِ}[البقرة:١٦٤]،ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها : تصريفها بإرسالها حيث يشاء. حكاه الماوردي[١٠].

الثاني : ينقل الشمال جنوباً والجنوب شمالاً ، قاله الحسن[١١]، والفراء[١٢].

الثالث : أن يجعلها تارة رحمة وتارة نقمة ؛ قاله قتادة[١٣]، ومقاتل[١٤].

---

(١) تفسير ابن عثيمين:٢١٥/٢.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥٤/١.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤٧٥/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٧٥):٢٧٥/١.

(٥) انظر: السبعة في القراءات: ١٧٢-١٧٣، وتفسير القرطبي: ١٩٨/٢-١٩٩.

(٦) تفسير ابن عثيمين: ٩٥/٢.

(٧)"ديوانه" ص ١٤٥، "لسان العرب" ٨/ ٤٩٤٢.

(٨)الحديث أصله في الصحيحين، رواه البخاري (٧١٥٠، ٧١٥١) كتاب الأحكام، باب: من استرعى رعية فلم ينصح، ومسلم (١٤٢) في الإيمان، باب: استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، وليس في ألفاظهما: "لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة مائة عام"، ولفظ (لم يرح) في حديث عبد الله بن عمرو مرفوعا: "من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما" رواه البخاري (٣١٦٦) كتاب الجزية، باب: إثم من قتل معاهدا بغير جرم، (٦٩١٤) كتاب: الديات، باب: إثم من قتل ذميا بغير جرم.

(٩) التفسير البسيط: ٤٥٩/٣.

(١٠) انظر: النتكت والعيون: ٢٦١/٥.

(١١) انظر: التنكت والعيون: ٢٦١/٥.

(١٢) انظر: معاني القرآن: ٩٧/١.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٤٠٥):ص٢٧٥/٣.

(١٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥٤/١.

واختلفت القراءة في قوله تعالى:{وَتَصْرِيفَ الرِّيَاحِ}[البقرة:١٦٤]، على وجهين[١]:

أحدهما: قرأ حمزة والكسائي:{الريح} على الإفراد، وكذا في: (الأعراف والكهف وإبراهيم والنمل والروم وفاطر والشورى والجاثية)، لا خلاف بينهما في ذلك، ووافقهما ابن كثير في: (الأعراف والنمل والروم وفاطر والشورى)، وأفرد حمزة {الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} [الحجر : ٢٢]. وأفرد ابن كثير {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ} [الفرقان : ٤٨].

الثاني: وقرأ الباقون{الرِّيَاح}، بالجمع في جميعها سوى الذي في :(إبراهيم والشورى) فلم يقرأهما بالجمع سوى نافع ، ولم يختلف السبعة فيما سوى هذه المواضع.

قال ابن عثيمين:"وفي تصريف هذه الرياح آيات: لو بقيت الريح في اتجاه واحد لأضرت بالعالم؛ لكنها تتقابل، فيكسر بعضها حدةَ بعض، ويذهب بعضها بما جاء به البعض الآخر من الأذى، والجراثيم، وغيرها؛ كذلك أيضاً في تصريفها آيات بالنسبة للسحاب فبعضها يجمع السحاب؛ وبعضها يفرقه؛ وبعضها يلقحه؛ وبعضه يدره، فيمطر، كما قال تعالى: {الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء} [الروم: ٤٨] ، وقال تعالى: {وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين} [الحجر: ٢٢] ؛ قال المفسرون: تلقح في السحاب؛ وفي تصريف الرياح أيضاً آيات للسفن الشراعية؛ وفيه أيضاً آيات في إهلاك الناس، وإنجاء آخرين: أهلك الله به عاداً، وطرد به الأحزاب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ وأنجى الله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بهذه الريح من شر الأحزاب؛ ومن تدبر هذا عرف ما فيها من قدرة الله، ورحمته، وعزته، وحكمته؛ لو أن جميع مكائن الدنيا كلها اجتمعت، وصارت على أقوى ما يكون من نَفْث هواء لا يمكن أن تحرك ساكناً إلا فيما حولها فقط؛ لكن أن تصل من أقصى الشمال إلى الجنوب، أو بالعكس فلا؛ والله - جل وعلا - يقول للشيء إذا أراده: {كن فيكون} [البقرة: ١١٧] ؛ فتجد الرياح شديدة شمالية؛ وفي لحظة تنعكس، وتكون جنوبية شديدة؛ هذه تمام القدرة العظيمة، حيث يدبر الله هذه الرياح بأمر لا يستطيعه البشر؛ ولهذا صار تصريف الرياح آية من آيات الله العظيمة الدالة على قدرته؛ ثم إن في تصريفها أيضاً مصالح للسفن الجوية؛ لأن لها تأثيراً على الطائرات - كما يقولون؛ وكذلك بالنسبة للسيارات لها تأثير"[٢].

قوله تعالى:{وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ}[البقرة:١٦٤]، "أي: وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض"[٣].

قال ابن كثير: أي: "سائر بين السماء والأرض يُسَخَّر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن ، كما يصرفه تعالى"[٤].

قال المراغي:" أي: الغيم الذي ذلل وسحب فى الجواء لإنزال الأمطار في مختلف البلاد"[٥].

قال الواحدي:" سمي «السحاب» لانسحابه في الهواء، ومعنى «التسخير»: التذليل، {والسحاب المسخر}: المطيعة لله تعالى"[١].

---

(١) انظر: السبعة في القراءات: ١٧٢-١٧٣، وتفسير القرطبي: ١٩٨/٢-١٩٩.
(٢) تفسير ابن عثيمين: ٢١٦/٢-٢١٧.
(٣) تفسير ابن عثيمين:٢١٧/٢.
(٤) تفسير ابن كثير: ٤٧٥/١.
(٥) تفسير المراغي:٣٧/٢.

قال ابن عثيمين:" و{وَالسَّحَابِ} هو هذا الغمام، والمزن؛ وسمي سحاباً؛ لأنه ينسحب انسحاباً في الجو بإذن الله؛ و{الْمُسَخَّرِ}، أي: المذلل بأمر الله لمصالح الخلق؛ ومن الآيات فيه أنه دال على: القدرة(٢)، والرحمة(٣)، والحكمة(٤).

والمراد بـ{السماء}:"السقف المرفوع؛ و{الأرض}: أرضنا هذه؛ وهذه البينية لا تقتضي الملاصقة، ولا المماسة - كما هو ظاهر؛ وبهذا يعرف الرد على الذين أنكروا قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»(١)، وقالوا: «لو كان هذا حقيقة للزم أن تكون أصابع الرحمن داخل أجوافنا؛ وهذا مستحيل؛ فيكون ظاهر الخبر مستحيلاً، ويصرف إلى معنى أن الله يقلب القلوب دون أن تكون بين أصابعه»؛ ولا شك أن هذا تحريف للكلم عن مواضعه؛ وقد تبين بهذه الآية الكريمة أن البينية لا تستلزم الملاصقة، والمماسة؛ وعليه فلا يكون من لازم كون القلوب بين أصابع الرحمن أن تكون أصابعه داخل أجوافنا؛ ويقال أيضاً: بدر بين مكة والمدينة - هذا في المكان، وبينهما مسافة واضحة"(٥).

وفي قوله تعالى:{وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ}[البقرة:١٦٤]، ثلاثة أوجه(٦) :

:

أحدها : ابتداء نشوئه وانتهاء تلاشيه .

والثاني : ثبوته بين السماء والأرض من غير عَمَد ولا علائق .

والثالث : تسخيره وإرساله إلى حيث يشاء الله عز وجل .

قوله تعالى:{لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[البقرة:١٦٤]، "أي في كل هذه الظواهر عبر ومواعظ لمن يعقل ويتدبر وينظر في الأسباب"(٧).

قال أبو الضحى:" يقول: في هذه الآيات لقوم يعقلون"(٨).

قال ابن كثير:"أي : في هذه الأشياء، دلالات بينة على وحدانية الله تعالى"(٩).

---

(١) التفسير البسيط: ٤٦٦/٣، وانظر: المفردات" ٢٣٣، "التفسير الكبير" ٤/ ٢٠٢، "اللسان" ٤/ ١٩٦٣ (سخر).

(٢) قال:" أما دلالته على القدرة: فلأنه لا يستطيع أحد أن يفرقه إلا الله؛ ولا يستطيع أحد أن يوجهه إلى أي جهة إلا الله؛ ثم من يستطيع أن يجعل هذا السحاب أحياناً متراكماً حتى يكون مثل الجبال السود يوحش من يراه؛ وأحياناً يكون خفيفاً؛ وأحياناً يكون سريعاً؛ وأحياناً يكون بطيئاً؛ وأحياناً لا يتحرك؛ لأنه يسير بأمر الله".[تفسير ابن عثيمين:٢١٧/٢].

(٣)قال:"وأما دلالته على الحكمة: فلأنه يأتي من فوق الرؤوس حتى يكون شاملاً لما ارتفع من الأرض، وما انهبط منها؛ ويأتي قطرات حتى لا ينهدم البنيان، ولا تشقق الأرض".[تفسير ابن عثيمين:٢١٧/٢].

(٤) قال :"وأما دلالته على الرحمة: فلما يحصل من آثاره من نبات الأرض المختلف الذي يعيش عليه الإنسان، والبهائم".[تفسير ابن عثيمين:٢١٧/٢].

(١) أخرجه مسلم ص١١٤٠، كتاب القدر، باب ٣٣: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، حديث رقم ٦٧٥٠ [١٧] ٢٦٥٤.

(٥) تفسير ابن عثيمين:٢١٨/٢.

(٦) انظر: النكت والعيون:٢١٨/١.

(٧) تفسير المراغي:٣٧/٢.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٧٧):ص٢٧٥/١.

(٩) تفسير ابن كثير: ٤٧٥/١.

قال الصابوني:" أي لدلائل وبراهين عظيمة دالة على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، والرحمة الواسعة لقوم لهم عقول تعي وأبصار تدرك، وتتدبر بأن هذه الأمور من صنع إله قادر حكيم"(١).

قال القرطبي: " أي: دلالات تدل على وحدانيته وقدرته، ولذلك ذكر هذه الأمور عقيب قوله : {وإِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ} ليدل على صدق الخبر عما ذكره قبلها من وحدانيته سبحانه ، وذكر رحمته ورأفته بخلقه. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها" أي لم يتفكر فيها ولم يعتبرها""(٢).

و{آيات}: "جمع آية؛ وهي العلامة المعيِّنة لمعلومها؛ وصارت تلك آيات؛ لأنها دالة على كمال علم الله، وقدرته، ورحمته، وحكمته، وسلطانه، وغير ذلك من مقتضى ربوبيته"(٣).

قال ابن عطية:" فهذه آيات أن الصانع موجود. والدليل العقلي يقوم أن الصانع للعالم لا يمكن أن يكون إلا واحدا لجواز اختلاف الاثنين فصاعدا"(٤).

قال ابن عثيمين:" فالإنسان العاقل حقاً إذا تأمل هذه الأشياء وجد أن فيها آيات تدل على خالقها - جل وعلا -، وموجدها، وعلى ما تضمنته من صفات كماله؛ أما الإنسان المعرض - وإن كان ذكاؤه قوياً - فإنه لا ينتفع بها - ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى الكفار بأنهم لا يعقلون مع أنهم في العقل الإدراكي - يدركون به ما ينفعهم، وما يضرهم - عقلاء؛ لكن نفاه الله عنهم لعدم انتفاعهم به، وعدم عقلهم الرشدي الذي يرشدهم إلى ما فيه مصلحتهم"(٥).

قال الماوردي:" وهذه الآية قد جمعت من آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ما صار لذوي العقول مرشداً وإلى الحق قائداً . فلم يقتصر الله بنا على مجرد الإخبار حتى قرنه بالنظر والاعتبار "(٦).

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: عظم خلق السموات، والأرض؛ لقوله تعالى: {لآيات}؛ فلولا أنه عظيم ما كان آيات.

٢ - ومنها: أن السموات متعددة؛ لقوله تعالى: {إن في خلق السموات}.

٣ - ومنها: أن السموات مخلوقة؛ فهي إذاً كانت معدومة من قبل؛ فليست أزلية.

ويتفرع على هذه الفائدة الرد على الفلاسفة الذين يقولون بقدم الأفلاك - يعنون أنها غير مخلوقة، وأنها أزلية أبدية؛ ولهذا أنكروا انشقاق القمر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إن الأفلاك العلوية لا تقبل التغيير، ولا العدم؛ وفسروا قوله تعالى: {اقتربت الساعة وانشق القمر} [القمر: ١] بأن المراد ظهور العلم، والنور برسالة النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولا شك أن هذا تحريف باطل مخالف للأحاديث المتواترة الصحيحة في انشقاق القمر انشقاقاً حسياً.

٤ - ومن فوائد الآية: أنه ينبغي للإنسان أن يتأمل في هذه السموات والأرض ليصل إلى الآيات التي فيها؛ فيكون من الموقنين.

---

(١) صفوة التفاسير:٩٩/١.
(٢) تفسير القرطبي: ٢٠١/٢.
(٣) تفسير ابن عثيمين:٢١٨/٢.
(٤) المحرر الوجيز: ٢٣٤/١.
(٥) تفسير ابن عثيمين:٢١٨/٢-٢١٩.
(٦) النكت والعيون:٢١٨/١.

٥ - ومنها: أن الآيات في خلق السموات، والأرض متنوعة بحسب ما تدل عليه من القدرة، والحكمة، والرحمة، وما إلى ذلك.
٦ - ومنها: ما في اختلاف الليل، والنهار من الآيات، والعبر التي سبق بيان شيء منها؛ لقوله تعالى: {واختلاف الليل والنهار}.
٧ - ومنها: أن اختلاف الليل، والنهار من رحمة الله، وحكمته.
٨ - ومنها: ما في الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس من آيات الله، ونعمه؛ وسبق تفصيل ذلك، وقال القرطبي: " هذه الآية وما كان مثلها دليل على جواز ركوب البحر مطلقا لتجارة كان أو عبادة ، كالحج والجهاد"(١).
٩ - ومنها: ما تضمنه إنزال المطر من السماء؛ ففيه آيات عظيمة سبقت الإشارة إليها.
١٠ - ومنها: ما تضمنه قوله تعالى: {فأحيا به الأرض بعد موتها} من الآيات؛ وسبق الكلام عليها؛ وهي آيات عظيمة دالة على كمال القدرة، والرحمة، والعظمة، وعلى إحياء الله سبحانه وتعالى الموتى.
١١ - ومنها: ما تضمنه قوله تعالى: {وبث فيها من كل دابة} من الآيات التي سبق بيان شيء منها.
١٢ - ومنها: ما في تصريف الرياح من الآيات التي سبق ذكر شيء منها.
١٣ - ومنها: ما في السحاب المسخر بين السماء، والأرض من الآيات العظيمة؛ وسبق ذكر شيء منها.
١٤ - ومنها: مدح العقل، وأنه به يستظهر الإنسان الآيات التي تزيده إيماناً، ويقيناً؛ لقوله تعالى: {لقوم يعقلون
١٥ - ومنها: أن الناس ينقسمون في هذه الآيات إلى قسمين: قسم يعقل ما فيها من الآيات، ويستدل به على ما لله سبحانه وتعالى فيها من كمال الصفات؛ وقسم لا يعقلون ذلك، وقد وصفهم الله تعالى بقوله: {إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلًا} [الفرقان: ٤٤] .

القرآن

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)} [البقرة : ١٦٥]

التفسير:

ومع هذه البراهين القاطعة يتخذ فريق من الناس من دون الله أصنامًا وأوثانًا وأولياء يجعلونهم نظراء لله تعالى، ويعطونهم من المحبة والتعظيم والطاعة، ما لا يليق إلا بالله وحده. والمؤمنون أعظم حبا لله من حب هؤلاء الكفار لله ولآلهتهم؛ لأن المؤمنين أخلصوا المحبة كلها لله، وأولئك أشركوا في المحبة. ولو يعلم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك في الحياة الدنيا، حين يشاهدون عذاب الآخرة، أن الله هو المتفرد بالقوة جميعًا، وأن الله شديد العذاب، لما اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم من دونه، ويتقربون بهم إليه.

قوله تعالى{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا}[البقرة:١٦٥]، أي: ومن الناس من يتخذ من غير الله رؤساء وأصناماً"(١).

---

(١) تفسير القرطبي :١٩٥/٢.

قال مقاتل:" يعني: مشركي العرب"[٢].
قال ابن حجر: "قال مقاتل: نزلت في مشركي العرب"[٣].
قال البغوي: أي: "أصناما يعبدونها"[٤].
قال ابن كثير:" أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه ، وهو الله لا إله إلا هو ، ولا ضد له ولا ندَّ له ، ولا شريك معه"[٥].
قال المراغي:" أي ومن الناس من يتخذ من دون ذلك الإله الواحد الذي ذكرت أوصافه الجليلة أندادا وأمثالا وهم رؤساؤهم الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون"[٦].
وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : "أن تجعل لله ندًا وهو خلقك"[٧].
وقوله {أَنْدَادًا} جمع ندّ؛ وهو الشبيه النظير؛ لأنه من: نادّه ينادّه إذا كان نظيراً له مكافئاً له[٨].
واختلف أهل التأويل في (الأنداد) التي كان القوم اتخذوها، على أقوال[٩]:
أحدها: أنها: آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله. وهذا قول قتادة[١٠]، ومجاهد[١١]، والربيع[١٢]، وابن زيد[١٣]، وأبي العالية[١٤].
فكانوا يعبدونهم "لتقربهم إلى الله زلفى، ورجوا من عندها النفع والضر، وقصدوها بالمسائل، ونذروا لها النذور، وقربوا لها القرابين، وهو قول أكثر المفسرين، وعلى هذا الأصنام أنداد بعضها لبعض، أي أمثال ليس إنها أندادا لله، أو المعنى: إنها أنداد لله تعالى بحسب ظنونهم الفاسدة"[١٥].
الثاني: أنهم: سادتهم الذين كانوا يطيعونهم في معصية الله تعالى. قاله السدي[١٦]، وابن عباس[١٧].
فيحلون لمكان طاعتهم ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله[١٨].

---

(١) صفوة التفاسير:٩٩/١.[بتصرف بسيط].
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٤/١.
(٣) العجاب: ٤١٦/١، ولم يقل مقاتل هذا وإنما قال: "{وَمِنَ النَّاس} يعني مشركي العرب". انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٤/١.
(٤) تفسير البغوي: ١٧٨/١.
(٥) تفسير ابن كثير:٤٧٦/١.
(٦) تفسير المراغي: ٣٨/٢.
(٧)صحيح البخاري برقم (٤٤٧٧) وصحيح مسلم برقم (٦٨).
(٨) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٩٧/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري: ٢٧٩/٣-٢٨٠.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٤٠٦):ص٢٧٩/٣.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٤٠٧)، و(٢٤٠٨):ص٢٧٩/٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٤٠٩):ص٢٨٠/٣.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٤١٠):ص٢٨٠/٣.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٤٧٨):ص٢٧٦/١.
(١٥) مفاتيح الغيب: ١٧٤/٤.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٢٤١١):ص٢٨٠/٣، وابن أبي حاتم(١٤٨١):ص٢٧٦/١.
(١٧) انظر: تفسير القرطبي: ٢٠٣/٢.
(١٨) انظر: مفاتيح الغيب: ١٧٤/٤.

والقائلون بهذا القول رجحوا هذا القول على الأول من وجوه[١]:
الأول: أن قوله: {يحبونهم كحب الله} الهاء والميم فيه ضمير العقلاء.
الثاني: أنه يبعد أنهم كانوا يحبون الأصنام كمحبتهم الله تعالى مع علمهم بأنها لا تضر ولا تنفع.
الثالث: أن الله تعالى ذكره بعد هذه الآية: {إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا} [البقرة: ١٦٦]، وذلك لا يليق إلا بمن اتخذ الرجال أنداد وأمثالا لله تعالى، يلتزمون من تعظيمهم والانقياد لهم، ما يلتزمه المؤمنون من الإنقياد لله تعالى.
الثالث: وقيل: "أن كل شيء شغلت قلبك به سوى الله تعالى، فقد جعلته في قلبك ندا لله تعالى وهو المراد من قوله: {أفرأيت من اتخذ إلاهه هواه} (الفرقان: ٤٣)"[٢].
وأجاز البيضاوي القول الأخير، فقال البيضاوي:" ولعل المراد أعم منهما وهو ما يشغله عن الله"[٣].
قلت: وهذا القول الأخير ولو أن معناه صحيح، لكنه بعيد عن سياق الآية إذ أنها تتحدث عن الكفار وشركهم بالله. والله أعلم.
والقول الأول أصح؛ " أي فهم يحبون هذه الأصنام، ويعتقدون أنها تنفع، وتضر؛ ولا فرق في ذلك بين من يتخذ محبوباً إلى الله عز وجل، أو غير محبوب إليه؛ فمن اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم نداً لله في المحبة، والتعظيم، كمن اتخذ صنماً من شجر، أو حجر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الصنم كلاهما لا يستحق أن يكون نداً لله عز وجل؛ ولهذا لما نزلت: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون} [الأنبياء: ٩٨] ، وكان ظاهر الآية يشمل الأنبياء الذين عُبدوا من دون الله، استثناهم الله سبحانه وتعالى في قوله: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} [الأنبياء: ١٠١] - ولو عُبدوا من دون الله -؛ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل قال له: «ما شاء الله وشئت»: «أجعلتني لله نداً!!! بل ما شاء الله وحده»[١]؛ فأنكر عليه أن يجعله نداً لله"[٤].
قوله تعالى: {يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ}[البقرة:١٦٥]،" أي:" يحبونهم كحب اللّه ويسوّون بينه تعالى وبينهم في الطاعة والتعظيم"[٥].
قال أبو العالية:" يقول: يحبون تلك الأوثان كحب الله، أي: كحب الذين آمنوا ربهم"[٦].
وروي عن قتادة، والربيع، نحو ذلك[٧].
قال الصابوني:أي: "يعظمونهم ويخضعون لهم كحب المؤمنين لله"[٨].
قال الزجاج:" أي: يسوون بين هذه الأوثان وبين الله - عز وجل - في المحبة"[٩].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ١٧٤/٤.
(٢) مفاتيح الغيب: ١٧٤/٤.
(٣) تفسير البيضاوي: ١١٧/١.
(١) سبق تخريجه ٢١٧/١.
(٤) تفسير ابن عثيمين: ٩٧/٢.
(٥) تفسير المراغي: ٣٨/٢.
(٦)أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٨٢):ص٢٧٦/١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٧٦/١.
(٨) صفوة التفاسير:٩٩/١.
(٩) معاني القرآن: ٢٣٧/١.

قال المراغي:أي" ويتقربون إليهم كما يتقربون إليه ، إذ هم لا يرجون من اللّه شيئا إلا وقد جعلوا لأندادهم ضربا من التوسط الغيبى فيه ، فهم مشركون بهذا الحب الذي لا يصدر من مؤمن موحّد"(١).

قال البيضاوي:" أي يسوون بينه وبينهم في المحبة والطاعة، والمحبة: ميل القلب من الحب، استعير لحبة القلب، ثم اشتق منه الحب لأنه أصابها ورسخ فيها، ومحبة العبد لله تعالى إرادة طاعته والإعتناء بتحصيل مراضيه، ومحبة الله للعبد إرادة إكرامه واستعماله في الطاعة، وصونه عن المعاصي"(٢).

وفي قوله: {كحب الله}[البقرة:١٦٥] ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المعنى:" يحبونهم كحبكم أنتم لله"(٣)، أي: يحبون الأصنام كما يحب المؤمنون ربهم، فأضيف المصدر إلى المحبوب.

ومنه قول الشاعر(٤):

ولست مسلما ما دمت حيا ... على زيدكتسليم الأمير

أراد: كتسليمي على الأمير، وهذا قول الفراء (٥).

ويوافقه تفسير ابن عباس، فإنه قال: "يريد: كحب الذين آمنوا الله "(٦).

قال الواحدي: فكثير من العلماء(٧) على هذه الطريقة فلم يثبتوا للكفار حبا لله، وجعلوا حب الله للمؤمنين، وشبهوا حب الكفار للأصنام بحب المؤمنين لله"(٨).

واعترض الزجاج على هذا الوجه، فقال: "وهذا قول ليس بشيء، ودليل نقضه قوله: {والذين آمنوا أشد حبا لله}، والمعنى أن المخلصين الذين لا يشركون مع الله غيره هم المحبون حقا"(٩).

الثالث: أن معناه: يحبون الأصنام حبا لا يستحق مثل ذلك الحب إلا الله، ويحبونهم كما ينبغي لهم أن يحبوا الله، فالمعنى فيه: كالحب المستحق لله. قاله أبو روق(١٠).

الثالث: أن المعنى: يسوون بين هذه الأصنام وبين الله عز وجل في الحب، فيكون تقدير الآية: يحبونهم كحبهم الله، فيضاف الحب إلى الله عز وجل، والمشركون هم المحبون ، وعلى المشركين في تسويتهم بين الله عز وجل والأصنام في المحبة أعظم الحجج وأوكدها، إذ أحبوا وعبدوا ما لا ينفع ولا يضر، ولا يحيي ولا يميت. وقد بين الله -عز اسمه- ما يدل على هذا المعنى في قوله: {والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} [الزمر: ٣].

---

(١) تفسير المراغي: ٣٨/٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ١١٧/١.

(٣) معاني القرآن للزجاج: ٢٣٧/١، وقال القرطبي فيما معناه ونسبه إلى المبرد، انظر: تفسير القرطبي:

(٤)البيت لعلي بن خالد البردخت، كما في "رسائل الجاحظ" ٢/ ٢٦١، ينظر: "معاني القرآن" للفراء ١/ ١٠٠، "البيان والتبيين" ٤/ ٥١، "تفسير الطبري" ٢/ ٦٧ "تفسيرالثعلبي" ١/ ١٣١٤.

(٥) انظر: "معاني القرآن" للفراء ١/ ٩٧.

(٦)نسبه إليه ابن الجوزي في "زاد المسير" ١/ ١٧٠، وابن عطية في "المحرر الوجيز" ٢/ ٥٤.

(٧) انظر: الكشاف: ٢٠٩/١.

(٨) التفسير البسيط: ٤٦٩/٣.

(٩) معاني القرآن للزجاج: ٢٣٧/١، وقال القرطبي فيما معناه ونسبه إلى المبرد، انظر: تفسير القرطبي:

(١٠) انظر: التفسير البسيط: ٤٦٩/٣.

وهذا القول اختيار الزجاج[١]،وابن كيسان[٢]، واختاره الرازي[٣]، وعلى هذا فقد أثبت للمشركين حبا لله، شبه حبهم الأصنام بحبهم الله تعالى[٤].

وقد جاء الضمير في قوله{يُحِبُّونَهُمْ}جمعاً للعاقل دون أن يأتي بضمير المؤنث - مع أن الأكثر من هذه الأنداد أنها لا تعقل؛ وغير العاقل يكون ضميره مؤنثاً - باعتبار عقيدة عابديها؛ لأنهم يعتقدون أنها تنفع وتضر[٥].

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}[البقرة:١٦٥]، أي: "أن الذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء لأصنامهم"[٦].

قال البيضاوي:" لأنه لا تنقطع محبتهم لله تعالى، بخلاف محبة الأنداد فإنها لأغراض فاسدة موهومة تزول بأدنى سبب، ولذلك كانوا يعدلون عن آلهتهم إلى الله تعالى عند الشدائد، ويعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه إلى غيره"[٧].

قال الصابوني:" أي حب المؤمنين لله أشدُّ من حب المشركين للأنداد"[٨].

روي عن أبي العالية، في قوله: {والذين آمنوا أشد حبا لله}، قال:"من أهل الأوثان لأوثانهم"[٩]. وروي عن الربيع، ومجاهد، وقتادة ونحو ذلك[١٠].

وقال ابن عباس في قوله:{ أشد حبا لله}:أي" أثبت وأدوم، وذلك أن المشركين كانوا يعبدون صنما فإذا رأوا شيئا أحسن منه تركوا ذلك، وأقبلوا على عبادة الأحسن"[١١].

وقال عكرمة: "أشد حبا في الآخرة"[١٢].

وقال قتادة:" إن الكافر يعرض عن معبوده في وقت البلاء ويقبل على الله عز وجل لقوله: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [العنكبوت : ٦٥] "[١٣].

قال ابن عثيمين:"وإما أن المفضل عليه حب هؤلاء لله؛ فيكون المعنى: أن الذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء لله؛ وكلا الاحتمالين صحيح؛ أما الأول فلأن حب المؤمنين لله يكون في السراء، والضراء؛ وحب هؤلاء لأصنامهم في السراء فقط؛ وعند الضراء يلجؤون إلى الله عز وجل؛ فإذاً ليس حبهم الأصنام كحب المؤمنين لله عز وجل؛ ثم إن بعضهم يصرح، فيقول: «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»؛ وأما الاحتمال الثاني في الآية فوجه التفضيل ظاهر؛ لأن حب المؤمنين لله خالص لا يشوبه شيء؛ وحب هؤلاء لله مشترك: يحبون الله، ويجعلون معه الأصنام نداً"[١٤].

---

(١) انظر: معاني القرآن:١/ ٢٣٧.
(٢) انظر: تفسير الثعلبي: ٣٣/٢.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ١٧٥/٤.
(٤) انظر: التفسير البسيط: ٤٦٩/٣.
(٥) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٩٧/٢.
(٦) تفسير ابن عثيمين:٩٨/٢.
(٧) تفسير البيضاوي: ١١٧/١.
(٨) صفوة التفاسير:٩٩/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٨٤):ص٢٧٦/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٧٦/١.
(١١)ذكره الثعلبى في "تفسيره: ٣٣/٢، والسمعاني في "تفسيره: ٢/ ١٢١، والبغوي: ١/ ١٧٨ ولم ينسبه لابن عباس.
(١٢) ذكره الثعلبي في تفسيره: ٣٣/٢.
(١٣)ذكره الثعلبي في تفسيره: ٣٤/٢.
(١٤) تفسير ابن عثيمين:٩٨/٢.

فالمؤمنون "لا يختارون على الله ما سواه والمشركون إذا اتخذوا صنما ثم رأوا أحسن منه طرحوا الأول واختاروا الثاني قال قتادة : إن الكافر يعرض عن معبوده في وقت البلاء ويقبل على الله تعالى كما أخبر الله عز وجل عنهم فقال : {فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين}(٦٥ - العنكبوت) والمؤمن لا يعرض عن الله في السراء والضراء والشدة والرخاء[١].

وقرأ أبو رجاء العطاردي:{يَحبونهم} بفتح الياء. وكذلك ما كان منه في القرآن ، وهي لغة ، يقال : حببت الرجل فهو محبوب[٢].

قال الفراء : أنشدني أبو تراب [٣]:

أحب لحبها السودان حتى ... حببت لحبها سود الكلاب

قوله تعالى : {وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}[البقرة:١٦٥]، " أي لو رأى الظالمون حين يشاهدون العذاب المعدّ لهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده"[٤].

قال الحسن:" يقول الله لمحمد: ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب، إنك ستراهم إذ يرون العذاب وحينئذ يعلمون أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب"[٥].

قال الربيع:" يقول : لو عاينوا العذاب"[٦]، وروي عن أبي العالية[٧] مثل ذلك.

وقال قتادة:" العذاب، أي: عقوبة الآخرة"[٨].

قال ابن كثير:أي: "لو عاينوا العذاب لعلموا وأيقنوا حينئذ أن القوة لله جميعًا"[٩].

قال السعدي: أي "يوم القيامة حين يرون العذاب عيانا بأبصارهم، فيعمون بأن المختص بالقوة الكاملة من جميع الوجوه هو الله"[١٠].

قال الطبري:أي:" ولو ترى ، يا محمد ، الذين ظلموا أنفسهم ، فاتخذوا من دوني أندادًا يحبونهم كحبكم إياي ، حين يُعاينون عَذابي يومَ القيامة الذي أعددتُ لهم ، لعلمتم أن القوة كلها لي دُون الأنداد والآلهة ، وأنّ الأنداد والآلهة لا تغني عنهم هنالك شيئًا"[١١].

قال البيضاوي:أي:" ولو يعلم هؤلاء الذين ظلموا باتخاذ الأنداد، إذ عاينوا العذاب يوم القيامة، لعلموا أن القوة لله كلها، لا ينفع ولا يضر غيره. وأجرى المستقبل مجرى الماضي لتحققه كقوله تعالى: {وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ}"[١٢].

و(الظالمون): "أي الذين نقصوا الله حقه، حيث جعلوا له أنداداً؛ وهم أيضاً ظلموا أنفسهم - أي نقصوها حقها -؛ لأن النفس أمانة عندك يجب أن ترعاها حق رعايتها؛ ولهذا قال تعالى:

---

(١) انظر: الوسيط للواحدي : ١ / ٢٣٦.
(٢) انظر: تفسير الثعلبي: ٣٤/٢، وتفسير القرطبي: ٢٠٤/٢.
(٣) معاني القران للفراء: ١٣٥/١، والبيت من شواهد تفسير القرطبي: ٢٠٤/٢. ورد في عيون الأخبار ٤/ ٤٣ غير معزوّ.
(٤) صفوة التفاسير:٩٩/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٨٧) و(١٤٨٥):ص٢٧٧/١.
(٦) أخرجه الطبري(٢٤١٢):ص٢٨٦/٣.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٤٨٦):ص٢٧٧/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٨٨):ص٢٧٧/١.
(٩) تفسير ابن كثير: ٤٧٦/١.
(١٠) تفسير السعدي: ٧٩/١.[بتصرف بسيط].
(١١) تفسير الطبري:٢٨٦/٣.
(١٢) تفسير البيضاوي: ١١٧/١.[بتصرف بسيط].

{قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها} [الشمس: ٩، ١٠] ؛ فالنفس أمانة عندك؛ فإذا عصيت ربك فإنك ظالم لنفسك"(١).

وأصل:(الظلم) في كلام العرب:"وضعُ الشيء في غير موضعه ، ومنه قول نابغة بني ذبيان(٢):

إلا أُوَارِيَّ لأيًا مَا أُبَيِّنُهَا ... وَالنُّؤْيُ كَالحَوْضِ بِالمَظْلُومَةِ الجَلَدِ

فجعل الأرض مظلومة ، لأن الذي حفر فيها النؤى حَفر في غير موضع الحفر ، فجعلها مظلومة ، لموضع الحفرة منها في غير موضعها، ومن ذلك قول ابن قَميئة في صفة غيث(٣):

ظَلَمَ البِطَاحَ بِهَا انْهِلالُ حَرِيصَةٍ ... فَصَفَا النِّطَافُ لَهُ بُعَيْدَ المُقْلَعِ

وظلمه إياه : مجيئه في غير أوانه ، وانصبابه في غير مصبِّه. ومنه : ظَلم الرجلُ جَزوره ، وهو نحره إياه لغير علة. وذلك عند العرب وَضْع النحر في غير موضعه"(٤).

والمشرك: ظالم ، لأنه وضع العبادة التي هي حق لله تعالى وحده ، وضعها في المخلوق الضعيف الفقير ، أو وضعها لصنم أو حجر أو شجر ، ولأجل هذا البيان فإن القرآن يكثر الله فيه إطلاق الظلم على الشرك، كما قال تعالى عن العبد الصالح :{إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله:{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} قال :" بشرك"(٥)، ثم تلا قول لقمان:{إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، وقال تعالى:{وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ} [يونس : ١٠٦]، أي : "من المشركين بالله، الظالمي أنفسهم"(٦).

ولم يأت الظلم في القرآن إلا بهذا المعنى، إلا في موضع واحد في سورة الكهف ، بمعنى النقص ، كما قال تعالى {كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا} [الكهف : ٣٣]، أي و"لم تنقص"(٧).

وقيل : {أن}: "في موضع نصب مفعول من أجله، أي لأن القوة لله جميعا. وأنشد سيبويه(٨):

وأغفر عوراء الكريم ادخاره ... وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

---

(١) تفسير ابن عثيمين: ٩٨/٢.

(٢) ديوانه:٢٣، والجلد : الأرض الصلبة ، يعني أنها لا تنبت شيئًا فلا يرعاها أحد .

(٣)البيت له في تفسير الطبري: ٥٢٤/١، جاء أيضًا في تفسيره : ٢ / ٥٠ منسوبًا لعمرو بن قميئة . وصحة نسبته إلى الحادرة الذبياني ، وهو في ديوان الحادرة ، قصيدة : ٤ ، البيت رقم : ٧ ، وشرح المفضليات : ٥٤ . والبطاح جمع بطحاء وأبطح : وهو بطن الوادي . وأنهل المطر انهلالا : اشتد صوبه ووقعه . والحريصة والحارصة : السحابة التي تحرص مطرتها وجه الأرض ، أي تقشره من شدة وقعها . والنطاف جمع نطفة : وهي الماء القليل يبقى في الدلو وغيره . وقوله : " بعيد المقلع " : أي بعد أن أقلعت هذه السحابة . ورواية المفضليات : " ظلم البطاح له " وقوله : " له " : أي من أجله .

(٤) تفسير الطبري:٥٢٣/١-٥٢٤.

(٥) رواه البخاري: كتاب الأنبياء (٣٦٣٦): باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلا)، عن عبد الله رضي الله عنه قال: "لما نزلت {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} قلنا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال :ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم، بشرك. أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: {يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}".

(٦) تفسير الطبري: ٢١٩/١٥.

(٧) تفسير الطبري: ٣٥٧/١٠.

(٨)البيت لحاتم الطائي، الجواد المشهور. انظر: ديوانه: ٢٤، ونوادر أبي زيد: ١١، والخزانة: ٤٩١/١، وشرح ابن عقيل: ١٩٠/٢

أي: لادخاره ، والمعنى : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب لأن القوة لله لعلمت مبلغهم من النكال ولاستعظمت ما حل بهم. ودخلت "إذ" وهي لما مضى في إثبات هذه المستقبلات تقريبا للأمر وتصحيحا لوقوعه"[١].

وقد اختلفت القرأة في قراءة قوله تعالى: {ولو يرى الذين ظلموا إِذْ يَرَوْنَ العذاب}[البقرة:١٦٥]، على ثلاثة أوجه[٢]:

أحدها: {ولو يرى الذين ظلموا إِذْ يَرَوْنَ العذاب} بياء الغيبة في {يرى}، وبفتح الياء في {يَرَوْنَ}، على الإخبار عمن جرى ذكرهم كأنه قال: ولو يرى الذين ظلموا أنفسهم باتخاذ الأنداد.

الثاني: {ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب} بتاء الخطاب في {ترى}، خطابا للنبي عليه السلام، كأنه قال: لو ترى يا محمد الذين ظلموا.

وهي قراءة نافع وابن عامر ويعقوب.

الثالث: وبفتح الياء في {يَرون}؛ وبضمها: {يُرون}. وهي قراءة ابن عامر، على التعدية وحجته قوله تعالى: {كذالك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم} والباقون (يرون) بالفتح على إضافة الرؤية إليهم.

وقد رجح بعضهم القراءة الأولى، "لأن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين قد علموا قدر ما يشاهده الكفار، ويعاينون من العذاب يوم القيامة، أما المتوعدون في هذه الآية فهم الذين لم يعلموا ذلك، فوجب إسناد الفعل إليهم[٣].

وقرأ أبو جعفر ويعقوب {إن القوة وإن الله} بكسر الألف على الاستئناف والكلام تام عند قوله {إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ} مع إضمار الجواب"[٤]، وأما القراء السبع فعلى فتح الألف فيها[٥].

قوله تعالى: {وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ}[البقرة:١٦٥]،" أي وأنَّ عذاب الله شديد أليم"[٦].

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٠٥/٢.

(٢) انظر: السبعة في القراءات: ١٧٣-١٧٤، مفاتيح الغيب: ١٧٨/٤، وتفسير ابن عثيمين: ٢٢٣/٢-٢٢٤.

(٣) مفاتيح الغيب: ١٨٩/٤.

(٤) انظر: تفسير البغوي: ١٧٩/١.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب: ١٨٩/٤. قال الإمام الرازي: لما عرفت أن {يرى الذين ظلموا} قرىء تارة بالتاء المنقوطة من فوق وأخرى بالياء المنقوطة من تحت، وقوله: {أن القوة} قرىء تارة بفتح الهمزة من (أن) وأخرى بكسرها حصل ههنا أربع احتمالات:

الاحتمال الأول: أن يقرأ {ولو يرى} بالياء المنقوطة من تحت مع فتح الهمزة من (أن) والوجه فيه أنهم أعملوا يرون في القوة والتقدير: ولو يرون أن القوة لله: ومعناه، ولو يرى الذين ظلموا شدة عذاب الله وقوته لما اتخذوا من دونه أندادا فعلى هذا جواب (لو) محذوف وهو كثير في التنزيل كقوله: {ولو ترى * إذا * وقفوا على النار} (الأنعام: ٢٧)، {ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت} (الأنعام: ٩٣)، {ولو أن قرانا سيرت به الجبال} (الرعد: ٣١) ويقولون: لو رأيت فلانا والسياط تأخذ منه، قالوا: وهذا الحذف أفخم وأعظم لأن على هذا التقدير يذهب خاطر المخاطب إلى كل ضرب من الوعيد فيكون الخوف على هذا التقدير مما إذا كان عين له ذلك الوعيد.

الاحتمال الثاني: أن يقرأ بالياء المنقوطة من تحت مع كسر الهمزة من (إن) والتقدير ولو يرى الذين ظلموا عجزهم حال مشاهدتهم عذاب الله لقالوا: إن القوة لله.

الاحتمال الثالث: أن تقرأ بالتاء المنقوطة من فوق، مع فتح الهمزة من (أن) وهي قراءة نافع وابن عامر قال الفراء: الوجه فيه تكرير الرؤية والتقدير فيه ولو ترى الذين ظلموا إذا يرون العذاب ترى أن القوة لله جميعا.

الاحتمال الرابع: أن يقرأ بالتاء المنقوطة من فوق، مع كسر الهمزة، وتقديره: ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب لقلت أن القوة لله جميعا، وهذا أيضا تأويل ظاهر جيد.(مفاتيح الغيب: ١٨٩/٤-١٩٠)

(٦) صفوة التفاسير: ٩٩/١.

قال ابن عثيمين: "أي: قوي العقوبة"(١).
قال أبو حيان:" وتأخر وصفه تعالى بأنه شديد العذاب عن ذلك ، لأن شدة العذاب هي من آثار القوة"(٢).
قال الآلوسي:" وفائدة هذه الجملة، المبالغة في تهويل الخطب وتفظيع الأمر، فإن اختصاص {الْقُوَّةَ} به تعالى لا يوجب شدة «العذاب» لجواز تركه عفوا مع القدرة عليه"(٣).
الفوائد:
١ - من فوائد الآية: أن بعض الناس يجعل لله نداً في المحبة يحبه كحب الله؛ لقوله تعالى: {يحبونهم كحب الله}.
٢ - ومنها: أن محبة الله من العبادة؛ لأن الله جعل من سوّى غيره فيها مشركاً متخذاً لله نداً؛ فالمحبة من العبادة؛ بل هي أساس العبادة؛ لأن أساس العبادة مبني على الحب، والتعظيم؛ فبالحب يفعل المأمور؛ وبالتعظيم يجتنب المحظور؛ هذا إذا اجتمعا؛ وإن انفرد أحدهما استلزم الآخر.
٣ - ومنها: أن من جعل لله نداً في المحبة فهو ظالم؛ لقوله تعالى: {ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب}.
٤ - ومنها: إثبات الجزاء؛ لقوله تعالى: {إذ يرون العذاب}.
٥ - ومنها: إثبات القوة لله؛ لقوله تعالى: {أن القوة لله جميعاً}؛ فإن قيل: كيف يتفق قوله تعالى: {جميعاً} مع أن للمخلوق قوة؟
فالجواب: أن قوة المخلوق ليست بشيء عند قوة الخالق؛ وهذا كقوله تعالى: {فإن العزة لله جميعاً} [النساء: ١٣٩ مع أن الله أثبت للمخلوق عزة؛ وهكذا نقول في بقية الصفات التي يشترك فيها الخالق والمخلوق في أصل الصفة.
٦ - ومنها: أن المؤمن محب لله عز وجل أكثر من محبة هؤلاء لأصنامهم؛ لقوله تعالى: {والذين آمنوا أشد حباً}.
٧ - ومنها: أنه كلما ازداد إيمان العبد ازدادت محبته لله؛ وجه ذلك أن الله سبحانه وتعالى رتب شدة المحبة على الإيمان؛ وقد عُلم أن الحكم إذا عُلّق على وصف فإنه يقوى بقوة ذلك الوصف، وينقص بنقصه؛ فكلما ازداد الإنسان إيماناً بالله عز وجل ازداد حباً له.
٨ - ومنها: شدة عذاب الله عز وجل لهؤلاء الظالمين؛ لقوله تعالى: {وأن الله شديد العذاب}؛ فإن قيل: كيف يكون الله عز وجل شديد العذاب مع أنه أرحم من الوالدة بولدها؟
فالجواب: أن هذا من كمال عزه، وسلطانه، وعدله، وحكمته؛ لأنه أنذر مستحق العذاب، وأعذر منهم بإرسال الرسل؛ فلم يبق لهم حجة توجب تخفيف العذاب عنهم؛ فلو رحم هؤلاء الكافرين به لكان لا فرق بينهم والمؤمنين به.
وشدة عذاب الله لهؤلاء مذكور في القرآن، والسنة: قال الله تعالى: {وإن يستغيثوا} [الكهف: ٢٩] أي أهل النار {يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه} [الكهف: ٢٩] ؛ فما بالك لو وصلت إلى الأمعاء؟!!؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: {وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم} [محمد: ١٥] ؛ ومع ذلك تتقطع، وتلتئم بسرعة كما قال تعالى في جلودهم: {كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها} [النساء: ٥٦] ؛ و {كلما} تفيد التكرار؛ وجوابها يفيد الفورية؛ والحكمة: {ليذوقوا العذاب}

---

(١) تفسير ابن عثيمين:٢٢٥/٢.
(٢) البحر المحيط: ٤٧٢/١.
(٣) معاني القرآن: ٤٣٣/١.

[النساء: ٥٦] ؛ وقال تعالى: {إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم} [الدخان: ٤٣ - ٤٨] ؛ ويقال له أيضاً: تبكيتاً، وتوبيخاً، وتنديماً، وتلويماً، {ذق}؛ ويذكّر أيضاً بحاله في الدنيا فيقال له: {إنك أنت العزيز الكريم}؛ فحينئذ يتقطع ألماً، وحسرة؛ ولا شك أن المؤمنين يسرون بعذاب أعداء الله؛ فعذابهم رحمة للمؤمنين، كما قال تعالى: {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون}.

القرآن

{إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)} [البقرة : ١٦٦]

التفسير:

عند معاينتهم عذاب الآخرة يتبرأ الرؤساء المتبوعون ممن اتبعهم على الشرك، وتنقطع بينهم كل الصلات التي ارتبطوا بها في الدنيا: من القرابة، والاتّباع، والدين، وغير ذلك.

قوله تعالى:{إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا}[البقرة:١٦٦]، أي إذ" تبرأ الرؤساء من الأتباع"[١].

قال أبو العالية:" تبرأت القادة من الأتباع يوم القيامة إذا رأت العذاب"[٢]. وروي عن الربيع[٣]، وعطاء[٤]، وقتادة[٥]، نحو ذلك.

قال البيضاوي:" أي إذ تبرأ المتبوعون من الأتباع"[٦].

قال الزجاج:" يعني به: السادة والأشراف من الأتباع والسفلة"[٧].

قال القرطبي:أي: "السادة والرؤساء تبرؤوا ممن اتبعهم على الكفر"[٨].

قال ابن عطية:" وتبريرهم هو بأن قالوا إنّا لم نضل هؤلاء بل كفروا بإرادتهم، وتعلق العقاب على المتبعين بكفرهم ولم يتأت ما حاولوه من تعليق ذنوبهم على المضلين"[٩].

وقد اختلف أهل التأويل في الذين عَنى الله تعالى ذكره بقوله : {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ}، على أقوال[١٠]:

أحدها: أن المعنى:"تبرأت القادةُ من الأتباع يوم القيامة". قاله الربيع [١١]، وعطاء[١٢]، وقتادة[١٣]، وأبو العالية[١].

---

(١) صفوة التفاسير:٩٩/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٨٩):ص٢٧٧/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٤١٤):ص ٢٨٧/٣.
(٤)انظر: تفسير الطبري(٢٤١٥):ص ٢٨٧/٣.
(٥)انظر: تفسير الطبري(٢٤١٣):ص ٢٨٧/٣.
(٦) تفسير البيضاوي: ١١٨/١.
(٧) معاني القرآن: ٢٣٩/١.[بتصرف بسيط].
(٨) تفسير القرطبي: ٢٠٦/٢.
(٩) المحرر الوجيز: ٢٣٦/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٢٨٧/٣- ٢٨٨.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٤١٤):ص ٢٨٧/٣.
(١٢)انظر: تفسير الطبري(٢٤١٥):ص ٢٨٧/٣.
(١٣)انظر: تفسير الطبري(٢٤١٣):ص ٢٨٧/٣.

قال الثعلبي:" المتبوعون هم الجبابرة والقادة في الشرك والشر، والتابعون هم الأتباع والضعفاء والسفلة قاله أكثر أهل التفسير"[٢].

الثاني: أنهم الشياطين تبرأوا من الإنس. قال السدي"[٣].

الثالث: وقيل: هم الملائكة تبرأوا من الإنس. قاله ابن كثير[٤].

الرابع: أن "لفظ الآية يعم هذا كله". قاله ابن عطية[٥].

والراجح أن الله قد عمّ المشركين جميعا دون تخصيص بعضهم دون بعض، عليه فإن كل متبوع على الكفر يتبرأ من أتباعه حين يرون عذاب الله. -والله تعالى أعلم-.

وفي قوله تعالى:{إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا}[البقرة:١٦٦]، قراءتان[٦]:

إحداهما: قرأ مجاهد: بتقديم الفاعل على المفعول.

والثانية: وقرأ الباقون: بالعكس، " أي: تبرأ الأتباع من الرؤساء "[٧].

قوله تعالى:{وَرَأَوُا الْعَذَابَ}[البقرة:١٦٦]، " أي: حين عاينوا العذاب"[٨].

قال الزمخشري:" أى تبرؤا في حال رؤيتهم العذاب"[٩].

قال الزجاج:" يعنى به التابعون والمتبوعون"[١٠].

وفي قوله تعالى:{وَرَأَوُا الْعَذَابَ}[البقرة:١٦٦]، وجهان من التفسير[١١]:

أحدهما: يعني: أن التابعين والمتبوعين، بتيقنهم له عند المعاينة في الدنيا.

الثاني: وقيل : عند العرض والمساءلة في الآخرة.

قال القرطبي: "كلاهما حاصل ، فهم يعاينون عند الموت ما يصيرون إليه من الهوان ، وفي الآخرة يذوقون أليم العذاب والنكال"[١٢].

قوله تعالى{وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ}، " وتقطعت بينهم الروابط وزالت المودّات"[١٣].

قال ابن عثيمين:" أي تقطعت بهم المودة"[١٤].

قال القرطبي:أي: " أي الوصلات التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا من رحم وغيره"[١٥].

قال النسفي: مثل "الاتفاق على دين واحد ومن الأنساب والمحاب"[١٦].

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٤٨٩):ص٢٧٧/١.
(٢) تفسير الثعلبي:٣٦/٢.
(٣)انظر: تفسير الطبري(٢٤١٦):ص ٢٨٧/٣-٢٨٨، وابن أبي حاتم(١٤٩١):ص٢٧٨/١.
(٤) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٧٧/١.
(٥) انظر: المحرر الوجيز: ٢٣٦/١.
(٦) انظر: تفسير الثعلبي:٣٦/٢، وتفسير البيضاوي: ١١٨/١.
(٧) تفسير البيضاوي: ١١٨/١.
(٨) صفوة التفاسير:٩٩/١.
(٩) الكشاف: ٢١٢/١.
(١٠) معاني القرآن: ٢٣٩/١.
(١١) انظر: تفسير القرطبي: ٢٠٦/٢.
(١٢) تفسير القرطبي: ٢٠٦/٢.
(١٣) صفوة التفاسير:٩٩/١.
(١٤) تفسير ابن عثيمين:٢٢٩/٢.
(١٥) تفسير القرطبي: ٢٠٦/٢.
(١٦) تفسير النسفي: ٩٩/١.

قال الزجاج:" أي انقطع وصلهم الذى كان جمعهم، كما قال: {لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون}،فبينهم وصلهم، والذي تقطع بينهم في الآخر كان وصل بينهم في الدنيا"[١].

و{الأَسْبَابُ} جمع سبب؛ وهو ما يتوصل به إلى غيره؛ "وأصل السبب الحبل يشد بالشيء فيجذبه، ثم جعل كل ما جر شيئا سببا"[٢].

قال شمر: "قال أبو عبيدة: السبب: كل حبل حدرته (٦) من فوق"[٣].

وقال خالد بن جنبة: "السبب من الحبال: القوي الطويل، قال: ولا يدعى الحبل سببا حتى يصعد به وينزل، ومن هذا قوله تعالى: {فليمدد بسبب إلى السماء} [الحج: ١٥] "[٤].

قال ابن عطية:" والسبب في اللغة: الحبل الرابط الموصل، فيقال في كل ما يتمسك به فيصل بين شيئين"[٥].

قال الثعلبي:" وأصل (السبب): كل شيء يتوصل به إلى شيء من ذريعة أو قرابة أو مودة، ومنه قيل للجهاد: سبب وللطريق سبب وللسلم سبب"[٦].

قال الواحدي:" فالسبب: الحبل في هذا الموضع، ثم قيل لكل شيء وصلت به إلى موضع أو حاجة تريدها: سبب، يقال: ما بيني وبينك سبب، أي: آصرة رحم، أو عاطفة مودة. وقيل للطريق: سبب؛ لأنك بسلوكه تصل إلى الموضع الذي تريده، قال الله تعالى: {فأتبع سببا} [الكهف: ٨٥]، أي: طريقا، و (أسباب السماء): أبوابها؛ لأن الوصول إلى السماء يكون بدخولها، قال الله تعالى خبرا عن فرعون: {لعلي أبلغ الأسباب (٣٦) أسباب السماوات} [غافر:٣٦ - ٣٧]، ومنه قول زهير[٧]:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ المَنَايَا يَنَلْنَهُ ... وَإِنْ يَرْقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

كما أن المودة بين القوم تسمى: سببا؛ لأنهم بها يتواصلون، ومنه قول لبيد[٨]:

بل ما تذكر من نوار وقد نأت ... وتقطعت أسبابها ورمامها

والتي في هذه الآية يعني بها: وصلهم التي كانت تجمعهم"[٩].

والمراد بـ(الأسباب) في الآية، "كل سبب يؤملون به الانتفاع من هؤلاء المتبوعين، مثل قولهم: {اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم} [العنكبوت: ١٢] ، وقول فرعون لقومه: {ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد} [غافر: ٢٩] ؛ فهذه الأسباب التي سلكها المتبعون ظناً منهم أنها تنقذهم من العذاب إذا كان يوم القيامة تقطعت بهم؛ ولا يجدون سبيلاً إلى الوصول إلى غاياتهم"[١٠].

---

(١) معاني القرآن: ٢٣٩/١.
(٢) تفسير القرطبي: ٢٠٦/٢.
(٣) التفسير البسيط: ٤٧٨/٣.
(٤) التفسير البسيط: ٤٧٨/٣.
(٥) المحرر الوجيز: ٢٣٦/١.
(٦) تفسير الثعلبي:٣٦/٢.
(٧) ديوانه: ٣٠، وشرح المعلقات السبع: ٨٣، وانظر: "تفسير الثعلبي" ٢/ ٣٦، وتفسير السمعاني: ٢/ ١٢٣، ومفاتيح الغيب: ٤/ ٢٣٤، ولسان العرب: ٤/ ١٩١٠ (سب).
(٨)ديوانه" ص ٣٠١، "لسان العرب" ٤/ ١٩١٠ (سب).
(٩) التفسير البسيط: ٤٧٩/٣.[بتصرف بسيط].
(١٠) تفسير ابن عثيمين: ٢٢٩/٢.

وقد اختلف أهل الفسير في معنى {الأَسْبَابُ}[البقرة:١٦٦]، على وجوه[١]:
أحدها: أن معناه: "الوصال الذي كان بينهم في الدنيا". قاله مجاهد [٢]، روي عن ابن عباس[٣]، وقتادة[٤]، والربيع[٥]، نحو ذلك.
الثاني:أن معنى {الأَسْبَابُ}، "المنازل التي كانت لهم من أهل الدنيا". قاله ابن عباس[٦]، والربيع بن أنس[٧].
الثالث: أن{الأَسْبَابُ}: الأرحام. قاله ابن عباس[٨].
الرابع: أن {الأَسْبَابُ}: "الأعمال التي كانوا يعملونها في الدنيا". قاله السدي[٩]، وابن زيد[١٠].
الخامس: العهود التي كانت بينهم في الدنيا. قاله أبو روق[١١].

وجميع المعاني السابقة تجمعها كلمة (الأسباب)، لأن كل هذه المعاني أسباب يتسبب في الدنيا بها إلى مطالب، فقطع الله منافعها في الآخرة عن الكافرين به ، لأنها كانت بخلاف طاعته ورضاه ، فهي منقطعة بأهلها. فلا خِلالُ بعضهم بعضًا نَفعهم عند ورُودهم على ربهم، ولا عبادتُهم أندادهم ولا طاعتهم شياطينهم ؛ ولا دافعت عنهم أرحامٌ فنصرتهم من انتقام الله منهم ، ولا أغنت عنهم أعمالهم ، بل صارت عليهم حسرات. فكل أسباب الكفار منقطعة[١٢].

واختلف في (الباء) في قوله:{وتقطعت بهم}[البقرة:١٦٦]، على وجوه[١٣]:
أحدها: أنها بمعنى: (عن) ، كقوله: {فاسأل به خبيرا} [الفرقان: ٥٩]، أي: عنه، قال علقمة بن عبدة[١٤]:
فإن تسألوني بالنساء فإنني ... بصير بأدواء النساء طبيب
أي: عن النساء.
وقال يزيد بن جهم[١٥]:
تسائل بي هوازن أين مالي ... وهل لي غير ما أتلفت مال
أي: عني[١٦].
الثاني: أنها للسببية، والتقدير: وتقطعت بسبب كفرهم[١٧].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٨٩/٣-٢٩١.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٤١٧)، و(٢٤١٨)، و(٢٤١٩)، و(٢٤٢٠)، و(٢٤٢١)، و(٢٤٢٢):ص ٢٨٩/٣-٢٩٠.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٤٢٣):ص ٢٩٠/٣، وابن أبي حاتم(١٤٩٢):ص٢٧٨/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٤٢٤)، و(٢٤٢٥):ص ٢٩٠/٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٤٢٦):ص ٢٩٠/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٤٢٧):ص ٢٩١/٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٤٢٨):ص ٢٩١/٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٤٢٩):ص ٢٩١/٣.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٤٣٠):ص ٢٩١/٣.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٤٣١):ص ٢٩١/٣.
(١١) انظر: تفسير الثعلبي:٣٦/٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٩٢/٣-٢٩٣.
(١٣) انظر: التفسير البسيط: ٤٧٨/٣، والبحر المحيط" ١/ ٤٧٣، "التفسير الكبير" ٤/ ٢١١، والتبيان:١٠٧/١.
(١٤) ديوانه:٣٥.
(١٥) ديوان الحماسة: ٤٧٨/٣.
(١٦) انظر: التفسير البسيط: ٤٧٨/٣.
(١٧) انظر: التبيان: ١٠٧/١.

الثالث: وقيل: إنها للحال، أي تقطعت موصولة بهم الأسباب(١).
الرابع: وقيل: الباء للتعدية، والتقدير: قطعتهم الأسباب، كما تقول: تفرقت بهم الطرق، أي فرقتهم(٢).
وقرئ: {وتقَطَّعَتْ}، على البناء للمفعول(٣).

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: أن المتبوعين بالباطل لا ينفعون أتباعهم؛ لقوله تعالى: {إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا}؛ ولو كانوا ينفعونهم لم يتبرؤوا منهم.

٢ - ومنها: أن الأمر لا يقتصر على عدم النفع؛ بل يتعداه إلى البراءة منهم، والتباعد عنهم؛ وهذا يكون أشد حسرة على الأتباع مما لو كان موقفهم سلبياً.

٣ - ومنها: ثبوت العقاب؛ لقوله تعالى: {ورأوا العذاب}.
ويتفرع عليه ثبوت البعث.

٤ - ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يجمع يوم القيامة بين الأتباع والمتبوعين توبيخاً، وتنديماً لهم؛ ويتبرأ بعضهم من بعض؛ لأن هذا - لا شك - أعظم حسرة إذا صار متبوعه الذي كان يعظمه في الدنيا يتبرأ منه وجهاً لوجه.

٥ - ومنها: أن جميع الأسباب الباطلة التي لا تُرضي الله ورسوله، تتقطع بأصحابها يوم القيامة، وتزول، ولا تنفعهم.

٦ - ومنها: أن الإستغاثة(٤) لا تكون إلا بالله، وأما الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه، جائزة، والاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ كالاستعانة بالأموات، والاستغاثة بالأحياء، والاستعانة بهم في شفاء المرضى، وتفريج الكربات، ودفع الضر، فهذا النوع حرامٌ.

نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

انتهى الجزء الرابع من التفسير بفضل من الله وإحسان، ويليه الجزء الخامس بإذن الله تعالى وبدايته تفسير الآية (١٦٧) من سورة «البقرة».

---

(١) انظر: التبيان: ١٠٧/١.
(٢) انظر: التبيان: ١٠٧/١.
(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ١١٨/١.
(٤)الاستغاثة :طلب الغَوْث، وهو التخليص من الشِّدة والنِّقمة، والعون على الفَكاك من الشدائد، ولم يتعدَّ في القرآن إلا بنفسِه؛ كقوله تعالى :{ إذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ} [الأنفال: ٩]، تستجيرون به مِن عدوِّكم، وتطلبون منه الغَوْث والنصرَ.